



جَامِعَةُ الْعِلْمِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ

المِشْكَاة

لِلْعِلْمِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ

مَجَلَّةٌ عِلْمِيَّةٌ عَالَمِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ

المجلد السابع، العدد (٢) محرم ١٤٤٢هـ / آب ٢٠٢٠م

ISSN 2311-0538



جَامِعَةُ الْعِلْمِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ

المِشْكَاة

لِلْعِلْمِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ

مَجَلَّةٌ عِلْمِيَّةٌ عَالَمِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ



The World Islamic Sciences and
Education University (W.I.S.E)

Al- Mishkat

For Humanities & Social Studies

An International Research and Refereed
Journal

Volume (7), Number (2), Muharam1442, August 2020

ISSN 2311-0538



جامعة القادسية الشامية العالمية

المشكاة

للعالم الإنساني والاجتماعية
مجلة علمية عالمية محكمة

المجلد السابع، العدد (٢) محرم ١٤٤٢ هـ / آب ٢٠٢٠ م

ISSN 2311-0538



جامعة غزة العالمية

المشكاة

لِلْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ
مَجَلَّةٌ عِلْمِيَّةٌ عَالَمِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ

تصدر عن عمادة البحث العلمي في جامعة العلوم الإسلامية العالمية
عمان/ المملكة الأردنية الهاشمية

المجلد السابع، العدد (٢) معزم ١٤٤٢هـ / آب ٢٠٢٠م

ما ورد في هذه المجلة يعبر عن آراء الباحثين ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير
أو جامعة العلوم الإسلامية العالمية أو سياسة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



تُوجّه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:

رئيس هيئة تحرير مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

عمادة البحث العلمي - جامعة العلوم الإسلامية العالمية

المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف (+٩٦٢ ٦ ٥٦٠٠٢٣٠)

البريد الإلكتروني: al_mishkat.journal@wise.edu.jo

موقع الجامعة الإلكتروني: www.wise.edu.jo

المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة علمية عالمية محكمة
المجلد السابع، العدد (٢) محرم ١٤٤٢هـ / آب ٢٠٢٠م

رئيس هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور خلود ضيف الله أغا

هيئة تحرير المجلة

الأستاذ الدكتور عبد الملك السعدي جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور محمد خلف بني سلامة جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور غسان سالم الطالب جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور عماد يوسف الشيخ جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور شاكر الخشالي جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور أحمد حسن العياصرة جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور محمود مبارك عبيدات جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور علي خالد قطيشات جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الدكتور هارون نوح معاينة جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الدكتور مبارك محمد الطراونة جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الهيئة الاستشارية

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي جامعة مؤتة
الأستاذ الدكتور محمد السعوي رئيس مجمع اللغة العربية
الأستاذ الدكتور ناصر النعيمي جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور علي الحمد جامعة اليرموك
الأستاذ الدكتور محمد القضاة الجامعة الأردنية
الأستاذ الدكتور محمد نايف العميرة جامعة مؤتة
الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حجازي جامعة اليرموك
الأستاذ الدكتور أحمد الكيلاني جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور عبد الرحيم أبو سويلم جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأستاذ الدكتور إبراهيم الزعبي جامعة آل البيت
الأستاذ الدكتور صالح الشرفات جامعة آل البيت

المحرر اللغوي / اللغة العربية: أ.د. ناصر النعيمي

المحرر اللغوي / اللغة الإنجليزية: د. غالب فريجات

أمين سر مجلة المشكاة وإخراج العدد: شيماء عبد الكريم خصاونه

فَالْعِلْمُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ



مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة علمية عالمية محكمة

قواعد النشر:

- يُشترط فيما يقدم للمجلة أن يكون أصيلاً وليس مقدماً لمجلة أو أية جهة ناشرة أو أكاديمية. ويتعهد الباحث بذلك خطياً عند تقديم البحث للنشر.
- إذا كان البحث مدعوماً من جهة ما، فعلى الباحث بيان ذلك وتقديم وثيقة محررة من الجهة الداعمة موجهة إلى رئيس تحرير المجلة تفيد عدم مانعتها لنشر البحث.
- يمكن أن يكون البحث مُستل من رسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراة مع إعلام المجلة بذلك .
- لا يجوز نشر البحث في أي مجلة أخرى.
- يصبح البحث بعد قبوله حقاً محفوظاً للمجلة ولا يجوز النقل منه إلا بإشارة إلى المجلة.
- يتولى تقييم البحث محكمان ويمكن أن يرسل إلى ثالث حسب تقدير هيئة التحرير.
- تحتفظ هيئة التحرير بحقوقها في عدم نشر أي بحث وتُعدُّ قراراتها نهائية.
- البحوث التي لا تُقبل لا ترد لأصحابها.

- يترتب على الباحث، في حالة سحبه لبحثه او ابداء رغبته في عدم متابعة إجراءات التحكيم، دفع النفقات المالية التي تحملتها الجامعة.

- يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي يقترحها المحكمون خلال شهر من تاريخ تسلمه القرار.

- يخضع ترتيب البحوث في المجلة لمعايير فنية تراها هيئة التحرير.

- تقدم المجلة للباحث نسخة من عدد المجلة المنشور ببحثه فيه مع عشرين مستلة من البحث.

- البحوث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو الجامعة.

تعليقات النشر:

- أن يكتب ملخص للبحث باللغة العربية وآخر بالإنجليزية بما لا يزيد على (١٥٠) كلمة لكل منهما، وعلى ورقتين منفصلتين، بحيث يكتب في أعلى الصفحة عنوان البحث، واسم الباحث (الباحثين) من ثلاثة مقاطع مع العنوان (البريدي والإلكتروني) والرتبة العلمية، وتكتب الكلمات الدالة (Keywords) في أسفل صفحة الملخص بما لا يزيد على خمس كلمات، بحيث تعبر عن المحتوى الدقيق للبحث.

- يُشار إلى المصادر والمراجع في متن المخطوط بأرقام متسلسلة توضع بين قوسين إلى الأعلى هكذا: ^(١)، ^(٢)، ويكون ثبتها في أسفل صفحات البحث، وتكون أرقام التوثيق متسلسلة موضوعة بين قوسين في أسفل كل صفحة، فإذا كانت أرقام التوثيق في الصفحة الأولى مثلاً قد انتهت عند الرقم (٦) فإن الصفحة التالية ستبدأ بالرقم (١)، ولا يُعاد إيراد المصادر والمراجع عند نهاية البحث، ويكون ذكرها للمرة الأولى على النحو الآتي:

الكتب المطبوعة:

اسم شهرة الكاتب متبوعاً باسمه الأول والثاني وملحقاً به تاريخ وفاته بالتاريخ الهجري والميلادي، واسم الكتاب مكتوباً بالبنط الغامق، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة، والناشر، ومكان النشر، وسنته، ورقم المجلد - إن تعددت المجلدات - والصفحة. مثال:

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م): الحيوان. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط ٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م، ج ٣، ص ٤٠. ويُشار إلى المصدر عند وروده مرة ثانية على النحو الآتي: الجاحظ، الحيوان، ج، ص.

الكتب المخطوطة:

اسم شهرة الكاتب متبوعاً باسمه الأول والثاني وملحقاً به تاريخ وفاته بالتاريخ الهجري والميلادي، واسم المخطوط مكتوباً بالبنط الغامق، ومكان المخطوط، ورقمه، ورقم اللوحة أو الصفحة. مثال:

الكناني، شافع بن علي (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م): الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور. مخطوط مكتبة البودليان بأكسفورد، مجموعة مارش رقم (٤٢٤)، ورقة ٥٠.

الدوريات:

اسم كاتب المقالة، عنوان المقالة موضوعاً بين علامتي تنصيص " "، واسم الدورية مكتوباً بالبنط الغامق، رقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة، مثال: جرار، صلاح: "عناية السيوطي بالتراث الأندلسي - مدخل"، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص ١٧٩-٢١٦.

وقائع المؤتمرات وكتب التكريم والكتب التذكارية:

- ذكر اسم الكاتب، واسم المقالة موضوعاً بين علامتي تنصيص " "، واسم الكتاب كاملاً بالبنط الغامق، واسم المحرّر أو المحرّرين إن كانوا غير واحد، ورقم الطبعة، واسم المطبعة والجهة الناشرة، ومكان النشر، وتاريخه، ورقم الصفحة. مثال: الحيارى، مصطفى: "توطين القبائل العربية في بلاد جند قنسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، في محراب المعرفة: دراسات مهداة إلى إحسان عباس، تحرير: إبراهيم السعافين، ط ١، دار صادر ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٤١٧.

- تُكتب الأعلام الأجنبية حين ورودها في البحوث باللغة العربية وتكتب بعدها مباشرة بالإنجليزية محصورة بين قوسين ().

- يُراعى النظام المتبع في دائرة المعارف الإسلامية عند كتابة الأسماء والمصطلحات العربية بالحروف اللاتينية.

- تُرسم الآيات القرآنية بالرسم العثماني بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ مع الإشارة إلى السورة ورقم الآية، وتثبت الأحاديث النبوية بين قوسين مزدوجين « » بعد تخريجها من مظانها.

- تكون المراسلات على النحو الآتي:

رئيس هيئة تحرير مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

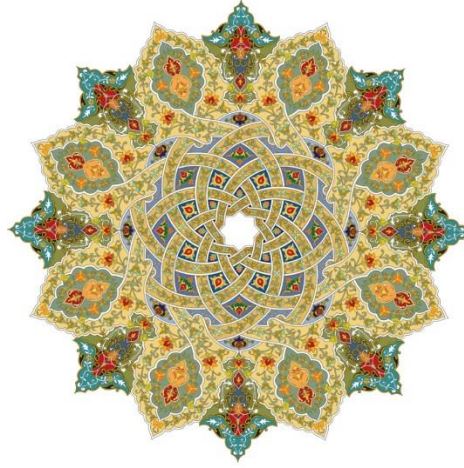
عمادة البحث العلمي / جامعة العلوم الإسلامية العالمية

المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف (٩٦٢ ٦ ٥٦٠٠٢٣٠+)

البريد الإلكتروني: al_mishkat.journal@wise.edu.jo

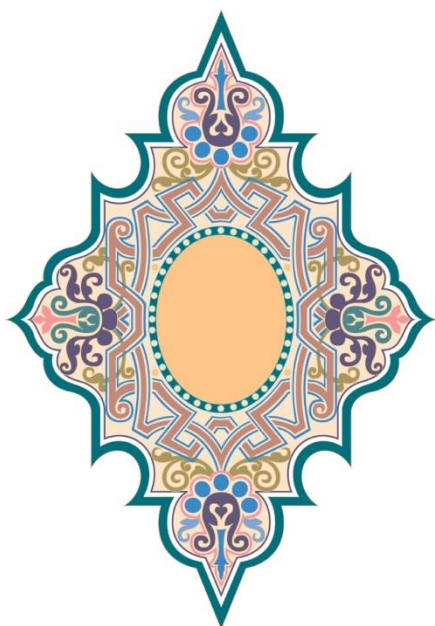
موقع الجامعة الإلكتروني: www.wise.edu.jo



محتويات العدد (باللغة العربية)

الصفحات	عنوان البحث	الباحث/ الباحثون
٤٤-١٣	دور بريطانيا في توطين اليهود في مدينة القدس ١٨٣٨-١٩١٧م	د. صالح علي الشورة
٦٥-٤٥	تعالق اللغة والصوت والدلالة في ديوان (مطر سري) لزهير أبو شايب	د. هناء علي البواب
١٠١-٦٦	تلقي المناهج النقدية في رؤية النقاد العرب المعاصرين	د. علي قاسم الخرابشة
١٢٤-١٠٢	مصادر التناس وأشكاله في شعر أحمد مشاري العدوان	مبارك عادل العازمي
١٥٢-١٢٥	إصلاحات محمد علي الاقتصادية في مصر ١٨٠٥-١٨٤٨م	د. أسماء جاد الله خصاونه
١٩٢-١٥٤	المعايير النقدية والبلاغية في ضوء أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)	د. يوسف عواد القماز
٢٢٩-١٩٤	صورة الإرهاب في النص المسرحي العربي	د. يحيى سليم عيسى و د. عبد الرؤوف بني عيسى ود. محمد بكر العباس
٢٦٢-٢٣٠	الأسرة الغزاوية في جبل عجلون وعلاقتها مع القوى المجاورة في سوريا وفلسطين	د. زهير عبد اللطيف و محمود سعيد أشقر

	ولبنان ١٠٣٣-٧٨٤/١٣٨٢-١٦٣٤م	
٢٩١-٢٦٤	فاعلية برنامج إرشادي معرفي سلوكي للأمهات في خفض أعراض سلوك العناد عند أطفالهن التوحيدين في محافظة الزرقاء	د. فيصل خليف الشرعة
٣٣٧-٢٩٢	الحياة الفكرية في المدينة المنورة من خلال الرحلة العياشية لأبي سالم العياشي ١٠٧١-١٠٧٣هـ/١٦٦١-١٦٦٣م	د. بنان محمد صلاح الدين
٣٥٨-٣٣٨	فاعلية صورة أردنية من مقياس وكسل لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة على البيئة الأردنية للفئة العمرية (٤ - ٦,٥) سنوات	أ.د. فاروق فارح الروسان و.د. غدير عبد الحليم المصطفى
٣٧٧-٣٥٩	اتجاهات طلبية التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة في الأردن	د. إحسان غديفان السريع
٤١٢-٣٧٨	سقوط المدن في الشعر الأندلسي قصيدة رثاء الأندلس للشاعر المجهول أنموذجا تحليليا	د. رغدة علي الزبون
٤٥٢-٤١٣	معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق أهداف البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم	د. خالد محمد أبو لوم و.د. يحيى سليم عيسى
٤٧٤-٤٥٤	المعادل الموضوعي في عينية أبي ذؤيب الهذلي	د. علي محمود الطوالب و.د. أحمد هلال بني عيسى
٤٩٧-٤٧٥	المثل العربي (دراسة لغوية تحليلية)	أ.د. عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي



دور بريطانيا في توطين اليهود في مدينة القدس ١٨٣٨-١٩١٧م

د. صالح علي الشورة*

تاريخ قبول البحث: ٢٥/٧/٢٠١٨م

تاريخ وصول البحث: ٢٤/٥/٢٠١٨م

ملخص

ترصد هذه الورقة الدور الإنجليزي المبكر في توطين اليهود في القدس وهي تبحث في الدور الرسمي البريطاني وغير الرسمي حيث يعود الاهتمام الرسمي باليهود في القدس من قبل بريطانيا إلى سنة ١٨٣٨م وهي السنة التي أقامت بريطانيا قنصلية لها في القدس والتي كانت تتبنى سياسات متنوعة لفرض كثافة عددية يهودية في المدينة المقدسة. كما ستؤرخ الورقة للدور البريطاني غير الرسمي والذي برز من خلال رجال المال والصناعة والمؤسسات غير الرسمية البريطانية المختلفة ويمكن أن تكون جمعية القدس الأدبية التي تأسست سنة ١٨٤٩م برئاسة القنصل البريطاني في القدس المستر "فن Finn" هي السباقة في هذا المجال. لقد تسّرت اليهود وراء غايات دينية لكسب العطف، والتأييد من جماهير اليهود للسيطرة على فلسطين بشكل عام، والقدس بشكل خاص. وتحالفت الحركة الصهيونية مع الدوائر الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا التي أدركت أهمية القدس من جميع جوانبها. حيث اتخذت الأخيرة من الحركة الصهيونية؛ أداة لتحقيق مصالحها الاستعمارية في المنطقة العربية.

كلمات مفتاحية: القدس، بريطانيا والقدس، المهجرات اليهودية للقدس

Abstract

This paper observes the early English role in settling the Jews in Al-Quds and investigates the British formal and non-formal role therein. The British formal concern with the Jews in Al-Quds goes back to the year 1838 when Britain established a consulate in Al-Quds, while adopting various policies to impose a Jewish numerical superiority in the sacred city. The paper will also chronicle the history of the non-formal British role that rose through Men of finance and industry and the different British non-formal institutions,

*أستاذ مشارك، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

and the forerunner in this affair could be the Jerusalem Literary Society of 1849 which had been headed by Mr. Finn, the British consul in Al-Quds at that time. The Jews had concealed behind religious purposes to acquire sympathy and support from crowds of the Jews to dominate Palestine in general and Al-Quds in particular. The Zionist movement allied with the imperialistic circles, particularly Britain who perceived the significance of Al-Quds in all aspects and hence exploited the that movement to achieve its colonial interests in the Arabic region.

Keywords: Jerusalem, Britain and Jerusalem, Jewish Emigrations to Jerusalem

المقدمة:

أدركت بريطانيا أهمية موقع فلسطين على الخارطة العالمية كونها ملتقى لطرق التجارة العالمية بين قارات العالم القديم، فسعت أولاً: إلى تقويض حلم محمد على باشا في حكم بلاد الشام، وثانياً: زرع كيان غريب عن نسيج المنطقة، بحيث تضمن ولاء لها فوجدت ضالتها في يهود أوروبا. سعى ساسة بريطانيا إلى إذكاء فكرة العودة بين يهود أوروبا إلى فلسطين واستغلال أهمية القدس الدينية بالنسبة لليهود، وبما أن القدس تشكل بؤرة جذب لليهود في التعبئة الفكرية والإيديولوجية، وعاملاً مهماً في إذكاء الشعور الديني لتحقيق الوجود اليهودي في فلسطين، تم

إنشاء صندوق استكشاف فلسطين^(١) من أجل ربط حاضر اليهود بماضيهم لتحقيق المنفعة لكل أوروبا وبريطانيا على وجه الخصوص لرغبتها في إحكام سيطرتها على العالم، ومن هنا فإن فكرة المشروع الصهيوني قد تبلورت قبل ولادة (ثيودور هرتزل) بعشرين عاماً، فنشأ ذلك (العقد الصامت) كما يسميه المسيري بين بريطانيا ويهود أوروبا على أساس تبادل المنافع، فاستقبل اليهود هذا المبدأ (البرجماتي) بالقبول لا بل وتسخير عشرة ملايين عميل يهودي يعملون لصالح بريطانيا. يتركز هدف الدراسة على تسليط الضوء على الدور البريطاني الكبير في العمل على تغيير الواقع الديمغرافي لمدينة

القدس بشكل خاص، وذلك لتسهيل التعبئة الإيديولوجية المرتبطة بقدسية المكان في الفكر اليهودي. وقد قامت الدراسة على المنهج الاسترجاعي التاريخي المتسلسل مع الأخذ بعين الاعتبار الجانب التحليلي للوصول إلى ما يثبت فكرة البحث، خاصة وأن الباحث أدرك عامل الزمن، أو ما يعرف عند ابن خلدون بتبدل الأحوال. لذا جاء التنقيب عن الدور البريطاني في توطين اليهود في القدس في سياق التصاعد التاريخي للأحداث وتحولاتها المتسارعة، وأما بالنسبة إلى إشكالية الدراسة وأهميتها فإنها تكمن في رصد الدور البريطاني الخطير وأهدافه البعيدة الغير معلنة لوجوده في فلسطين والذي بدأ فعلياً مع انشاء القنصلية البريطانية في القدس سنة ١٨٣٨م، التي لعبت دوراً كبيراً في تهئية فلسطين عامة والقدس خاصة لاستقبال المهاجرين اليهود، ومن ثم تقديم الحماية لهم.

التمهيد:

إن وضع اليهود داخل أوروبا الغربية قد تحدد منذ العصور الوسطى باعتبارهم وسيلة لا غاية ولا أهمية لهم في حد ذاتهم، إذ تعود أهميتهم إلى مدى نفعهم. ولذا لم يكن من الغريب أن تتحول الجماعات

اليهودية إلى جماعات وظيفية/ يستفاد منها، وهي جماعات يجلبها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله ويوكل إليها وظيفة محددة (التجارة، والربا) بحيث يعرف أعضاء هذه الجماعات في ضوء وظيفتهم النافعة البسيطة وليس في ضوء إنسانيتهم الشاملة المركبة^(٢).

سيطر محمد علي باشا على القدس سنة ١٨٣٠م فتوجه لكسب ود الدول الأوروبية، حيث أمّن طريق الحجاج إلى القدس وأزال أشكال التمييز الرسمي ضد أتباع الطوائف الدينية غير الإسلامية، وأصبح هؤلاء يعاملون على قدم المساواة مع سائر رعايا الحكم الجديد، فوَقعت فلسطين بصورة عامة والقدس بصورة خاصة، منذ ذلك التاريخ في دوامة المنافسة الأوروبية في سياق "المسألة الشرقية"^(٣). ولعل "جيمس فنّي James Finn ١٨٠٦-١٨٧٢م" القنصل البريطاني الثاني للقنصلية البريطانية في القدس، الذي تولى إدارة القنصلية (١٨٤٦-١٨٦٤م) جاء على هذه الفكرة بالقول: "لو قيض لمحمد علي أن يؤازر طرفاً على الآخر، لكان سيؤيد اللاتين نظراً لعدد الفرنجة/ الفرنسيين العاملين في قواته المسلحة وفي الإدارة المدنية لحكومته، ونظراً لعدم اهتمامه بأي

من العقائد الدينية، فقد استن سُنّة سياسية تتمثل في كبح مثل هذه النزعات بيد من حديد، ميزت فترة احتلاله بأكملها^(٤). وقد ورد كتاب من وزارة الخارجية البريطانية يصف الوضع في القدس بشكل دقيق حينما قال: أن القدس مركز المسألة الشرقية ومركز الغموض المستمر، تتم المعارك حول المسائل السياسية بأسلحة كنايسية^(٥) ومن جهة أخرى مكّن محمد علي للأوروبيين التغلغل السياسي، والديني، والثقافي، حيث سمح لهم بفتح قنصليات في داخل البلاد، وبتوسيع النشاطات الدينية التبشيرية والاعتراف بمؤسساتهم^(٦).

بواكير السياسة البريطانية في الوجود اليهودي في القدس:

كان لبريطانيا قصب السبق في إقامة أول قنصلية لها في مدينة القدس سنة ١٨٣٨ م، وهذا عائد إلى الاهتمام بشكل رسمي باليهود في فلسطين من قبل بريطانيا في المدة ذاتها، وقد عينت لقنصليتها وليم يونغ William Young^(*) في حين لم يكن لبريطانيا وكنيستها الانجيليكانية أي حقوق أو مصالح تدعيها في علاقاتها بالقدس، فعمدت إلى ادعاء قيام قنصليتها بالقدس لحماية مصالحها ورعايتها^(٧).

كان الدافع وراء تحمّس بريطانيا لخلق وطن لليهود في المنطقة العربية هو الرغبة في التخلص منهم باعتبارهم شعباً منبوذاً وليس حياً بهم. فأوروبا حضارة نفعية مادية تتجاوز الحب والكراهية وتلتزم بأمر واحد وهو تحويل العالم إلى مادة استعمالية لا قداسة لها، وكما يقول اللورد بالمرستون Lord Palmerston^(٨) وزير خارجية بريطانيا (١٨٣٠-١٨٤١ م) ورئيس وزرائها (١٨٤٦-١٨٥١ م) ليس لنا أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون، بل مصالح دائمة^(٩) ومن هنا ساندت الدول الأوروبية العثمانيين على طرد محمد علي من بلاد الشام ولكن بعد زوال الحكم المصري، تحتم على الدولة العثمانية أن تبقى على التغييرات التي أرساها حكم المصريين، فأصبح للأوروبيين اليد الأطول في التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية خاصة فيما يتعلق بنفوذ هذه الدول أو من يمثلها في القدس.

بعد أن تمكنت الدولة العثمانية من استعادة بلاد الشام وفق معاهدة لندن ١٨٤٠ م^(١٠)، تنافست الإرساليات الأجنبية فيما بينها على إرسال رجال الدين وبناء الكنائس، والأديرة، والمستشفيات، والمدارس في القدس وضواحيها، وكانت جمعية لندن

للتبشير بالنصرانية بين اليهود التي تأسست عام ١٨٢٥ م، أسبق هذه الإرساليات، فأصبح لها بعد عام ١٨٤٠ م مركز للإرسالية في القدس^(١١). وقد ركزت معظم المدارس التي فتحت في القدس في تلك الحقبة على التعليم الديني، وهو الأمر الذي من شأنه أن يعزز العلاقة بين الأرض والإنسان، وهذا ما ألححت له وثائق وزارة الخارجية البريطانية^(١٢).

حصلت بريطانيا على حصتها الكاملة في التدخل بشؤون الدولة العثمانية، وذلك بسبب أنها صاحبة الفضل في طرد محمد علي من بلاد الشام وإعادتها إلى رقبة الدولة العثمانية، وقبل ذلك هي التي وقفت في وجه غزو بونايرت لمصر وسواحل الشام ١٧٩٩-١٨٠١ م. وهذا جعل السياسة البريطانية تؤكد عدم قدرة الدولة العثمانية على الاستغناء عنها من غير الاستمرار في تقديم مساعداتها لها^(١٣).

اشتركت بريطانيا وبروسيا في عام ١٨٤١ م في تأسيس أسقفية إنجليكانية في القدس غايتها التبشير بالمذهب البروتستنتي بين اليهود، وكان مايكل الكسندر Michael Alexander^(*)، اليهودي الأصل أول أسقف لها، وهو الذي عمل على تنصير اليهود واعادتهم (عودة اليهود) "Jews of The

Restoration"^(١٤). وقد بين شافسبري^(*) أن الشعب اليهودي يمكن توظيفه في خدمة بريطانيا لأنه جنس معروف بمهارته ومثابرته الفائقة، ويستطيع أعضاؤه العيش في غبطة وسعادة على أقل شيء، فقد ألفوا العذاب عبر العصور الطويلة، وهم علاوة على هذا شعب مرتبط ببقعة جغرافية محددة خارج أوروبا هي فلسطين، فبعثهم لا يمكن أن يتم إلا هناك، كما أن وجودهم في هذه البقعة يمثل عنصراً حيوياً في الرؤية المسيحية للخلاص^(١٥)، إلا أن نجاح القس الكسندر في هذا المجال لم يتجاوز في الواقع الحد الأدنى^(١٦)، فلم يكن في القدس سوى ثلاث عائلات يهودية قبلت بالمسيحية على المذهب البروتستنتي، ونظراً لسيطرة المصالح البريطانية على الأسقفية، انسحبت بروسيا منها^(١٧)؛ وقد ميزت الوثائق العثمانية بين يهود القدس وبين اليهود الأوربيين الطائرين عليها فوصفتهم بـ "اليهود الموسوية العثمانية"^(١٨). ولذلك فإن خليفة إلكسندر "صموئيل غوبات Samuel Gobat^(*)" الذي عينته بروسيا وفقاً للدور المتفق عليه مع بريطانيا^(١٩)، قد نحى الأساس (تنصير اليهود) جانباً، ووجه حماسه التبشيرية إلى المسيحيين الأرثوذكس العرب^(٢٠)، وفي موازاة هذا التحول في

نشاطات الأسقفية والتوجهات السياسية، وضع اليهود في فلسطين تحت الحماية السياسية المعززة لبريطانيا^(٢١). وقد نتج عن ذلك كله نشاط تبشيري مكثف، وتنافس حاد بين الإرساليات التبشيرية المختلفة، خاصة وأن النطاق الجغرافي لسلطة القنصل البريطاني شملت كافة أراضي فلسطين الممتدة من مصر إلى لبنان، بالوقت الذي انحصرت فيه مهام القناصل الأوروبيين الآخرين داخل نطاق مدينة القدس^(٢٢).

تحسنت أوضاع الطائفة اليهودية في القدس تحت ظل الحكم المصري، فقد غازل الحكم المصري البريطانيين بداية وغيرهم من الأوروبيين على حساب العرب المسلمين، فأعفى اليهود من المغارم التي كان الباشا العثماني يفرضها عليهم، وأصبح لهم تمثيل في المجالس المحلية الجديدة، وكان ممثل طائفة اليهود في مجلس شورى القدس الشريف

"الخواجة رونة" خلال الحكم المصري^(٢٣)، واضطرت السياسة العثمانية بفعل تدخل الأجانب أن تبقي على الأوضاع التي آلت إليها أحوال اليهود في القدس حتى بعد استردادها من حكم محمد علي، فظهرت الطائفة اليهودية في مجلس الولايات العثماني الذي تم تشكيله عام ١٨٤٨ م^(٢٤). وقد رفع

تمثيل اليهود لاحقاً في المجلس نفسه إلى اثنين هما: فالبرو واملينغ^(٢٥). وقد "منحت الحكومة المصرية كما يقول "فن" قدراً كبيراً من الارتياح العاطفي لقاطني مدينة القدس من غير المسلمين، وجاء تأسيس القنصليات في المدينة المقدسة كنعمة إضافية... وبشكل أكثر أهمية لليهود المساكن^(٢٦). وترتب على ذلك كله، تدفق اليهود على القدس بأعداد كبيرة للاستيطان فيها، بعد الحصول على تراخيص بناء مساكن وأمكنة عبادة لهم خارج أسوار المدينة^(٢٧)، ويظهر التحسر على حال اليهود بعد انتهاء الحكم المصري في مذكرات "فن" الذي قال "حملت تعليمات بالمرستون في طياتها اعترافاً مفاده أن اليهود إن هم إلا أمة قائمة بجد ذاتها... ولا يمكن التنبؤ بماهية المستقبل الذي سيتشكل بعد طرد المصريين من بلاد الشام^(٢٨). قام السير "موسى مونتيفيوري Moses Montefiore^(*) الثري اليهودي البريطاني، بزيارة إلى فلسطين سنة ١٨٣٥ م، وفي العام نفسه عمل على تأسيس أول مدرسة لليهود في مدينة القدس^(٢٩)، وقد شجعت هذه الأعمال، فيما بعد، اليهود على التقدم إلى مجلس الشورى المحلي في القدس بطلب السماح لهم بشراء الأملاك، والأراضي مقابل دفع مبالغ معينة من المال للحكومة مثل باقي الرعايا والمواطنين، إلا أن

هذا الطلب قوبل بالرفض من محمد علي باشا، خوفاً من نقمة الأهالي، ويمكن أن يعبر الكتاب الذي أرسله إلى متسلم القدس عما ذهبنا إليه: "...ولدنا العزيز مصطفى آغا العبد متسلم القدس... ورد لنا تحرير، وفي طيه جورنال وارد من مجلس القدس الشريف... من وكيل طائفة السكناج(*) بالقدس الشريف بقصد الاستعلام بأنه هل يترخص لهم بشراء الأملاك والأراضي... وفهمنا كيفية جواب المجلس بأن هذه ما سبق لها أمثال، بالوجه الشرعي أيضاً غير مساعد للمستأمنين المذكورين في جميع ما يستدعون حيث أراضي تلك الديار برية ووقفية، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة^(٣٠).

الدور البريطاني الرسمي في دعم اليهود:

تستّر اليهود وراء غايات دينية لكسب العطف، والتأييد من جماهير اليهود للسيطرة على فلسطين بشكل عام، والقدس بشكل خاص، وتحالفت الحركة الصهيونية مع الدوائر الاستعمارية التي أدركت أهمية القدس من جميع جوانبها، حيث اتخذت الأخيرة من الحركة الصهيونية، أداة لتحقيق مصالحها الاستعمارية في المنطقة العربية، فقد اهتمت بريطانيا بتوطين اليهود في فلسطين لإيجاد ركيزة لها، تمكنها من

التدخل في شؤون الدولة العثمانية، ابتداءً، الأمور المالية والقضاء وانتهاءً، الشؤون الطائفية والقرارات السياسية^(٣١). ولما كان تقطيع أوصال الدولة العثمانية وتجزئتها، أمراً غير وارد في القرن التاسع عشر، فإن الدول الأوروبية لم تجهد نفسها لفرض سيطرتها الإقليمية في فلسطين بل سعت لبسط نفوذها^(٣٢)، وكانت أسهل الطرق لذلك، سياسة حماية الأقليات الدينية، لذلك سعت بريطانيا إلى تأسيس أسقفية إنجليكانية في القدس، كما ورد أعلاه، فأجرت بريطانيا مفاوضات مع محمد علي الذي وافق على فكرة بناء كنيسة إنجليزية وليس أسقفية؛ فوق جبل داود، وبالفعل فقد بوشر بتشيدتها خلال الحكم المصري، إلا أن الحكومة العثمانية، وبعد استردادها لبلاد الشام، بإيقاف العمل ببناء الكنيسة^(٣٣)، ثم عادت ووافقت على فكرة إنشاء مكان مخصص لعبادة البروتستانت داخل حرم المسكن القنصلي في بيت المقدس^(٣٤).

أقامت بريطانيا كاتدرائية بروتستانتية وهي كنيسة المسيح Christ Church التي دشنت سنة ١٨٤٩ م، حيث تمكن البروتستنت بعد ذلك من الحصول على الاعتراف لهم بطائفة دينية رسمية في الدولة

العثمانية، الأمر الذي دعم الدور البريطاني في حماية اليهود والبروتستنت معاً^(٣٥). ويورد "شولش" Scholch أحد التقارير التي أرسلها القنصل البريطاني "يونغ" إلى لندن حيث يقول فيه: "هناك فريقان سيطالبان في المستقبل بلا شك بأن يكون لهما حق قوي في إبداء الرأي في شؤون فلسطين، وأحد هذين الطرفين هم اليهود، الذين أعطاهم الله في الأصل ملكية هذه البلاد، والفريق الآخر هم المسيحيون البروتستنت... وبريطانيا العظمى هي الحامي الطبيعي لكلا الفريقين"^(٣٦). وقد جاءت الأوامر الرسمية من الخارجية البريطانية بشكل واضح في هذه المسألة حيث وجد كتاب موجه إلى "يونغ" من الجهة نفسها قال: "سيكون من واجبك كنائب قنصل في القدس أن توفر الحماية لليهود عامة"^(٣٧).

سعت بريطانيا لتوطين اليهود في فلسطين لإيجاد قوة لها للوقوف في وجه أي طامح أو مغامر لتأسيس دولة قوية أو السيطرة على بلاد الشام، والجزيرة العربية. لأن قيام مثل هذه الدولة يهدد مصالحها، والحفاظ على خطوط مواصلاتها مع الهند^(٣٨). وفي إطار وظيفة أعضاء الجماعات اليهودية ونفعهم بدأ يظهر الفكر الصهيوني

في صفوف الأوساط الاستعمارية الغربية التي طرحت حلاً إمبريالياً وظيفياً يتلخص في إخراج اليهود من الغرب وتوظيفهم في خدمته، وقد تم ذلك عن طريق ربط المسألة اليهودية بالمسألة الشرقية (أي وضع الإمبراطورية العثمانية المتردي، فيقوم الغرب بنقل الفائض البشري اليهودي الذي لا وظيفة له في الغرب إلى منطقة استراتيجية في آسيا وأفريقيا (هي فلسطين) تطل على البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وتقع في قلب العالم العربي والإسلامي والدولة العثمانية، حيث يؤسس دولة استيطانية تضم هذا الفائض البشري وتقوم بوظيفة حيوية وهي الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة، نظير أن يقوم الغرب بالدفاع عن سكانها وضمان رفاهيتهم ويقائهم واستمرارهم^(٣٩)، وحتى تكون الأمور مقنعة للمتعاطفين بعودة اليهود جاء التركيز على مقدسات اليهود في فلسطين وعلى رأسها القدس.

أرسل بالمرستون، مذكرة إلى سفيره "بونسونبي" Ponsonby في استنبول عام ١٨٤٠م ورد فيها "يقوم بين اليهود الآن في أوروبا شعور قوي بأن الوقت الذي ستعود فيه أمتهم إلى فلسطين يأخذ في الاقتراب... ومن المعروف جيداً أن يهود أوروبا يمتلكون



ثروات كبيرة... ومن الواضح أن أي قطر يختار أعداداً كبيرة من اليهود سيحصل على فوائد كبيرة من الثروات التي سيجلبها معهم هؤلاء اليهود... فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان، فسيكون في هذا حائل بين محمد علي ومن يخلفه، وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل^(٤٠). ويبدو جلياً أن لغة المصلحة البريطانية تعلو على مفردات الخطاب، فالغاية هي الثروة اليهودية التي من خلالها يشير بالمرستون إلى دورها في تعزيز العلاقات الدولية، وهي الجزيرة التي يلوح بها للقبول بفكرة "عودة اليهود" وعزز "المرستون" سياسته هذه بالكثير من الأوامر إلى العاملين في الدوائر السياسية البريطانية في الدولة العثمانية لمساعدة اليهود ومنها ما جاء في كتبه إلى القناصل البريطانيين بوضع اليهود عمومًا في الدولة العثمانية تحت الحماية البريطانية ومنع الإساءة إليهم^(٤١)، وطلب من السفير البريطاني في استنبول الاحتجاج لدى الباب العالي على أي عمل عدائي ضد اليهود في الولايات العثمانية^(٤٢)، وقد تمكن يونغ من توفير الحماية البريطانية لجميع اليهود الأوروبيين في القدس بغض النظر عن جنسياتهم، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حينما قدّم شكوى

إلى بالمرستون بحق القنصل البريطاني في مصر بأنه لم يقدم له الدعم الكافي في هذه المسألة وفي هذا قال: "أنه قد أساء إلى النفوذ البريطاني لدى اليهود"^(٤٣).

زاد اهتمام بريطانيا باليهود بزيادة مطامعها في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية، فوجد اليهود المؤازرة النشطة والعمل البريطاني الدؤوب، في تثبيت أقدامهم في فلسطين، خاصة في القدس، حيث تلقوا الدعم من الكثير من الشخصيات البريطانية، ويصوّر "شولش" هذا بالقول: "أما رجال الإكليروس، والساسة، وموظفو المستعمرات، والضباط، في الأربعينيات، فقد أيدوا أولئك في التوجه إلى الهدف مباشرة، فقد طالب هؤلاء بإقامة مستعمرات يهودية بهذا الشكل أو ذاك، أو حتى دولة يهودية تحت الحماية البريطانية، بهدف إعادة اليهود، وحماية المصالح الاستراتيجية والتجارية البريطانية في هذه المنطقة"^(٤٤). ويبرز على السطح التعاطف المبني على أوهام لا تمت للواقع بصلة، أو جدها الساسة الإنجليز للوصول إلى مآربهم وهذا ما يلحظ في مذكرات "فن" حينما قال: "ذاق هؤلاء اليهود في العصور الغابرة الأمرين، نتيجة للسلوك الاستبدادي العام للمسلمين"^(٤٥).

تولى أمور القنصلية البريطانية في القدس بعد "يونغ" المستر "جيمس فن" وقد أصبحت مهمة حماية اليهود من المهام الأولى في أعماله، فكان عليه أن يأخذ جميع اليهود سواء كانوا من الرعايا البريطانيين أم لا، تحت جناح حمايته^(٤٦). وهو الذي يقول إنه لم يكن يخشى أو يخجل من النعت الذي كان يوصف به دائماً كرجل نصف يهودي^(٤٧)، وقد شرع هذا سنة ١٨٤٩ م بمنح اليهود الروس والنمساويين ممن نزعت منهم جنسياتهم، الحماية البريطانية، حيث نظمت القنصلية البريطانية في القدس سجلات خاصة، منحت فيها شهادات الحماية من غير مقابل لليهود الذين لا يستطيعون دفع الرسوم^(٤٨)، وقد أورد فن خطاباً موجهاً إلى القنصلية البريطانية من اليهود الروس يشكرون فيه الملكة البريطانية لرعايتهم وحمايتهم، ومما جاء فيه: "نحمد الله ونثني عليه لأنه زرع الرحمة والرفقة في قلب صاحبة الجلالة الملكة المتوجة، والتي تحكم أقاليم إنجلترا ومستعمراتها، وألهمها فعل الخير لبني إسرائيل^(٤٩)"، وهو الأمر الذي يؤكد فن في مذكراته: أما الأشخاص الذين كان القنصل البريطاني في بيت المقدس موكلًا رسميًا بحمايتهم فقد كانوا كافة الرعايا البريطانيين بالولادة... ومن ثم اليهود الروس الذين انتقلت مسؤولية رعاية مصالحهم

للسيادة البريطانية... وكافة اليهود الذين يمكن أن يتعرضوا للمحن أو الكروب وبالتصرف بالنيابة عنهم^(٥٠). كما يحق للقنصل البريطاني أن يتولى الدفاع عن اليهود الذين تتخلى القنصليات الأوروبية في القدس عن حمايته^(٥١)، وهو الأمر الذي دفع روسيا لاقتراح وضع رعاياها في القدس تحت حماية بريطانيا لتصبح إقامتهم مفتوحة في القدس^(٥٢). فأمنت القنصلية البريطانية في القدس الحماية لليهود وأخذت الرسوم منهم وأعفت الذين لا يستطيعون الدفع^(٥٣)، وهذا دفع فن أن يرسل تحياته وتأملاته للمستر آرثر Arthur المسؤول في وزارة الخارجية البريطانية مسروراً بما توصل إليه حينما قال: "يحصل لي الشرف أن أكتب لك قائمة بأسماء اليهود الروس الذين سجلوا أسماءهم في القنصلية البريطانية لحمايتهم إلى الأبد، وأذكر لك أنني بعثت بقائمة مماثلة إلى السلطات العثمانية في القدس^(٥٤)، ونتيجة لهذه الإجراءات استقر الكثير من اليهود في القدس وقدم الروس الشكر والعرفان للبريطانيين حتى إنهم كانوا يشاركونهم احتفالاتهم بأعيادهم^(٥٥)، وقد وصف فن حال اليهود بعد تلك الإجراءات بالقول: كان اليهود عمومًا سعداء لوجود قنصلية يمكنهم اللجوء إليها لتصديق وختم وثائقهم

١٨٩٠^(٦٠)، خليفة السير فن وقد دعم هذا القنصل نشاط الصندوق في مجال مسح الأراضي بزعم التنقيب عن الآثار حيث حصل في عام ١٨٦٩ م على فرمان بوساطة السفارة البريطانية في استنبول للتنقيب عن هيكل سليمان في منطقة الحرم الشريف بعد التعهد بعدم إلحاق أضرار بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة من جراء الحفريات^(٦١)، وقد قام هذا الصندوق بدور مهم في تزويد الساسة، والعسكريين البريطانيين بالمعلومات الجغرافية، والتاريخية والسياسية، التي كانوا يحتاجونها، كما كان للعاملين فيه دور كبير في توجيه أنظار اليهود إلى فلسطين^(٦٢).

لم تتوقف فكرة "عودة اليهود Restoration" على الساسة ورجال الدولة البريطانيين، بل تعدتهم إلى رجال المال والصناعة، ورؤساء الأندية والجمعيات، الذين آزرُوا "المُرستون" وغيره من صانعي القرارات البريطانية في العمل على إيجاد وطن لليهود في فلسطين، ففي سنة ١٨٤٥ وصلت مذكرة من أحد السياسيين البريطانيين من أنصار المُرستون، للحكومة البريطانية لإعادة توطين اليهود، وإقامة دولة خاصة بهم تحت الحماية البريطانية، للسيطرة على طرق التجارة في الشرق^(٦٣)، وهذه الأفكار كانت بحاجة إلى

ومستنداتهم والالتماسات التي كانوا يرسلونها لأربع أركان الأرض^(٥٦). بل وكانت إدارة الأعمال في القنصلية الإنجليزية تدار باللغة العبرية^(٥٧)، ولكن وبكل هذه الإمكانيات التي أوجدها وسخرها "المُرستون Palmerston" لدعم اليهود، إلا أنه فشل في إقناع السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١ م) بالسماح لليهود بالاستيطان غير المحدود في فلسطين أو منحهم امتيازات خاصة فيها^(٥٨)، ولم يقتصر الدعم البريطاني لليهود على الدوائر الاستعمارية الرسمية بل تعداه إلى طبقات المجتمع التي كان يجمعها مع اليهود المصالح المتنوعة، كما سيتضح لاحقاً.

الدور البريطاني غير الرسمي:

تأسست جمعية القدس الأدبية سنة ١٨٤٩ م برئاسة القنصل البريطاني في القدس "فن Finn" المذكور آنفاً. للبحث والتحري عن الآثار والأراضي المقدسة بحدودها التوراتية، واقتصرت عضويتها على البروتستانت^(٥٩)، ثم تحولت في عام ١٨٦٥ م إلى "صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund" في عهد القنصل الثالث للقدس "نيفين تمبل مور More Nevin Temple" ١٨٦٢-

العثمانية، لمدة عشرين سنة إلى شركة الهند الشرقية لتسدد الدولة العثمانية التزاماتها ... وستكون مهمة هذه الشركة توطين اليهود في البلاد بصورة تدريجية بحيث تؤول البلاد آخر الأمر إلى ملكيتهم وتصبح تحت حكمهم^(٦٧)، كما وجد شخصية فاعلة في توجيه السياسة البريطانية لخلق دولة وظيفية في الشرق هو سير لورانس أوليفانت^(*) Laurence Oliphant 1829-1888 عضو في البرلمان البريطاني وصديق لورد شافيسبري، المذكور آنفاً، الذي كان يرى ضرورة إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية لتظل حازماً صلباً ضد الزحف الروسي عن طريق إدخال عنصر اقتصادي نشط في جسدها المتهاوي، وقد وجد أن اليهود هم هذا العنصر. ولذلك دعا بريطانيا إلى تأييد مشروع توطين اليهود، لا في القدس وفلسطين فحسب، وإنما في الضفة الشرقية للأردن كذلك^(٦٨). وبغض النظر عن الأسباب التي دعت أولئك إلى الإلحاح على مساعدة اليهود، إلا أنهم، اجتمعوا على الفكرة نفسها؛ الداعية إلى تهجير اليهود إلى فلسطين وخلق وطن قومي لليهود فيها.

بداية الهجرات اليهودية المنظمة إلى القدس:

تمكن اليهودي البريطاني "موسى

دعماً على أرض الواقع من خلال إيجاد الأماكن الدينية الخاصة باليهود، وهو الأمر الذي تحقق بالفعل حينما تمكن السفير البريطاني من أخذ موافقة السلطات العثمانية على تشييد كنيسين للطوائف اليهودية في القدس^(٦٩)، كما تقدّم أحد الصهاينة من غير اليهود وهو الكولونيل "جورج جولر George Gawler" الذي عمل مدة حاكماً لجنوب استراليا، تقدم باقتراح إلى الحكومة البريطانية بإنشاء مستوطنات يهودية في فلسطين. وكان مما قاله هذا في إحدى المناسبات: لقد وضعت العناية الإلهية سوريا ومصر بين بريطانيا وبين أعظم مناطق إمبراطورياتها ... أن استيلاء أي دولة على مصر وسوريا يهدد تجارة بريطانيا ... وقد آن الأوان كي تقوم بريطانيا بتنمية سوريا وإحيائها بواسطة أبناء الأرض الحقيقيين، أبناء إسرائيل^(٦٥) كما دعا في ما بعد، رجل الصناعة البريطاني إدوارد كازاليت Edward Cazalet^(*) بإقامة محمية بريطانية في فلسطين، يكون هدفها إعادة اليهود، وربط البلاد بصورة دائمة ببريطانيا^(٦٦). كما اقترح شخص آخر نشيط في صندوق اكتشاف فلسطين. وهو "شارلز وارن Charles Warren" في كتابه "أرض الميعاد The Land Of Promises" بأن تسلم الأرض المقدسة نظراً لإفلاس الدولة

العمل... عوضاً عن أي شكل آخر من أشكال المساعدة^(٧٤).

نتيجة للجهود البريطانية بوجهيها الرسمي والشعبي، ازداد عدد الهجرات اليهودية إلى القدس وضواحيها، حيث تضاعفت أعدادهم خلال المدة (١٨٤٠-١٨٨٠ م) من عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) إلى خمسة وعشرين ألف (٢٥,٠٠٠) يهودي^(٧٥). ويقول "فن" بأن عدد اليهود إبان فترة حكمه للقدس (١٨٥٣-١٨٥٦) بلغ عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) ويضيف ما يؤكد فكرة البحث حينما يقول "يشكل اليهود المعاصرون والمقيمون في أرضهم القديمة" مادة خصبة للتأمل والتمعن^(٧٦)، وورد عند "بن أريه Bin Arieh: أن عدد اليهود وصل إلى سبعة عشر ألفاً (١٧,٠٠٠)، سنة ١٨٨٠ م^(٧٧). ووفقاً للإحصاءات العثمانية، مع الأخذ بعدم دقتها، خاصة فيما يتعلق بأعداد اليهود، فقد بلغت أعدادهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانين (٣,٧٨٠) يهودياً^(٧٨).

اتخذت الهجرة اليهودية طابعاً جدياً، نتيجة للطرد الذي تعرض له اليهود في كثير من بلدان العالم. وعلى أثر اغتيال قيصر روسيا في آذار ١٨٨١ م، قامت السلطات الروسية بطرد اليهود لضلوع منظمة أحياء

مونتفيوري "من شراء قطعة أرض في القدس سنة ١٨٥٩ م، بمحاذاة الطريق السريع الموصل من القدس إلى بيت لحم، وكانت قرية من أسوار المدينة، بموجب فرمان من السلطان العثماني لبناء مستشفى، ولكنه أقام عليها مساكن شعبية لليهود بعد تدخل السفير البريطاني في استنبول لدى السلطات العثمانية، ويعلق "فن" على هذه الحادثة بالقول: "أن بيع هذه الأرض إلى مشتر أجنبي غير مسلم، يكون بيت المقدس شهد حدثاً استثنائياً... وكان ذلك بمثابة خطوة أخرى في طريق التطورات التي كانت تشهدها البلاد"^(٦٩)، وتعتبر هذه الأرض الأولى التي يملكها اليهود في القدس^(٧٠)، وقد سمي هذا الحي فيما بعد باسم "حي مونتفيوري"^(٧١)، وقد كانت هذه الحادثة، فاعلة في إرساء دعائم الاستيطان اليهودي في القدس، بحيث لم تمض مدة قصيرة من الزمن، حتى تم إنشاء العديد من الأحياء اليهودية في المدينة وبلغت ثمانية أحياء عام ١٨٩٢ م^(٧٢). وقد تمكن (مونتفيوري) من إنشاء مدارس دينية يهودية في القدس^(٧٣). وكان يؤمن بأن الاستفادة الحقيقية تتمثل في توفير التعليم لجميع اليهود، وخلق فرص عمل للألوف من الأشخاص العاطلين عن

صهيون Chovevei Zion^(٧٩) باغتيال القيصر^(٨٠)، ويعتبر هذا التاريخ، نقطة تحول في أهداف اليهود للهجرة إلى القدس، فبعد أن كانت الأسباب دينية، وهي إنهاء أيامهم في المدينة^(٨١) تحولت إلى أسباب سياسية في البحث عن وطن في فلسطين.

وجد اليهود في أثريائهم، خير نصير لهم في تنظيم هجراتهم إلى فلسطين وعلى وجه الخصوص القدس، فقد أسهم البارون أدmond دي روتشل Edmond de Rothschild^(*) بدور فاعل في تنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين سنة ١٨٨٢ م^(٨٢)، ثم وفدت بعد ذلك مئات من العائلات اليهودية اليمينية، ومن العراق، والمغرب، وبخارى إلى القدس بين سنتي ١٨٨١ م و ١٨٩٠ م^(٨٣)، حيث ارتفع عدد اليهود في القدس حتى أصبح ثمانية وعشرين ألفاً (٢٨,٠٠٠) نسمة سنة ١٨٩٥ م، فشكّلوا بذلك ما نسبته ٦٠٪ من مجموع اليهود في فلسطين^(٨٤).

عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة "بازل Basle" بسويسرا عام ١٨٩٧ م وهو المؤتمر الذي شكل نقطة تحول في تاريخ الصهيونية في شتى المجالات، وتوج بتأسيس الحركة الصهيونية التي تعد أول منظمة

سياسية عالمية ذات بعد قومي لليهود في العصر الحديث والمعاصر^(٨٥)، وقد حضره مائتان وأربعة (٢٠٤) مندوب من مختلف الهيئات والمنظمات والتجمعات الصهيونية في العالم، وتم انتخاب الدكتور تيودور هيرتزل Theodor Herzl^(٨٦) رئيساً للمؤتمر، وقد خرج هذا المؤتمر بفكرة إقامة دولة اليهود في فلسطين، كما قرر المؤتمر إقامة الاتحاد الفيدرالي الصهيوني ليكسب الدعم العالمي لمفهوم دولة اليهود في فلسطين^(٨٧)، وقد علق "هرتزل" في نهاية المؤتمر بالآتي: "في بازل أقيمت الدولة اليهودية، وإذا ما قلت هذا اليوم القول علناً فسأواجه بسخرية من العالم، ولكن ربما بعد خمس سنوات، وبالتأكيد بعد خمسين سنة سيرى الدولة كل إنسان وسيعترف بها الجميع^(٨٨)". والغريب أنه لو أضفنا عدد السنين التي حددها هرتزل لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين لجاءت مطابقة لقرار التقسيم عام ١٩٤٧ م الذي وافقت فيه الأمم المتحدة على مشروع تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، كما أنه يسبق حرب عام ١٩٤٨ م بسنة واحدة فقط.

تنامت الهجرة الصهيونية بعد مؤتمر بال ١٨٩٧ م إلى فلسطين والقدس بوجه خاص بشكل كبير. حيث يرد أن أعداد اليهود قفزت إلى أربعين ألف (٤٠,٠٠٠) نسمة

سنة ١٩٠٤ وكان ما يقارب العشرة آلاف (١٠,٠٠٠) نسمة منهم مسجلون في القنصليات الأجنبية، وما يقارب الخمسة عشر ألف (١٥,٠٠٠) نسمة في سجلات الدولة العثمانية وخمسة عشر ألف (١٥,٠٠٠) بلا جنسية^(٨٩).

شهدت القدس في أعقاب فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ م موجة جديدة من الهجرة اليهودية بسبب الاضطهاد الذي ألم باليهود. فقد وصلت أعداد اليهود في القدس إلى خمسة وأربعين ألف (٤٥,٠٠٠) نسمة عام ١٩١٠^(٩٠). وإلى ثمانية وأربعين ألف (٤٨,٠٠٠) نسمة عام ١٩١٢ م^(٩١). ولكن هذا العدد عاد وانخفض إلى ما يقارب النصف مع بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٧ م) بسبب هجرة الكثير من اليهود إلى مصر^(٩٢).

الضغط البريطاني على الدولة العثمانية لقبول الهجرة:

تباين موقف الدولة العثمانية تجاه مصير الهجرة اليهودية من حين لآخر، فبعد إعلان الدولة العثمانية قانون تملك الأجانب سنة ١٨٦٨ م، وتوقيع السفراء الأجانب على ما

جاء فيه من شروط بغية السماح لرعاياها بالتملك داخل حدود الدولة العثمانية، باستثناء الحجاز، أفاد اليهود من حملة الجنسيات الأجنبية من هذا الترخيص، فأخذوا بشراء الأراضي في القدس^(٩٣)، وقد سمح لهم هذا القانون بالتملك دون الرجوع إلى استنبول^(٩٤)، ومن أمثلة هذا الشراء ما ورد في حجة البيع المدونة في سجلات القدس والذي يشير إلى القانون ذاته الذي سمح للأجانب بالتملك وقد جاء كالآتي: "بعد صدور المضبطة من مجلس إدارة متصرفية القدس بناء على الرخصة الصادرة بحق التملك لرعايا الدولة حسب التنظيمات المؤسسة هذه، اشترى الخواجة بنسيون ليونة السكناجي تبعة إنجلترا من بئعه السيد ... بشهادة مختار محلة الشرف... جميع الحصص الشائعة وقدرها أربعة قراريط، وسبعة أثمان القراريط من أصل ٢٤ قرطاً من جميع الدار القائمة البناء بمحلة الشرف^(٩٥). وكان القنصل البريطاني خاصة؛ يتابع عملية البيع والشراء^(٩٦)، وقد استهدف اليهود شراء كل ما يعرض للبيع من الأراضي والعقارات المشتملة على المنازل والمعاصر والخواصل والطواحين والخواكير والكروم والمزارع^(٩٧)، وقد توسع اليهود بشراء الأراضي المحاذية

لسور المسجد الأقصى الغربي، وتوسعوا في حارات أخرى بشكل أكثر مثل حارة باب العمود^(٩٨)، ولم يتركز شراء اليهود للأراضي على المناطق الداخلية للقدس بل تعداها إلى خارج السور لا سيما غرب المدينة جهة باب الخليل^(٩٩)، كما انتشر في هذه الفترة البيع الوفاي^(١٠٠)، بحيث استفاد اليهود من تردي الأوضاع الاقتصادية للسكان، وغالبًا ما كان صاحب العقار يبيعه جله أو بعض منه للوفاء بدينه^(١٠١).

ظلت العلاقة التي تجمع بين العثمانيين والبريطانيين بخصوص هجرة اليهود إلى فلسطين وبالأخص القدس، يشوبها الشك والريبة فاستصدر متصرف القدس أمراً يمنع القنصل البريطاني من التدخل في أية أنشطة سياسية في المدينة، إلا أنهم كانوا يتحايلون على هذه الأوامر من خلال عملائهم في التعليم، والمراكز الدينية وغيرها^(١٠٢)، وقد قابل متصرفو القدس عدم تعاون القناصل البريطانيين معهم فيما يتعلق بمنع هجرة اليهود إلى المتصرفية بضيق شديد، وشكا بعضهم من استغلال بيوت الرعايا البريطانيين لإقامة جمعيات مسيحية لم ترخص لها السلطات بمزاولة نشاطها ولكن القنصل البريطاني أصر على انتظار تعليمات السفارة في استنبول قبل إبداء الرأي^(١٠٣)،

واتخذت الحكومة العثمانية بعض الإجراءات للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين في مدة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩ م)، فقد لفت عدد المهاجرين الكبير انتباه متصرف القدس رؤوف باشا (١٨٧٦-١٨٨٨ م)، فأرسل إلى استنبول يستوضح عن الإجراءات التي يتخذها في شأن هذه المسألة^(١٠٤)، فأصدر الباب العالي قانوناً يحرم الهجرة اليهودية إلى فلسطين وشراءهم الأراضي سنة ١٢٨٢ م^(١٠٥)، وقد لفتت جريدة البشير نظر السلطات العثمانية إلى الرغبة اليهودية في الاستيطان في فلسطين عامة، وقد جاء فيها: أن سبعة آلاف من اليهود أخبروا لجنة المهاجرين الإسرائيليين في يافا عن رغبتهم في ترك روسيا والتوطن في فلسطين^(١٠٦)، وحاولت جريدة المؤيد أن تنبه إلى خطر الهجرة اليهودية إلى القدس تحديداً وقالت: "جذبت اليهود معتقداتهم الدينية، فعزم الكثير على المهاجرة إلى أنحاء القدس، وتوطن كثير منهم في كل الجهات"^(١٠٧)، وقد أنكرت جريدة المقتطف على بقية الصحف عدم اهتمامها بمثل هذا الأمر، حينما ردت على سؤال لأحد القراء العرب المقيمين في ألمانيا والذي تساءل عن دور الصحف العربية في التنبيه لخطر هجرة اليهود إلى فلسطين^(١٠٨). ولكن وبسبب

احتجاجاً إلى الصدر الأعظم، حمل توقيع خمسمائة شخص من سكان القدس الذين احتجوا ضد الهجرة اليهودية وحياسة الأراضي^(١١٣)، وتكررت المحاولة مرة أخرى سنة ١٨٩١ م حيث أرسل فريق من وجهاء القدس عريضة إلى الباب العالي، يطلبون فيها وقف هجرة اليهود، ومنعهم من امتلاك الأراضي، والسبب هو أن اليهود كانوا يستولون على الأرض من أيدي السكان، ثم يسيطرون تدريجياً على التجارة المحلية^(١١٤).

تراجعت الدولة العثمانية أمام ضغط بريطانيا وفرنسا، فاضطرت إلى التصريح سنة ١٨٨٨ م بأن القيود الجديدة لن تطبق إلا بحق المهاجرين بأعداد كبيرة وليس بحق الذين يأتون فرادى، وتشجعت القنصلية البريطانية لهذا التصريح فمنحت عام ١٨٩٣ م حمايتها لأكثر من مائتي (٢٠٠) عائلة يهودية^(١١٥)، وحاولت السلطات العثمانية الحد من نشاط الإرساليات الأجنبية في القدس، وعلى رأسها بريطانيا، فألزمتها بتعهد يمنع تحويل بيوت الأجانب إلى معابد أو مدارس أو مستشفيات^(١١٦).

سعت الحكومة العثمانية لدى البريطانيين في أواخر عام ١٨٩٨ م لتعديل بعض المواد من معاهدات الامتيازات

الضغط المتوالي على السلطات العثمانية في مسألة هجرة اليهود إلى القدس خاصة من بريطانيا، تساهلت الحكومة العثمانية بأن سمحت لليهود بزيارة القدس مدة ثلاثين يوماً، فاحتجت الدول الأجنبية على هذه القيود لتعارضها مع الامتيازات الأجنبية^(١١٩)، فاتخذ الباب العالي قراراً رسمياً سنة ١٨٨٧ م حددت بموجبه إقامة اليهود في فلسطين بثلاثة أشهر، شريطة أن يتم حجز جواز سفر المهاجرين الوافدين بحجة زيارة الأماكن الدينية المقدسة ومنحهم ورقة حمراء أعدت لهذا الغرض^(١١٠)، وقد دفع الطلب الذي تقدّم به أحبار القدس عام ١٩٠١ م بالسماح لهم بتأليف نواة للجيش اليهودي، مقابل دفع مليون ليرة ذهباً عثمانياً كدفعة أولى لهذا الجيش، بالسلطان عبدالحميد الثاني لإصدار أوامره للوالي لموافاته بتقرير عن النشاط اليهودي في فلسطين، فهاهنا ما قرأه، فقرر إيقاف الهجرة اليهودية، وأصدر قانون الجواز الأحمر مرة أخرى^(١١١). وبالرغم من هذه الإجراءات المتعلقة بتقييد هجرة اليهود إلى القدس، فقد استمر وصول اليهود إليها، ووقفت القنصلية البريطانية إلى جانب المهاجرين اليهود في تحدي قرارات تقييد الهجرة^(١١٢)، وقد قدم أهالي القدس

البريطانية التي عقدتها معها في السابق، وتتعلق تلك المواد بالتسهيلات الممنوحة للرعايا البريطانيين في الإقامة والسفر إلى الممتلكات العثمانية، إلا أن الخارجية البريطانية رفضت وضع القيود على سفر رعاياها إلى فلسطين أو غيرها من الولايات العثمانية^(١١٧). وفي خضم حركة التغلغل الأجنبي والنشاط الاستيطاني والحظر الذي فرضته استنبول على الهجرة، وبيع الأراضي، كان يقع على عاتق الحركة الصهيونية بذل الأموال الطائلة لإغراء البائعين والسماسرة، والتأثير على ذوي الضمائر الفاسدة من موظفي الجهاز الإداري لتسهيل مهمة تسجيلها في الدوائر الرسمية، مما دفع الباب العالي إلى إصدار أوامره سنة ١٨٩٨م القاضية بعدم "جواز بيع الأراضي الأميرية الواقعة في ضواحي القدس الشريف لأجنبي أو لوطني"^(١١٨).

نتائج مؤتمر (بازل ١٨٩٧) على الوجود اليهودي في القدس:

نشطت الحركة الصهيونية بعد عقد مؤتمر "بازل" بالتوسط لدى الحكم العثماني للحصول، بالشكل الرسمي، على موطن قدم في فلسطين بحيث سعى "هرتزل Herzl" إلى مقابلة السلطان

عبد الحميد الثاني منذ سنة ١٨٩٦م فتمت موافقة السلطان في أيار ١٩٠١م بعد أن رفض ذلك لأكثر من مرة^(١١٩).

قدم هرتزل في هذا اللقاء عرضاً جاء فيه: "ستولى الحركة الصهيونية مهمة ترتيب دعم أثرياء اليهود الاقتصادي لتطوير الإمبراطورية الهرمة مقابل اعتراف السلطان بحق اليهود في إقامة دولتهم"^(١٢٠). وقد قدر هرتزل ثمن فلسطين بأربعة ملايين جنيه، ولكن السلطان عبد الحميد رفض هذا العرض^(١٢١)، وقد علق السلطان عبد الحميد على هذه المقابلة بقوله: "... إن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا قدراتها خلال وقت قصير، وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم، لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره"^(١٢٢)، وقد كرر هرتزل محاولاته تلك، إلا أن السلطان رفض بشدة حيث، يرد أن السلطان بعث إلى هرتزل بواسطة صديقه نيفلنسكي Nevlenski

نختصرها بالآتي: "... لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها، ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين، من غير مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثتنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان"^(١٢٣)، تحولت أنظار

هيرتزل إلى وساطة فلسطينية ووقع اختياره على النائب السابق في البرلمان العثماني يوسف الخالدي، وقد كان صاحب نفوذ لدى الباب العالي. فكتب له هيرتزل رسالة شرح فيها أن الحركة الصهيونية ليست استعمارية، ولا مغزى سياسي لها، وهي ترمي إلى انعاش البلاد المقدسة، ومشاركة أهلها العرب، ويطلب منه التوسط لدى الباب العالي، وإلا فاليهود سيتحولون إلى نقطة أخرى من العالم، فتخسر الدولة العثمانية وفلسطين الملايين التي بالإمكان أن تصرف على تعميرها وانعاشها، إلا أن الوساطة فشلت^(١٢٤).

لجأ هيرتزل في أعقاب فشله لدى السلطان العثماني إلى التركيز على بريطانيا، وقد بدأ يتضح له أكثر فأكثر أنها هي الدولة الوحيدة التي كانت تمتلك الإرادة، والقدرة على تنفيذ مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين^(١٢٥)، خاصة وأن القنصلية البريطانية على اطلاع وثيق، بما يدور في البلاد من أحداث وتطورات... وبشكل يفوق اطلاع الحكومة العثمانية نفسها^(١٢٦). فالتقى مع

"جوزيف تشامبرلن Joseph Chamberlain" وزير المستعمرات، حيث كان الأخير يعتقد

"بأن إنشاء كيان سياسي يهودي في منطقة

خاضعة للنفوذ البريطاني، يضمن لبلادها وجود قوة موالية لها تعمل على تثبيت نفوذها ودعمه، لا سيما أن معظم المؤسسات المالية اليهودية كانت تتخذ من العاصمة البريطانية مقراً لها^(١٢٧). وكان هيرتزل يرى أنه إذا وافقت بريطانيا على مشروعه الصهيوني فإنها ستحصل، "في ضربة واحدة"، على عشرة ملايين عميل سري في جميع أنحاء العالم يتسمون بالإخلاص والنشاط، وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون، إن بريطانيا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خدمة جلالته ونفوذها^(١٢٨).

تكررت المحاولات الصهيونية بتوسيط البريطانيين لدى السلطان عبد الحميد، للحصول على مبالغهم، إلا أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، إلى أن جاءت جمعية الاتحاد والترقي إلى الحكم، بعد ثورتها على السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨ م حيث قدم هؤلاء التسهيلات للهجرة، والاستيطان وشراء الأراضي، بعد حصولهم على المال من اليهود لتدعيم الخزينة العثمانية بعد حروبها في البلقان^(١٢٩)، وألغت حكومة الاتحاد والترقي جميع القيود على الهجرة وامتلاك الأراضي^(١٣٠)، ويذكر أن أحد

اليهود كان يتفاخر بما توصلوا إليه مع الاتحاد والترقي بما يلي: "إن الاتحاديين نفذوا بأربعمائة ألف جنيه بريطاني، ما لم ينفذه عبد الحميد بملايين الجنيهات" (١٣١).

بريطانيا وتحقيق الهدف:

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ م إلى جانب دولتي الوسط (ألمانيا وإيطاليا) ضد دول الحلفاء (بريطانيا، وفرنسا، وروسيا) في تشرين الثاني ١٩١٤ م. وأعلنت الدولة العثمانية النفير العام، وألغت الامتيازات الأجنبية، ثم أعلنت الجهاد (١٣٢)، وردت بريطانيا على هذا الإعلان، بإصدار منشور وجهته إلى العرب، أكدت فيه أنها لا تنوي امتلاك أي جزء من البلاد العربية (١٣٣).

أوكلت الحكومة البريطانية للسير

"هنري مكماهون Sir Henry Macmahon" المعتمد السامي البريطاني في مصر، مهمة التفاوض مع "الشريف حسين" بغية التوصل معه إلى اتفاق مكتوب حول الدعوة من قبل الشريف إلى الثورة العربية على العثمانيين، وبالمقابل تتعهد بريطانيا بالاعتراف بقيام دولة عربية مستقلة، وقد كانت فلسطين ومنها القدس من البلاد

العربية التي وعدت بريطانيا الاعتراف باستقلالها (١٣٤)، وفي الوقت نفسه، كانت بريطانيا وحليفها فرنسا، وروسيا يوقعون بالأحرف الأولى على معاهدة سايكس بيكو Sykes-Picot التي قضت بنودها بتقسيم أملاك الدولة العثمانية فيما بينها (١٣٥)، وقد تم الاتفاق فيما بين الحلفاء على الاحتفاظ بالقدس وما حولها كم منطقة دولية منعاً للتنافس الاستعماري عليها (١٣٦).

وقفت الحركة الصهيونية في بداية الحرب موقف الحياد، ولكن عندما لمست بأن الكفة رجحت لمصلحة الحلفاء، مالوا بثقلهم إلى بريطانيا، وقد ظهر حايم وايزمان Weizmann Chaim (١٣٧) في لندن ليقوم بدور زعيم الأمر الواقع في الحركة الصهيونية، ويجد في الحكومة البريطانية خير حليف لمطامع الحركة (١٣٨)، فازداد نفوذ الصهاينة وتغلغلهم في أعماق دوائر القرار البريطاني وتوثقت علاقة وايزمان بكل من رئيس الوزراء البريطاني "لويد جورج Lloyd George"، ووزير الخارجية آرثر جيمس بلفور (١٣٩) Arthur James Balfour حتى صوّر وايزمان هذه العلاقة بهذه الجملة: "لم يخطر على بال بعضهم أن رجالاً من أمثال بلفور وتشيرل Churchill ولويد جورج

كانوا متدينين في أعماق قلوبهم ومؤمنين بالتوراة وبأن عودة اليهود إلى فلسطين مسألة واقعية وحقيقية^(١٤٠).

سارع وايزمان للاجتماع بالمستر بلفور وغيره من المسؤولين البريطانيين الذين أعربوا عن استعدادهم لتأييد المطالب الصهيونية، وأخذها بعين الاعتبار متى تحققت أهداف الحرب الرامية إلى تجزئة الامبراطورية العثمانية وتقسيمها^(١٤١).

كان من رأي وزارة الحرب البريطانية، أن لفلسطين ومصر أهمية متوازية من الوجهة الاستراتيجية، وقد كتب أحد أنصار الصهيونية ووزير المستعمرات البريطانية في وقت لاحق ليوبولد تشارلز Leopold Charles مذكرة لها مغزاها بالقول: "إن مصر وفلسطين تسيران جنباً إلى جنب من الوجهة الاستراتيجية"^(١٤٢). وقد خلص رؤساء الأركان في وزارة الحرب إلى النتائج التالية: "إن إقامة دولة يهودية حاضرة في فلسطين على الرغم من أنها ستكون ضعيفة في ذاتها، هي من الناحية الاستراتيجية أمر مرغوب فيه بالنسبة لبريطانيا العظمى"^(١٤٣).

عمل وايزمان ومعاونوه لكسب المسؤولين البريطانيين بينما كان لويس برانديز Louis Brandis زعيم الصهاينة في

الولايات المتحدة الأميركية يقوم بدور مماثل هناك^(١٤٤)، وقد قام تعاون وثيق الصلة بين الفريقين بغية حمل الأميركيين على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وإبقاء يهود العالم إلى جانب الدول الحليفة، فجاء صدور تصريح بلفور في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧ م^(١٤٥) بمثابة حصيلة تلك الجهود وثمره التحالف الصهيوني البريطاني في أثناء الحرب، فكان أول اعتراف رسمي من دولة عظمى بالحركة الصهيونية، وأول تأييد رسمي لأطماعها في فلسطين^(١٤٦).

أورد وايزمان أسباب الاندفاع البريطاني للمساعدة المفرطة للحركة الصهيونية بالقول: "بأنه من الجلي أن علاقة بريطانيا بفلسطين كانت تركز على فكرة الوطن القومي اليهودي فيها، ولولا هذه الفكرة لما حدثت بريطانيا نفسها بقبول الحماية أو الانتداب فيما بعد على فلسطين. وبالاختصار فإن بريطانيا كانت تشعر بأنه ليس لها مصلحة في فلسطين، اللهم إلا فكرة المساعدة على إنشاء الوطن القومي اليهودي فيها"^(١٤٧)، وقد عبر "ماكس نوردو Max Nordau 1849-1923" أحد زعماء الحركة الصهيونية عن تفهمه العميق للدوافع التي حركت رجال السياسة

البريطانية الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية، وهي أن هؤلاء الساسة نظروا إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة "مصدر قوة" وربما "مصدر نفع" أيضا لبريطانيا وحلفائها، وبالتالي وفروا لهم فلسطين^(١٤٨)، وقد توج العمل البريطاني الصهيوني الدؤوب بإصدار وعد بلفور ٢ تشرين الثاني ١٩١٧م الذي مثل اعترافا رسميا ببريطانيا بالهدف الصهيوني الخاص بتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود والتزاما ببريطانيا رسميا بالتعاون مع المنظمة الصهيونية العالمية لتحقيق هذا الهدف، وكان هدف بريطانيا منه استعمار فلسطين واغتصابها وإيجاد قاعدة استعمارية استيطانية فيها تفصل مشرق الوطن العربي عن مغربه، وتمكن بريطانيا من الهيمنة على المنطقة.

الخاتمة:

العلاقات السياسية لا تحتكم إلى الحب والكراهة، إنما تحكمها المصالح، ويبدو أن وايزمان اختصر أسباب الوجود البريطاني في فلسطين، من وجهة نظر يهودية، وهي: إنشاء الوطن القومي اليهودي فيها، وأدرك أنها هي الدولة الوحيدة التي كانت تمتلك الإرادة، والقدرة على تنفيذ مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وحتى يحقق هذا

المشروع غايته تم ربطه بمصالح بريطانيا، أما بالنسبة لوجهة النظر البريطانية، فإن إنشاء كيان سياسي يهودي في منطقة خاضعة للنفوذ البريطاني، يضمن لبريطانيا وجود قوة موالية لها تعمل على تثبيت نفوذها ودعمه، لا سيما أن معظم المؤسسات المالية اليهودية كانت تتخذ من العاصمة البريطانية مقراً لها. وقد أثبتت الدراسة بأنه لولا هذه الفكرة لما قبلت بريطانيا الحماية أو الانتداب فيما بعد على فلسطين، وهذا ما أثبتته الوثائق التي وردت في البحث خاصة مذكرات "جيمس فن" القنصل الثاني البريطاني في القدس. لذا لا يمكن أن تكون العواطف هي التي دفعت بريطانيا للعمل على مساعدة اليهود بل يمكن العكس، فمصلحة بريطانيا نفسها أولاً، ومصالح أوروبا برمتها ثانياً، هي من دفعتهما لنقل الفئاض البشري اليهودي الذي لا وظيفة له في الغرب إلى منطقة استراتيجية حيوية، هي فلسطين والتي من فضائلها بالنسبة للسياسة الأوروبية، بأنها تطل على البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، وتقع في قلب العالم العربي والإسلامي والدولة العثمانية، وبالتالي فإن تأسيس دولة استيطانية ترتبط مصالحها بمصالح أوروبا والغرب وتقوم بوظيفة حيوية وهي الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة، نظير أن يقوم

الغرب بالدفاع عن سكانها وضمان رفاهيتهم وبقائهم واستمرارهم، كان أمراً واقعاً ومجدياً، وقد لوحظ الإصرار البريطاني على خلق واقع ديمغرافي جديد لمدينة القدس خاصة وأنها مثلت العامل الجيد والمقنع لليهود الذين كانوا يرفضون فكرة العودة.

الهوامش:

(١) صندوق استكشاف فلسطين: (Palestine Exploration Fund) وهي جمعية بريطانية مقرها لندن، أسست سنة ١٨٦٥ م تحت رعاية الملكة فكتوريا ملكة إنجلترا. وحسبما تعلن الجمعية، فإنها جمعية علمية تهتم بالبحث في الآثار والطوبوغرافيا والجغرافية الطبيعية والتاريخ الطبيعي لفلسطين، غير أنها لا تعتدوراً مهماً في مجال جمع المعلومات الاستخباراتية العسكرية التي كانت تحتاجها بريطانيا لمد نفوذها الاستعماري في المنطقة. ويكيبيديا.

(٢) المسيري، عبد الوهاب، اليهود ودولة إسرائيل في الاستراتيجية الغربية، As Maintained on web site: <http://www.aljazeera.net> October 2004.

(٣) المسألة الشرقية Eastern Question: مصطلح عام يطلق على العلاقات السياسية بين بعض الدول الأوروبية وبين الإمبراطورية العثمانية إبان القرنين ١٨ و ١٩ وأوائل القرن العشرين. وقد بدأت

بنهضة روسيا كدولة حديثة تحت حكم بطرس الأكبر وتحلل الدولة العثمانية منذ مطلع القرن ١٨. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج ٢، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، ١٩٨٦ م، ص ٣١٩.
(٤) فن، جيمس، أزمنة مثيرة: وقائع من سجلات القنصلية البريطانية في بيت المقدس (١٨٥٣-١٨٥٦ م)، ترجمة: جمال أبو غيدا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٧ م، ص ٤١.
(5) F.O 78/3131, no 5, Jerusalem May 19th 1880, from T. Moore to Earl Granville
(٦) شولش، الكزاندر، تحولات جذرية في فلسطين ١٩٥٦-١٨٨٢ م، دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٣ م، ص ٦٠-٦١.
(*) وليم تانر يونغ William Tanner Young: القنصل البريطاني المعين في بيت المقدس ١٨٣٩-١٨٤٥ م. ويكيبيديا.

(7) Bovis, Eugene, The Jerusalem Question 1917-1968, Hoover Institution Press Stanford, Calif, 1971, P.1.
(٨) هنري جون تيمبل (Henry John Temple) وقد اشتهر بلقب فيسكونت بالميرستون الثالث (3rd Viscount Palmerston): وهو سياسي بريطاني ١٧٨٤-١٨٦٥ م. بدأ حياته كمصمم أزياء ورجل فكا هي في

Dec. 1885. (وثائق وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية).

(13) F.O. 78/444, No.5 Jaffa, 25th January. 1841. □

(*) مايكل سولومون الكساندر ١٧٩٩-

١٨٤٥ م: أول مطران انجليكاني في بيت

المقدس، ركز خلال وجوده في منصبه

على تنصير يهود فلسطين. ويكيبيديا.

(14) Gidney, M.A, The History of the London Society for Promoting Christianity Amongst the Jews 1809-1908, Ltd Press, London PP. 9-10. □

(*) أنتوني أشلي كوبر لورد

شافتسبري Anthony Ashley-Cooper,

Lord Shaftesbury ١٨٠١-١٨٨٥ م:

واحد من أهم الشخصيات الإنجليزية في

القرن التاسع عشر، ومن أهم المصلحين

الاجتماعيين. وهو شقيق زوجة رئيس

الوزراء بالمرستون الذي كان يثق فيه تماماً

ويأخذ بمشورته. وقد كان شافتسبري

زعيم حزب الإنجلييين، لذا فإن اليهود

كانوا أحد الموضوعات الأساسية في فكره،

كما كانوا محط اهتمامه الشديد. ويكيبيديا.

(١٥) المسيري، عبد الوهاب، اليهود ودولة

إسرائيل في الاستراتيجية الغربية،

as Maintained on web site: <http://www.aljazeera.net> October 2004. □

(١٦) شولش، الكزاندر، تحولات جذرية، ص ٦٤.

مقاهيلندتم تمكّن لاحقاً من تولي

منصبوزير الخارجيةالبريطاني في ثلاث

مناسبات، وخدم مرتينكرئيس وزراء، وكان

له شأن كبير في توسيع دائرة بريطانيا

الدبلوماسية الخارجية. ويكيبيديا.

(٩) المسيري، عبد الوهاب، اليهود ودولة

إسرائيل في الاستراتيجية الغربية،

as Maintained on web site: <http://www.aljazeera.net> October 2004. □

(١٠) معاهدة لندن: هي معاهدة تمت عام

١٨٤٠ م بين الدولة العثمانية وأربع دول

أوربية الامبراطورية الروسية وبروسيا

والمملكة المتحدة والإمبراطورية النمساوية

للحدّ من توسعات محمد علي باشا حاكم

مصر على حساب أراضي الدولة العثمانية

والتي أيضاً كانت سبباً في تقليص

صلاحياته. ويكيبيديا.

(١١) محافظة، علي، العلاقات الألمانية الفلسطينية

من إنشاء مطرانية القدس البروتستنتية

وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ١٨٤٢-

١٩٤٥ م، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، بيروت، ١٩٨١ م. ص ٤١، أبو عز

الدين، سليمان إبراهيم باشا في سوريا: هو

تاريخ بدء النهضة الحديثة، دن، د.م،

١٩٢٨ م، ص ٧٥.

F.O. 195/1514, No.12 Jerusaem, 4th (١٢)

- (٢٦) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٤٤.
- (27) Cohen, Amnon, Baer, Gabriel, Egypt and Palestine: a millennium of association (868-1948) Ben-Zvi Institute for the Study of Jewish Communities in the East; St. Martin's Press, Jerusalem: New York, 1984, PP. 223-224.
- (٢٨) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٤٤.
- (*) موسى مونتيوري (١٧٨٤-١٨٨٥): ثري بريطاني يهودي، ومن كبار المدافعين عن حقوق اليهود في بريطانيا والعالم. ولد في بريطانيا لأسرة إنجليزية ذات أصول يهودية. وهو ثاني يهودي يتولى منصب عمدة لندن، وأول يهودي يحصل على لقب سير. وكان من أوائل المشاركين في تأسيس البنوك الصناعية. وقد زار فلسطين سبع مرات، وقد نجح في إقناع محمد علي باشا والسultan العثماني بمنح امتيازات لليهود في فلسطين وفي جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية. ويكيبيديا.
- (٢٩) العابدي، محمود، قدسنا، المنظمة العربية للترية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات، بغداد، ١٩٧٢م، ص ٣٣.
- (*) السكناج/ الأشكينازيم: اسم يذكر في التوراة وكان يستخدم عند الأدباء اليهود إشارة إلى ألمانيا، وعلى الأخص المنطقة الواقعة على نهر الراين، لذلك أطلق على يهود ألمانيا اسم اشكنازين، وجرى التوسع في استعمالها لاحقاً للإشارة إلى يهود أوروبا
- (١٧) شولشالكزاند، تحولات جذرية، ص ٦٤، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، ق ٢، مج ٦، ص ٨٤١.
- (١٨) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٤٠٤، ١٩ تموز ١٩٠٩م، ص ١٥-١٦.
- (*) صموئيل غوبات (١٧٩٩-١٨٧٩م): سويسري لوثري اعتنق المذهب الأنجليكاني وعمل مبشراً في أفريقيا ثم تولى منصب مطران بيت المقدس البروتستانتي منذ سنة ١٨٤٦م وحتى مماته عام ١٨٧٩م. ويكيبيديا.
- (١٩) فن، أزمة مثيرة، ص ١٨١.
- (٢٠) المصدر نفسه، ص ١٤٤.
- (٢١) شولش، الكزاند، تحولات جذرية، ص ٦٥. Hyamson, Albert, The British consulate in Jerusalem in relation to the Jews of Palestine, 1838, 1914, S.N London, 19..., PP. 5-6.
- (٢٢) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٢٤-١٢٦.
- (٢٣) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٢٠، ١٨ آيار ١٨٦٣م، ص ٢١٣. رستم، أسد، العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ج ٥، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٤م، ص ٢٢٤.
- (٢٤) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، ١٧ شباط ١٨٦٥، ص ١٩٩.
- (٢٥) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٨٨، ١١ آب ١٨٨٦م، ص ٥٣.

- (٤١) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٤٤.
- (42) F.O. 78/344 (Consular) Cairo 10th December 1838, from Colonel-compbell to Palmerstone. Bentwich, Norman- England in Palestine, Kegan Paul Trench, London, 1932. pp.2-3. □
- (43) F.O. 78/367, No 31 Jerusalem 10th October 1939 from W.T Young to Palmerston. □
- (٤٤) شولش، الكزاندر، تحولات جذرية، ص ٦٧.
- (٤٥) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٤١.
- (46) Hayamson, Albert, The British Consulate, PP. 7-10. □
- (٤٧) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٥٧٣.
- (٤٨) المصدر نفسه، ص ١٥٣.
- (٤٩) المصدر نفسه، ص ١٧٢.
- (٥٠) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
- (٥١) المصدر نفسه، ص ١٥٢.
- (٥٢) عوض، عبدالعزيز، متصرفية القدس الشريف ١٨٧٤-١٩١٤، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٦، ص ٢٧٩.
- (53) F.O. 78/2005, No.6, Jerusalem, 2 August. 1849. □
- (54) Hayamson, Albert, The British Consulate, P. 35. □
- (٥٥) عوض، عبدالعزيز، متصرفية القدس، ص ٢٨٠.
- (٥٦) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٦٢.
- (٥٧) المصدر نفسه، ص ١٦٨.
- (٥٨) محمود، أمين، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب الشرقية والوسطى والغربية، ما عدا يهود البلقان الذين كانوا يعتبرون من السفاريم. ويكيبيديا.
- (٣٠) رستم، أسد، الأصول العربية، ص ٦٥-٦٦.
- ٦٦ سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٢١، ٧ نيسان ١٨٣٧ م، ص ٩٦.
- (٣١) عوض، عبد العزيز، القدس وسياسة الدولة العثمانية ١٨٧٤-١٩١٨ م، في كتاب: ندوة يوم القدس بين الماضي والحاضر، بحوث ندوة جامعة البتراء، دار المناهج للنشر والتوزيع ٢٠٠٢ م، ص ١٠٥.
- (32) Scholch, Jerusalem; in Asali (Editor), Jerusalem in History, Scorpion, Essex, England P.202. □
- (٣٣) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٣٥-١٣٦ و ١٣٦.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ١٩٧.
- (٣٥) شولش، الكزاندر، تحولات جذرية، ص ٦٣-٦٤.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ٦٥.
- (37) F.o.78/353, No 2, 31 january, 1839, Bidwell to Young □
- (٣٨) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٥٠٧.
- (٣٩) المسيري، عبد الوهاب، اليهود ودولة إسرائيل في الاستراتيجية الغربية، as Maintained on web site: <http://www.aljazeera.net> October 2004. □
- (٤٠) شولش الكزاندر، تحولات جذرية، ص ٦٦-٦٧.
- F.O. 78/390, No.134 London, ٦٧ 11th August. 1840

- العالمية الأولى، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤م. ص ٢٦، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة ق ٢، مج ٦، ص ٨٤٢.
- (٥٩) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٤٢٨-٤٢٩.
- (٦٠) للتوسع حول هذا الموضوع انظر: فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٦٠٦-٦١٦.
- (٦١) الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، ق ٢، مج ٦، ص ٨٤٢.
- (٦٢) محمود، أمين، مشاريع الاستيطان، ص ٣٧.
- (63) Tuchman, Brbara, Bible and Sword; How the British came to Palestine, Papermac, London, 1982, p. 131.
- (٦٤) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٥٧٤.
- (٦٥) محمود، أمين، مشاريع الاستيطان، ص ٢٥-٢٦.
- (*) إدوارد كازاليت Edward Cazalet: ثري بريطاني كان يدعو إلى تحسين خط سكة الحديد العراقية لتفويت الفرصة على ألمانيا وفرنسا في النفاذ إلى هناك. وهو شريك لأوليفانت في تبني المشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين. ويكيبيديا.
- (٦٦) شولش، الكزاندر، **تحولات جذرية**، ص ٧٩.
- (٦٧) المرجع نفسه، ص ٧٩.
- (*) لورانس أوليفانت Laurence Oliphant: مؤلف وسائل ودبلوماسي وصوفي مسيحي
- بريطاني، عمل في السلك الدبلوماسي البريطاني بعض الوقت، وكان عضواً في البرلمان. ويكيبيديا.
- (٦٨) المسيري، عبد الوهاب، اليهود ودولة إسرائيل في الاستراتيجية الغربية، as Maintained on web site: <http://www.aljazeera.net> October 2004.
- (٦٩) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٨٥٣-٨٥٤.
- (70) Hayamson, Albert, The British Consulate, PP. 262-265.
- (٧١) محمود، أمين، مشاريع الاستيطان، ص ٦١.
- (٧٢) المرجع نفسه، ص ٦١.
- (٧٣) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٧٩، ٢١ آيار ١٨٩٠م، ص ٥٩.
- وسجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٩٢، ٥ كانون الأول ١٨٩٩م، ص ٧١.
- (٧٤) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٨٤٥.
- (٧٥) مصطفى، أحمد عبد الرحيم، "موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية" المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٤م، ص ٦٧٦.
- (٧٦) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ١٣٩.
- (77) Bin Arie, Yehoshua, Jerusalem in the Nineteenth Century, Emergence of the New City. Martins Press, new York. 1984. P. 262.
- (78) Scholch, Jerusalem; in Asali (Editor), Jerusalem in History, P.209.
- (٧٩) أحباء صهيون: حركة تهدف إلى تجميع الشعب اليهودي في فلسطين، ظهرت بين

- (٨٩) كوثراني، وجيه، فرنسا وفلسطين والصهيونية، المؤتمر الدولي الثالث لبلاد الشام في مطلع القرن العشرين، مج ٣، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩ م، ص ٥٤. (90) Bin Arie, Jerusalem, PP.126-131. 278-279. □
- (٩١) جريس، سمير، القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال والتهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١ م، ص ١٩.
- (٩٢) العابدي، محمود، قدسنا، ص ١٣٥، عوض، عبدالعزيز، القدس وسياسة الدولة العثمانية، ص ١١٣. العناني، جاسر، القدس، دراسات قانونية وتاريخية، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ٢٠٠٣ م، ص ٨٢.
- (٩٣) أبو بكر، أمين، ملكية الأراضي في متصرفية القدس، ص ٦٠٠.
- (٩٤) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٥٧، ١٣ حزيران ١٨٧٠، ص ٣٤٣.
- (٩٥) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، ٢ حزيران ١٨٦٨، ص ٩٩. والقيراط: وحدة قياس وهو جزء من ٢٤ جزءاً من الفدان، أي ما يعادل ١٧٥ متر. h انظر: ويكيبيديا.
- (96) F.O. 798/20, No 23, Separate Jerusaem, 6th June. 1869.
- (٩٧) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٥٧، ٢٨ كانون الأول ١٨٧٣ م، ص ١١٩. وسجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٦٠، ١٤ تشرين الثاني ١٨٧٢ م، ص ٣٤٤.
- (٩٨) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٥٩، تشرين الأول ١٨٧٢ م، ص ٦٣.
- (٩٩) سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٦٠، ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧٢ م، ص ٣٤٤.
- (١٠٠) البيع الوقائي: هو أن يبيع شخص لآخر أشياء منقولة أو غير منقولة بمبلغ معين بشرط أن يرد له المبيع متى جاء بالثمن المتفق عليه. ويكيبيديا.
- (١٠١) انظر على سبيل المثال وليس الحصر: سجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٤٤، ٢٨ آب ١٨٦١ م، ص ١٩٠. وسجل المحكمة الشرعية في مدينة القدس، رقم ٣٥٩، ٢٣ حزيران ١٨٧١ م، ص ٥٣.
- (١٠٢) للتوسع في هذا الموضوع انظر: عوض، عبدالعزيز، متصرفية القدس الشريف ١٨٧٤-١٩١٤ م، ص ٢٤٦-٢٤٧.
- (١٠٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٧.
- (١٠٤) افنيري، اريه، دعوه نزع الملكية والاستيطان اليهودي والعرب في الفترة ١٨٧٨-١٩٤٨ م، ترجمة: شريف البرغوثي،

Tibawi, A.L.: British Interests in Palestine 1800-1901, Oxford University Press, London, 1961, pp. 190-192. □

(١١٠) الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة

ق ٢، مج ٦، ص ٨٤٩؛ الدباع، بلادنا

فلسطين، ق ٢، مج ١٠، دار الجليل، بيروت،

١٩٧٤ م، ص ٤٩-٥٠؛ الريان، رجائي،

القدس في العهد العثماني، ص ٢٦٦.

(١١١) حجازي، عرفات، الصهيونية: نشأتها

وقيادتها ومنظماتها السرية، دن، د.م،

١٩٨٠ م، ص ٥٦.

(112) Hayamson, Albert, The British Consulate, PP.477. □

(١١٣) العابدي، محمود، قدسنا، ص ١٣٤.

Scholch, Jerusalem; in Asali (Editor), Jerusalem in History, P.244.

(114) Poarth, Yashua, The Emergence of the Palestine-Arab National Movement 1918-1929, Frank Cass, London, 1974. P.26. □

(١١٥) المرجع نفسه، ص ٤٨٨.

(116) F. O. 78/1848, Separate Jerusaem, 6th April. 1894. □

(117) Poarth, The Emergence, P.26. □

(١١٨) أبو بكر، أمين، ملكية الأراضي، ص ٦٠٠.

(119) F.O37/356, NO 62. Jerusalem, Nov. 1907. □

(١٢٠) ميلمان، يوسي، الإسرائيليون الجدد، ص ٤٤.

(١٢١) هرتزل، يوميات هرتزل، ص ٤٧.

دار الجليل للنشر والتوزيع، عمان،

١٩٨٦ م، ص ٧٣.

(١٠٥) العارف، عارف، المفصل في تاريخ

القدس ١٨٩٢-١٩٧٣ م، مكتبة الأندلس،

القدس، ١٩٦١ م، ص ٢٩٦.

(١٠٦) جريدة البشير، ع ٦٦٠، ٣ أيار ١٨٨٣ م.

(١٠٧) جريدة المؤيد، ع ٢٨٨٢، ١٥ تشرين

الأول ١٨٩٩ م، ص ٢.

(١٠٨) جريدة المقتطف، الجزء ٢٢ نيسان ١٨٩٨ م،

ص ٣١٠.

(١٠٩) عندما كانت الدولة العثمانية في أوج

مجدها وقوتها منحت بعض رعايا الدول

الأوروبية إعفاء من القوانين المحلية أثناء

إقامتهم في بعض الموانئ أو محطات القوافل

التجارية. وحينما ضعفت الدولة، سرعان

ما تغير الغرض الأساسي من الامتيازات،

فتحول إلى حماية رعاياها. فادعت فرنسا

حماية النصارى الكاثوليك في جميع أنحاء

الدولة العثمانية، وادعت روسيا حماية

الأرثوذكس، وادعت بريطانيا حماية اليهود

في فلسطين والبروتستانت في جميع الولايات

العثمانية. فشملت الحماية بعض اليهود

والنصارى الذين اكتسبوا جنسية أو حماية

دولة أجنبية بالعمل في القنصليات

والوكالات التجارية أو المعاهد العلمية.

فأصبحت الامتيازات عبئاً ثقيلاً على كاهل

الدولة العثمانية وطريقة قانونية لتدخل

الدول الأجنبية في شؤونها الداخلية. أنظر:

- (١٢٢) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ١٨٩١-١٩٠٨ م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦ م، ص ٣٤.
- (١٢٣) هرتزل، يوميات هرتزل، ص ٣٥.
- (١٢٤) الحوت، بيان، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨ م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٦ م، ص ١٤.
- (١٢٥) أمين، محمود، مشاريع الاستيطان، ص ١٧٤.
- (١٢٦) فن، جيمس، أزمة مثيرة، ص ٧٤٨.
- (١٢٧) أمين، محمود، مشاريع الاستيطان، ص ١٧٦.
- (١٢٨) المسيري، عبدالوهاب، اليهود ودولة إسرائيل في الاستراتيجية الغربية، as Maintained on web site: <http://www.aljazeera.net> October 2004.
- (١٢٩) بني المرجة، موفق، صحوة الرجل المريض، ص ٢٢٨.
- (130) F.O 456/NO 22326. Jerusalem, April. 1914.
- (١٣١) بني المرجة، موفق، صحوة الرجل المريض، ص ٢٢٨.
- (١٣٢) منسي، محمود، تاريخ الشرق العربي الحديث، دار الوزان للطباعة والنشر، د.م، د.ت.، ص ٤٧٥.
- (١٣٣) شراب، مجاهد، الأرض الفلسطينية في ظل الإدارة العسكرية والانتداب البريطاني ١٩١٨-١٩٤٨ م، شؤون عربية، ع ٤٤،
- ص ١٠٥، ١٩٨٥ م. الريان، رجائي، القدس في العهد العثماني، ص ٢٠٧.
- (١٣٤) شراب، مجاهد، الأرض الفلسطينية، شؤون عربية، ع ٤٤، ص ١٠٥؛ الريان، رجائي، القدس في العهد العثماني، ص ٢٠٧.
- (١٣٥) الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، ق ٢، مج ٦، ص ١١.
- (١٣٦) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، ج ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥ م، ص ٥١٠.
- (١٣٧) حاييم وايزمان: ولد في روسيا، ثم برز كعالم كيميائي. شارك في جميع المؤتمرات الصهيونية عدا المؤتمر الأول، هاجر إلى بريطانيا ١٩٠٤ م. وعمل مدرساً في جامعة فيكتوريا، في مانشستر، خلف هرتزل في قيادة الحركة الصهيونية: انظر: منظمة التحرير الفلسطينية، الفكرة الصهيونية، النصوص الأساسية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ٤٤٣.
- (١٣٨) وزارة الدفاع الوطني، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، الجيش اللبناني والأركان العامة، الشعبة الخامسة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٣ م، ص ٧٠-٧١.
- (١٣٩) بلفور (١٨٤٨-١٩٣٠ م) سياسي بريطاني من حزب المحافظين. شغل عدة

والدينية للطوائف غير اليهودية ففي البلاد أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود على البلدان الأخرى، وبمركزهم السياسي. انظر النص الأصلي لوعده بلفور في: Palestine Royal Commission Report presented by the Secretary of state for the Colonies to Parliament by command of his Majesty, (London, H.M.S.O July 1937) P.22.

(١٤٦) محافظة، علي، العلاقات الألمانية، ص ١٧١؛ وزارة الدفاع الوطني، القضية الفلسطينية، ص ٧١.

(١٤٧) وايزمان، مذكرات وايزمان بقلمه (أوراق وايزمن)، د.ن، د.م، ١٩٥٢م، ص ٦٣.

(١٤٨) المسيري، عبدالوهاب، اليهود ودولة

إسرائيل في الاستراتيجية الغربية،

as Maintained on web site: <http://www.aljazeera.net> October 2004.

مناصب سياسية مهمة بالحكومة البريطانية وكان أهمها نائب رئيس الوزراء، ورئيس حزب المحافظين وبفعل الهزائم السياسية المتوالية، اضطر للتنازل عن رئاسة الحزب، اشترك بالحكومة الائتلافية، ثم أصبح وزيرا للخارجية في حكومة لويد جورج. اعتزل السياسة عام ١٩٢٢م حتى موته. انظر: الهزيمة، محمد، الصراع العربي الإسرائيلي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م. ص ٣١.

(140) Weizmann, Trial and Error, Hamish, Hamilton, London, 1949. P.189.

(١٤١) وزارة الدفاع الوطني، القضية الفلسطينية، ص ٧١.

(١٤٢) الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، ق ٢، مج ٦، ص ٨٥١.

(١٤٣) المرجع نفسه، ص ٨٥١.

(١٤٤) محافظة، علي، العلاقات الألمانية الفلسطينية، ص ١٦٧.

(١٤٥) تصريح بلفور: صدر هذا التصريح عن وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور في رسالة بعث بها إلى زعيم الطائفة اليهودية في بريطانيا اللورد وتشيلد في الثاني من تشرين الثاني-١٩١٧م، وتضمن عطف الحكومة البريطانية على المشروع الصهيوني الرامي إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وبذل خير مساعيها لتحقيقه، شريطة عدم إلحاق الضرر بالحقوق المدنية

تعاقل اللغة والصوت والدلالة في ديوان (مطر سري) لزهير أبو شايب

د. هناء علي حسين البواب *

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/٢/٦ م

تاريخ قبول البحث: ٢٠١٨/٧/٣٠ م

ملخص

يهدف البحث لرصد ظواهر الإيقاع الداخلي في ديوان "مطر سري" للشاعر الفلسطيني زهير أبو شايب، والإيقاع المقصود هنا هو ذلك الإيقاع الذي ينتمي إلى التناغم والتشابه والتنافر والاختلاف، وما يتخلل ذلك من تنغيم وهمس ونبر ووقف ومظاهر صوتية أخرى تتأتى من تنابع انتظام العلاقات والتراكيب اللغوية والعلاقات الدالة والتشكيل البصري والحالة النفسية المنبثقة من الموقف الشعري والتجربة الشعورية، لتنتج إيقاعاً داخلياً يسهم في بناء العمل الفني، وذلك في محاولة المتلقي الدخول إلى عالم القصيدة والتعرف إلى أسرارها الإيقاعية الخارجية والداخلية وفهم آلية عمل الإيقاع من خلال مبدأ التمايز والتكرار والانسجام، بما يثيره ذلك في المتلقي من قبول أو نفور.

واعتمد الباحث المنهج الأسلوبى في استقراء النصوص وتفكيكها، وتحديد أهم الملامح البارزة التي تفرد بها الشاعر، مستعيناً بالمنهج الوصفي التحليلي، فقام بوصف الظواهر الإيقاعية ثم تحليلها. وذلك لحصر متغيرات البنية الإيقاعية ودورها في البناء الفني.

واعتمد البحث على ظاهرة الإيقاع الصوتي بأهم ظواهرها: إيقاع الصوت، إيقاع اللفظ، إيقاع الجملة، وإيقاع الأساليب وإيقاع التوازي بما يشمل من تطابق وتمائل أو اختلاف.

كلمات مفتاحية: إيقاع داخلي، دلالة، صوت، تراكيب لغوية.

*أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

Abstract

The study aims to examine the phenomena of rhythm within the collection Matar Serri (Secret Rain) by the Palestinian poet Zuhair Abu Shayib. The rhythm in question is that which belongs to harmony and uniformity, yet can be found as well in discord and dissimilarity. It was rather understood that in this study he depends on the internal rhythm, which is composed of following the steadiness of linguistic relations and structures, the indicative relations, the visual form and the emotional state emerging from the poetic stance and sentimental experience, producing an internal rhythm which contributes to the construction of the work of art. The audience attempts to enter into the poem's world, to come to know its external and internal rhythmic secrets and to understand how the rhythm works through the principle of differentiation, repetition and harmony, which inspires the audience either to accept it or reject it. The researcher also adopted stylistics. He examined the texts, breaking them down and extracting their external and internal rhythmic values and defining the principal features with which the poet set himself apart. He summoned a descriptive and analytical approach, describing the rhythmic phenomena and then analyzing them, in order to limit the variables of rhythmic composition and their role in the artistic construction.

The research was based on the phenomenon of sonic rhythms, and its most important representations: the rhythms of sound, pronunciation, sentences, phrases and parallelism, including uniformity, similarity, or dissimilarity.

المقدمة:

الخارجي أو الموسيقي: الوزن والقافية

والوقوفات، وذلك في محاولة فهم الأسس
العروضية وإدراك بعض الخصائص

لقد قامت العديد من الدراسات الحديثة
حول مفهوم الإيقاع الشعري وظواهره في
الشعر العربي، ولعل معظمها تناول الإيقاع

الإيقاعية للغة من خلال الاستفادة من علم اللسانيات وعلم الإيقاع.

وقد تناول العديد من الدارسين عنصر الدلالات الصوتية بالدراسة الذي يعتمد على مسافات متقاربة بالتساوي لإحداث الانسجام، ضمن آلية المقاطع والتنغيم والنبر، في محاولة فهم آلية نظام الإيقاع، والحركة الخارجية والداخلية الناشئة في النص.

واقصر مجال الدراسة على ديوان (مطر سري) للشاعر زهير أبو شايب^(١) وذلك لأهمية أغلب نصوصه من حيث الإيقاع المبني فيها على المماثلة والاختلاف، فقد كان يوازن بين الكلمة وأختها بشكل هندسي يغري القارئ بقراءة ديوانه.

وقد جاء الإيقاع بتتابعه المنتظم في الموسيقى والشعر، ولا شك أن الشعر في حقيقته ضرب من الموسيقى -فهو مرتبط في كثير من الأحيان بتعريف الإيقاع الموسيقي^(٢)، ويكون التكرار بين الإيقاع لموسيقى والإيقاع الشعري على أساس أن الشعر مادته الحروف والكلمات (تقسيم الزمان بالحروف المسموعة)، وأن الموسيقى مادتها الأنغام (تقسيم الزمان بالنغم أي المقاطع)^(٣).

وتقوم الدراسة على مجموعة من التعالقات الإيقاعية:

١- تعالق الإيقاع الصوتي:

الكلمات المكتوبة فعل إنساني تعبر عن أصوات لغوية لموقف معين، فهي تبرز عند النطق بجوانب متعددة، ولها خصائص متباينة، وهنا الإيقاع في الكلام كما في غيره من الأنشطة الإنسانية ناشئ عن التكرار المنتظم، لنوع ما من الحركات تكررًا محددًا توقعًا -وقد لا- باستمرار أطراد وقوعه^(٤). ولكن الصوت الإنساني معقد، إذ يتركب من أنواع مختلفة في الشدة ومن درجات صوتية متباينة، كما أن لكل إنسان صفة صوتية خاصة تميز صوته من صوت غيره من الناس، فليس صوت الإنسان في أثناء حديثه ذا شدة واحدة، أو درجة واحدة، بل هو متعدد الشدة والدرجة، وهو مع هذا أيضًا ذو صفة خاصة تميزه من غيره من الأصوات^(٥).

وما الكلمات إلا أصوات، تتكون من حروفها ينطقها الإنسان، تتفق وتتباعد في خارجها، مع تقارب بعض صفاتها وخصائصها الصوتية^(٦)، لتشكيل كلام يتواصل الإنسان به، ومع ذلك فالعملية الذهنية التخيلية لا تنفصل عن بنية

ويكسرن القارب

تتكون هذه القصيدة من مقطعين يبدأ كل منهما بمجمل كوني عشر نساء متبوعة بمنظومة من النعوت التي يريد الشاعر أن تكون في تلك المرأة المخاطبة.

فالشاعر يكشف عن إرادته الشخصية تجاه مواصفات الأنثى المعينة، فيستهل القصيدة بأسلوب أمر عن طريق الفعل (كوني) المكون من مقطعين كل منهما ينتهي بحرف مد (كو+ني) وهذا الفعل يجسد معنى الطلب القوي من حبيبته لتكون بخصائص عشر نساء (مكتملات، يتقاسمن الموج، يمشين على الماء، خفيفات، حرات، يحملن العالم في أيديهن وأعينهن، يُبحرن بقلبي نحو الله، يكسرن القارب).

وتلك صفات منشودة من لدن الشاعر لتكون المخاطبة امرأة تحمل خصائص الماء، ومتعلقاته من بحر وموج وقارب وقدرة على الإبحار كي تبحر به إلى الله ثم تكسر القارب كي لا يعود إلى الأرض. وهو طلب أشبه بالمعجزة غير أنه حلم من أحلام اليقظة أو أمنية مستحيلة.

ويلاحظ أن صوت النون في المقطعين غالب على أصوات الحروف الأخرى، فقد تكرر سبع عشرة مرة، فجاء خمس مرات كحرف أصلي في (كوني، كوني، نساء،

التركيب والدلالة، إذ تقوم على علاقة التناسب والتلاؤم والانسجام بين المسموعات والمفاهيم، وينتج عن هذه العلاقة ظهور البنية الإيقاعية الداخلية^(٧).

فقد أقيم الإيقاع في ديوان زهير أبو شايب على تناغم الشبكة العلائقية الخفية بين بنية الإيقاع الخارجي والداخلي، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولكن هناك بعض الظواهر المميزة، ظهرت في الإيقاع الداخلي كالنغمة الإيقاعية الناتجة من تكرار أصوات بعينها في إبراز الإيقاع وإثرائه، من خلال اختلاف مخارج الأصوات وتقارب صفاتها، الذي نوع في الحركة الصوتية التي أنتجت ثموجات نغمية متجددة، نوعت في فاعلية البنية الإيقاعية، وخدمت المقصد الدلالي كما في قصيدة: (كوني عشر نساء)^(٨)

كوني عشر نساء مكتملات

يتقاسمن الموج

وymشين على الماء

خفيفات حرات

فيما البحر هنا

قرب خليفته

يُصغي كآب غائب

كوني عشر نساء

يحملن العالم في أيديهن وأعينهن

ويبحرن بقلبي نحو الله

نساء، وأعين، ونحو) ولا أرى أنه قدّم إشعاعاً دلاليّاً ما. وورد (نساءٍ مكتملاتٍ، خفيفاتٍ، حرّاتٍ، كآبٍ) فأوحى التنوين هنا إلى شدّ الانتباه إلى العمق النفسي الذي يصور باطن الرغبة عند الشاعر، إذ التنوين هنا يكشف نطقه في عمق الخلق في وقفة صوتية مضغوطة (ئِنْ، تِنْ) كما ورد حرف النون (نون النسوة) في آخر الأفعال (تتقاسمن، يمشين، يحملن، يحرن، يكسرن) وكذلك نون التأنيث المشددة بالضم: "هُنَّ: (أيديهنّ، أعينهنّ) فنون النسوة في الأفعال الخمسة المذكورة وكذلك نون التأنيث في هُنَّ وردتا مبنيتين على الفتح، والفتح أقرب إلى أفق التخيل وأقرب إلى تأكيد معنى الحاجة إلى عشر نساء.

ولما كانت نون النسوة متلائمة مع موضعها في البنية النحوية لكل جملة فعلية وردت فيها، فإن تكرارها بالإضافة إلى أنوثة النون في (أيديهنّ وأعينهنّ) لربما ينبئ عن انسجام دلاليّ مع معنى من معاني حرف النون وهو (الحوت)، فالمرأة في القصيدة بحرية مائية مجتمعة في عشر نساء يمشين على الموج في غفلة عن البحر نفسه الذي يشبه أباً غائباً، فيتمتعن بكامل

حريتهنّ. نساء أسطوريّات ينقذن العالم ثم يأخذن قلب الشاعر إلى الله بعيداً عن تراب الدنيا كنوع من الخلاص. ولعل في ذلك إشارة إلى أسطورة الأنثى الحبيبة.

غير أن المظاهر اللغوية في أسلوب الأمر المكرر ب (كوني) وفي النعوت الكثيرة يكشف كذلك عن وثام صوتي بين الإيقاع الداخلي لتلك المظاهر وإيقاع الكلمات الخارجي عبر موسيقى التفعيلة في بحر الخبب الذي يقوم في الأصل على (فعلن، فعلن) وهو بحر راقص، على غرار قصيدة القيرواني:

يَالِيلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ

أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

ولكن استخدام التفعيلة هنا وليس البحر جعل الموسيقى الخارجية تأملية هادئة ملائمة لمشاعر التمني عند الشاعر، ومتوافقة مع نعومة الماء عبر تتابع الأفعال التي هي صفات في موقعها النحوي، وتقاسم تكرار (فعلن، فعلن، فاعل).

وفي إدارة الموسيقى الخارجية:

كوني عشرَ نساءٍ مكتملاتٍ

فعلن / فاعل / فعلن / فاعل / فعلن

تماما مثل تتابع أمواج البحر، وهنا ربما
يجوز القول: إن أخلاق البحر تماثل أخلاق
المرأة المخاطبة المتحدة بعشر نساء.

ولعله يمكن القول كذلك إن عبارة
(ويكسرن القارب) متماثلة في التجنيس
الصوتي ولا سيما كلمة القارب مع كلمة
القلب حين تقول العامة، خلق الله فلانة
وكسر القلب. كناية عن أحاديثها الجمالية
التي لا تتكرر.

يزاد على ذلك ما أضافته كلمتا (غائب،
وقارب) من تنظيم إيقاعي خارجي
بصفتها متجانستين صوتيا حققا شرط
القافية الجزئية والكلية في القصيدة.

فالشاعر يعمل على تلوين النغمة
الإيقاعية بتنوع استعماله وتنظيمه لأصوات
الحروف، فالحروف توظف من خلال
الطاقة الإيحائية لأجراسها، كحوامل
للمعنى، وكأدوات تعبير عنه، ذات قدرة
على نقلها بإيقاعاتها وأبعادها الصوتية^(٩)،
فجعل منها أداة توصيلية للدقة الشعورية
المتوترة من صوت وحركة، مما جعل
للموجات الصوتية فاعلية إيقاعية تأثيرية
في المتلقي، بتكراره أصواتا متباعدة
المخرج، متقاربة الصفات، إن هناك علاقة
دقيقة بين التكرار الصوتي، بشتى ضروبه،
وبين صوت الشاعر الداخلي... إن هذا

التنسيق والتقسيم والتكرار وسيلة من
وسائل الشاعر في خلقه الفني. فإذا تأملنا
قصيدة أحب عينيك^(١٠) لوقفنا على شبكة
من العلائق اللغوية الصوتية الدلالية
المجدولة في سياق وجداني وإيقاعي يكمل
أحدهما الآخر:

أحب عينيك مهما كان لونهما
لأن ثمة بحرا فيهما وسما
فلا تري غير ماتبعين رؤيته
وما يكون جديرا أن يرى بهما
أحب رشفة ضوء منك يا امرأة
لو لامست أي عرق يابس لنما
كأن إحدى الإلهات اشتهد مطرا
يكفي لتلمس جذرا أو ترى حلما
شربت من فمها خمرا مقطرة
لو ذاقها هادم اللذات لانهما

فالقصيدة تمثل دفقة شعورية أربكت
حواس الشاعر، ولا سيما بصره أمام لعبة
لون العينين عند الحبيبة، ففي عينها بحر
وسماء كافيان للتخلي عن الألوان
الأخرى، والحبيبة مملوءة بالضوء الذي
يؤدي فاعلية الماء والمطر، فلون عينها ماء
مضيء أو ضوء مائي، حتى أن ريقها له
فاعلية الخمر المقطرة فثمة وحدة لونية بين

الضوء والماء والخمر، فالقصيدة تسجل انفعالا من الذهول والاستغراب والإعجاب في دلالاتها العميقة والظاهرة. وأحسب أن البنيتين اللغوية والإيقاعية تضافرتا معاً لإنجاح الانسياب التعبيري المندھش بجمال العينين، والتراكيب اللغوية في الأبيات الخمسة قامت على تشكيل بلاغي متّحد، فنصف الشطر الأول من البيت الأول أسلوب تقريريّ إخباريّ، ونصفه الثاني أسلوب شرط، ثم جاء الشطر الثاني للبيت الأول صيغة تعليل لسبب الحب، وورد البيت الثاني نتيجة للبيت الأول، وهنا أراد الشاعر أن يقدم وصية لتلك المرأة عن طريق أسلوب النهي فيهاها ألا ترى إلا ما تريد رؤيته وما يكون جديراً أن يرى بهما. فيما عاد الشاعر يؤكد حبه لها في البيت الثالث فكرر مفردة أحب) هذا الفعل المضارع الذي يفيد الحاضر والمستقبل أي حال الشاعر لحظة حديثه مع المحبوبة، لكنه تكرر مصحوب بأسلوب التمني بصيغة امتناع لامتناع بوساطة (لو) ثم جاء البيت الرابع مقترنا بالبيت الثالث فكان تشبيهاً مركباً، بمعنى أن المرأة المرشوقة بالضوء كان ضوءها نضراً يلامس الجذور في موضعها السفلي من الأرض، ويلامس

الأفق في موضع الحلم، فثمة صورة فنية لونية وحسية وحركية منفصلة تلائم الانفعال العاطفي عند الشاعر. ونرى الشاعر في البيت الأخير يختم دفقته الشعورية بموقف حسيّ حققه الأسلوب التقرير الإخباري في الشطر الأول، وأسلوب التمني في الثاني. ويبدو أن القصيدة على قصرها حشدت حزمة من التكرارات اللغوية والأساليب البلاغية المتنوعة، حتى أن أسلوب النداء فيها وهو (يا امرأة) لم يفد الدعاء بقدر ما أفاد التعبير الصارخ، كأن الشاعر ينادي على نفسه الذاهلة وليس على الحبيبة. فتكرار (أحب) أكد شعور الشاعر، وتكرار أسلوب التمني مرتين أكد ذهول الشاعر أمام جمال المحبوبة. غير أن التجنيس الصرفي أدى دوراً جمالياً للسياق في البيت الثاني. حيث الفعل (رأى) أصبح مضارعاً مجزوماً بحذف النون، (تري) ثم حضر مصدره (رؤيته) ثم الفعل المبني للمجهول (يُرى) وفي ذلك تشكيل لغوي نحوي أضفى فاعلية جمالية على موقف الشاعر، أما البنية الإيقاعية فاستندت في موسيقاها الخارجية إلى بحر البسيط الذي تتناوب فيه (مستعلن/ فاعلن) مرتين في كل شطر،

وأدت القافية فيه دوراً صوتياً تعاقبياً في الظاهر، من أجل خدمة الالتزام الشكلي لبنية القصيدة. (وسما، بهما، نما، حُلما، هدمًا) فالقوافي الأربع الأولى وردت كلماتٍ مستقلة الدلالة والصوت وثلاثية الأحرف، في حين جاءت القافية الخامسة جزءاً من كلمة (لانهدمًا). فثمة (تقسيم) في أجزاء الكلمة وحدها موسيقياً مع القوافي السابقة، ويسرت همزة الوصل في (لانهدمًا) نطق هذه الكلمة بمقطعين الأول (لَن) والثاني (هَدَمًا) فالتركيب اللغوي من (ل) أداة الجواب والفعل (انهدم) ثم ألف الإطلاق التي أشبعت الصوت الموسيقي الخارجي، كل ذلك أنجح تعالق اللغة والإيقاع (الصوت) الموزون والدلالة، وتلك هي مهام اللغة الشعرية التي تفيد من النبر والإيقاع والتقسيم والتجنيس والتكرار في أداء وظيفتها الجمالية من خلال علوقها أيضاً بالخيال الشعري الذي يوطد المجازات والاستعارات وسائر أنماط التصوير البياني الفني، ويبدو أنّ البيت الأخير وتحديدًا تركيب (لانهدمًا) قد أحدث تناصاً لغوياً وصوتياً ودلالياً مع بيت الشاعر:

إنّ في بَرْدِيّ جسمًا ناحلاً

لو توكّأت عليه لانهدم

غير أن الفارق في الفكرة أن الشاعر القديم يشكو ضعف جسمه جراء العشق، في حين أن زهيراً يعبر عن حالة ذهول حسية من طعم الخمر المقطرة المزعومة في ريق الحبيبة، وبأن الموت (هادم اللذات) سيموت لو ذاق تلك الخمرة، وفي ذلك مقصد دلالي رفيع وهو أن الموت سيتحول إلى حياة. أي أن ريق الحبيبة يقضي على الفناء ويؤسس للحياة، فكلا الشاعرين استخدم التركيب اللغوي نفسه، لكنهما اختلفا في الغاية الدلالية، فذلك ما نعينه من التعالق بين الإيقاع اللغوي والصوتي والدلالي، وهو تعالق نتج عنه فضاء من النغمات الموسيقية، فالشاعر القديم استخدم بحر الرمل الذي ألفتة الموشحات الأندلسية لجماليات غنائيته، فيما استخدم زهير بحر البسيط الغنائي أيضاً بسبب سهولة تقسيمه -كما أسلفت- إلى وحدتين نغميتين هما (مستفعلن وفاعلن).

في القصيدة السابقة ثمة تنغيم موسيقي أساسي في موسيقى القافية، وتنغيم داخلي أحدثه تنوين الفتح في الكلمات (امرأة، مطراً، مقطرة) وقد وردت الكلمات متعاقبة في آخر كل شطر في الموقع نفسه من آخر الشطر الأول، الأمر الذي أحدث فيما أتوقع ما يشبه الترقيم الداخلي المفرح

الملائم لدهشة الشاعر، ولتوقيع الأبيات بموسيقى خارجية هي اللحن نفسه، وبذلك خدم الإيقاع الصوتي للمفردات والتراكيب شحنات الانفعال بغنائية محبة...الدلالة المقصودة "فالتنغيم ظاهرة تطريزية من شأنها أن تحدد جهات القول وصنف الجمل وتوكل إليها مهمة تقطيع السلسلة الكلامية إلى وحدات تركيبية ودلالية"^(١١).

وقد يستعمل الشاعر آلية لاستدعاء صوت معين للصياغة بشكل مكثف في البنية الصوتية يجاوره صوت آخر يتقارب معه في الصفات لا في المخرج، ليشكل بؤرة صوتية متنوعة نتيجة تتابعات صوتية تُشكل انطلاقة حركياً ينتهي بمدّ صوتي يُثري الإيقاع، إذ تُتفاعل بنية المنطوق مع بنية المدلول فيتحول النسيج الصوتي إلى تنغيم إيقاعي على حدّ ما يتحول البناء إلى حركة^(١٢)، كما في قوله: من نص (لم تتركين الليل مفتوحاً علي؟)^(١٣).

لِمَ تتركين الليل مفتوحاً علي
وتذهبين؟؟

اعوي علي كذبتي عطشي
تشمّ دم الفريسة
من بعيد في الظلام.

جاءت البؤرة الصوتية (ين) في لفظة (تتركين) التي استدعاها الشاعر من محور الاختيار بتجنب البدائل المتاحة لديه في فضاء النص: (تذهبين، تشمين، تعوين، تُجادلين). وغيرها، باختياره (تتركين) ذات البؤرة الصوتية (ين) التي تتكون من صوتين النون وياء (المد أو متحركة)، اللتين تتقارب صفاتهما في التوسط والرخاوة لحرف النون والواو بالترتيب.

وقد استدعت كلمة (اعوي) إلى النص الكلمات الآتية: (سمعوا، عويل، عواء) ببؤرة صوتية متنوعة في تموجاتها الصوتية عملت على انتشار الصوت، والصدى امتداداً له. وتمثل انتشاراً للصوت وتماشى مع المعنى الدلالي للكلمات. ولاشك أن الامتداد الصوتي في كلمة (اعوي) يشير إلى طول مدة العواء وشدّته من خلال مشهد الليل وعزلة الشاعر، كما يحمل ذلك الامتداد رغبة الشاعر في تنبيه المحبوبة إليه وأنه بحاجة حتى لو افترسه كذبّة. فالمسافة الزمنية للعواء الطويل ذات دلالة رمزية تنبئ بتحرّق الشاعر لرؤية محبوبته.

٢-التعالق الإيقاعي اللفظي:

مما لا ريب فيه أن اللفظة تتكون من حروف، ولما كان لكل حرف صوت، فإن

لئلا أكون أنا
وأنا مطرٌ ليس أكثر
مطرٌ دافِعٌ ليس أكثر
وأنا أنتِ
لكنني
لم أعد أتذكرُ.

ربما تكون هذه القصيدة وعشرات القصائد الأخرى في هذا الديوان شاهداً لامعاً على حرص الشاعر زهير على الاقتصاد اللغوي، وتكثيف الدلالة أو توصيل الفكرة من غير إطناب وحشو، ليناسب كل ذلك حجم القصيدة القصيرة من نحو، وطبيعة الشعر الصافي الذي لا يحتاج إلى اللغة الفائضة الفضفاضة من نحو آخر، ثمة ما أظنه صناعة خفية في معمار القصيدة وهو الخفة والرشاقة في اختيار المفردات الغنية بالإيجاء والملائمة لموسيقى القصيدة.

فالقصيدة مبتناة على تفعيلة (فاعلن) وزحافها (فعلن) أو (فاعلاتن) وهي التفعيلة الرئيسة في بحر المتدارك تتكرر أربع مرات (فاعلن، فاعلن، فاعلن، فاعلن)، وكان هذا البحر مهجوراً قبل الخليل وبعده، أي لا توجد قصائد عمودية من شعر الشطرين مكتوبة وفق هذا البحر، إنما يوجد شواهد مصنوعة في كتب الدرس

مجموع أصوات الحروف عند النطق تكون المنطوق الكلي للفظة، وهو منطوق يستشعره القارئ عندما يقرأ بصمت ولكن بتفاعل أقل فيما لو سمعه من الشاعر نفسه، لأن الإلقاء يتضمن تلويحاً تعبيرياً بحسب المعاني أو مواقف التشديد والترقيق والتفخيم والمد والوقف والإطالة والضغط على الحروف، كل ذلك يقود إلى تشبع المتلقي بما يمكن أن نسميه هسيس اللغة الذي يشكل بتحويلات النطق وأساليب تصويته. فإيقاع اللفظة هو صواتها الكلي الذي أنتجه تعالق أصوات الحروف بعضها ببعض، وقد اعتمد الشاعر على إيقاع حركة اللفظة بما تنتجه من توهج للدلالة في النص، فقد هيأ للألفاظ نظاماً ونسقاً وجواً يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع، وأن تتناسق ظلها وإيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه^(١٤)، وستأمل ذلك في قصيدة "مطرٌ مسني" ^(١٥).

"مطرٌ مسني يا سماء

وغيرني،

مسني

وتغير

فنسيَت القيامةَ والمشَي فوق الصراطِ

وتَهتُ مع التائهين

العروضي^(١٦) غير أن فاعلن عادت للحضور القوي في شعر التفعيلة عند البارزين من الشعراء كمحمود درويش ونزار والسياب وأمل دنقل وصلاح عبد الصبور وغيرهم. وتصلح أن تكون منطوقة من غير تدوير في أحيان كثيرة. على نحو ماجاء في هذه القصيدة من مثل:

مطرٌ: فاعلن

مسنًى: فاعلن

وأنا: فعِلن

دافئٌ: فاعلن

لم أعد: فاعلن

وقد حرص الشاعر على الهندسة الصوتية الدقيقة ولا سيما في القافية الرئيسة، فبينما تتشكل (فاعلن) إما وحدها، وإما بالتدوير نجد القافية ملحوقة بزحاف منضبط الإيقاع في:

وتغيّر: ب ب - / - فعِلا/ ثُنْ

ليس أكثر: فاعلا/ - - ب-/-

أتذكّر: ب ب-/- فعِلا/ تن

ويتراءى لي أن ثمة تواشجا صوتيا لغويا بين الموسيقى الخارجية التي تحدثها (فاعلن) والكلمات التي كانت مفاتيح للرؤيا الشعرية مثل: "مطر، مسنًى" فهما المفردتان اللتان حازتا تكرارا جوهريا،

تكررت مطر ثلاث مرات لتؤكد دلالة التغير النفسي الذي حصل عند الشاعر العاشق عندما عشقها، ف شعر أن ثمة مطراً غسله، ولاشك أنه مطر معنوي يشبه الغبطة الكاملة بالمحبة، وبذلك انزاحت مفردة (مطر) عن دلالتها القديمة التي تعني السوء حسبما وردت في القرآن الكريم، فأينما كانت دلّت على نتائج وخيمة^(١٧) وهي لاتعني الغيث في القرآن الكريم. غير أنه قد حصل لها تغيّر دلالي عند العامة فظلت تستخدم على أنها الغيث أو الماء المتساقط من السماء، بصرف النظر أكان غيثاً أم خيراً ورماً للخصب.

في هذه القصيدة استخدم الشاعر مفردة "مطر" بذكاء واضح بحيث جمع بين معنى الغيث ومعنى السوء في وقت معاً، فالجملية الأولى من القصيدة (مطرٌ مسنًى) إخبارية تقريرية مفتوحة على التأويل: هل هذا المطر مطرٌ حقيقي أم حالة شعورية تشبه سقوط المطر، غير أن مفردة "مسنًى" تحتل دلالة عميقة من حيث أنها تشير للمسّ بمعنى الجنون أو إلى اللمس الخفيف. وأغلب الظن أنها تعني الجنون أو الذهول. لكن الشاعر سرعان ما أحال مفهوم التغير إلى المطر أيضاً، أي أن المطر غيّر الشاعر

بمس بالجنون ثم تغير المطر نفسه. في حين عاد الشاعر وقال: "وأنا مطر ليس أكثر...
مطر دافئ ليس أكثر"

فأسبغ على مطره صفة الدفء، وهي صفة مضادة لصفة البرودة المعهودة في المطر، فأصبحت صفة الدفء مشتركة بين الشاعر والمطر.

ولاشك أيضاً أن (الشدة) المتكررة في (مستني) توحى بعمق تأثر الشاعر بالمطر الشعوري الذي أصيب به، ولا سيما أن ياء المتكلم باحت بخصوصية المس الذاتي العميق، وكذلك الشدة وياء المتكلم في مفردة (غيرني).

نحن أمام جدلية من تداخل نبضات الصوت اللغوي بأسرار الدلالة البعيدة القريبة في آن معاً، ولا غرابة أن ظلت الجمل الشعرية إخبارية متلاحقة إلى أن انتهت بأسلوب استدراك ساخن يؤكد أن الشاعر لم يعد يتذكر بسبب إصابته بالجنون أو بشبهه. فأمام رغبة الشاعر في تأكيد قوة تأثير تلك المرأة فيه لدرجة أنه نسي التفكير بيوم القيامة والصراط، قدّم لنا نصاً غنياً بالإيحاء والانفتاح على متعة التخمين والحدس.

النص الشعري هو مجموعة من الجمل، تتفاعل فيها عناصر التعبير من أصوات وألفاظ متناسقة التركيب بين أجزاء الجملة الواحدة، وبين الجملة والجملة الأخرى من جانب آخر، تفاعلاً يشعّ عدداً غير محدد من الدلالات في العمل الأدبي من مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ، ومن الدلالات المعنوية الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسقٍ معين، ثم من الإيقاع الموسيقي الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغماً بعضها مع بعض، ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة^(١٨)، بمحتواها من النص، وأوضح ما تتجلى موسيقى الجملة في التكرار، كما في قوله من نص (لم يكن ساكناً قطّ سطح البحيرة)^(١٩):

لَمْ يَكُنْ سَاكِنًا قَطُّ سَطْحُ الْبَحِيرَةِ
لَكِنِّي قُلْتُ: أَلْقِي بِنَفْسِي
لَعَلِّي أَرَى حُلُمًا يَتَلَاؤُ فِي الْمَاءِ
لَمْ يَكُنْ سَاكِنًا قَطُّ سَطْحُ الْبَحِيرَةِ
لَمْ يَكُنْ سَاكِنًا قَطُّ سَطْحُ الْبَحِيرَةِ.

فالتكرار الموسيقي للجملة يمثل الصوت الختامي في نهاية القصيدة، الذي يبقى يتردد له صدى الصوت وصوت الصدى، ليدل على تأكيد الرؤية والإيمان بحتمية المبدأ

٣- التعالق الإيقاعي في الجملة:

الذي بنى عليه نصّه في رفضه للحلم الذي يتبعه.

ومع أن إيقاع الجملة له قوانين محددة، فالتكرار المتتابع والمتناوب يستقطب المتلقي ويضفي بعداً إيقاعياً ودلالياً، فالشاعر بخطابه عادةً لا يُعنى كثيراً بخلق توازنات منتظمة، وهو لا يبدأ في تشكيل هذه التوازنات إلا عندما يتعد عن الاستعمال المتوسط ويشعر في الترتيب الجيد للكلمات، وعندئذٍ يهدف إلى تحقيق غرض فعال غريب عن الرسالة التي تتوخى مجرد التوصيل، لافتاً النظر إليها في ذاتها، ومبرراً تميزها التعبيري^(٢٠) والجمالي والشعري، كما في قصيدة (أما أنا فاشتقت)^(٢١):

أما أنا فاشتقتُ
أعني اشتقتُ حتى أخري
وحلمتُ أنك تنزلي
وأنت عارية تماماً
في مياه الحلم
اشتقتُ حتى لم أعد أشتاق
لا تدعي ظلالاً أو سائر
فوق عريك
اشتقتُ حتى لم أعد أشتاق

فالإيقاع الموسيقي الناشئ من تكرار الجملة بانتظام، يرسل صرخة استفاقة مع

كل انهيار، للخروج من حالة الجمود والسكون الذي مثله بانهيار من كلي جزئي.

وقد جاءت الجملة كضابط إيقاعي بتكرارها، لتؤكد حضور الذكريات البعيدة إلى النص، بحيث تؤدي محاولة الاستغناء عن جملة مكررة إلى تمزيق نسيج القصيدة، كما في قوله:

في نص (لا شيء يبدأ من بدايته)^(٢٢):

لا شيء يبدأ من بدايته
التقينا في النهار
هناك في أعلى النهار
لا شيء يبدأ من نهايته
أنا في الليل

لكني أراك وأنت في وأنت حولي
لا شيء يبدأ من نهايته

وقد جاء التكرار الموسيقي للجملة في مقدمة كل مقطع لتعبر عن مواقف انتقال بين الفقرات، وذلك لإعطاء القصيدة بعداً إيقاعياً جديداً— يمثل الانفعال المتموج الذي هو أمر جوهري للبنية الموسيقية لمجمل القصيدة^(٢٣)، نتيجة الانفعال الموحد الناتج من الجملة المكررة في بداية كل مقطع كما في قوله: من قصيدة (لم يكن ساكناً قطّ سطح البحيرة)^(٢٤):

لم يكن ساكنًا قطّ سطح البحيرة

لكنني قلتُ: القمي بنفسي

لعلّي أرى حلمًا يتلألأ في الماء

لم يكن ساكنًا قطّ سطح البحيرة

حين مررت ولم تنظري

لترني ظلك القمري على صفحة الماء

ستجد مطلع نصه يبدأ بجملة إنشائية يتمحور فيها فكرة النفي لسكنى جسده البالي على سطح البحيرة، ثم ينتقل في السطر الثاني للاستدراك الذي يحدث فيه نفسه برغبة بإلقاء نفسه على يتلاقى بمحبوبته، ويوارب على ذاته بعظمة الحلم الذي شعّ ضوءاً متميزاً في روحه في السطر الثالث باستخدامه (يتلألأ) والمكونة من أربعة مقاطع (يـ/ تـ/ لـ/ لـ) وكمية الضوء المبعثرة من حركة اللؤلؤ على سطح الماء، وكأنه يعكس جانباً من الضوء بداخله حاملاً معه الأمل برؤياها حين يستعمل مترجياً أمراً مستحيل الحدوث (لعلّي) ويعود مجدداً في السطر الخامس للنفي المكرر لتثبيت البعد بينهما فلم تره أبداً إنما رأت ظلها القمري على سطح الماء انعكاساً لذلك التلألؤ السابق الذكر، ولا شك أن الجملة بما تثيره من إيقاع في سمع ونفس المتلقي، ناتج من اختلاف مراتب

الألفاظ في السمع، واتفاق دلالة المعاني في النفس، وذلك يثير رغبة المتلقي في جمع ألفاظ هذه القصيدة لفظة تلو الأخرى ليبني عليها فكرة الشاعر التي أراد إيصالها، لهذا تبقى الصورة عند النفس فينة، وملكة، وتبطل عند الحس بطولاً وتمحى محواً^(٢٥).

١- التعالق الإيقاعي للأساليب:

لكل إنسان أسلوبه الخاص به في ممارسة الحياة والعيش فيها، وبصمته في تركيب النص وبناء جملة، والعلاقات الخاصة بها، والإشارات التي تحملها هذه البنية بكل أبعادها الإيقاعية والدلالية والنفسية إلى المتلقي، وقد يفرز الأسلوب إيقاعاً معيناً، فلاستفهام في دلالاته الأصلية لطلب الفهم لما ليس مفهوماً، ولكن طبيعة الاستعمال قد تفرغ هذه الأدوات من دلالة الاستفهام إلى دلالات بديلة تتخلق من السياق الذي تغرس فيه، بحيث تؤدي دوراً مزدوجاً في الصياغة^(٢٦)، وكذلك تلعب الأساليب بحضورها المتنوع المتناسق والمكرر في الصياغة دوراً بارزاً في زيادة الفاعلية الإيقاعية بما تضيفه من تأثير على انبثاق الدلالة وهذا التكرار للأساليب يمثل نمطاً من التكرار الصوتي والمعنوي، ولكل أسلوب إيقاعه الخاص، سواء أكان هذا الإيقاع ظاهراً أم خفياً، حسياً أم معنوياً،

ولهذا فإنه يمثل ضرباً من ضروب الموسيقى الشعرية^(٢٧)، التي تنبثق من بنية الإيقاع الداخلي، وهذا ما نجده في إيقاع الأساليب المتتابعة والمكررة، فتتوزع كل أسلوب منها يحدد من الحالة الشعورية بما يثير من دلالات لدى المتلقي، تتلاقح لتكون صورة شعرية مميزة يقول في نص (غيت؟!):^(٢٨)

غيت؟! /

غيتي مثلما شئت
أنت لا تدريين ماذا تفعل العتمة بالغائب
لا تدريين أنني ربما أخطفك الآن
ولا تدريين أنني
سأرى عريك حتى الماء.

وجاءت دلالة تكرار أسلوب النفي بأداته (لا) تثبت حكم ما قبله من غياب للمحبة وضياح للحلم الذي يبحث عنه، والذي مازال في بداية التكوين، ويستنكر موقفه الصعب الذي وضع فيه، يحاول أن يصدق ما آل إليه الحال، فهو يؤكد ما نفتته (لا) بعدها من مقومات للحياة (الفجر، العتمة)، وما أثارته القرائن: (تدريين، أخطفك، صدر) من إيجابيات أمن وأمان يشعر بها أبو شايب في نصه.

وبرز أسلوب الشرط عن غيره بانحرافه، فجاء بدور مميز للإيقاع من نص:

(بلا سبب تحلم الضفتان على النهر)^(٢٩)
أنا النهر، قلت لها
لن أغادر مصر
إذا لم أبلل شفاهاك
فارتعشي قرب ليلى.

فقد جاء جواب الشرط قبل أداة وفعل الشرط للأهمية، وبذلك نوع في اتجاه الحركة الدلالية، وقد لعبت أداتا الشرط (إذا) و(إن) دوراً مزدوجاً، فهما تتعلقان بجملة جواب الشرط المنهية (لا تنفذوني، لا تسألان) التي أثارَت تعجباً في الحركة الداخلية للأسلوب، ولكن كل منهما امتازت بفعليها عن الأخرى، إذا جاءت (إذا) تتعلق دلالة بالفعل المحقق الحصول (ارتعشي) يمكن لهذا الشيء أن يتحقق ومن السهل الرجوع عنه، لأن فعله ليس مستحيلًا.

وامتازت (إن) بالشك أو مستحيلة الفعل في نص (أيتها التفاحة الأولى)^(٣٠)

ما للفم المخلوق منذ اللحظة الأولى
ليغدو كاهنا أو سيّدا؟
ما للسموات التي تنأى وتنأى
إن لم تشمس جيداً.

(تتشمس) فعل لا رجوع عنه، فهو يستنكر هذه الحياة التي يعيشها في ألم، ويثور على هدوئه.

وهكذا كان لتنوع الأساليب في الصياغة دوراً فاعلاً في إثراء الدلالة، وللتكرار بتنوع أشكاله قيمة فنية شعرية، فمثلاً تكرار أداتي الشرط في بداية الأسطر تؤكد الجانب الإيقاعي، ليس في امتداده فحسب، بل في مستواه الصوتي حيث تكررت الكلمة عينها، ولكنه التكرار غير الرتيب، غير الممل، لأن أداة الشرط لا تستقل بمعنى، وينبغي أن يتبعها متعلق، وقد تغير معنى المتعلق كل مرة^(٣١).

١-التعالق الإيقاع في التوازي:

إن النص الأدبي يحتمل العديد من القراءات، وذلك بحسب قدرة القارئ على التلقي، وما يؤسسه المبدع في البنية الداخلية من مقومات إيقاعية للتفاعل الدائم المتجدد في النص لتوليد ما لا يحصى من مؤثرات إيقاعية ترتفع بالنص إلى الشاعرية، وخاصة التوازي، فهو تماثل أو تعادل المباني أو المعاني في سطور متطابقة الكلمات أو العبارات، يلعب فيها الازدواج -أو التقابل- الفني -أحياناً- دوراً مهماً وترتبط ببعضها -البعض-، وهي تعرف بالمتطابقة أو المتعادلة أو المتوازية أو المتقابلة^(٣٢)، سواء

في الشعر أو النثر، وأوضح ما تكون في النص الشعري، لأنه يقوم في طبيعة تكوينه على تنظيم مكوناته اللغوية الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية بطريقة خاصة، أساسها التماثل والتخالف بين وحداته، بحيث تحاكي كل وحدة لغوية قائمة في النص وحدة أخرى -سلباً أو إيجاباً- في موضع آخر من مواضع بنائه اللغوي، وهو ما ينتج عنه نوع من التفاعل المستمر بين وحداته من ناحية، وتحقيق أكبر قدر من التناغم الإيقاعي والتأثير الفني من ناحية أخرى^(٣٣) على المتلقي.

لذلك سوف نقوم بدراسة بعض ظواهر التوازي في البنية الداخلية في نصوص زهير أبو شايب في قسمين: القسم الأول ما يمثل التطابق أو التماثل، والقسم الثاني ما يمثل الاختلاف. ونحن نعلم أنه لا يمكن رصد جميع هذه الظواهر، لذلك سنكتفي بدراسة بعضها، في محاولة فهم الآلية الإيقاعية لتنظيم البنية الداخلية للنص.

لا غرابة في أن التعالق الإيقاعي يعتمد على تماثل تركيبي نحوي على المستوى الرأسي، بتوزيع الألفاظ مفردة ومركبة في جمل متطابقة ومتماثلة في مواقع متناظرة محدثة توقعا للموسيقى الداخلية النابعة من التركيب الفني، فالقصيدة تسعى إلى



التوازن والتوازي بشكل ما بين جملها التي تشكّلها، فهي تعرض عدداً متنوعاً من الصور، كل صورة منها تختلف عن الأخرى في مادتها وكميتها، ولكنها تتوازي في حركتها الداخلية، وقد يبدو أن هذه الصور متباعدة، ولكن توازي حركتها الداخلية يؤلف بينها ويعمل على الترابط – الإيقاعي – عن طريق الموازنة والموازاة بينها^(٣٤)، وهذا ما نجده بوضوح حين يردد صوت الوجد بأشكاله ويعبر عن صوته بشكل جديد نادر وذلك قصيدة (تستطيعين أن تأخذي كل شيء)^(٣٥)

تستطيعين أن تقتلي

سماء القصيدة

والعرق المتصبّب منها

تستطيعين أن تقتلي كالأله

كي تعبدي

تستطيعين أن تقتلي وتلومي الضحايا

تستطيعين أن تقتلي علناً

وعمرى كأنك لم تقتلي.

فكل سطر من الأولى يطابق أو يماثل ما يناظره في الأسطر الأخيرة في المقطع السابق، ويعانقه في النتيجة الشعرية والتركيب اللغوي، بحيث يتوازي بالتطابق في تكرار جملة (تستطيعين أن تقتلي) وكسر

من التنظيم التركيبي في آخر سطرين، لزيادة فاعلية البنية الإيقاعية وذلك بتزويد الصياغة بمتجانسات لفظية متوازية متطابقة (تقتلي / تقتلي) وتوازي البناء المقطعي وهو ما يحيل إلى تطابق عروضي بين (تلومي / تقتلي).

ف نجد الشاعر عند تأليفه لنصوصه يمزج بين المتقابلات ويجعلها عاملاً مهماً في إبراز وإثراء التوازي بالمخالفة في النص الشعري، وذلك لأن التقابل "رباط معنوي يجعل النسق متماسكاً، يتوحد في الفكر والخيال فوق أنه نوع من التصوير وضرب من الإيقاع وشعبة من الفطرة وقبس من الحياة الدافئة"^(٣٦)، فقدم لنا نصّ كنت في الليل^(٣٧) يمثل فكرتين متقابلتين، ماذا كان قبل مرورها في الحلم، وكيف ثارت براكينه حين يقول:

كنت في الليل

الذي سأل من غابته العذراء

كنت أزيح الأرض عن كمائها

كي تراني.

فجأة

في الحلم مرّت

وأيقظت البراكين من النوم

أيقظت الذي لفته بالدخان

ورمت لي وردة كالدهان.

وقد بث حياة الحلم، فجعلها تجسد الفعل بنفسها، فصورة الماضي (كنت) تتمثل في حياته المسالمة التي يعيش فيها بهدوء.

ثم صورة الحاضر بعد ما كان في الماضي حلمًا ورديًا، (صارت حياته) في الواقع مدمرة كبركان ثائر، أصبحت سوداء كالدهان وكذلك قلب محبوبته.

صورة الماضي تخالف صورة الحاضر، وفعل الماضي مليء بالحياة والطاقة الفاعلة لممارسة الحياة بالنسبة للشاعر، ويخالفه فعل الحاضر فجاء فعل الحاضر يمثل ردة فعل عن فعل متعب له. وفعل الحاضر يخالف دلالة فعل الماضي الذي يمثل قوة الحب الذي يمارس السيطرة والقوة، ما كان حلمًا أصبح واقعًا، ومن كان قويًا، أصبح المستضعف، وذلك أن الحلم يخالف الواقع في كثير من الأحيان، وما تحقيق الحلم إلا بقوة فعل تصاحبه عزيمة وإصرار.

وتظهر قدرة الشاعر في إثارة دهشة المتلقي واستغرابه الذي يدرك فجأة أن ثمة أشياء متباعدة، بلا علاقة ظاهرة تربط بينها، قد تجمعت وتألفت على نحو لافت غريب^(٣٨) كما قوله في قصيدة "فرشت عباءتها الحريز"^(٣٩)

فرشت عباءتها الحريز

على حفاف الليل

حتى خلت أن الأرض

لو سقطت عليها ريشة من طائر

لتساقطت

سيظل ضوء ما يشعشع في المكان

وسوف أبقى مثلما أنا

أتبع امرأة حلمت بها

ورزخت النساء لكي أراها

وشعشت بها

لكنها فرشت عباءتها الحريز

على حفاف الليل

تجد التوازي بالمخالفة الدلالية في الألفاظ التالية: (فرشت/ تساقطت/ حفاف/ خلت) وهناك توازٍ في التركيب النحوي بالمخالفة، يؤدي إلى مقابلة دلالية: أولاً في قوله:

سقطت عليها

تساقطت

وقد جاءت (أبقى) لتغير المعنى بالمخالفة لدلالة كلمة (اتبع) نتيجة دلالة التغير التي تحدثها في الأفعال السابقة لها، فتزداد قوة السقوط والشعاع.

ونجد أيضاً في نص (واعدت ليلاً في سماء ما)^(٤٠):

إلى امرأة قرطت شفاهها قرطاً

وصحتُ بها: أضيعني

فصاحتُ بي: أضعني فيكَ، وأجثُ فيكَ
عني،
وأجثُ عنكَ.

ياء المتكلم جاءت في (أضيعني) دالة
على المفعولية وفي كلمة (أضعني) (أنت)
المخاطب جاءت فاعلة، فالعلاقة بينهما
المخاطب عكسية.

وبالمقاربة الدلالية لكل من التركيب تجد
المخالفة والعلاقة العكسية في (أنت) لتؤكد
الحضور الدلالي وإمتاع المتلقي الذي
يبحث عن الانسجام بين هذه البنية المغلقة.
وكذلك: أجثُ فيكَ وأجثُ فيكَ عني،
جاء ضمير المتكلم (أنا) عائداً على الفاعلية
في السطر الأول وعلى المفعولية في الثاني.
الخاتمة:

إن هذا البحث محاولة لبناء إطار مشترك
بين الشاعر والباحث لوصف الاتصال
القائم على التماسك، من خلال
استراتيجية الإيقاع الصوتي، ومعرفة كيف
يتربط النص في اللغة العربية عامة، وعند
مُنجز النص بصفة خاصة، ولذلك يستنتج
البحث ما يأتي:

١- للموسيقى الخارجية في القصيدة أثر
بالغ في حركة الإيقاع الداخلي للكلمات
وتراكيبها.

٢- إن لتعالق المفردات بأصواتها أثراً في
توجيه الدلالة إلى مقاصدها.

٣- أن التغيرات الإيقاعية أثرتُ الفاعلية
اللغوية، فقد ظهر أن الإيقاع الصوتي يُثري
ويؤثر في البنية الدلالية، ويزيد من الفاعلية
الإيقاعية في شعر زهير أبو شبيب.

٤- يكشف البحث أن الإيقاع الصوتي
بما يحمله من دلالات ستؤجّه فكر المتلقي
وثرّيه، وتزيد من تماسك النص لدى
الشاعر.

٥- ويخلص البحث إلى أنّ الروابط
الإيقاعية تلعب دوراً حاسماً في بناء النص
الشعري إيقاعياً،

٦- أن الشعر نشاط لغوي صوتي
انفعالي هادف.

الهوامش:

(١) شاعر فلسطيني، ولد في دير الغصون، طولكرم،
١٩٥٨م، بكالوريوس لغة عربية وآدابها من
جامعة اليرموك، إربد ١٩٨٣م، له عدة
إصدارات منها: جغرافيا الربيع والأسئلة
١٩٨٦م، دفتر الأحوال الشخصية ١٩٨٧م،
سيرة العشب ١٩٩٧م، حائز على جائزة
محمود درويش، الدورة الثالثة ٢٠١٢م.

- (٢) نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين (من الكندي حتى ابن رشد)، ألقت كمال الروبي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م: ص٥١.
- (٣) المزهري في علوم اللغة وأنواعها (المجلد الثاني)، عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، شرحه وحققه وضبطه، محمد أحمد جاد المولى بك، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣: ص٤٧٠.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومساثلها وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، حققه وضبطه نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٩٣م: ص٢٦٦.
- الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م: ص١٨.
- (٤) مبادئ علم الأصوات العام، ديفيد ابر كرومي، ترجمة وتعليق محمد فتحي، كلية دار العلوم جامعة الأزهر، مطبعة المدينة، ط١، ١٩٨٨م: ص١٤٦.
- (٥) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، دار الطباعة الحديثة، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٩م: ص٨.
- (٦) ينظر: الممتع الكبير في التصريف، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٦م: ص٤٢٦ حتى ٤٢٩.
- فقه اللغة مفهومه (موضوعاته قضاياها)، محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥م: ص١٠٩ حتى ١١٤.
- (٧) الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي (في العصر العباسي)، ابتسام أحمد حمدان، دار القلم العربي، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م: ص٨١.
- (٨) الديوان، ص٤٥.
- (٩) أصول قديمة في شعر جديد، نبيلة الرزاز اللجمي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٥م، ص١٣٥.
- (١٠) الديوان، ص٤٧.
- (١١) في التنظيم الإيقاعي للغة العربية، مبارك حنون، ط١، دار الأمان، الرباط، ٢٠١٠ ص ٤٦.
- (١٢) قراءات مع الشابي والمتني والجاحظ وابن خلدون، عبدالسلام المسدي، دار سعاد الصباح، ط٤، ١٩٩٣م: ص٢٤.
- (١٣) الديوان، ص٥٩.
- (١٤) النقد الأدبي وأصوله ومنهاجه: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٨، ٢٠٠٣م، ص٤٥.
- (١٥) الديوان ص ٦٧.
- (١٦) لمزيد من التفصيل: ينظر بحث: تحولات فاعلن في شعر صلاح عبدالصبور، راشد عيسى المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها، مج، العدد ٢، نيسان ٢٠٠٦م، ص ٨٥.

- (١٧) كقوله تعالى: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، أو ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].
- (١٨) النقد الأدبي أصوله ومنهجه مرجع سابق: ص ٤٩.
- (١٩) الديوان، ص ١٠٥.
- (٢٠) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس، ١٩٩٢م: ص ٧٩.
- (٢١) الديوان، ص ٣٥.
- (٢٢) الديوان، ص ٥٦.
- (٢٣) الشعر والشعراء، ت. س. اليوت، ترجمة محمد جديد، دار كنعان للدراسات، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣٤.
- (٢٤) الديوان، ص ١٠٥.
- (٢٥) المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق وشرح حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٢م، ص ١٤٥.
- (٢٦) جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبدالمطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط ١، ١٩٩٥، ص: ١٩٥.
- (٢٧) موسيقى الشعر العربي (دراسة فنية وعروضية)، حسني عبدالجليل يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م، ص ١٦٧.
- (٢٨) الديوان: ص ٥٠.
- (٢٩) الديوان: ٧١.
- (٣٠) الديوان: ٨٠.
- (٣١) الصورة والبناء الشعري: ص ١٨٢.
- (٣٢) البديع والتوازي، عبدالواحد حسن الشيخ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، المنتزه - أبراج مصر للتعوير، ط ١، ١٩٩٩م: ص ٥٤.
- (٣٣) دراسات في النقد الأدبي، محمد صلاح أبو حميدة، سلسلة إبداعات فلسطينية (١٨)، ط ١، ٢٠٠٦م: ص ٥٣.
- (٣٤) اللغة وبناء الشعر، محمد حماسة عبداللطيف، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢م: ص ٨٠.
- (٣٥) الديوان، ص ١٢١.
- (٣٦) في البلاغة القرآنية (أسرار الفصل والوصل)، صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، ٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م: ص ٦٢.
- (٣٧) الديوان، ص ٦٥.
- (٣٨) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٩٢م: ص ١٩٠.
- (٣٩) الديوان، ص ٧٥.
- (٤٠) الديوان: ٨٧.

تلقي المناهج النقدية في رؤية النقاد العرب المعاصرين

د.علي قاسم الخرابشة *

تاريخ قبول البحث: ٦/١٠/٢٠١٨م

تاريخ وصول البحث: ١/٨/٢٠١٨م

ملخص

يناقش هذا البحث قراءة نقدية في مناهج النقد الأدبي الحديث وأثرها على تحليل القصيدة في الشعر العربي، وأشهر الأدباء والباحثين الذين تأثروا بهذه المناهج، وانعكست قراءاتهم على أدبهم حتى تمحورت دراسات الأدب العربي بين التاريخية والاجتماعية والبنوية والنفسية والأسلوبية والقراءات، التفكيكية، والسميائية، كما وجد كثير من النقاد ميداناً فسيحاً لحرية التعبير عن جوانب الإبداع لدى الشعراء القدماء والمحدثين. إن الباحث في جهود الأدباء والنقاد العرب يلمس كثيراً منهم من تمثل هذه المناهج حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من دراساته، ومجالات تطبيقها حتى رأى بعض النقاد أنها زادت عن الأربعين منهجاً، وذلك لغياب منهج نقدي عربي يراعي ظروف نشأة الأدب العربي وفنونه المختلفة ودون أن يفرض عليه تفسيرات مسبقة. وقد جاء البحث في ستة أجزاء: التلقي في المنهج التاريخي والتلقي في المنهج الاجتماعي، والتلقي في المنهج النفسي، والتلقي في المنهج البنوي، والتلقي في المنهج الأسلوبي، والتلقي في المنهج الأسطوري. ويمكن القول أن هذه المناهج تشكلت وفق من ارتباطات ومذاهب فكرية وفلسفية ولغوية أو علوم إنسانية من تاريخية أو اجتماعية أو نفسية. الكلمات المفتاحية، مناهج، نقد، تلقي، حديث.

The Reception of Literary Principles According to the Arabic Contemporary critics

Abstract

This study presents a critical reading of the modern approaches of literary criticism and their impact on analyzing the Arabic poetry. It discusses how much the most famous Arab men of letters and researchers

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم التربوية، جامعة عجلون الوطنية.

were influenced by these approaches and how their readings have been reflected on their literature insomuch that the Arabic literary studies kept revolving around the historical, social, structural, psychological, stylistic, deconstructive and semiotic approaches and their applications through which many critics could freely disclose the creative aspects of ancient and modern poets. Many of the Arab critics and men of letters were found to even assimilate these some forty approaches which even have become an integral part of their studies.

This demonstrates the absence of an Arabic critical approach that observes the setting where the Arabic literature and arts have evolved and which imposes no advanced interpretations.

The study included six parts: Reception in the historical approach, Reception in the sociological approach, Reception in the psychological approach, Reception in the structural approach, Reception in the stylistic approach and Reception in the mythological approach.

In a summary, these approaches have been formed under various schools and trends of philosophical, intellectual and linguistic thought.

Key words: Reception Literary, Principles, Critical.

المقدمة:

كانت سائدة في أوروبا، إذ استفاد الباحث منها في النظرية والتطبيق، وصلتها مع مختلف العلوم، والتطبيقات، كالفلسفة، وعلم النفس والأساطير والرموز، والدين، والمذاهب الأدبية الكلاسيكية، والرومانسية، والرمزية، ومن تجارب النقد الغربي نفسه.

يعد اتجاه البحث في المناهج النقدية الحديثة من الاتجاهات التي فرضت نفسها على الساحة الأدبية في النقد العربي الحديث منذ نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهو يستمد جذوره من الغرب شأن الكثير من الاتجاهات والمذاهب التي

لهذا فإن الباحث يستقرئ في هذه الدراسة رؤية النقاد العرب المعاصرين في هذه المناهج عيوبها ومزاياها، والعناصر التي قامت عليها، وأشهر أعلامها الغربيين ورؤاهم النقدية، وأثرها على فكر النقاد العرب، ومن منطلق أن النص "يتشكّل في هيكل أو بنية مؤطرة مليئة بالفجوات والفراغات التي على القارئ ملؤها، فهو في حاجة دائماً إلى القارئ الذي يكمله ويحققه عياناً"^(١). كما يجب أن ينظر إليه على أنه "ثمرة ناضجة مكتملة تخلقها رؤيا متصلة تعين الوجود من خلال منظور معقد يصوغه إدراك علاقات التشابه والتضاد بين أشياء الوجود على المستوى المعنوي واللغوي"^(٢).

النقاد العرب وتأثرهم بالنظريات والمناهج النقدية:

استفاد النقاد العرب المعاصرون من اتجاهات النقد المعاصر ونظريات التلقي بوصفها طرفاً يسهم في تحليل النص الأدبي وبيان أبعاده الجمالية. إذ شهد القرن العشرون كماً هائلاً من إسهامات الأدباء والدارسين الذين حاولوا التقنين لفنيات الدراسة الأدبية وتحليل النص وتفسيره، فأخذ هؤلاء يستعينون ببعض المناهج والقراءات النقدية، كالمنهج التاريخي والبنوي ونظريات التحليل النفسي

ويعتبر "أندري دوشيون" صاحب كتاب "تاريخ فرنسا الأدبي" الذي ألفه سنة ١٧٦٧م، واحداً من الأسماء البارزة داخل هذه المناهج، الذي حاول أن يرسّي قواعد مبحث جديد في قراءة وتحليل الأعمال الأدبية بصورة تاريخية.

ولما كانت المناهج النقدية الحديثة عنصراً مهماً من عناصر تحليل النص الأدبي وقراءة من قراءاته لاستكشاف معطيات الإبداع الفني فيه، فقد عنى بها النقاد العرب حديثاً عنانية احتلت مساحة نقدية واسعة في دراسة العملية الفنية عند الفنان، إذ نجد بعد صدور كتاب "مناهج النقد الأدبي" لأنريك أندرسون امبرت صدرت كتب مناهج النقد الأدبي عند العرب فألف عز الدين إسماعيل كتابه "التفسير النفسي للأدب" وكمال أبي ديب كتابه "جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر"، وشوقي ضيف "المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين" وصلاح فضل "مناهج النقد الأدبي المعاصر" كما تصدرت بعض الرسائل الجامعية عنوانات في مناهج النقد الحديث نحو دراسة "تلقى المناهج النقدية عند العرب، قراءة في كتاب معرفة الآخر" للباحثة فطوم سعود، جامعة محمد بوضياف، الجزائر سنة ٢٠١٧م.

كنظرية" هولاند نورمان" ونظرية" سيمون ليسر" والنقد الموضوعي ونظريات التفاعل في علم النفس الاجتماعي كما قدمها إدوارد. إ. جونز" و"هارولد. ب. جرار" مستفيدين من الاتجاهات النقدية التي انبثقت منها كالتفسيرية والتاريخية والسيمولوجية، ومن منظور اللسانيات البنيوية بالبحث في أبنيته الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والدلالية، والتركيز على مستويات المعنى وترابطها.

ثم ظهرت بعد منتصف القرن العشرين وحتى نهاية السبعينيات نظرية استجابة القارئ التي اهتمت بالعلاقة بين النص والقارئ، لتثبت أن للنص قدرة وفاعلية وقابلية على التأويل المتعدد التي لا يمكن استهلاكها. وأن النص يبقى راكداً حتى ينفث المتلقي فيه من روحه وحياة جديدة بفاعلية القراءة، ومن هذا المنطلق فإن فهم المعنى لا يحدث إلا بفعل القراءة، ولا يمكن لنص أن يكون بدون قارئ.

لكن يجب أن لا يغيب عن ذهن المتلقي أن لكل قراءة خصوصية، وخصوصية القراءة الأدبية أنها تحاول البحث في المسافة بين الدال والمداول ومعرفة التعدد الدلالي الذي يميز النص الأدبي عن غيره من النصوص، وأن تحقيق الأثر المنشود من قراءة النصوص

الحديثة لا بدّ للقارئ أن يتمتع فيها بأساليب فنية حديثة تنقله من عالم الواقع إلى عالم النص، ليمنح النص روحاً تعبّر عن تجربة الشاعر ومعاناته.

إنّ بناء النص في وحدته يتوقف على مدى نجاح القارئ في مهاراته القائمة على استغلال طاقات اللغة الإيحائية الكامنة في طبيعة أبنيته المتعددة. حتى يظهر جوّ الوحدة في تماسك أبنيته على اختلافها وتأزرها مع الإيقاع لخلق تأثير مشابه وموحد في نفس المتلقي.

لقد ساهمت التجديدات الفكرية عند النقاد والباحثين في الشرق والغرب دورهم في قراءة النص الأدبي وتطوير العمليات الذهنية في تحليل بنيته ودعم التفكير في صيغ ابتكاريه جديدة لإنتاج نص جديد وإلى توسيع دائرة التفكير والنقاش حول مدى الاستفادة من قراءات النص المختلفة. ومن هؤلاء الأديب طه حسين الذي ظهر تأثيره بالمناهج الغربية ودراسات المستشرق الفرنسي "مرجليوث" الذي قام منهجه على ما يسمى بالشك الديكارتية، وعلى آراء أستاذه في النقد "كارلو نالينو" في النقد أثناء حديثه عن بعض القضايا النقدية مثل قضية المجتمع والبيئة، والالتزام في الأدب،

والصدق الفني والذوق والأسلوب من قراءات نقدية حديثة. كما أدرك خطر هذا الشيء عندما ينظر إلى النص وفق إيديولوجيات مسبقة، وأن يسخر الأدب وفق قواعد وقوانين معينة لتكون ملائمة للمنهج النقدي أو لرؤية خاصة. لقد تفاعل طه حسين مع الأدب، أكثر منه موضوعاً أو قضية. ومن هذه التأثيرات أنه نفى أشياء كثيرة كانت رائجة في الجو الأدبي كالإمعان في الذاتية، والانسحاق وراء أدب المتعة، وأن الحاجة إلى أدب مرتبط بواقعنا الاجتماعي والتاريخي، وعدم عزل النص عن الظروف التي نشأ فيها.

لقد بدأت ثمرة الثقافة الغربية تدب في أوصاله بعد دراسته لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية عام ١٩١٨م، إذ بدأت مرحلة التفاعل بين الثقافة الغربية الأوروبية والثقافة العربية بعد أن استوعب الطريقة التاريخية والفيلولوجية الأوروبية في نظرتها إلى الثقافة العربية القديمة.

كما ونرى الناقد أحمد أمين في مقدمة كتابه "النقد الأدبي" يجاهر باستبعاد النقد العربي الموروث لاعتماد علم النقد الإنجليزي مقياساً لدراسة الأدب العربي منذ عام ١٩٢٩.

أما عز الدين الأمين في كتابه "نشأة النقد الأدبي في مصر" فهو "لا يرفض المذاهب وقراءات المناهج النقدية الغربية، ولكنه يرى أن يكون هناك رؤية واضحة للنقد العربي في دراسات الكتاب والأدباء العرب"^(٣). وعدم قطع أوصال النص العربي عن تراثه.

وكان العقاد من أوائل النقاد الذين وظفوا نظريات علم النفس في تحليل الشخصية الأدبية متأثراً بالمدرسة الانجليزية وزعيمها "هزلت" الذي هداها إلى معان الشعر والفنون وأغراض الكتابة ومواقع المقارنة والاستشهاد^(٤). فدعا إلى تقويض المذاهب النقدية القديمة واستبدالها بمذاهب نقدية جديدة تواكب حركة النقد الحديث، فهو "يتعامل مع النص العربي من داخل النص نفسه، وينقده بالطرق الحديثة في الدراسات الغربية الجديدة في النقد"^(٥).

وقد أتاحت له نظريات التحليل النفسي المجال لدراسة شخصية ابن الرومي وبيان الصفات النفسية التي تتحلّى بها، فحاول فيها أن يفسر وسوسة ابن الرومي وتطيره وتشاؤمه بدراسة نفسية عامة ومقارنة. كما درس العقاد في أواسط الخمسينيات أبا نواس دراسة نفسية أوضح من خلالها نرجسيته. كما وجد في بعض مؤلفات محمد

مندور ميله إلى الاحتفاء بالقراءات الغربية والمذاهب الأدبية كالجمالي والموضوعي والإيديولوجي، وإنه يميل إلى تغليب الرؤية الحديثة لدراسة الأدب العربي على ما سواها من تأثيرات الآداب العربية القديمة^(٦). كما يلمس الدارس لكتاب شوقي ضيف^(٧) في النقد الأدبي أنه يتمثل المناهج النقدية المختلفة ويدعو النقاد العرب إلى تمثلها لما فيها من قدرات كبيرة على معالجة النص بما يمتلك الناقد من ملكات ذوقية وجمالية وحسن أداء ووعي^(٨).

كذلك فقد تبين أن للجامعات البريطانية تأثيراً على الأدباء العرب، نحو كمال أبي ديب، وعبد العزيز حمودة ومحمد النويهي، ومحسن جاسم الموسوي. إذ يبدو كمال أبي ديب من خلال دراساته في بنية الشعر العربي القديم من النقاد العرب الذين يسعون إلى تأسيس منهج بنيوي لدراسة الشعر بما يطور النظرة إليه وبما يكشف عما فيه من إمكانات فنية. ولعل كتابه "جدلية الخفاء والتجلي" يهدف من خلاله إلى كشف أسرار البنية العميقة للنص وتحولاته وصولاً إلى تغيير نمط الفكر العربي الذي يرى أن الجزئية والسطحية يطغيان عليه^(٩). وبعض النقاد من حاول أن يتخذ من النقد الثقافي

منهجاً له في تحليل القصيدة العربية أمثال عبدالله الغدامي في كتابه "النقد الثقافي" الذي حاول أن يقف المؤلف فيه عند الأسباب التي جعلته يقف وراء هذه الدراسة والبحث في فنية الدراسات الأدبية. أما الجانب التطبيقي، فقد بدأه بالفصل الذي جعل عنوانه "النسق الناسخ - اختراع الفصل"^(٩).

وقد شهدت الحركة النقدية في الوطن العربي كمّاً من الدراسات التي حاولت وضع قواعد القراءة وتطبيقاتها على الشعر العربي، إذ تصدرت كلمة قراءة كثيراً من المشروعات النقدية تحت مسمى مصطلح قراءات مع الشابي والمتنبّي والجاحظ وابن خلدون. وهو يأخذ بمنهجية التفكير الأسلوبية الذي يعقد نفسه على النص في حدّ ذاته بعزل كلّ ما يتجاوز من مقاييس تاريخية أو نفسية^(١٠) وحاول فيها الجمع بين الأسلوبية النظرية والتطبيقية في تناوله لهذا المنهج وقراءاته. ويؤكد فيها على إمكانات القراءات المتعددة الأوجه. كما يقدم الناقد سعيد يقطين كتاباً تحت عنوان "القراءة والتجربة" ومحمد عابد الجابري كتابه "نحن والتراث" الذي بين من خلاله بعض أنواع القراءات مثل، القراءة الاستنساخية أو القراءة ذات البعد الواحد، أو ذات البعدين أو التأويلية، أو الشخصية.

شبكات بالقارئ الذي هو جزء من النسيج الاجتماعي ليساهم بقراءته في تأويل ما سكت عنه النص^(١٤).

كما أن العلاقة بين النص والقارئ، علاقة وجود، لأن تفسير القارئ هو ما يمنح النص "خاصيته الفنية، وهذا يعني أن النص يكتسب قيمته من المعطيات التفسيرية التي تختلف باختلاف القراء الذين ينطلقون من ما لديهم من معرفة الشفرات الثقافية والدلالية والنحوية للنص، كما يعني أن فعل القراءة أو التلقي معادل لوحدة النص نفسه^(١٥).

التلقي في المنهج التاريخي:

يرى أصحاب هذا المنهج أن المعنى الأدبي لا يتغير، لأنه تعبير عن وضع ما في زمن معين ولا يمكن لمتلقي النص من منطلق هذا المنهج أن يتجاوز مجموعة الظروف الزمانية والمكانية التي أحاطت بالمؤلف عندما كتب نصه، ولهذا اعتبر كثير من الباحثين أن هذه الظروف أهم المعطيات التي تتحكم في الممارسة القرائية، وفي حال اعتبار المؤلف مصدراً أساسياً للمعنى في النص فعلى الناقد أن يدرس عناصر متعددة تدخل في تكوين ذلك المؤلف مثل أحداث عصره وحياته وشخصيته ونفسيته وثقافته ومدى اطلاعه، وموقفه السياسي ونظراته إلى الحياة، والمسرح

فالدلالات تتولد من القراءة كما أن القراءة الجيدة للدلالات لها أثر كبير في توليدها وخاصة إذا كان القارئ يتمتع بخبرات قرائية متنوعة وقوية^(١٦) فبقدر ما يقدم النص للقارئ يضيفي القارئ على النص أبعاداً جديدة قد لا يكون لها وجود بالإشباع النفسي والتلصي وتلاقي وجهات النظر بين القارئ والنص، عندئذ تكون عملية القراءة قد أدت دورها من حيث إن النص قد استقبل بل قد أثر في القارئ وتأثر به على حدّ السواء^(١٧).

إنّ القراءة على حدّ تعبير علي حرب لا تخرج من مأزقها إلا إذا توقفنا عن النظر إلى النص بوصفه أحادي المعنى وإلى القراءة بوصفها تتطابق مع النص وبدلاً من ذلك، علينا أن ننظر إلى القراءة بوصفها اختلافاً عن النص لا تماهياً معه ونهتم بما تظهر قراءة النص من التعدد والتنوع والتفاضل والترجح والاختلاف والتعارض والتراتب والتنضيد والتراكم والترسب^(١٨). لهذا فإن قراءة النص "ليست عنصراً واحداً بل إنها تضم العديد من الاتجاهات التي تحاول أن تشرح طبيعة عملية القراءة وما يترتب عليها من التفاعلات التي تفتح آفاقاً تأويلية واسعة، النص شيء منسوج، ولذا فهو نسيج متداخل يدفع إلى

وميلاد القارئ، وليس المؤلف إلا ذلك الذي يكتب، واللغة التي تنطق.

ومن هذا المنطلق، فإن المنهج التاريخي يؤمن بالمؤلف والبيئة التي تمّ من خلالها الإبداع وبين النص والظروف المحيطة به، الزمانية والمكانية، معتبراً النص وثيقة تاريخية تعبر عن محيطها السياقي.

وفي الأدب العربي الحديث تجلّى هذا المنهج في دراسات كثير من النقاد مثل، عباس محمود العقاد وطه حسين، وزكي مبارك، وأحمد أمين ومحمد مندور الذي أرسى ملامح "اللانسونية" في النقد العربي، عندما أصدر كتابه (النقد المنهجي عند العرب) مذيلاً بترجمته لمقالة لانسون الشهيرة (منهج البحث في الأدب) سنة ١٩٤٦، ثم أعاد طبع هذه الترجمة "مرفقة بترجمته لمقالة مايه "منهج البحث في اللغة" وبعدها اعتبر لانسون عميداً للنقد التفسيري.

وفي الستينيات من القرن الماضي، أخذ المنهج التاريخي يزدهر في كثير من الجامعات العربية على أيدي الأكاديميين أمثال، شوقي ضيف وسهير القلماوي وعمر الدسوقي وشكري فيصل.

لكن المتبع لتطبيقات هذا المنهج على الأدب العربي يلمس أن هذه التطبيقات لا

الثقافي في عصره وعادات وتقاليده وقضايا مجتمعه، وفنون تقاليد الكتابة والشرح والتفسير والتأويل في عصره إلى جانب القيم الثقافية والحياتية السائدة، فهو يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره^(١٦).

فالنص في هذا المنهج ثمرة عقل صاحبه، والأديب صورة لثقافة عصره، وإفراز للبيئة، والبيئة جزء من تاريخ أي أمة ليصبح النقد تأريخ للأديب من خلال بيئته. كما أن الثقافة العربية القديمة تفرض غياب المؤلف، ولا بدّ من هويته الحضورية. ومن أبرز ممثلي هذا المنهج في الدراسات النقدية ثلاثة نقاد، هم: هيبوليت تين، وفردنان برونتيار، وسانت بييف الذين آمنوا بدور المؤلف والبيئة والتطور التاريخي الذي يتم من خلاله عملية الإبداع وبين النص والظروف المحيطة به، الزمنية والمكانية بوصف النص وثيقة تاريخية تعبر عن محيطها السياقي.

ثم واصل البحث بعد هؤلاء النقاد في المنهج التاريخي ناقد آخر هو "ريمون بيكار" الذي تصدى له رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠) واستطاع من خلال مقولاته أن يطيح بالمنهج التاريخي ويعلن موت المؤلف

فمحور هذا المنهج لا يكشف عن حقيقة النص أو مشاركة المتلقي فيه، ومهمته في توصيل ما في النص من معطيات عن طريق إبراز ما فيه من أدوات بلاغية متناسياً القيم النفسية والقدرات المرتبطة بها مثل حيوية التجربة الشعورية والحركة اللغوية.

لقد شاب هذا المنهج كثير من النقد وخاصة في استقراءه الناقص وإصدار الأحكام القاطعة واللجوء إلى التعميمات التي تؤدي بالناقد إلى الخطأ في الحكم، فأكبر الحوادث والظواهر ليست دائماً أكثر دلالة من الحوادث والظواهر الصغيرة، وما يراه الناقد أكثر دلالة في العمل الأدبي قد لا يكون كذلك في ذاته، بل ربّما كان منجذباً إليه بمحض الإعجاب أو الزرابة^(١٧).

ثانياً: التلقي في المنهج الاجتماعي.

إن الحديث عن المنهج الاجتماعي في دراسة الأدب لا ينفصل بحال من الأحوال عن المنهج التاريخي، فنقاد المنهج التاريخي مثل "هيولت تين" و"سانت بيف" و"برونتيير" و"لانسون" ربطوا الإبداع الأدبي بالمجتمع أثناء حديثهم عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تربط الأديب بأدبه، لكن أصحاب المنهج الاجتماعي ساروا في أبعد من ذلك عندما ربطوا الأدب بوصفه حقيقة اجتماعية

تمثل الخصوصية التي نشأ فيها النص العربي وترعرع بمختلف جوانبه، لأن هذا المنهج يهمل أبسط ما يتطلع إليه المؤلف والأحلام الذاتية أو الجماعية التي يسعى من خلالها، فلا أحد يستطيع أن ينكر بروز ظاهرة الأنا المتمثلة في ذات الشاعر وذات الجماعة في شعر أبي الطيب المتنبّي. كما لا يشرح هذا المنهج الكثير من الإشارات والاستعمالات في النص، ولا يساعد على دراسة التطور والنضج في تحليل بنية النص، فهو تركيز على بنية سطحية من حياة الكاتب، وغير ذلك من الأمور التي تتصل بالقواعد التقليدية التي ركز عليها شراح الأدب. فالحقائق التي يلجأ إليها الباحث فيه يمكن أن تغير من التقويم والتفسير النقدي الذي أنشئ النقد من أجله أو تؤثر عليه، ولا يمكن أن يوصف الحكم فيه إلا على مقياس خارجي أو الاتصال بتجارب الكاتب كما تحددها الوقائع الخارجية الشخصية. فالنقد الحديث وقف مشككاً في قدرة هذا المنهج من الوصول إلى بنية النص موقفاً مليئاً بالسوداوية والمعارضة، والشيء الذي يقف ضده هذا النقد، أن يحكم على الأعمال الأدبية في هذا المنهج بالجودة من قبل بعض النقاد، لأنها تعبر عن أحداث حياة الشاعر وحقائقها أو عكس ذلك.

بل هو تعبير عن الوعي الطبقي للفئات والمجتمعات المختلفة، بمعنى أن الأديب عندما يكتب يعطي النص أبعاداً تعبر عن الوعي والضمير الجماعي كما يشحنه بالحركة التي تستوعب مفارقات الحياة وما يعتمل فيها من جدل وتحولات امتزجت مع طبع الأديب وثقافته^(١٩).

فالأديب ابن البيئة الاجتماعية والأديب، مستنداً في ذلك إلى أدوات اللغوية وقدرته على التشكيل الفني لأشياء ومواقف من صلب المجتمع وأن الأدب يمثل الحياة في أوسع مقاييسها حقيقة اجتماعية واقعة^(٢٠). وهنا تأتي قدرة الأديب في حمل رؤية المجتمع والحديث عن متطلباته والظروف التي يعيشها. أما العناصر الأساسية التي يهتم بها المنهج الاجتماعي، فتتمثل في الارتباط الوثيق بين الأديب ومجتمعه، والحديث عن القضايا والمضامين والغايات الاجتماعية أي مشكلة المضمون والمحتوى الاجتماعي، وأن الأدب يجب أن يصور الحقيقة الاجتماعية ويعكس واقعه الاجتماعي عكساً فوتوغرافياً أمكن لبعض منظري الدراسات الاجتماعية أن تتخذ من الأدب وثيقة اجتماعية لحياة صاحبه بوصفه الناقل الأمين لقضايا عصره المختلفة، وإفرازاً طبيعياً لبيئته وظروفه. فهو

والأديب بوصفه عضواً في المجتمع، له مكانته التي يقدرها المجتمع فهو يربط الأدب منذ نشأته بالحياة الاجتماعية وقوانينها، فالأدب له وظيفته الاجتماعية، ولذلك لا يمكن أن يكون نشاطاً فردياً خالصاً، وقد وجد هذا تأييداً شديداً من بعض الفلاسفات الاجتماعية كالماركسية التي بحثت عن صورة مثالية مطلوبة لشكل المجتمع في الحاضر وفي المستقبل، والتلازم بين التطور في الأدب من جانب، وما حدث في مناهج علم الاجتماع من جانب آخر^(١٨). مما أسهم في تطور علم الاجتماع بمجالاته المختلفة، حتى نشأ ما أطلق عليه: علم "اجتماع الأدب" أو "سوسيولوجيا الأدب" وقد تأثر هذا العلم بالتطورات التي حدثت، ومن أبرز نقاد هذا المنهج "جورج لوكاش" و"لوسيان جولدمان" اللذين درسا العلاقة بين الأدب والمجتمع بوصفه انعكاساً وتمثيلاً للحياة الاجتماعية، وقدما دراسات أوضحها فيها العلاقة بين الأدب والمجتمع، وربطاً فيها بين نشأة الجنس الأدبي وتطوره، وبين طبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما سميها بـ "سوسيولوجيا الأجناس الأدبية"، وأبرزاً اتجاهها أطلق عليه "لوسيان جولدمان" علم اجتماع الإبداع الأدبي "يرى فيه أن الأدب ليس نتاجاً فردياً،

يفكر في حدود معطيات البيئة، بل يستمد منها ويعتمد عليها لتحقيق ما يستطيعه من النجاح في التعبير. وهذا ما دعا كثير من النقاد إلى الاهتمام بالكاتب أو المؤلف من حيث وظيفته الاجتماعية وتأثيره في المجتمع وتأثره به، والدور الذي تقوم به الأصول الاجتماعية للكاتب في تحديد وضعه وولائه وإيديولوجيته، ومدى التأثير الاجتماعي للأدب على هذا المتلقي.

لكن أهم ما يؤخذ على هذا المنهج من ملاحظات إيمانه بنظرية الانعكاس التي يرى من خلالها الأدب انعكاس للظروف الاجتماعية والاقتصادية للأديب^(٢١) والتي أثبت الواقع الأدبي عدم صحتها لأنه ليس صحيحاً أن يبقى الأدب في حضن المعطيات المجتمعية، وأنه كلما ازدهر المجتمع ازدهر الأدب، في حين أن المجتمع يشكل حافزاً لصناعة الأدب، دراسة التصوص الأدبية التي خلفها الكاتب من خلال سيرته بوصفه شخصاً له آرائه الاجتماعية والسياسية، والمزج بين هذه السيرة وما تقدمه أعماله من مضامين اجتماعية.

لقد حاول أصحاب هذا المنهج أن يقيموا علاقة وثيقة بين الحياة الاجتماعية والطبقات الاجتماعية والنظام الاقتصادي

السائد كالنظام الاجتماعي أو الرأسمالي أو الاشتراكي، وظهور الأجناس الأدبية من مثل روايات المغامرات أو ظهور الملهاة المأسوية أو الرواية^(٢٢).

وإذا كان المنهج الاجتماعي كذلك قد صور الشعر العربي، انعكاساً لواقع الحياة الاجتماعية ومثلها في جميع جوانبها فقد عكس الواقع الاجتماعي بكلّ أبعاده، ووضّح واقع الحياة ونظامها، وكان سجلاً لحياة العرب في مختلف عصورهم، كما نجد فيه قيماً وأنماطاً من السلوك تتحدث عن الشجاعة والبطولة والكرم وغيرها. وكانت منزلة الشاعر عندهم كبيرة لما له من تأثير في طبيعة الحياة، ولما لشعره من انعكاس على نفوس متلقيه.

وفي النقد العربي تجلّى هذا الاتجاه في كتابات بعض الأدباء والنقاد بعد أن نالت قسطاً كبيراً من التأثير بالمناهج النقدي وشهدت تطوراً في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان من أبرز الباحثين فيه، محمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس في كتابهما "الثقافة المصرية" الصادر سنة ١٩٥٥. وفي لبنان أصدر الناقد اللبناني حسين مروة كتاباً بعنوان "دراسات في ضوء المنهج الواقعي" تحدث من خلاله عن

هذه الخصائص تحكم طبيعة العمل الأدبي والفني^(٢٤).

يرى فرويد أن العمل الفني يتكون من محاولة إشباع رغبات أساسية عند الفرد ما لم يحل بينها وبين الإشباع عائق نحو التحريم الديني والخطر الاجتماعي أو السياسي، ولهذا تكون الرغبة حبيسة تستقر في اللاوعي من عقل الأديب أو الفنان، لكنها تجد لنفسها صيغ محرفة وأقنعة من شأنها أن تخفي طبيعتها الحقيقية^(٢٥).

إن اهتمام فرويد بالأعمال الأدبية للأديب دفعه لأن يسمي بعض الظواهر النفسية التي لمسها عند الأدباء بأسماء شخصيات أدبية مثل عقدة أوديب، وعقدة الكترا، كما لجأ إلى تحليل بعض اللوحات الفنية التشكيلية وبعض الأعمال الأدبية والشعرية للتدليل على نظرياته في التحليل النفسي^(٢٦). كما يعتبر اكتشاف عقدة أوديب والحديث عنها المثل الأكثر سطوعاً عند فرويد^(٢٧). وهذا ما دفع بعض النقاد إلى إنشاء مدارس علم النفس الإبداع في الدراسات النفسية.

لقد كانت مساهمة فرويد في التحليل النفسي نقطة الانطلاق في الدراسات النفسية بعد أن تعرف إلى ما سماه كثير من النقاد

مجموعة من القضايا الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع. ومن نقاد هذا المنهج، عصام حفني وسلامه موسى وعمر فاخوري وفريدة النقاش وعبد الرحمن ياغي.

كما قامت على أصول هذا المنهج في النقد مجموعة من المفاهيم والمصطلحات النقدية مثل: الفن للمجتمع، ورسالة الأدب، ورسالة الفن، والأدب الملتزم بهدف تطور المجتمع والارتقاء بأبنائه.

ثالثاً: التلقي في المنهج النفسي.

يعود الفضل في إظهار هذا المنهج في الدراسات الحديثة، إلى العالم النفسي "سيغموند فرويد" الذي أكد أن هناك علاقة بين الأدب وعلم النفس، وأن الأدب بعناصره الداخلية لا يخلو من الملامح النفسية التي تمتع بها الأديب أثناء كتابته لعمله الفني، أن الأدب والفن وسيلتان للتعبير عن اللاوعي الفردي أو اللاشعور أو العقل الباطن وأن العمل الأدبي مستودع لرغبات الفرد المكبوتة وخوافه، وأن اللاشعور أو العقل الباطن ينتظران الظروف المحفزة لظهورهما^(٢٨). وأن تفسير الأحلام يهدف إلى الوصول إلى شخصية الفرد وما تتمتع به من وظائف نفسية من خلال مجموعة من خصائص الحلم، وهي التكيف والإزاحة والرمز، وأن

بفكرة التوتر الدائم بين وجهي الحياة النفسية الشعور واللاشعور.

ومن أهم ما يذكر لفرويد من مؤلفات تهتم بالنقد الأدبي المتصل بالتحليل النفسي، دراساته عن ليوناردو دافنشي، ومقالته عن ديسوفيسكي ودراسته لقصة غراديفيا الألمانية.

ومن أتباع فرويد الذين كان لهم دور في إرساء قواعد المنهج النفسي العالم النفساني "يونيغ" الذي رأى بأن لعلم النفس قدرة كبيرة على دراسة الأدب، ورأى أن الإبداع ينتج من اللاشعور الجمعي ويدرس مظاهر النماذج العليا في الأدب والفن، والأساطير، والصورة الشعرية والأدبية التي يعكسها إبداع الأدباء في أعمالهم بواسطة تلك الرواسب التي انحدرت إليهم من أسلافهم ومحاولة فهمها وتفسيرها في ضوء فهمها ومعرفتها للنماذج الأسطورية والشعائرية للأمم والشعوب^(٢٨). ومن أتباعه "أوتورانك" و"ساكس" و"أدلر" فأوتورانك رأى أن الخلق الفني يصدر عن المعاناة ويكون صراع داخلي لا يستطيع الفنان السيطرة عليه، لذا فقد فرق بين الإنسان الحالم والعصبي، ورأى فرقاً في الدرجة بينهم وبين الإنسان الكاتب في أنه قادر على التعبير عن انفعالاته الذاتية في صورة تجعلها ملذة للآخرين دون أن تبدو

كأنها صادرة عن رغبات مكبوتة، ولهذا فإن الفنان يلبس خيالاته غير الواعية ثوباً فنياً وهذه الخيالات تكون باعثة على النفور في حال كتبها ولكنها في العمل الفني تكون باعثة للمرضى السرور^(٢٩).

أما هانز ساكس فقد عالج في كتاباته النفسية بصورة خاصة الدور الذي يلعبه الشعور بالإثم عند الفنان ويرى أن الفنان ينشد الشهرة لكي يتخلص من الشعور بالإثم، ولهذا يحاول أن يكسب القراء إلى جانبه يجعلهم يوافقونه على ما يقول فكأنهم بموافقتهم يقولون له: أجل إن رغباتك المكبوتة هي نفس رغباتنا، فنحن جميعاً مشتركون في الإثم نفسه^(٣٠). في حين أرجع أدلر النبوغ إلى الشعور بالنقص الذاتي للكائن وهذا الذي يحرك القوى النفسية لتعويض النقص البشري وهذه القوى هي التي تؤدي إلى تطور الفرد وظهور نشاطه الإبداعي^(٣١). أما أهمية دراسات أدلر النفسية في تحليل النص الأدبي فقد تمثلت في ظهور مدرسته الرمزية، وهي مدرسة تقرب بين الأحلام والرموز بشكل باهر^(٣٢).

ثم جاء الفكر البنيوي الذي حاول الربط بين علم النفس والأدب عبر المنظومة اللغوية التي قام عليها والكشف عن النظام

العام للأدب من حيث هو نظام ينطوي على مجموعة من النظم الفرعية المتمثلة في أجناسه وأشكاله المختلفة، وذلك عن طريق التحليل والوصف وصولاً من ذلك إلى ما ما يكون به الأدب في ذاته أدباً، أي ما يسمى بأدبية الأدب^(٣٣).

أما الجانب الذي أكد عليه النفسيون، فهو حرية الفرد في التعبير عما في نفسه. بوصفه التعبير الوسيلة التي يستطيع أن يفرغ من خلالها ما فيها من رغبات وكبت وخوف.

من هذا المنطلق فإن اهتمام النظرية السيكلوجية في تعاملها مع الأدب ينصب على الدلالات الباطنية في العمل الأدبي والفني الذي قد يتأثر بالعقل الباطن عند الفنان أكثر من تأثره بعقله الواعي^(٣٤).

ولم يكن النقاد العرب بمنأى عن التحليل النفسي للأدب بعد أن عرفوا هذا العلم وقناعتهم بالميزات التي امتاز بها هذا التحليل، يذكر على سبيل المثال لا الحصر أمين الخولي صاحب كتاب "فن القول" الذي جعل من البلاغة فناً للقول في مؤلفه. وقام بالتعريف بمجموعة من الأمور التي تخص النفس مثل الوجدان والخيال والذاكرة والذوق والإحساس ثم التعريف بمادة المعاني

الأدبية والجوانب النفسية في الحب والبغض والفرح والغيرة والحزن والانتقام وغيره^(٣٥)، وعباس محمود العقاد من خلال كتابه "حياة ابن الرومي من شعره" تفسير وسوسة ابن الرومي وتطيره بدراسة نفسية عامة ومقارنة، كما درس أشعار أبي نواس في ضوء العقدة المرضية المعروفة بالترجسية وهي دراسة تنطلق من مقولات التحليل النفسي للأدب الفرويدي.

أما المازني فقد اتخذ من منهجية أدلر في النقد مرجعية في دراسته لشعر بشار بن برد، إذ أرجع ولوع بشار في هجاء الناس إلى عقدة النقص التي كان يعاني منها بوصفه واحداً من شعراء الموالي أولاً وكفيفاً ثانياً^(٣٦).

وفي عام ١٩٦٠ أصدر إيليا حاوي مقالاً بعنوان نفسية بشار وتأثيرها في شعره وقف فيها عند الملامح التي أدت إلى تكوين نفسية بشار بن برد وما غلب عليها من العبث واللهو والتمرد والتبجح الذي كان سبباً في احتقار كثير من الناس للشاعر والتقليل من قدره وإقحامه لشعور الشذوذ والهزيمة^(٣٧).

وفي عام ١٩٦٣ أصدر عز الدين إسماعيل كتابه "التفسير النفسي للأدب" بين من خلاله أن النفس والأدب وجهان لعمله واحدة ويرى أن النفس تصنع الأدب، وكذلك

يصنع الأدب النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس والنفس التي تلتقي الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تلتقي الأدب لتصنع الحياة، فهما حين يلتقيان يضعان حول الحياة إطاراً فيضعان لها بذلك معنى^(٣٨). فالأدب وسيلة للتعبير عن التجربة الإنسانية التي مرت بالإنسان أو أحسها أو يشعر بها وهو يرجع في ذلك التعبير إلى ذات نفسه، فإذا قلّ التعبير على المجتمع ونظمه وعاداته أو على البيئة ومناظرها، فإنما يدل على ذلك من خلال التعبير الصادق الذي يرجع فيه الكاتب إلى ذات نفسه وأضحى الأسلوب هو الكاتب في كل ما تحتوي عليه عبقريته هو من خصائص^(٣٩).

وفي عام ١٩٦٤ أصدر محمد حاج حسين مقالاً بعنوان بشار بن برد، بين من خلاله العوامل التي تضافرت فكونت مزاج بشار بن برد وشخصيته وكان من نتائجها هذا الشعر الكثير الذي راع معاصريه^(٤٠).

وكذلك وقف محمد رجب البيومي في دراسة له بعنوان "تحليل نفسي لشخصية الخطيئة" على البواعث الشريرة في نفس الخطيئة فقال: "ونحن حين نرجع إلى بواعث

هذه النعمة الشريرة في نفسه نجد لها من الدوافع المؤلمة ما يبررها في أكثر الأحيان أو على الأقل ما يجعلها أمراً متوقفاً لا حدثاً شاذاً ينظر إليه بعين الدهشة والاستغراب، فالرجل أولاً وقبل كل شيء متميز بين أقرانه يعرف لنفسه قيمتها العالية في دنيا الشعر ويقيس نفسه بزملائه، فيرى أنه يعلوها مكانة في مضمار الشعاعية قد تقف نفسه ثقافة جاهدة، فروى أشعار سابقيه، وأخذ يوازن بين كل شاعر وشاعر، معدداً عوامل التفوق وأسباب الضعف^(٤١).

أما محمد النويهي في دراسته لنفسية أبي نواس فقد وقف عند أهم الملامح النفسية التي ظهرت في شخصيته وجعلت منه إنساناً يتسم بكثير من التناقضات والتوترات التي لا توافق بعض القيم والعادات والتقاليد والأعراف السائدة آنذاك. والحقيقة أنّ تفسيرات المنهج النفسي وتأويلاته تخالف وظيفة الأدب التي أنشئ من أجلها. كما أنّ الدارس للملاحظات النفسية يلاحظ تجاهله للطرق التي يمكن أن تؤدي إلى عملية الإبداع التي تناولها بعض الأدباء.

أما من وقف ورفض هذا الاتجاه بوصف أنّ التحليل النفسي ليس من اختصاص علماء الأدب بقدر ما هو

إلى أبعد حدّ في عصرنا الحاضر، بل إنّ المشكلة أحياناً أصبحت مشكلة التسرع أحياناً في التطبيق دون الفهم.

لقد كان هذا المنهج أقرب إلى التحليل النفسي ومجموعة الآراء التي قررها بعض العلماء النفسيين ولا سيما الأطباء والمحللون أمثال فرويد وآدلر ويونغ، ولذلك علق عليه بعض الأدباء أن هذا المنهج خرج من عبارات بعض الأطباء ولم يخرج من بحوث الأدباء^(٤٣).

وعلى الرغم مما قدمه المنهج النفسي لقراء النص الأدبي والنقدي، فإنه لم يثبت نجاحه في إثارة انفعال القارئ وتوليد روح التفاعل بينه وبين النص المدون، ليجعل منه مبدعاً لا مشاركاً. وأنّ وظيفة الأدب تحالف مثل هذه التفسيرات والتأويلات النفسية.

رابعاً: التلقي في المنهج البنوي.

يشار بداية إلى أن البنوية ليست مدرسة مذهبية ولا حركة فكرية أو فلسفية، لكنها طريقة في الرؤية، ومنهج في معاينة الوجود، ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه وإزائه، فهي لا تغير الأشياء، ولكنها تغير الفكر المعاین لها^(٤٤). ويلمس المتلقي لها بجميع تياراتها أنها تسعى جاهدة إلى إلغاء فكرة التاريخ وتقوم على النسق والبنية والنظام والعلامات.

اختصاص علماء التحليل النفسي. محمد مندور في كتابه "الميزان الجديد" ورأى أنّ هذا الاتجاه في الدراسات الأدبية لا ضرورة لها، لأنه يمكن أن يصيب الحياة الأدبية بالعقم، ويبتلي الأذواق بعنصره الداخلية، والظن أنّ مثل هذا العلم سيفيد الأدب ظن خاطئ ومفسد له. كما يخشى الحذر في هذا المنهج من استخدام علم النفس الذي سيؤدي بالنص إلى نوع من العزلة والاختناق وهذا يؤدي بدوره إلى اختفاء بعض القيم الفنية التي تشتمل عليها القصيدة^(٤٢).

ففي مجال الدراسات النفسية رأى كثير من الأدباء والنقاد أنّ التحليل النفسي يركز على دراسة نفسية الأديب وسلوكها، وربما يخدم الأدب من ناحية واحدة وهي الدخول إلى شخصية الأديب ودراسة ما يكتنفها من ملامح نفسية من قلق وخوف وطموح ميزته عن غيره من الناس متوهمين أن هذه الملامح قد توصل المتلقي إلى أدب الأديب وما فيه من معطيات فنية جمالية.

إنّ المتتبع في محاولة تطبيقات هذا المنهج على الأدب العربي يرى أنّ البحوث الأساسية قد اقتصر على طبيعة نظرية دون أن تتحول إلى تطبيقات إنتاجية. وأنّ اكتشاف تطبيقاته العلمية في الأدب قد قلّت

تمنح النبوية النص أهمية من خلال وصفه بنية دلالية ضمن بنية نصية منتجة، فهو عنصر الإنتاجية الذي ينجم عن علاقات التفاعل بين مجموعة البنى التي يتكون منها النص بنوياً، ونتيجة تضافر العنصر النبوي والإنتاجي يتأسس انفتاح النص مع نصوص أخرى، إذ يكون إنتاج النص مزدوجاً من قبل القارئ والكاتب^(٤٥).

لذا فقراءة النص بنوياً هي قراءة تستوقف القارئ عند بعض البنى مثل التكرار، والأنساق اللغوية والصيغ اللغوية، ومحاور النص الرئيسة، وعلاقات المحاور، وبنية التضاد، والظواهر والزمن، وصقل الكلمات، والصفات، والبنى الإيقاعية بنوعيتها، الداخلية والخارجية، وحقل الكلمات والصفات، ومنها العلاقات الإيحائية، التي وتظهر قدرة الكلمة على إثارة كلمات أخرى بالتداعي.. ومن خلال هذه المحاور يستطيع المتلقي للنص أن يستكشف العلاقات البارزة التي تضمنها النص ويتعرف إلى الرؤى الجديدة التي يضيفها إلى المتلقي، وعلى القارئ أن يميز تلك البنى والعلاقات التي أقامها التفاعل ودلالاتها بعد إعادة تفكيك البنى وإعادة تشكيلها وفق النسق الذي انتظمها دون

التنظر إلى صاحب النص أو ظروفه الخاصة، فهي "خصيصة خرجت على وحدانية البعد ووحدانية المعنى في التراث الشعري وأسست التعدد بدلاً من الوحدانية جذراً للفاعلية الشعرية وينوعاً من ينابيع الرؤيا الحديثة للعالم"^(٤٦).

ثم لم يلبث البنيويون أن رفضوا المذاهب الأدبية من كلاسيكية ورومانسية وسريالية وداواوية كما رفضوا المناهج التاريخية والاجتماعية والنفسية، وذلك لربطها النص بما هو خارج عنه، واعتبروا المنهج التاريخي مقيداً بأطر مرجعية لا يستطيع الناقد الانفلات منها، ولا تجاوز ظروفه الزمانية والمكانية، والمنهج الاجتماعي لديهم لرفضه حقيقة الخطاب، والاهتمام بسيرة المؤلف ووضع الاجتماعي، وعلاقاته الاجتماعية، كما عدّ البنيويون منهج التحليل النفسي خروجاً عن مضمون النص وحقيقته وبنيته، والانزلاق إلي صاحب النص وطفولته وملاحه النفسية.

فالمعنى عند أصحاب هذا المنهج موجود في عمق النص وأن التحليل البنيوي هو الكفيل باكتشاف ورصد الظاهرة الأدبية فيه، وذلك من منطلق تركيزه على النص بمفرده، مراعيّاً علاقاته الداخلية وبنية الكلمات

دور كبير في تحليل بنية النص والوقوف على ما فيها من دلالات.

أما تطبيق المنهج البنيوي على الشعر الجاهلي، فقد قام به عدد من الباحثين مثل، كمال أبو ديب وعدنان حيدر وجابر عصفور وصلاح فضل وعبد العزيز حمودة وماري كاترين.

ففي محاولة الدكتور كمال لدراسة معلقة لبيد، كانت محاولة اقتراح الخطوط العامة لمنهج نقدي جديد يكون أغنى مردوداً وأعمق قدرة على إضاءة بنية القصيدة من المناهج السابقة، وهذا المنهج يفيد من النظريات النقدية الحديثة ومن البنيوية وبشكل خاص من منهج التحليل البنيوي.

وفي هذه الدراسة، يصوغ نظرية بعد تحليل مئة وخمسين قصيدة، حول بنية القصيدة الجاهلية مفادها أن هناك تيارات في القصيدة منها ما هو وحيد البعد، ومنها ما هو متعدد الأبعاد لتشكيل ثنائية ضدية لتحقيق التوازن في الوعي.

ومع ظهور هذا المنهج ظهرت كثير من المحاولات النقدية التي لا تخلو من الوهن والتعثر. وعن الأسباب التي أدت إلى تعثر هذه المحاولات في النقد العربي من أن "النقاد يمارسون محاولاتهم مصحوبين بهمين، لهم

وعلاقة ذلك بالقارئ^(٤٧)، ومن نسيج العلاقات الداخلية المتشابكة، لذا فلا بد أن يدرس دراسة علمية على مختلف مستوياته الفنية.

ويرى البنيويون أن اللغة تتكون من ثنائيتين هما الدال والمدلول، وأن القيمة اللغوية عند البنيوي سوسير (المعنى) إنما تحدده وتعيّنه مجموعة العلاقات المتبادلة بين الدال والمدلول وتجعل كل واحد يستدعي الآخر^(٤٨). لهذا يرى سوسير أن التزامن والتعاقب في اللغة يجن أن يدرس في علمين منفصلين لأن التزامن يرتبط بالنظام ولكنه عن علاقات الزمن في حين أن التعاقب يرتبط بالزمن ولكنه مفصول عن علاقات النظام^(٤٩)، وأن العلاقة بين الدال والمدلول اعتبارية^(٥٠). ويقول البنيويون إن اللغة تتكون من ثنائيتين، هما الدال والمدلول، والدال هو الصورة الصوتية أو الكتابية للكلمة، في حين أن المدلول هو المفهوم من هذه الكلمة والعلاقة بينهما علاقة اعتبارية.

أما البنية الإيقاعية، فيمكن أن تدرس من جانبين: الأول: البنية الإيقاعية الخارجية. والثاني: بنية الإيقاع الداخلي، وهنا يشار إلى أن ثمة انسجام بين بنيتي النص الداخلية والخارجية لخلق نوع من هذا الإيقاع الذي له

الأول: أنّ هذه المحاولات تنطلق من النصّ العربيّ في خصوصيته اللغوية وفي ضوء ارتباطه بواقع ثقافي أدبي معين.. الأمر الذي يدعو إلى ضرورة تملك المناهج النقدية تملكاً علمياً وإعياً... والهم الثاني: أنها محاولات لتملك مناهج ما زالت هي نفسها تطرح علامات

استفهام على بعض أسسها أحياناً، وعلى وظيفتها أحياناً أخرى. فهذه المناهج ما زالت بدورها محاولات، رغم الخطوات الكبرى والهامة التي خطتها. وهذا ما يضع نقدنا الحديث المستفيد من هذه المناهج موضع القلق والاضطراب الدائمين، ويفرض عليه العمل لتأسيس فكر علمي يستحيل أن يتحقق مقتصرأ على ميدان من الميادين، بل لا بدّ من تحقيقه ككلّ وفي مختلف الميادين وخاصة ما كان منها متصلاً بالنقد الأدبي كعلوم اللسانيات من فنولوجيا وتركيب ودلالة^(٥١).

أما أهم ما يؤخذ على المنهج البنيوي في تحليل النص فيرى عبد المالك مرتاض أن عبثية الرفض البنيوي في ثورتها على مختلف العلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وسخرانها من الحياة في وظيفتها ومعناها الإنساني وتجريدها للأدب

من وظيفته الاجتماعية والتاريخية والإصلاحية والتعليمية والجمالية والترفيهية هو تجريد للنص من إنسانيته وتحويله إلى مجرد مظهر ميكانيكي لا يكاد يحمل أي معنى من معاني الحياة، وخاصة أن النصّ شبكة من الهواجس والعواطف والتطلعات والآمال والآلام والتجارب والأهواء... أي أن النصّ الأدبي مرآة مجلة للحياة بكل أبعادها وأعماقها، فكيف نعالج الإنساني بغير ما هو إنساني^(٥٢).

وفي رفض البنيوية للتاريخ يرى سارتر أنّ البنية لها علاقة واضحة وجدلية مع التاريخ ولا يصح لمثلها في تفكيره وتطلعاته إلى تبني مثل هذه النظرة التي تهدم العلاقة بين التاريخ والبنى يقول: إنّنا نلاحظ أن البنى إذا طرحت في ذاتها، كما يفعل بعض البنيويين، هي تركيبات زائفة، وفي الواقع لا يستطيع أي شيء أن يعطيها الوحدة البنيوية إن لم تكن الممارسة الموحدة التي تثبت تلك البنى وتصونها. ولا مجال للشكّ في أنّ البنية تترتب عليها مسالك لكن المزعج في المذهب البنيوي الجذري، حيث للتاريخ مظاهر خارجية وعدم لزوم بالنسبة إلى هذا النظام المتبين أو ذاك، هو أنه يضرب صفحاً عن الوجه المقابل الجدلي، ولا يقر بأنّ التاريخ

وخاصة من خلال نفيها لوظيفة الأدب في الحياة.

ويرى الناقد روبرت شولز أن العنف والقهر الذي يلجأ إليه دعاة البنيوية في تطبيقاتهم وتنظيراتهم لتحليل النص الشعري والأدبي قد انعكست عليه انعكاساً سلبياً إذ: "إن فكرة وضع اللغة للشعر فوق جهاز الشد وإرغامه على الإفضاء بأسراره أو ما هو أسوأ، على الاعتراف الكاذب كانت مثار رعب جزء كبير من العالم الأدبي، وقد كانت النتائج الفعلية للنقد الأدبي الذي قام به البنيويون فظيعة بما فيه الكفاية"^(٥٦).

خامساً: التلقّي في المنهج الأسلوبي.

الأسلوب والأسلوبية مصطلحان ورد ذكرهما في الدراسات الأدبية واللغوية قديماً وحديثاً، وكلمة الأسلوب من حيث المعنى تعني، الطريق والوجه والمذهب والجمع أساليب^(٥٧) كما يمكن أن تعني النظام والقواعد العامة التي يسير عليها نمط الحياة في مجتمع ما، ويمكن أن تعني كذلك الخصائص الفردية التي يتمتع بها كاتب معين في كتابته.

كما أن الاتساع في دلالة معنى الأسلوب من الناحية اللغوية يقابله مجال أكثر اتساعاً في دلالاته عندما يقتصر معناه على الدراسات الأدبية في النقد الحديث كما امتد

ينتج بدوره البنى. والواقع أنّ البنية تصنع الإنسان بقدر ما إنّ التاريخ يصنع التاريخ. إنّ الدراسة البنيوية إذن لحظة من الانثروبولوجيا يفترض فيها أن تكون تاريخية وبنيوية معاً^(٥٨).

إن البنيوية بوصفها منهجاً لتحليل النص الأدبي وقراءة من قراءاته لا تستطيع أن تقوم بوظيفتها إلا عبر فكر نقدي يقوم على الولاء لقوانينها وبنيتها النقدية والفكرية، وهذا يعد أحد المآزق الفكرية للبنيوية التي تحبس التصوص في سجن قوانينها وبنيتها، ولذا فإن قارئ النص من وجهة نظر البنيوية يستخدم في قراءته تصنيفات نقدية جاهزة لأغراض معرفية ترضي النسق البنيوي^(٥٩). كما أن انشغال هذه القراءة بأنظمة المعنى الثابتة قد انعكست انعكاساً سلبياً على قراءة النص العربي إذ لا تساعد العقل النقدي العربي على ترميم الوعي بترائنا الإبداعي، بل تجعله غريباً ويصعب على الفهم لأنها منشغلة بهذه الأنظمة داخل النص عن أنظمة المعنى المتحركة داخل الثقافة^(٦٠).

إنّ الدارس للملاحظات النقدية البنيوية يلمس قصور موقفها أحياناً من الحياة الذي يؤدي أخيراً إلى قصور الرؤية في فهمها

ليشمل دراسات اللغة والأدب معاً. ويرتبط التعريف الحديث للأسلوب بثلاثية المؤلف والقارئ والنص" ففي تعريف الأسلوب بتلقي المؤلف يرى النقاد المحدثون بأنه كشف لنمط التفكير عند صاحبه، وتعبير كامل عن شخصيته، ويعكس أفكاره وصفاته الإنسانية، ويبين كيفية نظراته إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته وغير ذلك مما يؤكد الذاتية أساساً للأسلوب حتى أن الأسلوبيين ما يزالون يذكرون عبارة الأديب الفرنسي "بافون" الأسلوب هو الإنسان نفسه أو الأسلوب هو الرجل نفسه^(٥٨). ويقول ماكس جوب "إن جوهر الإنسان كامن في لغته وحساسيته"^(٥٩) أما تعريف الأسلوب بتلقي القارئ فيلتقي في مجموعة من النقاط المشتركة. فقد يكون هذا الالتقاء إقناعاً أو إمتاعاً أو شدة انتباه أو إثارة خيال. كما أن الأسلوب إذا كان ظاهرة مكتوبة أو منطوقة، فإن من سماته أن يترك أثراً على المتلقي لا يقل شأناً عن مبدع النص.

وعند الحديث عن مفهوم الأسلوب بتلقي القارئ لا بد من الإشارة إلى جهود الناقد الفرنسي "ميشال ريفاتير" الذي راعى جانب المتلقي في الاتصال الأدبي لينطلق إلى تحديد الأسلوب معتمداً على أثر الكلام في

المخاطب وأن لا ينطلق التحليل الأسلوبي من النص، وإنما من الأحكام التي يديها قارئ النص ولهذا يرى أن يكون هناك قارئ باث مثقف يتخذ من النص فرصة لإبراز معارفه وهذا ما يقيه من الانزلاق إلى الذاتية كإطلاق أحكام جمالية أو معيارية، والذي تميزت نظريته بإعطاء المتلقي بعداً ذا أهمية كبيرة في النظرية الأسلوبية عموماً، وفي التحليل الأسلوبي على وجه الخصوص^(٦٠). أما تعريف الأسلوب بتلقي النص فهو في أبسط تعريفاته هو "العلاقة المميزة لنوعية مظهر الكلام داخل حدود الخطاب وتلك السمة، إنما هي شبكة تقاطع الدوال بالمدلولات ومجموع علائق بعضها ببعض، ومن ذلك كله تتكون البنية النوعية للنص وهي ذاتها أسلوبه"^(٦١).

أما الناقد "هيل" فقد ذهب إلى أبعد من هذا في تعريفه للمنهج الأسلوبي عندما قال "الرسالة التي تحملها العلاقات الموجودة بين العناصر اللغوية، لا في مستوى الجملة، وإنما في إطار أوسع منها كالنص أو الكلام"^(٦٢). ثم تطور هذا التعريف حتى جعله "هيالمسالف" شاملاً الهيكل الكلي للنص^(٦٣). وينبغي أن نقودنا هذه التعريفات لدراسة المنهج الأسلوبي إلى أن نقطة البدء فيه لغوية و

القراءات النقدية الأسلوبية تنشئ لغة أو ميتا لغة توجه الأنظار إليها، وليكون النص الإبداعي مثيراً أسلوبياً له ينطلق منه في صياغة فروضه النقدية، وإنشاء نص على نص، ولغة على لغة فتمتلئ فراغات المؤلف، وفراغات النص الإبداعي بحضور الناقد الذي هو حضور مزدوج ذاتي وموضوعي نصي وخارج نصي^(٦٤).

أما أصحاب المدارس الأسلوبية وقد تنوعت اتجاهاتهم بين التعبيرية والأدبية والبنائية، الجماعية الوصفية الجماعية الوصفية أو أسلوبية التعبير والاتجاه الفردي أو الأسلوبية التأصيلية.

ففي الأسلوبية التعبيرية يرى شارل بالي أن اللغة وسيلة اتصال ونظام رموز يحمل الأفكار التي لا يقل فيها الجانب الفردي عن الجانب الجمالي الفردي عن الجماعي. ومن ثم فإن الجانبين يسهمان في إعطاء قيمة تعبيرية متجددة للأسلوب. كما أن القيمة الجمالية في النص متجددة بتجدد دراستها في كل زمان ومكان، ولكل لحظة خصائصها وقدرة باحثه على تلقي النص بأسلوبية جديدة.

ولما كان شارل بالي عالماً لغوياً فقد استمد مقوماتها من نظرتة إلى اللغة، واللغة

عنده نظام من الرموز التعبيرية تؤدي محتوى الفكرة التي تبرز فيها العناصر العقلية والعاطفية فتصبح حدثاً اجتماعياً محضاً، وتكشف وجهاً فكرياً وآخر وجدانياً، ويتفاوت الوجهان بحسب ما للمتكلم من استعداد فكري، وبحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون عليها^(٦٥).

ويرى نقاد هذه الأسلوبية أن فكرة القيمة الثابتة في الدراسات البلاغية القديمة قد اختلفت النظرة إليها وأصبح النص ينظر إليه على أنه مجموعة من القيم الجمالية، وكلما كشفت عن قيمة ظهرت لك قيمة أخرى، وأن قيمة الأداة تختلف من سياق إلى آخر، ومن جنس إلى أدبي آخر.

وجوهر الأسلوب عند بالي يتمثل في إنزال القيمة التأثيرية منزلة خاصة في سياق التعبير أما علم الأسلوب فيتوجه إلى الكشف عن هذه القيمة التأثيرية من ناحية جمالية نفسية عاطفية^(٦٦). يعتبر العالم ليوسيتزر "صاحب اللسانيات واللغة التاريخية" رائد ما الأسلوبية الأدبية، إذ لخص خطوات هذا المنهج بمجموعة من الخطوات التي يقوم عليها، وذكرها كثير من الباحثين في أبحاثهم منهم الدكتور موسى ربابعة في كتابه الأسلوبية ومنها، أن المنهج ينبع من

الإنتاج، وليست من مبادئ مسبقة أو إيدولوجيات مفروضة عليه من الخارج، لأنه عمل مستقل، له كيانه وقواعده ومبادئه التي يقوم عليها وينطلق في تحليله منها، والإنتاج كل متكامل، وروح المؤلف هي المحور الشمسي الذي تدور حوله بقية كواكب العمل ونجومه، ولا بد من البحث عن التلاحم الداخلي وينبغي أن تقودنا التفاصيل إلى المحور "الأدبي"، ومن المحور نستطيع أن نرى من جديد التفاصيل ويمكن أن نجد مفتاح العمل، كله في واحدة من التفاصيل، وأن نقطة البدء بالدراسات الأدبية والأسلوبية يجب أن تكون لغوية، والنقد تعاطفي بالمعنى العام للمصطلح.

أما جذور هذا الأسلوبية فيعود إلى بدايات القرن العشرين عندما نه كارل فسلر^(٦٧) إلى ضرورة الاهتمام بالتاريخ الأدبي قائلاً: "لكي ندرس التاريخ الأدبي لعصر ما، فإنه ينبغي على الأقل الاهتمام بالتحليل اللغوي بنفس القدر الذي يهتم فيه بتحليل الاتجاهات السياسية والاجتماعية والدينية لبيئة النص".

وتعتبر الأسلوبية البنائية أصلاً أساسياً لجميع الأشكال الأسلوبية، وهي امتداد لآراء العالم "دوسوسير" في كتابه الشهير "دروس في

علم اللغة العام" وقامت على التفرقة بين ثنائية اللغة والكلام ونحوهما. أي أن هناك فرقاً بين مستوى اللغة العام ومستوى النص. وإذا كانت البنيوية تنطلق من النص بوصفه بنية لها خصائصها التي تكمن في ذاتها، فإن الأسلوبية البنائية تركز على أن النص بنية من الأدلة اللغوية. فهو بنية كاملة لا تتحقق إلا من دراسة اللغة، وأن معناه هو نتيجة تفاعل مع مختلف عناصر اللغة فيه وبالتالي فإن الأسلوبية البنائية تركز على تناسق أجزاء النص اللغوية.

وقد قامت نظرة هذه المدرسة على إدراك الصفة الكلية في النص، وتعارض التوجه التجزيئي الذي يقوم على اعتبار دراسة الأجزاء يؤدي إلى فهم النص كاملاً، لا بل إن النص يكتسب وجوده من خلال تفاعل جميع العناصر اللغوية وجوانب تركيبه. إن الاستفادة من دراسة مجموعة العلائق البنائية في دراسة الشكل الأسلوبي في مستوياته المتعددة، التركيبية والدلالية أفضى إلى خلق وازع روح النظام في الممارسة النقدية وأنقذها من النظرة المفككة التجزيئية، فالعلاقات تمنح الناقد فضاء حركياً تأويلياً.. لأنها أنموذج للتواصل التصني والانسجام البنائي^(٦٨). وأن من أجل ذلك تهتم

الأسلوبية البنائية بعلاقات التكامل بين العناصر اللغوية في النص والإيحاءات التي تتحقق من جراء هذا التكامل والانسجام لا من الانفصال والتنافر الإيمان بوجود بنية في النص يجب البحث فيها، وأن للمتلقى أهمية في تحديد الأسلوب والأسلوبية والاهتمام بالسياق التاريخي.

وفي الأدب العربي الحديث تجلّى هذا المنهج في كتابات النقاد سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية، فمن الناحية النظرية كتب فيه، عبد السلام المسدي، وشكري عياد، وسعد مصلوح ويوسف أبو العدوس ومحمد اللويمي وعدنان النحوي. ومن القراءات التطبيقية، كتاب موسى ربابعة "قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي". إذ قسم الكتاب إلى مقدمة وأربعة فصول. ففي المقدمة حرص المؤلف على الإفادة من تطبيق النظريات الأسلوبية على الظواهر الشكلية في القصيدة الجاهلية، ومقولات النقد الحديث. وفي الفصل الثاني تناول ظاهرة التكرار، وفيها عمد إلى عرض لأنماط التكرار وصوره في الشعر الجاهلي من تكرار الحرف أو الكلمة أو التركيب أو الشطر الشعري، أو تكرار البداية واللازمة. أم الفصل الثاني، فقد جعله تحت

عنوان "التضمن العروضي عند الأعشى" ويرى فيه أن إكثار الأعشى للتضمن ينسجم مع آراء عبد القاهر الجرجاني، وأن الرابط بين الأبيات المشتملة على هذه الخصيصة الأسلوبية هو رابط معنوي ونحوي. وفي الفصل الثالث، يتناول المؤلف ظاهرة التجريد في الشعر الجاهلي وفي نماذج منه، والتجريد: هو تخيل الشاعر شخصاً يخاطبه في القصيدة خطاباً مختلفاً عن مخاطبة الشاعر نفسه. وفي الفصل الرابع قامت هذه الدراسة على الإفادة من مفهوم التناص لتضيء جوانب النص المدروس ومتخذة من النص المدروس منطلقاً للكشف عن طبيعة علاقته بالتصوص الأخرى^(٦٩).

ومن بين القراءات الأسلوبية، قراءة محمد العبد للسّمات الأسلوبية في شعر صلاح عبد الصبور على الرغم من تصريحه في بداية الدراسة أن هذه الدراسة لا تغطي كلّ السّمات الأسلوبية في شعر صلاح عبد الصبور، ولا يزعم أن هذه الدراسة تقدم تحليلاً لخصائص الاستخدام اللغوي في شعر صلاح عبد الصبور، وإنما هي -بالأحرى- مدخل لعرض بعض السّمات اللغوية والأسلوبية الأساسية في شعره، وتحليلها في ضوء الدراسات الحديثة في علم الأسلوب.

كما قام في بداية دراسته ببيان الخطوات التي اتكأ عليها في دراسته للظواهر الأسلوبية في شعر عبد الصبور. والتي رآها في خطوتين متكاملتين، الأولى منها قائمة على الوصف اللغوي للمثيرات اللغوية، والثانية، بيان دلالات المعنى من خلال بيان هذه المثيرات. وقد حدد العناصر والمثيرات اللغوية الأساسية ذات القيم الأسلوبية في شعر صلاح عبد الصبور في النقاط التالية: التثنية، والتأنيث، والتصغير، والفعل، والصفة وقيمتها الأسلوبية في المزاوجات المجازية، ورمزية الألوان، والمزاوجات الاسمية وقيمتها الأسلوبية، ومزاوجات اسمية خاصة، والتأثر بلغة الحياة اليومية والتكرار وقيمتها الأسلوبية^(٧٠).

وعلى الرغم من الاهتمام الواضح في أحكام هذا المنهج وقراءاته للنص الأدبي، فإننا نجد بعض من وقف عند هذا المنهج ورأى في قراءاته للنص قصوراً عندما عزل كل ما يتجاوز من مقاييس تاريخية أو نفسية^(٧١). وحصر النص في دائرة ضيقة فبعض الأسلوبيين الذين يتعاملون مع جانب واحد من جوانب النص كإحصاء المفردات وحدها، أو أنواع الأنظمة النحوية وحدها يحولون الأسلوبية إلى أسلوبية جافة،

لأنها حينئذ لا تتعامل مع عنصر واحد لا يقوم بنفسه ولا يؤدي وحده غاية ذات فائدة تامة والتعامل مع عنصر واحد من عناصر البناء اللغوي للقصيدة لا يحقق إيضاحاً ولا إضاءة للنص المدروس^(٧٢).

ينضاف إلى ذلك كله أن بعض نقاد هذا المنهج لم يلتزم بمنهجية أسلوبية واحدة دائماً، وإنما كان ينطلق وفقاً لما يميله عليه النص الذي يحلله، فتارة يتقيد بالتحليل اللساني الصرف، وتارة أخرى يفيد من مستويات التحليل البلاغي ... وتارة ينساق إلى نوع من التحليل النفسي للكشف عن طبيعة تشكّل الملفوظ الشعري، وهو في كل ذلك لا يقتصر دائماً على التحليل النص الداخلي، بل يدعم فحصه ببعض مستويات التحليل الخارجي. فلا يهمل ما يقدمه المرجع التاريخي والثقافي والأيدولوجي من دعم للتحليل الأسلوبي والنقدي^(٧٣).

كما أن بعض النقاد من حاول أن يتخذ من عدد من منهجيات قراءة النص في ظلّ المنهج الأسلوبي وسيلة لدراسة القصيدة الشعرية، فنجد في بعض القصائد المحللة مظاهر واضحة لأسلوبية بالي التعبيرية، وملامح لمنهجية جاكسون الوظيفية، وعناصر من أسلوبية ريفاتير العاطفية وصدى مقولة

بافون. ولكن في كثير من الأحيان قد يكون أسلوب الرجل مخالفاً له كل المخالفة. ولا يعكس ميزات الشخص تماماً، إذ نجد هناك سمات في الأسلوب لا نجدها في سمات المخاطب، كما نجد في هذا صفات لا تتجلى في أسلوبه.

وإذا أخضعنا النص للأسلوبية الإحصائية فإن الناقد فيها كما يرى صلاح فضل "يعجز عن الدلالة على الخواص الأسلوبية التي تستحق القياس لأهميتها في تكوين الأسلوب كما أنه لا يستطيع أن يضع أساساً للتغير الأسلوبي لهذه المؤثرات الشكلية، مما يجعل قوة برهان نتائجها قاصرة للغاية في كثير من الحالات إذ تكاد تطرد عكسياً درجة موضوعية النتيجة، ولعل السبب في ذلك يكمن في طبيعة قصور هذه الإجراءات، إذ يمكن الوصول إلى نتائج هامه دون حصر شامل لكل الخواص في جملة النص^(٧٤). كما أننا نحصره في زوايا وفرضيات كقياس السمات الأسلوبية المشتركة في الاستعمال أو قياس النسبة بين تكرار خاصية أسلوبية وتكرار خاصية أخرى أو قياس معدلات كثافة الخصائص الأسلوبية في عمل معين أو عند كاتب معين

أو قياس التوزيع الاحتمالي لخاصية أسلوبية معينة أو غير ذلك من إحصاءات^(٧٥).

كما أن اقتصار البحث الأسلوبي على الظواهر اللغوية جعله لا يهتم بالتأويل والولوج في التحليل أو التفسير وقد يدفع الباحث إلى غايات أخرى بعيدة عن مفهوم الأدب والفن. فيتحول إلى عرض أساليب وسمات لغوية بالعمليات الحسائية. التي لا تؤدي بالضرورة إلى معرفة عناصر الإبداع في النص.

كما أن وجوه الالتقاء بين المنهج البنيوي والأسلوبي قد أوقع بعض الدارسين بالخلط خلطاً يشف عن أنهما شيء واحد. **سادساً: التلقّي في المنهج الأسطوري.**

تستمد الأسطورة رؤيتها من التاريخ بكل ما يحمل من نواح إنسانية في مختلف المجالات الفكرية والثقافية. فهي ذات أبعاد رؤيوية إنسانية جوهرية تتخطى البعد الظاهري السطحي إلى ما هو أبعد وأعمق. لكن استخدام الأساطير في الشعر لا يخلو من وظيفة إذ إنّ الأساطير العظيمة ليست أوهاماً بل هي منطوق النفس الإنسانية كلها، وهي من ثم لا يحيط بها التأمل، ولا تأتي على كل ما فيها وهي ليست متعة، أو ملاذاً للهرب حتى يتطلبها من يتطلبها

للراحة والقرار من حقائق الحياة نفسها معروضة ممثلة هي الإدراك الرمزي لتلك الحقائق ومحاولة لخلق الانسجام فيما بينها وتقبلها بالرضا، ومن خلال تلك الأساطير تستجمع إرادتنا، وتتوحد قوانا وينضبط نمونا، ومن خلالها أيضاً يتزن كياننا المضطرب، ويلتئم وجودنا المشعث، وبهذه الأساطير يطمئن التناقض وينسجم النشاز في الأشياء ومن خلالها حصلنا على التكامل الذي يجعل منا أناساً متمدينين^(٧٦). وهي نقطة انطلاق العلوم والفنون كلها، فهي أول تعبير مكثف ومنظم قامت به ملكة الخيال لترسم خطة مستقبلية لتطور الفكر الإنساني، والنقد الأسطوري هو أيضاً نقطة انطلاق النقد الأدبي الحديث^(٧٧) لقد كان توظيف الأسطورة في الشعر رؤية ثقافية وفنية تعتمد على مرجعيات ثقافية تاريخية أو أسطورية متعددة المصادر والأبعاد.

ومن أشهر نقاد هذا المنهج "نورثروب فراي" الذي صنف المنهج الأسطوري في ضوء الأنماط الأسطورية، لأن هناك ثمة نمط سيزيفي ونمط بروميثيوس، ونمط أبوللي، ومن الممكن تقصي أنماط أخرى أكثر شمولاً من أنواع العمل الأدبي المعروفة التي يصنف الأدب على ضوءها من قصة وشعر

ومسرحية، ولكن هذه التصنيفات تستسقط سريعاً في مقولات مطلقة ثابتة تجمد التفسير الفني للأسطورة حتى تغدو مهمة النقد الفرز والتصنيف فحسب، كما أنها سوف تحدث اضطرابات في مفهوم الأدبية وما استقر فيه من قيم، إن مثل هذا التصنيف لن يزيد من فهم العمل الأدبي كما أنه لم يقدم خبرة جديدة في تحليله أو تقويمه^(٧٨). وخاصة أن النص الأدبي عبارة عن "بناء مركب من عناصر متعددة وتفاعل كل عنصر مع الآخر تفاعلاً داخلياً، وهو مبني على غير قواعد المنطق، فالمنطقية من طبيعة العلم"^(٧٩).

وتأتي الأسطورة أحياناً أخرى لتبرز رابطة تعلق الإنسان بوطنه، وخاصة حين يشير الشاعر المصري مثلاً إلى صورة التابوت المنحوت من جميز مصر الذي يستحضر إلى الذهن ما حدث لأوزوريس في الأسطورة.

أما معطيات التحليل الأسطوري للأدب العربي فقد كان الناقد فيه متأثراً بالفكر الأوروبي والغربي إثر قراءاتهم لنماذج النقد الأسطوري الأوروبي الحديث ومحاكاته، لإعطاء النص عمقاً أكثر.

إن الدراسات الأسطورية التي أجريت على الشعر العربي قبل الإسلام ارتابها كثير من الشكوك حول مدى صحة ما عثر عليه

الدارسين، وما تحداهم من عقبات يمكن أن تحدّ من نشاطهم وأملهم في الوصول إلى ما كان يجهله العربيّ فيما بعد من معلومات حول معتقدات هؤلاء سواء ما كان متمثلاً بالجانب الأسطوري نفسه من جهة ومن قدرتهم على فهم ما تدور حوله كثير من الرسومات التي تشير إلى معارف مغلقة على ذهن الإنسان عن تلك الفترة. كما أنّ كثيراً من القراء يرفضون الخوض في مثل هذه المآهات الأسطورية الميتافيزيقية، لأنّه لا يقبل الشكوك التي تبعده عن الخوض في جماليات القصيدة الفنية، وإذا حالت هذه الأساطير بين القارئ أو متلقيها أو باحثها وبين النصّ، فإنّه سيّشعر بالفجوة العميقة بين لغته ونصه، ولا تكشف عن خفايا النصّ ومكوناته إلا بمقدار ما ينطبع في ذهن المتلقي من أثر خارجي. وخاصة أنّ الأسطورة لها علاقة وثيقة بالدين المعتقد السائد عند الجماعات القديمة العربيّة وغيرها، كما أنّ ذكر الآلهة يثير في نفس القارئ بعداً غير مستحبّ ويبعده عما يدور في القصيدة من واقع اجتماعي أو سياسي أو تاريخي، وبالتالي توسيع الهوة بين الإنسان ومعتقدده. إنّ كثيراً من الآراء الأسطورية قد أبعدت عن البحث إما لأسباب دينية عقائدية أو لعدم معرفة بعض

الدارسين، وما تحداهم من عقبات يمكن أن تحدّ من نشاطهم وأملهم في الوصول إلى ما كان يجهله العربيّ فيما بعد من معلومات حول معتقدات هؤلاء سواء ما كان متمثلاً بالجانب الأسطوري نفسه من جهة ومن قدرتهم على فهم ما تدور حوله كثير من الرسومات التي تشير إلى معارف مغلقة على ذهن الإنسان عن تلك الفترة. كما أنّ كثيراً من القراء يرفضون الخوض في مثل هذه المآهات الأسطورية الميتافيزيقية، لأنّه لا يقبل الشكوك التي تبعده عن الخوض في جماليات القصيدة الفنية، وإذا حالت هذه الأساطير بين القارئ أو متلقيها أو باحثها وبين النصّ، فإنّه سيّشعر بالفجوة العميقة بين لغته ونصه، ولا تكشف عن خفايا النصّ ومكوناته إلا بمقدار ما ينطبع في ذهن المتلقي من أثر خارجي. وخاصة أنّ الأسطورة لها علاقة وثيقة بالدين المعتقد السائد عند الجماعات القديمة العربيّة وغيرها، كما أنّ ذكر الآلهة يثير في نفس القارئ بعداً غير مستحبّ ويبعده عما يدور في القصيدة من واقع اجتماعي أو سياسي أو تاريخي، وبالتالي توسيع الهوة بين الإنسان ومعتقدده. إنّ كثيراً من الآراء الأسطورية قد أبعدت عن البحث إما لأسباب دينية عقائدية أو لعدم معرفة بعض

الباحثين والنقاد إلى ما ترمي إليه هذه الأسطورة، إنّ المكتشفات الأثرية لم تصل بعد إلى العثور على معلومات أو رسومات يمكن من خلالها إزالة ما غمض على الدارسين من معلومات.

لهذا إنّ ما نراه في تحليل كثير من نقاد هذا المنهج لا يعدو كونه صوراً ظاهرية لم تتفاعل مع النصّ بعمق، كما أنّ القارئ عندما يدخل في شبكة علاقات النصّ يصعب عليه اكتشاف مدى درجات التناسب أو التلاؤم أو الانسجام الكامنة بين ثنايا التحليل والتفسير، ولا تعطي الصورة السّمة المجسدة لأحاسيس الشاعر لأنّ الأسطورة ليست حادثة تاريخية ولا تتركز قيمتها في كونها رؤية تاريخية بل في قدرتها على أن تكون فناً وجمالاً ورؤية إبداعية^(٨٠)، وإنّ ما وقف عنده النقاد في جماليات القصيدة الشعريّة القديمة في مجال الأسطورة ما هو إلا مجرد تصورات ربما تكون غير دقيقة ولا تمت إلى الحقيقة بصلة. كما يبدو أنّ الوصول إلى تفسير نهائيّ حول رؤية الشاعر العربيّ القديم حول الأساطير إنّ كان يدركها صعب جداً لأنها نتيجة لوضع اجتماعي وفكري هو وضع الذين يحاولون تفسيرها، فهي تمتلك بنية خاصة ذات قوانين ووظائف ترتبط بمراحلها

التاريخية يصعب إدراكها في مرحلة تاريخية لاحقة^(٨١). ولعل محاولة تفسير شعر ما قبل الإسلام وما بعده حتى عصور متأخرة من حيث موضوعاته وصوره وعناصره البنائية تفسيراً أسطورياً هي من المحاولات التي بذل نقادها جهوداً واضحة لإرساء قواعد هذا المنهج في الوطن العربي والتي ينبغي قراءتها في حذر وإمعان وتدقيق.

وبما أنّ الأسطورة جزء من بنية النص كبنية كلية متضافرة، فإنّ المتلقي يجب أن يدرسها على مستوى أعمق مع باقي الأجزاء المكونة للنص بوصفها عنصراً يمكن أن تكون ذات جدوى في عملية التحليل، إذ يتولد عنها نوع من التواصل والتضافر والتفاعل الذي يشد عرى معانيه. وفي أحيان أخرى يتعامل الشاعر مع الفكر الأسطوري من خلال تشكيل موقف رؤيوي في القصيدة.

إنّ الاتجاه في دراسة الأسطورة ضمن منهج أسطوري يواجه صعوبات منها: قلة المصادر الحقائقية التي يمكن أن تؤدي إلى استيفاء هذا الجانب وإحكام ربطها مع الواقع الذي يعيشه الشاعر.

وكذلك فإن التركيز على عنصر واحد من عناصر النص، لم يعد مجدياً في التحليل النصي والوصول في الدراسات إلى ما تريد،

والأدب لا يستخدم فقط الأسطورة كما ركزت بعض الدراسات، بل يستخدم التناقض والمفارقة، ويجمع بين أشياء تبدو متنافرة للوصول إلى الغايات الجمالية التي يتضمنها النص.

ويتضح أنّ التحليل الأسطوري لا يستطيع تقصي ما في باطن النص من معانٍ والنفاذ إلى دلالاته الداخلية، فالتفكير الأسطوري في الأصل هو تفكير عقلي وليس سوى استعارة للعقل نفسه فالقراءة فيه لم تستطع الدخول إلى بنية النص واستخراج دلالاتها الداخلية، بل توقفت عند شكل المفردات الخارجية الدالة على معانٍ خارجية فيما يتوافق مع الدلالات المعرفية والمعاني العميقة ولهذا فهو منهج يتسم بالتناقض والضعف، كما أنّ تشكّل هذا الاتجاه وكثرة مباحثه لم يكن بدافع خدمة الدراسة الأدبية ومواجهة مشكلاتها، وتحقيق درجة أفضل من الاقتراب من النص الأدبي بقدر ما كان بدافع الرغبة في إنعاش الدراسات الأنثروبولوجية وإذكاء الدور الذي يمكن أن تنهض به في فهم أبعاد التعقيد الملموسة من الروح الفردية لإنسان العصر، ومحاولة لإعادة تقييم عطاء الحضارة المستحدثة^(٨٢). كما يؤخذ على هذا الاتجاه

اختفاء الحدود الفاصلة فيه بين الفن والأسطورة حيناً وبين الفن والدين أحياناً أخرى، وأنّ غلبة المسلك الغيبي العقلاني على معالجته تختزل الشعر إلى أداة لنقل عدد محدود من الأساطير عن الانبعاث والتطهير^(٨٣).

وفي الأدب العربي الحديث ظهر هذا المنهج عند بعض النقاد في الناحيتين النظرية والتطبيقية، بداية من كتاب نصرت عبد الرحمن الصّورة الفنيّة في الشعر الجاهلي، في ضوء النقد الحديث^(٨٤) ويوسف خليف في كتابه "مقدمة القصيدة الجاهلية، محاولة جديدة لتفسيرها" ودراسات أحمد كمال زكي "التشكيل الخرافي في شعرنا القديم" والتفسير الأسطوري للشعر القديم وإبراهيم عبد الرحمن في دراسته "التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي" ومصطفى ناصف في كتابه "قراءة ثانية لشعرنا القديم" وريتا عوض في كتابها "بنية القصيدة الجاهلية، الصّورة الشعرية لدى امرئ القيس".

ومن القراءات التي جمعت بين النظرية والتطبيق، دراسة عماد الخطيب الصّورة الفنيّة في المنهج الأسطوري لدراسة الشعر الجاهلي. إذ بدأها بالحديث عن مفهوم الصّورة الفنيّة في النقادين القديم والحديث، وصولاً إلى مفهوم الصّورة الفنيّة كما يراها أصحاب

المنهج الأسطوري وعلاقة الصّورة بالأسطورة^(٨٤). وتصويب النظرة إلى المقصود بكلمة أسطورة، إذ يرى أن هذا المصطلح قد تم تداوله أحياناً بصورة خاطئة، لأن الأساطير لا تكون لأشخاص أو أماكن أو أحداث حقيقية على الرغم من أنها تحتوي على الإشارة إلى أشخاص تاريخيين أو أماكن أو أحداث حقيقية^(٨٥).

الخاتمة:

إن المتتبع لتطبيقات المناهج النقدية الحديثة على الأدب العربي يلمس أن هذه التطبيقات لا تمثل تلك الخصوصية التي نشأ النص وترعرع في ظلها بمختلف جوانبه التاريخية والاجتماعية والنفسية، إذ أعطت هذه المناهج السلطة للظروف التاريخية والاجتماعية والنفسية متناسية ما يتطلع إليه المؤلف والأحلام التي يسعى إليها سواء أكانت ذاتية أو جماعية. فلا أحد يستطيع أن ينكر بروز ظاهرة الأنا في شعر أبي الطيب المتنبي، ونرجسية أبي نواس، كما لا تشرح مثل هذه المناهج كثيراً من الإشارات والعلامات التي تساعد على دراسة التصور الفني في النص.

وفي مقابل هذه المناهج برزت المناهج النصّية التي تمثل البنيوية والأسلوية

الحذر من كثرة معطيات المدارس والمناهج النقدية والإفادة منها بالتأني والحذر.
الهوامش:

- (١) محمود، إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧١، ص٨٦.
- (٢) أبو شريفة، عبد القادر، وحسين لافي، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر، الأردن، ١٩٩٣، ص١٠٧.
- (٣) انظر، مندور، محمد، الأدب ومذاهبه، مكتبة نهضة مصر ومطبعها، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٣.
- (٤) العقاد، عباس محمود، مراجعات في الأدب والنقد، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٧.
- (٥) القحطاني، سلطان سعد، قراءة النص النقدي عند الرواد، علامات في النقد، ج٤٤، م١١، يونيو، ٢٠٠٢، ص٩٨٤.
- (٦) انظر، الأمين، عز الدين، نشأة النقد الأدبي في مصر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٠، ص٧.
- (٧) انظر، ضيف، شوقي، في النقد الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، ١٩٦١، ص٤٥.

والسيمولوجية والتفكيكية عندما نادى بموت المؤلف وإزاحته عن نصه، مما أعطى النص استقلالية لمعرفة أبعاده أو ملابسات إنشائه، لكن هذه السلطة قد اكتنفها بعض العيوب والأخطاء عندما أدخل كثير من البنيويين والتفكيكيين آراءهم في عالم النص والخوض فيه.

كما تبين أن ما نراه في تحليل كثير من النقاد في ضوء معطيات المنهج الأسطوري لا يعدو كونه صوراً ظاهرية لا تتفاعل مع النص بعمق ويصعب اكتشاف مدى التناسب والتلاؤم بين ثانيا التحليل والتفسير لإعطاء الصورة المجسدة لأحاسيس ومشاعر الأديب.

إن التركيز على عنصر واحد من عناصر النص كما في المناهج النقدية لم يعد مجدياً في التحليل النصي والوصول إلى ما يريده القارئ، ولا تستطيع تقصي ما في باطن النص من معانٍ والنفوذ إلى دلالاته الداخلية، بل توقفت عند شكل المفردات الخارجية الدالة على معانٍ خارجية، ولهذا فهي مناهج تتسم بالتناقض والضعف، وخاصة أنها تشكلت وفق إيديولوجيات معينة في نفس أصحابها ومنظريها، وأصبح من الضروري على الباحث والمشتغل بقراءة النص توخي

- (٨) انظر أبو ديب، كمال، جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٤، ص٧.
- (٩) انظر، الغدامي، عبدالله، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية الثقافية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ص٩٣-١٤٠
- (١٠) المسدي، عبدالسلام، النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص٥١.
- (١١) الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ١٩٨٦، ص١١.
- (١٢) انظر، إبراهيم، نبيلة، القارئ في النص، نظرية التأثير والإيصال، مجلة فصول، القاهرة، م٥، ع١، أكتوبر- نوفمبر- ديسمبر، ١٩٨٤، ص١٠١-١٠٢.
- (١٣) حرب، علي، قراءة ما لم يقرأ، نقد القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع٦٠-٦١، ١٩٨٩، ص٤٧.
- (١٤) باعشن، لمياء، نظريات قراءة النص، مجلة علامات في النقد، م٣٩، ج١٠، ٢٠٠١، ص١٢٢.
- (١٥) برهم، لطفية إبراهيم، اتجاهات تلقي الشعر في النقد العربي المعاصر، علامات في النقد، ج٣٥، مج٩، مارس ٢٠٠٠، ص٢٧١.
- (١٦) انظر، وجليسي، يوسف، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٥.
- (١٧) انظر، عتيق، عبد العزيز، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، ص٢٩١.
- (١٨) فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، دار أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، ٢٠٠٢، ص٥٦-٥٧.
- (١٩) فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، ص٤٧.
- (٢٠) ويلي، رينيه، أوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧، ص١٩٩.
- (٢١) انظر، هويدي، صالح، النقد الأدبي الحديث، قضايا ومناهج، منشورات السابغ من ابريل، ط١، ١٤٢٦، ص٩٧.
- (٢٢) انظر، عبدالله خضر حمد، مناهج النقد الأدبي، السياقية والنسقية، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٤٠.
- (٢٣) انظر، فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، ص٦٤-٦٥.
- (٢٤) انظر، فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، ص٦٥.
- (٢٥) انظر، فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، ص٦٦.

- (٢٦) الرويلي، ميجان، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٥، ٢٠٠٧ ص ٣٣٣.
- (٢٧) مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة صفوان ظاظا، مراجعة المنصف الشنوفي، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٢١، مايو، آيار، ١٩٩٧، ص ٦٢.
- (٢٨) انظر، هويدي، صالح، النقد الأدبي الحديث، قضايا ومناهج، منشورات السابع من ابريل، ط ١، ١٤٢٦ ص ٨٥.
- (٢٩) السمرة، محمود، التحليل النفسي للإبداع الفني، مجلة الأديب، ج ٢، ط ٢٧، ١٩٥٥، ص ٩.
- (٣٠) السمرة، محمود، التحليل النفسي للإبداع الفني، مجلة الأديب، ص ١١.
- (٣١) السمرة، محمود، التحليل النفسي للإبداع الفني، مجلة الأديب، ص ١١.
- (٣٢) انظر، هويدي، صالح، النقد الأدبي الحديث، قضايا ومناهج، ص ٧٤.
- (٣٣) إسماعيل، عز الدين، مناهج النقد الأدبي بين المعيارية والوصفية، مجلة فصول، م ١، ع ٢، يناير، ١٩٨١، ص ٢١، نقلاً عن فاتن أوكونور.
- (٣٤) حاتم، عماد، النقد الأدبي، قضايا واتجاهاته الحديثة، دار الشروق العربي، لبنان، ص ١٧٩.
- (٣٥) انظر بن ذريل، عدنان، الدراسة النفسية للأديب، مجلة الأديب، نوفمبر، ج ١١، ١٩٧٠، ص ٢٥.
- (٣٦) انظر، هويدي، صالح، النقد الأدبي الحديث، قضايا ومناهج، ص ٨٨.
- (٣٧) انظر، حاوي، إيليا، نفسية بشار وتأثيرها في هجائه، مجلة الأديب، ج ٨، م ٣٨، ١٩٦٠، ص ٢.
- (٣٨) إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأديب، دار العودة، بيروت، ١٩٦٣، ص ٣.
- (٣٩) هلال، محمد غنيمي، الرومانتيكية، دار نهضة، مصر، ١٩٨١، ص ١٨٦.
- (٤٠) انظر، حسين، محمد حاج، بشار بن برد، مجلة الأديب، ج ٥، ١٩٦٤، ص ٣٤.
- (٤١) البيومي، محمد رجب، تحليل نفسي لشخصية الخطيئة، مجلة الأديب، ج ٣، ١٩٨٦، ص ١٣.
- (٤٢) أنظر، محمد مندور، الميزان الجديد، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٩.
- (٤٣) انظر، قصاب، وليد، مناهج النقد الأدبي، دار الفكر، دمشق، ط ٢٠٠٧، ص ٥٩-٦٠.
- (٤٤) انظر، أبو ديب، كمال، جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، ص ٧.

- (٤٥) عزام، محمد، تحليل الخطاب في ضوء المناهج النقدية الحديثة، دمشق، ٢٠٠٣، ص ١٩٣.
- (٤٦) أبو ديب، كمال، جدلية الحفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، ص ٢٤٧.
- (٤٧) عزام، محمد، النص الغائب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص ٢٠.
- (٤٨) انظر، النعمي، ناصر إبراهيم، المدرسة البنيوية، مجلة علوم إنسانية، سنة ٦، صيف ٢٠٠٨، ص ٤.
- (٤٩) انظر، بياجيه، جان، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أبري، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٥، ص ٦٢-٦٥.
- (٥٠) هيشن، كلاوس، القضايا الأساسية في علم اللغة، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م، ص ٥٨.
- (٥١) العيد، يمني، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٢.
- (٥٢) مرتاض، عبد المالك، مدخل في قراءة البنيوية، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع ٣٣٣، ١٩٩٦، ص ٤٢.
- (٥٣) سارتر، جان بول، دفاع عن المثقفين، ترجمة: جورج طرايشي، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٦١.
- (٥٤) يوسف، عبد الفتاح أحمد، استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي، نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص، مجلة عالم الفكر، م ٣٦، ع ١، يوليو- سبتمبر ٢٠٠٧، ص ١٩٦.
- (٥٥) يوسف، عبد الفتاح أحمد، استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي، نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص، ص ٢٠٣.
- (٥٦) عدمان، عزيز، قراءة النص الأدبي في ضوء فلسفة التفكيك، مجلة عالم الفكر، مج ٣٣، ع ٢ أكتوبر- ديسمبر ٢٠٠٤، ص ٦٠.
- (٥٧) انظر ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج ٧، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، مادة (سلب) ص ٢٢٥.
- (٥٨) الشايب، أحمد، الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية- مطبعة السعادة، القاهرة، ط ٧، ١٣٩٦، ١٩٧٦، ص ١٣٤.
- (٥٩) المسدي، عبدالسلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ٣، ١٩٨٢، ص ٦٣.
- (٦٠) انظر العبد، محمد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩، ص ٣٨.
- (٦١) المسدي، عبدالسلام، الأسلوبية والأسلوب، ص ٦٣-٦٤.
- (٦٢) المسدي، عبدالسلام، الأسلوبية والأسلوب، ص ٨٧.
- (٦٣) المسدي، عبدالسلام، الأسلوبية والأسلوب، ص ٨٨.

- (٦٤) صالح، بشرى موسى، المنهج الأسلوبي في النقد العربي الحديث، علامات في النقد، ج ٤٠، م ١٠، يونيو ٢٠٠١، ص ٢٩٧-٢٩٨.
- (٦٥) المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والنقد الأدبي، منتخبات من تعريف الأسلوب وعلم الأسلوب الثقافة الأجنبية ع ١، السنة الثانية، ١٩٨٢، ص ٣٥. وانظر: إبراهيم عبد الجواد، الاتجاهات الأسلوبية في النقد الحديث، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٦، ص ٢٧.
- (٦٦) أبو حمدان، سمير، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ص ٣٥.
- (٦٧) درويش، أحمد، الأسلوب والأسلوبية، مجلة النقد الأدبي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، م ٥، ع ١ نوفمبر، ديسمبر، ١٩٨٤، ص ٦٧.
- (٦٨) صالح، بشرى موسى، المنهج الأسلوبي في النقد العربي الحديث، ص ٢٩٧.
- (٦٩) ربابعة، موسى، قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي، مكتبة الكتاني، إربد، ٢٠٠١، ص ١٥١.
- (٧٠) العبد، محمد، سمات أسلوبية في شعر صلاح عبد الصبور، مجلة فصول، م ٧، ع ١-٢، أكتوبر ١٩٨٦، مارس ١٩٨٧، ص ٨٩.
- (٧١) المسدي، عبد السلام، النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥١.
- (٧٢) حماسة، محمد عبد اللطيف، منهج في التحليل النصي للقصيدة، مجلة فصول، مج ١٥، ع ٢، صيف ١٩٩٦، ص ١١٣.
- (٧٣) تامر، فاضل، اللغة الثانية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص ٩٢-٩٣.
- (٧٤) فضل، صلاح، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، النادي الأدبي، جدة، ط ٣، ١٩٨٨، ص ٣٠٦.
- (٧٥) الواعر، مازن، الاتجاهات اللسانية المعاصرة ودورها في الدراسات الأسلوبية، عالم الفكر، مج ٢٢، يونيو ١٩٩٤، ص ١٥٧.
- (٧٦) ستانلي، هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ج ٢، ١٩٦٠، ص ٢٠٩.
- (٧٧) الحارثي، محمد بن مريسي، قراءة النص في التراث النقدي العربي، علامات في النقد، ج ٤٤، م ١١، يونيو ٢٠٠٢، ص ٧١٠-٧١١.
- (٧٨) محبك، أحمد زياد، الأسطورة، المجلة الثقافية، ع ٣١، ١٩٩٤، ص ٢٤١.
- (٧٩) عبدالرحمن، نصرت، في النقد الحديث، عمان، مكتبة الأقصى، ١٩٧٩، ص ٦١.

(٨٠) يونس، محمد عبد الرحمن، الغاية من استخدام الأسطورة في الخطاب الشعري، مجلة المعرفة، سوريا، ع٤١٤، سنة ٣٧، آذار ١٩٩٨، ص١١٣.

(٨١) محبك، أحمد زياد، الأسطورة، ص٢٤١.

(٨٢) صلاح، رزق، أدبية النص، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٥٣.

(٨٣) صلاح، رزق، أدبية النص، ص١٦٠.

(٨٤) الخطيب، عماد، الصورة الفنية في المنهج الأسطوري لدراسة الشعر الجاهلي، مكتبة الكتاني، والمكتبة الأدبية الأردن، إربد، ٢٠٠٢، ص٣٧.

(٨٥) الخطيب، عماد، الصورة الفنية في المنهج الأسطوري لدراسة الشعر الجاهلي، ص٣٧.

مصادر التناص وأشكاله في شعر أحمد مشاري العدوان

مبارك عادل علي الميع العازمي *

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/٨/١ م

تاريخ قبول البحث: ٢٠١٨/١٢/٢٠ م

ملخص

يعد التناص أحد أهم المفاهيم النقدية التي تنتمي إلى مرحلة ما بعد البنيوية، ولقد أصبح اليوم فكرة محورية يحاول الجميع امتلاكها والاستئثار بتعريفها وتحديداتها، فكانت موضوعاً للشعرية وبحثاً سيميائياً ودرساً أسلوبياً ثم انتقلت إلى حقل التداولية.

إن ما سبق يوضح السبب في تضخم المفهوم وتوسعه، وإن التوقعات الأكاديمية التي تنبأت بأفول المفهوم والانتقال نحو مرحلة جديدة باءت بالفشل الذريع، إذ عاد التناص ليمثل نقطة مركزية في روح ما بعد الحداثة، وهو ما يفسر متابع كثرة الدراسات التناصية تنظيراً أو تطبيقاً. فليس بوسعنا اليوم أمام هذا التشظي النظري للمفهوم إلا مجارة المنطق النقدي في الدراسة والتحليل، كما أنه ليس من حق أي منظر أن يحتكر مفهوم التناص لأنه في الواقع نتاج جماعي لا ينبغي لأحد إدعاء ملكيته أو الاستئثار بتعريفه.

وهذه الدراسة المتواضعة تحاول أن تقدم مقارنة منطقية في إطار النقد الأدبي مطلقة من موجز تاريخي مكثف لظهور المصطلح وتطور المفهوم وتغيره، فيما ستخصص القسم الأكبر لدراسة مصادر التناص وأشكاله في أعمال الشاعر الكويتي أحمد مشاري العدوان، مسلماً بأن التناص هو القدر الذي لا فكاك لنص منه، وأن التناص استراتيجية لتشكيل النص الأدبي (إبداع) بقدر ما هو أداة لتحليله (قراءة).

Abstract

Intertextuality is a significant poststructural critical concept that has become a pivotal notion claimed by everyone to define. It then became a subject matter for poetics, semiotics, stylistics and pragmatics.

* باحث، طالب دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

This might suggest the continuous expansion of this concept and the invalidity of some academic expectations that it would fade out and transform into a new stage. Intertextuality still represents a central point in the poststructural spirit. This indicates the abundant literature on theoretical and applied Intertextuality. Under this theoretical fragmentation of the concept this study cannot but follow the critical logic of analyzing the concept of intertextuality which no theoretician has the right to claim its definition because it is a collective work.

This study seeks to critically approach intertextuality through a brief chronicle of its evolution and change, discussing mainly the sources and forms of intertextuality in the Kuwaiti poet Ahmad Mshari Al- Edwani's works, recognizing that Intertextuality is inevitable for any text, being thus a creation strategy for structuring the text and similarly a reception tool for analyzing it.

مدخل:

ظهر مصطلح التناص بعد التجديد الذي لحق الفكر النقديّ خلال الستينيات من القرن العشرين، وكان حين اكتشافه باختين (Bakhten) قبل ذلك ظاهرة موجودة في اللغة، وفي الخطاب الأدبيّ لاحقاً؛ ثم أصبح على يد كريستيفا (Kristiva) ومن بعدها؛ أحد أهمّ الأدوات الإجرائيّة في الدراسات النقديّة. والحق أنّ الدراسة التاريخيّة لظهور نظريّة التناص وتطورها تتداخل مع سياقات منهجيّة متباينة وربما متداخلة؛ حاولت تفسير

ظاهرة تعدّد الخطابات في النصّ، كما حاولت الاستئثار بالمفهوم وتفسيره بصيغة ناجزة، مما أدى إلى بروز نوع من التشطّي لمفهوم التناص.

وتعدّ نظريّة الحواريّة التي جاء بها باختين (Bakhten) النقطة المحورية التي أسهمت في إحداث تغيير وجهة النظر حول الكلام، حيث انتقل الاهتمام تدريجياً نحو تحليل التلفّظ؛ في حين كان التحليل في ذلك الوقت متركزاً أساساً على بنية الملفوظ^(١). وعندما ظهر مصطلح التناص شكّل مرحلة

واضحة المعالم في الحركة النقدية التي عُرِفَتْ بـ"ما بعد البنيوية"، وقد بدأ ذلك في بعض الأعمال النظرية لجماعة تيل كيل (Tel Quel) الفرنسية عامي ١٩٦٨/١٩٦٩. ولا سيما كريستيفا التي صكّت المصطلح (Intertextuality) قبل ذلك بنحو عامين، إذ حدّدت ما لـ باختين (Bakhten) من فضلٍ على مفهوم التناص؛ ورأت أن كل نصّ يتشكّل من فسيفساء من الاستشهادات، وأن كل نصّ امتصاصٌ وتحويلٌ لنصٍّ آخر^(٢).

وكان بارت (Barthes) قد تناول مصطلح كريستيفا في كتابه لذة النص ١٩٧٣، وأسبغ عليه الصفة الرسمية، ولذلك فقد لوحظت غزارة إسهامات الباحثين بدءاً من العام ١٩٧٥ وصولاً إلى ريفاتير الذي قدّم إسهامات كثيرة في الموضوع^(٣)، فأصبح عنده "التناص" الآلية الخالصة للقراءة الأدبية، وأساساً لما يمكن أن يسمّى بالشعرية^(٤). كما أصدر أنطوان كومبانيون (Compagnon) كتابه "اليد الثانية أو اشتغال الاستشهاد" ١٩٧٩م، حيث قدّم فيه دراسةً منهجيةً للاستشهاد باعتباره ممارسةً تناصيةً^(٥). ثم نشر تودروف (Todorov) كتابه "ميخائيل باختين، المبدأ الحواريّ؛ واقترح فيه تقسيم المبدأ الحواريّ إلى مفهومين؛ مفهوم الحوارية،

ومفهوم التناص" كما حدّته كريستيفا (Kristiva). لكن المشروع التوضيحيّ للتناص كان من صنيع جينيت (Genette) في إصداره "مدخل إلى جامع النص" ١٩٧٧ أولاً، ثمّ في أطراس^(٦) ١٩٨٢. وقد سعى جينيت إلى بناء تصنيفٍ شكليٍّ للعلاقات التي تتم بين النصوص وانتهى إلى أن موضوع الشعرية هو الماوراء نصية؛ التي حدّدها كمتعالية نصية للنصّ تؤطّر كلّ ما يجعل نصّاً ما في علاقة ظاهرة أو خفية بنصوصٍ أخرى، ثمّ فرق من خلال هذا المفهوم بين مجموعة من العلاقات التي يمكن للنصّ أن ينشئها مع نصوصٍ أخرى؛ جاعلاً التناص نمطاً واحداً فقط ضمن خمسة أنماطٍ من العلاقات الماوراء نصية، ورّتب هذه العلاقات في نظام تصاعديّ من التجريد إلى التضمين إلى الإجمال وهذه الأنواع هي^(٦):

١. التناص بالمعنى الذي صاغته كريستيفا (Kristiva) وعرفه على أنّه: علاقة حضور متزامن بين نصّين أو عدّة نصوص عن طريق الاستحضار وفي غالب الأحيان بالحضور الفعليّ لنصّ داخل آخر، وميّز هنا بين ثلاث من العلاقات النصية هي الاستشهاد، والسرقّة والتلميح.

٢. التوازي النصّي: هو العلاقة التي ينشئها

التناس، فظهر أن معظم الدراسات التي تناولت التناس كانت قد نهلت من أطراس وتقسيماته للعلاقات النصية^(٧).

بعد هذا الإيجاز في تاريخ نظرية التناس، سنتقل في الصفحات التالية لدراسة التناس في شعر أحمد مشاري العدواني، وسيحاول البحث إتمام المشروع وفق خطين يهتم الأول بمصادر التناس عند العدواني، في حين يبحث الخط الثاني في أشكال التناس عند الشاعر.

أولاً: مصادر التناس في شعر أحمد مشاري العدواني:

حسب بارت؛ كل نص تناس، ولذلك لن يقوى أي نص على نحو آثار النصوص السابقة عليه أو طمسها، فالأمر يحدث بطريقة غير إرادية، وبالمقابل فإن الكاتب قد يتعمد استحضار النصوص فيتعامل معها بكيفيات مختلفة، فيوازها أو يهشمها أو يستخدم مفرداتها أو يأخذ من معانيها. إن هذا النمط جزء مهم في عملية إبداع النص. وإذا كان التناس يتحرك في دائرة الوضوح عندما يتعامل مع الماضي بكونه موروثاً حضارياً أو تاريخياً أو دينياً، فإنه أيضاً يقدم ما لا يمكن الإمساك به ويصعب فهمه؛ إذ يطبع في النص ظلالاً كثيفة الدلالة لأن "الارتداد إلى الماضي

النص مع محيطه النصي المباشر، وهي العلاقة الأقل وضوحاً والأكثر بعداً عن المجموع الذي يشكّله العمل الأدبي ويرتبط النص بذلك بنص مواز يتمثل بأشكال متعددة؛ كالعنوان والعنوان الفرعي والعنوان الداخلي والتصدير والتنبيه وغيرها.

٣. النصية الواصفة أو علاقة التفسير والتعليق التي تربط نصاً بآخر؛ بحيث يتحدث عنه دون أن يتلفظ به أو يستدعيه بالضرورة.

٤. الاشتقاق النصي أو العلاقة التي يمكن لنص ما من خلالها أن يُشتق من نص سابق عليه بوساطة التحويل البسيط أو المحاكاة، كالمحاكاة الساخرة والمعارضة، والتحريف.

٥. النصية الجامعة: وهي علاقة ذات طابع تصنيفي؛ كالعنوان البارز على العمل الأدبي مثل (أشعار، دراسة، رواية).

لقد وضع جينيت (Genette) آخر الخطوط الكبرى لنظرية التناس، إذ وضّح من خلال هذه التقسيمات ما يمكن لنص أن ينشئه من علاقات مع نصوص أخرى، والواقع أنه وضع بصنيعة هذا حداً للتعريفات الفضفاضة كاشفاً الغموض والجدل الذي تسببت به الطروحات المختلفة في التناس ومفهومه. وقد بدا فيما بعد أن جينيت (Genette) قد أدّى خدمة جلييلة لنظرية

واستحضاره من أكثر الظواهر فعاليةً في عملية الإبداع، حيث يحدث نوع من التماس بين النصّ الحاضر والنصّ الغائب يؤدّي إلى تشكيلات إبداعية قد تميل إلى التماثل أو التخالف أو المناقضة^(٨).

* الموروث الديني:

يعدّ النصّ الدينيّ من المرجعيّات المهمّة التي وظّفتها القصيدة العربية المعاصرة، كما يشكّل الموروث الدينيّ نصّاً بنائياً موازياً أسهم في تشكيل الخطاب الشعريّ وصياغته، وقد دأب الشعراء على استلهم النصوص الدينيّة لما تتميّز من قوّة تأثير ولما تقدّمه من نماذج ورموز عالية الدلالة. ويمكن أن نغيّز في نصوص العدواني وتعامله مع الموروث الدينيّ بين استخدامه للقرآن الكريم والأثر النبويّ.

تحتفظ ألفاظ القرآن الكريم بدلالات قويّة تكشف عن مصدرها بالرغم من ورودها في سياقات أخرى. وقد شكّل استخدام القرآن الكريم في الشعر العربيّ المعاصر ملمحاً أسلوبياً مميّزاً، إذ يشكّل متعلّياً نصّياً وذلك بتأثيره وامتداده في لحظته التاريخيّة وفي اللحظة الراهنة، فهو نصّ مقدّس ذو امتداد فاعل في الحاضر كما هو في الماضي، ومنهّل خصب لمختلف أنواع التفاعلات النصيّة^(٩)، والشاعر إذ يتناصّ مع القرآن

إننا- نظريّاً- نستطيع أن نجد كلّ شيءٍ في النصّ؛ ومع ذلك فنحن لا نستطيع استخراج كلّ شيءٍ من النصّ، والتناصّ هو أداة لكشف النصّ وسبر أغواره، بقدر ما هو علاقات داخلية في النصّ، وإذا كان النصّ يخضع بشكلٍ دائمٍ للتحريك والتأويل؛ فسبب ذلك مرجعيّته إذ يأتي من مصادر متعدّدة، كما أنّ التناصّ يظهر في النصّ بأشكال متعدّدة تقاطعاً واستدعاءً وتداخلاً وتشاكلاً. إن كلّ نصٍّ يتعايش بطريقة ما مع نصوصٍ أخرى.

ولا يختلف أحمد مشاري العدواني عن غيره من الشعراء في موقفهم من النصّ، فنصّه كغيره من النصوص يعتمد في بنائه على نصوص متنوّعة، إلّا أنّ هناك متونا تستهوي العدواني دون غيرها. فثمة ارتباط عضويّ بين خطاب العدواني الشعريّ وبيئته وثقافته. والباحث في شعره يلاحظ نسيجاً يتضافر فيه الموروث الدينيّ مع النصّ الأدبيّ مع الحدث التاريخيّ وغير ذلك ممّا يمكن عدّه

الكريم يستدعيه ليشكل منه جزءاً من البنية الدلالية للنص الشعري؛ ولذلك فإن الإشارات القرآنية لا تشكل عبئاً على جسد النص بقدر ما ترتبط به دلاليًا وبنويًا، ويشكل ذلك نوعاً من الإثراء يغني تجربة الشاعر. والعدواني يتعامل مع النص القرآني وفق ما يتطلبه تشكيل النص فقد يقتبس آية، أو يمتص مضمونها، أو يستدعي بعض مفرداتها، أو يلمح إليها بطريقة ما. وإن البحث لا يسعى للإحاطة بكل التناصات القرآنية التي حققها الشاعر، ولذلك سنكتفي هنا بالتدليل على ما ذهبنا إليه ببعض الشواهد:

ففي قصيدة يا نوح يستحضر الشاعر قصة نوح من القرآن الكريم، يقول^(١٠):

يا سيد الربانة

يا نوح أدركنا

من غرق مهين

أسلك بنا قصد الطريق الآمنة

يا قاهر الطوفان

بالحكمة واليقين

يا نوح أدركنا

يا نوح أدركنا

يا نوح أدركنا

ففي المقطع السابق يستلهم الشاعر

قصة نبي الله نوح المعروفة بالطوفان، ويذكر نوحاً عليه السلام بالاسم، ويصفه بأنه قاهر الطوفان. ويتضح البعد الفكري لهذا التناص من خلال الاستحضار الرصين الذي ينسجم مع الواقع العربي آنذاك أي ما بعد نكبة فلسطين، فالشاعر يرى أن العرب على وشك الغرق ولن ينقذهم من المصير المحتوم سوى معجزة كبيرة، ولذلك جاء استدعاء نوح وقصة الطوفان بطريقة موفقة، ولعل العدواني في هذا التناص يسبق الشعراء العرب المعاصرين في تعاملهم مع النص الديني، فهو لم يسع للاستشهاد بل عمل على التوظيف.

وفي قصيدة سراب، يستحضر العدواني آية من الذكر الحكيم، يقول^(١١):

ما دهانا من خطوب

وغشانا من عذاب

همنا أن نحتوي الغي

ث على حسن مآب

بقدر راسيات

وجفان كالجوابي

ونباهي الناس فيما

قد أصبنا من رغب

والتناص المقصود في هذه الأبيات هو

قوله في البيت الثالث، "بقدر راسيات وجفان"

كالجوابي" التي اقتبسها من قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَةً أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فالشاعر في هذا التناص يستخدم المفردات المقتبسة بمعانيها التي وردت في القرآن الكريم، فالجفان هي الأواني، والجوابي جمع جابية وهي الحوض الذي يجمع فيه الماء أما القدور فهي معروفة، وراسيات أي عظيمة ثابتة لا يمكن زحزحتها، إلا أنه يستخدمها في سياق جديد وفكرته فيه أن الإنسان يسعى جاهدا لجمع الخير (الغيث) لنفسه بهذه الأدوات العظيمة التي اصطنعها الجن لنبي الله سليمان، ويلاحظ في هذا التناص استحضر الشاعر لجزء من الآية الكريمة التي أشرنا إليها قبل قليل، دون أن يحافظ على العبارة القرآنية بحرفيتها إذ عكس العطف الذي ورد في الآية الكريمة، والعدواني في هذا التناص يستخدم العبارة القرآنية بالمعنى الذي وردت به، لكنه بالوقت نفسه يستخدم سياقاً مغايراً لسياقها الأصلي، فهو يستفيد من المعنى والهالة الإعجازية لهذه القدور والأواني العظيمة التي صنعها الجن للنبي سليمان، ويسخرها لرسم صورة فاضحة عن تهافت الناس وسعيهم وراء

الدنيا فهم يحاولون جمع كل ما يمكن جمعه من أجل التباهي.

ومن تناص الشاعر مع الموروث الديني استحضره للحديث الشريف، وأمثله نادرة قياساً لتناسه مع القرآن الكريم، يقول مثلاً في نص بعنوان تأملات ذاتية^(١٢):

أيامنا تموت...

كالحشرات في خيوط العنكبوت

أيامنا تموت،

تنحلّ في بالوعة الزمن

وظلّ "خضراء الدمن":

المرأة الحسناء في المنبت السوء

لها وطن.

ويتضح من الشاهد السابق استحضر الشاعر لحديث خضراء الدمن، والحديث مشهور ورد بكتب الحديث بغير لفظ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيئاً فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدَّمَنِ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا خَضْرَاءُ الدَّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنَبَتِ السَّوِّ^(١٣). فالشاعر يتناس مع الحديث بشكلٍ شبه حرفي، إذ يستخدم علامتي التنصيص، ويستفيد من دلالة خضراء الدمن وما تثيره في ذهن المتلقي ليشير إلى سوء الواقع العربي، حيث يموت الإنسان العربي وتذهب أيامه سدى في وطنه فيعاني

من الغربة ويتعاطم الإحساس بها عندما يتأكد أن من يصفها بخضراء الدمن تعيش حياة رغيدة مكرّمة وتشعر بالأمن والأمان، ولعله أراد أن يصنع منها رمزاً لكل ما يراه من عبث.

* الأدب العربي:

إذا كان النص الديني يشكل متن التناص الأول الذي يتناص معه الشاعر العدواني، فإن المتن الثاني هو الشعر. والظاهر أن نصّ العدواني يفتح على عوالم شعرية تنم عن رهافة حسّه وذائقة الفدّة. وإذا كانت حركة الشعر العربي المعاصر قد أخذت تبتعد عن وهم البكارة التي عاش بها شعرنا القديم، فقد أنشأت تفتح على جوانب التراث الإنساني بكلّ جوانبه، وإذا كان مفهوم السرقّة قديماً كبل شاعرنا القديم فإنّ الشاعر المعاصر تحرّر أخيراً من هذا القيد، إذ وجد الشعراء ملاذاً في التعامل مع الشعر، ولذلك أخذ الأدب بأنواعه دوره في القصيدة المعاصرة، والشاعر المعاصر إذ يلجأ إلى الأدب يجد نفسه يعيش في تجارب إنسانية معهودة، فرغم اختلاف العصور تبقى الحقيقة الإنسانية واحدة، وتبقى التجارب واحدة، وما يفرّق بينها هو اختلاف الزمان والمكان، لذلك لا يبدو غريباً أن يرث شاعرنا

المعاصر أدبنا القديم بشعره ونثره وأدبائه، ولن نستغرب حينها مدى تجاوبه مع هذا التراث الأدبي الهائل خصوصاً أنّه كثيراً ما يجد في أصوات الشعراء الآخرين وشخصياتهم صدّى لتجاربه وتجسّداً لمعاناته.

وقد نهل العدواني من الشعر العربي خاصّةً واغتنى بالكثير من التجارب الشعرية والشاعرية التي وجدها تنسجم مع مقولاته، ولذلك فقد تفاعل بخطابه الشعري بأشكال متباينة مع نصوص أدبية متنوعة بين نثر وشعر؛ عربية وغير عربية تنتمي إلى فترات تاريخية مختلفة، جسّدت سعة ثقافته ومدى انفتاحه على الآخر.

أ- الأدب العربي القديم:

نوع العدواني باستحضاراته واستدعاءاته فكانت علاقته بهذا الأدب أكثر من علاقة إعجاب، وتلوّنت بين تنصيصٍ وتحويرٍ ومحاكاةٍ ومحاورَةٍ، فنوّع بين هذا وذاك دون أن تفقد قصيدته بريق المعاصرة أو لغة الانسجام ودون أيّ قصورٍ في تأدية رسالته، ومن ذلك تناصه مع قيس بن الملوّح في أكثر من موضع، ومنها قوله^(١٤):

تمتّع قبل أن تطفئ

ريح الموت مشعالك



تمتّع قبل أن يغمر
ظلّ الشيب آمالك
والبيت الذي نزع أن الشاعر تناص
معه هو قول ابن الملوّح^(١٥):

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ
فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ
والتناص حدث هنا من خلال استخدام
الشاعر للفعل تمتّع، وقد اتفق السياق في كلا
الشاهدين على ضرورته، وإن كانت دعوة
العدواني لعيش الشباب قبل مجيء المشيب،
ولذلك يمكن أن نعدّ الشاعر العدواني قد
تناص في الوقت نفسه مع المتنبي في قوله:

دَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وَسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعَمْرُ
فالتناص هنا بين العدواني والمتنبي
واضح إذ يستلهم العدواني مضمون بيت
المتنبي، والمعنى يكاد يكون متطابقاً بالرغم من
أنه لم يستخدم أي مفردة من مفردات المتنبي.
ب. الشعر العربي الحديث:

من اللافت أن يتناص العدواني مع
الأدب العربي المعاصر بشكلٍ غزير، ولقد بدا
ذلك كأنه رغبة في مجازاة أدباء عصره، وإن
المتفحص لديوانه يجد ذلك ميزة واضحة، ولا
ريب أن القارئ الحصيف سيجد آثار شعراء

آخرين في ديوان العدواني من حيث النزعة
أو الأسلوب أو الغاية، ولذلك يمكن نعت
على أحمد شوقي وعمر أبو ريشة وإيليا أبو
ماضي وخليل مطران وجبران خليل جبران
وبدوي الجبل والأخطل الصغير وربما
غيرهم، إنّ هذا الأمر على كل حال لا يظهر
في مجال التقليد أو الاحتذاء؛ ولعله يكون
مجازاةً لشعراء عصره وسابقيه، ولعل الأمر
سينطبق على شعراء عصره أيضاً إذا ما تمّ
إخضاع تجاربهم الشعرية للدراسات التناسية،
وبالرغم من ذلك فإنّ لكل واحد منهم أثره
وطابعه الخاص.

فمن التناص الذي يمثل للغاية، يمكن
أن نلاحظ التناص الذي وقع بين قصيدة
رأس للعدواني، وقصيدة الحمار لأحمد
شوقي، ويبدو أنّ كلا من القصيدتين كتبت
لغاية تعليمية، لكن القصيدة اللاحقة - وهي
للعدواني - رغم اختلاف الموضوع وقعت في
إطار قصيدة شوقي، يقول العدواني في
قصيدة رأس^(١٦):

وأناس زعموه من تنانين البحار!!
قذف الموج به قسراً إلى هذا الجوار
ورآه غيرهم خلقاً مسيخاً في الديار
حلّت اللعنة فيه فتردى بالتواري

.....

فأتى للشبح المحجوب مخفور الذمارِ
هتك الستر عليه فبدا رأس حمارِ
أما قصيدة شوقي المعنّية، فهي التي
يقول فيها:

سَقَطَ الحِمَارُ مِنَ السَّفِينَةِ فِي الدُّجَى
فَبَكَى الرِّفَاقُ لِفَقْدِهِ وَتَرَحَّمُوا
حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ أَتَتْ بِهِ
نَحْوَ السَّفِينَةِ مَوْجَةٌ تَتَقَدَّمُ
قَالَتْ خُذُوهُ كَمَا أَتَانِي سَالِمًا
لَمْ أَبْتَلِعْهُ لِأَنَّهُ لَا يُهْضَمُ
والظاهر أنّ التناص حدث في هذه
القصة الشعرية من خلال الغاية التعليمية التي
صُنعت لأجلها، كما أنّ بطل القصّتين هو
حمار، ويؤكد حدوث التناص بين هاتين
القصّتين استخدام العدواني للفظي الموج
والدجى.

ثمة إشارات كثيرة يمكن ملاحظتها في
شعر العدواني؛ حول تداخل بعض نصوصه
مع متن الشعر العربي المعاصر، وسواءً
أصدق ذلك أم لا- فإنّ العدواني يكشف هنا
عن سعة أفقه كما يكشف عن رغبته الدفينة
في تطوير أدائه الفنّي ومجازاة شعراء عصره،
ومن وجهة نظرٍ أخرى نرى أنّه لن يستطيع
الخروج من دائرة عصره؛ هذه التي تعامل
معها شعراء عصره أنفسهم، فهم جميعاً أبناء

بيئة واحدة، جمعتهم الثقافة والهَمّ المشترك
والحبّ للوطن والانتماء له، فلا غريب إذن
أن نلمح مشتركاتٍ تبدى نصوصاً غير
واضحة المعالم ضمن أشعارهم. إنّ من يقرأ
المقطع التالي مثلاً لا بدّ أن تقفز إلى ذهنه
قصيدة المواكب لجبران خليل جبران ولا
سيّما في مقطعها السادس. يقول العدواني^(١٧):

لقد طابت حياة الوحش عندي
فبت ولي بها لهف وغلّة
فهل لي أن أفرّ إلى البراري
وأسكن قلب موماةٍ مضلّة
إذا ما جنّ ليلي طالعتني
كواكب من نواحي الأفق جدلة
وأملأ من رحيق الفجر كأسِي
وأغزل من شعاع الشمس حلّه
وأحسب أن هذا الكون ملكي
وأني قد صنعت الكون كلّهُ
بينما يقول جبران في قصيدة المواكب،
المقطع السادس:

هل تحذت الغاب مثلي
منزلاً دون القصور
فتتبعت السـوـاقي
وتسلقت الصـخـور

هل تحممتَ بعطيرٍ
وتنشقت بنـُورٍ
وشربت الفجر خمراً
في كؤوس من أثير

إنّ المقارنة بين المقطعين السابقين تؤكد أنّ العدواني وقع في التناص، فالروح هي ذائها المسيطرة في القصيدتين، وحياة الوحش والبراري التي تناوها العدواني هي نفسها حياة الغاب عند جبران، والدالة المؤكدة على هذا التناص يمكن معاينتها من خلال المقارنة بين عبارة العدواني (أملأ من رحيق الفجر كأس) وعبارة جبران (شربت الفجر خمراً). إنّ ما سبق يؤكد على وقوع التناص كما يؤكد على تناص العدواني مع الشعر العربي المعاصر ككل.

كما يفتح العدواني في خطابه الشعري على منابغ ثقافية متعدّدة، وقد أغنت الأسفار فكر الشاعر فنوّته، والواقع أنّ الشاعر المعاصر لا يستطيع أن يحبس نفسه داخل ثقافته، ولربّما حاكى العدواني في شعره بعض النماذج الشعرية للأدب الأوربي أو استعان برموزها الثقافية. ففي قصيدته التي جاءت بعنوان "المقبرة بين الصدى والطيف"^(١٨) يستلهم بعضاً من معاني ودلالات الشاعر الإنجليزي توماس

هاردي كما يُشار إلى ذلك في الحاشية، فيما يبدو أنه نوع من التجريب والاستفادة من تجارب الشعراء في الثقافات الأخرى.

ثانياً: أشكال التناص عند العدواني:

تتيح عمليّة القراءة بصفتها عملاً منتجاً تزامن بنيات النصّ المختلفة، وبذلك تصبح القراءة عمليّة كشفية حدسية تتطلب من القارئ الحصافة وسعة الاطلاع؛ إذ إنّ التناص قد ينصرف إلى المستوى الدلالي الخالص عن طريق التوليد حيث يتحرك الوعي إلى النصّ المقترض كاشفاً عن دلالاته العميقة، وهذه بدورها تتفاعل مع الدلالة الظاهرة لتنتج في النهاية مقولة النصّ بشكلٍ ما.

إنّ التناص يقتضي المخالفة الشكلية والمضمونية وإلاّ كان استنساخاً، كما أنّه يقتضي الجدة والمنافسة والتجاوز الدلالي؛ فحين يتداخل النصّ أو يدخل في علاقات مع نصوص أخرى فإنّ هذا لا يعني الاعتماد عليها أو محاكاتها فقط، بل إنّ النصّ المقترض يتجسد في النصّ الجديد وفق تنظيمات وتشكلات قد تقتضي المخالفة أو المعارضة أو التنافس، أو أيّ علاقة أخرى تتيحها عمليّات التحويل والتوليد التي يمارسها المبدع.

وكما يرى أحمد زهير رحاحلة أنّ الدارس في التناص يستطيع أن يلاحظ تبايناً

واسعاً في أنواعه وتقسيماته وآلياته ووظائفه، وهو أمر منطقي إذا أقررنا بأن مفهوم التناس غير منضبط، إذ لا قوانين قارة ولا معايير محددة، وعليه فالنصّ المدروس هو المعيار الذي نركن إليه في دراسة التناس، كما إنّ التجربة الأدبية هي التي تملّي على الدارس ملامح الدرس والبحث في التناس^(١٩).

والحقّ أنّ النصّ السابق يتجسّد في النصّ الحالي وفق تشكّلات متباينة، لكنّها تنتمي جميعاً لثلاث آليات رئيسة هي التضمين والتلميح والسرقة إذا كان التناسّ إرادياً، وآليات أخرى تسهم في تشكيل النصّ إذا كان التناسّ يتمّ بطريقة غير إرادية.

أ. التناسّ اللاإرادي:

ثمة ما يحدث بطريقة غير واعية لا يتدخل فيها المبدع، ولا يكون له دورٌ في استحضار النصوص، ويلعب اللاوعي دوراً كبيراً في استدعاء النصوص، ولكنّ بشكلٍ غريبٍ يُعدها عن مصادرها، وغالباً ما سيكون التناسّ هنا بعيداً عن يد المتلقّي، فيصعب عليه إمساكه أو ملاحظته، إذ يكون كلمة أو جملة مبعثرة أو محوِّرة في النصّ الجديد؛ وبشكلٍ يتعد عن الأصل بطريقة ما. وما دام التناسّ بجميع أشكاله يخضع لمخزون الكاتب فإنّ اكتشافه في النصّ يحتكم لمعرفة

بمصادر المبدع من جهة؛ كما يحتكم لثقافة المتلقّي من جهةٍ أخرى؛ فهو يقع في منتصف الطريق بين المتلقّي والنصّ، ولا بدّ لاكتشاف هذا النوع من التناسّ؛ أن يكون القارئ على علمٍ ودراية كافية بنصوص المبدع، فإنّ ذلك يعتمد على معرفة القارئ المسبقة بجمل المبدع وعباراته وتراكيبه وأساليبه بالإضافة إلى معرفته بمصادره واهتماماته الثقافية والمعرفية.

وفي هذا النوع، يمكن أن نورد شاهداً على ربّما حدث فيه التناسّ بشكلٍ لا إرادي، وهو ما جاء في قصيدته التي يقول فيها^(٢٠):

ورحلت أخطو إليه

مجرّح الخطوات

وفي فمّي صلوات

محروقة الكلمات

تهيم في سبّحاتي

على صدى أغنياتي

ففي المقطع السابق يمكن أن نعد الشاعر

وقع بالتناسّ اللاإرادي مع قصيدة الشاعر

كامل الشناوي "حبيبها" التي يقول فيها:

وسرت وحدي شريداً

محطم الخطوات

تهزني أنفاسي

تخيفني لفتاتي!

كهارب ليس يدري

من أين، أو أين يمضي؟

شك! ضباب! حطام!

بعضى يمزق بعضى

إنّ البحر الواحد والقافية المشتركة
وهي التاء المكسورة المشبعة ياءً، والمفردات
المشتركة والنبر المهيمن في المقطعين تدفع بنا
للاعتماد بوقوع هذا التناص، مع أننا لا
نحزم أن رؤية الشاعرين واحدة، فالعدواني
يتحدث عن غربته الذاتية ولعله يناجي ربه
في الأبيات السابقة، في حين كان مضمون
قصيدة الشناوي عن الحب وألمه.

ب. التناص الإرادي:

أما إذا كان التناص إرادياً فإنه يتجلى
في النصّ الجديد وفق تشكلات متباينة
تتدرج من التنصيص الصريح إلى الإشارة
الخفية، ولا بدّ أن نشير في هذا السياق إلى
اختلاف النقاد في تحديدهم لأنواع التناص
أو أشكاله في الأثر الإبداعي أو النصّ، ولا
ضير في ذلك ما دام الناقد ينطلق من النصّ،
لأنّ النقد -بطبيعة الحال- لن يكون تطبيقاً
آلياً صارماً لقوالب جامدة ومصادر، كما
أنّ التناص ليس تنظيمياً لمقدمات محدّدة
النتائج، وبالتالي فالنصّ هو من يحدّد
تقسيمات وتصنيفات ظاهرة التناص فيه،
ولذلك كان لا بدّ من استقراء خطاب أحمد

مشاري العدواني الشعري للخروج بأشكال
التناسّ عنده.

١. التناص بالتضمين:

لاحظ نقادنا القدماء أنّ في النصّ
المقتبس أو المضمّن ما يجعل منه مثار
إعجاب المضمّن، ولن يعيب الشاعر
اقتباسه طالما أنّ الهدف تسجيل موقف
فكري وإبراز قيمة ما؛ يهدف لمحاورتها
والاستفادة منها ومن تجارب أصحابها، كما
أنّه يحاول من خلالها توسعة أفق خطابه
وتطوير تقنياته الشعرية. والعدواني كغيره
من الشعراء يضمّن قصائده هادفاً من ذلك
إلى إغناء نصّه وتعزيد مقولاته. وفي هذا
الشكل من التناصّ تتوفّر المعايير الثلاثة
فالنصّ المضمّن منقول بوضوح في النصّ
المضمّن وهذا ما يوحي به استخدام
علامات التنصيص أحياناً. ونشعر بوجود
التنافر من خلال تصادم سياقي النصّين
المضمّن والمضمّن، وقد يتغيّر هذا الشكل
فيكون النصّ المضمّن غير كامل أو مجتزأ،
أو محرفاً بتقديم أو تأخير فتزاح عنه
علامات التنصيص لكنّه يبقى محتفظاً
بالمعايير السابقة؛ وعلى هذا فقد يظهر
التناسص تضميناً تاماً أو محرفاً أو جزئياً.

-التضمين الجزئي: إنّ التناص الذي من هذا الشكل غالباً ما يستند إلى النصوص المعروفة والمشهورة وقد تكون هذه النصوص من القرآن أو الحديث وقد تكون من الأمثال المتداولة أو الفصيحة وقد تكون من الشعر المعروف، وتحافظ هذه الاستدعاءات عندما تكون من هذا الشكل على النص المقترض بوصفه أيقونة دالة وقد يشار إليها بعلامة التنصيص أو بدونها، كما يرد في المقطع التالي^(٢١):

قد دان بالكراسي ...

فهي لديه سدره المنتهى ...

وجنة المأوى

عبادة ملحدة بخالق الإنسان والإنسان

لا تسألوني لم لا أكون بينكم

فلست من يؤمن الأوثان

ففي المقطع السابق يفترض الشاعر عبارتين قرآنيتين واضحتين الأولى هي "سدره المنتهى" والثانية "جنة المأوى"، وردتا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ﴾ [النجم: ١٣-١٥]، فالشاعر في المقطع السابق اقترض عبارتين غير كاملتين من الآيات القرآنية المشار إليها، لكن ذلك لم يمنع أن تشير هاتين العبارتين إلى متنها الأصلي

مباشرة، كما أنّ التوظيف المغاير للسياق الأصلي لم يمنع ذلك أيضاً، فالشاعر إذ يتحدث عن المسؤولين المتشبهين بالكراسي جعلهم يعتقدون أن عروشهم هي جنة المأوى وأن مواقعهم هي أعلى وأسمى ما يمكن الوصول إليه ولذا فهم متمسكون بها لا يتزحزون، لقد جعل الشاعر دينهم هو تلك المناصب وهذا ما ينظر إليه الشاعر على أنه إلحاد وعبادة للأوثان التي يأنف من الاقتراب منها. وهذا ما يلهيهم عن فعل أي شيء آخر. لقد جاء التناص في هذه المقطع من نوع التناص بالتضمين الجزئي ولم يعتمد الشاعر علامة تنصيص فلاشك أن العبارة القرآنية تشير إلى متنها دون أن يجد القارئ أي عناء في البحث عنها.

- التضمين التام: في هذا الشكل من التناص يستحضر الشاعر نصاً ما من متن معروف ويضمّنه نصه، ويحرص الشاعر في هذا التناص على التنصيص، فالنص المقبس يظهر من خلال تصادم سياقي واضح، وهو لا يختلف عن النوع السابق إلا من خلال حجم النص الذي تم استيعابه في النص الجديد. ومن أمثلة ذلك استدعاء الشاعر لحديث خضراء الدمن والتناص معه، كما في قوله نصّ بعنوان تأملات ذاتية^(٢٢):

أيامنا تموت...

كالحشرات في خيوط العنكبوت

أيامنا تموت،

تنحلّ في بالوعة الزمن

وظلّ "خضراء الدمن":

المرأة الحسناء في المنبت السوء

لها وطن.

فالشاعر في النص السابق استحضر

الحديث واقتطع جزءاً منه ضمن علامتي

تنصيص، وإرادة الشاعر الواعية في هذا

التناص تفصح عن نفسها من خلال هذا

التنصيص، كما أن هذا التنصيص لا يعني

الارتهان إلى دلالة الحديث الحرفية، فالتوظيف

الجيد هنا يستفيد من الدلالة أما السياق

الجديد الذي أتى به الشاعر فيذهب بالدلالة

إلى مكان الآخر بالاستفادة من دلالة

الحديث.

٢. التناص بالامتصاص:

عند اكتشاف آثار نصّ ما في نصّ من

نصوص العدواني الشعرية نرى أن هذا الأثر

يتجلّى كتناص لم يحدث بشكلٍ حرفيٍّ لكنّه

واضح ولا يبدي أيّ تنافرٍ مع السياق المحيط

به، وهو تناص يفصح عن نفسه لأنّه ليس

هنالك من إرادةٍ حاولت إخفاءه، وبالتالي

فهو تضمينٌ مستتر، وهو شكلٌ من التناص

يقوم الشاعر من خلاله باستدعاء نصّ ما
بمضمونه ومعناه دون أن يتقيّد بلفظه، ولذلك
قد لا تظهر آثار هذا النصّ في النصّ الجديد
المستضيف، وآلية التفاعل بين النصّين تقوم إذ
يتمصّ النصّ الحاضر النصّ السابق ويحتويه
دون أن يهتمّ بألفاظه أو أن يشير إليه
بالضرورة، وليس هنالك من قانون صارم
لكيفية حدوث هذا الشكل من التناص سوى
أن آثار النصّ المستدعى يمكن للباحث أن
يعثر عليها من خلال قرائن معنويّة وأخرى
لفظيّة.

إنّ هذا النمط من التناص يكشف
الجانب المهم في عملية تحويل النصوص إلى
نصوص جديدة، فالشاعر يتأثر بغيره من
الأدباء والشعراء ويهضم نتاجاتهم الأدبية
والشعرية فيحاول مجاراتهم، وكمثال على
ذلك نرى أن الشاعر العدواني قد تأثر
بالشعراء الإنسانيين العرب ولا سيّما إيليا أبو
ماضي، ومن خلال ديوان الشاعر نكتشف أن
العدواني تأثر بهذه النزعة الإنسانية ورائدها،
وعندما أراد أن يدلي بدلوّه وقع بالتناص
وكمثال على التناص من هذا النمط نورد
القصيدة التالية^(٢٣):

وخذي عن وردة البسـ

تـان أسرار الحياة

والذي نفسه بغير جمال	أدركت سحر شذاها
لا يرى في الوجود شيئا جميلا	فازدهت بالبسمات
أحكم الناس في الحياة أناس	عرف القصص أناس
علّوها فأحسنوا التعليلا	تخذوا الأفراح فنا
أدركت كنهها طيور الرّوابي	كلما أجذب مغنى
فمن العار أن تظل جهولا	لهم حلّوا بمغنى
ما تراها- والحقل ملك سواها	
تخذت فيه مسرحاً ومقيلاً	كلّ ما جدد في النـ
أنت للأرض أولاً وأخيراً	نفس شعورا بالوجود
كنت ملكاً أو كنت عبداً ذليلاً	وأراها صورا تفـ
لا خلود تحت السماء لحي	صح عن حسن جديد
فلماذا تراود المستحيلا	فاجعله هدف المسـ
قل لقوم يستنزفون المآقي	عى وعنوان السعادة
هل شفيتم مع البكاء غليلاً؟	ولتكن منك استجا
ما أتينا إلى الحياة لشقى	بات إليه وعبادة
فأريحوا، أهل العقول، العقولا	والقصيدة التي تناصّ معها الشاعر
كلّ من يجمع الهموم عليه	العدواني هنا هي قصيدة فلسفة الحياة لإيليا
أخذته الهموم أخذا وبيلاً	أبي ماضي، التي يقول فيها:
فالشاعر العدواني يريد أن يجاري أبا	أيهذا الشاكي وما بك داء
ماضي في رؤيته، ولكنه لا يستطيع أن يخفي	كيف تغدو اذا غدوت عليلاً؟
تأثره بها، فالروح التي تسري بين	إنّ شرّ الجناة في الأرض نفس
القصيدتين واحدة، وفيها دعوة إلى التمتع	تتوقّى، قبل الرّحيل، الرّحيل
بالحياة والابتعاد عن الهموم والأحزان،	وترى الشّوك في الورود، وتعمى
وتقدّم القصيدتان كلتاهما تفسيرات لمعنى	أن ترى فوقها النّدى إكليلاً

الحياة الحقيقية، إنّ هذه الرؤية المشتركة بين القصيدتين لا بدّ أن تُحمل بتعبيرات وألفاظ مشتركة، وهذه الألفاظ هي التي تلفت انتباه القارئ إلى وقوع التناص، ففي هذا المجال نستطيع التوقّف عند ألفاظ (وردة، زهرة، بستان، حياة، أدرك، أناس، اتخذ...) فهذه الألفاظ المشتركة بين القصيدتين تشكل مفاتيح التناص، والمؤشر الذي يشير إلى وقوعه، أمّا التناص من حيث المضمون فهو واقع لا محالة كما بيّنا قبل قليل إذ تشربت قصيدة العدواني موضوع أبي ماضي، وظهرت الألفاظ كقارئ واضحة تشير إلى وقوع هذا التناص.

ويبدو أن العدواني كان شديد التأثر بالزعة الإنسانية التي قادها أبو ماضي، لذلك نراه يخاطبنا بموضوعات أبي ماضي، كما في المقطع التالي الذي يتناص فيه مع قصيدة أخرى لأبي ماضي، يقول العدواني في قصيدة بعنوان همسات^(٢٤):

قالت الدنيا لأهـ

ليها مقال الناصـ

جهل الحكمة قومـ

جعلوا الأحزان دينا

والمقطع يحيلنا إلى قصيدة إيليا أبي ماضي فلسفة الحياة أيضاً، ولا سيّما المقطع الذي يقول فيه:

أحكم الناس في الحياة أناس

علّوها فأحسنوا التعليلا

أدركت كنهها طيور الروابي

فمن العار أن تظل جهولا

فالتناص أخذ شكل الامتصاص من خلال الكلمات التي أشارت إلى قصيدة أبي ماضي وهي مفردات (جهل، الحكمة، قوم، الدنيا) التي وردت في قصيدة أبي ماضي على شكل (جهولا، أحكم، أناس، الحياة)، فالفكرة والرؤية تكاد تكون واحدة في القصيدتين كليهما، والدعوة إلى ترك الأحزان والعيش بسعادة واضحة في كلا المقطعين، أما وظيفة العلامات اللفظية في نص العدواني فهي الإحالة إلى النص الأصل الذي تناصّ معه الشاعر.

ومن التناص بالامتصاص أيضاً ما أورده العدواني في القصيدة التالية، حيث يقول^(٢٥):

ربي بما أغويتني!!!

أرفق بشيطان أمين

وعدته، ووعدك الحق المبين

بأن يكون بين المنظرين

وَأَنْ يُضَلَّ الْعَالَمِينَ

يمكر سرّاً تارة وجهراً

لا شك أن العدواني تناص في المقطع السابق مع مضمون الآيات القرآنية التي تتناول قصة إبليس في الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ [الحجر: ٣٦-٤٢]. فالعدواني يتناول فكرة الرحمة المصاحبة لحالة الإنظار مع اختلاف جوهرى سببه السعي لتوظيف القصة، فالشيطان هنا هو الشاعر نفسه، وهو شيطان بسبب كثرة ذنوبه، لكنه يطلب الرحمة من خالفه مستعينا بأن الله تعالى أنظر إبليس، والانتظار هنا من باب الرحمة وهي الصفة الألوهية التي يطمع المذنبون بها. لقد تناص الشاعر مع مضمون الآيات الكريمة من خلال تقنية الامتصاص التي استلهمت المعنى ومضمون الخطاب القرآني، ولم يمنع ذلك من استخدام المفردات القرآنية كما ظهر في المقطع، إلا أن جمالية التناص تكمن في حسن

التوظيف كما فعل العدواني.

ومن أمثلة هذا التناص عند العدواني

ما استحضره في قصيدة شكوى^(٢٦):

....

يا سماء الله يا أحلى سماء

اذبحيني إنني كبش فداء

عشق الموت على نعش ضياء

صنعتة صبوات الأنبياء

.....

ففي المقطع السابق يستحضر الشاعر بعضاً من قصة إسماعيل الذبيح عليه السلام، فالنص القرآني الغائب يندغم ويتمهى في النص المائل، وبالوقت نفسه يعلن عن حضوره، والشاعر يُخرج عناصر القصص القرآني في لوحة جديدة براءة، فهو الكبش الذي قبل أن يكون فداءً، في حين أن القصة القرآنية تتحدث عن مثول إسماعيل وموافقته على تنفيذ رؤيا أبيه إبراهيم عليهما السلام، إلى أن جاء الأمر الإلهي بفداء إسماعيل بالكبش الذي نزل من السماء، فالشاعر في هذه القطعة أبدع لوحة جديدة معتمداً على القصة القرآنية وأركانها وهي كما تظهر (صبوات الأنبياء التي ربما أراد بها الرؤيا، والسماء، والفداء، والكبش، وفعل الذبيح الذي جاء على صيغة الأمر).

لقد أكثر العدواني من التناص الذي يأتي على شكل الامتصاص، وفي شعره كثير من الأمثلة الذي تؤيد ما نذهب إليه، وإن جمال هذا التناص يكمن بقدرة الشاعر على الاستفادة من النص الغائب وتطويعه ليثري نصه وإبرازه واقعاً شعرياً غائر الدلالة، وكمثال أخير على التناص بالامتصاص يمكن أن نورد قول الشاعر^(٢٧):

لما ضربت بعصاي الماء

صار دماء

وصارت العصا حساماً

كنت إماماً

وباركنني الأرض والسماء

فالملاحظ هنا قدرة الشاعر على تطويع النص الغائب والاستفادة منه بشكل جديد، حيث تناص مع قصة النبي موسى عليه السلام دون أن يذكرها، إذ أن العصا التي ضربت الماء في المقطع السابق تحيل إلى القصة بشكل مباشر. إنها رؤيا إبداعية جديدة تستفيد من عناصر القصة القرآنية وتخرج بها لوحة جديدة دون أن تغفل الاستفادة من مكوناتها الدلالية من خلال اعتماد شكل التناص بالامتصاص، إن غاية القول إن الشاعر استوعب عناصر قصة موسى ثم أبدع هذه القطعة التي تعد مثلاً ناصعاً للتوظيف

المبدع.

٣. التناص بالتلميح والإشارة:

نطلق هذا الوصف على شكل من التناص يعطي القصيدة ثراءً دلاليًا بالرغم من محدوديته كنص مقتطع أو مستضاف، ويحدث عندما يستحضر الشاعر كلمة من أي مصدر كان؛ فتكون قادرة على لفت انتباه المتلقي آخذة بشعوره موجهة إياه إلى مصدرها، وعندها يكون هذا الاستدعاء شبيهاً باستحضار سياق بكامله؛ بالرغم من اقتصار التناص هنا على تلك الإشارة الصغيرة التي قد لا تتجاوز الكلمة الواحدة. ويأخذ التناص هنا شكلاً غير واضح لأن المعنى يغيب مع قصر النص؛ لكنه يكشف عن تنافر حاد بين المتلقي، وبهذا الشكل يدفع بدلالة النص إلى أقصى ما يمكن بما يحدثه من استدعاء في ذهن المتلقي، ويثير فيه كل دواعي التأمل محركاً فيه مشاعر وأحاسيس شتى. وتتجلى أهمية هذا النوع من التناص بقدرته الفارقة على الإيجاز والتكثيف الذي يتناول كل ما يمكن من مصادر الشاعر. إذ تتحول بعض ألفاظ النص لتصير أيقونات دالة تحيل إلى متن كامل.

ويعتمد العدواني في قصائده على التلميحات التي تعبّر عن هذا الشكل من

التناصّ ولا سيّما في القصائد القصيرة والمقاطع التي تبرز على شكل ومضاتٍ شعريّة، فتكاد تتحوّل بعض هذه المقاطع إلى بؤر دلاليّة لما تتضمنه من مثل هذه الإشارات والرموز، ولنا على ذلك أمثلة كثيرة من شعره؛ إذ يقول في قصيدة بعنوان أمانيّ^(٢٨):

يا ليتني في شاطئ الخليج رملة
تدلي على هموم السندباد
وكيف كان يقضي في الشتاء ليلة
يا ليتني في موجة الخليج ذرّة
تدلي على ضمير السندباد
وكيف أفلت الزمان سرّه
لمحت في مجاهل الخليج
تاريخي المجهول..
محارة ودرة

فالعدواني في هذا المقطع يشير إلى قصة السندباد من خلال شخصيّة القصّة الرئيسيّة وهي شخصيّة معروفة تُحضر في ذهن المتلقي متناً كاملاً وقصصاً مختلفة كان بطلها. والسندباد شخصيّة ملحمة أسطوريّة استهوت العديد من الشعراء العرب، وهذه الشخصيّة بدلالاتها الرمزية الكبيرة تساعد الشاعر على قول ما يريد من خلال غناها الذي تكتسبه بطابعها الأسطوري، ومن خلال وقعها في ذهن المتلقي. ليس في المقطع ما يشير إلى قصة

السندباد سوى اسمه وبالرغم من ذلك فإن قصته تبقى حاضرة تهيم على مناخ القصيدة وذهن المتلقي، فالشاعر يستفيد من الأسفار الطويلة التي قام بها السندباد ومن المغامرات دون أن يشير إليها، وهنا تكمن بالذات أهمية استخدام الرمز الذي يتجلى من خلال التناص بالتلميح أو الإشارة على هذا الشكل. إن استحضار مثل هذه الرموز تساعد الشاعر في خلق واقع جديد يدعم تجربته الشعوريّة المعاصرة من زاوية إبداعية فيوظف الرمز لخدمة القصيدة لا العكس. ولا يخفى في المقطع السابق محاولة إسقاط رحلات السندباد على الواقع العربي، فليل الشتاء الطويل البارد حافل بالبؤس والألم ويشكل المعادل الموضوعي للواقع العربي الراهن، ومن هنا تأتي شخصيّة السندباد ضرورة إبداعية تثري دلالة القصيدة.

ومن الأمثلة على التناص بالإشارة استحضار العدواني لقصة قيس بن الملوّح، من خلال ليلي، وليلى محبوبه قيس أصبحت رمزاً وأيقونة لا يمكن أن تمر على متلقٍ دون أن يتوقف ويتأمل. يقول في قصيدة ذكريات في حان^(٢٩):

أذكر ما جنت ليلي
وكيف تقصّدت قلبي

أثارتهـا دعابـات

فلم تسمع إلى عدل
ولو لم تخطئ المرمى

لرحت ضحية الهزل

ففي هذا المقطع يستحضر العدواني قصة ليلي، ولعله لم يكن يقصد ليلي محبوبه قيس، إلا أن السياق يدفع المتلقي لعقد المشابهة والمقارنة، فليلى الحقيقية هذه أصبحت رمزاً لكل محبوبه، وإن مجرد ذكرها يحيل إلى قصص الحب العذري وكل ما أدى إلى تعلق قيس بها ومن ثم نهايته الحزنة وأنه جنّ ولم يحظ بها في النهاية. وسواء أتقصّد الشاعر أم أنّه لم يقصد فقد وقع في التناس، من خلال استحضار رمز ليلي، مما يضيف على الدلالة أبعاداً أخرى.

خاتمة:

بعد القراءة المستوفية لدواوين العدواني الثلاثة ومعاينة بعض جوانب التناس ولا سيما مصادر التناس وأشكاله في شعر أحمد مشاري العدواني أمكن لنا تسجيل النقاط التالية:

- يحاول الشاعر من خلال التناس تعميق رؤيته وتثبيت مقولاته، والتناس يكون أكثر مطاوعةً وانصياعاً لتداعيات القصيدة، كما

يسمح للشاعر أن يقرن استدعاءات عديدة في النص الواحد رابطاً بينها توظيفاً وتكثيفاً من أجل الوصول إلى مقولته وإن تباعدت مصادر هذه الاستدعاءات أو تنافرت. وبما أنّ التناس لا يلزم الشاعر أن يسلك سلوك النصّ المستدعي أو الأثر السابق أو استخدام ألفاظه ومفرداته، فإنّ قدرة الشاعر تبرز في تطويعه للمرادفات التي تؤدّي المعنى القديم وتشير إليه دون أن تقيده.

- إنّ خطاب العدواني الشعريّ يستوعب الكثير من النصوص والرموز الدينيّة التي تنتمي للديانة الإسلامية، وتأخذ الاستدعاءات القرآنيّة قصب السبق في تناسّه الديني فيما يندر التناس مع الحديث الشريف. كما أنّه يفتح في قصيدته على الشعر العربي ويأخذ الشعر المعاصر حيزاً مهماً من تناس العدواني، والشاعر يحاول من خلال هذا التناس مجارة أبناء عصره من الشعراء ولا سيما شعراء النزعة الإنسانية كجبران وأبي ماضي. ولا نغفل أن الشاعر لجأ أحياناً إلى المتن السردّي العربي فاستحضر شخصية السندباد مثلاً.

- تتفاوت أشكال التناس عند العدواني، فالتناس يظهر بنوعيه الإرادي وغير الإرادي، كما أنّ أشكال التناس الإرادي

الهوامش:

(١) ينظر: جيني، لوران، **الحوارية وتعددية**

الأصوات، (L. Jenny-Polyphonie et dialogisme)

<http://www.unige.ch/lettres/framoe/nseignements/methodes/dialogisme/index.htm>

(٢) ينظر: دوبيازي، بيير، **نظرية التناص**، ترجمة: المختار حسني.

<http://post2modernisme.blogspot.com/2016/01/pierre-marc-de-biazi.html>

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ينظر: رفاتير، ميكائيل، **دلائل الشعر**، ترجمة: محمد معتصم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٧، ص ١٢.

(٥) ينظر: ساميول، تيفين، **التناص، ذاكرة الأدب**، ترجمة: نجيب غزّاوي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٧، ص ٢٢.

(٦) ينظر: جينيت، جيرار، **أطراس**، ترجمة: المختار حسني:

[http://www.aljabriabed.net/n16_11atras_\(2\).htm](http://www.aljabriabed.net/n16_11atras_(2).htm)

(٧) ينظر: دوبيازي، بيير، **نظرية التناص**، ترجمة: المختار حسني.

(٨) عبدالمطلب، محمد، **قراءات أسلوية في الشعر الحديث**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٥، ص ١٨.

تظهر بأنواعها المختلفة، فالتناص الإرادي عند العدواني يظهر من خلال التضمين التام والتضمين الجزئي، كما أن التضمين بالامتصاص يظهر كثيراً عند الشاعر، ومن ناحية أخرى فإن التناص بالإشارة الذي يشكل الرمز عنصره المحوري يظهر بدرجة جيدة عند الشاعر.

- إن دلالة النصّ المقتبس كانت دائماً تضاف إلى المتن الجديد في التناص الذي يأخذ شكل الامتصاص، وهو ما كان يمنح الشاعر قدراً كبيراً من الحرية والتوفيق الذي قد لا يبلغه الشاعر في الاستدعاءات التي تحتكم إلى أشكال أخرى من التناص، فهو في هذا الشكل من التناص يتعامل مع استدعاءاته بشكل يقرّبه من التوظيف الدقيق والدلالة الغائرة والرؤية البعيدة.

- يحمل التناص بالإشارة دلالات عميقة لما تثيره التلميحات في وجدان المتلقي من انفعالات ولما تفتح أمامه من آفاق معرفية وثقافية. وغاية هذا الشكل من التناص أن يتمثل بأيقونات أو رموز كما ظهر من خلال السندباد وليلى، وهي رغم قلتها إلا أنها كانت استدعاءات موفقة بالإجمال.

- (٩) ينظر: دودين، رفقة، **توظيف التراث في الرواية الأردنية المعاصرة**، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ١٩٩٧، ص ٦١.
- (١٠) العدواني، أحمد مشاري (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، **ديوان أجنحة العاصفة**، الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ط ١، ١٩٨٠، ص ٦٥.
- (١١) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ١٩٠.
- (١٢) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ٨٣.
- (١٣) الألباني، ناصر الدين، **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، مطبعة دار المعارف، د.ت، مج ١، ص ٦٩.
- (١٤) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ٢٢٥.
- (١٥) ينسب البيت إلى قيس ابن الملوّح كما ينسب للصمة القشيري.
- (١٦) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ١٨١.
- (١٧) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ٢٠٢.
- (١٨) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ١٩٧.
- (١٩) ينظر: رحاحلة، أحمد زهير، (تجليات التناص في ديوان محمود درويش الأخير
- لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي)، دراسات العلوم الاجتماعية والإنسانية، عمان، الأردن، مج ٤٢، ع ٢، ٢٠١٥، ص ٤٦٣.
- (٢٠) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ١١.
- (٢١) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان صور وسوانح**، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت ٢٠٠٧، ص ٧٧.
- (٢٢) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ٨٣.
- (٢٣) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ٢١٨.
- (٢٤) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ٢١٧.
- (٢٥) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ٥٦.
- (٢٦) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان صور وسوانح**، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ٢٠٠٧م. ص ٩٩ وما بعدها.
- (٢٧) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان صور وسوانح**، ص ٢٤١ وما بعدها.
- (٢٨) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أوشال**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ١٩٩٦، ص ٣٦١.
- (٢٩) العدواني، أحمد مشاري، **ديوان أجنحة العاصفة**، ص ١٨٦.

إصلاحات محمد علي الاقتصادية في مصر ١٨٠٥-١٨٤٨م

د. أسماء جاد الله خصاونه *

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/٤/١٠م تاريخ قبول البحث: ٢٠١٨/١٢/٢٠م

ملخص

يعد محمد علي مؤسس مصر الحديثة حيث حكمها من سنة ١٨٠٥ - ١٨٤٨م، وكسر القاعدة العثمانية التي كانت لا تترك والياً على مصر أكثر من سنتين. استطاع محمد علي خلال فترة حكمه أن ينهض بمصر اقتصادياً وزراعياً وصناعياً وتجارياً، وكان يرى أن الاستقلال السياسي لا يتحقق إلا بإثراء ثروة البلاد، وتقوية مركزها المالي، فبنى قاعدة اقتصادية لمصر، واهتم بالزراعة فاعتنى بالري، وشيد العديد من الترع والجسور والقناطر، ووسع نطاق التجارة الخارجية في مصر. وأصلح الموانئ وارتفعت الصادرات، وعمل عن طريق الضرائب إلى توفير فائض مالي لدعم الإصلاحات في الدولة، وبذلك حققت مصر ازدهاراً اقتصادياً ملحوظاً في عهده.

الكلمات المفتاحية: محمد علي باشا، اقتصاد مصر في القرن ١٩م، مؤسس مصر الحديثة.

Mohammed Ali Economic Reforms in Egypt 1805-1848

Abstract

Muhammad Ali is the founder of modern Egypt, where he ruled from 1805-1848, and broke the Ottoman rule that did not leave a ruler of Egypt in office for more than two years. During the period of his rule, Muhammad Ali was able to promote Egypt agriculturally, industrially and commercially. He believed that political independence could not be achieved without developing the country's wealth and strengthening its financial position. He built an economic base for Egypt. He took care of agriculture paying attention to irrigation so, built many canals, bridges and arches. He extended Egypt's foreign trade, repaired its ports and increased the country's exports. He used the financial surplus of taxes to support reforms, hence a remarkable economic prosperity in Egypt was achieved in his reign.

Key words: Muhammad Ali Pasha, the economy of Egypt in the 19th century, the founder of modern Egypt.

* أستاذ مساعد، قسم التاريخ، كلية الآداب واللغات، جامعة جدارا.

المقدمة:

سياسة محمد علي^(١) في الإصلاح الاقتصادي:

كان الاقتصاد المصري في أوائل القرن التاسع عشر يعتمد على الزراعة فقط، وكانت الزراعة تقتصر على زراعة القطن فقط، إضافة إلى إن النشاط الزراعي يعتمد بشكل رئيس على ري الحياض، لذلك فهو اقتصاد نصفي، أي اقتصاد اكتفاء أكثر منه اقتصاد تبادل. وإذا كان بالإمكان تصدير شيء فانه يكون ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية، أما الصناعة فقد كانت صناعة حرفية صغيرة^(٢).

سار محمد علي في بداية حكمه على السياسة الاقتصادية السابقة نفسها، إلى أن سيطر على الأوضاع الداخلية، وعندما ظهرت حاجته الشديدة للمال، أصبح شاغله الأكبر كيفية زيادة الدخل القومي إلى أقصى ما يستطيع، حيث كان يعتقد أن قوة أي دولة تتمثل فيما لديها من أموال، من هنا كانت فكرة القوة الاقتصادية للدولة برأيه هي الأساس الوحيدة للقوة السياسية، ولعله كان الوحيد الذي انفرد بهذه الأفكار بين حكام الشرق المعاصرين له، فوجه اهتمامه إلى مقومات الاقتصاد الثلاث: الزراعة، والصناعة، والتجارة^(٣).

أولاً: الزراعة.

تعد الزراعة عماد الثروة المصرية قديماً

تولى محمد علي ولاية مصر في أيار عام ١٨٠٥م، وعمل في بداية حكمه على تدعيم وتوطيد مركزه في كافة المدن المصرية؛ لأنه لم يكن يسيطر في الواقع إلا على القاهرة، بينما ظلت باقي البلاد في أيدي فرق المماليك المتناحرة وقبائل البدو التي استغلت الموقف السياسي القلق في نهب الريف لصالحها.

ركز محمد علي اهتمامه -بداية- على استعادة سلطاته واستمر في حروب وصراعات طويلة مع المماليك داخلياً حتى قرر القضاء عليهم نهائياً بعد إيهامهم بعقد الصلح، وذلك في أول مارس ١٨١١م حينما ذبحهم في مذبح القلعة الشهيرة. وقد واجه محمد علي صعوبات متنوعة في بداية حكمه من عدم إخلاص الباب العالي له، إلى نزوع الجنود إلى الثورات، وقيام الدسائس البريطانية حوله، إضافة إلى قيام المماليك عليه للانتقام منه والعودة إلى منصة الحكم.

لم يستطع محمد علي التغلب على هذه الصعاب إلا بالمال، ولافتقار خزائنه إلى المال كان لا بد من الحصول عليه بطريقة لا تنفر الشعب منه، لذا وجه اهتمامه حول كيف يمكن الحصول على المزيد من الأموال؟ فتبين أنه لا بد من الإصلاحات الاقتصادية.

ولها المكانة الأولى في الاقتصاد القومي، لهذا قد نالت من حكومة محمد علي لعنايته الخاصة بالزراعة، فبعد أن كانت مقصورة على إنتاج ما يلزم لغذاء السكان وملبسهم، أصبحت تنتج حاصلات الاستهلاك المحلي والتصدير. وبدأ محمد علي إصلاحاته بالزراعة بعدة خطوات أهمها:

أولاً: معالجة مشكلة ملكية الأراضي بالقضاء على نظام الالتزام، وضم جميع الأراضي للدولة، ورفع أيدي الملتزمين عن التصرف بالتزامهم، ويبدو أن هذا القرار قد أثار ضجة لدى الملتزمين حينما أدركوا رغبة محمد علي في الاستحواذ على الأرض^(٤).

وبدأ محمد علي في سنة ١٨١٣م بمسح الأراضي المزروعة لمدة استمرت خمس سنوات، استخدم في عملية المسح هذه وحدة مساحة تقل عن الفدان بنحو ١٥١٣ متر مربع وبذلك تمكن من الاستيلاء على الأراضي الفائضة وإلغاء نظام الالتزام. ويبدو إن الغرض من هذا المسح حصر جميع الأراضي المزروعة والقابلة للزراعة في المديرية والأراضي المستخدمة في المنافع العمومية كالترع، والجسور، والطرق، والمدافن، واستبعدت من المساحة الأراضي البور، وهي الأراضي التي أعطي فيها الباشا

الابعاديات والجفالك كما دخلت في المساحة الأوقاف عندما قرر الوالي جباية الخراج عنها^(٥).

واكتشف محمد علي أن كبار الأعيان وأصحاب الأملاك الواسعة يرشون موظفي المساحة، ليشهدوا على أن أراضيهم جرداء يعوزها مياه الري، هذه بينما أولئك المساحون يسدون العجز الناشئ عن هذا التخفيض بفرض ضرائب فادحة على الأرض التي يقوم بحرثها صغار الفلاحين، ولكن مما لا شك فيه أن عملية المسح هذه قد كشفت عن مساحات زراعية كبرى كانت غير معروفة للحكومة نتيجة الغش والتدليس^(٦). كما تمكن محمد علي من السيطرة على معظم الأراضي التي أوقفها أصحابها بهدف العبادة والتي كانت تحت إدارة وإشراف العلماء، فأحتج العلماء ورفضوا هذا الإجراء، فكانت حجة محمد علي أنه مكلف من قبل الخليفة العثماني الذي يتولى أمور المسلمين جميعاً وهو مالك جميع الأراضي، ولم يتوقف عند هذا الحد بل عمد أيضاً إلى نزع ملكية الأراضي لبقية الأفراد بنفس الحجة، كما طلب من الفلاحين إبراز حجج ملكيتهم^(٧)، وقد أعطى محمد علي للملتزمين حق الحصول على الفائض من الخزانة مدى الحياة تعويضاً لهم

عن أخذ حصص التزامهم^(٨). وكان إلغاء نظام الالتزام انقلاباً اقتصادياً واجتماعياً، حرر الفلاحين من الرق وأصبح محمد علي مالكا لمعظم أراضي مصر.

ثانياً: توزيع الأراضي الزراعية، حيث وزعت الأراضي الزراعية زمن محمد علي على النحو التالي:

١. الأراضي الأثرية أو الخراجية: وهي الأرض التي يقوم الفلاح بزراعتها مقابل سداد الخراج عنها^(٩)، ويكون للفلاح حق الانتفاع بالأرض دون التصرف فيها، وكان من حق الآباء توريثها للأولاد الذكور ما داموا قادرين على سداد الضرائب عنها^(١٠)، وكان يعطي ما بين ثلاثة إلى خمسة أفدنة^(١١)، فإذا ما هرب الفلاح يجبره على العودة إلى أرضه وإلزامه بزراعتها وسداد الضرائب المطلوبة منه أثناء تخليه عن أرضه^(١٢).

كانت القيود المفروضة على هذا النوع من الأراضي كثيرة، إلا أن الحكومة لم تكن تعتبر الفلاحين الذين يقومون بزراعتها سوى إجراء يتفعلون بأطيان الحكومة ويبقى لهم الحق الانتفاع ما داموا يدفعون الضريبة، فإذا ما تأخروا في تسديد ما عليهم من ضرائب انتزعت الأرض منهم وأعطيت لغيرهم، أضف إلى ذلك انه كان من حق الحكومة أن

تنزع هذه الأراضي من أصحابها إذا اقتضت المصلحة السنة اتخاذ مثل هذه الإجراء دون أن تدفع لهم تعويضاً لأنهم لا يملكون العين^(١٣).

٢. أراضي الإبعديات: هي مقاطعات واسعة من أراض قابلة للزراعة لكنها غير مزروعة ولا مسجلة في عملية المسح التي جرت عام ١٨١٣م وربما سميت بهذا الاسم لأنها كانت مبعدة من عملية المسح، ولتشجيع الأهالي على إصلاح الأراضي منح المقتدرين منهم أطياناً من أراضي الإبعديات لإصلاحها وأعفاها من الضرائب بصفة دائمة، ثم أعطى أصحابها حق الملكية التامة فيها، وبمنفس الشرط انعم محمد علي على نفسه وعلى أقربائه وأنصاره^(١٤)، ولكن بعد سنة ١٨٣٦م قرر أن هذه الأرض يرثها الابن الأكبر، وسمح ببيع الإبعديات أو نقل ملكيتها، كما سمح للفلاح برهن أرضه أو نقل حق التصرف بها^(١٥)، ثم بعد ذلك ضمها لأراضي الجفالك.

٣. أراضي الجفالك: وهي الأراضي التي ضمها محمد علي لنفسه أو لأفراد أسرته وأقربائه، وهي على ما يبدو تتبع أراضي (الإبعادية) معفاة من الضرائب، وقد اتسعت مساحتها بضم بعض القرى التي عجزت عن

دفع الضرائب^(١٦).

٤. أراضي الأوسية: يعود أصل الأوسية إلى الأرض التي هجرها فلاحوها بسبب عجزهم عن دفع الضرائب المتأخرة، وتجنباً للسجن أو التعذيب من قبل الملتزم كانوا يتخلون عن الحياة، فتصبح الأرض بلا صاحب، وبما أنه ليس بإمكان أي من الفلاحين وضع يده عليها فإنها تؤول تلقائياً إلى حيازة الملتزم. وكانت قبل محمد علي ملحقة بالقرى ولا تدفع عنها ضريبة، وإنما يخصص ريعها للإنفاق على المسافرين والجند وموظفي الحكومة الذين ينزلون ضيوفاً على أهل المنطقة، كما يخصص بعض هذا الريع لمواجهة النفقات المحلية^(١٧)، وقد ترك محمد علي هذا النوع من الأراضي للملتزمين بعد إلغائه لنظام الالتزام، وربما أراد بذلك التخفيف من تدمرهم، كما أعفاهم من دفع الضرائب عنها، وأعطاهم راتباً سنوياً، وعند وفاة الملتزم تؤل الأرض والرواتب إلى الحكومة^(١٨).

٥. أراضي المسموح: هي أراضي منحها محمد علي لمشايخ القرى عرفت باسم "مسموح المشايخ" مقابل خدمتهم في الحكومة، وأراضي منحت للأعيان عرفت "بمسموح الأعيان" نظير استضافتهم لموظفي الدولة عند المرور بالقرى، وأراضي منحت للبدو باسم

"مسموح العربان" لحثهم على الاستقرار وتشجيعهم على الزراعة، وكلها كانت معفاة من الضرائب بنسبة خمسة بالمائة^(١٩).

أدت سياسة محمد علي هذه تجاه الأرض إلى ظهور فئات عديدة من حائزي الأراضي في نهاية عهده، مثل أفراد الأسرة الحاكمة والضباط الأتراك وكبار موظفي الدولة، وعدد من الأجانب والفلاحين وكان المتبع في ذلك إعطاء أفضل أراضي الدلتا وأصلحها للأعيان حائزي الأراضي، أما الفلاحون فقد حصلوا على الأراضي التي لم تستفيد من برنامج منشآت الري الذي نفذ في عهد محمد علي، وظلت الأراضي الممنوحة ملكاً للدولة، ولم يحصل الفلاح على أية حقوق خاصة بالملكية من قانون الأراضي الذي أصدره محمد علي في سنة ١٨٤٦م لأنه لم يضمن حماية الفلاحين من الإبعاد الدائم عن الأرض التي كانت في حالات كثيرة في حيازة أسرهم منذ أجيال^(٢٠).

ويتضح أن سياسة محمد علي هذه قد أدت إلى ظهور طبقة أرستقراطية جديدة استحوذت على الأرض، وشكلت مصدر قلق للفلاحين المصريين باستحواذ تلك الطبقات على كثير امتيازات ودخل مالي وفير في حين لم يكن الفلاح يجد ما يسد به رمقه.

٣- إصلاح نظام الري.

مرة واحدة في السنة.

أدرك محمد علي شأنه كشأن من سبقه من حكام مصر، أن مصر لولا النيل لكانت صحراء قاحلة، وأنه بدون نظام ملائم للري، لا يمكن تحقيق أقصى ربح من زراعة الأرض. وكان نظام الري المتبع قبل عهد محمد علي نظام ري الحياض لفترة محددة (وقت الفيضان)، ويقوم على تقسيم الأرض الزراعية إلى أحواض تغمرها مياه الفيضان صيفاً، وتعد للزراعة الشتوية فقط ولا يستفاد منها في المزروعات الصيفية، وهذا النظام كان له مساوئ عدة منها: إن ري الأراضي يتوقف على منسوب مياه الفيضان، فإذا كان المنسوب عادياً أمكن ري الأراضي وزراعتها على الوجه الأكمل، أما إذا كان المنسوب منخفضاً عن المستوى العادي فإنه يتعذر وصول المياه إلى كل الأراضي فيتعرض إنتاج البلاد لهزات إذا كانت عنيفة بصحبها أغلب الأحيان الوباء ونقص الخراج وبالمثل كانت البلاد تتعرض لهزات إذا كان الفيضان عالياً، فقد يؤدي ذلك إلى انجراف الأراضي وإتلاف الزرع^(٢١)، كما كانت الفيضانات في بعض الأوقات تكتسح قرى بأكملها وتدمر كل المحاصيل مما يؤدي إلى هجرة السكان^(٢٢)، ووفق هذا النظام فإن الأرض لا تزرع إلا

أدخل محمد علي نظام الري الدائم بتخزين المياه بدلاً من الري المرتبط بوقت الفيضان وعمل جسور عريضة عمودية على مجرى النيل من الشاطئ إلى الصحراء، ومد جسر طولي بموازة النيل يصل بين الجسور العريضة، وقسمت هذه الحياض إلى حياض اصغر منها يمدّها النيل بالمياه من خلال الترع^(٢٣). واهتم أيضاً بتحسين الوسائل المستخدمة في الري، فقد ساهمت الحكومة في زيادة عدد السواقي في كل قرية، وتوفير الدواب اللازمة لهذه السواقي، وعمل تفتيش دوري لإصلاحها باستمرار، ومساعدة الفلاحين غير القادرين على عمل سواقي لهم، وتنظيم استخدام هذه السواقي فيما بين الأرض المتقاربة، واهتمت الحكومة بحماية البلاد من إخطار الفيضانات العالية التي تسبب تلف المحاصيل وغرق المساكن المجاورة للنيل، ولذلك أقيمت الجسور على ضفتي النيل لتوفير الحماية للمحاصيل والمساكن^(٢٤).

لقد كان لحفر الترع دور كبير في تنشيط الزراعة والتجارة في آن واحد، ومن أهم الترع التي أنشئت (ترعة المحمودية) التي تربط الإسكندرية بالنيل. وقد ساهمت هذه التربة في إحياء البلاد المارة بها بعد أن كانت معظم

أراضيها غير صالحة للزراعة^(٢٥). كما شق محمد علي عدة ترع في مختلف مديريات الوجهين البحري والقبلي، وكان من أول أعماله بناء سد الفرعونية التي كان الغرض منها: تغذية فرع رشيد من مياه فرع دمياط، فألحقت بالبلاد والأراضي الواقعة على جانبي دمياط أضراراً بليغة، لأنها كانت تستنفذ الكميات الكبيرة من هذا الفرع فيقل مأؤه، ويطغى عليه البحر فيختلط بماء النيل ويفسده بملوحته، فأمر بإنشاء جسر من الأحجار يمنع انسكاب المياه من فرع دمياط^(٢٦)، وشق ترعاً أخرى لري أراضي البحيرة التي كانت تستمد مياهها من التربة الفرعونية، وأمر بحفر ترعة وادي الطميلات لري مزارع التوت بهذا الوادي، كما أمر بحفر ترعة طنطا وكفر طرخان بمديرية الجيزة، وترعة من النيل إلى السنبلوين، وترعة القاهرة المارة بين المدينة وبولاق^(٢٧).

أراد محمد إنشاء قناطر كبرى في مصر لضبط مياه النيل حتى لا تغرق القرى في الفيضان، وقد مرت فكرة إنشاء القناطر من قبل بذهن نابليون بونابرت عند غزوه لمصر سنة ١٧٩٨م، وعندما فكر محمد علي بإقامة القناطر واجه اعتراضات من المصريين على المشروع لما يحتاج إلى مجهودات هائلة ومتاعب

جسمية قد تحول دون نجاحه فكان جوابه "إن هذا صراع بيني وبين النهر العظيم ولكن سأخرج فائزاً من هذا الصراع"^(٢٨). وتمثل أهمية القناطر في ري ٣,٨٥٦,٠٠٠ فدان بالوجه البحري في سنة ١٨٤٠م، كما ساهمت في زيادة المحصولات وتنوعها^(٢٩). وساهمت في توفير المياه لترعة الخطاطبة والاسكندرية عن طريق ترعة الحمودية، وعملت على تسهيل الملاحة وإيجاد مياه صالحة للشرب في القاهرة، وتوفير المياه بترعة السويس القديمة، وبذلك وجد أرضاً صالحة للزراعة تربي فيها الماشية^(٣٠).

وتعد قنطرة فم بحر شيين من أهم القناطر التي أنشئت بالوجه البحري سنة ١٨٤٠م وكان سبب إنشائها لأنها تكونت أمام فم بحر شيين جزيرة سدت مدخله، فعمل المهندس الفرنسي لينان دي بلفون^(٣١)، رأساً هائلة لفرع دمياط طولها ١١٠م ومنسوبها فوق منسوب الفيضان، ولما حدث الفيضان ظهرت فائدة الرأس؛ فتحول التيار وشطر الجزيرة نصفين، وأصبح من الضروري بناء فم لبحر شيين؛ لضبط كمية المياه الداخلة في الفيضان^(٣٢). والقناطر وإن كانت آخر أعمال محمد علي في الري، إلا أنها أعظمها نفعاً وأبقاها كل الدهر أثراً.

حاول محمد علي الحصول على مياه ارتوازية بالصحرارى عن طريق حفر آبار عميقة فيها، وأول تجربة قام بها كانت بصحراء العباسية وكانت تسمى العدلية، قام بها المهندس الانجليزي "مستر برجير"، ولكن المياه كانت قليلة ولم تكن المواسير الحديدية معروفة، وكانت الطريقة المتبعة في حفر الآبار أن يقوم الأهالي بحفر مربعة حتى يصلوا للصخر ثم يقومون بعمل صندوق من جذوع أو الدوم ويردون التراب خلفه، ثم يثقبون الصخر بالة تفتته ويرفعون الفتات حتى يصلوا لطبقة الماء^(٣٣).

ولقد ترتب على الاهتمام بالري بدء الزراعة الكثيفة بعد الواسعة، كما زادت مساحة الأراضي الزراعية حيث ارتفعت رقعة الأراضي من مليون فدان سنة ١٨٠٥م إلى ٣,٥٠٠,٠٠٠ في سنة ١٨١١م وإلى ٣,٠٣٢,٠٠٠ في سنة ١٨٢١م وحتى وصلت في سنة ١٨٤٠م إلى ٣,٨٥٦,٠٠٠^(٣٤).

٤- المحاصيل الزراعية:

أبدى محمد علي اهتماماً ملحوظاً بالأرض والفلاح، واسترعى اهتمامه ظاهرة ترك الفلاحين لقراهم، وعزا ذلك لسبيين: الأول إما لسوء معاملة الموظفين المحليين لهم، والثاني لجهلهم، ولذلك خولهم رفع

شكاياتهم إلى المديرين إن أساء لهم الموظفون بل أعطاهم الحق في دفعها إليه مباشرة إن لم ينصفهم المديرون^(٣٥). وعمل محمد علي على إدخال محاصيل نقدية جديدة للبلاد مثل القطن طويل التيلة، ودون أن يكون هذا على حساب محاصيل الحبوب والغذاء التي كانت على أساس الزراعة منذ القدم، وقد ساهمت هذه المحاصيل النقدية في زيادة الإنتاج الزراعي، وعُني بشكل خاص بأمر الزراعات التي لا تصلح زراعتها في أوروبا، ومن أهمها القطن ذو التيلة الطويلة، إذ كان القطن المألوف زراعته في مصر من الصنف الرديء الذي لا يصلح إلا للتجيد، وعندما استقدم محمد علي عدداً من الفنيين الأوروبيين وكان منهم المسيو لويس جومل الفرنسي سنة ١٨٢٠م وهو خبير في النسيج لاحظ نوعاً جديداً من القطن في حديقة احد الأعيان، وكان يمتاز بطول تيلته ونعومته فلفت نظر محمد علي إلى هذا الأمر فطلب بتعميم زراعته وشجع الفلاحين على ذلك بشرائه منهم بأثمان عالية^(٣٦). وبذلك اتسعت رقعة الأراضي المستغلة في زراعة القطن اتساعاً شديداً حيث بلغت سنة ١٨٢٤م خمسين ألف فدان^(٣٧). وقد جلبت بذوره من الهند أولاً ثم

من أمريكا فيما بعد، ومن نوع يُعرف بقطن الجزائر وهو أجود أنواع القطن في العالم^(٣٨).

وكان من ضمن ما أدخله محمد علي في مصر من مزروعات الأفيون واهتم بزراعة القنب لصنع الحبال اللازمة للأسطول، كما اهتم بزراعة النيلة، والتي كانت معروفة منذ القدم في مصر إلا أن زراعتها كانت مقصورة على الأغنياء لارتفاع تكاليف إنتاجها فمنح محمد علي المزارعين تسهيلات كبيرة، ثم جلب عام ١٨٢٦م بزور النيلة الهندية، واستقدم الهنود الأخصائيين في زراعتها، وأمرت الحكومة أن تزرع النيلة في كل قرية، وأنشئت لعا معامل مشابهة لتلك المعامل الموجودة في الهند^(٣٩).

واهتم بزراعة الفواكه مقل: الأناناس، والمango، والموز، واهتم بزراعة الأشجار مثل: الزيتون الذي استكثر من زراعته في الوجهين البحري والقبلي، بعد أن كانت زراعته مقصورة على الفيوم وبعض الحدائق^(٤٠). كذلك اهتم بزراعة أشجار التوت؛ لتربية دودة القز (الحرير) واختار وادي الطميلات بالشرقية لهذا المشروع، واستقدم حوالي خمسمائة من المدربين لتربيته، ثم أمر سنة ١٨٦م بتعميم زراعة التوت في جميع المديريات^(٤١)، أما الحبوب في مصر فكانت

القمح، والأرز، والسمسم، والذرة، والعدس، والشعير، وأشهر البقوليات كان الفول، والفاصوليا^(٤٢). ومما لا شك فيه أن تقدم الزراعة في مصر قد كان له أثر إيجابي في تطور الصناعة والتجارة كما سيذكر.

ثانياً: الصناعة.

بدأت المحاولة الأولى لدخول مصر الميدان الصناعي في العصر الحديث على يد محمد علي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والسؤال الذي يطرح هنا ما هي العوامل التي دفعت محمد علي إلى إنشاء هذه المشروعات الصناعية والتوسع فيها؟
أهم هذه العوامل^(٤٣):

١. استقلال الدولة السياسي واستقرار الحكم يعتمدان على وجود جيش قوي مسلح وهذا يتطلب إقامة قاعدة صناعية محلية متطورة ومتنوعة تمدد بجميع الاحتياجات.
٢. احتياجه لزيادة الموارد حتى يستطيع مواصلة حروبه في شبه الجزيرة العربية.
٣. زيادة موارد الخزانة من المال.
٤. الرغبة في مسايرة كل ما هو أوروبي حيث كان يقول دائماً أفكر بعقل أوروبي وأنا ارتدي قبعة عثمانية.
٥. إدراكه مدى ارتباط الزراعة بالصناعة

من أجل نجاح التنمية الاقتصادية.
٦. أراد أن يحقق عنصر الاستقلال لمصر
وأساببه لتخليصها من التبعية الصناعية
لأوروبا.

أهم المصانع والصناعات التي كانت في عهد محمد علي.

لقد استورد محمد علي ماكينات
الصناعة من أوروبا، وبنى الورش الضخمة
لها كما استقدم الخبراء من الخارج، لقلة
الخبراء المحليين ولتدريب المصريين على
تشغيلها. وفي سنة ١٨١٦م أنشأ عمارة
سميت بخميس العدس ليجمع بها أرباب
الصنائع القادمين من أوروبا وافرد لكل
حرفة وصناعة مكانا يحتوي على الأنوال
والدواليب، لصناعة القطن والحرير والأقمشة
والمقصبات^(٤٤).

توالت على مصر بعد ذلك مصانع
القطن موزعة في عدة جهات؛ لصناعة
الأقمشة، وكان ما تنتجه هذه المصانع يباع في
مصر بعد استيفاء حاجة الجيش من الملابس
القطنية والصوفية والأغطية والسجاجيد، ثم
يصدر الباقي إلى الشام وإيطاليا وغيرها من
البلدان^(٤٥) ولكن الإنتاج المحلي كان قاصرا
عن إنتاج بعض الخامات التي اضطر الباشا
إلى استيرادها من الخارج، مثل الحرير من

سوريا والصوف من تونس وأسبانيا^(٤٦).
وكانت العادة في إدارة تلك المغازل أن تتعاقد
الحكومة مع مقاولين تقدم لهم المواد الخام،
وعليهم استخدام العمال الذين يتكلفون
بأجورهم وما إلى ذلك حتى إذا انتهوا من
عملهم قدم المقاولين كل ما أنتجوه إلى
الحكومة بمقتضى مبلغاُ اتفق عليه سابقاً بين
الطرفين^(٤٧).

وأرسل محمد علي البعثات إلى أوروبا
لتكوين الكوادر العلمية والفنية ففي سنة
١٨٢٩م أرسل بعثة إلى فرنسا؛ لدراسة
صباغة الجوخ والحرير^(٤٨). ولحماية الأنوال
من الكساد ولصيانتها اصدر محمد أمرا بجمع
الكتان الجديد الموجود عند الفلاحين ثم
توزيعه بعناية على الغزاليين، كما أمر بتوزيع
الكتان على النساء اللاتي يعرفن الغزل
لغزله^(٤٩).

ومن الصناعات الأخرى التي انتشرت
صناعة المواد الغذائية مثل عصر الزيتون،
وصناعة السكر، حيث كان القصب المصري
مطلوبا في عالم البحر الأبيض المتوسط قبل
عهد محمد علي، وكان المتبع أن يرسل السكر
الخام؛ لتكريره في أوروبا^(٥٠). فقرر محمد علي
سنة ١٨١٨م أن يقيم معملا؛ لتكرير السكر
قرب أكبر مزارعه في ريمون، مما أدى إلى

تدعيم الصناعة المحلية، حيث اخذ يتوقف تصدير السكر الخام بالفعل، واخذ استيراد السكر من أوروبا يتناقص بتزايد الإنتاج المحلي^(٥١).

أما النيلة فلم يستوردها محمد علي من الخارج؛ لأنها كانت تزرع في مصر، ولكن الصبغة المأخوذة من مادتها كانت رديئة النوع، مما اضطر محمد علي إلى استقدام بعض الصناع، لتعليم وسائل الصناعة وأساليبها، ومنذ سنة ١٨٣٥م رأى أن يترك الإشراف على إعداد النيلة لمشايخ القرى شريطة أن تتسلم الحكومة جميع المادة المستخرجة منها بثمن تحدده^(٥٢). واهتم أيضا محمد علي بمصنع الطرايش بقوة إذ كان يلبي جميع طلبات الجيش المصري^(٥٣)، والحق بهذا المصنع مصنعا ومصبغة للعباءات اللازمة لعسكر الجهادية^(٥٤).

كما قامت صناعة بناء السفن بغرض توفير وسائل نقل الجنود في حملاتهم الخارجية، وتعد ترسانة الإسكندرية من أهم المنشآت الحربية في هذا المجال، وكذلك صناعة الذخيرة؛ لتزويد الجيش بالأسلحة، وقد أنشئت في مصر عدة مصانع لذلك^(٥٥). وفي سنة ١٨٣٧م كان ديوان الجهادية يشرف على ما بالقلعة من مصانع، لعمل ألواح النحاس

وسبك الحديد وصنع المدافع والسيوف والبنادق، كما كان يشرف على ما بالخوض المرصود في بولاق من مصانع، لعمل الأسلحة وصنع الجوخ وديبج الجلود^(٥٦). ولما عم النشاط الصناعي في أنحاء البلاد اقتضت ظروف العمل إنشاء ديوان خاص سمي ديوان "الفابريكات" تكون مهمته الإشراف على جهاز الصناعة في البلاد^(٥٧).

نلاحظ ما سبق أن الصناعة في عهد محمد علي تمثلت بتراجع الاهتمام بالصناعات المحلية الصغرى، ونشوء بدلا منها صناعات كبيرة تمثلت في مصانع الغزل والنسيج والمواد الغذائية وربما السبب في ذلك؛ حاجة البلاد لمثل هذه الصناعات التي تحقق مشروع محمد علي الاقتصادي وتنشط الصناعة أكثر.

الصعاب التي واجهت الصناعة في مصر في عهد محمد علي:

أولاً: مشكلة الأيدي العاملة: من أهم الصعاب التي واجهت الصناعة في مصر، ولذلك شرع محمد علي في استخدام الرقيق من السودان في المصانع إلى جانب تسخيرهم في العمل الزراعي في بعض الأقاليم التي تعاني نقصا في الأيدي العاملة. لكن استخدام العبيد في المصانع لم يأت بنتائج مرضية، مما حمل محمد علي على الإقلاع عن

استخدامهم^(٥٨). واضطر محمد علي إلى استخدام قوة بشرية غيرهم حتى يجمع العدد الكافي من الأيدي العاملة، فصار يحشد آلاف الصبيان ممن لا يصلحون للخدمة في الجيش، كما لم تكن النساء بمنأى عن الصناعة وإنما كانت توزع على النساء القرويات مقادير معينة من الكتان لغزله، مما اضطر بعض النساء إلى أن يعمدن إلى بعض الحيل للتخلص منه، ولو أدى هذا الأمر إلى إحداث عاهات في أيديهن، ولم يتوقف اشتراك النساء في الجهد الصناعي عند العمل في المنازل فقط، بل كان فريق منهن يشتغلن في المصانع إلى جانب الرجال^(٥٩). أيضاً عمل محمد علي على إصدار أمر بإخلاء سبيل النساء اللواتي كن يعملن في ورش الخياطة والمراكيب والمحكومات بالسجن جراء الديون الميري عليهن عمل على إعادتهن إلى عملهن، على أن تصرف لهن نصف أجورهن ويخصم النصف الآخر من ديونهن^(٦٠).

ثانياً: عدم الاستقرار: كان حرفيو محمد علي يتنقلون من مكان لآخر حسب حاجة العمل، وهذا كان يؤثر على استقرارهم ويرهقهم مادياً وصحياً، ومع ضآلة الأجر وقلة ما لديهم من إمكانيات ومعرفة

تساعدهم في استخدام الآلات فهم مزارعين في الأصل، ومع سوء التصرف معهم ومعاقبتهم عقوبة شديدة إذا حدث أي إهمال في العمل كالجلد بالكرباج، كل هذا أدى إلى هروب الكثير من الحرفين والعمال، وما ساعد على الهروب تستر مشايخ الحرف عليهم لقاء رشوة معينة^(٦١).

ثالثاً: القوى المحركة: أن المصانع في مصر كانت تدار بآلات تستخدم الدواب والقوى الآدمية، وعدد ضئيل كان يستخدم الآلات البخارية^(٦٢)، ولخلو البلاد من الفحم والوقود النباتي، ولقلة المجاري المائية التي يمكن استخدامها في إدارة الطواحين، فقد اقتصر استخدام البخار على عدد من مصانع غزل القطن وصباغتها ومعامل تبيض الأرز في شمال الدلتا إلى جانب المسالك والترسانات^(٦٣). كما أن الاعتماد على المواشي كان يؤدي إلى خسائر كبيرة نظراً لقلة عددها نسبياً، وعظم الحاجة إليها في الزراعة، وفي إنتاج الطعام، وكانت المصانع تحصل على أجود أنواع الثيران وتعتني كثيراً في غذائها والعناية بها، وقد يكون الإرهاق سبباً في وفاة العديد منها مما يؤدي إلى توقف العمل في المصانع آنذاك^(٦٤).

رابعاً: الإضاءة في المصانع: لم تكن

أسباب تدهور الصناعة في مصر في عهد
محمد علي

تعزى أسباب ركود الصناعة وتدهورها
زمن محمد علي إلى أسباب داخلية وأخرى
خارجية

الأسباب الداخلية

كانت الأسباب الداخلية على النحو التالي:
أولاً: المواد الخام: من المعروف أن مصر
فقيرة في مواردها المعدنية كالفحم والحديد،
وهي التي تستخدم في المصانع؛ فأصر محمد
علي على الاستيراد من الخارج فاستورد
الفحم من إنجلترا بتكاليف عالية كلفت
البلاد أموالاً طائلة^(٦٨)، وأمر بإجراء بعض
التجارب لاستخدام بعض أصناف الوقود
المحلية كاستخدام بذور القطن وقوداً،
وأشجار الصفصاف كان ينقلها ويقطعها
ويحولها إلى فحم إلا أن هذه التجارب لم تؤد
بالغرض لأسباب منها تكاليف النقل كانت
عالية ومعدلات الاستهلاك في المصانع
مرتفعة، إضافة إلى جهل القائمين على
استخدام الوقود^(٦٩).

ثانياً: الطاقة المحركة: استخدم محمد علي
المواشي كان يعطي قوة غير منتظمة، بحيث
تقف المغازل والآلات عن الحركة بين الفنية

المصانع تعمل ليلاً لعدم توفر الإضاءة التي
تكلف مبالغاً طائلة لذا كانت المصانع تعمل
ثمانى ساعات في الشتاء، وعشر ساعات
في الصيف وهذا الوقت لم يكن كافياً لإنتاج
الصناعات بالوقت والسرعة المطلوبة^(٦٥).

خامساً: رأس المال: عانى محمد علي
من مشكلة نقص رأس المال اللازم للقيام
باستثماراته الهائلة في جميع القطاعات
الاقتصادية، وكان يرفض أي قروض أو
مساعداً أجنبية خوفاً من أن يأخذها
الأجانب ذريعة للتدخل في شؤون الدولة،
لذا لجأ إلى إتباع سياسة نظام الاحتكار
الذي أصبح أحد أعمدة السياسة
الاقتصادية وكان يقوم على أساس قانوني
معترف به وهو: انه من حق الحكومة أن
تمتلك جميع موارد الثروة في المجتمع^(٦٦).

سادساً: نقص العمال والفنيين: أدى
هذا إلى ضعف الرقابة بالتالي نقص الإنتاجية
وانخفاض مستوى الأجور، كما كان استقدام
المهندسين والعمال الأجانب يكلف الدولة
نفقات باهظة إلى جانب ما تكبدته الحكومة
من استخدام مترجمين وأدلاء لمعاونتهم، ثم
أن الأحوال المعيشية لم ترق لعدد منهم
فعاشوا في تدمر متصل وأعربوا عن رغبتهم
في العودة لبلادهم^(٦٧).

والأخرى، مما أدى إلى تلف الكثير من المصنوعات^(٧٠).

ثالثاً: الضرائب: في سنة ١٨٢٠م اصدر السلطان العثماني فرماناً يمنع تجاوز نسبة الضرائب الجمركية على الواردات الأجنبية أكثر من نسبة ٣٪، وقد أدى هذا التشريع إلى نهاية الصناعة المصرية إذ لم تتمكن الحكومة من حماية الصناعة الناشئة من المنافسة الأجنبية عن طريق فرض الضرائب الجمركية عليها^(٧١).

رابعاً: طريقة التعاقد والاستخدام: إن استخدام طبقة الحرفيين لم يكن يتم على أساس من التعاقد الحر، برغم دفع نوع من الأجور لهم، بل اتبع في إحضارهم واستخدامهم نفس الوسائل المتبعة في التجنيد للخدمة العسكرية، ويبدو أن الاستخدام في مصانع محمد علي كان نوعاً من التجنيد الصناعي^(٧٢).

خامساً: الآلات: استيراد الآلات إلى مصر كان دون مراعاة أحوال البلاد الجوية، إذ كان التراب يدخل في العجلات وغيرها من الأجزاء الدقيقة مما جعل العمال يخصصون جزءاً كبيراً من وقتهم لتنظيفها، وإلى جانب ذلك أهملت الكثير من الآلات التي استوردت بتكاليف باهظة، لأنه لم يكن

هنالك من يستطيع تجميعها أو القيام بإعمال الصيانة لها^(٧٣)، مما أدى بعد وقت إلى أسباب فشل الصناعيين.

سادساً: قلة خبرة المدراء والمحاسبين، الأمر الذي نجم عنه سوء حسابات وتقديرات بخصوص التكلفة الحقيقية للإنتاج، فمعظم المصانع التي كانت تحقق الأرباح، كانت في الواقع تفشل في تغطية تكاليفها^(٧٤).

الأسباب الخارجية

تمثلت في مقاومة دول أوروبا الغربية للمشروع الصناعي الناشئ في مصر، وتوحدت في إسقاط محمد علي ودليل ذلك معاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨م بين الدولة العثمانية والمملكة المتحدة وإيرلندا لتنظيم التجارة الدولية، إذ حصل التجار البريطانيون بموجبها على حرية الشراء من بلاد السلطنة العثمانية وخاصة مصر، ونصت على إلغاء الاحتكار للحاصلات الزراعية والأصناف الأخرى، وحددت الرسوم الجمركية بواقع ٥٪ على الواردات، و١٢٪ على الصادرات، و٣٪ على البضائع المارة (الترانزيت)، وعندما أطلقت حرية التجارة في مصر لم تستطع الصناعة المحلية الصمود أمام المنافسة الأجنبية مما أدى إلى انهيارها^(٧٥). وتحقق للإنجليز بذلك هدفين:

الأول: الحصول على القطن بأبخس الأثمان.

والثاني: تسويق المنتجات البريطانية في الأسواق المصرية.

أدى صدور فرمان ١٨٤١م إلى تأثير سلبي على الصناعة المصرية، إذ نص على أن جباية الضرائب ودخل الحكومة تكون باسم السلطان ويتبع فيها النظام المعمول به في تركيا، وإن ترسل ربع إيرادات الحكومة المصرية الحاصل من دخل الجمارك والخراج والضرائب إلى خزانة الباب العالي، وتكون السكة-النقود في مصر باسم السلطان، وحُدّد عدد الجيش المصري بثمانية عشر ألف جندي، وليس لمصر أن تنبني سفناً حربية إلا بإذن صريح من الباب العالي^(٧٦)، ولا شك أن هذا فرمان أدى إلى انهيار التوسع الصناعي لان الصناعة كانت تقوم أساساً على تأمين حاجة الجيش، ويبدو أن هذا فرمان أراد تقييد حرية محمد علي، وتحديد صلاحياته وتقيدها أمام السلطان العثماني، كما كان متمشياً مع رغبة الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا في القضاء على نجاح وقوة نفوذ محمد علي، ودليل ذلك ما جاء في معاهدة أدرنة التي قضت بإرجاع الجيوش المصرية

إلى الحدود القديمة لمصر، وحرمت مصر ثمرة انتصاراتها وقيدت استقلالها بقيود شتى، أظهرت مظاهر السيادة العثمانية التي فرضتها الدول على مصر، وبذلك حالت دون استقلال مصر التام^(٧٧).

ثالثاً: التجارة:

نشطت التجارة في عهد محمد علي بشكل ملحوظ إذا ما قيست بما كانت عليه في الفترة السابقة لحكمه، ويعود ذلك إلى عدة أسباب أهمها^(٧٨):

أولاً: الحروب النابليونية ١٨٠٨-١٨١٢م: التي أدت إلى اشتداد الطلب على القمح وغيره من المواد الغذائية، مما اضطر روسيا إلى مجارة نابليون في سياسة الحصار القاري. وازدادت الحاجة للحبوب خاصة أن دول البحر الأبيض المتوسط كانت تعاني من القحط في تلك السنوات، فاشتد الطلب على محصول القمح الذي كانت مصر تصدر منه كميات خاصة إلى بريطانيا عن طريق مالطة، وفي عام ١٨١١م أرادت الدولة العثمانية أن تمارس ضغطاً على بريطانيا التي كانت تحتاج القمح أيضاً؛ لإمداد جيشها في شبه جزيرة إيبريا، ففرضت حظراً على صادرات مصر من

القمح إليها إلا أن محمد علي واصل التصدير ورفع السعر لتفادي المخاطر^(٧٩).

ثانياً: التوسع في الإنتاج الزراعي ولا سيما إنتاج محاصيل جديدة لها أسواق خارجية متسعة.

ثالثاً: الاهتمام بصناعة السفن.

رابعاً: زيادة مطالب الجيش.

خامساً: اتساع الأسواق الخارجية نتيجة لكثرة فتوحات محمد علي وانتصاراته الحربية.

سادساً: تحسين طرق المواصلات البرية والمائية .

سابعاً: القضاء على أعمال القرصنة التي كانت تهدد قوافل التجارة.

قام محمد علي بعدة أعمال لتحسين أوضاع التجارة: إذ قام بإنشاء مشروع القناة الملاحية بين البحر الأحمر وميناء الإسكندرية وكلف الخبير الفرنسي المسيو موجيل mougel وهو مهندس فيزيائي، بعد حفره ترعة المحمودية أن يصلح مرفأ الإسكندرية؛ لجذب التجار الأجانب وبيع حاصلات البلاد، وبعد إصلاحه بني فيه دار لصناعة السفن^(٨٠). وكان لإصلاح ميناء الإسكندرية فضل في توسيع نطاق المواصلات البحرية بين مصر والبلدان

الأخرى، فنشطت التجارة الخارجية نشاطاً كبيراً، كما فكر محمد علي في إعادة طريق التجارة بين الهند وأوروبا عن طريق مصر بعد أن تعطلت زمناً طويلاً لاكتشاف رأس الرجاء الصالح^(٨١).

وأصلح محمد علي مرفأ بولاق، وسمح للأجانب الاتجار فيه وأنشأ مجلساً تجارياً من الوطنيين والأجانب للحكم في القضايا التجارية. وكان له في بولاق وكالات لخزن الأقطان والسكر والكتان والحناء التي ترد من الأرياف، وعليها وكلاء لا يسلمون شيئاً منها إلا بإذنه^(٨٢).

أما عن سياسة محمد علي التجارية، فقد شكلت الأساليب الاحتكارية التي مارسها منذ البداية نمط التجارة الذي سار عليه طوال الجزء الأكبر من حكمه، إذ قامت سياسته على أساس حاجته للمال تحت إغراء مزايا الاحتكار. وذلك للإنفاق على المصالح الحكومية والإدارات ولشراء الأسلحة، ومن ثم اتجهت سياسته إلى منع ورود المنتجات الأجنبية التي تنافس الصناعة المحلية^(٨٣).

وقد ألزمت سياسة الاحتكار هذه الفلاح بتوريد محصوله إلى مخازن الحكومة التي تحدد أسعارها، كما أن المنتجات

الصناعية كانت ملكاً للحكومة أيضاً بالأسعار التي تحددها، ومن ثم توزع هذه المنتجات في مخازنها حين التصرف بها^(٨٤)، ونتيجة لهذه السياسة تدفق الغلال على صوامع الحكومة، وأدرك محمد علي أنه بإمكانه بيعها بأسعار مرتفعة في الأسواق.

أدى احتكار التجارة الداخلية إلى احتكار التجارة الخارجية، فكان محمد علي هو البائع الوحيد والمشتري الوحيد، وقد عبر عن سياسته هذه بقوله: "استوليت على كل شيء ولكن بهدف أن أجعل لا شيء منتجاً"^(٨٥). وقد بلغت نسبة الصادرات الحكومية ٩٥٪ من مجموع صادرات سنة ١٨٣٦م، أما تجارة الواردات فقد كانت سيطرة الحكومة عليها أقل إذ بلغت ٤٠٪ ويرجع انخفاض نسبة احتكار الوارد لسببين هما^(٨٦):

١: صدور فرمان سنة ١٨٢٠م من قبل الباب العالي. وبموجبه تطبق المعاهدات الدولية مع تركيا والتي تنص على حق التجار الأجانب في بضائعهم وبيعها جميع أنحاء الممالك العثمانية مقابل دفع الرسوم الجمركية ومقدارها ٣٪.

٢. أن محمد علي كان لا يشجع الاستيراد من الخارج. وكان يعمل على تحقيق كل ما

من شأنه تحقيق الاكتفاء الذاتي، وعدم رغبته في الخضوع للدول الأجنبية. كما أنه كان يعتقد أن الدول الغنية هي التي تصدر أكثر مما تستورد. ومن البضائع التي كانت ترد لمصر حرير الموسلين^(٨٧)، والأقمشة القطنية من إنجلترا وكانت تباع بأسعار تكاد لا تغطي نفقات استيرادها العالية إضافة إلى الرسوم الجمركية التي فرضت عليها كانت عالية، كما استوردت مصر الأصواف والحرير والمنتجات الصناعية الفرنسية، ومن البضائع الإفريقية التي استوردتها مصر الصمغ، والبن واللؤلؤ والعاج. أما عن الصادرات فقد كان القطن أهمها بالإضافة إلى بعض الحبوب. ففي سنة ١٨١٧م كان يشحن القمح والأرز والبقول إلى مرسيليا، وكان يصدر القطن إلى أسواق أوروبا^(٨٨).

وتمت العمليات التجارية المصرية مع أوروبا غالباً عن طريق التجار الأوروبيين اللذين يشحنون بضائعهم من الإسكندرية إلى أوروبا، وكان المركز الرئيسي لتجارة محمد علي جزيرة مالطة، واتخذ له وكلاء في الموانئ الأوروبية الكبرى، سواء بالأسعار المحددة أو بالمزاد العلني أو بالبيع بالخارج، وكان من حقه وضع التسعيرة المحددة، وتحرير العقود التجارية مع

التجار^(٨٩). ففي حين انه لم يكن مسموحاً للتجار الأجانب بالشراء من داخل البلاد، بل كان عليهم الشراء من السوق الرئيسية للحكومة في الإسكندرية والقاهرة ورشيد وعندما ازدادت المعاملات التجارية مع الأجانب، انشأ محمد علي ديوان الأمور الإنفنجية والتجارة المصرية سنة ١٨٢٥م، وجعل اختصاصه في مبيعات منتجات الحكومة ومشترياتها^(٩٠).

أغدق محمد علي على التجار الأجانب العطايا الباهظة، حتى انه لم يتورع عن منح احد معارفه من التجار تعويضاً عن خسارته، إلا أن هذا لم يمنعه من محاسبة التجار المخالفون سواء المصدرون أو الموردون فكانت الحكومة تعاقبهم بإيقاف التعامل معهم وتمنع كذلك بقية التجار من التعامل معهم. وقد سلك محمد علي من أجل تحصيل الديون من التجار الممتنعين عن السداد طرق متنوعة مثل: الحبس، أو الجلد، أو التعذيب، مع إلزامهم بدفع المبالغ المقيدة عليهم، وحتى إذ اضطروا في سبيل ذلك إلى بيع ممتلكاتهم وأمتعتهم وملابسهم، ولا فرق في ذلك بين التجار الوطنيين أو الخاضعين للحماية الأجنبية^(٩١). واستمر هذا التقدم في التجارة إلى أن

عقدت معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨م التي أضرت بمشروع محمد علي الاقتصادي كاملاً كما ذكر سابقاً^(٩٢).

كانت إصلاحات محمد علي سواء في مجال الزراعة، أو الصناعة، أو التجارة، تحتاج إلى مبالغ كبيرة، لهذا كان لا بد له من اللجوء إلى طرق توفر له الفائض المالي اللازم، دون الاعتماد على أية دولة أوروبية، وكانت أفضل الطرق التي رآها هي: فرض الضرائب، والاحتكار.

طرق توفر الفائض المالي لدعم الإصلاحات

طرق توفر الفائض المالي لدعم الإصلاحات التي قام بها محمد علي على النحو الآتي:

أولاً: الضرائب

لم يكن للضرائب قاعدة أو نظام قبل أن يسمح محمد علي أراضي مصر سنة ١٨١٣م، بل كانت القاعدة انه كلما احتاجت الحكومة إلى المال فرضت أثاوة^(٩٣)، وعندما جاء محمد علي فرض نظام الضرائب الذي أصبح مصدر تدمير المزارعين، والحرفيين، والتجار، على حد سواء. ولقد قدرت ضريبة الأرض عندما تم مسح أراضي مصر سنة ١٨١٣م ما بين

عشرة وخمسة جنية مصرياً في السنة عن الفدان الواحد^(٩٤). ويبدو انه كانت تفرض على الفلاحين ضرائب فادحة، لا يسعهم أن يؤدوها في سنة واحدة من الأعوام العادية. وربما يعود هذا العجز في أداء الضريبة إلى افتقار الأراضي الزراعية للأيدي العاملة بسبب نظام التجنيد^(٩٥).

ويشير الجبرتي إلى أن زيادة الضرائب كانت مصدر شكوى الفلاحين وتذمرهم^(٩٦). كما أكدت بعض الدراسات الحديثة على أن مقدار الضريبة المفروضة على الفرد في مصر في ذلك الوقت كان ضعف ما كان يدفعه الفرد في إنجلترا وفرنسا برغم انخفاض الدخل في مصر بالنسبة إليهما^(٩٧). وكانت حجة محمد علي في زيادة قيمة الضرائب الإصلاحات التي قام بها والحروب التي استنفذت إيرادات الحكومة. فكان من نتائج هذه الزيادة تأخر الكثير من القرى عن سداد قيمة ضرائبها مما أدى إلى أن هجر الكثير من الفلاحين أراضيهم أو اللجوء إلى تضمين أراضيهم وقراهم بحيث يضمن الموسرين من الأهالي أراضي المعسرين، إلا أن هذه الوسيلة فشلت وكان لها نتائج سلبية كالظلم والحيث الذي لحق بالفلاحين، إضافة إلى

إفقار القرى الموسرة وإجبارها على دفع الضرائب أضعافاً مضاعفة^(٩٨).

ومن أبرز الضرائب التي فرضت في ذلك العصر ضريبة الميري التي كانت تفرض على الأراضي الخراجية التي وزعت على الأهالي للانتفاع بها سنة ١٨١٣م، وكانت قيمة الميري تختلف تبعاً لجودة الأرض وسهولة ريها^(٩٩). واستمر محمد علي حتى سنة ١٨٣٤م يفرض الخراج على الأراضي سواء أكانت مزروعة، أو بوراً، ما دام يصل إليها قدراً من الماء يكفي لزراعة جزءاً منها على الأقل، ولكنه عدل هذا النظام بحيث أصبح يفرض الخراج على الأرض التي يصل إليها الماء وتروي جميعها، ويبدو أن هذه الضريبة كانت باهظة حتى تعذر على الحكومة تحصيلها دون مشقة، مما أدى إلى تأخر الفلاح في تسليم محصوله، فصار في كثير من الأحيان مديناً للحكومة تحصيلها دون مشقة، مما أدى إلى تأخر الفلاح في تسليم محصوله فصار في كثير من الأحيان مديناً، مما أدى إلى إهمال زراعته، وأثر النزوح عن الأرض، فعالج محمد علي ذلك في سنة ١٨٣٣م إذ عمد إلى أهل كل قرية فاعتبرهم متضامنين في دفع الميري

المطلوب عنها، كما قرر أن تتضمن القرى في دفع جملة الخراج المطلوب منها^(١٠٠).

وفي بعض الأحيان عهد محمد علي إلى بعض الأعيان والمأمورين ورجال الجهادية بأن يكون في عهدهم جباية قرى بأجمعها على أن يتعهدوا بدفعها من مالهم الخاص إذا لم يجهوها^(١٠١)، ويبدو أن تراكم الضرائب على هذه القرى جعل محمد علي يلجأ إلى هذا النظام ولكن مع مرور الزمن صارت لأصحاب العهدة ملكيات كبيرة في القرى^(١٠٢).

وفي ذلك العهد عرفت ضريبة الفردية، وهي ضريبة شخصية كانت في بادئ الأمر خمسين قرشاً عن كل شخص، ولكنها ما لبثت أن خففت وصارت تتراوح ما بين ٢٠-٥٠ قرشاً بحسب ثروة الفرد، وعلى هذا الأساس كان يفرض مبلغاً معيناً على كل أسرة مع ترك الحرية لأعضائها لتوزيع المبلغ المطلوب بين أفرادها كل حسب قدرته^(١٠٣)، ويبدو أن هذا ساهم في إعفاء الفقراء منها. ومن الضرائب الأخرى التي فرضت في عهد محمد علي ضريبة النخيل، واختلفت قيمتها باختلاف مناطقها، ولثقلها أهملت زراعته في البلاد فقرّر محمد علي

إلغاء تلك الضريبة ولكنه عاد فقرّر جبايتها^(١٠٤).

ولا شك أن دراسة نظم الضرائب الزراعية لها أهميتها في استجلاء أركان النظم الزراعية، كما كانت الضرائب تمثل الجزء الأكبر من موارد الدولة، وتحتل جزءاً لا يُستهان به من مصروفات الفلاح، يبدو أن فساد النظم الإدارية، وسوء الجباية جعل الظلم يقع على صغار الملاك الزراعيين.

أما في المجال الصناعي والتجاري فقد زاد عبء الضرائب على السلع بازدياد الحاجة إلى الأموال لتمويل الحروب، ومشروعات الاستثمار الزراعي والصناعي، فقد كانت الضرائب غير المباشرة في ازدياد مما أدى إلى رفع أثمان السلع، غير أن بعض الملتزمين بجباية هذه الضرائب كانوا يبتزون الكثير لمصالحهم الشخصية^(١٠٥). وقد فرض محمد علي ضريبة على الصناع والتجار وغيرهم بنسبة نجاح عملهم وحجمه، وتفاوتت تلك الضرائب بين (٥-٥٠٠) قرشاً، ولم يستثن من دفعها إلا الأوروبيين الذين يقيمون في مصر^(١٠٦). وفي سنة ١٨٢٨م طلب تنظيم عملية تحصيل الضريبة عندما ظهرت بعض الشكاوي، وطلب محاسبة متولي تحصيل

الضريبة ومعاقبة من يظهر اختلاسه وتلاعبه، وأصبح الحرفيون يحصلون على وثائق تفيد تسديدهم للضرائب وفق التنظيمات الجديدة، إلا أنه كانت تحدث تجاوزات في جبايتها على الرغم من الرقابة الشديدة المفروضة عليها^(١٠٧). وكان يجري تقدير فرض الضرائب كل ثلاث سنوات مع ملاحظة العاقل والمستجد في الطائفة، فيخصم العاقل من المستجد ضرائباً، وإذا تبقى بعد ذلك عاقلون يتم توزيعهم على ذوي الثروة بالطائفة^(١٠٨).

وجبى محمد علي الضرائب من الراقصات، والموسيقيين، والحواة، والفراشين، والحلاقين، والخبازين، إذ أصبح من حق كل جماعة منهم أن تدفع مبلغاً معيناً للحكومة على أن تحتكر مزاولة المهنة، وفرض الضرائب على وكالات الصابون، وتجار الرقيق، والمأكولات المستهلكة في مدن الإسكندرية، ودمياط، ورشيد، وعلى الماشية المجلوبة إلى القاهرة والمرسلة إلى الإسكندرية، وربما هذه الضرائب التي لم تكن تتناسب مع ما تقتضيه أعمال الجباية من نفقات وجهود فقد قام بإلغائها سنة ١٨٣٧م^(١٠٩).

ثانياً: الاحتكار

يقوم هذا النظام الاحتكاري على تحديد أسعار المحاصيل والسلع التي يقوم محمد علي بشرائها من المزارعين والصناع، ثم يتولى بيعها للناس بالأسعار التي يراها، وقد حقق محمد علي من وراء هذه السياسة أرباحاً هائلة، فالمواد الأولية يتم شراؤها بأسعار زهيدة، في حين تباع بأسعار عالية، ولقد تحولت مخازن الحكومة في عهده إلى مستودعات ضخمة؛ لتجميع المحاصيل الزراعية وغيرها، وكانت الحكومة تستولي على هذه المحاصيل بحيث لا يبقى في يد الفلاح والتاجر سوى القليل، وكانت تحدد الأصناف المزروعة والكميات المطلوبة، وبعد ذلك تحدد أسعار المحاصيل الزراعية بعد أن يخصم من قيمتها أثمان البذور والأسمدة والضرائب. ويتسلم الفلاح بقيمتها صكوكاً يصرفها من منتجات المصانع الحكومية^(١١٠). وكانت تواجه عمليات التلاعب في الأسعار بمتتهى الحزم والشدة، وقد تقع عقوبة تصل إلى حد الإعدام للخارجين عن هذه الأسعار^(١١١).

تحمل الفلاح الكثير من المتاعب، فالدولة تشتري منهم محاصيلهم بأثمان بخسة، فضلاً على أنهم لا يأخذون أثمان سلعهم نقداً، بل كانوا مجبرين على أن

يبادلوا بها مصنوعات الحكومة ترويحاً لها. إضافة إلى أن محمد علي أهتم بالغلات الصيفية وخاصة القطن بسبب عوائده الضخمة التي تساعد في تنفيذ مشروعاته، واتبع أسلوب الإكراه في زراعته نظراً لتردد الفلاحين في ذلك. وربما يعود هذا التردد إلى شرائه هذا المحصول منهم بثمن زهيد رغم تكاليفه الباهظة، ومشقة زراعته، وقد أُنقِدت هذه السياسة، لأن محمد علي لا يدفع ما يرضي الفلاح من جهة، ولعجز الفلاح عن درء الابتزاز والاختلاس عن نفسه من قبل جباة الضرائب وعمال الحكومة^(١١٢).

سرى الاحتكار من الزراعة إلى الصناعة إذ تولى محمد علي تجهيز الصانع بالمواد الأولية واشترى إنتاجهم بأسعار محددة^(١١٣)، وقد عمل هذا النظام على إغلاق الورش المنزلية التي كانت تنتج الأقمشة وسائر المنسوجات^(١١٤)، أغلب الظن أنه كان ينظر إلى الصناعات الصغيرة نظرة خاطئة، ولم يأسف لما لحق بها من ضرر وتدهور، لأن اضمحلالها يفسح المجال لتصريف منتجات المصانع الحكومية، كما اضطر أرباب الصناعات الصغيرة، لتركها كان يزيد العرض من العمال القادرين على

العمل في المصانع الحكومية من جهة أخرى^(١١٥).

وقد حرص محمد علي على محاربة الإنتاج البراني، وذلك عمل على جمع الصانع في مكان واحد، واحكم الرقابة عليهم، وكان يختم المنتجات بختم الحكومة، ثم يتم بيعه للتجار والمستهلكين، ويتولى الإشراف على الأسواق موظفون يكلفون بمصادرة المنتجات غير المختومة^(١١٦). كان لهذا النظام نتائج إيجابية، إذ ضُيِّع على التجار الأجانب والأوروبيين فرصة التلاعب بالأسعار في خداع المنتجين المصريين، والحصول على المنتجات بأقل الأسعار، الأمر الذي كان مثيراً للشكوى من البيوت المالية والتجارية الأجنبية وبعض الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا^(١١٧). إلا إن هذا النظام من جهة ثانية كان له أثاره السلبية؛ فقد أدى إلى ارتفاع أسعار الحاجيات والمواد الغذائية، فعانى الفقراء على وجه الخصوص من جرائه، وعندما ساءت حالة الفلاح قرر محمد علي سنة ١٨١٣م أن يترك له اختيار المزروعات التي يريدتها كما ترك له الحبوب الأربعة^(١١٨)، التي يعتمد عليها في غذائه ومعاشه، ومنع الاتجار بها مع الخارج^(١١٩).

كما عمل هذا النظام على قتل الحافز لدى الفلاح الذي رأى بأنه لا يلقي جزاء على جهده، فكثيراً ما كانت الحكومة مدينة له دون أن يدخل جيب فلس واحد^(١٢٠)، وأدت هذه السياسة إلى تزايد ظاهرة هروب الفلاحين رغم محاولات محمد علي المتكررة للحد منها^(١٢١). وبذلك يتضح أن عملية الاحتكار لم تكن ظاهرة اقتصادية فحسب، بل كانت ذات طابع اجتماعي أيضاً.

وكما كان لنظام الاحتكار مساوئ جسيمة على الزراعة، فكان له أيضاً مساوئ على الصناعة والتجارة، فقد أدى الاحتكار إلى تقييد حرية الصناع الصغار وأثقل كاهلهم بمختلف الضرائب، وحرّمهم من أرباحهم مما أضعف رغبتهم في الإنتاج وعمل بعضهم على ترك العمل، كما أدى إلى اضمحلال بعض الصناعات الصغيرة^(١٢٢)، وعلى ما يبدو أن محمد علي لم يكتثر كثيراً لذلك، لأنه كان بحاجة إلى هؤلاء كعمال في مصانعه الكبيرة.

أما بالنسبة للتجارة فإن احتكار تجارة الصادرات أدى إلى إفلاس التاجر، إذ أن الحكومة استولت على السلع التجارية بأثمان حددتها سابقاً، ثم أعادت بيعها بأسعار عالية. وقد أصرت روسيا والنمسا

على إلغاء نظام الاحتكار، وطالبوا بتعديل الرسوم الجمركية على الصادر والوارد، ورفع الضرر الذي لحق بالتجار الأجانب من جراء هذا النظام، فاضطر محمد علي إلى تخفيف وطأة الاحتكار فأطلق تجارة السوائل والجلود والقطن سنة ١٨٤٢م، كما أن المجلثرا أخذت تطالب بإطلاق تجارة الصمغ والمنتجات الأخرى، وفي سنة ١٨٤٨م اصدر الباب فرماناً لمحمد علي أمراً بإلغاء تجارة الصمغ إلا أن محمد علي لم يتقيد لتلك الأوامر^(١٢٣).

الخاتمة:

وأخيراً: فقط عرض البحث أهم إصلاحات محمد علي الاقتصادية في مصر خلال فترة حكمه ١٨٠٥-١٨٤٨م على النحو التالي:

- في عهد محمد علي كان بدء عصر الزراعة الكثيفة بدل الزراعة الواسعة، نتيجة لإدخال نظام الري، حيث أصبحت الأرض تزرع أكثر من مرة في السنة ولكثر من محصول. مما أدى إلى نهضة الاقتصاد، فكان من أهم نتائج الاهتمام بدايةً بالزراعة أن خلقت الصناعة الحديثة في مصر، على عكس أوروبا حيث كانت التجارة الخارجية هي التي خلقت الصناعة الحديثة. ولكن

محمد علي فيما بعد وجه كل موارد مصر إلى الصناعة أكثر من الزراعة، ولو كان حافظ على الاهتمام بالزراعة لكان العائد على مصر أفضل؛ لأنها في الأساس دولة زراعية أكثر منها دولة صناعية.

• أن محمد علي لم يكن له فكر اقتصادي معين، إنما كان لديه هدف معين يريد تحقيقه، هذا الهدف هو الذي جعله يدين بفكر اقتصادي معين دون غيره، مكنه من تحقيق الاستقلال السياسي لدولته والذي آمن أنه لا يتحقق إلا بضمان الاستقلال الاقتصادي. لذا عمل محمد علي إلى تحويل الاقتصاد من اقتصاد اكتفاء ذاتي إلى تصدير، ومن السوق الداخلية إلى السوق الخارجية العالمية، واستطاع أن يرسى قواعد صناعة كبرى لأول مرة في مصر فادخل نظام المصنع بمفهومه الحديث، كما استخدم الآلات الحديثة والمتطورة. وقد حقق محمد علي ما حقق من تطور اقتصادي دون أن يحمل مصر دينا لدولة أجنبية، ولم يسمح لأي رأسمال أجنبي بالدخول للبلاد وهذا كان من أكبر العوامل في إنجاح مشروعة الاقتصادي، وهو العامل ذاته الذي ادخل الاستعمار فيما بعد في إلى مصر.

• على الرغم من أن التجارة كانت عنصراً هاماً في مصر إلا أن هذه الأهمية جاءت من خلال دور الممر التجاري والوسيط، وفرض الضرائب والرسوم الجمركية على البضائع المستورة من الدول الأوروبية. ولم يكن من خلال دور التاجر نفسه، فلم يكن تاجر أو تجارة، بل حاكم اقتنع بان إنعاش الخزانة المصرية؛ يكون بفرض الضرائب على البضائع. وتطبيق نظام الاحتكار الذي اعتبر حجر الزاوية في قوة محمد علي الاقتصادية، والذي نجح على التجارة الداخلية، إلا أنه في مجال التجارة الخارجية كان السبب في سعي الدول الأوروبية خاصة بريطانيا في القضاء على مشروع محمد علي عندما عقدت معاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨م التي قضت على هذا النظام.

• نلاحظ في مشروع محمد علي الإصلاحات اهتمامه فقط بالناحية الاقتصادية في الدولة، دون الاهتمام بالتنمية الاجتماعية، في الوقت الذي كان يسود البلاد حالة من التخلف والتقهقر، واغفل دور التكامل في كافة جوانب الحياة للحفاظ على التطور والازدهار في الدولة.

الهوامش:

(٥) شكري، محمد فؤاد: بناء دولة مصر، محمد علي والسياسة الداخلية (د.م)، دار الفكر (د.ت)، ص ٣٦.

(٦) دودين، هنري، محمد علي مؤسس مصر الحديثة، تعريب: أحمد محمد عبدالحق وآخرون (د.ت)، ص ٢٣٦.

(٧) Patrick Obrien: the revolution In egypt's economic system: (London, oxford university, 1966., p.39) السكندري، عمر وآخرون: صفحات من تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م)، ص ١٤٥. شفيق، منير تجربة محمد علي الكبير (بيروت، دار الفلاح، ١٩٩٧م)، ص ١٥.

(٨) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣ ص ٣١٦.
(٩) زكي، عبدالرحمن، مذكرات في التطور الاقتصادي، الإسكندرية، دار الجامعات، (د.ت)، ص ١٥٩.

(١٠) شيكة، مكي، تاريخ شعوب وادي النيل، مصر والسودان في القرن التاسع عشر، بيروت، دار الثقافة، (د.ت)، ص ١٣٤.

(١١) الفدان هو مقياس المساحة المصري والذي يساوي ٤٢٠٠، ٨٣٣ متر مكعب انظر: هنتس، فالتر: المكييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية ١٩٧٠م، ص ٩٨.

(١) تشير المصادر إلى أن محمد علي ولد في سنة ١٧٦٩م من سلالة البانية في بلدة قولة إحدى الموانئ الصغيرة على الحدود بين تراقية ومقدونيا، كان قائداً ضمن الحملة التركية التي بعثها السلطان العثماني لمحاربة الفرنسيين اثر غزوهم لمصر سنة ١٧٨٩م وفي مصر بذكائه السياسي اخذ يتقرب ويتودد إلى زعماء الشعب المصري مستغلا عدم رضاهم عن الفوضى السائدة في عهد خورشيد باشا فقرر الشعب المصري خلع خورشيد باشا وتنصيب محمد علي، والتمس الشعب المصري من السلطان العثماني إقراره هذا فكان له ما أراد فاصدر السلطان فرماناً في ٩ يوليو ١٨٠٥م بتنصيب محمد علي والياً على مصر. لمزيد من المعلومات انظر: جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، ج ٢، مصر، مطبعة المقتطف، ١٨٨٩م، ص ٢١٨-٢٢١.

(٢) القاسم، نوال، تطور الصناعة المصرية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٧م، ص ٧.
(٣) همدان، جمال، شخصية مصر الاقتصادية، دراسة في عبقرية المكان، ج ٣، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٤، ص ١٩-٢٠.

(٤) الجبرتي، عبدالرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت) ج ٣، ص ٣١٦.

- (١٢) محروس، حلمي، تاريخ العرب من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧م ص ١١٤.
- (١٣) دودوين، محمد علي، ص ٢٣٦. محمد شكري، بناء دولة مصر، ص ٣١١.
- (١٤) أحمد، أحمد الحنة، تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م ص ٣٦.
- (١٥) الدوري، عبدالعزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩، ص ١١٧.
- p. j. vatikiotis: the history of Egypt from muham, ad ali to sadat, London, butler & tanner ltd. 1980, p.55.
- (١٦) زكي، عبدالرحمن، مذكرات في التطور، ص ١٦٠.
- (١٧) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٢٩.
- (١٨) الجبرتي، عجائب الآثار ج ٣، ص ٣٣٧.
- (١٩) الحنة، أحمد أحمد، تاريخ الزراعة، ص ٦٧.
- (٢٠) عبدالعزيز، عمر، دراسات، ص ١٩٥.
- (٢١) عبدالرحمن، عبدالرحيم، الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٦، ص ١٩٢.
- Patrick obrien: the revolution in egypt, p.37
- (٢٢) ريفلين، هيلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٢٢٩.
- (٢٣) زكي، عبدالرحيم، مذكرات في التطور، ص ١٥٥. مقار، نسيم: الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان، الهيئة المصرية السنة، ١٩٨٥، ص ٦٨.
- (٢٤) محمد، إسماعيل، محاضرات في التطور الاقتصادي، بيروت، دار النهضة، ١٩٨٧م، ص ١٨٦.
- (٢٥) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٤٣١. سامي، أمين، تقويم النيل، ج ٢، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٨م، ص ٢٦١.
- (٢٦) ريفلين، هيلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٣٢٤. شافعي بك، علي، أعمال المنافع الكبرى في عهد محمد علي الكبير، مصر دار المعارف، ١٩٩٥م، ص ٢٣.
- (٢٧) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٣٩.
- (٢٨) الرافعي، عبدالرحمن، عصر محمد علي، ج ٤، القاهرة، مكتبة الفكرة، ١٩٥١، ط ٣، ص ٦٥٨.
- (٢٩) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٣٧.
- (٣٠) محمد، إسماعيل، محاضرات في التطور، ص ١٨٨.
- (٣١) وهو مهندس فرنسي كان مستكشفاً في مصر وكبير مهندسي الأشغال العامة المصرية ١٨٣٨-١٩٦٩م وهو أيضاً كبير مهندسي قناة السويس.
- (٣٢) ريفلين، هيلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٣٢٧.
- (٣٣) شافعي، علي، أعمال المنافع، ص ١١٢.

- (٣٤) حمدان، جمال، شخصية مصر، ص ٢١.
- (٣٥) دودوين، محمد علي، ص ٢٤٤.
- (٣٦) شببكة، مكى، تاريخ وادي النيل، ص ٣٦٤. صبحي، نهدي، محمد علي والدولة العثمانية ١٨١١-١٨٢٧، (د.م)، دار الرشاد، ١٩٩٥، ص ٤٦.
- (٣٧) ريفلين، هيلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٢١٢.
- (٣٨) الإسكندري، عمر، صفحات من تاريخ مصر، ص ١٨٤.
- (٣٩) ريفلين، هيلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٢٢١.
- (٤٠) المرجع نفسه، ص ٢٤٥.
- (٤١) الرفاعي، عبدالرحمن، عصر محمد علي، ص ٤٩٥.
- (٤٢) غبور، منير؛ عثمان، أحمد، محمد علي باشا (عودة الذاكرة المصرية) القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠١١، ص ١٣١.
- (٤٣) القاسم، نوال، تطور الصناعة، ص ٢٩-٣١.
- (٤٤) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٤٠٩.
- (٤٥) عبدالحليم، عبدالسلام، الرأسمالية الصناعية ودورها في مصر في مرحلة المشروعات الحرة، ١٩١٦-١٩٥٧ م (د.م) الهيئة المصرية، ١٩٩٢، ص ١٣.
- (٤٦) الجرتلي، علي، تاريخ الصناعة في مصر، مصر، دار المعارف، ١٩٥٢، ص ٩٥.
- (٤٧) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٨٣.
- رشدي، محمد، التطور الاقتصادي، ص ٦١.
- (٤٨) محروس، حلمي، تاريخ العرب، ص ١٥٤.
- (٤٩) عبدالحليم، عبد السلام، طوائف الحرف في مصر من ١٨٠٥-١٩١٤ م، (د.م)، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣، ص ٦٩.
- (٥٠) هريدي، صلاح أحمد، الحرف والصناعات في عهد محمد علي، مصر، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية، ٢٠٠٣ م، ص ٢٠٣.
- (٥١) ريفلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٢١٥.
- (٥٢) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٤٨.
- محروس، حلمي، تاريخ العرب، ص ١٤١.
- (٥٣) لطفي، علي، التطور الاقتصادي في مصر، (د.ت)، ص ٢٧٣.
- (٥٤) الجرتلي، علي، تاريخ الصناعة، ص ٣٦.
- (٥٥) طوسون، عمر، صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠ م، ص ١٢٩، Patrick obrien: the revolution in egypt p:37
- (٥٦) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٨٠.
- (٥٧) سامي، أمين، تقويم النيل، ص ٢٧٦.
- (٥٨) الجرتلي، تاريخ الصناعة، ص ١١٢.
- (٥٩) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٤٠٩.
- (٦٠) هريدي، صلاح أحمد، الحرف والصناعات، ص ١١٣.
- (٦١) المرجع نفسه، ص ١٩٨.
- (٦٢) محمد، إسماعيل، محاضرات في التطور، ص ١٩٣.
- (٦٣) القاسم، نوال، تطور الصناعة، ص ٦٢.

- (٦٤) الجرتلي، تاريخ الصناعة، ص ٨٥.
- (٦٥) هريدي، صلاح أحمد، الحرف والصناعات، ص ٢٠٢.
- (٦٦) الرافي، عبدالرحمن، عصر محمد علي، ص ٦٣٢.
- (٦٧) الجرتلي: تاريخ الصناعة، ص ١٢١.
- (٦٨) زكي، عبد الرحمن، مذكرات في التطور الاقتصادي، ص ١٦٩.
- (٦٩) حمدان، جمال، شخصية مصر الاقتصادية، ص ٢٣.
- (٧٠) القاسم، نوال، تطور الصناعة، ص ٧١-٧٢.
- (٧١) لطفي، علي، التطور الاقتصادي، ص ٢٧٤.
- (٧٢) حمدان، جمال، شخصية مصر، ص ٢٤.
- القاسم، نوال، تطور الصناعة، ص ٧٣.
- (٧٣) ريفلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٢٨٨.
- K.m. barbour: the growth, location, (٧٤) P.37.
- (٧٥) لطفي، علي، التطور الاقتصادي، ص ٢٧٤.
- (٧٦) لمزيد من المعلومات عن الفرمان، انظر: الرافي، عبدالرحمن: عصر محمد علي، ص ٣١٤-٣١٨؛ القاسم، نوال: تطور الصناعة، ص ٧٦.
- (٧٧) لمزيد من المعلومات عن معاهدة لندرة، انظر: الرافي، عبدالرحمن، عصر محمد علي، ص ٣١٢.
- (٧٨) ريفلين، الاقتصاد والإدارة، ص ٢٥.
- لطفي، علي، التطور الاقتصادي، ص ٢٧٥.
- (٧٩) فارجيت، جي، محمد علي، ص ١٢٣.
- (٨٠) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٧٠.
- (٨١) الرافي، عصر محمد علي، ص ٦٠٣.
- (٨٢) زيدان، تاريخ مصر، ص ١٨٣.
- p.j. vatikiotis: the history of Egypt, (٨٣) p.61. Patrick obrien: the revolution in egypt p: 40.
- (٨٤) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٤٨.
- (٨٥) الدوري، مقدمة في التاريخ، ص ١٣٢.
- (٨٦) القاسم، نوال، تطور الصناعة، ص ٢٠.
- (٨٧) وهو قماش قطني ناعم الملمس يكون عادة لونه فضي يدخل في صناعته الحرير وخيوط الذهب وقد وصل إلى أوروبا من الشرق ويقال أن الاسم مشتق من الموصل، انظر الموسوعة المعرفية الشاملة.
- (٨٨) محروس حلمي، تاريخ العرب، ص ١٥٨.
- (٨٩) القاسم، نوال، تطور الصناعة، ص ٢١.
- (٩٠) محمد، إسماعيل، محاضرات في التطور الاقتصادي، ص ٢٠١.
- (٩١) محروس، حلمي تاريخ العرب، ص ١٥٥.
- (٩٢) انظر: ص ١٥ من البحث.
- (٩٣) الرافي، عصر محمد علي، ص ٦٢٧.
- (٩٤) محروس، حلمي، تاريخ العرب، ص ١٣٤.
- Patrick obrien: the revolution in egypt, p. 38.
- (95) p.j.vatikiotis: the history of Egypt: p.56.
- (٩٦) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٢٢.

- (٩٧) إسماعيل، محمد، محاضرات في التطور، ص ١٩٤.
- (٩٨) الرافعي، عبد الرحمن، عصر محمد علي، ص ٥٣٣.
- (٩٩) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٢٢.
- (١٠٠) شكري، محمد بناء دولة مصر، ص ٧١.
- دودوين، محمد علي، ص ٢٤٥.
- (١٠١) دودوين، المرجع نفسه، ص ٢٤٥.
- (١٠٢) الدوري، مقدمة في علم الاقتصاد، ص ١١٨.
- (١٠٣) دودوين، محمد علي، ص ٢٨٦.
- (١٠٤) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٧٣.
- (١٠٥) الجبرتي، تاريخ الصناعة، ص ٩٩.
- (١٠٦) عبدالحليم، عبدالسلام، طوائف الحرف، ص ١٧٠.
- (١٠٧) المرجع نفسه، ص ١٧٩.
- (١٠٨) المرجع نفسه، ص ١٨٦.
- (١٠٩) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٧٥.
- (١١٠) Patrick obrien: the revolution in egypt p: 39
- (١١١) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٨٦، ٣٨٧. شلبي، حلمي، المجتمع الريفي في عصر محمد علي، (د.م)، الهيئة المصرية، ١٩٩٢، ص ٨٦.
- (١١٢) محمد، إسماعيل، محاضرات في التطور الاقتصادي، ص ١٨٨، Patrick obrien: the revolution in egypt, p. 41.
- (١١٣) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص ١٣٢.
- (١١٤) عبدالحليم، عبدالسلام، طوائف الحرف، ص ٩٢.
- (١١٥) المرجع نفسه، ص ٦٨.
- (١١٦) عبدالحليم، عبدالسلام، طوائف الحرف، ص ٦٨. الجبرتي، تاريخ الصناعة، ص ٦٨.
- (١١٧) محروس، حلمي، تاريخ العرب، ص ١٣٣.
- (١١٨) وهي الخنطة والشعر والذرة والفول.
- (١١٩) رشدي، محمد، التطور الاقتصادي، ص ٩٢. شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٥١.
- (١٢٠) الرافعي، عصر محمد علي، ص ٦٣١.
- شبيكة، مكّي، تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٤٣.
- (١٢١) شلبي، حلمي، المجتمع الريفي، ص ٨٣.
- (١٢٢) القاسم، نوال، تطور الصناعة، ص ٢٥.
- (١٢٣) شكري، محمد، بناء دولة مصر، ص ٦٠.

المعايير النقدية والبلاغية في ضوء أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)

د. يوسف عواد سالم القماز *

تاريخ قبول البحث: ٢٦/١٢/٢٠١٨م

تاريخ وصول البحث: ٢٥/٧/٢٠١٨م

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة استنطاق ما ورد عن النبي ﷺ من أحاديث لها تعلق في جانب إثراء الملاحظات النقدية والبلاغية في الأجناس النثرية في بدايات أطوارها في عصر صدر الإسلام، وملاحظة جوهر التغيير في النظرة إلى النقد والبلاغة، ومدى البون بين السابق الجاهلي واللاحق الإسلامي، وأين تكمن وجوه الشبه من جهة والمفارقة من جهة أخرى.

لقد اتضح في ضوء هذا البحث أن أثرا عظيما إيجابيا قد أحدثه حديث الرسول ﷺ في هذا الجانب المذكور، ويتمثل في وضع معايير نقدية بلاغية لها تعلق بشمولية التصور للكون والحياة، وتوسيع مجال الفكر والنظر خاصة فيما يتعلق بما وراء الكون والطبيعة، وتصويب النظر والاعتقاد بما يتلاءم مع رسالة السلام الإسلامية العالمية الخالدة، وتصويب العلاقات الفاعلة بين الإنسان وخالقه، ثم بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والموجودات الحية من حيوان ونبات، وبين الإنسان والجمادات، حيث تم استلهم كل هذه القضايا وإدراجها في ضوء مضامين الإبداعات الشعرية والنثرية وفنون القول المتوفرة آنذاك وتشكيلاتها التعبيرية.

Critical and Rhetorical Standards in Light of the Prophet's Tradition Abstract

This study aims to examine the Prophet's tradition (peace be upon him) which might have enhanced critical and rhetorical remarks about different genres of prose in the early Islamic age, as well as to notice the essence of change in criticism and rhetoric observations and the gap between the pre-Islamic and the Islamic eras in terms of similarities and differences.

The study states that the Hadith has introduced a significant and positive role in setting critical and rhetoric standards for a comprehensive vision regarding life, universe and the metaphysical in particular.

* أستاذ مشارك، جامعة مؤتة.

The prophetic tradition also contributed in correcting the views and beliefs in a way that fits the universal and eternal message of Islam maintaining the active relationship between man and the Almighty Creator and correcting the interhuman relationships and similarly the relationship between man and the surrounding creatures whether animate or inanimate.

All these issues have been inspired and considered in light of the implications of the poetry and prose arts and their expressive representations available at the Prophet's life (Peace be upon him).

Keywords: Hadith of the Prophet peace be upon hi, criticism standards, Rhetorical standards, Islamic era.

المقدمة:

زيد ابن ابيه صاحب الخطبة البتراء، الذي قال في وصفه الشعبي: "ما سمعت متكلماً على منبر قط، تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً؛ فإنه كلما أكثر، كان أجود كلاماً"^(١)، والحجاج بن يوسف الثقفي الذي يقول فيه مالك بن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق؛ لبيانه وحسن تخلصه بالحجج"^(٢)، ثم نجد صداها يمتد عبر القرون إلى يومنا هذا.

أما فيما يتعلق بالمقاييس الفكرية والمعايير النقدية في إطارها الفلسفي العام، فإننا نجد أطروحاته عليه السلام تتكرر من خلال أطر شكلية وقوالب لفظية في الفكر النقدي العربي

تردد صدى أثر الأحاديث النبوية الشريفة إيجابياً في أشعار الشعراء، وكذلك في المقولات الثرية، خاصة الجانب الخطابي في عصره عليه السلام، والعصور التالية لعصره؛ حيث نجد انعكاسات التصورات الجديدة المنبثقة عن أحاديثه واضحة جلية في أشعار: حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وغيرهم ممن عاصر المصطفى عليه السلام كما تردد صداها عند الخطباء في عصره، ومن جاء بعده من أمثال الصحابة: الخلفاء الأربعة عليهم السلام، فقد كانوا خطباء مفوهين يستضيئون في خطاباتهم بخطابته عليه السلام، وبآي الذكر الحكيم، ثم الكثير من خطباء بني أمية أمثال: سحبان وائل صاحب الخطبة الشهوانية، وولاتهم من أمثال

والغربي على حد سواء، تبرز وتتضح عندما يتقدم الإنسان من معنى الإنسانية خاصة في الفلسفة الواقعية التي تهتم بجوانب المضمون بالإضافة إلى شكلية التعبير، وتضعف ويصيبها الاضمحلال كلما هبت رياح البعد عن معنى الإنسانية عند الإنسان، وهو ما نلمسه جليا عند بعض المدارس النقدية الحديثة التي تعتمد على فهم جمال العمل الإبداعي بغض النظر عن مضمونه خاصة عند الفلسفة المثالية وجماليات الشكلين.

لقد كان مجيء الإسلام حدثاً عالمياً أجرى تغييرات هائلة في النظرة إلى الحياة والكون والإنسان، بل شملت جذوة التغيير كل مظاهر المجتمع العربي القديم في جوانبها المتعددة في النظرة إلى الكون وعلاقة الإنسان بالموجودات الكونية الحية والجامدة وتعدى إلى نظرة الإنسان إلى ما وراء الطبيعة من العوالم العلوية. ويمكنني القول إن شمولية التغيير تلك التي أحدثها الإسلام تحمل في طياتها بذور الأصالة للنقد والبلاغة العربية في طورها الإسلامي؛ إذ لا يعقل أن نجد التغيير الشامل في المفاهيم للكون والحياة ولا يكون لهذا التغيير بصمات واضحة وجليّة في جانب الأدب باعتباره انعكاساً حقيقياً للمجتمع الذي ينشأ فيه.

إن بذل الجهود في محاولة قراءة البدايات الحقيقية للنقد على أسس موضوعية، مدعاة لبيان مقدار الأصالة فيه وقطعا للطرق على أولئك الذين يزعمون بأن النقد العربي منذ بداياته نقد تشويه وتطغى عليه مستوردات من الأمم الأخرى كالإيونانية والرومانية، واستبعادا إلى حد ما للذاتية في النقد، وقضاء على كل دعي في مجال النقد والبلاغة.

وحتى يتضح مقدار التغيير، يجدر أن نلقي الضوء بعجالة غير مخلّة على مزايا الإبداعات الأدبية في العصر الذي سبق نزول الرسالة لنجد قوة التعبير وسلامة العبارة وجودة السبك وجزالة الألفاظ، بالإضافة إلى ضحالة التصورات وضيق في المعاني وتفككها، وطغيان الصنعة عند بعضهم - كما هو الحال عند مدرسة أوس ابن حجر في الشعر - وانطلاقها من عقل التصنع عند آخرين.

أما فيما يميز النظرات البلاغية والنقدية، فنجد أن سماتها العامة تتمثل في النظرة الجزئية للعمل الأدبي حيث يدور في جانب الشعر على نقد البيت الواحد من الشعر أو جزء منه كنقدهم للنابغة بقولهم: أقوى أقويت^(٣)، أو جملة منه كقولهم: استنوق الجمل^(٤)، ثم الأحكام غير المعللة في كثير من

الأحيان، كإطلاق اسم البتارة على قصيدة حسان:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل

بين الجوابي فالبضيع فحومل^(٥)

والمعللة أحيانا أخرى كقول النابغة لحسان: أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك^(٦)، والاعتماد على الإحساس والذوق الفطري، ناهيك عن التعميم في إصدار الأحكام كقول قريش في بعض قصائد علقمة بن عبدة الفحل الميمية والبائية: هاتان سمطا الدهر^(٧)، وأقوال للنابغة في حق بعض الشعراء: إنك لشاعر، أنت أشعر الناس...^(٨)، واستخدام عبارات موجزة معبرة قابلة للتوسع عند التحليل تستخدم التصورات ذات العلاقة بالبيئة الجاهلية عند الحكم، وخير ما يمثل ذلك ما أورده كتب الأدب من قصة اجتماع مجموعة من شعراء تميم قبل الإسلام هم: الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهمتم وعبدة بن الطيب والمخبل السعدي، وطلبهم من ربيعة بن حذار الأسدي الحكم في أيهم أشعر حيث قال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن، لا هو أنضج فأكل، ولا ترك نيتاً فينتفع منه، وأما أنت ياعمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألا فيها البصر، فكلما أعيد فيه النظر نقص

البصر، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر^(٩) وربما تقدم النقد باستخدام المفاضلة بين شاعرين في موضوع واحد مع التركيز على جانب من جوانب النقد كرسم الصورة الفنية حيث نجد ذلك عند أم جندب في حكمها على رسم صورة الخيل بين زوجها امرئ القيس في قصيدته البائية التي مطلعها:

خليلي مرا بي على أم جندب

لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

حيث يقول:

فللسوط ألحوب وللساق درة

وللزجر منه وقع أهوج منعب

وعلقمة الفحل في بائيته التي مطلعها:

ذهبت من الهجران في كل مذهب

ولم يك حقا كل هذا التجنب

حيث يقول:

فأدر كهن ثانيا من عنانه

يمر كمر الرائح المتحلب

فقد رصدت أم جندب درجة التغاير في

رسم صورة الفرسين؛ الفرس المجهد المتعب

المجنون بسبب الضرب والزجر، وهي صورة

توحي بعدم الأصالة في الموصوف، والفرس المدرك للطريدة بسهولة ويسر وهو ثان من عنانه الموحية بأصالة الخيل العرب^(١٠). والسمة الأكثر شيوعاً في نقدهم تتمثل في التركيز على نقد المعاني بعبارات موجزة كما في نقدهم للغلو عند المهلهل وامرئ القيس وذلك في قول الأول:

فلولا الريح أسمع من بججر
صليل البيض تقرر بالذكور
وقول الثاني:

تنورتها من أذرعات وبيتها
بيثرب أدنى دارها نظر عالي^(١١)
وربما دخلت العصبية القبلية، والموالة طرفاً في النقد، حيث يظهر ذلك من خلال تفضيل عمرو بن الحارث الغساني حسان بن ثابت على النابغة، وعلقمة بن عبدة، علماً أن ما أنشده أمامه من قصيد يعد أفضل مما أنشده حسان؛ فقد أنشد علقمة قصيدته التي أقرت قریش بأنها سمط الدهر، وهي التي مطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب
وأنشد النابغة قصيدته:

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب
التي تعد من عيون الشعر الجاهلي في الاعتذار، وعلى الرغم من ذلك يفضل الحارث قصيدة حسان:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابي فالبضيع فحومل
ويسمها بالبتارة^(١٢) مع أنها قد تكون ليست أكثر جودة مما سبق، والأمر يعود إلى أن حسان قد قصر معظم شعره على ملوك آل جفنة من الغساسنة.

أما النابغة فكانت جل أشعاره في المناذرة أعداء الغساسنة التقليديين. فالتميز هنا يعود إلى التعصب لا إلى الجودة الشعرية. وربما دخل في النقد بعض الاعتبارات العرفية وعادات الجاهلية مثل قول طرفة نقداً لبیت المسيب بن علس:

وقد أتأسى لهم عند احتضاره
بناج عليه الصيعرية مكرم
استنوق الجمل؛ لأن الصيعرية تعلق في عنق الناقة وليس الناجي (الجمل)^(١٣)
فهذا النوع من النقد دلالة عرفية.

وخلاصة القول: إن النقد في هذه المرحلة - كما يرى أحمد أمين - لم يكن مبنيًا على قواعد فنية، ولا على ذوق منظم ناضج،

إنما هو لمحة الخاطر والبديهة الحاضرة^(١٤) وهو ما يقارب رأي عبد العزيز عتيق في قوله: "وإذا تذكرنا أن النقد الذي تمخضت عنه قرائح النقد في هذا العصر إنما يمثل نشأة النقد العربي ومراحله، فإنه يكون من التجني أن نتوقع منهم أن يحللوا ويعللوا وأن يخوضوا في قضايا النقد الأخرى^(١٥). ويخلص محمد حسن عبدالله إلى القول بأن النقد الجاهلي "عملي تطبيقي غالبا، يهتم بالجزئيات حين يرصد الأخطاء، ويعمم الأحكام حين يحكم بالتفوق أو الحسن، وهو نقد ذوقي يعتمد على التجربة الخاصة أو الدراية دون أن يعتمد إلى التحليل أو التعليل، وهو قليل من الناحية الكمية، ومن الصعب أو الافتعال التحدث عن اتجاهات أو أسس عامة فيه، فلم يكن الناقد المختص قد وجد بعد^(١٦) ويرى إحسان عباس: أن النقد الجاهلي يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون لجوء للتعليل، وتصوير ما يجول في النفس بصورة أقرب إلى الشعر نفسه، وذلك هو شأن أكثر الأحكام التي نَجدها منذ الجاهلية... وإذا كان هذا النموذج (تحاكم مجموعة من شعراء تميم إلى ربيعة بن حذار الأسدي) من أرقاها فإن معظم النماذج الباقية إنما يتحدث عن شئون خارج

الشعر نفسه أو جزئية فيه، شئون متصلة بالعرف أو بالمعارف التي يتضمنها الشعر أو بلفظة معجبة هنالك أو بيت محكم المعنى والسبك...^(١٧) ونختتم بما يراه شوقي ضيف من أن النقد الجاهلي كان ساذجا فطريا يعتمد على الإحساس والذوق البسيط... وأن النقد العربي كان في جملته نقداً عملياً يتصل بالجزئيات ولا ينفك عنها إلا قليلا فقد كان محوره غالبا البيت والعبارة ولم ينظروا في الأدب أو الشعر نظرة عامة، فقد شغلهم النظرة الجزئية بحيث يمكن أن نقول إن نشاطهم النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص. ولا ننكر أنهم تركوا كثيرا من الأحكام العامة إلا أنها تجري على ألسنتهم في جمل مركزة وقلما حللوها^(١٨).

هذا فيما يتعلق بجانب الشعر، أما في جانب الفنون الأدبية الشريفة الجاهلية كالوصايا والمنافرات والرسائل وسجع الكهان والأمثال، فليس هناك ما يدل على دخولها تحت نظر المتعاطين للنقد، بل أهملت إلى حد كبير إلا ما كان من فن الخطابة الذي يعد من أكثر الفنون الجاهلية أصالة بعد الشعر - وما أكثر ما قيل من الخطب لمناسبات متعددة سلما وحربا - فقد وصفوا خطباءهم بأنهم مصاقع لسن كما وصفهم باللودعية

والرمي بالكلام العضب القاطع^(١٩) ووصفوا خطابتهم ببرود العصب الموشاة وبالخلل والدياج والوشي وأشباه ذلك^(٢٠). كما عدوا قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب لخطبته التي ألقاها في سوق عكاظ نظراً لما تحمله من مضامين^(٢١) وفي البيان والتبيين ما يفهم أنهم كانوا يبالغون في حوك الكلام باستخدام التشديق والتععر والتفيهق وتجهير الصوت والتفاخر بهدل الشفاة ورحب الغلاصم وخلخلة الألسنة بالكلام وتجويد الألفاظ وأن ذلك في أهل الوبر أكثر منه في أهل المدر^(٢٢) كما تعددت عندهم أنواع الخطب من وعظية وسياسية وحريرية ومحفلية وخطب الإملاك (الزواج) إلا أن الأحكام النقدية على هذه الخطب لم تتناول الجزئيات أو التحليل الموضوعي بقدر كونها تعميمات قد يدخلها المبالغة. وهذا الحديث لا يتعارض مع القول ببلوغ العرب في الجاهلية شأوا بعيدا في القدرة على إحسان القول والإتيان به بليغا مطابقا لمقتضيات الأحوال، وأنهم أوتوا حظا عظيما من اللسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام، والقدرة والبصر على تمييز الكلام وبلاغة الإفهام حتى عدوا حجة على من بعدهم في اللغة والأدب وعدّ عجزهم عن تناول القرآن بالقدح البياني

دليلا لمن بعدهم على عدم القدرة على الإتيان بمثله. ولا أدل على مكاتبتهم المرموقة العريقة في فن القول من وصف القرآن لهم بالقدرة على المخاصمة والمبالغة في ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصُمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

أما من حيث المضامين، فلا شيء يقف عائقا أمامهم في حدود تصوراتهم واعتقاداتهم وإدراكاتهم للحياة وما بعد الحياة؛ فقد تحدثوا عن الحروب والظلم والصلح والآلهة والمعتقدات الفاسدة والأصنام والمتع الدنيوية ووصف الطبيعة والمرأة والخمر ومجالسها والقيان واللهو، فقد رصدت لنا كتب الأدب والمصادر الشيء الكثير، وحسبك من ذلك قول امرئ القيس:

ألا رب يوم لك منهن صالح

ولا سيما يوما بدارة جلجل

وقوله:

كدأبك من أم الخويرث قبلها

وجارتها أم الرباب بمأسل^(٢٣)

وقول أوس بن حجر مشيرا إلى زواج

الرجل من أمه أو خالته أو امرأة أبيه أو ابنه

وهي من الآثار الفارسية عندهم:

والفارسية فيهم غير منكورة

فكلهم لأبيه ضيزن سلف^(٢٤)

بل ربما استخدموا الألفاظ الفارسية في بعض أشعارهم كما نرى في القصيدة المنسوبة لامرئ القيس:

لمن طلل بين الجديدة والجبل

محل قديم العهد طالت به الطلل^(٢٥)

ومنها:

فقلت أنا رومية عجمية

فقلت لها ورخيز بياقوش من قزل

وقد كان لعبي كل دست بقبلة

أقبل ثغرا كالهلال إذا أهل

فجملة (ورخيز بياقوش من قزل) من

لغة رومية معناها: أنا رومية عجمية كأن

الشاعر ردد كلامها في الشطر الأول، وكلمة

(دست) معناها عشرة بالفارسية^(٢٦) ومن

حديثهم عن التطير والطيرة أبيات الحارث بن

حلزة:

يأيها المزمع ثم انثنى

لا يشك الحادي ولا الشاحج

ولا قعيد أعضب قرنه

هاج له من مربع هائج

بيننا الفتى يسعى ويسعى له

تاح له من أمره خالج

يترك ما رقع من عيشه

يعيث فيه همج هامج^(٢٧)

أما المضامين المتعلقة بفنونهم النثرية،

فتعتمد على نوعية الفن النثري؛ ففي المنافرات

النثرية نجد التركيز على المكانة والشرف

والحسب والنسب والكرم، وما يتعلق برفعة

الإنسان الجاهلي من جهة، وما يتعلق بوضاعة

قييله وغريمه من جهة أخرى كالوصف

بالجن والانحطاط والبخل وعدم النجدة

وقلة الوفاء والفرار من المعارك وغيرها^(٢٨)،

وهو ما نهى عنه النبي ﷺ بقوله: المسلم من

سلم المسلمون من لسانه ويده^(٢٩).

وفي الوصايا: نجد المضامين تتعلق

بإسالة عصارة التجارب المفيدة في الحياة

ونتائج التجارب لتصب في وعي الموصى،

مع صدق في العبارة وبعد عن التمني

الشكلي والزخرفة اللفظية^(٣٠).

وقد استمرت على وضعها في صدر

الإسلام، وخير ما يمثلها من القرآن الكريم

وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

لُقْمَنُ لِبَنِيهِ هُوَ يَعْظُهُ وَيُبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وكذلك

وصايا ﷺ للأمة خاصة في حجة الوداع.

أما الخطب فمضامينها تتناسب مع

أنواعها إن كانت حربية أو محفلية أو خطب

زواج ومصاهرة أو صلح أو وفادة على العظماء وغير ذلك. أما الأمثال فمضامينها متعددة متفاوتة حسب مواردها الأصلية وهي تشكل في الحس العربي عصارة العصاراة للتجارب الحياتية اليقينية التي لا يدخلها الشك في جوانب المطابقة للواقع المعاش والمصاغة بقوالب لفظية محكمة السبك دقيقة الإصاغة، بعيدة عن التصنع في كثير من الأحيان لجريانها في لغة التخاطب اليومية العادية التي تجري عفو الخاطر دون تعمّل، وقد خالف الكثير منها القواعد الصرفية والنحوية - كقولهم: مكره أخاك لا بطل^(٣١)، وأعط القوس باريها (بسكون الياء)^(٣٢) - بسبب هذه العفوية، ومصنوعة بدقة وإتقان أحيانا أخرى وسبب هذا الورد بنوعيه كما يقول شوقي ضيف: "إن الأصل في الأمثال أن لا تكون مصقولة ولا مصنوعة؛ لأنها من لغة الشعب، وقلما نثق الشعب لغته، غير أنه كثيرا ما تصدر الأمثال عن الطبقة الراقية في الأمة: طبقة الشعراء والخطباء، فتحقق لها هذه الطبقة ضروبا من عنايتها العامة بفنها، وهذا هو مصدر الاختلاط في الحكم على الأمثال، فبينما نجد أمثالا غير مصقولة، نجد أخرى تفنن أصحابها في صوغها..."^(٣٣) وبالرجوع إلى جمهرة

الأمثال لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) أو مجمع الأمثال للميداني (ت ٨١٥هـ) نجد مصداقية ذلك. أما سجع الكهان فمضامينه غالبا ما تتعلق بتكهنات عن الأمور الغيبية وغيرها. بهذا القدر الموجز من الحديث عن النقد الجاهلي يمكننا تصور الوضع العام له حتى يتميز لنا مقدار الزيادة عليه إذا ما بدأنا الحديث عن النقد والبلاغة في أحاديث الرسول ﷺ.

النقد والبلاغة عند الرسول ﷺ:

عند تناول هذه القضية لابد من تركيز بؤرة النظر على جانبين، الأول منهما يعتمد على أحاديثه ﷺ من حيث تفوقها في جانب فن القول على مقولات غيره حتى عصرنا الحاضر، حيث أجمع الدارسون لحديثه قديما وحديثا على عده في الدرجة الثانية بعد القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة، والدرجة الأولى فيما يتعلق بإنتاج البشر؛ فلم يستطع أحد ممن أعطوا فن القول أن يبلغ شأوه ومكانته، والمتتبع لأحاديثه - التي وصل إلينا منها مئتا ألف حديث ونيف جمعها السيوطي في كتابه جمع الجوامع - يستسهل إمكانية استخراج ما توصل إليه النقد والبلاغيون من مسائل واصطلاحات تتعلق

بالموضوعات ذات الشأن والحصول على نماذج وأمثلة من أعلى الدرجات البلاغية لاستخدامها نماذج اقتداء واتباع لمن يرغب الولوج في عالمي البلاغة والنقد. والأقوال التي تصف بلاغته وفصاحته كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما قاله الجاحظ في وصف كلامه ﷺ: "...وهو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، فكيف وقد عاب التشدق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط، في موضع البسط والمقصود في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي؛ فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له ما بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع الاستغناء عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط كلمة ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة، ولم يقم خصم ولا أفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما

يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب فلجاً إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه^(٣٤). ويقول القاضي عياض: "وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ بالحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معنى، وقلة تكلف^(٣٥)". ويرى الرافعي أن البيان النبوي يتمتع بمجموعة من الخصائص تميزه عن غيره فمن جهة الألفاظ نجده مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التراكيب متناسب الأجزاء في تآليف الكلمات، واضح الصلة بين اللفظ والمعنى؛ فلا حرفاً مضطرباً ولا لفظة مستدعاة لمعنى ومستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها. ومن جهة البيان تجده حسن المغزى، بين الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيد الوصف، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة غريب الحجة ناصع البيان، لا ترى فيه إحالة ولا استكراه ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً ولا استعانة عن عجز، ولا توسعاً من

ضيق، ولا ضعفا في وجه من الوجوه، مع سمو المعنى وفصل الخطاب^(٣٦). هذان الوصفان القديم والحديث يبينان لنا مقدار قدرته صل على حوك الكلام وإجادته بل أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فقد وصف القرآن كلامه ﷺ بأنه وحي قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] المحلل لكلامه ﷺ يجد مصداقية ذلك، فقد أوتي جوامع الكلم بأسلوب سهل ممتنع، وقد اهتمت دراسات كثيرة في استنباط دلائل الإعجاز في حديثه الشريف وتحليل أقواله ﷺ وتفتيق ما تحمله من فنون القول المتعددة بأعلى صورة تعبيرية- تراعي من خلالها طبيعة التكوين الشخصي للمخاطب وحالاته النفسية وتلائم بينها وبين أساليب الخطاب في بعد عن التكلف والإغراب واستخدام الحوشي من الألفاظ بالإضافة إلى التجافي عن التعقيد والاستكراه وقلق الألفاظ واستبداله بالسلاسة المتسقة مع طبيعة البيان المحقق لغايات المقام، إنها الصور التعبيرية التي لا تحفل بالسجع المتكلف، ولا تلوي أعناق الألفاظ لقسرها على أداء المعاني، ناهيك عن استخدام الإيجاز غير المخل في مواطن الإيجاز والتكثيف، والإطناب حيث يتطلب المقام

ذلك، مع التنوع في أساليب حوك الكلام بين الخبر وتعدد أضرابه، والإنشاء وتفاوت أنواعه، وغيرها من ألوان التعبير الخالي من الزخرفة اللفظية لغايات الزخرفة المفعم بالصور الحقيقية والخيالية والتمثيل، -منها على سبيل التمثيل لا الحصر: كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي، حيث بين من خلاله البون الشاسع بين لغة النبي وفصاحتها ولغة غيره من العرب، ووضح الكثير من الخصائص الفنية للقول وكتاب (الحديث النبوي الشريف من الوجه البلاغية)، وقد عمد مؤلفه كمال عز الدين إلى رصد القيم الجمالية والأسس الفنية والآثار المعنوية في الحديث. وكتاب (القصص في الحديث النبوي) لمحمد حسن الزير، حيث ركز على المعايير الفنية في القصة النبوية، بالإضافة إلى أنواع القصة وأهدافها. وكتاب (مدخل إلى البلاغة النبوية) لحلمي محمد القاعدود، حيث بين في كتابه أسباب تفوق الحديث وأسلوبه وخصائصه مع تطبيقات واسعة في أساليبه المختلفة، وكتاب (دراسات في البيان النبوي) لمحمد رفعت أحمد ويشمل الكتاب مناقشة موضوعات علم البيان في الحديث النبوي الشريف الواردة في مشكاة المصابيح، ومن الكتب أيضا كتاب من كنوز

واحتراس وتبييع وتوشيع وتذليل وتتميم إلخ...

أما في جانب التنظير ووضع الأسس للمعايير النقدية والبلاغية فقد كان له ﷺ القدح المعلن، والنصيب الأكبر، وأقواله في هذا الجانب ناتجة عن قدرة خبير في صوغ الكلام ومعرفة مداخله ومخارجه لا مجرد تنظير من فم من لا يحسنه، ومن المعلوم بداهة أن القواعد البلاغية والنقدية تكون أدق ما تكون إذا قررت من قبل صانع للكلام الجيد متبحر فيه قد أحاط باللغة - ولا يحيط بها إلا نبي - فالكاتب الناقد أكثر إجادة في معرفة ما يحسن في الكلام من الناقد الذي لا يجيد الكتابة. ومن هنا يمكنني القول أن معايير النقدية والبلاغية ليست مجرد تنظيرات لا يمثلها الواقع بل هي من صميم الواقع الأدبي، والدراسات في هذا المجال غير متوفرة سوى شذرات هنا وهناك يصعب التقاطها من بطون الكتب، وهأنذا أحاول من خلال هذه الدراسة أن أضع النقاط على الحروف من خلال استخراج ما يمكن استخراجه من القواعد والمعايير المتعلقة بالبلاغة والنقد في أحاديثه ﷺ، مع الاختصار على تلك المعايير والمقاييس المتعلقة بالكلام المنشور.

السنة (دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) للمؤلف محمد علي الصابوني، حيث عرض المؤلف بالتحليل الأدبي واللغوي والبلاغي لأربعة وثلاثين حديثاً مستخرجاً من خلالها جوامع الكلم عند الرسول ﷺ وأنواع البيان، ومن الدراسات العربية القديمة التي تصب في الموضوع نفسه كتاب (المجازات النبوية) للشريف الرضي حيث قام بالشرح والتحليل لمجموعة كبيرة لأحاديث الرسول بلغت ثلاثمائة وستين حديثاً أضاف من خلالها اللثام عن أسرار البلاغة النبوية وصنوف الأساليب النبوية الرفيعة، وكتاب (الفائق في غريب الحديث) للإمام جبار الله الزمخشري، حيث أشار إلى أصناف البديع وأنواع البيان، وكتاب (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري) للإمام العيني، وغيرها من الكتب. والمطلع على هذه الكتب وتحليلاتها يتبين الخصائص والسمات الأسلوبية لأحاديثه ﷺ فقد شمل جميع الفنون البلاغية المعروفة عند أهل المعاني والبلاغة في علومها الثلاثة البيان والمعاني والبديع؛ ففيه التشبيه والمجاز والكناية والتجريد، كما اشتمل على أنواع الأساليب الإنشائية والخبرية، وحفل بأنواع البديعيات من طباق ومقابلة وجناس وسجع وصحة تقسيم ومبالغة

اختيار الكلمة المعبرة بكل أبعادها الدلالية والصرفية والصوتية:

أول ما يطالعنا من اهتماماته ﷺ بهذا الشأن حديثه عن ضرورة اختيار الكلمة المعبرة، واختيار الكلمة ومواصفاتها أول ما يقع عليه نظر النقاد والبلاغيين؛ فقد درج البلاغيون عند الحديث عن فصاحة اللفظ أن ينظروا إليه من حيثيات مختلفة، في جانب النطق وانسجام الحروف، وجانب السمع وخفة الكلمة، والاستعمال من حيث الوحشية والندرة، أو الابتذال وموافقة القواعد الصرفية، بالإضافة إلى المعنى، فعابوا (المعجع ومستشزرات والسجنجل والأجلل والجرشا)^(٣٧)، وما ذاك إلا تفسيراً لما أثر عن النبي ﷺ أنه كان يعنى بتخير الألفاظ، وقد ورد في هذا المجال قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقول: لقست نفسي"^(٣٨) قال أبو عبيد: "وجميع أهل اللغة يرون بأن (لقست وخبثت) بمعنى واحد، وإنما كره النبي ﷺ لفظ الخبث لبشاعة الاسم وتعليمهم الأدب في الألفاظ، واستعمال حسننها وهجران خبيثها"^(٣٩). وهذا الطلب في استخدام الجميل من الألفاظ يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] ويبدو أن

السلف الصالح تمثلوا هذه المقولة النبوية، فقد ورد عن الشافعي أنه قال لأحد تلاميذه: "يا أبا إبراهيم، اكس ألفاظك أحسنها، لا تقل: فلان كذاب. قل: فلان ليس بشيء"^(٤٠).

وفي نهيه ﷺ عما يخالف الفصاحة والبلاغة من التشديق والتخلل في الكلام والتفقيه في الحديث والتكلف والتنطع والثرثرة والإكثار من الكلام في غير مواضعه: قال عليه الصلاة والسلام: "إن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون"^(٤١).

وأما التخلل في الكلام: فهو إدارة اللسان حول الأسنان مبالغة في إظهار بلاغته وبيانه يصنع كما تصنع البقرة عند أكل الكأ حيث تلفه بلسانها كما جاء في الحديث: "عن عبد الله بن عمر ﷺ: إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه"^(٤٢).

وأما التنطع: فهو إخراج الكلام من النطع (غار الفم) حيث موقع اللسان من الحنك، والمراد المبالغة والزيادة فيه والتكلف والتعمق والتفاحص قال ﷺ: (هلك المتنطعون) أو (هلك المكثرون)^(٤٣).

وأما التكلف: فهو تجشم الكلام على مشقة، أو الحديث فيما المتكلم جاهل به من

المعارف، أو الزيادة في الحديث فوق ما يحتمل ولذلك قال النبي ﷺ: (أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف) (٤٤).

والناظر في الحقل الدلالي للألفاظ السابقة يجد أنها تدور في فلك الابتعاد عما يخرج المتكلم عن دائرة البلاغة، وانصراف المتلقي عن الاستماع وبالتالي فشل الرسالة المراد إيصالها إلى المتلقي؛ فالثرثرة تؤدي إلى التخليط والوقوع في الخطأ؛ لأن من كثر كلامه كثر خطؤه. والتفقيه والتنطع والتشدد والتخلل تتضمن -بالإضافة إلى الرسالة التي يحملها الكلام- رسم هيئة للخطيب (المرسل) تستدعي امتعاض المرسل إليه؛ لما تحمله الهيئة من معنى الكبر والتعالي، وبالتالي تفقد الرسالة أهم موجبات إيصالها بالشكل السليم للمتلقي؛ لانشغاله في عوامل جانبية كالتأمل والتفكير في هيئة المرسل وتعاضمه، وهذه الحالة أكثر موجبات إخفاق البليغ العربي تحديدا. والمعاني السابقة التي على البليغ أن يحترز منها لتكتمل جوانب بلاغته، كثر في أحاديثه ﷺ ما يؤكد خلافها لقوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت" (٤٥). وقوله لمعاذ بن جبل: "... ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد

ألستهم؟" (٤٦). وفي حديث: "... ويبغض لكم ثلاثة: القيل والقال..." (٤٧). وفي حديث عمار ابن ياسر: "أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة وقصر الخطب" (٤٨).

والمسائل السابقة أكثر ما يمكن حملها على الجانب الشفاهي من الأجناس الأدبية كالخطب والمناظرات والمحاضرات والندوات وما كان طريقه الخطاب المباشر، وقد استلهم هذه المعاني الجاحظ في كتابه البيان والتبيين فقال في هذا الفحوى: "ثم اعلم -أبقاك الله- أن صاحب التشديق والتقدير والتعقيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عي يتكلف الخطابة ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة. ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف وبيانا يمازجه التزيد. إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام أقبح من تعاطي البليغ الخطيب ومن تشادق الأعرابي القح. وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ وفي التعبير والارتجال أنه البحر الذي لا ينزح والغمر الذي لا يسبر أيسر من انتحال الحصر المنخوب أنه في مسلاخ التام الموفر والجامع المحكم وإن كان النبي ﷺ قال: (إياي والتشادق). وقال: (أبغضكم إلي الثرثارون

المتفيهقون) وقال: (من بدا جفا)، وعاب الفدادين والمتزידين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ورحب الغلاصم وهذل الشفاة...^(٤٩) وقد استوحى النقاد القدامى هذه المعاني ونشروا فحوى كلامه ﷺ مستخدمين عباراتهم الخاصة وسبكهم الخاص مع تفامت في إصابة معنى المصطلح أو مجانبة الإصابة، فهذا ابن قتيبة يصف المتكلف من الشعراء بقوله: "فالتكلف هو الذي قوم قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر"^(٥٠). ويورد قول سويد بن كراع (العكلي، شاعر فارس مقدم من شعراء الدولة الأموية). بهذه المناسبة:

أبيت بأبواب القوافي كأنما

أصادي بها سربا من الوحش نزا

أكالها حتى أعرس بعدما

يكون سحيرا أو بعيد فأهجعا

إذا خفت أن تروى علي رددتها

وراء التراقي خشية أن تطلعا

وجشمني خوف ابن عفان ردها

فثقتها حولاً جريداً ومربعا

وقد كان في نفسي عليها زيادة

فلم أر إلا أن أطيع وأسمعاً^(٥١)

على أن هناك من لا يرتضي فهم ابن

قتيبة للتكلف ويدحضه كما نرى عند عز

الدين إسماعيل بتعليقه على معنى التكلف عند ابن قتيبة حيث يقول: "والمفهوم السائد للأدب أنه صنعة، وحين نقول إنه صنعة فإننا نحذر من التباس كلمة الصنعة بالتكلف فليست الصنعة هي ما عرف بالتكلف، فحن نقراً أحيانا عبارة (تكلف الصنعة) مما يشعر بالتمييز بينهما. والصنعة قديمة في الشعر العربي عرفها الجاهليون وحفلوا بها، وكانت منهم أول مدرسة شعرية تهتم بالصنعة وبذل الجهد في العملية الإبداعية وقد يخلط ابن قتيبة بين معنى الصنعة والتكلف"^(٥٢). وما قاله ابن قتيبة لا يتناسب مع المعاني التي أثيرت حول التكلف المفهوم من الحديث.

ويصف الأمدى الشعر الحسن بمضادات

التكلف والتععر والتشديق والإغراب

واستخدام الحوشي من الألفاظ بقوله: "وليس

الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي،

وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع

الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ

المعتاد فيه، المستعمل في مثله... فإن الكلام لا

يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا

الوصف"^(٥٣). وبهذا المعنى يقول الجاحظ: "...

فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان

صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه، ومنزها

عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في

القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة^(٥٤). ومما لا شك فيه أن ما ينسحب على الشعر في هذه القضايا أيضا ينسحب على النثر والأعمال الأدبية بالمقدار نفسه.

في جانب التراكيب والجمال:

يطالعنا أول ما يطالعنا في هذا الجانب إبداعاته ﷺ للكثير من التراكيب التي لم تسمع من قبل، وقد أورد الجاحظ مجموعة منها بقوله: "وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي، ولا شاركه فيه أعجمي، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد مما صار مستعملا ومثلا سائرا"^(٥٥) فمن ذلك: قوله ﷺ: "يا خيل الله اركبي، وقوله: مات حتف أنفه، وقوله: لا تتططح فيه عززان، وقوله: الآن هي الوطيس، -وقد عرف العرب هذا التركيب بمعنى اشتداد النار في القرن لا غير ونجد أن النبي ﷺ قد استخدمه بمعنى جديد وهو اشتداد المعركة-، ومثلها كل الصيد في جوف الفرا- قالها لأبي سفيان- وهدنة على دخن، وجماعة على إقضاء، ولا يلسع المؤمن من جحر مرتين"^(٥٦). وهذه الإبداعات تثري اللغة وتفسح المجال أمام المبدعين لينهلوا منها ويستخدموها في إبداعاتهم كما تحثهم على الاقتداء ومحاولة إثراء اللغة بإبداعات جديدة؛ فاللغة كالكائن الحي يحتاج إلى التطوير

والتحديث وفق القواعد العامة والأصول الثابتة، وما أشبهها ساعته بالشجرة المتجددة الاوراق والثمار ذات الأصل الثابت وفي القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]

وقد شاع استخدام تراكيبه ﷺ على ألسنة الخطباء من ذلك قول الحارث بن حذان حين أمر بالكلام عن مقتل يزيد بن المهلب قال: أيها الناس اتقوا الفتنة؛ فإنها تقبل بشبهة وتدبر ببيان، وإن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين، وقول ابن الأشعث: "قد علمنا إن كنا نعلم، وفهمنا إن كنا نفهم أن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين"^(٥٧).

الإشارة إلى أنواع ودرجات البيان: في قوله ﷺ: "إن من البيان لسحرا"، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قدم رجلا من المشرق فخطب فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله: "إن من البيان لسحرا أو إن بعض البيان لسحرا"^(٥٨).

جاء في لسان العرب في باب الرأ فصل السين: "وكل ما لطف مأخذه ودق، فهو سحر"^(٥٩). عند تحليل هذه العبارة النبوية نجد أنها تشير إلى تنوع البيان واختلاف درجاته وأن أعلى أنواعه ذلك البيان الذي يأسرك

ويأخذ بلبك ويجعلك على قناعة من مراد صاحبه فهو يأسرك بكلامه إلى درجة قد يقلب فيها الحقائق ويجعلك مقتنعا بما ذهب إليه، وهو بهذا العمل أشبه ما يكون بالساحر الموهم بالشيء أو الذي يوهمك ويظهر لك الشيء على غير حقيقته بسبب روعة بيانه ودقة ولطف مداخله ومعانيه الدالة على بلاغة صاحبه وقدراته على التلاعب بالألفاظ. وقد يكون المعنى التوهم والمخادعة وتزوير الحقائق وجعل العيون تتخيل الشيء على غير حقيقته، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ويؤيد ذلك ما ورد عن الأزهري في اللسان أن أصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره^(٦٠)، وقد يكون التفسير الأول هو الأكثر مناسبة للواقعة التي قيلت بها هذه الجملة (إن من البيان لسحرا)؛ فقد أورد الجاحظ أن النبي ﷺ قد سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر وهما من سادات بني تميم فقال: (مانع لحوزته مطاع في أدنيه) فقال الزبرقان: أما أنه قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي فقال عمرو: أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر زمر المروءة، لثيم الحال، حديث الغنى فلما

رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال: "يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت؛ وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة"، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: "إن من البيان لسحرا"^(٦١). وقد فسر أبو عبيد المعنى بقوله: "كأن المعنى -والله أعلم- أنه يبلغ من ثنائه أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنه قد سحر السامعين بذلك"^(٦٢). فالسحر في البيان يعادل الروعة والجازية وقوة التأثير ومصادرة القلوب والأحاسيس والانفعالات.

النهى عن السجع: ورد عنه ﷺ عبارة: (أسجع كسجع الجاهلية) وفي رواية (أسجع كسجع الكهان) و(أسجاعة كسجاعة الجاهلية)^(٦٣) و(إنما هذا من إخوان الكهان)^(٦٤) وغيرها من العبارات تدور في الفلك نفسه مما ورد في كتب الحديث النبوي الشريف وشروحاته. ومناسبتها أن رجلا قال للنبي (عليه الصلاة والسلام): كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس ذلك دمه يطل^(٦٥). وذلك في معرض الدفع لإبطال حكم النبي ﷺ في امرأة حامل ضربت

بعمود فسطاط من قبل امرأة أخرى، فقتلت وأسقط جنينها فجعل النبي دية المقتولة على عصبة القتالة، وغرة (أمة أو عبد) لما في بطنها. وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: "...فقال رجل من عصبة القتالة: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل، فمثل ذلك يطل. فقال رسول الله ﷺ: أسجع كسجع الأعراب" ^(٦٦).

لا بد - قبل الخوض في المعايير الفنية المتعلقة بالسجع - من الإشارة إلى أن الشر العربي الجاهلي قد عرف السجع وتعامل به، والناظر إلى ما ورد عنهم من فنون نثرية يجد هذه الظاهرة بوضوح، وهم يعدون السجع بالمشثور مقابلاً للوزن والقوافي في الشعر، ولعل استعمال السجع في مشثورهم من باب تخفيف الوطأة في تجشّم حفظ المعاني، وجعلها أكثر سلاسة؛ لما هو مركز في الطباع أن الكلام ذي الصبغة الموسيقية أسهل حفظاً من غيره، ويورد الجاحظ جواب عبد الصمد بن الفضل الرقاشي عندما سئل: "لم تؤثر السجع على المشثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر؛ فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه

أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المشثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المشثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة" ^(٦٧) ومن الأمثلة على خطبهم المستخدم فيها السجع ما روي عن النبي قوله: "كأنني أنظر إلى قس بن ساعدة الإيادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول: أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، نجوم تمور، وبحار تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا؟ يحلف قس يمينا غير كاذبة إن لله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم عليه.." ^(٦٨).

وقد اختلفت الآراء حول تفسير موقفه ﷺ من السجع هل هو مذموم أم مقبول والذي أرجحه ما ذهب إليه كثير من المحققين من أن المنهي عنه والمذموم، هو السجع المتكلف في معرض مدافعة الحق، وأما ما يقع عفواً بلا تكلف في الأمور المباحة فجائز، والمحمود منه: ما جاء عفواً في حق، ودونه: ما جاء متكلفاً في حق، والمذموم منه: ما يقع

متكلفا في باطل، ودونه: ما يقع عفوا في باطل^(٦٩). وهذا يعني أن المنظور إليه في السجع من زاويتين: الشكل ومقدار الإصابة في مناسبة المعنى باعتبار الواقع. ومن هذه المقولة النبوية عن السجع تبارت أقلام النقاد والبلاغيين وغيرهم من أهل الفكر والشريعة في توظيف هذا المصطلح والتوسع في مسأله من حيث القبول والرفض والتخصيص والتقييد والتأويل والحمل على الظاهر والتغيير والاستبدال بمصطلح الفاصلة، إلى أن عد بابا من أبواب علم البديع، فوضعت له مجموعة من المعاني اللغوية والاصطلاحية والأقسام فقالوا: سجع يسجع سجعاً: استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً، والسجع: الكلام المقفى، وسجع الرجل: إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن^(٧٠). والسجع: تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهو على ثلاثة أضرب: مطرف ومتوازي وترصيع...^(٧١) وميزوا بينه وبين الفواصل، فعدوا الفواصل بلاغة، والسجع عيا. وقد ورد السجع في كلامه ﷺ بكثرة مما يؤذن باستخدامه، وأن المنهي عنه منه نوع خاص مقيد بسجع الكهان، ومما ورد من أحاديثه المسجوعة: اللهم إني أدرك بك في نحورهم، وأعوذ بك

من شرورهم" وقوله: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشيع"^(٧٢).

حثة ﷺ على الإيجاز:

ورد عنه ﷺ أقوال تشير إلى اهتمامه بقضية الإيجاز، وأنه من البلاغة، فقد جاء في الخبر أن أعرابياً تكلم عند رسول الله ﷺ وطول، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: كم دون لسانك من حجاب؟ قال: شفتاي وأسنانني. قال: فإن الله عز وجل يكره الانبعاث في الكلام (الانصباب فيه بشدة) فنصر الله وجه امرئ أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته. وفي رواية عن عمرو بن دينار: أما كان في هذا ما يرد من كلامك، إن من البيان لسحراً. وفي الحديث قال أبو وائل: خطبنا عمار فأوجز وأبلغ، فلما نزل قلت: يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفست، فقال: إني سمعت رسول الله يقول: "إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته، مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطب، وإن من البيان سحراً"^(٧٣).

كما ورد عنه ﷺ مجموعة من الأحاديث التي تطلب اختصار الكلام على ما يفيد، وإلا فالصمت، منها: حديث أبي هريرة "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو

ليصمت^(٧٤). وحديث: "رحم الله امرأ قال خيرا فغنم، أو سكت فسلم"^(٧٥). وقال ابن الأعرابي...: "تكلم رجل عند النبي ﷺ فخطل في كلامه، فقال النبي ﷺ: "ما أعطي العبد شرا من طلاقة اللسان"^(٧٦). وقد تمثل الصحابة (رضوان الله عليهم) معاني ما ورد عن النبي ﷺ في هذا الجانب، فكانوا يقتصرون في كلامهم على ما هو مفيد بأسلوب بليغ، ويحذرون من الإطالة والتطويل، ومخاطر الزلل في اللسان، فهذا أبو بكر ﷺ يقول عن لسانه: "هذا الذي أوردني الموارد"^(٧٧). وهذا عمر ﷺ يمدح زهيرا الشاعر؛ لأنه لا يعاقل في الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، قال لقوم من العرب: أشعر شعرائكم من لم يعاقل الكلام ولم يتبع حوشيه، -أي: لم يحمل بعضه على بعض- ولم يتكلم بالرجيع من القول ولم يكرر اللفظ والمعنى^(٧٨). وقال ابن مسعود ﷺ: أنذركم فضول المنطق^(٧٩). وكان عمرو ابن عبيد لا يكاد يتكلم، فإذا تكلم لم يكذب، وكان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شاهده دون نفسه، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف" ورد عند الجاحظ: "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن

كثيرة". وحكى المفضل: قلت لأعرابي: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب في غير خطل^(٨٠) وانتشرت مقالة الإيجاز ووعى معانيها المهتمين بشأن البيان إلى درجة أصبح كثيرون يفضلون الصمت على الكلام حتى جرت الأمثال بهذا المعنى أورد الجاحظ منها: لو كان الكلام من فضة، لكان السكوت من ذهب" واللسان سبع عقور" ومقتل الرجل بين فكيه وحيه، وسئل أعرابي يجالس الشعبي عن طول صمته فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم^(٨١).

إن الخطل والتطويل في الكلام يخرج المرء عن حد البلاغة؛ فما من شك أن لكل كلام غاية ينتهي إليها، ومن فقه المتحدث أن يصل إلى غايته ومطلوبه بأقصر الطرق وأكثرها مناسبة للمقام، والتطويل يجعل من الوصول إلى الغاية أمرا بعيدا، كما أن السامع المخاطب نشاطا محدودا، والإطالة تستنفد نشاطه فينصرف ذهنه عن غاية المتكلم ويدخل في حيز الاستثقال للكلام ومجه مما يفوت الهدف على المتحدث، وهذا يعني نفي البلاغة عنه. وقد أورد الجاحظ أن ناسا قالوا لابن عمر ﷺ: ادع لنا بدعوات. فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا فقالوا: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. قال: "نعوذ بالله

من الإسهاب^(٨٢).

النهى عن الغلو والمبالغة:

وقد برع النقاد والبلاغيون في استغلال مرامي رسول الله ﷺ وفتقوا أكماس الكلام وبينوه وفصلوه واستنبطوا له أحكاماً نجدها ماثلة في كتب النقد والبلاغة، فقسّموا الإيجاز إلى إيجاز حذف وهو أن نحذف بعض أجزاء الكلام المعبر به عن المعنى المراد، وهذا المحذوف قد يكون كلمة أجملة ولا بد للمحذوف أن يستغني الكلام عنه فيفهم بدونه، ولا بد له من قرينة تدل عليه. وإيجاز قصر وهو تضمين الألفاظ القليلة المعاني الكثيرة من غير حذف^(٨٣)، وفرقوا بينه وبين التطويل والحشو والإطناب والمساواة^(٨٤) وغيرها مما رست عليه قواعد البلاغيين والنقاد.

ومن جهة أخرى يمكننا الاستنباط من حديثه ﷺ مع الأعرابي الذي أطال في الكلام مسألة بيانية أخرى، وهي ضرورة أن يتناسب الكلام نوعاً وكماً مع المقام الوارد فيه، فيستحسن الإيجاز في مقام مخاطبة المسئولين نظراً لأن الوقت عندهم ذو قيمة عالية، والتطويل يضيع الفرص في عمل ما هو مفيد عندهم، وقد تحدث البلاغيون والنقاد في مسألة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومراعاة المقام، وبينوا أن لكل مقام مقال.

تتناغم الفلسفة الإسلامية في نظرتها للحياة والوجود بكل أبعاده، وتقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال في كل شيء، وتستبعد تجاوز الحد والغلو والإغراق، بل تدعو إلى ضده، وهذه القضية كما نجد انطباقها على أمور الدين والعبادة - كما في أقواله الكثيرة ﷺ: إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو^(٨٥). لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدالله ورسوله^(٨٦) (والإطرء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه) وعن أنس ﷺ أن أناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلي الله عز وجل^(٨٧) - فإنها تنطبق على أمور الحياة الأخرى ومنها الظاهرة اللغوية؛ فقد أورد الجاحظ في بيانه بسند... عن مطرف ابن عبد الله وعن أبيه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء. فقال رسول الله ﷺ: أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستفزنكم الشيطان، فإنما أنا عبدالله ورسوله^(٨٨). أما

قوله ﷺ: "هلك المتنطعون" قالها ثلاثا: فيفسرها النووي بقوله: "... أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم." وهم المتعمقون المتشددون في غير مواضع التشديد^(٨٩). ونهيه ﷺ يتناغم مع ما ورد في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧] والآيات في النهي عن مدح عزيز والمسيح ﷺ لدرجة تخرجهما عن حدود البشرية. وعلى مذهب الوسطية في التعبير سار الصحابة (رضوان الله عليهم)؛ فهذا ابن الخطاب ﷺ يفضل زهيرا على غيره من الشعراء لكونه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ولا يعاظم في الكلام. واستمر الحال في عهد الدولة الأموية على هذا النحو، فهذا الجاحظ يورد قول خالد بن عبد الله القسري لعمر بن عبد العزيز: من كانت خلافته زانته فقد زيتتها، ومن كانت شرفته فقد شرفتها. فأنت كما قال الشاعر (الأحوص الأنصاري):

وتزیدین أطیب الطیب طیباً
أن تمسیه أين مثلك أيناً
وإذا الدر زان حسن وجوه

كان للدر حسن وجهك زينا
فقال عمر بن عبد العزيز: إن صاحبكم أعطي مقولا، ولم يعط معقولا^(٩٠). وهذا بعينه تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها على حد تعبير أبي هلال العسكري في الصناعتين. وفي العصر العباسي نجد النقاد والبلاغيين يتلقفون هذه المسألة ويلوكونها بعقولهم بالتحليل والتفصيل والمقارنة حتى أخرجوا بابا من أبواب البديع بهذا الاسم (الغلو)، وتحدثوا بالتفصيل عن مقاربات هذا المصطلح في حقله الدلالي كالحديث عن الإغراق والمبالغة والإفراط، وقسموا الغلو إلى مردود ومقبول وعدوا من المقبول قول النابغة الجعدي بحضرة المصطفى ﷺ:

بلغنا السماء نجدة وتكرما
وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً^(٩١)
وفي موسوعة الحديث: أنشد النابغة الجعدي:

وإنا لَقَوْمٌ مَا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا
إِذْ مَا التَّقَيْنَا أَنْ تُحِيدَ وَتُنْفِرَا
وَتُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خَيْلَنَا
مِنْ الطُّغْنِ حَتَّى تُحْسِبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا
وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نُرُدَّهَا
صِحَاحًا وَلَا مُسْتَنْكَرٍ أَنْ نُعَقِّرَا

بَلَعْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَّاوُنَا

وَأَنَا لِنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى؟!!»، قُلْتُ: «إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: نَعَمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٩٢).

وغيرها من المسائل التي جعلت منه مبحثاً متكامل المسائل، ولا يكاد كتاب نقدي أو بلاغي من كتب القدماء إلا وتعرض لمسائله، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر هذا ابن طباطبا يتحدث في كتابه (عيار الشعر) عن الإغراق ويذكر الأبيات التي أغرق قائلوها منها قول الطرماح ابن حكيم: من شعراء الدولة الأموية عاش بالشام واعتنق مذهب الأزارقة:

ولو أن حرقوصاً يزقق مكة

إذا نهلت منه تميم وعلت

ولو أن برغوثاً علا ظهر نملة

يكر على صفي تميم لولت

ولو أن أم العنكبوت بنت لهم

مظلتها يوم الندى لاستظلت^(٩٣)

كما تحدث عن الغلو تحت عنوان

التشبيهات البعيدة من ذلك قول النابغة:

تخدى بهم أدم كأن رحالها

علق أريق على متون صوار^(٩٤)

وقول خفاف بن ندبه:

أبقى لها التعداد من عتداتها

ومتونها كخيوطه الكتان

والعتدات: القوائم. أراد أن قوائمه

دقت حتى عادت كأنها الخيوط^(٩٥).

وحتى يبقى النقاد والبلاغيون المبدعين في حيز الوسطية بعيدين عن الغلو، استنبطوا ما يسمى بعمود الشعر، وقد بينه المرزوقي في مقدمته في شرح المعلقات، وأكد القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه حيث يقول: "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقانتة. وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته. ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفلاً بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض^(٩٦)."

بناء هيكلية الخطبة:

من الأمور التي استحدثت في عصره - من خلال توجيهاته ﷺ - التشكيل المفصل لأجزاء الخطبة بحيث يستطيع السامع أو القارئ التمييز بين ما هو مقدمة وبين ما هو

موضوع وبين ما يعد خاتمة، وهذه الهيكلية تعد أحد ركائز التغيير عن الخطبة الجاهلية، والناظر في الخطبة الجاهلية يجد أنها تشكل حلقة لا يدري منها إلا نقطة البدء والانتهاء فلا وضوح في التقسيم وكأن الكلام يصب صبا على وتيرة واحدة. أما من حيث الموضوعات والخصائص الفنية، فنجد أيضا نوعا من الاختلاف بين خطب الرسول ﷺ والخطب الجاهلية، فمن حيث الموضوعات نجد الخطبة الجاهلية تدور حول قضايا الحرب والحماسة والصلح والمنافرات والزواج، أما موضوعات الخطبة الإسلامية فقد جعلت التركيز ينصب على الخطبة الدينية أكثر من بقية الموضوعات. أما من حيث الخصائص الفنية فنجد الخطبة الجاهلية على درجة كبيرة من الإيجاز مع تضمينها مجموعة من الحكم والأمثال والاعتماد على السجع وانتفاء الاستطراد مع الاستغناء عن المقدمات ووحشية الألفاظ ومن الأمثلة على ذلك: خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني (قائد المعركة) في يوم ذي قار، وخطبة قس ابن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ التي رواها النبي ﷺ ورواها لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه^(٩٧).

أما من حيث الخصائص الفنية للخطبة

الإسلامية، فنجد ابتعاد الخطبة عن وحشي الألفاظ وتعقيدات المعاني ثم الخلو من السجع إلا ما كان عفو الخاطر مما يقتضيه المعنى، بالإضافة إلى الإيجاز غير المخل، ناهيك عن اشتغالها على مقومات الصور الفنية والحقائق الصادقة وسلاسة الألفاظ. وهذه المعايير الجديدة مستفادة من خطبه ﷺ. ومن الأمور التي أحدثها ﷺ لتحسين أمر الخطابة توجيه أهل القول وتعليمهم ضرورة الابتداء بالبسملة والحمد لله في مقدمة الكلام، وهو ما يعين السامع على تهئية النفس لتلقي الكلام، فهذا البدء أشبه ما يكون بأدوات التنبيه، ومما ورد عنه من أقوال بهذا الشأن قوله في الحديث المرفوع عن أبي هريرة ﷺ: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله فهو أبت" أخرجه أبو داود وابن ماجه في كتاب روضة المحدثين. وفي روايات: لا يبدأ فيه بحمد الله، وفي روايات زيادة لفظ: (والصلاة علي). هذه الإرشادات منه ﷺ وعابها الناس في عصر الصحابة وما بعده بحيث طوروا الخطابة، وتحدثوا عن أنواعها ومعايير جودتها ونواقض الجودة، وعن أحوال الخطيب ومقاييسه وصفاته حتى أسنان الخطيب وجهازه النطقي وقع تحت مقاييسهم ومواصفاتهم.

ومن أبرز مواصفات الخطبة عندهم ضرورة اشتغالها على شيء من كتاب الله أو أحاديث الرسول ﷺ وإلا وصفت بالبراء أو الشوهاء قال الجاحظ: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقّة وسلس الموقع"^(٩٨) وينقل عن الهيثم بن عدي أن عمران بن حطان^(٩٩)، قال: "إن أول خطبة خطبتها عند زياد- فأعجب بها الناس وشهدها عمي وأبي، ثم إنني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن"^(١٠٠). ثم إن أمر الخطابة لم يتوقف أثره عند هذا الحد بل تعدى إلى إنشاء مدارس لتعليم الخطابة، فقد كان الخطباء خاصة أصحاب الوعظ منهم يتحلّق حولهم تلاميذهم يدربونهم على إحسان الأداء وقرع الأدلة بالأدلة، ووصل بهم الحال إلى بلوغ الغاية من روعة البيان، ومنهم غيلان الدمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء، وجاء بعدهم من تحفظ كلامهم حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية^(١٠١).

إبراز الخطابة كجنس أدبي ذي أهمية

بالغة: لقد استخدمها النبي ﷺ وسيلة بارزة في الدعوة إلى الله، وسيلة للدفاع عن الإسلام مستعينا بمن يحسن هذه الفنون، فقد ورد في سيرة ابن هشام أن وفد تميم قدموا بين يديه ﷺ من شعرهم وبعض خطبهم يفاخرون فقال شاعرهم الزبرقان بن بدر:

أتيناكم كيما يعلم الناس فضلنا
إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن
وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
فأجابه حسان ﷺ:

هل المجد إلا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظام
نصرنا وآوينا النبي محمدا
على أنف راض من معد وراغم^(١٠٢)
وفي رواية ابن القيم قال الزبرقان:
نحن الكرام فلا حي يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البيع
فأجابه حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع^(١٠٣)
وخطب عطار بن حاجب التميمي^(١٠٤)
فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو

اهله الذي جعلنا ملوكا... فأمر النبي ﷺ ثابت بن قيس بن شماس فرد عليه: "الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه..."^(١٠٥).

فلما فرغ قال الأقرع بن حابس: "وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، فلما فرغ القوم أسلموا"^(١٠٦).

التنوع في الأداء الصوتي وطرق الإلقاء لاختلاف المقام:

ورد عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أنه قال: "كان رسول الله ﷺ إذا خطب أحمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش"^(١٠٧).

وفي حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ نهى عن رفع الصوت في الدعاء معللاً: "فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً"^(١٠٨). وفي حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ قال: "إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة ينادي ربه فليعلم أحدكم ما ينادي ربه ولا يجهر بعضكم على بعض في الصلاة" وفي رواية "ولا ترفعوا أصواتكم فتؤذوا المؤمنين"^(١٠٩).

المتمعن في الأحاديث السابقة قد يرى في ظاهرها التعارض، لكن عند التحقيق يتبين

أن اختلاف الأحكام فيها يعود إلى اختلاف المقامات؛ حيث إن لكل مقام مقال والبلاغة تقتضي مراعاة أحوال المتلقين فانفعالات الخطيب وتطلعاته ومعانيه التي يريد إيصالها للمتلقين تتفاوت ما بين خبر وإنشاء واستفهام وتوبيخ وتهويل وتفخيم وتهوين وتعجيب ووعد ووعيد وتحزين وتشجيع وحاسة وكل هذه المعاني وغيرها تتطلب نوعاً مناسباً من درجة الصوت وطريقة الإلقاء واستخدام الإشارات؛ فيستخدم من الصوت لينه وشدته ورخاوته وعلوه ومدته وتقصيره وتكراره وإفراده حسب ما يعين على فهم المعنى المراد، فالصوت في كثير من الأحيان ينم عن شخصية صاحبه ويعين على ترجمة معانيه وتوصيلها بصورة أدق.

إن جريان الخطبة على وتيرة واحدة في الأداء قد يتطلبه مقام من المقامات لا كل المقامات، واستخدامه في كل المقامات خروج عن حد البلاغة لما يبعثه من الملل والسأم في نفس المتلقي. قال النووي: "يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته ويجزل كلامه، ويكون مطابقاً للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب وترهيب"^(١١٠). ووقوع الذم على المتكلم عند مخالفة مقتضيات المقام وما يناسبها، فقد جاء التوجيه

الإلهي موضحاً مبادئ استخدام الصوت في عدة آيات منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، و﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] و﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]. ومن المعلوم أن السنة المطهرة ما هي إلا تفسير لما جاء في كتاب الله.

البيئة والأدب:

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قول النبي ﷺ: "من بدا جفا..."^(١١١) وأورد هذا الحديث جماعة من المفسرين عند تفسير قوله تعالى فيما يتعلق بالأعراب من سورة التوبة: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧] ومجمل الكلام يشير إلى خشونة الأعراب وغلظهم في التعامل، واستخدامهم لوحشي الكلام، ووعورة التعبير عن المقاصد؛ لذلك كانت هذه القاعدة العامة منه ﷺ: "من بدا جفاً بمعنى من سكن البادية صار فيه جفاء وغلظة طبع كما هو حال الأعراب. أما

البلاغيون والنقاد فقد استفادوا من إشارته هذه في بيان أثر البيئة على الإنسان وقوتها في تكوينه اللغوي والأدبي؛ فالشدة والصعاب في المكان يتبعها شدة وغلظ في طرق الأداء القولي.

ومن أوائل النقاد الذين أشاروا إلى أثر البيئة ابن سلام الجمحي في طبقاته حيث جعل التقسيم بالنظر إلى المكان أحد ركائز التفاضل بين الشعراء، فذكر شعراء المدينة وشعراء مكة والطائف، وتحدث عن لين شعر عدي بن زيد؛ لأنه سكن الحيرة وراكنز الريف^(١١٢)، وذلك لما انقده في ذهنه من أثر البيئة في التكوين الشعري لدى الشعراء^(١١٣)، وكذلك الحال عند غيره من النقاد أمثال ابن قتيبة والقاضي الجرجاني والصولي وقدامة وغيرهم.

واستمر الحديث عن أثر البيئة عند النقاد عبر العصور حتى عصرنا الحديث فنجد النقاد أيضاً يثيرون هذه القضية؛ فهذا أحمد الشايب يتحدث عن أثر البيئة في تكوين الذوق الأدبي ويشير إلى قصة علي بن الجهم لما ورد على المتوكل في بغداد وأنشده مادحاً:

أنت كالدلو لا عدمتك دلوا

من كثير العطايا قليل الذنوب

أنت كالكلب في حفاظك للود

وكالتيس في قراع الخطوب
فهم بعض الحضور بقتله، فقال الخليفة:
خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده،
... فلما أقام (الشاعر) في الحضر بضع سنين،
قال الشعر المتزن الملائم للذوق الحضري
الجديد والبيئة الطارئة مثل قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت
ولكن زدن جمرا على جمر^(١١٤)

وفي الأمم الأوربية نجد الناقد هيبوليت
تين يعزي العبقرية في الأدب إلى ثلاثة عوامل
هي: البيئة والزمن والجنس^(١١٥).

مقتضيات المقام:

من القضايا التي بينها النبي ﷺ من
المسائل المتعلقة بالبلاغة والنقد ما له مساس
مباشر بمقتضيات المقام والتي هي جزء من
مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وقد قسم
العلماء الخطاب إلى مجموعة من الجزئيات
منها: المرسل والمرسل إليه والرسالة والوعاء
الناقل، إلخ...، وقد اشترطوا لفهم الرسالة
الدراية الواعية من المرسل في أحوال وظروف
المرسل إليه من حيث البيئة والثقافة والحالة
النفسية والذكاء والفتنة وغيرها من المسائل،
وعدوا عدم إدراك ذلك إخفاقا في جانب

بلاغة الخطاب، وبهذا المعنى نجد مجموعة من
الإشارات في بعض أحاديث الرسول ﷺ منها
ما أورده البخاري عن علي موقوفا: "حدثوا
الناس بما يعرفون. أتحبون أن يكذب الله
ورسوله^(١١٦) وفي مسلم عن ابن مسعود قال:
"ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم
إلا كان لبعضهم فتنة^(١١٧)". وفي كشف الخفاء
للعجلوني: أمرنا أن نكلم الناس على قدر
عقولهم^(١١٨).

فلا بد إذن من مراعاة أحوال المخاطبين
عند سرد الخطاب، فمن مراعاة أحوال
الثقافة سؤال النبي ﷺ للجارية: أين الله
فقلت: في السماء فقال: إنها مؤمنة^(١١٩)،
ومن مراعاة البيئة رسالته ﷺ إلى وائل ابن
حجر الكندي ومنها "...إلى الأقبال العباهلة
والأرواح المشاييب ومنها: وفي التبعة شاة لا
مقورة الألياط ولا ضناك، وأنطوا الثبجة، وفي
السيوب الخمس، ومن زنى من بكر فاصقعوه
مائة، واستوفضوه عاما...^(١٢٠) ومن المعلوم
أن الأقبال العباهلة هم ملوك حمير التي تختلف
لهجتها وتراكيبها إلى حد ما عن لغة الشمال،
ويؤكد ذلك إجابته ﷺ للوافد من حضرموت:
هل من امبر امصيام في امسفر، فأجاب النبي
ﷺ: ليس من امبر امصيام في امسفر^(١٢١).
ومن مقتضيات المقام أيضا ما نجده في إبقائه

ﷺ على وضع الكعبة كما هي دون تغيير لمراعاة حداثة الإسلام في الناس، فقد ورد قوله لعائشة (رضي الله عنها): "يا عائشة، لولا قولك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة فجعلتها باين: باب يدخل الناس وباب يخرجون"^(١٢٢). وقد فهم البخاري من هذا الحديث ضرورة مراعاة المقام في الفهم فترجم له بقوله: باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقع في أشد منه. كما فهم كثير من العلماء هذا الفهم وعدوا الحديث من أعمدة الموازنة بين المصالح، وأنه لا بد من تقييم قدرة فهم السامع خوفا من الوقوع بما هو أشد لقصور فهمه عنه. وفي حديث آخر نجد أن النبي ﷺ قد خص معاذًا بحديث؛ وذلك لعلو فهمه دون كثيرين غيره أخرجه البخاري ونصه: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله من قلبه إلا حرمه الله على النار" فقال معاذ يا رسول الله: ألا أخبر به الناس فيستبشرون؟ قال: إذن يتكلموا. وأخبر به معاذ عند موته تأثما^(١٢٣). وما من شك أن الفائدة الظاهرة من هذا الحديث يتفاوتون بدرجة الفهم، وأن الخطاب لا يحسن به الإبلاغ للجميع مخافة الفهم الخاطئ.

وقد استفاد أرباب البيان من أحاديثه،

وجعلوا منها قواعد للبلاغة العربية حيث عرفوها: بمطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته^(١٢٤). وأبرز من تناول مسألة المقام ومقتضياته رسالة بشر ابن المعتمر التي أوردها الجاحظ في بيانه منها: "... فكن في ثلاث منازل؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معنك ظاهرا مكشوفًا، وقريرا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال^(١٢٥). وفي كتاب الإحياء للغزالي: "كل (بكسر الكاف) لكل عبد بمقدار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه ويتنفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار"^(١٢٦).

البيان بالحركة أو الإشارة:

ومن توجيهاته البلاغية ﷺ في جانب البديعيات، ما أطلق عليه عند أرباب البديع بالقوافي الحسية، ويتمثل في قيام الحركة أو الإشارة بالنيابة عن اللفظ، وعدوا منه قول النبي ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين - وأشار بالسبابة والوسطى"^(١٢٧) كما يحمل عليه

إشارته بعينه لعائشة (رضي الله عنها) التي فهمت منها حاجته إلى السواك وهو في النزح الأخير من حياته ﷺ، ومنه ما رواه عنه معاذ بن جبل: "عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال، ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه ثم قال: إن هذا لحق كما أنك ها هنا، أو كما أنك قاعد" (١٢٨). ومنه قوله: "أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى" (١٢٩). والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه" (١٣٠). والتقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات (١٣١). وحديثه عن الكبائر وهي: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (١٣٢). ومنه قوله ﷺ في حديث زينب: "ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها -" (١٣٣)، ومنه إشارته ﷺ إلى عينه وأذنه عند قراءته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. (١٣٤)

ما من شك أن البيان مع استخدام الإشارة أثناء الكلام ملفت للنظر، طارد للشروء الذهني، يجعل المخاطب أكثر انتباها وتركيزا واستمتعا بمرامي الكلام من خلال استخدامه لأكثر من حاسة عند متابعة المتكلم خاصة حاستي السمع والبصر، وما من شك أن استخدام أكثر من حاسة كما هو مقر في العلوم التربوية يجعل من النص أكثر فهما ووضوحا، ويعين على تأكيد بعض جوانب الكلام، وقد طور هذا النوع عند البديعيين واستخدم في الشعر على نحو يسترعي الانتباه مع حصول المتعة الجمالية عند التلقي، لكنه في معظمه بطريقة صناعية يعمل فيها الفكر أكثر من عمل العواطف. والفكرة في القوافي الحسية أن المبدع الفني يجعل الحركة أو الإشارة تنوب عن اللفظ في موضع القافية موقعة على عروضها، وهو نهاية في الظرف والملاحية؛ لأن من المعاني ما تكون فيه الإشارة أو الحركة أبلغ من اللفظ دلالة، وأبدع موقعا، وأحسن إطراباً ومثاله قول أحدهم:

ظَفِرْتُ بِمَعشُوقٍ لَهُ الْحُسْنُ حُلَّةٌ
فَقَبِلْتُهُ شَفْعاً وَقُلْتُ لَهُ...

فقال أئهواني؟ فقلتُ له: نعم

فقال ومن غيري؟ فقلتُ له...

البيتان من الطويل، وقد جعل فاقية البيت الأول صوت القبلة مُكرراً مرتين كما يدلُّ عليه قوله (شفعاً) وقافية البيت الثاني هي الصوت الصادر من الإنسان والبدال على النفي مُكرراً أيضاً.. وهو ما ينشأ عن القرع بطرف اللسان على أطراف الثنيتين المتقدمتين من أعلى الثغر، وليس في البيتين من الحُسن كهذه المليحة التي أبدعها قائل البيت، ولما كانت مما لا سبيل إلى كتابته بالخط صارت أملح وأجود.^(١٣٥)

ومن هذه القوافي قول الشاعر:

ولقد قلتُ للمليحة قولي

من بعيدٍ لمن يُحبُّك

فأشارت بمصم وبنان

أيها العاشقُ المُتيم....

والبيتان من الخفيف، وعجز كل منهما ينقصُ سببين خفيفين، فجعل تمام البيت الأول حركة اليد التي يُشار إليها بمعنى: أقبل مُكررة، وهي تُوازن السببين في امتداد الزمن، وجعل تمام البيت الثاني حركة اليد التي يُشار بها بمعنى: اذهب، والقافيتان تستخدمان حاسة البصر^(١٣٦).

وهذه الناحية من طرق الخطاب تتنوع

فيها الأساليب ما بين الكلام والتطبيق بالإشارة وهو ما تحتويه البلاغة وبهذا المعنى يقول الشايب: "...فالبلاغة تحوي هذه الناحية التطبيقية التي تبدوا واضحة في الملائمة بين الكلام وبين حاجة القارئ أو السامع في هذه الأحوال المتباينة؛ فالخطابة لها موقفها ورجالها وأساليبها، والكتابة تحسن حيث لا يحسن الشعر، والحوار يجود حيث لا تنفع المحاضرة بشيء حتى حركات الخطيب والممثل كثيرا ما تكون جزءا من التعبير البلاغي^(١٣٧)."

الخلاصة وأهم النتائج:

يتبين لنا مما سبق:

- ١- أن جهودا كبيرة مبذولة في تقعيد المفاهيم المتعلقة بالنقد والبلاغة في جانب الأنواع الثرية المعروفة في عصره ﷺ، وأنها ذات حيز يتناسب مع أهمية الأدب وأثره على النفس البشرية.
- ٢- أن هذه القواعد والمعايير تتناغم مع النظرة الإسلامية الشاملة للكون والحياة، وهي جزء لا يتجزأ من منظومة الفلسفة الإسلامية العالمية.
- ٣- أن ما يتعلق بالمضامين في هذه الأنواع الثرية يعد محور القبول إذ يجب أن يخدم تطور الإنسان ورفعته كإنسان لا أن ينزل به إلى مصاف المخلوقات الأقل

قيمة.

٤- أن المضامين وحدها غير كافية لجعل العمل الأدبي الثري مقبولا.

٥- أن النظرة الجمالية للعمل الأدبي تنبع من شكله ومضمونه معا.

٦- أن الأدب الحقيقي ليس في اجترار اللغة بقدر ما هو محاولة تشكيل إبداعي.

من خلال استغلال معطياتها وصيغها لإنتاج معطيات جديدة متولدة.

الهوامش:

(١) شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ، ط ٦، دارالمعارف، القاهرة، ص ١٤.

(٢) السابق، ص ١٤.

(٣) البيت:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا

وبذاك خبرنا الغراب الأسود

والإقواء عيب من عيوب القافية حيث الانتقال من الكسر إلى الضم، علما أن القصيدة ميمية مكسورة.

(٤) البيت منسوب للمسيب بن علس أو المتلمس وهو:

وقد اتناسى الهم عند احتضاره

بناج عليه الصيعرية مكرم

انظر: عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط ٤، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ٢١.

(٥) السابق، ص ٢٦.

(٦) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص ١١. وذلك نقدا لأبيات حسان بن ثابت:

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرون من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق

أكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

(٧) مطلعا القصيدتين هما:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

أم حبلها إذ نأتك اليوم مصرور

طحاك بك قلب في الحسان طروب

بعيد الشباب عصر حان مشتب

(٨) عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٣٢.

(٩) إحسان عباس. تاريخ النقد الادبي عند العرب، ط ٤، دار الثقافة- بيروت، هـ-١٩٨٣م، ص ١٣.

(١٠) ينظر عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، ص ٢٢.

(١١) ينظر السابق، ص ٢٤. والغلو يظهر في بعد المسافة بين يحجر، وهي منطقة في جنوب الجزيرة وبين مكان المعركة في شمال الجزيرة

- (٢٣) أبو عبدالله، الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار صادر- بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٠.
- (٢٤) نصرت عبدالرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ط ٢، مكتبة الأقبسى- عمان، ١٩٨٢م، ص ٢٨.
- (٢٥) انظر: لويس شيخو اليسوعي. شعراء النصرانية قبل الإسلام، طبعة ٤، دار المشرق- بيروت، ١٩٩١م، ج ١، ص ٣٠.
- (٢٦) القصيدة منسوبة إلى امرئ القيس في بعض الدواوين، وهناك من يرى أنها من أشعار العصر العباسي نخلت على امرئ القيس.
- (٢٧) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ط ٧، دار المعارف-مصر، ١٩٨٨م، ص ٣٢٨. الحادي: ما استقبلك من تجاهك من الطير والوحش والشاحج: الغراب المسن الذي غلظ صوته والأعضب: المكسور القرن.
- (٢٨) انظر: منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ط ٦، ج ١٥، ص ١٥.
- (٢٩) رواه البخاري ومسلم.
- (٣٠) انظر: وصية أعرابية لولدها، محمد صالح الشنطي، في الأدب العربي القديم، ط ٤، دار الأندلس للنشر والتوزيع- حائل، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ٢٤٢.
- العربية. وكذلك البعد بين أذرع منطقة في بلاد الشام ويثر في الحجاز.
- (١٢) ينظر عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، ص ٢٦.
- (١٣) ينظر السابق، ص ٢١.
- (١٤) أحمد أمين، النقد الأدبي، ط ٣، مكتبة النهضة العربية، ١٩٦٣م، ص ٣٠.
- (١٥) عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، ص ٣٨.
- (١٦) ينظر: محمد حسن عبدالله، مقدمة في النقد الأدبي، ط ١، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص ٢٦٣.
- (١٧) ينظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ١٣.
- (١٨) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٤٧.
- (١٩) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص ٨.
- (٢٠) السابق، ص ٩.
- (٢١) ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت: عبدالسلام هارون، ط ٣، مؤسسة الخانجي- القاهرة، الكتاب الثاني، ج ١، ص ٥٢.
- (٢٢) السابق، ص ١٢-١٣.

- (٣١) العسكري، أبو هلال. جمهرة أمثال العرب، ت: أحمد عبدالسلام وزملاؤه. دار الفكر، بيروت، ج ٢، حرف الميم.
- (٣٢) السيوطي، عبدالرحمن ابن أبي بكر جلال الدين، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ت: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١٩٩٨م، ج ١، ص ٧٠.
- (٣٣) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط ٤، دار المعارف- مصر، ١٩٦٥م، ص ٢٥.
- (٣٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٦٨.
- (٣٥) القاضي أبو الفضل عياض اليحصي، (ت ٥٤٤هـ)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وبجاشيته: مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفا، لأحمد بن محمد الشمي، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ج ١، ص ٧٠.
- (٣٦) بتصرف: مصطفى عبدالعليم، بلاغة الرسول ﷺ، المنتدى الإسلامي، الشبكة العنكبوتية.
- (٣٧) الخطيب القزويني، جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبدالرحمن، (ت ٧٣٩هـ)، الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح، ت وشرح: محمد عبدالمنعم خفاجي، ط ٣، دار الجليل- بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٣م، ج ١، ص ٢١. وانظر: ابن سنان الخفاجي عبدالله ابن محمد بن سعيد، (ت ٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، ط ١، دار الكتب العلمية،
- بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ٥٨ وما بعدها.
- (٣٨) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا يقل: خبث نفسي. والحديث من رواية أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) لا يقل أحدكم خبث نفسي، ولكن يقل لفت نفسي. دار الريان للتراث- بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م. وانظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٣-١٤. وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ١٧.
- (٣٩) القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، شرح النووي، -كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها- باب كراهة قول الإنسان خبث نفسي، حديث رقم ٢٢٥٠، ص ٤٢٠.
- (٤٠) السخاوي، الحافظ شمس الدين محمد ابن عبدالرحمن فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، ت: عبدالكريم الخضير ومحمد الفهيد، ط ١، دار المنهاج- جدة، ج ١، ص ٣٧١.
- (٤١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٣.
- (٤٢) الترمذي محمد بن عيسى، كتاب السنن (الجامع المختصر) من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، ت: بشار عواد معروف، دار

- الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٦ م. بيروت، باب: ما جاء في الفصاحة والبيان. (٤٣) أخرجه مسلم في صحيحه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب العلم، باب: هلك المتنطعون. (٤٤) موسوعة الحديث، حديث رقم ٢٤٥، شبكة: إسلام ويب. (٤٥) شرح الأربعين النووية، رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه. (٤٦) أخرجه الترمذي في سننه، حديث رقم ٢٦١٦. (٤٧) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث رقم ٥٩٧٥ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. (٤٨) أخرجه مسلم وأبو داود من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه. (٤٩) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، الكتاب الثاني، ج ١، ص ١٣. (٥٠) ينظر: ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء ت: أحمد محمد شاكر، المعارف - القاهرة، ١٩٦٧ م، ص ١٧. (٥١) السابق، ص ١٧. (٥٢) ينظر: السابق، ص ١٢٥. (٥٣) الأمدى، الموازنة، ت: محمود توفيق، ط ١، ص ٢١٩. وانظر: عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٤١٢ هـ، ص ١٢٦. (٥٤) الجاحظ، البيان والتبيين، السندوي، القاهرة، ١٩٤٧ م، ج ١، ص ٩٧-٩٨. وانظر: عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص ١٢٦. (٥٥) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج ٢، ص ١٥. (٥٦) السابق، ص ١٥-١٦. (٥٧) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ١٦. (٥٨) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ط مصطفى الباوي الحلبي، ج ١٢، ص ٣٤٩. (٥٩) ابن منظور المصري (ت ٧١٠هـ)، لسان العرب، مادة: سحر، دار صادر - بيروت، ١٩٩٥ م، ج ٤، ص ٣٤٨. وانظر: الأصفهاني أبو القاسم الحسين ابن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار العلم الشامية، ط. دمشق ١٤١٢ هـ، ص ٢٢٦. (٦٠) ابن منظور المصري (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، مادة: سحر، دار صادر - بيروت، ١٩٩٥ م. (٦١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٥٣. (٦٢) صلاح عبدالفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ط ١، دار الفرقان - عمان، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ص ٨٥.

- (٦٣) رواية الباقلااني في كتابه: إعجاز القرآن. انظر: عبدالرؤوف مخلوف، الباقلااني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٧٨م، ص ٢١١.
- (٦٤) رواية الإمام مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه. انظر: السندي، نور الدين محمد عبدالهادي، حاشية السندي على صحيح البخاري، كتاب الطب، حديث رقم ٥٧٥٨، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م، ج ٤، ص ٣٧.
- (٦٥) عبدالرؤوف مخلوف، الباقلااني وكتابه إعجاز القرآن، ص ٢١١.
- (٦٦) النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن دينار، السنن الصغرى، ط جمعية المكنز الإسلامي القاهرة، مصر، كتاب البيوع، حديث رقم ٤٧٦٦.
- (٦٧) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ١، ج ١، ص ٢٨٧.
- (٦٨) ينظر: ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، البداية والنهاية، ت: علي شيري، ط ١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م، ج ٢، ص ٦٥.
- (٦٩) ينظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ط ١٤، دار الريان، ١٩٨٦م، كتاب الطب، باب الكهانة.
- (٧٠) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ط ٢، مكتبة لبنان- ١٩٩٦م، ص ٣١١.
- (٧١) الخطيب القزويني، الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح، ج ٢، ص ١٠٦.
- (٧٢) الحديث من رواية البخاري في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، حديث رقم ٦٧٨٢. وانظر: النسائي، السنن الصغرى، كتاب الاستعاذة من دعاء لا يسمع، حديث رقم ٥٤٧٠.
- (٧٣) رواه مسلم، حديث رقم ٢٠٤٦.
- (٧٤) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٧٥) الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ج ٢، حديث رقم ٨٥٥.
- (٧٦) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ١، ج ١، ص ١٩٤.
- (٧٧) السابق، ص ١٩٤.
- (٧٨) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص ٦٢٩.
- (٧٩) شوقي، أبو خليل، هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ص ١٦٨.
- (٨٠) أبو هلال العسكري الحسن بن عبدالله ابن سهل، (ت ٣٩٥هـ)، رسالة في التفضيل بين

- بلاغتي العرب والعجم، (نشرت في مجموعة التحفة البهية) القسطنطينية، ١٣٠٢هـ، ص ٢١٨. وانظر: عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص ١٢٧. (٨١) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج ١، ص ١٩٤. (٨٢) السابق، ص ١٩٥-١٩٦. (٨٣) ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط ٤، دار الفرقان- عمان ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ص ٤٥٩ وما بعدها. (٨٤) ينظر: أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ط ١، وكالة المطبوعات- الكويت ١٩٨٠م، ص ٢٠٣ وما بعدها. (٨٥) رواه النسائي وابن ماجه، موقع: الفقه الإسلامي، الشبكة العنكبوتية. (٨٦) رواه البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، موقع: الفقه الإسلامي وعلماء الشريعة، الشبكة العنكبوتية. (٨٧) الحديث من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه، موقع: الفقه الإسلامي وعلماء الشريعة، الشبكة العنكبوتية. (٨٨) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج ١، ص ١٩٥. (٨٩) رواه مسلم وأبو داود انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، حديث رقم ٢٦٧٠، دار الفكر، بيروت- لبنان، ج ١٦، ص ٢٢٠. وانظر: سنن أبي داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة، حديث رقم ٤٦٠٨. (٩٠) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج ١، ص ١٩٥. (٩١) محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ت: عبدالعزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر-الرياض، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ٧٦. (٩٢) الحديث مرفوع رقم ٥، باب: ذكر سبب تضييع العمر، موسوعة الحديث النبوي، الشبكة العنكبوتية. (٩٣) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص ٥١. (٩٤) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص ٩٣. (٩٥) السابق، ص ٩٣. (٩٦) القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، الوساطة بين المتني وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل وعلي محمد البيجاوي، المكتبة العصرية- صيدا، ص ٣٣-٣٤. وانظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، ص ٣٧٦. (٩٧) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج ١، ص ٥٢. (٩٨) السابق، ص ١١٨. (٩٩) عمران بن حطان السدوسي، خطيب أموي من رءوس الخوارج، حدث عن

- عائشة وأبي موسى الأشعري. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ج ٤، ص ٢١٤.
- (١٠٠) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج ١، ص ١١٨.
- (١٠١) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٥، بتصرف.
- (١٠٢) عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ت: أحمد حجازي السقا دار التراث العربي - مصر، ج ٥، ص ٥٦٦.
- (١٠٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ت: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، ط ٣، مؤسسة الرسالة - عمان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ج ١، ص ٧٠.
- (١٠٤) عطار بن حاجب بن زرارمة التميمي أبو عكرمة. انظر ترجمته في: الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
- (١٠٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ج ٢، ص ١٨٨-١٨٩.
- (١٠٦) السابق، ص ١٨٩ وما بعدها.
- (١٠٧) القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، شرح يحيى بن شرف النووي، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، مسألة ٨٦٧، دار الخير ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص ٤٦٤.
- (١٠٨) الحديث رواه الشيخان.
- (١٠٩) أخرجه الطبراني وأحمد في مسنديهما من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما). انظر: الهندي علاء الدين علي بن حسام الدين. كنز العمال، ت: صفوت السقا، مؤسسة الرسالة/ بيروت، حديث رقم ١٩٦٧١ من كتاب الصلاة قسم الأقوال، ج ٤، ص ١٧٩.
- (١١٠) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ج ٦، ص ٢٢٢.
- (١١١) انظر: الألباني، محمد ناصر الدين. سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٥م، ج ٣، حديث رقم ١٢٧٢.
- (١١٢) ابن سلام الجهمي (ت ٣٣٢هـ) طبقات فحول الشعراء، ت: محمد أحمد شاكر. وانظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص ٢١.
- (١١٣) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، ص ٨٠.
- (١١٤) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ط ٨، مكتبة النهضة المصرية، ص ١٢٦-١٢٧.
- (١١٥) إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ط ٢، دار المسيرة - عمان، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م، ص ٦٦.
- (١١٦) أخرجه البخاري في العلم، ج ١، ص ٢٧٢، باب من خص بالعلم. وانظر:

- الهندي، كنز العمال، باب حديث الناس بما لا يعرفون، رقم ١١٨٥، ج ١، ص ٣٥٩.
- (١١٧) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، في خطبة الكتاب، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ج ١، ص ٤.
- (١١٨) إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث، ط مؤسسة الرسالة- ١٤٠٥هـ، ج ١، ص ٤٨.
- (١١٩) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٥٩.
- (١٢٠) وليد سعيد عيسى شيمي، في التحليل البلاغي النقدي للنصوص، ط ١، دار الأندلس للنشر والتوزيع/ حائل، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٥٢.
- (١٢١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ج ٥، ص ٤٣٤.
- (١٢٢) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة، رقم ١٥٨٤.
- (١٢٣) أخرجه البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، حديث رقم ٣٢.
- (١٢٤) عبدالعزيز عتيق، في البلاغة العربية (علم المعاني) دار النهضة العربية-بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ١١.
- (١٢٥) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ١، ج ١، ص ١٣٦.
- (١٢٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط، البابي الحلبي- القاهرة، ج ١، ص ٥١.
- (١٢٧) محمد علي الصابوني، من كنوز السنة دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) مكتبة الغزالي- دمشق، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ص ٣٦.
- (١٢٨) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣٦.
- (١٢٩) أخرجه أحمد والبخاري وأبو داود، وانظر: صحيح الأدب المفرد للشيخ ناصر الدين الألباني والحديث عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه رقم ١٠١.
- (١٣٠) متفق عليه، والحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
- (١٣١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة...، باب تحريم ظلم المسلم... رقم ٢٥٦٤.
- وانظر: شرح الأربعين النووية، الحديث رقم ٣٥. وانظر: النووي، يجيى بن شرف الدين، شرح النووي على مسلم، ط ١، دار الخـير ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج ٦، ص ٩٤.
- (١٣٢) الحديث متفق عليه، وانظر: رياض الصالحين للنووي، حديث رقم ١٥٥٨.
- (١٣٣) محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، ص ٣٦.

(١٣٤) انظر: فتح الباري: باب قوله تعالى:

﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾.

(١٣٥) الرافعي، مصطفى صادق. تاريخ آداب

اللغة العربية، دار الكتاب العربي، ج ٣،

ص ٢٤٨.

(١٣٦) الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب

اللغة العربية، دار الكتاب اللبناني - بيروت،

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، ج ٣، ص ٤٥.

(١٣٧) أحمد الشايب، الأسلوب، ط ٨ مكتبة

النهضة المصرية، ١٩٨٨ م، ص ٣٥.

صورة الإرهاب في النص المسرحي العربي

د. يحيى سليم عيسى* د. عبدالرؤوف بني عيسى** د. محمد بكر العباس***

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/١٠/٢٢ م تاريخ قبول البحث: ٢٠١٨/١٢/٣٠ م

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على مفهوم الإرهاب وأشكاله ومستوياته في النص المسرحي العربي، ورصد الفارق الجوهرى بين الإرهاب والمقاومة التي تعد حقاً من حقوق الشعوب المشروعة في التحرر والاستقلال، وقد تناولت الدراسة بالتحليل ثلاثة نصوص مسرحية من نصوص المسرح العربي هي: الاغتصاب لسعد الله ونوس، والحياة الآن لفاطمة المزروعى، وضحى ليلك لغنام غنام، حيث جاءت الحدود الزمنية للدراسة بين عامي (١٩٩٠-٢٠١٦م)، إذ اتبع الباحثون المنهج الوصفي التحليلي في دراستهم، ويمكن لهذه الدراسة أن تحقق الفائدة للعاملين في مجال المسرح من مؤلفين ومخرجين ونقاد، وكذلك تقديم الفائدة للمؤسسات الأكاديمية التي تعنى بالمسرح ككليات ومعاهد الفنون الجميلة. الكلمات المفتاحية: الإرهاب، إرهاب الدولة، المسرح العربي، النص المسرحي.

The Image of Terrorism in the Arabic Theatrical Text

Abstract

This study aims to identify the concept of terrorism and its forms and levels in the Arab theatrical text, and to monitor the essential difference between terrorism and resistance, which is the legitimate right of people to achieve freedom and independence.

* أستاذ مشارك، قسم الفنون المسرحية، كلية الفنون والتصميم، الجامعة الأردنية.

** أستاذ مشارك، قسم العلوم الإنسانية، كلية الآداب، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

*** أستاذ مساعد، قسم الفنون البصرية، كلية الفنون والتصميم، الجامعة الأردنية.

The study analyzes three Arabic theater plays: "Rape" for Saadallah Wannous, "Life Now" for Fatima Al Mazroui, and "Lilac Forenoon" for Ghannam Ghannam. The study timeline covers (1990- 2016). Researchers follow the descriptive and analytical approach, being of interest for those working in the field of theater whether they are authors, directors or critics, as well as academic institutions that deal with theater like institutes and schools of fine arts.

Key words: terrorism, state terrorism, Arab theater, theatrical text

المقدمة:

أثرت ظاهرة الإرهاب تأثيراً بالغاً على الاستقرار والسلم العالميين، حيث باتت تضرب كثيراً من الأماكن في العالم، ويمكن القول أن الإرهاب ينتج من خلال تشكل بذور التطرف الذي يعد ظاهرة معقدة ومتشابكة تشترك في بروزها في المجتمع عوامل وأسباب عدة، لتتداخل العوامل الشخصية والنفسية مع العوامل الثقافية والسياسية والاقتصادية، ليتشكل التطرف من خلال محاولات إلغاء الآخر وإقصائه من الوجود.

لقد اقترن الإرهاب بالتمييز العنصري الذي يهدد الأمن والسلم العالميين، ونظراً لانتشار ثقافات متعددة ومتناقضة في فترات

مختلفة على مستوى العالم، فقد أدى ذلك إلى لجوء الفرد إلى الإرهاب، ومن أهم هذه الثقافات الثقافة الدينية والعرقية وثقافة العنف، ويمكن القول إن جذور الإرهاب قد امتدت إلى أعماق التاريخ، وقد ظهر في العصور القديمة بشكليه الفردي والجماعي، وبعد أن أصبح الإرهاب بديلاً للحرب التقليدية أصبح وسيلة مفضلة لعدد من الدول التي مارسته فكراً وعسكرياً، وذلك حينما شجعت على ظهور التوتر في معظم أنحاء العالم، مما أحدث خللاً في منظومة الحريات، وعرقل حق الشعوب في تقرير مصيرها، وقلل من فرص العدل والمساواة وتعزيز قيم الديمقراطية.

ونظراً لما تجره قضية الإرهاب من مشكلات على المجتمع، فقد جاء المسرح العربي ليقدّم رؤيته السياسية والاجتماعية للواقع المأزوم، وذلك للوصول إلى أعلى درجات الشّحن الانفعالي لدى المتلقي من خلال تناول القضايا الآنية المطروحة على الساحة العربية والتي يقف الإرهاب الآن في مقدمتها، وجاءت هذه الدراسة للتعرف على صورة الإرهاب وأشكاله ومستوياته في النص المسرحي العربي، حيث تم من خلالها رصد الفرق الجوهرية بين الإرهاب والمقاومة بوصف المقاومة حقاً من حقوق الشعوب في التحرر والاستقلال، وقد اتبع الباحثون المنهج الوصفي التحليلي في دراستهم.

مشكلة الدراسة:

منذ بدء الخليقة كان الإنسان عرضة لأزمات متلاحقة تدخلت في رسم حركة الوجود الإنساني، حيث كان لها تداعياتها السلبية والإيجابية على الواقع، وقد بقي لفن المسرح موقفه من القضايا والمشكلات التي كانت تضرب المجتمع، حيث تصدى المسرحيون للتحويلات الجوهرية في واقع الإنسان على صعيد الطراز الحياتي بجوانبه المتعددة، وتأثيره على آليات التفكير عند

الجيل الجديد الذي أراد أن يفرض قيماً تتلاءم وعصره في ضوء الصراع الأيديولوجي والعقائدي والحضاري وما خلفته الحروب والكوارث الطبيعية من آلام أدت إلى عزلة واغتراب الإنسان وشعوره باللاجدوى.

ونتيجة لشيوع قضايا الإرهاب والتطرف التي أخذت بالتأثير على العالم المعاصر، كان للمسرحيين موقفهم منها، حيث تمت معالجتها ضمن النتائج المسرحية على صعيدي النص والعرض، ولأن تأثير الإرهاب قد بدا واضحاً في المنطقة العربية مدفوعاً بأسباب سياسية وحضارية واجتماعية واقتصادية، فقد تناول المؤلف المسرحي العربي تلك القضية في محاولة للوقوف على أسبابها ومجرياتهما ونتائجها، حيث حاول من خلال نصوصه الدعوة للتغيير بما يتوافق مع مصلحة التقدم الاجتماعي من خلال تناول قضية الإرهاب وارتباطاتها السياسية، وآثارها المترابطة والمتشابكة داخل بنية المجتمع، وبذلك فقد بنى المؤلف المسرحي العربي رؤيته الفكرية لمفهوم الإرهاب انطلاقاً من الواقع العربي وصورة الإنسان المضطهد الحافلة بحياته بالانكسارات والهزائم، وفي

ضوء ذلك تتلخص مشكلة الدراسة
بالسؤال الآتي:

ما هي صورة الإرهاب في النص
المسرحي العربي؟

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية الدراسة في كونها تمثل
إضافة للمعرفة في مجال صورة الإرهاب
ومستوياته في النص المسرحي العربي،
حيث تتناول الدراسة بالتحليل ثلاثة
نصوص مسرحية من نصوص المسرح
العربي لثلاثة مؤلفين مسرحيين هم (سعد
الله ونوس، وفاطمة المزروعى، وغنام
غنام)، ويتم من خلال هذه الدراسة بيان
موقفهم الفكري من الإرهاب ودوره في
خلخلة النظم الاجتماعية، ويمكن لهذه
الدراسة أن تحقق الفائدة للعاملين في مجال
المسرح من مؤلفين ومخرجين ونقاد، وكذلك
تقديم الفائدة للمؤسسات الأكاديمية التي
تعنى بالمسرح ككليات ومعاهد الفنون
الجميلة.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى التعرف على:

١- صورة الإرهاب ومستوياته في
النص المسرحي العربي.

٢- الفرق الجوهرية بين الإرهاب
والمقاومة في النص المسرحي العربي،
بوصف المقاومة حقاً من حقوق الشعوب
في التحرر والاستقلال.

حدود الدراسة:

- الحدود الزمنية: (١٩٩٠-٢٠١٦م)،
لكون تلك الفترة قد شهدت انتشاراً
للجماعات الإرهابية التي أثرت على أقطار
الوطن العربي.

- الحدود المكانية: النصوص المسرحية
العربية التي ظهرت في المشرق العربي
وتناولت قضية الإرهاب بوصفها إحدى
القضايا التي تضرب العالم المعاصر.

- الحد الموضوعي: تناول الباحثون
صورة الإرهاب في النص المسرحي العربي
من خلال اختيارهم القصدي لثلاثة
نصوص مسرحية لثلاثة مؤلفين مسرحيين.

منهج الدراسة:

اتبع الباحثون المنهج الوصفي التحليلي
في دراستهم.

تحديد المصطلحات:

١- الإرهاب: Terrorism

لغة: "من (الرغبة)، وهو بالمعنى اللغوي:
طول الخوف واستمراره، وهذا هو الفرق
بين الرهبة والخوف^(١)، وفي القرآن الكريم:

﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحْرِ عَظِيمٍ﴾

[الأعراف: ١١٦]، ومنه الراهب المنقطع للعبادة في صومعته بسبب خوفه من الله تعالى.

وفي قاموس أكسفورد نجد كلمة إرهاب تعني "سياسة، أو أسلوباً يعد لإرهاب وإفزاع المناوئين أو المعارضين لحكومة ما. فالإرهابي (Terrorist) هو الشخص الذين يحاول أن يدعم آراءه بالإكراه أو التهديد أو الترويع"^(٢).

اصطلاحاً:

عرفته دول عدم الانحياز سنة ١٩٤٨م بأنه: "نوع من العنف تقوم به قوى استعمارية عنصرية، أو نظام ضد الشعوب المناضلة من أجل الحرية"^(٣).

وضمن الوثيقة الصادرة عن مركز دراسات الشرق الأوسط في عمان ذهب مجموعة من المفكرين إلى أن الإرهاب هو: استخدام غير مشروع للعنف أو تهديد باستخدامه ببواعث غير مشروعة، يهدف أساساً إلى بث الرعب بين الناس، ويعرض حياة الأبرياء للخطر، سواء أقامت به دولة أم مجموعة أم فرد، وذلك لتحقيق مصالح غير مشروعة، وهو بذلك يختلف كلياً عن

حالات اللجوء إلى القوة المسلحة في إطار المقاومة المشروعة"^(٤).

وتعددت عند الغربيين مفاهيم الإرهاب، وعرفت وكالة التحقيقات العدلية الأمريكية (FBI) الإرهاب بأنه: "استعمال أو - التهديد باستعمال - غير مشروع للعنف ضد أشخاص أو ممتلكات لتخويف أو إجبار حكومة أو المدنيين كلهم أو بعضهم لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية"^(٥). بينما ذهبت وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٨٨م إلى أن الإرهاب هو: "عنف ذو باعث سياسي يرتكب عن سابق تصور وتصميم ضد أهداف غير حربية من قبل مجموعات وطنية فرعية أو عملاء دولة سريين ويقصد به عادة التأثير على جمهور ما"^(٦).

لكن تشومسكي Avram Noam Chomsky* ربط الإرهاب بممارسات الحكومات والدول التي تتسيد المشهد السياسي المعاصر، وذهب إلى أنه: "أعمال العنف التي تقوم بها الحكومات والمصممة لتأمين الخضوع الشعبي. وببساطة، فذلك المفهوم، قليل الفائدة للذين يمارسون إرهاب الدولة، والذين عبر امساكهم بزمam السلطة، فهم في موقع يمكنهم من السيطرة

الشائعة في المجتمع، وتبني قيم ومعايير مخالفة للواقع المعاش^(٩).

وتماشياً مع أهداف بحثهم فقد تبني الباحثون تعريف (عثمان) كتعريف إجرائي لبحثهم.

أولاً: الإرهاب: أسبابه وأشكاله:

عند استعراض المفاهيم التي تم تناولها للإرهاب عند الغربيين وغيرهم من العرب يتبين أن مفهوم الإرهاب ما زال يشغل المفكرين وعلماء السياسة والاجتماع وغيرهم، لكونه لا يوجد تعريف عالمي موحد لهذا المصطلح، "وسبب ذلك أن كل طرف يريد تعريف الإرهاب بما يتوافق وأهدافه ورغباته ومصالحه، وبعضهم لا يريد تعريفاً محدداً موحداً، ليلبس كل حالة لبوسها بما يتوافق وأهواءه، ومع ذلك فهناك مجموعات إقليمية اتفقت على تعريف موحد له رغم أنها تختلف أحياناً فيما بينها حول تفسيره وتحديده، تبعاً لتطور الأحداث في هذا الاتجاه أو ذاك، ومما يزيد الأمر تعقيداً تداخل الإرهاب المرفوض، مع ظاهرة أخرى (محمودة) هي ظاهرة الكفاح الوطني ضد الاستعمار والاحتلال^(١٠).

لكن الجميع يتفقون على أن الإرهاب هو الاستعمال المطلق للعنف والقوة تجاه

على نمط التفكير والتعبير. وعليه فالمعنى الأساسي تم التخلي عنه، ومصطلح الإرهاب أصبح يطلق أساساً على الإرهاب بالتجزئة للأفراد والمجموعات^(٧).

وتماشياً مع أهداف بحثهم فقد تبني الباحثون تعريف الإرهاب الوارد ضمن الوثيقة الصادرة عن مركز دراسات الشرق الأوسط في عمان كتعريف إجرائي لبحثهم.

٢- المقاومة: Resistance

اصطلاحاً:

ذهب (العيسى وآخرون) إلى أن المقاومة هي "رد فعل ضد الهيمنة والاستبداد من جهة، ودفاع الكائن عن مجاله الحيوي الإنساني من جهة أخرى، وهذا المجال هو المحيط والمجتمع والتشكيلات الاجتماعية، والمقاومة في الأساس رد فعل دفاعي عن مكونات البيئة والمحيط^(٨).

وتماشياً مع أهداف بحثهم فقد تبني الباحثون تعريف (العيسى وآخرون) كتعريف إجرائي لبحثهم.

٣- التطرف:

اصطلاحاً:

ذهب (عثمان) إلى أن التطرف هو الخروج عن القيم والمعايير والعادات

أو الدولة، أما إذا ارتبط التطرف بالعنف المادي أو التهديد بالعنف فإنه يتحول إلى إرهاب، فالتطرف دائماً في دائرة الفكر، أما عندما يتحول الفكر المتطرف إلى أنماط عنيفة من السلوك من اعتداءات على الحريات أو الممتلكات أو الأرواح أو تشكيل التنظيمات المسلحة التي تستخدم في مواجهة المجتمع والدولة، فهو عندئذ يتحول إلى إرهاب^(١٢).

كان التطرف في السابق لا يعاقب عليه القانون ولا يعد جريمة بينما الإرهاب هو جريمة يعاقب عليها القانون، وذلك لأنه لا يمكن معاقبة الفرد على النوايا والأفكار، أما اليوم فالقانون يعاقب على الفكر المتطرف لأنه يغذي السلوك الإرهابي، وعلى هذا الأساس فإن التطرف هو مجموعة من المعتقدات والأفكار التي تتجاوز المتفق عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً، وعلاج التطرف يكون عن طريق الفكر، وإذا تحول التطرف إلى تصادم فهو يخرج عن حدود الفكر إلى نطاق الجريمة مما يستلزم تغيير مدخل المعاملة وأسلوبها^(١٣)، وبذلك فهو يشكل خروجاً عن القيم والمعايير والعادات الشائعة في المجتمع، وتبني قيم ومعايير مخالفة لها، حيث يتخذ الفرد أو

المدنيين أو الأهداف المدنية، أو العسكريين، أو الأهداف العسكرية في غير حال الحرب المعلنة بين طرفين بهدف بث الرعب بدون إنذار سابق، وقد مورس على الصعيد الداخلي ضمن المجتمع الواحد من السلطة الحاكمة ضد الطبقات المحكومة، أو من فئة كبيرة ضد فئة قليلة أو العكس، أو من فئة تسعى إلى مقاومة ظلم السلطة الحاكمة. وقد مورس على الصعيد الخارجي باعتداء الدول القوية على الشعوب الضعيفة. ناهيك عن تدخل الدول الأجنبية في الصراعات المحلية التي تنشب ضمن المجتمع الواحد^(١١).

ولا خلاف بين العلماء من جميع الأديان بأن الإرهاب منهى عنه وممنوع، سواء ارتكبه فرد أو جماعة أو دولة، وسواء ارتكبه مسلم أو غيره، وأخطرها على الأمن والسلام في العالم هو إرهاب الدولة، ولا يمكن في هذا السياق الفصل بين التطرف والإرهاب، إذ يشكل التطرف الوعاء الحاضن لفكرة الإرهاب، فهو يرتبط بمعتقدات وأفكار بعيدة عما هو معتاد ومتعارف عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً، دون أن ترتبط تلك المعتقدات والأفكار بسلوكيات مادية عنيفة في مواجهة المجتمع

والتهميش الاقتصادي والاستلاب الثقافي
نتيجة العولمة^(١٤).

ورغم تعدد الأسباب التي تقف وراء
الإرهاب لكنها تختلف من مجتمع لآخر،
وتتفاوت المعطيات المؤدية للإرهاب طبقاً
للظروف السياسية والاقتصادية
والاجتماعية، ويبقى الإرهاب بمعناه
الواسع متعدد الأشكال والجوانب، ويمكن
أن يأتي على صور متعددة، منها:

-**الإرهاب السياسي**، هو: محاولة فرد أو
جماعة أو دولة ما تحقيق بعض الأهداف
السياسية، عبر استخدام العنف وتخويف
(ترهيب) صانعي القرار والمعينين، والضغط
عليهم بممارسات غير مشروعة تلحق
الضرر الجسدي والمادي بالغير.

-**الإرهاب الاقتصادي**، هو: محاولة فرد
أو جماعة أو دولة ما تحقيق بعض الأهداف
الاقتصادية، عبر استخدام العنف وتخويف
(ترهيب) صانعي القرار والمعينين، والضغط
عليهم بمختلف الوسائل الاقتصادية
والسياسية غير المشروعة.

-**الإرهاب الثقافي والفكري**، هو:
محاولة فرد أو جماعة أو دولة ما تحقيق بعض
الأهداف الثقافية والفكرية، عبر استخدام
العنف وتخويف (ترهيب) صانعي القرار

الجماعة، موقفاً متشدداً إزاء فكر معين،
وقد يكون التطرف إيجابياً أو سلبياً يتمثل
بالقبول أو الرفض التام لفكر معين، ويقع
حد الاعتدال في منتصف المسافة بين القبول
والرفض. وفي الحالتين يعد اللجوء إلى
العنف (بشكل فردي أو جماعي) من قبل
الجهة المتطرفة بهدف فرض قيمها
ومعاييرها، أو بهدف إحداث تغيير في قيم
ومعايير المجتمع الذي تنتمي إليه وفرض
الرأي بالقوة، هو أحد أشكال الإرهاب
المنظم.

وعند تتبع ظاهرة الإرهاب في سياقها
التاريخي يلاحظ أنها فكرة نابعة من
التطرف، وهي لا ترتبط بدين معين، أو
جنسية بذاتها، أو منطقة جغرافية دون
أخرى، وقد شهدت عصور التاريخ
المتعاقبة حوادث إرهابية متفرقة سعى
مرتكبوها إلى تبريرها وفقاً لمعتقداتهم
الدينية أو السياسية، وخلص مؤتمر مكافحة
الإرهاب الذي عُقد في الرياض إلى أنَّ
الأسباب الرئيسية للإرهاب تتمثل في "الفقر
المدقع، والنظام والهيكلة الاجتماعي غير
العادل، والفساد، والاحتلال الأجنبي،
والاستغلال الشديد، والتطرف الديني،
والانتهاك المنتظم لحقوق الإنسان،

والمعنيين من المثقفين، والضغط عليهم بمختلف الوسائل غير المشروعة^(١٥).

وهذه الأشكال جميعها تؤسس بمجملها للإرهاب بشكله الاجتماعي العام، والطرف الذي يقوم بالإرهاب يمكن أن يكون فرداً أو جماعة أو تنظيمًا أو دولة، ولعل إرهاب الدولة هو الأخطر من بينها لأنه "يكون الإرهاب الأسوأ والأكثر تمكناً، ولعل أوضح الأمثلة على هذا النوع من الإرهاب: ممارسات الكيان الصهيوني (اسرائيل) لإرهاب الدولة ضد الشعب الفلسطيني على مدار الساعة، وقد ينتج عن هذا الإرهاب ردود فعل عنيفة يعدها البعض إرهاباً!"^(١٦).

لقد بات الإرهاب السياسي المدعوم بالقوة العسكرية أحد أهم أشكال الإرهاب خطورة وذلك لما يحدثه من خسائر بالأرواح والممتلكات، وفي هذا النوع من الإرهاب يتم إخافة الآخرين والضغط عليهم لتحقيق أهداف معينة على مستوى إقليمي أو عالمي، والفعل الإنساني يأخذ الصفة الإرهابية عندما تكون أهدافه ووسائله غير مشروعة، أما إذا كانت هناك أهداف ووسائل تشرعه كما في حالات الدفاع عن النفس ومكافحة الاستعمار أو

الاحتلال، فإنه تسقط عنه صفة الإرهاب ويصبح عملاً مشروعاً كفلت احترامه المواثيق والأديان والقيم الإنسانية، وقد يسمى عندئذ بمسميات أخرى كالمقاومة أو النضال المشروع، والبعض يرى أن الفعل مهما كانت بشاعته يكون مشروعاً عندما تكون أهدافه مشروعة ونييلة، حتى وإن كانت وسائله شريرة سيئة^(١٧). من هنا لا يمكن إدانة المقاومة الفلسطينية لدولة الكيان الصهيوني بوصفها تحتل أرض غيرهم، فالمقاومة هنا مشروعة بكل أشكالها، وما يمارس من خلال تلك الدولة من احتلال وقتل وتهريب للفلسطينيين يندرج تحت مفهوم الإرهاب الذي يعاقب عليه القانون الدولي.

ثانياً: صورة الإرهاب في النص المسرحي العربي:

منذ بدايات ظهور الفن المسرحي عند الاغريق القدماء، تركزت الدعوة إلى الفضيلة من خلالنتاجات المسرحية، وذلك لتقديم الوجه الحقيقي للمجتمعات الحضارية، ضمن تكوينها الإنساني القائم على العدل والمساواة، وقد أثر ذلك في ترسيخ الفن المسرحي كوسيلة تثقيفية وتعبيرية عن خلجات ومشاعر الإنسان

بكل أشكالها، ولما كانت جهود المسرحيين قد تركزت على تقديم الأفعال التي تمر بها الإنسانية بشكلها السلبي والايجابي، فإنهم لم يترددوا في تناول القضايا التي تنتهك الأعراف الإنسانية.

وفي ضوء ذلك فقد حضرت قضية الإرهاب حضوراً واضحاً في الفن المسرحي منذ بدايته وحتى يومنا هذا، ونظراً لأن تلك القضية من القضايا المعقدة التي ضربت العالم، وأحدثت خللاً في توازن القوى الاجتماعية نتيجة للممارسات غير السوية التي تفجر الصراع داخل المجتمعات، وتجبر العلاقات الاجتماعية إلى أوضاع مأساوية لا تلائم تقدم العصر، فقد تم تناولها في المسرح العربي على صعيدي النص والعرض، وسوف يتناول البحث صورة الإرهاب في النص المسرحي العربي وضمن ثلاثة مستويات من خلال اختيار ثلاثة نصوص مسرحية هي:

١- مسرحية الاغتصاب لسعد الله ونوس وصورة إرهاب الدولة:

تعد مسرحية الاغتصاب ١٩٩٠م لـ (سعد الله ونوس)** عن صورة واضحة من صور الإرهاب، وإذا كانت المسرحية تعرض للإرهاب ضمن مستوياته الفردية

والجماعية، فإنها قد عبرت وبشكل كامل عن إرهاب الدولة، ضمن رؤية نقدية من قبل المؤلف للممارسات التعسفية لدولة الاحتلال الصهيوني على تراب فلسطين. وهذا الموقف الذي يقفه ونوس يأتي امتداداً لرؤيته السياسية لوظيفة فن المسرح، فكان الهم السياسي هاجسه الأول وذلك بهدف تغيير الإنسان العربي نحو الأفضل لاسيما بعد الاخفاقات المريعة المتعددة التي لحقت به على امتداد التاريخ، فجاء مفهومه حول مسرح التسييس ليعبر عن زاويتين متكاملتين:

الأولى: فكرية، وتعني أننا نطرح المشكلة السياسية من خلال قوانينها العميقة وعلاقاتها المترابطة والمتشابكة داخل بنية المجتمع الاقتصادية والسياسية.

الثانية: جمالية، فالمسرح الذي يريد أن يكون سياسياً تقديمياً يتجه إلى جمهور محدد مستلب الوعي والثقافة، مخرب الذائقة، ووسائله التعبيرية مزيفة، ينبغي لهذا النوع من المسرح أن يكون له أشكال اتصال جديدة ومبتكرة لا يوفرها تراث المسرح العالمي والعربي، حتى لو كان يحمل مضموناً سياسياً تقديمياً^(١٨)، فهو مسرح منفتح على التجريب والبحث الدائم عن

أشكال مسرحية ضمن المعطيات التراثية، بهدف خلق حالة مسرحية عربية تبقى قريبة من تصورات وذائقة المتلقي العربي.

من هنا جاءت خيارات ونوس المسرحية لتعبر عن واقع الإنسان العربي المعاصر وانكساراته أمام الاضطهاد والقمع الذي مورس عليه من قبل السلطات الحاكمة أو الغازية لأرضه العربية، وحول ذلك يقول: "الصورة التي هزتني وأثرت في وبالتالي انعكست في أعمالي هي صورة الإنسان العربي المهزوم المقهور، والذي يلتمس إمكانية أن يتفتح وأن يحمل قدره بنفسه ولكنه لا يجد حوله إلا الصعوبات والعراقيل والأكاذيب. عراقيل سببها بالدرجة الأولى الوضع السياسي الذي يعيش فيه، سببها القمع المنظم الطويل الذي خضع له، سببها أيضا شراسة القوى الخارجية التي تحاول هزيمته ومنعه من أن يتفتح ويحمل قدره بنفسه"^(١٩).

وبوصف المسرح ظاهرة اجتماعية فإن الأمر قد تطلب عند ونوس الاهتمام بالقضايا الجوهرية المرتبطة بالإنسان، وذلك حتى يأخذ المسرح دوره الحقيقي في المجتمع بعيداً عن الانحراف والتشويه، فحاول تقديم مشكلات المجتمع ضمن رؤى

سياسية مثالية بعيدة عن الصيغ الخطائية الجوفاء والشعارات الزائفة، لذلك فقد دخل ونوس من خلال هاجس التسييس المدخل الجديد الشائك، والذي تشابك فيه أمور ومفاهيم: الحرية، السلطة، الإسقاط التاريخي، الموقف الراهن، الرؤية المستقبلية، وبالتالي الدعوة لإعادة تقويم ما سمي بأزمة المسرح العربي التي استفاضت حولها الاجتهادات والآراء^(٢٠)، وتفاوتت الموقف السياسي في مستوياته في مسرح ونوس بين عمل وآخر، لكنه وصل إلى ذروته بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧م، وفرضت طبيعة الطروحات السياسية في مسرحه أن يتوجه للطبقات الكادحة في محاولة منه للوقوف على مشكلاتها.

إن الغاية التي أرادها ونوس من مسرح التسييس هو إقامة حوار ديمقراطي مشترك بين المشاركين، لتشكل الظاهرة المسرحية في النهاية عملية تحرر جماعي نسبي، "تستهدف خروجاً مؤقتاً عن حدود الواقع، قد يفضي إلى خلخلة البنية الاجتماعية الموروثة السائدة"^(٢١)، والانطلاق من الحالة السلبية التي يتصف بها الواقع إلى آفاق رحبة تتجاوز حدود الكائن إلى ما يجب أن يكون، وذلك من خلال ممارسات واختبارات

قاسية تكشف التناقضات الاجتماعية والأخلاقية وتؤسس لبيان الحقائق الموضوعية وحيثياتها.

إن تفعيل الدور الوظيفي للمسرح هو تفعيل لمناقشة مجموعة من القضايا السياسية والاجتماعية التي تلقي بظلالها على الواقع، فهو الفن الوحيد الذي يواجه الفرد بصورة ذاته، ويجبره على مواجهة أفكاره ومشاعره وتناقضاته مواجهة حية مباشرة، وهو فن يقوم على تعارض وجهات النظر، وعلى الصراع من خلال الأحداث الفكرية والاجتماعية وهو الفن الذي لا يلتزم بوجهة نظر واحدة ولكن يجعل من تبادل وجهات النظر، وصراعها أساسا لتقدم الأحداث^(٢٢)، وكل ذلك يسهم في تأسيس الوعي لدى المتلقي، عبر سعي المسرح نحو خلق آلياته الخاصة في تثقيف المتلقي، وتحريره من السلطة، وفضح المسكوت عنه في المجتمع.

في مسرحية الاغتصاب لسعد الله ونوس ١٩٩٠م قدم ونوس معالجة درامية لعمل الكاتب الأسباني (انطونيو بوירו بايخو) المسمى (القصة المزدوجة للدكتور بالمي)، وإذا كان بايخو قد توجه إلى تشريح التعذيب السياسي وعدوانه الإنساني

وتخريبه للجسد والنفس والروح، فإن ونوس قد قدم الأجواء نفسها عبر تصويره لنموذج إرهاب الدولة من خلال الممارسات التعسفية للكيان الصهيوني على أبناء الشعب الفلسطيني. وقد وضع ونوس ضمن مسرحيته تنويعات فكرية أخرى تميزه عن بايخو، فهو على سبيل المثال لا الحصر يطرح بعض القضايا على هامش الرؤية السياسية كقضية التنشئة التربوية، التي تطرح من خلال حرص الأم على حقن حفيدها بكرهية العرب الفلسطينيين والحدق عليهم^(٢٣).

تشكل المسرحية رؤية جديدة لطبيعة العلاقة مع الآخر الصهيوني، وهذا ما يفسر أسباب تردد ونوس في كتابة هذا النص، وذلك بسبب شعوره بأن المسرحية تبدو ضربا من المراوغة. ويرى ونوس أننا منذ عام ١٩٨٤م لجأنا إلى آليات بدائية في مواجهتنا لإسرائيل، ألقينا عليها المحرم ونفيناها إلى درك الرجس، ورتبنا تعاملنا مع هذا العدو الواقعي والملموس على أسس طقوسية وشعائرية، إذ يكفي أن نتجاهلها، وألا نعرف عنها شيئا، وأن نحصر على سجن وجودها في المحرم حتى نهزمها، لم نضع الصراع على صعيد تاريخي سياسي

ديناميكي، وإنما اكتفينا بالجلوس منتظرين معجزة سحرية يقدمها زعيم أو جيش لا يعرف شيئاً عن عدوه^(٢٤).

ومنذ ترتيلة الافتتاح يبين ونوس حجم المأزق الصهيوني من خلال حديث (الدكتور أبراهام منوحين) الذي عبّر عن خلاله عن يأسه من الواقع، يقول منوحين: "هذه مملكة العصاب والجنون. الرأس كله مريض، والقلب سقيم من أخمص القدم إلى الرأس لا صحة فيه، بل كلوم وحبط وجراح طرية لم تعصب"^(٢٥).

وتتطور الأحداث المسرحية ضمن تقنية تتشابه مع تقنية المسرح الملحمي، وذلك من خلال راويين (إسرائيلي وفلسطيني) وحكايتين تتداخل كل منهما مع الأخرى، وتماشياً مع فكرة الصمود والمقاومة للإرهاب المنهجي الذي تمارسه دولة الاحتلال الصهيوني، تظهر (الفارعة) بوصفها نموذجاً حياً للصمود والتحدي في وجه المحتل، تقول معبرة عن ذلك:

"الفارعة: هم يذبحون ونحن نتوالد. هم ينسفون ونحن ننهض من بين الأنقاض. ما عدنا نولول. وأنا التي كنت نائحة في المآتم أقلعت عن النواح. هذا العالم الأناني لا يبالى بالضحايا، ولا يميز العدالة إلا إذا

كانت مقاتلة جسوراً. لا.. ما عدنا نولول.. والحق لا يضيع ما دام وراءه مطالب"^(٢٦).

إن ونوس يدين التعذيب السياسي المنهجي الذي تقوم به دولة الاحتلال الصهيوني لأبناء الشعب الفلسطيني، وهو حينما يستدعي نصوصاً من العهد القديم، ولا سيما المزامير وأسفار الملوك، إنما يريد من خلال ذلك "ما هو أبعد من مجرد التفسير والتعليق نحو إسعاف إعادة إنتاج المعنى بتراكم الدلالات، مثل دلالة التوسع والعنصرية والعنف وإبادة الآخر (الغوييم - غير اليهودي) وتثميرها في سياق نشدانه للمعنى وما وراء المعنى: توصيف عدوانية الإسرائيلي وهمجيته وإرهابه وعنفه ضد العربي الفلسطيني إلى حدّ الإبادة، وهو ما أظهرته آلية التعذيب حتى الموت في المعتقلات والسجون ممن وقعوا في القيد الإسرائيلي"^(٢٧)، ولم يتوقف التفكير بالإبادة وممارسة الإرهاب من قبل الصهاينة داخل حدود فلسطين، وإنما أظهر ونوس من خلال نصه كيف يردد الإسرائيليون القتلة، ممثلين بالأم ومائير وجدعون وموشي، نصوص من أسفار الملوك والتي تعبر عن أحلامهم بالقضاء على العرب وحضارتهم:

عن ضراوة العدو الإسرائيلي وإرهابه وتقتيله وتدميره للفلسطينيين ومقدراتهم، حيث توضح الفارعة أزمة الإنسان الفلسطيني المتمثلة بالتشرد بعد سيطرة الاحتلال على تراب الوطن ومقدرات أبنائه، لذلك نجدها تدعو لدال إلى الصمود وفي الوقت نفسه تلقن ابنها الذي يمثل المستقبل حقيقة الأحداث، تقول:

الفارعة: سأخبرهم. ارفعني رأسك، وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم. إني أنتظرك هناك. كلنا نتظرك هنا. كم خاف عليك.. وكم حاذر أن يوقظك. ولكن الیقظة الآن ستكون خشنة ومرعبة. أمذك الله بالقوة والحكمة. وأنت يا أميري. لا.. لم أنسك. من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه.. يا الله.. ها هو الحليب. هل تستطيع أن تعي حكايتك منذ الآن؟ إذن اسمع. هذه هي حكايتك. الدجاجة لها بيت. بيت الدجاجة اسمه القن. الأرنب له بيت. بيت الأرنب اسمه الحجر. العصفور له بيت. بيت العصفور اسمه العش. (تبدأ الإضاءة بالخفوت والصوت بالتلاشي). الفلسطيني لا بيت له. والخيام والبيوت التي يحيا فيها، ليست بيت الفلسطيني. بيت الفلسطيني يحيا

الأم: كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تحمكم. مائير: وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبق منا نسمة ما، بل تحرمها تحريماً. (...). عليكم ألا ترحموا حتى تدمروا نهائياً ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني حضارتنا على أنقاضها^(٢٨).

إن موقف الصهاينة المتطرف من العرب يبدو واضحاً في معظم حوارات المسرحية، فكثيراً ما يرددوا ضرورة إبادة العرب، ولا يكفوا عن الاعلان عن أحلامهم التوسعية، ومن أمثلة ذلك تشبيه اسحق ومائير للعرب بصفات تتوازي مع ما ورد في (البروتوكولات):

اسحق: هناك.. نحن نتعامل مع حثالات.. قروود تسير على قائمتين ولا تحسن إلا الشر والكذب^(٢٩).

وحيثما تساق دلال إلى المعتقل، تتولى الفارعة التعبير عن مأساة الإنسان الفلسطيني، حيث يستعين المؤلف وعبر التناص الصريح مع قصة (البيت) لذكريا تامر المكتوبة للناشئة، بوصف يمكن من خلاله تدعيم أطروحات الجانب الفلسطيني

فيه عدوّ الفلسطيني. من هو عدوّ الفلسطيني؟^(٣٠).

إن الإمعان من قبل العدو الصهيوني في إذلال ضحاياه يتجلى واضحاً من خلال ممارساته التعسفية في أقبية السجون، وهذا الموقف يعبر عنه ونوس من خلال جريمة اغتصاب (دلال) أمام زوجها المعتقل (إسماعيل)، فبينما يقف الزوج عاجزاً عن الدفاع عن زوجته أمام سطوة جلاديه وإرهابهم، تبقى دلال في مواجهتهم بنوع من الصمود والتحدي، وهي في هذا الموقف تستمد قوتها من تعاليم الفارعة: "دلال: قالت لي الفارعة لا تخافي.. أنت أقوى منهم.

مثير: هل أخبرتنا بكل ما لديك؟
دلال: وقالت إرفعي رأسك. وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم.
إسماعيل: ليس لدي ما أخبركم به.
مثير: لنبدأ العرس. (دافيد وموشي يجران إسماعيل. وجدعون يمسك عجيزة دلال ويدفعها. الجميع يتجهون إلى الغرفة الداخلية).

جدعون: تعالي يا وافرة الخيرات (تبصق عليه) آه. هكذا أريدك. شرسة أريد

عروسي يا رفاق. إني انتصب كجبل جلعاد.^(٣١)

وفي مشهد آخر يقدم لنا ونوس حدثاً موازياً للأحداث التي عاشها (إسماعيل ودلال) في مشهد الاغتصاب، وذلك حينما يقدم (إسحق) الذي مارس على إسماعيل دور الجلاد والمنتقم وهو يعيش مأزقاً مشابهاً للمأزق الاغتصاب، إذ أنه حينما يلجأ إلى الطبيب النفسي منوحي الذي أخذ يعالجه نتيجة لشعوره بالعجز الجنسي، يكشف الطبيب ما هو أعظم من مصيئته وهو اغتصاب زوجته (راحيل) من قبل زميله (جدعون)، وهنا يعلن إسحق أنهم يهونون إلى الحضيض بسبب ممارساتهم التي تفتقر إلى الروح الأخلاقية، ورغم ذلك إلا أن ونوس لم ينكر أن بعض اليهود لا يتبنون أفكار الحركة الصهيونية، ولا يضمرون العداء للعرب وللإنسانية، لذلك فقد عرض مواقفهم لتشكيل عنصر إدانة للممارسات الإرهابية لدولة الاحتلال، ويظهر موقف الاحتجاج والرفض عند الدكتور منوحي الذي يصور نفسه مفعماً بالأسى، ومتأزياً من ممارسة الإرهاب الإسرائيلي ومتعاطفاً مع الفلسطينيين،

ورافضاً للجوانب العنصرية في التربية الصهيونية، يقول مخاطباً بنحاس:

"الدكتور: نعم يا سيد بنحاس... في تربيتنا الصهيونية تعلّمونا الكراهية بصورة دؤوبة، ولكنهم لا يبالون بالحدود التي يمكن أن تتحمّلها بنيتنا الإنسانية. إن الكراهية المطلقة هي الحدّ الذي يمكن أن يسوّغ كل شيء، ويمنع الاختلال، ولكن من هو الإنسان الذي يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟ (...)، اسمع يا سيد بنحاس. لا تظن أنني أخاف من إعلان رأيي. إن ولائي ليس للقانون بل للعدالة. وليس فيما تفعلونه أيّ عدل. وليس في احتلال الأراضي أيّ عدل..."^(٣٢).

ومثلما نجد هذا الموقف بجوانبه الإنسانية والفكرية عند الدكتور منوحين، جاءت شخصية (أبو إسحق) أيضاً لتؤكد موقفها الرافض للإرهاب الإسرائيلي، مما جعل (أم إسحق) تنظر إليه على أنه خائن ويشكل خطراً على المشروع الصهيوني، وهذا ما يتضح في الحوار التالي الذي جرى بين إسحق والأم:

"إسحق: وعلام كان ينصب عداؤه؟.

الأم: على كل ما نؤمن به، الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القومي.

إسحق: هل كان يسرُّ لك بأفكاره؟.

الأم: بل كان يعلنها بوقاحة صاخبة. في فترة أصابه ولع الدفاع عن العرب، كان يريد مناكدتنا. صار يجمع أقوال اليهود الموسوسين من أمثاله ويتشدد بها أمامنا^(٣٣).

وهذه المواقف المعادية للسياسة العنصرية لدولة الاحتلال الصهيوني يؤكدّها ونوس في (سفر الخاتمة) بالنظر إلى اعتقاده بوجود يهود رفضوا الصهيونية وقاوموها بسبب سياسة الإرهاب والقتل التي تنهجها، لذلك اعتمد ونوس أسلوب السرد في هذه المسرحية ليعبر لنا عن جوهر الصراع ومرتكزاته الفكرية، وهو من خلال هذا الأسلوب الذي أتبعه في تقديم الحكايتين قد نهج نهجاً قريباً من أسلوب (بريخت) الملحمي كي يحيلنا إلى المقارنة بين نقيضين، وفي النهاية يجمع ونوس في حوار محتمل بينه وبين الطبيب النفسي، بوصف الكاتب يمثل الجانب العربي المتضرر، فنراه يقف على ذات البقعة من الأرض التي وقفت عليها الفارعة، ليلخص الحوار جوهر الصراع المتمثل بالصهيونية وممارساتها القمعية، وقد وفر هذا التقسيم للمؤلف فرصة التحليل والتنويع في

الأحداث والتعليق عليها، والغوص في أعماق شخصياته، ونسج علاقات جديدة بينها لم تكن في مسرحية بايخو^(٣٤). إن مسرحية الاغتصاب توجه رسالة نقدية للآخر الصهيوني بسبب ممارساته الإرهابية، ونتيجة لتلك الممارسات يتبنى الإنسان الفلسطيني خيار المقاومة الشعبية وهذا ما يمنحه بطولته، ويمكن القول إن الفارعة، دلال، إسماعيل، عمر، وحسين الصفدي.. توزعت عليها البطولة حتى غدت البطولة هي القضية نفسها، بل هي الشعب الفلسطيني كله أجمع^(٣٥)، لذلك فلا عجب أن ينتهي إسماعيل تلك النهاية المأساوية حينما يموت تحت التعذيب، فيشتعل الصدام بين الطرفين حينما يقيم له الناس جنازة حاشدة سرعان ما تتحول إلى مظاهرة، أما الفارعة فتصاب بطلق ناري، وكل تلك التضحيات تأتي ضمن التوجهات النضالية للإنسان الفلسطيني، التي تهدف إلى مقاومة الاقتلاع والتهجير والإرهاب الذي يمارسه الاحتلال الصهيوني.

٢- مسرحية الحياة الآن لفاطمة المزروعى وصورة إرهاب الفرد:

تحتل الكاتبة (فاطمة سلطان المزروعى)^{***} مكانة بارزة في المشهد الأدبي الإماراتي، وهي تعد واحدة من بين أولئك النساء اللواتي امتزن بالتنوع على مستوى الأجناس الأدبية وعلى مستوى المضمون الإبداعي بشكل عام، وقد استندت المزروعى على الواقع في كتابة نصوصها الأدبية لتقدم لنا صلات الفرد بمجتمعه، وبدت شخصياتها عبارة عن كائنات بشرية مألوفة يتلقفها شرك الأمور اليومية، بكل ما تشتمل عليه من شؤون مبتذلة ومأساوية، وقد توصلت من خلال رؤاها الفكرية إلى أن الظروف الاجتماعية تؤثر على مصائر الشخصيات، فالإنسان هنا هو نتاج عصره وهو لم يعد ألعوبة للقوى الغيبية التي تصنع به ما تشاء، وحول موضوعات أدها تقول: "لا شيء يكتب إلا من الواقع، حتى وإن تخيلنا، أنا مؤمنة أن الكاتب ابن بيئته يكتب ما يراه وما يسمعه وما يشاهده أو ما يحلم به وما يفكر أن يكون في المستقبل، بمعنى أن العتمة والخوف والموت وفقدان الأحبة والمرض وغيرها كلها أشياء طبيعية تحدث في حياتنا اليومية، ولكن على الكاتب أن يعرف كيف يوظفها لخدمة مشروعه ومنجزه، لكن لدي نقطة في هذا السياق

أرغب بتوضيحها، تتعلق بالكتابة نفسها برسالة المؤلف، في الحقيقة لا ألتقط مثل هذه القصص لتخدمني وتخدم مشروعني إطلاقاً صحيح هي تساعدني وتدفعني، لكنني دوماً أشعر أن رسالتي أكبر من أن أتغذى منها أريد التنوير والتحذير منها أريد تنمية ثقافة الناس وأن يروا مثل هذه القصص كواقع أليم، لا أكثر^(٣٦).

لقد قدمت المزروعي في أعمالها المسرحية رؤية فاصلة وناقدة ارتبطت بالواقع الاجتماعي، وهذه الرؤية جاءت مفتوحة على مجموعة من التساؤلات المرتبطة بعدد من القضايا التي باتت تقلق الإنسان المعاصر، ففي مسرحية (الحياة الآن) ٢٠١٤م ناقشت المزروعي فكرة الخوف الاجتماعي التي تستحوذ على أبناء الجنس البشري في ظل سيطرة أفكار التطرف والإرهاب، حيث يفتح الستار على صالة استقبال في فندق وفيها بضعة كومبارس في الصالة، وأثناء ذلك ينزل صاحب الفندق (مالك) - وهو في الأربعين من عمره - وهو يلهث، بينما يحمل رسالة في يده، حيث ينظر إلى الكاميرات المنتشرة في الصالة، معلناً أن تلك الكاميرات تتجسس عليه، وأنه مراقب من الجميع،

لذلك فهو لا يحس بالأمان. ويرتفع صوته المتذمر في أنحاء الفندق وهو يحدث نفسه نتيجة لكثرة رسائل التهديد التي يدعي أنها تصله، يقول مالك:

"مالك: إنهم السبب في كل ما يحصل لي، إنهم يغارون مني.. الجميع يتربص بي.. (...). هذا الفندق بنيت به بجهد وعرقى.. طيلة سنوات وأنا أحفر في الصخر حتى وصلت إلى هذه المرحلة، في الأخير لا أستطيع الحفاظ عليه، لماذا هذا الحظ يا رب؟ إنه الحظ السيء الذي يلاحقني أينما ذهبت، كل النزلاء في الفندق يكرهوني، يعرفون بأنني إنسان ناجح.."^(٣٧).

ومن الملاحظ أن مالك يعاني من الخوف الاجتماعي الذي تحول لديه لبدو على شكل اضطراب نفسي، وهذا الخوف غالباً ما يصيب الأشخاص الذين هم محط أنظار المحيطين به خاصة من ذوي المكانة الاجتماعية العالية أو من أصحاب المسؤوليات، أو الذين يعول الآخرون عليهم بعض الآمال والتوقعات الإيجابية، أو الأشخاص الذين تفرض طبيعة عملهم أو موقعهم الاجتماعي الاتصال المباشر بالناس، علماً أن الآخرين كثيراً ما يكونون أقل منهم شأنًا، من الناحية الفكرية أو

الوظيفية أو التعليمية أو الاجتماعية،
ويسيطر نمط التفكير المشوه على الأشخاص
الذين يعانون من القلق الاجتماعي
ويتصف تفكيرهم بالسلبية والتقييم المتدني
للذات والخوف الفاض، وهذا ما يبدو
واضحاً على شخصية مالك الذي لا يتردد
في التعبير عن قلقه وخوفه من الفكر
المتطرف الذي يتبناه فارس ومحاولاته في
تخريض غريب للقضاء على مالك:

"فارس: لا تشغل نفسك بي، أنت اقضي
على هذا الرجل الذي يكاد أن يجثم على
صدرك ويقضي على أحلامك.
غريب: كلا.. لقد استعمر الخوف قلبه
وأصبح يشك فيمن حوله.
فارس: أخبرني إذن.. كيف ستقضي
عليه؟

غريب: لا أدري.. هذا الثري زرع
الكاميرات في كل شبر من هذا الفندق^(٣٨).

إن القلق الشديد الذي يعاني منه مالك
يظهر واضحاً من خلال سلوك وأفكار غير
سليمة، فهو يشعر أنه تحت المنظار
الاجتماعي أينما وجد، وفي ظل هذا القلق
والخوف الشديد المسيطر لا إرادياً عليه يقع
في صراعات جمّة مع نفسه، لمحاولة إرضاء
نظرته لذاته وللآخرين، وبينما يعيش مالك

هذه الحالة الهستيرية، وفويبا الخوف من
الآخرين وإحساسه بتدبيرهم لمؤامرة كبرى
عليه، يدخل (غريب) ليوقظه من خيالاته
التي يعيشها، حيث يرصد حالة العصبية
التي تجتاحه منذ أيام:

"غريب: اهدأ يا رجل... يبدو أنك تعاني
من هلوسات.

مالك: لست معتوها مثلك... تقرأ كتب
الهلوسة وتخفيها تحت السرير.

غريب: كيف تحروء.. ليس من حقك أن
تتجسس علينا وتفتش أغراضنا.. حتى ولو
كنت تملك هذا الفندق. (...)، سوف
أشتيك لك لدى الشرطة، وأخبرهم بأعمالك
المنوعة.. وكيف تستغل نزلاء الفندق في
تحقيق أغراضك الشخصية.

مالك: ابتعد عني أيها السياسي الحقير.
غريب: السياسي أشرف من العملاء
المنسدين أمثالك^(٣٩).

إن الشخصية الرئيسة هنا تعطي تشكيلة
متناسقة لتجسد فكرة معينة من خلال
تمحور الأزمات الذهنية، وأغلب الظن أن
الكاتبة هنا تهدف إلى خلق توازن بين
الذات وحقلها، بإظهار الجزء المظلم من
الشخصية، وذلك لتحديد مكانة الإنسان
وحركته ضمن الوجود البشري، بوصفه

يعد محوراً للتأملات والبحث الفلسفي
الهادف للوصول به إلى الحياة المثلى البعيدة
عن الزيف وتخلخل القيم والمبادئ.
وحينما يستبد القلق والخوف من الآخر
بالمجتمع تبرز على السطح كثير من
الممارسات الاجتماعية السلبية لاسيما
التلصص واستراق الكلمات، ففي الوقت
الذي يقف فيه كل من غريب وفارس، نجد
حارس البناية سعيد يقف أمام المدخل
حيث يرمقهما بنظرة تحمل بعض الحذر
محاولا الاقتراب منهما حتى يعرف ماهية
الهمس الذي يدور بينهما، يقول سعيد
بصوت خافت وهو يتحدث مع نفسه:
"سعيد: (باضطراب) أخشى ذلك
السياسي كما يقول عنه مالك، ربما يكتب
منشورات ويوزعها على سكان العمارة
ولكن فارس يبدو مسكيناً، ولا يظهر عليه
بأنه شخص شرير.. ولكن مالك يعرف عنه
كل شيء.. مالك يشك في كل شيء..
ويشك في كل من حوالية.. يجب أن أطيع
أوامره لكي اطعم أسرتي. انا أعمل معه
منذ سنوات.. لا بد أن أراقب هؤلاء لا بد
وأنهم يخططون لشيء ما. (يصمت سعيد
ويحاول الاقتراب منهما متلصصاً). (غريب
وفارس منهما كان في الحديث).

سعيد: فارس يبدو شخصاً متديناً،
يستحيل أن يحمل في جيبه قنبلة، ويدمر فيها
هذا المبنى هناك العشرات من الأطفال
والنساء.. ولكن كل شيء جائز في هذه
الدنيا، ربما يعدون خطة انتقامية لملك^(١٠).
وبينما يقترب سعيد أكثر منهما، نجده
يحاول أن يشغل نفسه بالاهتمام بأصيص
الزراع الطبيعي الموجود بالقرب من المصعد،
ومن خلال اطلاق صوت خفيف يكاد
يكون همساً، يتضح مدى العداء الذي
يضمّره (غريب) لملك، إذ أنه نظراً لسوء
المعاملة التي يعاملها ملك للآخرين يتشكل
لديهم الحقد عليه، لذلك نجد أن غريباً لا
يتردد في الاعلان عن ضرورة الخلاص من
هذا الشخص لكونه قد تجاوز حدود اللياقة
والأدب في التعامل، وحينما تحيلنا
الأحداث الى المصعد المعطل، يتضح أن
ذلك العطل الميكانيكي هو عطل بنمط
تفكير الشخصيات وبمركتها ضمن الوجود
الانساني، وبظهور الفتاة الشابة الجميلة
وهي تتحرك في دلال، يقترب سعيد منها
ويعتذر لأن المصعد معطل فتصرخ الفتاة
وتلوح بحقيبتها، وهي تقول:
"الفتاة: هل تريدني أن أهبط من الدرج؟
هل أنت مجنون يا رجل؟".

سعيد: إنها الظروف يا سيدتي، هل تنتظرين ساعتين على الأقل وسوف ينتهي العمال من إصلاحه. (...). جميع سكان الفندق لديهم علم بهذا الموضوع، لست الوحيدة سيدتي؟

الفتاة: أنا مختلفة عنهم تماما يا رجل انا فتاة، وابنة رجل تاجر، ووالدي دفع لكم نقودكم (تصمت ثم تصرخ).. وزيادة..

سعيد: اذهبي الى غرفتك حتى يتم تصليحه.. الأمر لا يعدو عن كونه عطل بسيط.

الفتاة: هذا حبس للحريات... حجز لي والدي في هذا الفندق لكي استجم... لا لكي أهبط من بئر الدرج أو أحبس في غرفتي^(٤١).

ولا يتردد (فارس) في الإعلان بأنه سوف يخبر جماعته ويقنعهم بأن مالك شخص انتهازي، وهو يدير مرقصا وحانة خمر، فهو يرى أن جماعته لا يعجبهم الأمر، ولا يهمهم في النهاية سوى أن تكون بلادنا نظيفة من هؤلاء الكفرة، لكن (غريبا) يرى الأمور من زاوية أخرى ولا دخل للدين في هذا الموضوع، وحينما أراد فارس منه أن يكون من أتباعه، أخبره بأنه لا يجب أن يكون خلف أحد أو نسخة من افكار

شخص ليقوده قيادة عمياء دون معرفة عواقب الامور، لكن فارسا لا يتردد في ايضاح حقيقة تتعلق بشخصية غريب وهو حبه للانضمام لقوائم الأبطال، ويبقى غريب على موقفه مؤكدا أن نظرتة للحياة مختلفة تماما:

"غريب: (...). نصيحتي لك ابتعد عن هذه الجماعة، إنهم يقتلون الأطفال والنساء والرجال العزل.

فارس: (بندية) أنظر إلى فوج السياح هذا إنهم كفرة، لن نسمح لهم بالدخول إلى بلاد المسلمين والتمتع بخيراتهما، ودماء المسلمين تراق في كل مكان.

غريب: دع الأمر لرب العالمين، وسوف يقتص منهم ذات يوم، صدقني الله سوف يعيد الحق لكل مظلوم. (...). وهل هدفك قتل الأبرياء؟.

فارس: ومن قال لك أنهم أبرياء؟ إنهم يقتلون أطفال ونساء المسلمين دون أن يطرف لهم جفن. (...). نحن لا نختلف عن بعض، كلانا يسعى لنفس الهدف.

غريب: كلا، أنا هدفي مختلف، لا أقتل الأبرياء، إنني رجل مثقف ومتعلم، أسعى إلى تبني فكر يقود إلى الديمقراطية والعدل^(٤٢).

إن التطرف الذي ينادي به فارس ويحاول أن يقنع به غريب، يرتبط بمعتقدات وأفكار بعيدة عما هو معتاد ومتعارف عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً دون أن ترتبط تلك المعتقدات والأفكار بسلوكيات مادية عنيفة في مواجهة المجتمع أو الدولة، أما إذا ارتبط التطرف بالعنف المادي أو التهديد بالعنف فإنه يتحول إلى إرهاب، ولأن التطرف يكون علاجه عن طريق الفكر، فلم يتردد غريب في التأكيد على تبني فكر يقود إلى العدل والديموقراطية، بدلا من الخروج عن القيم والمعايير والعادات الشائعة في المجتمع، وتبني قيم ومعايير مخالفة لها، حيث يتخذ الفرد أو الجماعة، موقفاً متشدداً إزاء فكر معين، وعلى النقيض من ذلك تبقى حالة الخوف تطارد مالك الذي يجد في عودة المصعد للعمل مصدرا للقلق، بل أن خوفه وقلقه يدفعه إلى الشك حتى بخادمه الوفي سعيد لذلك نجده لا يتردد في محاولة التخلص منه:

"مالك: (بعصية)... عاد المصعد إلى العمل وستعود وتطرق المشاكل فوق رأسي وسيكون سهلا على رجال الموت اغتالي. سعيد: ما هذا الذي تقوله يا سيدي... هذا كلام من وحي خيالاتك.

مالك: (ينظر لسعيد بريية) خيالاتي.. (...). (سعيد يتلعثم ويشعر بالورطة مع مالك.. مالك يدور حول سعيد وكأنه كشف سرا)

مالك: ها.. كيف فاتني هذا.. يعرف المستخدمون ما لا يعرفه أسيادهم.. فهم يصلون ويجولون في الأملاك.. وينظفون حتى فتحات الأقفال والعيون السحرية.

سعيد: (يرتبك) لا لا يا سيدي لم أكن أقصد.. ما قصدته أنك تحتاج إلى الراحة من كل هذه الافكار".^(٤٣) (٤٤)

إن المزروعى وهي تناقش ظاهرة التطرف والإرهاب إنما تؤكد أن تلك الظاهرة تؤثر بشكل سلبي على الاستقرار والسلم الاجتماعي، لذلك نجدها تتعرض من خلال بناء الأحداث والشخصيات المسرحية إلى الأسباب التي تقف خلفها، حيث تتداخل العوامل الشخصية والنفسية مع العوامل الثقافية والسياسية والاقتصادية، ليتشكل التطرف من خلال إلغاء الآخر وإقصائه من الوجود:

"فارس: لقد فتش غرفتك... إنه يتجسس.

غريب: لطالما حققت على أثرياء العالم.. وهذا الثري أبشعهم وأكثرهم دهاء.

عن عمل في مكان آخر، ويحاول فارس
استمالته من خلال اتباعه خطاب ديني
مشوه:

"فارس: الراحة في الدار الآخرة وما
الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.. اظفر بالجنة
يا رجل.

سعيد: الجنة!!

غريب: الجنة فيها ما لا عين رأت ولا
أذن سمعت.

سعيد: تغير كلامك يا أيها السياسي..
فارس: عاد إلى صوابه وأدرك أن الحياة
زائلة..

سعيد: لن تقنعوني بكلامكم...
أهدافكم الشخصية طغت على ضمائركم
وأصبحتم قتله (...). أعمل حارسا ولكن
أحمل قلبا ووطناً وجنة (...). زوجتي
وأبنائي ووطني جنة الله على الأرض..
اجشوا عن جنتكم خارج هذا الفندق
وابتعدوا عن مالك الفندق هو انسان
مضطرب هذه الايام.. ويشك في
الجميع^(٤٥).

إن سياقات الأحداث تحيلنا إلى أن
سعيدا هو على التقيض من الشخصيات
الأخرى، فهو راسخ العقل ولم يشعر نهائيا
بهبوط ثقته بنفسه وتزعزعها، ويرى أن حبه للوطن
هو الذي يرسخ قوته وطبيعة موقفه الاجتماعي

فارس: (يهمس) ما رأيك بقتيلة في
صالة الاستقبال ونهني معركتنا الباردة مع
هذا البارد.

غريب: من أين لك هذا؟.

فارس: من بقايا الحروب يا صديقي..
القنابل منتشرة في جميع الدويلات. (...).
لطالما كانت تابعة سوف تظل دويلات مهما
كبرت وعلا شأنها..

غريب: وأنت خبير في تجنيد
الانتحاريين!!

فارس: (بجث) استشهاديين يا مؤمن..
نحن نشحذ الهمم ونرفق القلوب وندق
تأثيرات مباشرة للفردوس الأعلى والفوز
بالخور العين.

غريب: وأنت يا رفيق ألا ترغب بالخور
العين.

فارس: جعلني الله سبباً لإسعاد
المكرويين..

غريب: المغفلين^(٤٤).

وحينما يدخل البواب سعيد نجده
يتحدث عن رغبته بمغادرة الفندق مثلما
سيغادره كل من فارس وغريب لأن
صاحب العمل مالك لم يعد يثق بأحد، فقد
اتهم سعيدا بالتجسس ومحاولة قتله، وبات
يرغب بالرحيل عن هذا المكان والبحث

سعيد: لست مجرد حارس.. انا أحمل
شهادة
الفتاة: وما هي شهادتك..
سعيد: الحياة.. (...).
الفتاة: الحياة..
مالك: أخرجنا من هنا إذا أردتما
الحياة^(٤٦).

إن هذا الموقف الذي يقفه مالك من
سعيد والفتاة حينما يطلب منهما الخروج
من المكان حفاظا على حياتهما يرتبط بما
أضمره من الشر، فهو لم يعد مقتنعا بكل
من هم حوله، حتى أن سعيدا لم يسلم منه
هو أيضا، فقد بات ينظر إليه بأنه العقل
المدير لكل المصائب التي تحدث له، وهذه
الحالة المرضية التي وصل إليها مالك تجعله
لا يتردد في زرع قنبلة في المكان لتفجير
لاسيما بعد أن خسر جميع أمواله، ففي
الوقت الذي يهتم فيه سعيد والفتاة بالخروج
من المكان ينطلق صوت انفجار وأصوات
انذار واستغاثة وصراخ، وهنا يركض سعيد
إلى المصعد لكنه لا يستطيع فتحه، بينما
يحاول مالك فتح باب آخر للخروج ولا
يستطيع أيضا، أما الفتاة فتظل تدور بينهم
وهي مذهولة، وتتوقف الأصوات فجأة
ويصمت الجميع حيث ينظرون إلى بعض

والسياسي، لذلك فهو لم يقتنع بالكلام الذي كان
يسوقه إليه فارس، لذلك فقد بقي محافظا على
استقراره، وإذا كانت الفتاة قد رأت أن
الكل يريد النيل من الآخر في هذا الفندق،
فإن موقفها من سعيد قد بدا موقفا إيجابيا،
فحينما يدخل سعيد وهو يحمل أغراضه
نجدها تضحك باستغراب لمشاهدتها هذا
المشهد، حيث تسأله عن مشكلته التي دفعته
للرحيل في هذا الوقت الذي طغت فيه
الأهواء والمصالح وبات كل من النزلاء
ومالك يخططون فيه للشر:

الفتاة: (...) أنت الذي بنيت هذا
الفندق وحفظت أسرارته.

سعيد: ليس هذا الفندق وحسب بل
جميع الفنادق والأبراج المجاورة.. أنظري إلى
هذا الشارع أنظري إلى الأبراج وناطحات
السحاب هناك.. عملت حارساً على أغلبها
وشهدت صراعات كثيرة.. واكتشفت أن
الأثرياء يلهثون وراء المال أكثر من الفقراء..
حاولت مجاراتهم فيما يخططون له لكنهم
يعتقدون أن الجميع ضدهم.. فاكتشفت أن
المال نقمة لا نعمة.. نصيحتي لك.. لا
يغرك ثراء والدك وإلا أصبحت ومالك
سواء.

الفتاة: اختلفت لهجتك..

وكأنهم ينتظرون مفاجأة، لكن المؤلفة تكسر أفق التوقع حينما ينطلق صوت عداد القنبلة التي قام مالك بزرعها:

الفتاة: (تنهار) أنا لا ذنب لي.. لم أتدخل في شئون الآخرين.. عشت طوال حياتي في أمن وأمان.. من أنتم؟.. ماذا تريدون؟.. ماذا ستستفيدون لو قتلتمونا؟!.. مالك، قل لهم يا مالك أنك سوف تتنازل عن حقك.. (تؤكد) قل لهم أنك تنازلت عن حقك.. ماذا بك؟.. تكلم.. لا تستسلم لهؤلاء المرتزقة.. اعطهم ما يريدونه من المال وسوف يتركونا.. أنت لازلت شابا والحياة أمامك.. كيف تستسلم؟..

(مالك يدفع الفتاة ويخرج من بين ملابس جهاز تحكم ويتضح أنه من وضع القنبلة)

مالك: لست شابا ولا استسلم.. لقد سئمت الحياة وأريد أن أموت.. عشت طوال حياتي والخصوم يحومون حوالي.. يغضبون لفرحي ويقيمون المآتم لنجاحي.. وأموت وحيدا؟!.. كلا وألف كلا..

سعيد: أنت غني تملك المال والجاه.
مالك: خسرت كل شيء.. خسرت الجاه والمال.. انهارت اسهمي.. وأفلست

شركاتي بين يوم وليلة.. لا أريد أن أعيش، أريد أن أموت ولا أتسول.. عشت حياتي مدللا.. كيف أكملها وأنا مفلس معدم^(٤٧).

وحينما يدفع الباب بقوة، يدخل كل من غريب وفارس الذي يحمل جهاز تفجير آخر بيده، وينظر إلى مالك حيث يلوحان كلاهما بما لديهما، وتحاول الفتاة الخروج من الباب لكنها لا تستطيع، وبينما يؤكد سعيد هزيمة كل من مالك الذي يعبر عن الأغنياء بسلطتهم، وفارس الذي يعبر عن المتطرفين وانحرافهم، نجد أنهما لا يترددان في سباق الضغط على الزناد، بينما يفكر العالم الخارجي بالحياة، لذلك تطالبهما الفتاة بالكف عن القتل، وفي الوقت الذي يستحوذ فيه صوت سيارات الشرطة وأصوات الاستغاثة على المكان يرمي مالك وفارس ما لديهما من مفاتيح بعيدا، فتذهب الفتاة إلى الباب وتنادي مستنجدة بالآخرين، وحينما تجد الفتاة المفتاح تفتح الباب فيدخل الشرطي الذي يتساءل عن وجود إرهابي هنا لكن الجميع ينظرون إلى بعض ولا يتكلمون وينكرون ذلك مؤكدين أنه كان بينهم رجل معتوه وعاد إلى صوابه.

إن المزروع هنا قد شخصت جزءا من الأمراض الاجتماعية التي تتضخم في

دواخل الشخصيات، والتي يتبلور فيها الوهم والخوف والارتباك، بل والميل نحو القلق والعزلة والانطواء، ومع زيادة تلك الأمراض النفسية والاجتماعية، يزداد تحول الأمور الاعتيادية إلى مواقف مخيفة، وهذا ما ظهر واضحاً عند (مالك، سعيد، فارس، والفتاة)، وكانت النتيجة هي تعميم الخوف إلى أن أصبحت كل شخصية محاطة بهالة لا تحصى من المواقف المرضية المخيفة التي تصاعدت لدى الشخصيات لتصبح بذلك مشروعا حياتياً وهماً لا يمكن الخلاص منه.

٣- مسرحية ليلك ضحى لغنام غنام وصورة إرهاب الجماعة:

يرى (غنام غنام)**** أن للمسرح موقفه الرافض لحالات الاستبداد والتطرف، وأن "مواجهة القوى التي تجتهد في سلب الحريات وتقييد حرية التعبير أياً كانت، فهو من خلال حصانته الذاتية يخلق النقيض من المناخ المفترض، ويظل دليلاً في الاتجاه الصحيح (...)", وإذا كان الاستبداد السياسي هو الوليد الشرعي للاستبداد الديني وما يرافق هذا من ولادات للقوانين والأنظمة والأعراف التي تمنح الاستبداد أدوات شرعيته وهيمنته ومنها المال والجهل وتضييع المبادئ والأخلاق، فإنه ومع

التحولات الكونية، قد بات النظام المستبد يسخر كل ما في الحياة الإنسانية من مواطن قوته لتحقيق استبداده^(٤٨).

لقد نظر غنام للمسرح بوصفه فعلاً تنويرياً يمكن أن يفتح مساحة للتأمل في ظل انتشار الإرهاب والتطرف وتستتره بغطاء الدين، ففي مسرحية (ليلك ضحى-الموت في زمن داعش) ٢٠١٦م توقف (غنام) عند الإرهاب وتجلياته من خلال تقديمه عشر نوافذ للذاكرة، إذ أكد في البداية أنه "لا يمكن لأحد أن يقول: عشت في زمن داعش، ففي زمن داعش تموت الحياة. حتى لا يموت الليلك وحتى لا يذبح الضحى على عتبة الليل، حتى يكبر أولادنا يجنون ويغنون، كتبت هذا النص"^(٤٩)، ويرر المؤلف سبب اختياره لعشر نوافذ للذاكرة بأنه جاء "لأن الاستذكار هو قشة التوازن لدى المحاصر بالمكان، المحاصر بالموت؛ ففي النص أخذت زمن الليلة الواحدة كوعاء عام، ليلة تبدأ بعد صلاة العشاء لتنتهي مع آذان الفجر، زمن تكسر بحضور أزمان أخرى من خلال مشاهد الاستذكار وعمل الذاكرة؛ كما وضعت الحدث في مكانين محاصرين، البيت وقاعة المسرح، وتكسر جغرافياً مكان

الحدث بحضور أماكن أخرى مجدداً من خلال نوافذ الذاكرة^(٥٠).

تدور أحداث المسرحية في بلدة (تل قمح)، وهي بلدة مفترضة، بلدة تشبه الكثير من البلدات على امتداد الوطن العربي التي نكبت بنكبة الإرهاب، بلدة تبعد عن العاصمة خمسمائة كيلومتر، "سقطت بيد الدواعش فسقطت راية الحياة وعلت راية الموت. (تل قمح) ليست مكاناً موجوداً على الخارطة، إنها الجرح الذي يدمي القلب"^(٥١).

تبدأ الأحداث في منزل ريفي يقطنه كل من ضحى (مدرس فن، خريج كلية الفنون تخصص مسرح، مسلم الديانة، زوج ليلك، عشريني)، وليلك (مدرسة فن أيضاً، خريجة كلية الفنون تخصص موسيقى، مسيحية، زوجة ضحى، عشرينية)، وهذا المنزل تم استجاره من شيخ البلدة البلداوي (ستيني، أعزب، ويتصف بالشذوذ الجنسي)، ومنذ البداية يمارس البلداوي إرهابه على ضحى وليلك حينما جاء ليخبرهما أن والي التنظيم (أبو البراء) سيقدم على أمرين يخصانها:

الشيخ: معذرة يا ضحى، كان عليك أن تضع مخافة الله بين عينيك، لتكون من خيار

المؤمنين، ولنكون خير جيران؛ ألا تريد معرفة الأمرين؟.. أبو البراء يخبرك بين أن تطلق زوجك وتخرج من البلدة آمناً سالماً. (...).

ضحى: فإن لم أطلقها؟
الشيخ: تترمل^(٥٢).

وأمام غضب كل من ضحى وليلك يخرج البلداوي مهرولا وهو يتوعدهما بعدم الخروج سالمين من البلدة إذا لم يقدموا على تنفيذ أمر الوالي، لكن المؤلف يحيلنا في مشهد لاحق إلى أن هذين المحاصرين وسط الموت والدمار فيهما شعور إنساني يؤكد احساسهما بالحب والعمل من أجل الحياة ومواجهة الموت، وهما بمواقفهما وصمودهما أقوى من الإرهاب الذي ينشره تنظيم داعش في تلك القرية الصغيرة المسالمة، ووسط الأزمة التي يعيشها كل من ضحى وليلك نجدهما يهربان بذكريتهما نحو الماضي بما يحمله من إشراقات ارتبطت بحبهما الذي تبلور حينما كانا طالبين في المعهد، ثم يحيلنا غنام إلى (نافذة الذاكرة ١) التي جمعت بين ضحى و(حنة) والددة ليلك، وتتحدث عن قيام ضحى بإقناع حنة بسفر ليلك معه إلى قرية (تل القمح) الريفية التي تبعد عن العاصمة خمسمائة كيلومتر، وتتابع

الشيخ: (لضحى) أستاذ ضحى قل
لزوجك أن تعلم البنات شيئاً مفيداً.
ضحى: إنها تعلمهن "بلاد العرب
أوطاني" ونحن الشباب لنا الغد.
الشيخ: رأيت ! نحن الشباب للبنات؟!
فلتعلمهن "طلع البدر علينا".
ضحى: طلع البدر علينا!
الشيخ: إن كانت كمسيحية لا تعرف
"طلع البدر علينا" أنا أعلمها.^(٥٤)
وفي الوقت الذي تسد فيه ليلك كل
الدروب في وجه الشيخ البلداوي، وتهزمه
بالحبة التي كانت تجمعها بالطالبات
والمعلمات ونساء البلدة، باتت تشعر بأن
هذا المجتمع الطيب يخفي تحت عباءته
سكاكين جهل يمكن أن تتوجه نحوك في كل
لحظة، ولم تحب ظنونها فما إن سيطر
الداعشي أبو البراء ورجاله على القرية
حتى وقف الشيخ البلداوي في صفه موجهاً
سهام حقه نحو ضحى في (نافذة الذاكرة
٨):

الشيخ: اسمع يا مسرحجي، جاء الحق
وزهب الباطل، لقد أعز الله تل قمح بدولة
الإسلام، والأخ أبو البراء سيظهرها من كل
دنس، فلا يركبك الغرور، وأهرع إلى
المسجد حيث سيبايع الكل أبا البراء.^(٥٥)

نوافذ الذاكرة لتتوزع بين حضور ضحى
وليلك إلى القرية وذهول كل من أبي سعيد
(فراش وحارس المدرسة) وعمار (مدرس
التاريخ) والشيخ البلداوي من جمالها، وبين
قيام البلداوي بنزع الشال عن كتفيه كي
تستر ليلك نفسها حتى لا تكون فتنة
لضعاف النفوس، ومن ثم حضور الشيخ
كل يوم إلى بيت ضحى معلناً إعجابه
بليلىك، ليظهر في (نافذة الذاكرة ٥) واقفاً
بالباب يتحين فرصة للدخول وليلك تسد
الدرب أمامه، فيخاطبها قائلاً:

الشيخ: يا ابنتي إن أنبياء الله قد وقعوا
في الغواية، الغواية امتحان من الله لعباده،
وأنا مخلوق ضعيف، من لحم ودم، لو أراد
الله لنا أن لا نقع في الغواية لخلقنا من
خشب وأثبت لنا زوجنا من جذورنا، أو
لأثبت لنا أبناءنا دون زوج أو زوجة جميلة
لطيفة مثلك؛ أولن تسمح لي
بالدخول؟^(٥٦)

وفي (نافذة الذاكرة ٦) يستمر الشيخ
البلداوي في محاولاته للإيقاع بليلىك، إذ يبدأ
بتقصي طبيعة ما تعلمه في المدرسة من كل
معلمة أو طالبة يلتقيها في محاولة منه لأن
يوشي لها بتقصيرها في واجباتها، حيث يعبر
عن موقفه ذلك حينما يلتقي ضحى:

وفي (نافذة الذاكرة ٩) يظهر ضحى وهو يمد يده للسلام على أبي البراء الذي يتجاهله ثم يتحدث إليه مهدداً: أبو البراء: لقد بلغنا نبأ الكافرة التي في بيتك ونبأ الفسق الذي كنتما تشيعانه في عقول أبنائنا وبناتنا. أغناني الله عن بيعتك، إلزم أنت وزوجك البيت، ولا تخرج منه حتى آذن لك^(٥٦).

ويعضي ضحى وليلك ومنذ ذلك اليوم موزعين بين العذاب والموت، إذ يتلقفهما الجوع تارة والخوف من سطوة أبي البراء وإرهابه تارة أخرى، لكن الموت جوعاً يبقى بالنسبة لهما أسهل من الموت ذلاً ومهانة، وكلما اشتد بهما الكرب يهربان باتجاه الغناء والتراتيل حتى يصبح غناؤهما أشبه بتراتيل سماوية؛ تأتي ضحى بآلة الكمان المعلقة وتعزف عليها اللحن، حيث يغنيان من شعر ولحن الأخوين رحباني: إذا كان ذنبي أن حبك سيدي ** فكل ليالي العاشقين ذنوبُ

أتوب إلى ربي وإنني لمرة ** يسامحني ربي إليك أتوب^(٥٧).

وهنا يقطع انسجامهما طرق عنيف على الباب، فيصمتان، وإذ بصوت الشيخ البلداوي يصرخ بهما، فيفتح ضحى الباب

ويقبض على ياقة الشيخ ليكتشف أن خلفه اثنين من المسلحين الجهاديين، وهنا يلاحظ الشيخ آلة الكمان التي ما زالت بيد ليلك، فيهجم لأخذها، لكنها ترفض أن تسلمها له، ويهم ضحى بالتدخل إلا أن حمود (فتى من بلدة تل قمح، تلميذ سابق لضحى، ١٧ عاماً) الذي أصبح مقاتلاً مع داعش ينهرهما، ويستولي الشيخ على آلة الكمان فيحطمها، ثم يغادر الشيخ المكان ومعه أبو حمزة الصربي ويترك حمود لحراستهما منعاً لهما من الفرار، وهنا يتعرف ضحى على حمود حيث تكشف الأحداث بأن أبا البراء قد أعدم أباه أمامه في ساحة البلدة حينما وجده سكراناً عندما جاء ورجاله لاعتقال أمه التي قالوا عنها بأنها كانت زانية، وحتى تكفر عن ذنوبها وآثامها وضعت في الخنادق بين المجاهدين. وتستيقظ نوازع الخير عند حمود الذي يقوم بإخفاء ضحى وليلك في قاعة كانت تستخدم كمنصة مسرحية في المدرسة التي كان يعمل فيها ضحى، فبعد سيطرة عناصر من داعش على "تل قمح" حولوا المدرسة إلى مركز عسكري، وحولوا القاعة إلى مستودع يلقون فيه ما ينهبونه من أثاث، فيستغرب ضحى ذلك:

ضحى: لماذا أتيت بنا إلى هنا؟

حمود: أخفض صوتك، وإن استطعت
التخاطب بالإشارة سيكون أفضل. (...).
يجب ان تفهما جيداً بأن الأمر ليس حصّة
فن تقدماؤها في صف من صفوف المدرسة،
وليست أنشودة تعلمينها يا آنسة ليلك،
ليست "نسم علينا الهوى" تحفظينها لبناتك،
ليست مشهداً من "عنتره"، تحملني فيه سيف
خشب وتدهن وجهي باللون الأسود
لأقول: وسيفي كان في الهيحاء طبيباً يداوي
راس من يشكو الصداعا... هنا السيوف
صارت حقيقية، تقطع دون صداع، الذقون
تكنس عمل الشيطان، هنا نسّم علينا ريح
الجنة، يقوها ثم ينطق بالشهادتين ويلفظ
نفسه الخير، هنا من يصاب بطعنة ينزف دمّاً
حقيقياً لا رُب بندورة وعصير توت، هنا
حين تموت، فعلاً تموت، لا تقوم كما في
التمثيل وتحجي الجمهور، هنا رجال صدقوا
ما عاهدوا الله عليه^(٥٨).

ورغم ممارسة مقاتلي تنظيم داعش
القهر والإرهاب على حمود، لكنه لم يزل
يتذكر حبه البريء لفاطمة التي كانت تردد
له أغنية (نسم علينا الهوى) لفيروز كلما
كانت تلتقيه كما ورد في (نافذة الذاكرة
١٠)، وهذه الأغنية تعلمتها فاطمة من

مدرستها ليلك، من هنا تأتي المفارقة بين
الحب والخير الذي يزرعه كل من ضحى
وليلك في هذه القرية، والموت والشر الذي
يزرعه تنظيم داعش فيها، والذي لم تسلم
منه فاطمة التي سبها أبو البراء، ومنحها
لأبي مصعب التشادي الذي انتقل إلى
نيجيريا ليقاتل مع "بوكو حرام".

وفي الوقت الذي تخفت فيه الاشتباكات
قليلاً، يعلو صوت أبي البراء برفقة الشيخ
البلداوي وحمود، حيث يصدمهما كيفية
هروب ضحى وليلك طالبا من رجاله
تفتيش كل البيوت المجاورة، بل وبيوت
شبيحة النظام، وحينما تقترب الأصوات
يسارع ضحى وليلك بالاختباء في إحدى
الخزائن، وهنا يبدأ الشيخ يشكك بطريقة
هروبهما:

الشيخ: لربما أن أحد أولاد الحرام
ساعدهما على الفرار، والله أعلم. (يفتح
باب القاعة ويدخل أبو البراء والشيخ
وحمود)

أبو البراء: إلّا تلمح يا شيخ؟ إلى
حمود؟

حمود: هل تشك بي يا سيدي؟
أبو البراء: أنا لا آمن لأمي.

حمود: (يناوله بندقيته) إذن أطلق النار عليّ الآن سيدي، فالموت أرحم بالنسبة لي من أي شك ينال إخلاصي، أما أنت أيها الشيخ فحسي الله فيك.

أبو البراء: خذ بندقيتك، صحيح أنك ابن زانية، لكنك من فتيان الجنة بإذنه تعالى^(٥٩).

ومع تسلسل الأحداث يكشف حمود عن الخلفية الاجتماعية والسياسية لأبي البراء الذي كان تاجر مخدرات، ولسوء حظه سجنوه مع السياسيين، فهده الله على يد أحد المجاهدين العائدين من أفغانستان، فأصبح متشدداً تابعاً للقاعدة، ثم من قيادات الدولة، وهو ليس ضليعاً في شؤون الدين، ومرجعه ومفتيه هو البلداوي، لكنه رجل قوي ولا يرحم.

ويتحاور كل من ضحى وليلك مع حمود حول قيم البطولة والشهادة، فيحاولان إقناعه بوجهة نظرهما بأن ما يقترفه أبو البراء وأتباعه هو الإرهاب بعينه، لكن القناعات التي رسخوها في رأسه تبقى مسيطرة عليه، وحينما يمضي للقيام بعملية انتحارية، يشيعانه بالنظر، ثم يعلو صوت الشيخ من خلال مكبرات الصوت من على منصة الجامع طالبا من أهالي بلدة (تل

قمح) الكرام تنفيذ أوامر أبي البراء بحماية دولة الإسلام، وذلك بالبحث وإلقاء القبض على هارين كافرين هما المدرس ضحى وزوجته ليلك، المتهمان بإفساد أخلاق أبناء البلدة وبناتها ومحاولة تنصيرهم، ومن يتستر عليهما يعرض نفسه للعقاب، ومن يقبض عليهما له حسن الثواب، وأثناء النداء يبقى ضحى وليلك صامتين مشدوهين، وهنا تقترح ليلك أنه لكي يبقى معاً فلا بد أن يموتا معاً، ككل العاشقين الذين قضوا حباً، وعلى وقع أضواء الشموع وأغنية "نسم علينا الهوى" يقطع كل منهما شرايين رسغ الآخر، ولا ينقطع الغناء لكنه يتلون بالوجع وضعف القوى التي تخور فيهما، فيما يظلان هادئين جالسين على الأريكة والدم يشكل بقعة كبيرة على الأرض والثياب، وحينما يدخل حمود فجأة مستعجلاً، يصدم بالمشهد، فيقف مشدوها، حيث يخاطبهما:

"حمود: لو علمتما أين قررت تفجير نفسي لما فعلتماها.. لماذا رحلتما؟ لمن تركتما هذا العالم؟ من سيعلم فاطمة الغناء ويجعل حمود عنتره؟ من سيغيب البلداوي وأبا البراء؟ من سيدلني كيف يكون موتي مغنياً للعدا؟ (يعلو صوت آذان الفجر)..."

أهكذا ترحلان مع الفجر وتتركان النهار
بلا ضحى والسياح بلا ليلك؟ تركتما حمود
وحيداً حتى الموت".^(٦٠)

إن النهاية التي أرادها غنام لكل من
ضحى وليلك هي ليست دعوة للموت،
لكنها صرخة ضد موت محقق إن لم نفعل
شيئاً للدفاع عن الحياة، من هنا فقد أبقي
الأمل قائماً من خلال امكانية تغيير
الأجيال القادمة وتوجيهها للدفاع عن
حريتها ووجودها ضد كل من يحاول
القضاء على الحب والجمال في هذا الكون
من تلك القوى الظلامية التي تشيع القتل
والإرهاب.

نتائج الدراسة:

١- تناول المؤلف المسرحي العربي
ظاهرة الإرهاب وتأثيرها في المجتمعات
العربية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وقد
تعددت أشكال الإرهاب ومستوياته في
النص المسرحي العربي بين إرهاب
(الدولة، الجماعة، والفرد)، إلا أنه طغى في
كل نص أحد الأشكال أكثر من الأشكال
الأخرى، ففي مسرحية الاغتصاب لسعد
الله ونوس تجلّى إرهاب الدولة ضمن
أحداث النص، إذ عرض المؤلف صورة
واضحة من صور الإرهاب الذي تقوم به

دولة الاحتلال الصهيوني ضد الشعب
الفلسطيني، ضمن مستوياته الفردية
والجماعية، وقد عبر المؤلف عن إرهاب
الدولة ضمن رؤية نقدية للممارسات
التعسفية لدولة الاحتلال الصهيوني على
تراب فلسطين، وقد أدان ونوس الجانب
الصهيوني بسبب ممارساته القمعية ضد
العرب.

وفي مسرحية (الحياة الآن) للمزروعي تم
ترديد أفكار الترغيب والترهيب التي يرددها
الإرهابيون لتحويل مجرى التفكير لدى
الشخصيات المعتدلة، وبقي كل من غريب
وفارس على مواقفهما المتطرفة التي
أوصلتهما إلى مستوى الإرهاب الفردي من
خلال محاولتهما تحقيق الإيذاء الجسدي
للآخرين، وبذلك فقد شخصت المؤلفة
جزءاً من الأمراض الاجتماعية التي تتضخم في
دواخل الشخصيات، والتي بالإمكان أن توصل
المجتمع إلى الهلاك.

وفي مسرحية ليلك ضحى لغنام غنام
تجلّى إرهاب الجماعة ضمن أحداث النص،
إذ عرض المؤلف صورة من صور الإرهاب
السياسي الذي تمارسه الجماعة لتحقيق
أطماع مادية في بلدة مفترضة هي بلدة (تل
قمح)، حيث تناول النص ممارسات تنظيم
داعش الإرهابي الذي تستر بالدين لتنفيذ

مآربه بحق أبناء القرية لاسيما تلك الممارسات التي مورست من قبل أبي البراء والي التنظيم على ضحى وليلك وعلى حمود وأهله أيضا.

٢- ركز النص المسرحي العربي على أن الإرهاب السياسي المدعوم بالقوة العسكرية هو أكثر أنواع الإرهاب شيوعا وتأثيرا في المجتمعات، وظهر ذلك واضحا ضمن مسرحيتي الاغتصاب وليلك ضحى، وفي مسرحية (الحياة الآن) للمزروعي يظهر التطرف لدى فارس الذي يحاول أن يقنع به غريب، لكن مالكا الذي فقد الثقة بمن حوله لا يتردد في زرع قنبلة في المكان لتفجيره لاسيما بعد أن خسر جميع أمواله ومن الملاحظ أن المزروعي وهي تناقش ما يتصل بالتطرف والإرهاب إنما تؤكد أن تلك الظاهرة تؤثر بشكل سلبي على الاستقرار والسلم الاجتماعي، لذلك نجد أنها تتعرض من خلال بناء الأحداث والشخصيات المسرحية إلى الأسباب التي تقف خلفها، حيث تتداخل العوامل الشخصية والنفسية مع العوامل الثقافية والسياسية والاقتصادية.

٣- أكد المؤلف المسرحي نقد إرهاب الدولة لاسيما ذلك المتمثل بممارسات

الاحتلال الصهيوني التعسفية على تراب فلسطين، وأن المقاومة حق مشروع للدفاع عن النفس ومكافحة الاستعمار أو الاحتلال، وهي لا تعد إرهابا وإنما عملا مشروعاً كفلت احترامه المواثيق والأديان والقيم الإنسانية، وقد تعددت أشكال المقاومة هنا بين العسكرية أو الفكرية والثقافية أو الاقتصادية.

٤- ظهر من خلال النص المسرحي العربي أن عددا من الشخصيات التي تقوم بفعل الإرهاب هي شخصيات مهزومة ومقموعة، وتعيش أزمات نفسية وحياة قائمة تفرض عليها الانحراف، وقد تكون هذه الشخصيات قد عاشت ظروفًا سياسية مثل (الأم، مائير، وجدعون) في مسرحية (الاغتصاب)، والذين أخذتهم الرغبة بالاستيطان والتوسع على حساب الشعب الفلسطيني، وقد تكون هذه الشخصيات تعاني من الخوف الاجتماعي الذي يستحوذ على أبناء الجنس البشري في ظل سيطرة أفكار التطرف والإرهاب، أو شخصيات متطرفة كشخصية فارس في مسرحية (الحياة الآن) للمزروعي، وقد تكون هذه الشخصيات قد عاشت ظروفًا اجتماعية ونفسية قاهرة مثل شخصيتي

(البلداوي وحمود) في مسرحية (ليلك ضحى).

الهوامش:

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، الفروق اللغوية، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ت.

(2) The shorter oxford English Dictionary, Oxford University Press, London, 1967.

(٣) حبيب، كميل، إسرائيل دولة الإرهاب، بيروت، مجلة الفكر العربي، العدد ٩٦، ١٩٩٩م، ص ٥.

(٤) مجموعة من المفكرين، وثيقة مفهوم الإرهاب والمقاومة- رؤية عربية- إسلامية، عمان، مركز دراسات الشرق الأوسط، ٢٠٠٣م.

(٥) طه، طه عبدالمعطي، خطيئة التعريف الأمريكي للإرهاب، القاهرة، جريدة الأهرام، ٢٠٠٢م، ص ١٢.

(6) Terrorist group profiles, op.cit, the preface of the then vice president, George bush, dated November, 1988. □

* أفرم نعمو تشومسكي: ولد في عام ١٩٢٨ في ولاية بنسلفانيا، هو أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي ومؤرخ وناقد وناشط سياسي. كتب تشومسكي عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام وهو مؤلف لأكثر من مئة كتاب، وُصف بالشخصية الثقافية البارزة، حيث صُوت له كأبرز مثقفي العالم في استطلاع للرأي عام ٢٠٠٥م.

(٧) تشومسكي، ناعوم، قراصنة وأباطرة- الإرهاب الدولي في العالم الحقيقي، دمشق، دار حوران للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٤.

(٨) العيسى، شملان، وآخرون، ندوة العدد حول المقاومة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٧٩، الكويت، جامعة الكويت، ٢٠٠٢م، ص ١٥٢- ١٦٧.

(٩) عثمان، إسماعيل صديق، التطرف والتعصب الديني - أسبابه والعوامل المؤدية إليه، العدد ٢٨، جامعة بنغازي، المجلة الليبية العالمية، ٢٠١٧، ص ٣.

(١٠) فاضل، صدقه بن يحيى، ظاهرة الإرهاب وإضعاف العالم الإسلامي والمهيمنة عليه، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، المؤتمر الإسلامي العالمي حول مكافحة الإرهاب المنعقد بين ٢٢- ٢٥ / فبراير، ٢٠١٥م، ص ٣.

(١١) الغزال، إسماعيل، الإرهاب والقانون الدولي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م، ص ٥.

(١٢) يونس، زكور، الإرهاب مقارنة للمفهوم من خلال الفقه والقانون، بإشراف: سعيد خمري، آسفي، المغرب، الكلية المتعددة التخصصات، ٢٠٠٥م، ص ٩٣.

(١٣) عطا الله، إمام حسنين، الإرهاب البنيان القانوني للجريمة، بيروت، دار المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٤م، ص ٢٣٤- ٢٣٥.

(١٤) دون مؤلف، مؤتمر مكافحة الإرهاب، الرياض، رابطة العالم الإسلامي، ٢٠٠٥م.

أنموذجاً، عمان، الجامعة الأردنية، مجلة دراسات،
المجلد ٢٤، ١٩٩٧م، ص ٧٠٥.
(٢٤) ونوس، سعدالله، الأعمال الكاملة،
ص ٦٩٢.

(٢٥) ونوس، سعد الله، الاغتصاب، بيروت، دار
الآداب، ١٩٩٠م، ص ١٢.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٢٧) أبو هيف، عبدالله: المسرح العربي المعاصر -
قضايا ورؤى وتجارب، دمشق، منشورات اتحاد
الكتاب العرب، ٢٠٠٢م، ص ١٦٥.

(٢٨) ونوس، سعد الله، الاغتصاب، ص ١٢-١٣.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٥٠-٥١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٦.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٣٤) علقم، صبحة أحمد، المسرح السياسي عند
سعد الله ونوس، عمان، أمانة عمان، ٢٠٠٢م،
ص ٧٧.

(٣٥) الشيخ حسن، فضل خليل، شخصية
الفلسطيني والآخر في مسرحية الاغتصاب لسعدالله
ونوس، غزة، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث
الإنسانية، المجلد العشرين العدد الأول، ٢٠١٢م،
ص ٥٤.

*** فاطمة سلطان المزروعى: مواليد أبوظبي،
شاعرة وكاتبة مسرح، عضو اتحاد أدباء وكتاب
الإمارات، خريجة جامعة الإمارات العربية المتحدة،
تخصص بكالوريوس تاريخ وآثاره، تكتب في العديد
من المجالات والجرائد المحلية والعربية، من
مسرحياتها: الطين والزجاج وقد فازت بالمركز

(١٥) انظر. فاضل، صدقه بن يحيى، ظاهرة
الإرهاب وإضعاف العالم الاسلامي والمهينة عليه،
ص ٤.

(16) Matusiz, Jonathan, Terrorism
and Communication, los Angles, CA.
Sage Publications, 2013.

(17) Jenkins, Brian, Statement about
Terrorism, Annals of American
Academy of Political and Social
Science, Vol. 463, September, 1982,
p12.□

** سعد الله ونوس: ولد في قرية (حصين البحر)
شمال سوريا عام ١٩٤١م وفي عام ١٩٦٦م حصل
على إجازة لدراسة الأدب المسرحي في جامعة
السوربون، عمل في عدد من المجالات السورية
كمجلتي (أسامة) و(المعرفة)، وتميزت أعماله
المسرحية بالتميز والتجريد، ومن هذه الأعمال:
الجراد، فصد الدم، الاغتصاب، توفي عام ١٩٩٧م
(١٨) ونوس، سعدالله، الأعمال الكاملة، المجلد
الثالث، دمشق، دار الأهالي، ١٩٩٦م، ص ٩١-
٩٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٢٠) ألكسان، جان: التشخيص والمنصة، دمشق،
منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٩م،
ص ١١٣.

(٢١) صليحة، نهاد، الحرية والمسرح، القاهرة،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ١٦.

(٢٢) صليحة، نهاد، المسرح بين الفن والحياة،
القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م،
ص ١٤.

(٢٣) بو شعير، الرشيد: إشكالية الإقتباس في
مسرح سعد الله ونوس - مسرحية الاغتصاب

من مسرحياته: حكايات القاضي ربحان ١٩٩١م،
كأنك يا بو زيد ٢٠٠٣م، تجليات ضياء الروح
٢٠٠٣م، يا مسافر وحدك ٢٠٠٥م، وغيرها..
إضافة إلى عدد من مجاميع القصص القصيرة، وعدد
من المؤلفات في مجال النقد الفني، إضافة لتأليف
عدد من الأعمال التلفزيونية الدرامية والوثائقية.
(٤٨) غنام، غنام، المسرح يمتلك البصيرة والجمال
والشجاعة... فماذا يملك الاستبداد؟ الندوة
الفكرية، المسرح في مواجهة الاستبداد، الكويت،
مهرجان الكويت المسرحي التاسع، ٢٠٠٧م.
(٤٩) غنام، غنام، ليلك ضحى - الموت في زمن
داعش، (مسرحية غير منشورة)، عمان، ٢٠١٦م،
ص ٢.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٢.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٣.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٨-٩.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٧-١٨.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٢٨-٢٩.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٤٤.

الأول في جائزة التأليف المسرحي بجمعية المسرحين
عام ٢٠٠٨، ومسرحية حصّة وقد فازت المركز
الثاني في جائزة التأليف المسرحي في دائرة الثقافة
والإعلام بالشارقة عام ٢٠٠٩م، ومسرحية صالون
تجميل التي فازت بالجائزة التشجيعية عن التأليف
المسرحي في دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة عام
٢٠١٠م، ولها أيضا في مجال القصة القصيرة
مجموعة قصصية بعنوان (وجه أرملة فاتنة) وغيرها.
(٣٦) المزروعى، فاطمة، الاماراتية فاطمة
المزروعى: الرواية العظيمة تفضح المستور
الاجتماعي وترسم بؤس الإنسان، الكويت: جريدة
السياسة، مقابلة شخصية أجرتها معها سجا
العبدلي بتاريخ: ١/١٢/٢٠١٤م.

(٣٧) المزروعى، فاطمة، الحياة الآن، النصوص
المسرحية الفائزة بجائزة الشارقة للتأليف المسرحي
لعام ٢٠١٤م، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام،
٢٠١٥م، ص ٢٩١.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٠٨.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣١٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣١٥.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣١٧-٣١٨.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٢٠-٣٢١.

**** غنام غنام: كاتب ومخرج وممثل مسرحي
أردني ولد في أريحا عام ١٩٥٥م، شارك في أكثر من
خمسین عملاً مسرحياً بين مؤلف أو مخرج أو ممثل،

الأسرة الغزاوية في جبل عجلون وعلاقتها مع القوى المجاورة في سوريا وفلسطين ولبنان ٧٨٤-١٠٣٣هـ/١٣٨٢-١٦٣٤م

د. زهير غنايم عبداللطيف * محمود سعيد أشقر**

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/١١/١ م تاريخ قبول البحث: ٢٠١٩/٢/١٧ م

ملخص

تتناول هذه الدراسة الأسرة الغزاوية في جبل عجلون في فترة الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م) وأمراء الأسرة والأحداث التي شاركوا فيها، وموقف السلاطين المماليك ونواب دمشق منهم، والحملات التي قاموا بها على جبل عجلون وما رافقها به من عمليات تخريب.

كما تبين الدراسة أمراء الأسرة خلال العهد العثماني (٩١٦-١٠٣٣هـ/١٥١٦-١٦٣٤م) وعلاقتهم مع السلاطين العثمانيين وولاية الشام، وتنافسهم على حكم لواء عجلون، وعلاقتهم مع القوى المحلية في بلاد الشام لا سيما مع الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف في لبنان، وآل فروخ أمراء لوائي القدس ونابلس، وآل طراباي أمراء لواء اللجون، والنتائج التي ترتبت على ذلك.

الكلمات الدالة: جبل عجلون، الأسرة الغزاوية، الدولة المملوكية، العهد العثماني.

* أستاذ مشارك، دائرة التاريخ، كلية الآداب، جامعة القدس.

** باحث، ماجستير تاريخ/ مدير عام الدراسات والبحوث-مؤسسة إحياء التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.

Abstract

This study inspects Al-Ghzawiyah family of Jabal (Mount) Ajloun in the second Mamluk state (874-923 AH/1382-1771 AD) and the family leaders and their participation in the events. It also explores the position of the Mamluk sultans and deputies of Damascus toward them, in addition to the military campaigns which they launched against Jabal Ajloun and what the destruction which followed.

The research also sheds light on the family leaders during the Ottoman State (1516-1524 AD) and their relations with the Ottoman Sultans and the governor of Al-Sham indicating their rivalry to rule the Ajloun district, in addition to their relations with the local powers particularly Prince Fakr al-Deen al-Ma'ni the prince of Al-Shuf, Faroukh Family the princes of Jerusalem and Nablus districts, Al Tarbay the princes of Al-Lajoun district with the consequences thereof.

KeyWords: Jabal `Ajloun, Al-Ghzawiyah family, Mamluk State, Ottoman Period.

المقدمة:

كانت شرقي الأردن في أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني مقسمة إلى نيابتي الكرك وعجلون، وكانت المنطقة تضم إلى جانب سكان المدن والقرى قبائل بدوية تنتقل من منطقة إلى منطقة أخرى، ومن تلك القبائل بنو لام (المفارجة) وبنو صخر وبنو عباد. وكانت هذه القبائل تتلقى الأموال (الصرر) من الدولتين المملوكية والعثمانية مقابل حمايتها للحجاج في ذهابهم وإيابهم من دمشق إلى الحجاز، ولكنها كانت أحياناً تهاجم قوافلي الحج

الشامي والمصري إذا تأخر أمراء الحج عن دفع مستحقاتها المالية، كما كانت هذه القبائل تتنافس فيما بينها لتولي وظيفة شيوخ القبائل وأمرة المناطق، ولذلك دخلت في حروب وخلافات فيما بينها. كما أن هذه القبائل، ولا سيما في العصر المملوكي عارضت السيطرة المباشرة من قبل الدولة على مناطقها؛ لذلك أرسل نواب دمشق الحملات العسكرية على ديارها؛ لفرض سيطرة الدولة عليها، حيث ترافقت مع عمليات التخريب والتدمير

للمنطقة، بل امتدت إلى القتل والسجن لأفرادها.

وتتناول هذه الدراسة إحدى الأسر المتنفذة التي ظهرت في جبل عجلون، وهي الأسرة الغزاوية التي قامت بدور هام في أحداث المنطقة في أواخر العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني.

وقد اعتمدت الدراسة على المصادر التاريخية المملوكية التي كتبت في القاهرة، مثل كتاب ابن إياس "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، وكتاب الحمصي "حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران"، وكتاب ابن طولون "إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى"، و"مفاكهة الخلان في حوادث الزمان"، وكتاب الحبي "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، والتي كان اهتمامها منصباً على ما يحدث في القاهرة ودمشق. أما اهتمامها بأحداث منطقة شرق الأردن، فكان اهتماماً عرضياً ومحدوداً مقارنة مع اهتمامها بما يحدث بالقاهرة ودمشق.

أما مصادر الدراسة من العهد العثماني، فيبرز من بينها كتاب "الأمير فخر الدين المعني الثاني" لأحمد بن محمد الخالدي الصفدي الذي غطى أحداث المنطقة بشكل

واسع. كما اعتمدت على وثائق المهمة العثمانية التي نشرها فضل بيات بعنوان "بلاد الشام في وثائق المهمة العثمانية".

ثانياً- الأسرة الغزاوية في الفترة المملوكية:

تعود جذور الأسرة الغزاوية إلى قرية صخرة^(١) من أعمال جبل عجلون (نيابة عجلون)، وقد ساهمت الأسرة في الأحداث التي مرت بها المنطقة في الفترة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٢هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م). وبرز من أمراء الأسرة في هذه الفترة:

١- الأمير مهنا الغزاوي:

يعد الأمير مهنا الغزاوي من أبرز الشخصيات التي ظهرت في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي الذي ساند الأمير نعيم بن مهنا^(٢)، أمير آل فضل، بحربه مع نائب الشام منطاش^(٣) في وقعة عذرة عام ٧٩٣هـ / ١٣٩٢م^(٤)، كما شارك مع القوات المملوكية في التصدي للمغول بقيادة تيمورلنك خلال هجومهم على دمشق عام ٨٠٣هـ / ١٤٩٩م^(٥)، فيذكر ابن حجي أنه في يوم الإثنين ١٠ جمادي الأولى ٨٠٣هـ / ١٤٩٩م كانت وقعة خيب بين الغزاوية ومعهم جقمق وجماعة من

المماليك هزم في بدايتها المغول ثم عاد المغول للهجوم بعد وصول أعداد جديدة منهم للمنطقة، فقتل عدداً من الغزاوية والمماليك، وأسر آخرين، وفر جقمق إلى البلقاء^(٦).

وفي عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م هاجم نائب دمشق الأمير سيف الدين شيخ الخاصكي الظاهري جبل عجلون لمدة عشرين يوماً واستولى على ديار بني الغزاوي وهدم دورهم في صخرة؛ بسبب عدم حضورهم إليه عندما قدم إلى تلك النواحي وامتناعهم عن تقديم الغلال له، كما أنهم فرضوا سيطرتهم على المنطقة ولم يبالوا بالسلطة المملوكية^(٧)؛ ولذلك شارك منها الغزاوي في القتال ضد الأمير شيخ، وفي حصار صفد في رمضان ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م التي انضم نائبها إلى الأمير شيخ، وقتل خلال الهجوم الابن الأكبر للأمير منها وأصيب ابن آخر له، وفقد ابنه الثالث إحدى عينيه^(٨).

٢- الأمير غانم الغزاوي

من أمراء الأسرة الغزاوية الأمير غانم الغزاوي الذي ورد عنه خبر واحد فقط، هو أنه قبض على عثمان بن أحمد عثمان الذي ادعى أنه السفيناني^(٩) مع ثلاثة من

أتباعه عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م وسلمهم إلى نائب دمشق الذي سجنهم في قلعة صرخد^(١٠).

٣- زين الدين خطاب بن عمر بن مهنا بن يوسف الغزاوي

اتجه بعض أفراد الأسرة في هذه الفترة إلى دراسة العلوم الدينية ومنهم زين الدين خطاب بن عمر بن مهنا بن يوسف الغزاوي العجلوني الدمشقي الذي ولد في عجلون عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٤م، وانتقل إلى دمشق ودرس على علمائها، وزار القدس وأقام بها مدة، ووصف بأنه فقيه الشام ومفتيها، مع كثرة التواضع ونظم الشعر. وقد توفي في دمشق عام ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م^(١١).

٤- الأمير محمد بن ساعد الغزاوي وعلاقته مع نواب دمشق المماليك:

هو الأمير ناصر الدين محمد بن أبي سيف مدلك المعروف بابن ساعد الغزاوي. برز من هذه الأسرة في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ووصف بأنه شيخ بلاد عجلون، حتى أن المصادر التاريخية أطلقت على جبل عجلون أحياناً بلاد ابن ساعد^(١٢).

وقد دخل الأمير محمد بن ساعد الغزاوي في خلافات مع سلاطين الدولة المملوكية في القاهرة ومع نوابها في دمشق بسبب اعتراضه على الهجمات التي شنوها على جبل عجلون ومحاولتهم فرض السيطرة المباشرة على المنطقة.

أ- حملات قانصوة اليحياوي على جبل عجلون:

في عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م توجه قانصوة اليحياوي^(١٣) نائب دمشق إلى بلاد عجلون للقبض على محمد بن ساعد الغزاوي بسبب عصيانه على الدولة، ولكن تساقط الثلوج خلال الحملة حال دون تحقيقها لأهدافها^(١٤).

ومع تزايد هجمات ولاية دمشق أعلن الأمير محمد بن ساعد عصيان الأسرة الغزاوية بجبل عجلون احتجاجاً على سياسة الدولة المملوكية وولاية دمشق وفرضها الضرائب على السكان. وعندما حاول المماليك تجنيد سكان جبل عجلون لمقاتلة العثمانيين للمشاركة في الحملات التي أرسلت، دفع ذلك محمد بن ساعد للمشاركة في ثورة عامي ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م و٨٩٩هـ / ١٤٩٤م، والتي امتدت إلى مناطق

مختلفة من فلسطين والأردن منها جبل نابلس والغور والكرك والشوبك^(١٥) حيث أن خليل بن إسماعيل^(١٦) أحد الثائرين في جبل نابلس انتقل إلى جبل عجلون بعد مهاجمة جبل عجلون من قبل القوات المملوكية، فيذكر ابن طولون، أنه في ٧ صفر ٨٩٩هـ / ١٦ شباط ١٤٩٣م توجه قانصوة اليحياوي نائب الشام إلى جبل عجلون للقبض على محمد بن ساعد و خليل بن إسماعيل في بلاد عجلون لعصيانهما^(١٧).

ب- حملات كرتباي الأحمر على جبل عجلون:

ازدادت الحملات على جبل عجلون نعد تولي كرتباي الأحمر^(١٨) نيابة دمشق؛ ففي ذي القعدة ٩٠٣هـ / آب ١٥٠٥م هاجم كرتباي الأحمر، نائب دمشق، قبيلة بني لام^(١٩) وأخذ منها أموالاً كثيرة، ولكن الأمير محمد بن ساعد الغزاوي لم يأت لاستقباله أثناء الحملة وبعث إليه أحد أبنائه ومعه مال كثير، فلم يرض كرتباي الأحمر إلا بحضوره^(٢٠)؛ لذلك هاجم في نفس العام عجلون وخرب قراه بحثاً عن ابن ساعد الذي اختفى من أمام النائب^(٢١). وفي أعقاب ذلك، قرر كرتباي أن يبني قلعة في قرية صخرة مقر الأسرة الغزاوية، ولكن

ابن ساعد امتنع عن الحضور إليه واكتفى بإرسال ابنه ومعه مبلغاً من المال، ولكن كرتباي أصر أن يأتي ابن ساعد إليه صاغراً^(٢٢) وفي محرم ٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م انتقل الأمير كرتباي الأحمر إلى جبل عجلون وبني قلعة في قرية صخرة ووضع فيها عدداً من المقاتلة، ولكن ابن ساعد استولى عليها بعد أن غادر الوالي المنطقة وقبض على عدد من البنائين والمعماريين فيها، فهرب قائد الحامية وقبض عليه من قبل الأمير كرتباي فاعتذر بانه عاين الهلاك والموت^(٢٣). كما هاجم الأمير كرتباي جبل عجلون في ١٥ صفر عام ٩٠٤هـ/ ١٥٠٦م وخرّب صخرة وعدداً من القرى الأخرى^(٢٤).

ج- حملات الأمير سيباي^(٢٥) على جبل عجلون:

استمرت محاولات المماليك لإخضاع منطقة جبل عجلون وأميره محمد بن ساعد لسيطرتهم المباشرة في عهد نائب دمشق سيباي، وظهر ذلك من خلال إرسال الحملات العسكرية إلى المنطقة. وقد واجه الأمير محمد عدة حملات على جبل عجلون، ففي ربيع الثاني ٩١١هـ/ آب ١٥٠٥م هاجم سيباي جبل عجلون وأتلف الزروع والغلال وقتل عدداً من سكانه^(٢٦).

وفي ١٦ ربيع الثاني عام ٩١٢هـ/ ٤ أيلول ١٥٠٦م أرسل السلطان قانصوه الغوري^(٢٧) مرسوماً إلى سيباي يأمره بمهاجمة بلاد ابن ساعد والقبض عليه^(٢٨).

وفي ١٨ ذي الحجة ٩١٤هـ/ ٨ نيسان ١٥٠٨م عاد سيباي لمهاجمة بلاد عجلون فنهب المنطقة وخرّبها^(٢٩)، كما أنه قام بحملة أخرى في ١٥ ربيع الأول ٩١٦هـ/ ٢٥ حزيران ١٥١٠م وحرّق المنطقة وقرية اربد^(٣٠) ونهب ما حولها، وأتلف للناس الآلاف من غرائر^(٣١) القمح مدفوعاً بأن أهالي جبل عجلون كانوا يتعصبون لابن ساعد وبني لام^(٣٢)، بينما يذكر الحمصي أنه في ١٧ ربيع الأول ٩١٦هـ/ ٢٣ حزيران ١٥١٠م خرج نائب الشام وصحبته عساكر الشام متوجهاً إلى خراب بلاد ابن ساعد وقطع أشجارها وهدم بيوتها حسب مرسوم السلطان المملوكي قانصوه الغوري وشارك معه في الهجوم نائب صفد جان بردي الغزالي^(٣٣) وعساكر مملكة صفد^(٣٤). وخلال الحملة، اعتقل عدد من مشايخ العربان (البدو)، ولكن خلافاً وقع بين نائب الشام سيباي الذي أمن المعتقلين والغزالي نائب صفد الذي قبض عليهم وسجنهم في قلعة المدينة^(٣٥).

ويوضح ابن الحمصي سبباً آخر لعداء الأمير سيباي لمحمد بن ساعد الغزاوي، وهو أن القاضي تاج الدين بن القاضي، وكيل السلطان وأمير التركمان وعداد الغنم في دمشق، حرض الأمير سيباي عليه واتهمه أنه يجمع العصاة والعربان، ولكن ابن الحمصي يكذب هذا الاتهام، ويعزي السبب الحقيقي لهذا التحريض إلى أن القاضي تاج الدين زار عجلون فلم يقم له ابن ساعد، فشكاه للسلطان، وشنع عليه^(٣٦).

د- تحسن علاقة الأمير محمد بن ساعد مع الدولة المملوكية:

أدت الحملات المملوكية على جبل عجلون وما رافقها من عمليات تخريب وتدمير للمنطقة إلى تراجع محمد بن ساعد عن موقفه المعارض للمماليك ومحاولاتهم فرض السيطرة المباشرة على المنطقة، وظهر ذلك من خلال قيام ابنه بزيارة القاهرة ولقائه مع السلطان المملوكي قانصوه الغوري، فيذكر الحمصي أن ابن محمد بن ساعد الغزاوي حضر إلى القاهرة ومنحه السلطان قانصوه الغوري الأمان له ولأبيه، وإن شاء حضر على نائب الشام وإن شاء لا يحضر عليه^(٣٧).

وقد ذكر ابن إياس قدوم محمد بن ساعد نفسه إلى القاهرة وليس ابنه، فقال: إنه في يوم السبت ٢٢ رمضان ٩٧١هـ/ ١٤ كانون الثاني ١٥١١م حضر إلى الأبواب الشريفة شخص من أمراء عربان الشام يقال له محمد بن ساعد، وكان من العصاة لم يدخل قط تحت طاعة السلاطين ولا نواب الشام، وكانوا يخشون من بأسه، فحضر في دولة الغوري إلى الديار المصرية وصحبته مقدمة (هدية) إلى السلطان ما بين خيول وسلاح وغير ذلك، فعد ذلك من جملة سعد السلطان قانصوه الغوري^(٣٨).

والأرجح أن ابن محمد بن ساعد هو من زار القاهرة وليس محمد ابنه كما ذكر الحمصي الذي كان أقرب إلى المنطقة، وكان على علاقة مع الأسرة الغزاوية.

أما عن زيارة محمد بن ساعد لدمشق، فقد أورد ابن طولون خبرين عن وصوله إلى دمشق؛ فذكر في الأول أنه في يوم الجمعة ١٠ ربيع الأول ٩١٧هـ/ ٦ حزيران ١٥١١م دخل إلى دمشق الأمير محمد بن ساعد كبير البر وحووران وعجلون وصحبته الشيخ محمد الصمادي^(٣٩) بالطبول الصمادية وتلقاه جماعة فيها، طالباً من النائب العفو والإعانة له من السلطان

وقدم للنائب خيولاً وغيرها فخلع عليه وأكرمه وأمر الأمراء بإكرامه^(٤٠).

وذكر في الخبر الثاني أنه في يوم الخميس ١٦ رجب ٩١٧هـ / ٨ تشرين الأول ١٥١١م دخل إلى دمشق الأمير الأصيل ناصر الدين محمد بن أبي سيف مدلل الشهير بابن مساعد الغزاوي العجلوني شيخ البلاد وكبير المشايخ الذي اشتهر بالدين والخير عند الخاص والعام وفرح الناس بدخوله واستبشروا بإصلاح شأن الحجاج وغيرهم لوقوع الصلاح بينه وبين الترك (المماليك) فلما وصل إلى حضرة النائب رأى السباط (مأدبة الطعام) قد خُضر فتساحا وأكرمه النائب وأمره بالأكل فامتنع وقال إني صائم فألح عليه فافطر فلما فرغ السباط ألبسه خلعة سنية ولولديه الصغيرين اللذين أتيا معه لكل منهما خلعة^(٤١).

وقد دفع الأمير محمد بن مساعد للقيام بذلك ما حل بمنطقة عجلون من دمار وخراب من قبل الجيوش المملوكية التي كانت تهاجم المنطقة؛ وتدمر البيوت وتتلغ المزروعات، مصدر رزق السكان، بل كانت تستولي على المحاصيل الزراعية أيضاً. وأشار إلى ذلك ابن الحمصي بقوله إنه في ١٦ رجب ٩١٧هـ / ٨ تشرين الأول

١٥١١م وصل الأمير الناصري محمد بن مساعد، شيخ العربان، إلى دمشق، وحضر على نائب الشام سيباي وخلع عليه وعلى جماعته، وأنه لم يسبق له ولا لأبيه أن قدم على الدولة أبداً. وقد حضر لأنهم جردوا عليه وخربوا بلاده وأحرقوها مراراً، وانهم لم يستطيعوا القبض عليه، فأخذوه بالملاطفة^(٤٢).

ثالثاً- الأسرة الغزاوية في العصر العثماني:

بعد السيطرة العثمانية على بلاد الشام عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ومصر عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م عين السلطان سليم الأول العثماني^(٤٣) جان بردي الغزالي والياً على الشام، ولكن الغزالي تمرد على الدولة وأعلن نفسه سلطاناً، وقبض على شيوخ بعض المناطق في فلسطين والأردن في ١٢ ربيع الأول ٩٢٥هـ / ١٣ آذار ١٥١٩م ومنهم الأمير محمد بن مساعد الغزاوي، فشقه مع أحد أبنائه، وأرسلت رؤوسهم إلي السلطان سليم، وقد اتهم هؤلاء بتشجيع قبيلة بني لام على مهاجمة الحجاج في وادي النعام قرب مكة^(٤٤).

١- الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي:

لم يرد ذكر لأي من أفراد الأسرة الغزاوية بعد مقتل الأمير محمد بن مساعد حتى برز في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي زعيم آخر منها وهو الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي الذي ذكر أنه كان يتولى حكم سنجد عجلون قبل عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م ثم عزل عنه وتولى حكم سنجد صلخد^(٤٥) وتولى حكم سنجد عجلون في نفس العام. وحين توليه لسنجد عجلون، أرسل السلطان العثماني إلى والي الشام يطلب منه استدراج الأمير قانصوه والقبض عليه والتحقيق معه بشأن الاتهامات الموجهة إلي بأنه كان يعتدي على الناس ويستولي على أموالهم خلال ولايته على لواء عجلون^(٤٦). وعلى الرغم من ذلك، تولى سنجد عجلون ثانية في الفترة الواقعة ما بين عامي ٩٧٨هـ-١٥٩٩هـ/ ١٥٧٠-١٥٨٦م، بالإضافة إلى لواء الكرك-الشوبك، وقيادة قافلتين الجردة وقافلة الحج الشامي لسنوات عديدة^(٤٧).

ولم تعط المصادر التاريخية المتوفرة معلومات عن أعمال قانصوه بن مساعد خلال توليه حكم لواء عجلون، ولكن تتوفر بعض المعلومات عن قيادته لقافلة

الحج. ففي عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٨م صدر مرسوم سلطاني إلى الأمير قانصوه بن مساعد الذي كان يتولى حكم لواء صلخد بأن يتولى قيادة قافلة الجردة ويذهب لاستقبال الحجاج في المدينة المنورة؛ لأنهم يعانون من نقص في المواد الغذائية^(٤٨).

قاد الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي قافلة الجردة بشكل ناجح مما دفع والي الشام مراد باشا^(٤٩) إلى تزكيته عند السلطان مراد^(٥٠)، ففي حكم سلطاني موجه إليه جاء فيه أرسل أمير الأمراء الكرام بكربكي^(٥١) الشام الحالي مراد باشا^(٥٢) دام إقباله رسالة إلى سدة سعادت يبلغ فيها أنك خرجت لاستقبال الحجاج ذوي الابتهاج وأديت الخدمة وإنك كفوء بكل الوجوه ولهذا أظهر مزيد عنايتي بحقق فأمرت بمنحك ترقية بمقدار عشرين ألف أجرة^(٥٣).

وفي عام ٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م، عين قانصوه بن مساعد الغزاوي أميراً على قافلة الحج الشامي إلى جانب توليه لواء عجلون^(٥٤). وتم تعيينه لقيادة القافلة بناءً على ترشيح من والي الشام والدفتردار^(٥٥) والقاضي في الولاية؛ فقد جاء في أحد الأحكام السلطانية الموجه إليه أرسل بكربكي الشام السابق وقاضي الشام ودفتردار الشام

لخزانتني العامرة رسالة إلى سدة سعادتني عرضوا فيها أنهم وجدوك الشخص المناسب لتولي إمارة الحج... وبناءً عليه أمرت بتعيينك أميراً للحج إلى جانب توليك لواء عجلون^(٥٦). ولما عين الأمير قانصوه أميراً لقافلة الحج، فقد ضم إليه لواء الكرك - الشوبك؛ لكونه منطقة مرور الحجاج إلى الحجاز في الذهاب والإياب، لا سيما أن الأمير قانصوه كان يتعهد بالمحافظة على الحجاج وبفرض الأمن ومنع اعتداءات البدو على قافلة الحج^(٥٧)؛ فقد جاء في حكم سلطاني موجه إلى والي الشام أرسلت رسالة تبلغ فيها عن إرسال أميري الشريف إلى قانصوه دام عزه المعين أميراً على لواء عجلون يقضي بقيامه بخدمة إمارة الحج، وفي هذه الحالة لو ألحق به لواء الكرك - الشوبك فإن القافلة ستنتفع بالأمان؛ لهذا أمرت من مزيد عنايتي بضم لواء الكرك - الشوبك إليه اعتباراً من ٢٤ رمضان ٩٧٩هـ / ١٤ شباط ١٥٧٢م^(٥٨).

وخلال قيادة الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي لقافلة الحج منح أموالاً لتعمير بركة القطرانة^(٥٩) على طريق الحج الشامي ولكنه لم يقيم بذلك، فأرسل أمراً سلطانياً إلى والي الشام يطالبه بالتحقيق في الأمر،

وقد جاء فيه "سبق أن منح قانصوه دام عزه خمسة عشر ألف ذهبياً"^(٦٠) من أجل تطهير بركة القطرانة وتعميرها وحينها منح المشار إليه ترقية وصدر الأمر له بتعمير البركة المذكورة ولكن مر وقت طويل دون ورود أي خبر عن ذلك، ولهذا أصدر إليك حكمي السلطاني لمعرفة ما تحقق وإعلام سدة سعادتني بذلك وأحيط علماً بأن البركة المذكورة ما زالت على حالها خرابة ولم يتم تعميرها حتى الآن ولهذا عند وصوله (وصول الكتاب) تقوم باستدراج المشار إليه بحسن التدارك وتتحري عن المجال الذي صرف عليه الذهب الممنوح له لأجل تطهير البركة وكيف قام به ثم تحبس المشار إليه وتسترد جميع الذهب الممنوح له بلا نقص...^(٦١).

وقد ظهر بعض المعارضين للأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي سواء خلال توليه حكم لواء عجلون أو قيادة قافلة الحج الشامي. وكان من هؤلاء سلامة بن نعيم^(٦٢) الذي بعث برسالة إلى المسؤولين في العاصمة العثمانية يظهر فيها استعداده لقيادة قافلة الحج وتطهير بركة القطرانة بمبلغ أقل من الذي منح للأمير قانصوه، كما أنه

تعهد بتعمير ٣٠ قرية في حوران إذا منح إمارة عشائر الشام^(٦٣).

وعلى الرغم من ذلك، استمر الأمير قانصوه في قيادة قافلة الحج الشامي وضم إليه لواء الكرك- الشوبك بعد دفع مالا للدولة وقدم إبلاً للقافلة، فقد جاء في حكم سلطاني موجه إلى بكربكي الشام أرسلت رسالة تبلغ فيها عن إرسال أمري الشريف إلى قانصوه -دام عزه- المعين أميراً على لواء عجلون يقضي بقيامه بخدمة الحج إلا أن قانصوه المذكور دام عزه سلم إلى الخزينة خمسة آلاف ذهب، وفضلاً عن ذلك أعد ثلاثمائة جمل... وفي هذه الحالة لو ألحق به لواء الكرك- الشوبك فإن القافلة ستنتعم بالأمان ولهذا أمرت بضم الكرك الشوبك إليه^(٦٤).

كما واجه الأمير قانصوه بن مساعد خلال قيادته قافلة الحج الشامي منافسة من بعض المسؤولين العثمانيين، منهم محمد بحري من متفرقة^(٦٥) السلطان العثماني الذي عين أمير اسطبل لجمال الميري المخصصة للحجاج، فأرسل رسالة إلى السلطان العثماني يتهم فيها الأمير قانصوه بأنه أخذ منه الصرر^(٦٦) المخصصة لسلامة بن نعيم، وأن قاضي قافلة الحج المدعو

نصر الله المعين من قبل الأمير قانصوه بن مساعد أخذ أجرة نقل ٥٨٠ حمل جمل من الحبوب وليس له قدرة على توفير ٣٠ جمل، وأن في ذمته ٤٠٠ ذهباً من إيجار هذه الجمال، وأنه سرق ما سلم له من الحبوب^(٦٧).

وفي رسالة أخرى بعثها محمد بحري حاول فيها استغلال انضمام قانصوه بن مساعد الغزاوي للصف اليماني وسلامة بن نعيم للصف القيسي محاولاً إبعاده عن قيادة الحاج الشامي وفيها: "قدم بحري محمد وهو من متفرقة سدتي العليا وعين أمير اسطبل الجمال الميرية المخصصة للحج الشريف وأبلغ أن قانصوه الذي تولى إمارة الحج في السنة الماضية اشتهر بكونه يمانياً وابن نعيم قيسياً وعند تواجدهم في مكان واحد فمن المتوقع أن يقع القتال والنزاع فيما بينهم، وطائفة اليمانية متواجدون في ثلاثة منازل بطريق الحج، والقيسية في اثنين وثلاثين، ونظراً لكون القيسية مفيدين للحاج الشريف فقد قام المشار إليه علي بك^(٦٨) بكربكي الشام بتعيين الأمير عنقاء دام مجده، وهو من أقارب ابن نعيم، أميراً على عشائر الشام، وتم دفع ألفي سكة ذهباً؛ لأجل شراء الجمال اللازمة للحج

وذلك بمعرفة قاضي الشام، وسيكون من المفيد تعيين الأمير عنقاء أميراً على الشام، وابن نعيم شيخاً في هذه السنة...^(٦٩).

كما أن إلياس بك، نائب أماسية^(٧٠) عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م، وسنجد عجلون عام ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م، أرسل رسالة إلى الآستانة يتهم فيها قانصوه بن مساعد بأنه حرّض البدو على مهاجمة اللواء خلال توليه حكم اللواء^(٧١).

كذلك دخل الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي في خلافات مع بعض الوزراء في العاصمة الآستانة وولاية الشام، فعندما مرّ الوزير إبراهيم باشا الصدر الأعظم^(٧٢) من الشام قادماً من مصر لم يكن الأمير قانصوه من بين مستقبله مما أثار غضبه عليه، وطلب من علي باشا علوان^(٧٣) والي الشام القبض عليه عام ٩٩٤هـ / ١٥٨٥م، بعد عودته من الحج وبعد القبض عليه سجن في قلعة دمشق، ثم نقل إلى العاصمة العثمانية الآستانة، وفيها التقى مع السلطان مراد الذي أطلق سراحه، وأبقاه على قافلة الحج الشامي بعد ما رأى وقاره وهيئته^(٧٤).

كذلك دخل الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي مرة أخرى في خلاف مع سنان باشا^(٧٥) والي الشام والذي عين عام

٩٩٩هـ / ١٥٩٠م أبو سيفين أميراً على لواء عجلون وزوده بالعساكر وطلب منه القبض على الأمير قانصوه، ونفذ أبو سيفين الهجوم ولكنه قتل خلال ذلك ولم يتم القبض على الأمير قانصوه وظل متخفياً، وبعد نقل سنان باشا من ولاية الشام إلى الصدارة العظمى في الآستانة ثم عزله عنها سافر قانصوه الغزاوي إلى الآستانة والتقى مع السلطان مراد مرة أخرى فأبقاه على أعماله حتى توفي عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م وبعد ذلك عين ابنه أحمد على لواء عجلون^(٧٦).

٢- تنافس أمراء الأسرة الغزاوية على لواء عجلون:

أصبح لواء عجلون في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي / السابع عشر الميلادي محل تنافس بين ثلاثة من أمراء الأسرة الغزاوية وهم الأمير حمدان بن قانصوه الغزاوي وأخوه الأمير بشير بن قانصوه، والأمير أحمد بن حمدان، وقد تحالف كل منهما مع إحدى القوى المحلية في المنطقة وهم آل فروخ^(٧٧) أمراء لواء نابلس والقدس وآل طراباي^(٧٨) أمراء لواء اللجون، وفخر الدين المعني الثاني^(٧٩) أمير الشوف في لبنان، وقد شارك ولاية الشام

والوزراء العظام في العاصمة العثمانية في هذا التنافس، كذلك شاركت قبائل فلسطين وشرق الأردن فيه فانضم بعضها إلى هذا الحلف أو ذاك.

وقد أذكى نار التنافس بين هذه الأطراف انقسامها إلى الصفيين القيسي واليميني فالصف القيسي كان يضم كلا من الأمير فخر الدين المعني الثاني والأمير حمدان بن قانصوه الغزاوي وعمرو بن عمر شيخ عشير^(٨٠) المفارجة^(٨١) وحسين الوحيد شيخ الوحيدات^(٨٢) وأحمد الكناني شيخ ناحية بني كنانة^(٨٣)، أما الصف القيسي فكان يتزعمه الأمير أحمد بن طراباي أمير لواء اللجون والأمير بشير الغزاوي ورشيد بن سلامة بن نعيم شيخ قبيلة السردية^(٨٤) وعرب الفحيلي^(٨٥) وعرب السوالم^(٨٦)، وعرب العايد^(٨٧) ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن سكان القرى سواء في فلسطين أو شرق الأردن انضموا إلى هذا الصف أو ذاك^(٨٨).

٣- الأمير حمدان بن قانصوه الغزاوي:

دخل الأمير حمدان بن قانصوه في خلافات وصراعات مع أخيه الأمير بشير الغزاوي ومع ولاية الشام ومع آل فروخ للسيطرة على حكم لواء عجلون. ومن

أجل ذلك تحالف مع الأمير فخر الدين المعني الثاني ومع بعض قبائل المنطقة.

ففي عام ١٠٢٠هـ / ١٦١٢م كان لواء عجلون يحكم من قبل الأمير حمدان بن قانصوه وفروخ بن عبدالله أميراً على لوائي نابلس والقدس والحج الشامي^(٨٩). وكان يطمح منذ توليه هذه الأعمال إلى ضم ألوية عجلون والكرك-الشوبك إلى حكمه، ومن أجل تحقيق ذلك قدّم طلباً إلى أحمد باشا الحافظ^(٩٠) والي الشام الذي وافق عليه، واتجه الاثنان في أواسط جمادي الأولى ١٠٢٠هـ / أواسط تموز ١٦١٢م لمقابلة نصوح باشا^(٩١) الصدر الأعظم الموجود في حلب، وقدّما إليه اقتراحاً بتعيين فروخ بن عبدالله على لوائي عجلون والكرك-الشوبك بالإضافة إلى لواء نابلس وقافلة الحج الشامي، مع عزل حمدان بن قانصوه عن لواء عجلون، والشيخ عمرو بن عمر عن مشيخة حوران، وتعين الشيخ رشيد بن سلامة شيخ قبيلة السردية عليها فوافقهما على ذلك^(٩٢)، وفي أعقاب ذلك، خرج المعزولون من جبل عجلون إلى القنيطرة^(٩٣) وخلال وجودهم فيها هاجمهم رشيد بن سلامة شيخ قبيلة السردية، فاتجهوا إلى

المناطق الخاضعة للأمير فخر الدين المعني^(٩٤).

لم يقبل الأمير فخر الدين المعني الثاني بهذه التغيرات ولجأ إلى القوة لإعادة حمدان بن قانصوه فأرسل حملة إلى اللواء بقيادة ابنه علي الذي التقى مع قوات فروخ بن عبدالله وعرب السردية المتحالفين معه في المزاريب من أرض حوران، وأجبرهم على الخروج من اللواء وأعاد تعيين حمدان بن قانصوه الغزاوي عليه بالقوة^(٩٥).

لم يكتف الأمير علي بن فخر الدين المعني الثاني بذلك بل جمع حلفائه في صخرة ومعهم الأمير حمدان بن قانصوه وعمرو بن عمر شيخ المفارجة والشيخ حسين الوحيددي ورجال بني عبيد^(٩٦) وتحرك الجميع نحو زيزياء^(٩٧) واشتبكوا مع الشيخ رشيد بن سلامة شيخ السردية، ثم تحرك الجميع إلى الكرك واشتبكوا مع قوات مرجان آغا صوباشي^(٩٨) فروخ بن عبدالله التي هُزمت وقُتل خلالها ثلاثة من شيوخ الوحيدات، ولكن فروخ بن عبدالله أعاد تجميع المؤيدين له من عشائر جبل عجلون والسردية وعرب الكرك والبلقاء والشيخ مدلج الحيارى^(٩٩) وآل حرفوش^(١٠٠). وانضم إليهم رضوان باشا^(١٠١) أمير لواء

غزة وتحرك الجميع إلى معان^(١٠٢)، فقرر علي بن فخر الدين عدم المواجهة وانسحب عائداً إلى جبل لبنان^(١٠٣)، ولكن الشيخ حسين الوحيددي والأمير حمدان بن قانصوه الغزاوي مع رجال بني عبيد وبني عطية^(١٠٤) أصروا على المواجهة فلحقت الهزيمة بهم، وانتقل الأمير حمدان الغزاوي والشيخ حسين الوحيددي إلى غزة ونزلوا عند عرب العايد^(١٠٥).

وعندما عاد الأمير حمدان إلى دمشق، منعه أحمد باشا الحافظ، والي الشام، من العودة إلى عجلون، فذهب إلى الأمير فياض الحيارى^(١٠٦)، وهاجما معاً الشيخ رشيد السردى في حوران في شهر رجب ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م، وطرده منها، فانتقل إلى البلقاء^(١٠٧).

تغيرت الأوضاع بعد عزل أحمد باشا الحافظ عن ولاية الشام وتعيين جركس باشا^(١٠٨) عليها عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م فإنه أعاد تعيين الأمير حمدان بن قانصوه على لواء عجلون؛ فأقدم الأمير حمدان على مهاجمة أخويه الأمير بشير وسيف ابني بشير الغزاوي، فقتل سيف في الهجوم؛ بينما انتقل الأمير بشير الغزاوي إلى السلط ولجأ إلى الشيخ رشيد السردى، وعاد الاثنان إلى

جبل عجلون وهاجما الأمير حمدان الذي أصيب بجراح قاتلة من قبل احد المدافعين عنه، فتوفي على أثرها في عام ١٠٢٥هـ/١٦١٦م. وفي أعقاب ذلك عُين ابنه أحمد على جبل عجلون^(١٠٩)، واستمر حتى عُزل في شهر رجب ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م، وعُزل أيضاً الشيخ عمرو بن عمر عن مشيخة حوران، وتولى حكم لواء عجلون ابن قلاوون والشيخ رشيد السردى على مشيخة حوران، ولكن في نفس العام وصل حكم إلى الأمير فخر الدين المعني بتقرير سنجد عجلون على الأمير أحمد بن حمدان فتحرك إلى اللواء لفرض التعيين بالقوة ففر ابن قلاوون والشيخ رشيد السردى إلى خارج اللواء^(١١٠).

٢- الأمير بشير الغزاوي بن قانصوه الغزاوي

بعد مقتل الأمير حمدان بن قانصوه، سعى الأمير بشير بن قانصوه إلى تولي لواء عجلون وعزل الأمير أحمد عنه؛ لذلك تحالف مع فروخ بن عبدالله أمير لواء نابلس وأمير قافلة الحج الشامي الذي توجه في شهر ربيع الأول ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م وبرفقتة الأمير بشير إلى الآستانة، وعرضا على السلطان عثمان^(١١١) بناء قلعة في

المعظم^(١١٢)، لمنع العربان من استقاء الماء البركة؛ ل يبقى الماء للحجاج. كما اقترحا على السلطان تعيين رشيد بن سلامه السردى شيخاً على حوران فوافقهم على ذلك، فعاد الأمير فروخ بن عبدالله في جهادي الثاني سنة ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م إلى دمشق وأخذ الموافقة من سليمان باشا^(١١٣) والي الشام على ذلك، وفي أعقاب ذلك توجه الأمير بشير إلى عجلون، وطرده الأمير أحمد بن حمدان من اللواء، وعين الشيخ رشيد بن سلامة السردى على حوران. كما طرد الشيخ عمرو بن حسين شيخ المفارجة عنها^(١١٤)، وفي شوال ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م خرج فروخ بن عبدالله يقود قافلة الحج الشامي وأخذ معه البنائين والعمال لبناء القلعة ولكنه توفى قبل اكتمال البناء ودفن في مكة في ١٥ ذي الحجة ١٠٣٠هـ/ ١٠ تشرين الأول ١٦٢١م^(١١٥). وقد توجه المعزولون إلى الأمير فخر الدين المعني الثاني وطلبوا مساعدته في العودة إلى لواء عجلون، ولكنه اعتذر عن مساعدتهما خشية من اتهامه بتعطيل بناء قلعة المعظم إذا ساعدهما. فتوجه الأمير أحمد بن حمدان إلى لواء اللجون^(١١٦).

لأنه كان يسعى إلى تعيين ابنه حسين على اللواء^(١١٨).

وفي محرم ١٠٣٢هـ/ تشرين الثاني ١٦٢٢م وصل مرسوم سلطاني إلى الأمير فخر الدين المعني بتعيين ابنه حسين على لواء عجلون، فعرض فخر الدين المعني على الأمير أحمد أن يكون وكيلاً عن الأمير حسين في حكم اللواء فرفض ذلك وتوجه إلى حوران ونزل عند الأمير حسين بن عمرو شيخ المفارجة^(١١٩)، فتم تعيين محمد آغا أبي شاهين وكيلاً عن الأمير حسين في حكم لواء عجلون^(١٢٠).

وفي محرم عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م عين مصطفى كتحذا^(١٢١) الأمير فخر الدين المعني الثاني أميراً على لواء نابلس فوقع خلاف بينه وبين الشيخ عاصي^(١٢٢) من مشايخ اللواء والمقرب من الأمير أحمد بن طراباي الحارثي الذي كان متزوجاً من أخت الشيخ عاصي، في نفس الوقت كان أحمد بن طراباي على خلاف مع مصطفى كتحذا لخلاف بينهما على قرية قباطية^(١٢٣) وبعض المزارع^(١٢٤) في لواء نابلس، ومن أجل مواجهة الشيخ عاصي طلب مصطفى كتحذا المساعدة من الأمير فخر الدين المعني الذي كتب إلى محمد آغا شاهين الذي يدير

في أعقاب ذلك، سافر الأمير أحمد بن حمدان إلى الأستانة العاصمة العثمانية للحصول على حكم سلطاني باستعادة حكم لواء عجلون فأنتهز الأمير بشير الغزاوي ذلك وهاجم حاشية الأمير أحمد في لواء اللجون، مما أثار استياء الأمير أحمد بن طراباي الذي كتب إلى الأمير فخر الدين المعني يطلب منه مساعدة الأمير أحمد بن حمدان في العودة إلى حكم اللواء، فأرسل الأمير فخر الدين المعني حملة في ذي القعدة عام ١٠٣١هـ/ أيلول ١٦٢١م إلى جبل عجلون. وقد شارك فيها كل من الأمير قاسم بن فخر الدين والأمير طراباي بن أحمد الحارثي. وعندما وصلت الحملة إلى جسر المجامع على نهر الأردن فر الأمير بشير من عجلون ومعه الشيخ رشيد السردى، واستعاد حكم لواء عجلون^(١١٧).

وفي شوال ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م عاد الأمير أحمد من الأستانة ومعه حكم بالعودة إلى اللواء إلا أن والي الشام رفض ذلك متحججاً بعودة الحجاج من مكة وأن الوقت غير ملائم لذلك لأن تغير أمير اللواء يؤثر على وضع الحجاج، كما أن فخر الدين المعني الثاني رفض مساعدته

لواء عجلون بأن يأخذ عشير بلاد عجلون وإلى الشيخ أحمد الكناني بأن يأخذ عشير بلاده ويتوجها إلى نابلس فوافقه على ذلك، وعند وصولهما إلى وادي الفارعة^(١٢٥) تركا العشير فيه واتجها للاجتماع مع مصطفى كتحذا، ولكن سكان بعض القرى في جبل نابلس استغلوا ذلك وهاجموا العشير وقاموا بتفريقهم، ولكن محمد آغا شاهين والشيخ أحمد الكناني بعد عودتهما من نابلس هاجما تجمع قروي نابلس وقتلوا عدداً منهم، مما دفع الأمير أحمد بن طراباي إلى إرسال رسالة تهدئة للأمير فخر الدين المعني مبيناً فيها أنه سوف يتوافق معه في إدارة مصالح البلاد^(١٢٦).

وقد ساءت العلاقات بين الأمير فخر الدين المعني الثاني وأحمد بن طراباي لأن الأمير أحمد بن طراباي كتب إلى الشيخ أحمد الكناني يدعوه لمساعدة الأمير بشير بن حمدان في استعادة حكم لواء عجلون الذي كان يحكم من قبل محمد بن أبي شاهين، فعندما علم الأمير فخر الدين المعني بذلك استاء من الأمير أحمد بن طراباي والذي كان قبلاً قد شجع الشيخ عاصي على

التمرد ضد مصطفى كتحذا متسلم نابلس^(١٢٧).

دفع ذلك الأمير فخر الدين المعني إلى تجميع قواته وقوات الشيخ أحمد الكناني عند جسر الجامع وأرسل نصوح بلوكباشي^(١٢٨) لمهاجمة برج حيفا وكيوان آغا سوباشي إلى عكا لمهاجمة قرى الكرمل فأحرقها وأسكن النازحين من صفد فيها ورحل أهالي القرى التابعة للأمير أحمد بن طراباي في لواء صفد، فترجع الأمير أحمد بن طراباي والأمير بشير الغزاوي جنوباً ونزلاً على نهر العوجا^(١٢٩) فاستغل الأمير فخر الدين المعني ذلك وهاجم تخيمتهما ثم عاد إلى جنين فرد الأمير أحمد بن طراباي والأمير بشير الغزاوي وبدعم من عرب السوالمة وقاموا بمهاجمة الشيخ حسين بن عمرو في وادي عارة^(١٣٠).

وفي عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م غزا الأمير فخر الدين المعني مع جنوده السكبان^(١٣١) وعشيرة المفارجة بزعامة الشيخ حسين بن عمرو لواء اللجون ونهبوا بيوت ومواشي الأمير أحمد بن طراباي، ولكن الأمير أحمد بن طراباي وبالتعاون مع الأمير بشير الغزاوي وعرب السوالمة وعرب غزة صدوا المهاجمين^(١٣٢).

وقد ردّ الأمير أحمد بن طراباي على ذلك بهجوم آخر ففي شعبان ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م قام وبالتعاون مع عرب السوالمة وعرب العايد وخيالة بلاد عجلون والغور المؤيدين له بمهاجمة عرب المفارجة والأمير أحمد بن حمدان في الجولان^(١٣٣) فاضطروا للانتقال إلى المناطق الخاضعة للأمير فخر الدين المعني^(١٣٤).

إن تعيين الصدور النظام في الأستانة وعزلهم ساعد في أذكاء التنافس بين الأمراء على لواء عجلون ففي رمضان ١٠٣٢هـ/ حزيران ١٦٢٣م قرّر الصدر الأعظم حسين باشا^(١٣٥) مروة تعيين الأمير بشير الغزاوي على سنجق عجلون^(١٣٦) ولكن الأمير فخر الدين المعني رفض ذلك وهاجم اللواء وطرد الأمير بشير منه وعين ابنه علي عليه حيث انتقل الأمير بشير الغزاوي إلى نابلس واجتمع فيها مع شيطان إبراهيم متسلّم محمد بن فروخ الذي قام بجمع رجال نابلس وعربانها وهاجم جبل عجلون ونزلوا في قرية فارا^(١٣٧)، وقام علي بن الشهابي بمهاجمة قرى فارا وحلاوة^(١٣٨) والخربة^(١٣٩) بحرقها كونها من القرى المؤيدة للأمير بشير الغزاوي^(١٤٠).

وفي ١٠ جمادى الأولى ١٠٣٣هـ/ ٢٩ شباط ١٦٢٤م هاجم الأمير أحمد بن طراباي وخیالته وعرب السوالمة وبلاد غزة وشيطان إبراهيم متسلّم محمد ابن فروخ على نابلس وخیالة بلاد نابلس ومعهم الأمير بشير وخیالة بلاد عجلون والغور عرب الشيخ حسين بن عمرو في الجولان وقُتل في الهجوم الشيخ إبراهيم أخو الشيخ حسين بن عمرو فرحل المفارجة إلى المناطق التابعة للأمير فخر الدين المعني^(١٤١).

فرّد فخر الدين المعني على ذلك بحملة على كلّ من الشيخ رشيد السردى والأمير بشير الغزاوي في جبل عجلون فرحلوا إلى اللقاء^(١٤٢) ومنها إلى الكرك بعد معرفتهم بخبر الهجوم، فتوجه الأمير فخر الدين المعني إلى الكرك واستولى على قلعتها ثم توجه لمهاجمة نابلس ولكن شيوخ نابلس قرّروا عدم المواجهة فتحرك إلى اللجون^(١٤٣) ومنها إلى قاقون^(١٤٤)، فاضطر الأمير أحمد بن طراباي إلى الانسحاب إلى الرملة ونزل عند عرب السوالمة، ولكن محمد بن فروخ وشيطان إبراهيم بمساعدة عرب العايد هاجموا قوات فخر الدين المعني والحقوا بها الهزيمة عاد بعدها الأمير بشير إلى عجلون وأرسل إلى الأمير فخر الدين يخبره أنه

راغب بالعمل معه فوافقه على البقاء في عجلون بدلاً من ابنه حسين^(١٤٥).

في أعقاب هذه الأحداث اختفي دور الأسرة ولم تساهم في أحداث المنطقة، كما اختفي ذكر أمرائها في المصادر التاريخية، وظهر ذلك في التنافس بين الأمير فخر الدين المعني الثاني والأمير أحمد بن طراباي للسيطرة على قلعة الكرك؛ حيث لم يرد لهم أي دور في ذلك^(١٤٦).

رابعاً: الخاتمة

ظهرت الأسرة الغزاوية في منطقة عجلون في بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وساهمت في الأحداث التي شهدتها المنطقة في هذه الفترة. ومن أبرز أمرائها الأمير ناصر محمد بن ساعد الغزاوي الذي وصل إلى درجة كبيرة من النفوذ، وعمل على الحد من سلطة الدولة المملوكية في جبل عجلون، فاصطدم مع نواب الدولة المملوكية في دمشق، فعملوا على الحد من نفوذه وسلطته، وقادوا الحملات العسكرية على جبل عجلون التي كانت تترافق مع عمليات التخريب للمنطقة بهدف إضعاف الأسرة والمؤيدين لها، وقد زاد ذلك من معارضة الأسرة وسكان المنطقة للدولة المملوكية

وسياستها التدميرية ودفعهم للاشتراك في الثورات التي شهدتها فلسطين والأردن ولا سيما الثورة التي شهدتها فلسطين والأردن في عامي ٨٩٨-٨٩٩هـ/ ١٤٩٢-١٤٩٣م، والتي قضت عليها الدولة المملوكية؛ مما أرغم محمد بن ساعد للتصالح مع الدولة المملوكية ونوابها في دمشق.

وقد أدت الحملات التي قادها نواب دمشق المماليك إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في المنطقة، كما أنها أدت إلى تناقص السكان فيها من خلال عمليات القتل والأسر التي قام بها هؤلاء النواب ضد السكان؛ مما دفع أعداداً منهم الهجرة إلى خارجها.

وانحصر نفوذ الأسرة في بداية الحكم العثماني للمنطقة ولا سيما بعد إعدام زعيمها محمد بن ساعد الغزاوي من قبل جان بردي الغزالي والي الشام العثماني بعد اتهامه بتشجيع قبيلة بني لام على مهاجمة قافلة الحاج الشامي، ولكن دور الأسرة عاد من جديد في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي مع ظهور الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي وتولييه حكم لوائي عجلون والكرك وقيادة قافلة الحج الشامي،

ولكنه واجه معارضة من شيوخ بعض عشائر المنطقة ومن بعض ولاة الشام العثمانيين.

في أعقاب وفاة الأمير قانصوه بدأت مظاهر الضعف والانقسام تظهر على الأسرة بسبب التنافس بين أفرادها على حكم لواء عجلون ودفع ذلك كل منهم للاستعانة بالقوى المحلية في بلاد الشام، كما أن سياسة ولاة الشام العثمانيين المؤيدة لهذا الأمير أو ذاك من الأسرة ساهمت بشكل كبير في تشجيع الخلافات بينهم، فكان تعيين والي الشام وعزله يترتب عليه تعيين المؤيد له من أفراد الأسرة وعند عزله يعزل هذا الأمير. كما زاد الأمر سوءاً انضمام أمراء الأسرة إلى الصفين القيسي واليمني متنافسين مع بعضهم البعض، بل إن وزراء الدولة العثمانية في العاصمة الآستانة شاركوا في تأجيج هذه الخلافات بتأييدهم لهذا الأمير أو ذاك من الأسرة.

وقد أدت الخلافات بين أفراد الأسرة إلى وقوع الاقتتال بينهما، مما أسفر عن مقتل بعض منهم، مما أضعف الأسرة وأصبح رجالها تابعين للقوى الأخرى في بلاد الشام بعد أن كانوا محركي الأحداث، مما أفقدهم الدور الذي قاموا به سابقاً

لينتهي دور الأسرة في أواخر النصف الثاني من الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

الهوامش:

- (١) صخرة: من قرى ناحية بني الأعسر التابعة للواء حوران، كانت تضم في عام ١٥٤٣/ ٩٤٥هـ حوالي ٤٥ خانة، وانخفض العدد إلى ٣٢ خانة في عام ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م. البخيت، محمد عدنان، ناحية بني الأعسر في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ص ٦٥ في كتاب دراسات في تاريخ بلاد الشام (الأردن)، عمان، منشورات أمانة عمان الكبرى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، وسيشار إليه فيما بعد بالبخيت، ناحية بني الأعسر.
- (٢) الأمير نعيم بن مهنا أمير الفضل (الحيارى) هاجم دمشق ونهبها عام ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م، وتحالف مع الأمير منطاش الأشرفي الثائر ضد السلطان برقوق قبل أن يتصالح معه، وتوفي عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م. ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٤م، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٣-٤٤٢، وسيشار إليه فيما بعد ابن إياس، بدائع؛ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ١٢، بيروت، دار الحياة، ج ١٠، ص ٣٠٣-٣٠٤. وسيشار إليه فيما بعد السخاوي، الضوء اللامع؛ السخاوي شمس الدين محمد بن

عبدالرحمن بن عبدالرحمن (ت ١٤٩٧/٩٠٢هـ)، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار معروف، أحمد الخطيمي، عصام فارس الحرساني، بيروت مؤسسة الرسالة، ص ٣٠٦. وسيشار إليه فيما بعد السخاوي، وجيز؛ ابن حجر، شهاب الدين الدين أحمد بن أحمد بن علي (ت ١٤٤٨/٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٤ج)، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩/١٩٣٠م، ج ٤، ص ٣٦٩-٣٧٠ وسيشار إليه فيما بعد ابن حجر الدرر.

(٣) الأمير منطاش: ثار على السلطان برقوق عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م فخرج من القاهرة إلى دمشق وتحصن فيها، واستمر في ثورته حتى عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م. ابن إياس، بدائع، ج ١، ق ٢، ٤٤٢-٤٤٣؛ السخاوي، وجيز، ص ٢٨٩-٢٩٠؛ ابن حجر، الدرر، ج ٤، ص ٣٦٥-٣٦٦. المقرئزي أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت ١٤٤٢/٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة الدول والملوك، ٨ج، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، القاهرة، دار الكتب العلمية ١٤١٨/١٩٩٧م، ج ١، ص ٢٤٥-٣٤٠. وسيشار إليه فيما بعد المقرئزي، السلوك.

(٤) البخت، محمد عدنان، أسرة آل الحنش والمهام التي أكلت إليها في ريف دمشق ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م - ٩٧٦هـ/ ١٥٦٩م، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ١٣ و ١٤، محرم ١٤٠٤هـ/ تشرين الأول ١٩٨٣م، ص ٨٨، ١٣٧.

(٥) كان نائب الشام خلال الغزو المغولي عام ٨٠٣هـ/ ١٤٩٩م هو الأمير سودون الدوادار، وقد وقع في أسر المغول، ابن طولون، محمد، إعلام الوري بمن ولي من الأتراك بدمشق الشام الكبرى،

تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٥٦، وسيشار إليه فيما بعد، ابن طولون، إعلام؛ ابن إياس، بدائع، ص ٥٩٦، طقوش، محمد سهيل، تاريخ الممالك في مصر وبلاد الشام، ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م، بيروت، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. ص ٤٢٤، وسيشار إليه فيما بعد، طقوش، تاريخ الممالك.

(٦) ابن حجي، أحمد بن يحيى الحسباني الدمشقي (٧٥١-٨١٦هـ/ ١٣٥٠-١٤١٣م) تاريخ ابن حجي، ٣ج، تحقيق أبو يحيى عبدالله الكندري، بيروت، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٤٨. وسيشار إليه فيما بعد ابن حجي، تاريخ. وانظر: المقرئزي، ج ٦، ص ٤٧-٤٨.

(٧) ابن حجي، تاريخ، ص ٦٤٢؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٣، ص ١٩. وكان من عادة أمراء المناطق استقبال نواب دمشق عند زيارتهم لمناطقهم أو مرورهم منها وتقديم الغلال والهدايا لهم. الخالدي، فخر الدين المعني، ص ٨٨.

(٨) المقرئزي، السلوك، ج ٦، ص ٢٤٨.

(٩) السفيناني: هو عثمان بن أحمد بن عثمان بن محمود بن محمد بن علي بن فضل بن ربيعة، من فقهاء دمشق، ادعى عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م أنه السفيناني المنتظر، ترك دمشق وانتقل إلى عجلون وياشر دعوته فيها ولقب نفسه السلطان الأعظم السفيناني، وانضم إليه عدد من الأتباع، وقبض عليه غانم الغزاوي وسجن في قلعة صرخند. المقرئزي، السلوك، ج ٦، ص ٣٥١؛ ابن حجر، أنباء، ج ٧، ص ١٠٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ١٢٥.

طولون، إعلام، ص ٢١٤؛ البصري، تاريخ، ص ٦٠-٦١؛ ابن العماد، شذرات، ج ١، ص ٣٨.
(١٣) قانصوه الياقوت: تولى نيابة الشام مرتين: المرة الأولى في الفترة ٨٨٤-٨٨٦هـ / ١٤٧٩-١٤٨١م، والمرة الثانية خلال (٨٩٢-٩٠٢هـ / ١٤٩٧-١٥٠٢م)، كما تولى نيابة كل من طرابلس وغزة وحلب. السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٩٩؛ ابن طولون، إعلام، ص ١٩٢-٢٢١؛ مجير الدين الحنبلي، عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن محمد العليمي (٩٢٧هـ / ١٥٢٢م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج ٢، عمان، منشورات وزارة الثقافة، ١٤١٠هـ / ٢٠٠٩م، ج ٢، ص ٣٢٧-٣٣٠. سيشار إليه فيما بعد، مجير الدين الحنبلي، الأنس. ابن طولون، إعلام، ص ١٩٢-٢٢١.

(١٤) ابن طولون، مفاكهة، ص ١٥٤؛ ابن طولون، إعلام، ص ٩٣.

(١٥) للتوسع حول هذه الثورات: انظر: ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج ٣، ص ٢٤١-٢٤٢؛ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٦٦؛ ابن إياس، بدائع، ج ٣، ص ٢٩٤، ٢٩٥؛ ج ٤، ص ٢٤٦.

(١٦) خليل بن إسماعيل: عين شيخاً على جبل نابلس عام ٨٨٩هـ / ١٤٩٤م، وكلفته الدولة بجمع العشير في فلسطين للمشاركة في القتال إلى جانب القوات المملوكية التي أرسلت لمحاربة العثمانيين الذين هاجموا بلاد الشام عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م، كما شارك في ثورة عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م بعد عزله عن مشيخة جبل نابلس لفراره من المعركة مع العثمانيين. ابن طولون، إعلام، ص ١٢٥؛ مجير

(١٠) ابن إياس، بدائع، ج ٢، ص ٧؛ ابن حجر، أنباء، ج ٣، ص ١٠. وتقع قلعة صرخد في مدينة صرند من أعمال حوران. الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) معجم البلدان، ج ٥، بيروت، دار صادر، ١٣٩٧هـ / ج ٣، ص ٤٠١. وسيشار إليه فيما بعد الحموي، البلدان.
(١١) البصري، علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت ٩٠٥هـ / ١٥٠٠م) تاريخ البصري: صفحات مجهولة من تاريخ دمشق، تحقيق أكرم العلي، بيروت، دار المأمون للتراث، ص ٦٠-٦١. وسيشار إليه فيما بعد البصري، تاريخ؛ ابن العماد الحنبلي، عبدالحلي أحمد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٨٧م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠ ج)، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٨م، ج ٩، ص ٤٨٢. سيشار إليه فيما بعد ابن العماد الحنبلي، شذرات؛ السخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٨٤٨-٨٤٩؛ ابن إياس، بدائع، ج ٣، ص ٩٣.

(١٢) ابن الحمصي، أحمد بن محمد بن عمر، (ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٨م)، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقربان، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ١٨١، و ص ٢٠٥، ٢٠٦، وسيشار إليه فيما بعد، ابن الحمصي، حوادث، ابن طولون، محمد بن علي بن محمد (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٢م، ص ١٥٤، ٣٤٣، ٣٦٠، ٣٦٥، ٣٧٠، وسيشار إليه فيما بعد، ابن طولون، مفاكهة، ابن

(٢٢) ابن طولون، إعلام، ص ١٠٨-١٠٩؛
مفاكهة، ص ١٥٤؛ البصروي، تاريخ البصري،
ص ٢٧٧.

(٢٣) البصروي، تاريخ، ص ٢٢٧-٢٢٨؛ حجة،
التاريخ السياسي، ص ١٦٦-١٦٧.

(٢٤) البصروي، تاريخ، ص ٢٣٥.

(٢٥) سبياني: تولى نيابة الشام في أواخر العصر
المملوكي عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م في أيام السلطان
المملوكي قانصوه الغوري، بنى الجامع والمدرسة
السييانية في دمشق، واستمر نائباً حتى قُتل في
معركة مرج دابق عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م. ابن
طولون، إعلام، ص ١٩٢-٢٣١؛ ابن إياس، بدائع،
ج ٥، ص ١-٦٠.

(٢٦) ابن طولون، إعلام، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢٧) السلطان المملوكي قانصوه عبدالله الغوري:
تولى الحكم عام ٩٠٥هـ / ١٥٠٠م واستمر في الحكم
حتى قتل بعد أسره في معركة مرج دابق عام
٩٢٢هـ / ١٥١٦م، الغزي، نجم الدين
(١٠٦١هـ / ١٦٥١م) الكواكب السائرة بأعيان المائة
العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق
الجديدة، بيروت، ١٩٤٥م، ج ١، ص ٢٩٥-٢٩٨.
وسيشار إليه فيما بعد الغزي، الكواكب؛ ابن
العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٥٩-
١٦٢.

(٢٨) ابن طولون، إعلام، ص ٢١٠.

(٢٩) ابن طولون، إعلام، ص ٢١٢.

(٣٠) إريد: تقع في شمال الأردن وأصبحت قصبة
(عاصمة) قضاء عجلون الذي استحدث في أواخر
العصر العثماني، أبو الشعر، هند، تاريخ شرقي

الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٢٦-
٣٢٧، ٣٣٩-٣٤٠، ٣٤٥، ٣٥٥؛ السخاوي،
الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٥٥-٢٥٦؛ السخاوي،
وجيز، ص ١٠٨٧؛ ابن إياس، بدائع، ج ٤،
ص ٢٨٦.

(١٧) ابن طولون، مفاكهة، ص ١٢٧.

(١٨) كرتباي الأحمر: عين نائباً في دمشق في أوائل
ربيع الثاني ٩٠٣هـ / ٢٦ تشرين الثاني ١٤٩٧م،
وتوفي في العام التالي. ابن طولون، إعلام، ج ١،
ص ١٠٥-١١٤؛ مفاكهة، ص ١٥٩-١٦٤؛
البصروي، تاريخ، ص ٢٣٣؛ ابن إياس، بدائع،
ج ٥، ص ٣٨١-٣٨٥.

(١٩) بنو لام، من القبائل التي كانت تقيم في الحجاز
ثم رحلت إلى لواء الكرك الشوبك ولكنها كانت
تتحرك نحو شمال الأردن، وكانت تهاجم قافلة
الحج الشامي مثلما فعلت في عام ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م
وقد أرسلت الدولة الحملات المتكررة لوضع حد
لاعتداءاتها على الحجاج، ابن طولون، إعلام،
ص ١٠٨؛ مفاكهة، ج ١، ص ٣٣٣؛ ابن إياس،
بدائع، ج ٣، ص ٢٥٢، ٢٨١، ٣٠٨؛ ج ٤، ص ٩٩،
١٠٥، ١١٧-١٣١، ١١٨؛ الحمصي، حوادث
الزمان، ج ٣، ص ٤٥٥.

(٢٠) ابن طولون، إعلام، ص ١٠٩؛ مفاكهة،
ص ١٦١-١٦٢.

(٢١) الصيرفي، علي بن داود (ت ٩٠٠هـ /
١٤٩٥م) إنباء المصير بأبناء العمر، تحقيق حسن
حبشي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
القاهرة، ١٩٩١م. ج ١، ص ١٥٥. وسيشار إليه
فيما بعد الصيرفي، إنباء.

دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٣٠٢، وسيشار إليه فيما
بعد، الطراونة، صفد.

(٣٤) الحمصي، حوادث، ص ٤٦٣.

(٣٥) الحمصي، حوادث، ص ٤٦٦، ٤٦٧.

(٣٦) الحمصي، حوادث، ص ٤٤٧. وانظر: ابن
طولون، مفاكهة، ص ٣٠٠، ٣٤٥، ٣٥٥، ٣٨٢.

(٣٧) الحمصي، حوادث، ج ٣، ص ٤٧٥-٤٧٨؛
ابن طولون، إعلام، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣٨) ابن إياس، بدائع، ج ٤، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٣٩) محمد بن خليل بن علي بن عيسى بن أحمد بن
صالح بن عيسى بن محمد بن عيسى بن داود بن
مسلم الصمادي الدمشقي الشافعي: من أتباع
الطريقة الصوفية الصمادية في أواخر العصر
المملوكي وبداية العصر العثماني، اجتمع بالسلطان
سليم الأول العثماني في دمشق، توفي في ٥ جمادى
الأولى ٩٤٨هـ/ ٢٦ آب ١٥٤١م في دمشق. الغزي،
الكواكب، ج ١، ص ٢١٧، ابن العماد، شذرات،
ج ١، ص ٣٩٣-٣٩٤.

(٤٠) ابن طولون، مفاكهة، ص ٢٨٧.

(٤١) ابن طولون، مفاكهة، ص ٢٩١، الحمصي،
حوادث، ج ٣، ص ٤٧٥، ٤٧٦، وص ٤٨٠.

(٤٢) ابن الحمصي، حوادث، ص ٤٧٧-٤٧٨.

(٤٣) السلطان سليم بن أبي يزيد بن محمد (سليم
الأول)، تولى الحكم عام ٩١٧هـ/ ١٥١٢م هزم
الصفويين في معركة جالديران عام
٩١٩هـ/ ١٥١٤م، وقضى على الحكم المملوكي
ببلاد الشام ومصر. وتوفي عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م.
الغزي، الكواكب، ج ١، ص ٢٠٩-٢١٢؛ ابن

الأردن في العهد العثماني (٩٢٢هـ-
١٣٣٧م/ ١٥١٦-١٩١٨م)، عمان، منشورات
اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٥، ٦، وسيشار إليه فيما
بعد، أبو الشعر، تاريخ.

(٣١) الغزائر: مفردا غرارة، وهي مكيال للحبوب
يختلف مقداره من مدينة إلى مدينة أخرى، فغرارة
القدس تعادل ثلاثة من غزائر دمشق، فغرارة
القدس تساوي ٥، ١٣٦ كغم. هنتس، فالتر،
المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة عن الألمانية،
كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية،
الطبعة الأولى ١٩٧٠م، ص ٦٤، وسيشار إليه فيما
بعد، هنتس، المكايل، اليعقوب، محمد سليم، ناحية
القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/
السادس عشر الميلادي، عمان، منشورات البنك
الأهلي الأردني، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ج ١،
ص ١٥٠، وسيشار إليه فيما بعد، اليعقوب، ناحية
القدس.

(٣٢) الحمصي، حوادث، ص ٤٥٥-٤٥٦.

(٣٣) جان بردي الغزالي، تولى نيابة صفد عام
٩١٥هـ/ ١٥٠٩م واستمر حتى ربيع الثاني
٩١٨هـ/ ١٥١٢م، أنضم إلى العثمانيين بعد معركة
مرج دابق عينه السلطان سليم الأول على ولاية
الشام، ولكنه تمرد عليهم بعد وفاة السلطان سليم
عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، وقضى على ثورته من قبل
السلطان سليمان القانوني وقتل في المعارك مع
الجيش العثماني، ابن طولون، مفاكهة، ص ٣٢٤-
٣٣٨، ابن طولون، إعلام، ص ٢٤٤-٢٥٢؛
الغزي، الكواكب، ج ١، ص ١٧٠-١٧٢. الطراونة،
طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المالليك، بيروت،

- العماد، شذرات، ج ٨، ص ١٠٨؛ ابن إياس، بدائع، ج ٥، ص ١٥١-٢١٠.
- (٤٤) ابن طولون، مفاكهة، ص ٤١٢، ابن إياس، بدائع، ج ٥، ص ٢٩٥؛ ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص ٥٣١.
- (٤٥) سنجد (لواء) صلخد: أحد ألوية بلاد الشام في القسم الجنوبي منه، سمي بذلك نسبة إلى مدينة صلخد مركز اللواء. ابن كنان، محمد بن عيسى الصالح الدمشقي (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) المواكب الإسلامية في الممالك والحاسن الشامية، تحقيق حكمت إسماعيل منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م، ج ١، ص ٢٦-٢٧. وسيشار إليه فيما بعد ابن كنان، المواكب الإسلامية؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠١.
- (٤٦) بيات، فاضل، بلاد الشام، ج ٢، ص ١٨٤-١٨٥ (وثيقة ١١٩ع) ١٦ ربيع الأول ٩٧٦هـ/ ٨ أيلول ١٥٨٦م؛ ص ١٨٨-١٩٠ (وثيقة ١٢٤ع) ١٨ ربيع الأول ٩٧٦هـ/ ١٠ أيلول ١٥٦٨م. وسيشار إليه فيما بعد بيات، بلاد الشام.
- (٤٧) الغزي، الكواكب، ج ٣، ص ٢٠١-٢٠٢؛ الصفدي، أحمد بن أحمد الخالدي، لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني، تحقيق أسد رستم، فؤاد أفرام البستاني، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م، ص ١٢٦، وسيشار إليه فيما بعد، الصفدي، فخر الدين المعني؛ رافق، عبد الكريم، فلسطين في عهد العثمانيين (١) من مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي الى مطلع القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات التاريخية، الطبعة الأولى،
- بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٧٠٠-٧٠٧. وسيشار إليه فيما بعد رافق فلسطين.
- (٤٨) بيات، بلاد الشام، ج ٢، ص ١٣٦ (٧٢ع) غرة ذي الحجة ٩٧٥هـ/ ٢٨ أيار ١٥٦٨م.
- (٤٩) مراد باشا: والي الشام ما بين سنتي ٩٧٦هـ- ٩٧٨هـ/ ١٥٦٨-١٥٧٠م، ثم تولاهما ثانية عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٣م، وبني جامعاً في دمشق. الغزي، نجم الدين محمد، (١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، تحقيق محمد الشيخ، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج ٢، ص ٦٥١-٦٥٦. وسيشار إليه فيما بعد، الغزي، لطف السمر؛ الحبي، محمد أمين (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٩م، المطبعة الوهبيية، ١٢٨٤هـ/ ١٨٧٦م، ج ٤، ص ٣٥٥. وسيشار إليه فيما بعد، الحبي، خلاصة الأثر؛ القاري، رسلان بن يحيى، الوزراء الذين حكموا دمشق، نشره صلاح الدين المنجد في كتاب "ولاة دمشق في العهد العثماني"، دمشق، ١٩٤٩م، ص ٧٣-٧٤. وسيشار إليه فيما بعد القاري، الوزراء.
- (٥٠) السلطان مراد بن سليم بن سلمان (مراد الثالث) تولى الحكم في الفترة الواقعة ما بين ٨ رمضان ٩٨٢هـ- ٥ جمادى الأولى ١٠٠٣هـ/ ٢٢ كانون الأول ١٥٧٤م- ٦ كانون الثاني ١٥٩٥م. الحبي، ج ٤، ص ٣٤١-٣٥٤، وسيشار إليه فيما بعد، الحبي، خلاصة؛ الغزي، لطف السمر، ج ٢، ص ٦٤٨-٦٥١.

السيد، نقود مصر العثمانية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص ٧٩-٨٣، وسيشار إليه فيما بعد، الصاوي، نقود.

(٥٥) الدفتردار: المسؤول المالي في الولاية. الدستور العثماني، م، ١، ص ٤٠١-٤٠٢؛ صابان، المعجم الموسوعي، ص ١١٣.

(٥٦) بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ٢٦٢-٢٦٣ (١٩٦ع)، ١٥ رمضان ١٢٩٧٨هـ/ ٢١ شباط ١٥٧٠م.

(٥٧) بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ٢٩٥ (٢٠٤ع)، ٢٦ رمضان ١٢٩٧٩هـ/ ١٤ شباط ١٥٧٢م.

(٥٨) بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ٢٠٠-٢٠١ (١١٧ع)، ١٠ محرم ١٢٩٧٩هـ/ ٤ حزيران ١٥٧١م.

(٥٩) القطرانة: تقع إلى الجنوب من عمان على مسافة ٩٠ كم وتتبع إدارياً محافظة الكرك، وكانت من المحطات على طريق الحج الشامي. الجزيري، عبدالقادر بن محمد بن محمد بن عبدالقادر الحنبلي (ت ١٢٦٩هـ/ ١٥٦٩م) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة العظيمة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص ١٢٦٧؛ أبو الشعر، تاريخ، ص ١٨.

(٦٠) يقصد بها العملة الذهبية العثمانية السلطاني التي بدأ العثمانيون بسكها سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، إينالجاك، خليل، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية (٢ج)، تحرير خليل إينالجاك، دونالد كواترت، ترجمة عبداللطيف الحارس، بيروت، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ٧٤٧-٧٤٨، وسيشار إليه فيما بعد إينالجاك، التاريخ الاقتصادي؛ باموك، التاريخ

(٥١) البكلريكي: لقب أطلق على والي الولاية، مثل ولاية الشام بينما أطلق لقب أمير الأمراء أو سنجق بك على أمراء الألوية التابعة لها، حسن حلاق، عباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبيّة والمملوكيّة والعثمانية ذات الأصول العربيّة والتركيّة، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص ٤٢، وسيشار إليه فيما بعد، حلاق، المعجم.

(٥٢) مراد باشا: والي الشام ما بين سنتي ٩٧٦هـ- ٩٧٨هـ/ ١٥٦٨-١٥٧٠م، بنى جامعاً في دمشق. الغزي، لطف السمر، ج ٢، ص ٦٥١-٦٥٦؛ المحي، خلاصة الأثر، ج ٤، ص ٣٥٥؛ القاري، رسلان بن يحيى، الوزراء الذين حكموا دمشق، نشره صلاح الدين المنجد في كتاب "ولاة دمشق في العهد العثماني"، دمشق، ١٩٤٩م، ص ٧٤. وسيشار إليه فيما بعد القاري، الوزراء.

(٥٣) بيات، بلاد الشام، ج ٢، ص ٢٥٦-٢٥٧ (١٩٦ع)، ١٥ رمضان ١٢٩٧٨هـ/ ٢١ شباط ١٥٧٠م.

(٥٤) بيات، بلاد الشام، ج ٢، ص ١٩٠ (٢٥ع)، ١٨ ربيع الأول ١٢٩٧٦هـ/ ١٠ أيلول ١٥٦٨م. والأقجة: العملة الفضية العثمانية التي ضربت في زمن السلطان العثماني أورخان ٧٢٧هـ- ١٣٢٦- ١٣٦٠م، وقد انخفضت قيمتها تدريجياً نظراً لتخفيض نسبة الفضة فيها وتقليل وزنها. بيات، بلاد الشام، ج ٢، ص ١٩٠ (وثيقة ١٢٥)؛ باموك، شوكت، التاريخ المالي للدولة العثمانية، ترجمة عبد اللطيف الحارس، بيروت، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص ٧١-٧٥، وسيشار إليه فيما بعد، باموك، التاريخ المالي. الصاوي، أحمد

(٦٥) المتفرقة: مصطلح أطلق على الأشخاص المصاحبين لكبار رجال الدولة من الخلفاء والوزراء والأمراء ويقومون على خدمتهم. صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبدالرزاق محمد حسن يركات، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٢٠١. وسيشار إليه فيما بعد، صابان.

(٦٦) الصرر: مفردا صرة، وهي مبلغ من المال كانت تدفعه الدولة للقبائل البدوية على الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة المنورة للسماح بمرور قوافل الحجاج وعدم الاعتداء عليها. رافق، عبدالكريم، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد ٦، تشرين الأول ١٩٨٨م، ص ١٢. وسيشار إليه فيما بعد رافق، قافلة الحج.

(٦٧) بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ١٢٢ (وثيقة ٤٤٢) ع ٢٣ رجب ٩٧٨هـ / كانون الأول ١٥٧٠م. (٦٨) علي بك: عين والياً على الشام مرتين: الأولى عام ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م، والثانية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م. المقار، الباشات، ص ١٥-١٦؛ القاري، الوزراء، ص ٧٣.

(٦٩) بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ١٢٢ (وثيقة ٤٤٥) ع ٤ شعبان ٩٧٨هـ / ١ كانون الثاني ١٥٧١م. (٧٠) أماسية: مدينة في القسم الآسيوي من تركيا (الأناضول). كانت مركز سنجق أماسية التابع إلى ولاية سيواس. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة عصام محمد الشحات، بيروت، دار ابن حرم، ط ١، ١٤٢٣هـ /

المالي، ص ١٢٣-١٢٥، الصاوي، نقود مصر، ص ٢١-٤٥.

(٦١) بيات، فاضل، بلاد الشام، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٣، ٢٨ ربيع الآخر ٩٧٦هـ / ٢٠ تشرين الأول ١٥٦٨م، وص ٢٣٨-٢٣٩ (١٧٧ع) ١٦ جمادي الآخرة ٩٧٦هـ / ٦ كانون الأول ١٥٦٨م؛ ج ٣، ص ١٢٦، (٤٤٦ع) ٢ رمضان ٩٧٨هـ / ٢٨ كانون الثاني ١٥٧١م، ص ٢٠٢، ٢٠٣، ١٠ محرم ٩٧٥هـ / ٤ حزيران ١٥٧١م.

(٦٢) سلامة بن نعيم فواز: شيخ عرب المفارجة (بنو لام) الملقب بجغيمان. التي قامت بدور هام في أحداث شرق الأردن في نهاية العصر المملوكي وأوائل العصر العثماني. بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ١٣١-١٣٢ (وثيقة ٥٥٥ع) ٢٧ رجب ٩٧٦هـ / ٢٥ كانون الأول ١٥٧٠م؛ ص ١٧٦-١٧٧ (وثيقة ٩٧ع) ٧ ذي الحجة ٩٧٨هـ / ٢ أيار ١٥٧١م. وللتوسع حول عشيرة بني لام، انظر: ابن طولون، مفاكهة الخلال، ج ١، ص ٣١٠-٣١١؛ إعلام الوري، ص ١٠٨، ١٥٥؛ ابن إياس، بدائع، ج ٤، ص ١١٦؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ق ١، ص ٥٠٠-٥٠٢.

(٦٣) بيات، فاضل، بلاد الشام، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٣، ٢٨ ربيع الآخر ٩٧٦هـ / ٢٠ تشرين الأول ١٥٦٨م، وص ٢٣٨-٢٣٩ (١٧٧ع) ١٦ جمادي الآخرة ٩٧٦هـ / ٦ كانون الأول ١٥٦٨م؛ ج ٣، ص ١١٠-١١٢، (وثيقة ٣٨١ع) ١٩ رجب ٩٧٨هـ / ١٧ كانون الأول ١٥٧٠م.

(٦٤) بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ٢٩٥، ٢٩٦، وثيقة (٢٠٤ع)، ٢٧ رمضان ٩٧٩هـ، ١٢ شباط، ١٥٧٢م.

٢٠٠٢م، ص ١٠٤. وسيشار إليه فيما بعد
موستراس، المعجم الجغرافي.

(٧١) بيات، بلاد الشام، ج ٢، ص ٢١٢ (وثيقة
١٥٣ع) ٥ جمادي الأولى ٩٧٦هـ / ٢٦ تشرين الأول
١٥٦٨م؛ ج ٢، ص ٧٥-٧٦ (وثيقة ع) غرة صفر
٩٧٥هـ / ٧ آب ١٥٦٧م؛ ص ٢١٢ (وثيقة ١٥٣ع)
٥ جمادي الأولى ٩٧٦هـ / ٢٦ تشرين الأول
١٥٦٨م.

(٧٢) إبراهيم باشا الصدر الأعظم: تولى منصب
الصدارة العظمى ثلاث مرات في الفترة الواقعة بين
عامي ١٥٠٤هـ / ١٥٩٦م - ١٥١٠هـ / ١٦٠١م.
الحبي، خلاصة الأثر، ج ١، ص ٥٧-٥٩.

(٧٣) علي باشا علوان: كان والياً على حلب عام
٩٨٨هـ / ١٥٨٠م، ثم عين والياً على دمشق،
الطباخ، محمد، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء،
تحقيق محمد كمال، حلب، دار القلم العربي، الطبعة
الثانية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج ٣، ص ١٧٤، ١٧٥،
وسيشار إليه فيما بعد، الطباخ، إعلام النبلاء.

(٧٤) الغزي، الكواكب، ج ٣، ص ١٨٠، ١٨١.

(٧٥) سنان باشا الصدر الأعظم تولى المنصب
مرتين: الأولى ٢٤ جمادى الآخرة ٩٨٨هـ / ٧ آب
١٥٨٠م، والمرة الثانية ٨ جمادى الآخرة ٩٩٩هـ / ٤
نيسان ١٥٨٩م - ٩ شوال ٩٩٩هـ / ١ آب ١٥٩١م،
وتولى ولاية الشام، توفي عام ١٥٠٤هـ / ١٥٩٥م.
الحبي، خلاصة، ج ٢، ص ٢١٤-٢١٧، البوريني،
الحسن بن محمد (ت ١٥٢٤هـ / ١٦١٥م) تراجم
الأعيان من أنباء ازمان، تحقيق صلاح الدين المنجد،
دمشق، المجمع العلمي، ط ١، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م،
ج ١، ص ١٨٦، ١٨٧. وسيشار إليه فيما بعد

البوريني، تراجم؛ الغزي، لطف السمر، ج ٢،
ص ٦٤٨-٦٥١.

(٧٦) الغزي، الكواكب، ص ١٨٠، ١٨١.

(٧٧) آل فروخ: تُنسب الأسرة إلى فروخ بن عبدالله
الذي كان مملوكاً لبهرام أمير لواء غزة، وقد تولى
لواء نابلس وقافلة الحج الشامي بين عامي ١٠٢١-
١٠٢٩هـ / ١٦١٢-١٦٢٠م، أما ابنه محمد بن فروخ
فقد تولى لوائي نابلس والقدس عدّة مرات بعد
والده حتى توفي عام ١٠٤٨هـ / ١٦٢٨م. الحبي،
خلاصة الأثر، ج ١، ص ٢٢١-٢٢٢، وج ٣،
ص ٢٧١؛ البوريني، الحسن بن محمد (ت
١٠٢٤هـ / ١٦١٥م)، تراجم، ج ٢، ص ٢٧٣-٢٧٥،
مناع، عادل، حكم آل فروخ في القدس وعلاقتهم
مع البدو في كتاب القدس: دراسات في تاريخ
المدينة تحرير أمنون كوهين، ترجمة سلمان مصالحة،
القدس، ١٩٩٠، ص ١٣٧-١٥١. وسيشار إليه
فيما بعد مناع، حكم آل فروخ.

(٧٨) آل طراباي: تنتمي الأسرة إلى قبيلة بني حارثة
وتعود جذورها إلى نهاية العصر المملوكي وبرز من
زعمائها الأمير الأمير أحمد بن طراباي الذي تولى
حكم لواء اللجون بين سنتي ١٠١٠-
١٠٥٧هـ / ١٦٠١-١٦٤٧م. ابن إياس، بدائع، ج ٤،
ص ٢٦٧ وج ٥، ص ٢٣، عثمانة، فلسطين،
ص ٢٧٥، البخيت، محمد عدنان، الأسرة الحارثية
في مرج بن عامر، ٨٨٥هـ - ١٠٨٢هـ / ١٤٨٠-
١٦٧٧م، في كتاب دراسات في تاريخ فلسطين،
عمان، أمانة عمان الكبرى، ص ٦٨-٩٠، وسيشار
إليه فيما بعد، البخيت، الأسرة الحارثية.

(٧٩) فخر الدين المعني الثاني (٩٨٠-
١٠٤٤هـ / ١٥٧٢-١٦٣٥م)، من أمراء آل معن

الدروز الذين حكموا إمارة الشوف دخل في حروب وخلافات مع ولاية دمشق ومع أمراء المناطق المجاورة، تحالف مع دوقية توسكانا الإيطالية حيث نفى إليها ثم عاد إلى حكم إمارة الشوف حيث انتهت الدولة العثمانية حكمه عام ١٠٤٤هـ/١٦٣٥، المحبي، خلاصة الأثر، ج٣، ص٢٦٦، ٢٧٠، بيات، فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص١٣٨-١٤٢، وسيشار إليه فيما بعد، بيات، الدولة العثمانية. وانظر أيضاً كتاب الصفدي، فخر الدين المعني.

(٨٠) العشير: مصطلح أطلق في العصرين الأيوبي المملوكي على أبناء القبائل الذين استقروا في القرى وعملوا في الزراعة ولكنهم ظلوا محتفظين بالعادات والتقاليد البدوية. عثمانة، فلسطين، ص٢٨٥-٢٨٩.

(٨١) المفارجة: من عشائر شرق الأردن، كانت تنتقل ما بين الكرك من حوران وشاركت بزعامة الشيخ عمرو بن عمر في الأحداث التي شهدتها مناطق جنوب بلاد الشام إلى جانب الأمير فخر الدين المعني الثاني. ابن طولون، إعلام، ص١٥٥-١٥٦؛ بيات، بلاد الشام، ج٣، ص٢٠٠-٢٠١ (وثيقة ١١٧ع) ١٠ محرم ٩٧٩هـ/ ٤ حزيران ١٥٧١م؛ الصفدي، فخر الدين المعني، ص٨-١١، ١١٩-١٢٢.

(٨٢) الوحيدات: من القبائل التي كانت تخيم في جنوب الأردن وفلسطين ثم استقرت في منطقة غزة، وكانت ضمن التحالف القيسي الذي يتزعمه فخر الدين المعني، الثاني وشاركت في معظم الغزوات التي قام بها. أوبنهايم، فرايهر فون،

البدو، ترجمة محمود كيبو، تحقيق ماجد شبر، لندن، شركة الوراق للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧، ج٢، ص١٦٥-١٦٩؛ الخالدي الصفدي، فخر الدين المعني، ص٢٦-٢٧، ٢٤٥-٢٤٦.

(٨٣) بنو كنانة: من نواحي لواء حوران في العصر العثماني. البخيت، محمد عدنان، ناحية بني كنانة (شمالي الأردن) في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي دراسة وترجمة وتحقيق، عمان الجامعة الأردنية ١٩٨٩م؛ أبو الشعر، تاريخ شرق الأردن، ص١١-١٥، ٥٢-٥٤.

(٨٤) السردية: من القبائل التي كانت تخيم في جنوب سوريا وشمال الأردن، وتنافس شيخها رشيد بن سلامة على مشيخة حوران مع الشيخ عمرو بن عمر شيخ المفارجة. أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، ص٤١٦-٤١٨، وسيشار إليه فيما زكريا، عشائر.

(٨٥) عرب الفحيلي: من العشائر التي كانت تقيم في منطقة حوران وتنافست مع المفارجة على منصب شيخ حوران. الصفدي، فخر الدين المعني، ص٢١٠، ٢٩، زكريا، عشائر، ص١٠٣، ١٠٨، ٣٦٢، ٤٠١-٤١١.

(٨٦) السوالم: من القبائل التي كانت تقيم في المنطقة الشرقية في مصر ثم رحلت إلى فلسطين وخيمت ما بين يافا والرملة. ابن إياس، بدائع، ج٥، ص٣٢٣-٣٢٨، ٣٥٩؛ أوبنهايم، البدو، ج٢، ص٩٤ و٣٢٨؛ عطا الله، نيابة غزة، ص٩١؛ Hutteroth, Wolf-Dieter & Abdul Fatah, Kamal, Historical Geography of

الأول ١٦١٤م، وتزوج من ابنة السلطان مراد الأول (ت ١٠٢٣هـ / ١٦١٤م). المحبي، خلاصة، ج٤، ص٤٤٩-٤٥١؛ الصفدي، فخر الدين المعني، ص٥-٧.

(٩٢) البوريني، تراجم، ج٢، ص٢٠٢-٢٠٥، المحبي، خلاصة، ج٣، ص٢٧١، الخالدي، فخر الدين المعني، ص٧، بيات، الدولة العثمانية، ص١٧٦-١٧٧، أوبنهايم، البدو، ج١، ص٤١٩، ص٤٢٠، مناع، حكم آل فروخ، ص١٤٥.

(٩٣) القنيطرة: تقع على الطريق بين دمشق وفلسطين في هضبة الجولان، وتبعد عن دمشق ٦٠ كم. ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص٤٨٨.

(٩٤) الصفدي، فخر الدين المعني، ص٨، ٩.

(٩٥) الصفدي، فخر الدين المعني، ص٩، ١٠.

(٩٦) بنو عبيد: من النواحي التابعة للواء عجلون في بداية العصر العثماني. أبو الشعر، تاريخ، ص١٣-١٥، ٢٧، ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٤٨. وللتوسع حول هذه الناحية، انظر: هند أبو الشعر، إريد وجوارها: ناحية بني عبيد ١٨٥٠-١٩٢٨م، عمان، وزارة الثقافة، ١٩٩٩م. وسيشار إليه فيما بعد أبو الشعر، إريد.

(٩٧) زيزياء: من قرى البلقاء في شرق الأردن على طريق الحج الشامي، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٦٣، ١٦٤.

(٩٨) الصوباشي: من ضباط الجنود السباهية، فكان على رأس كل مجموعة من الجنود صوباشي، وكان هناك صوباشية في المدن والنواحي لضبط الأمن والنظام، أوغلي، اكمال لدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي،

Palestine, Transjordan and Southern Syria in the last 16th Century, P.144.

وسيشار إليه فيما بعد Historical Hutteroth

(٨٧) عرب العايد: من القبائل التي كانت تقيم في المنطقة الشرقية من مصر، ورحلت منها إلى جنوب فلسطين، وكانت مسؤولة عن حماية قافلة الحج المصري في المناطق التي تقيم فيها. ابن إياس، بدائع، ج٥، ص٣٢٦-٣٢٨، ٤٤٧؛ أوبنهايم، البدو، ج٢، ص٩٤ و١٣٠-١٤١.

(٨٨) انظر عن ذلك: البخيت، الأسرة الحارثية، ص٧٥-٩٢.

(٨٩) المحبي، خلاصة، ج١، ص٢٢١، ٢٢١، ج٣، ص٢٧١؛ البوريني، تراجم، ج٢، ص٢٧٣-٢٧٥؛ الصفدي، فخر الدين المعني، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٩٠) أحمد باشا الحافظ: تولى ولاية الشام في ١١ ربيع الأول ١٠١٨هـ / ١٣ حزيران ١٦٠٩م وبعد عزله عنها عُيِّن على ولايات الأناضول وديار بكر وتولى منصب الصدارة العظمى مرتين الأولى في عامي ١٦٢٥/١٦٢٦م والمرة الثانية في عامي ١٦٣٠-١٦٣٢م. البوريني، تراجم، ج١، ص٢٠١-٢٢٠، المحبي، خلاصة الأثر، ج١، ص٣٨٠-٣٨٥؛ المقار، ابن عمر العرضي، أبو الوفا، معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، تحقيق عيسى سليمان أبو سليم، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات، ط١، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص٣٤١-٣٥٨. وسيشار إلي فيما بعد ابن عمر العرضي، معادن الذهب.

(٩١) نصوح باشا: تولى ولاية حلب، ثم تولى الصدارة العظمى في ٢٥ جمادي الأولى ١٠٢٠هـ - ١٤ رمضان ١٠٢٣ / ٥ آب ١٦١١-١٧ تشرين

(١٠٢) معان: مدينة في طرف بادية الشام من ناحية الحجاز. الحموي، معجم البلدان، ج ١٥٣، ٤-١٥٤.

(١٠٣) الخالدي، فخر الدين المعني، ص ٢٢-٢٧.

(١٠٤) بنو عطية: من القبائل العربية التي كانت تخيم في جنوب فلسطين في منطقة غزة. ابن إياس، بدائع، ج ٣، ص ٣٧٥؛ بيات، بلاد الشام، ج ٣، ص ١٧٩-١٨٠ (وثيقة ١٠١ ع) ٧ ذي الحجة ٩٧٨ هـ / ٢ أيار ١٥٧١ م؛ عطا الله، نيابة غزة، ص ٩٠.

(١٠٥) الخالدي، فخر الدين المعني، ص ٢٦.

(١٠٦) فياض الحيارى: من أمراء عشائر بني حيار قرب حلب. العرضي، معادن الذهب، ص ٤٤٨؛ الصفدي، فخر الدين المعني، ص ٣٧-٤٢، ٨١-٨٢.

(١٠٧) الخالدي، فخر الدين المعني، ص ٤١.

(١٠٨) جركس باشا: عين والياً على الشام في غرة جمادي الثاني ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م ثم عزل عنها في سنة ١٠٢٦ هـ / ١٦١٧ م. الصفدي، فخر الدين المعني، ص ٤٠-٥٦.

(١٠٩) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ٢٧.

(١١٠) الخالدي، فخر الدين المعني، ص ٨٤، ٨٧.

(١١١) السلطان عثمان بن أحمد: تولى سلطان عثماني تولى الحكم في ٢١ ربيع الأول ١٠٢٧ هـ / ٢٦ شباط ١٦٠٨ م، ولقب بعثمان الثاني. وعُزل خلال ثورة الإنكشارية في رجب ١٠٣١ هـ / ١٩ أيار ١٦١٢ م. المحيي، خلاصة الأثر، ج ٣، ص ١٠٥-١٠٩.

مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩ م، ج ١، ص ٣٨٨. وسيشار إليه فيما بعد أوغلي، الدولة العثمانية.

(٩٩) مدليج بن ظاهر بن عساف بن قرموش الحيارى أمير عرب الشام من بني حيار (ت ٩٥٤ هـ / ١٥٤٧ م). الغزي، الكواكب، ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٧؛ ابن عمر العرضي، معادن الذهب، ص ٤٤٧-٤٤٨.

(١٠٠) آل حرفوش: من عائلات منطقة البقاع وقد ظهرت في العهد المملوكي وتولى أفرادها وظيفة مقدم البقاع وفي بداية العصر العثماني، وقفت ضد الأمير فخر الدين المعني الثاني، من أمرائها في هذه الفترة الأمير يونس الذي تولى لواء بعلبك ١٠١٧-١٠٣٥ هـ / ١٦٠٨-١٦٢٥ م، ونتر، ستينان، الشيعة في لبنان تحت الحكم العثماني ١٥١٦-١٧٨٨ م، ترجمة محمد حسين المهاجر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص ١٠٠-١١٨، وسيشار إليه، وينتر، الشيعة.

(١٠١) رضوان بن قرة مصطفى أمير لواء غزة سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م، ثم نقل إلى اليمن سنة ٩٧٢ هـ / ١٥٦٢ م، وتولى قيادة قافلة الحج الشامي عام ٩٧٨ هـ / ١٥٧١ م. بيات، بلاد الشام، ج ٣، (وثيقة ٥٥٥) ٢٣ رمضان ٩٧٨ هـ / ١٣ شباط ١٥٧١ م؛ ص ١٣٣-١٣٤؛ العارف، عارف، تاريخ غزة، بيت المقدس، دار الأيتام الإسلامية، ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م ص ١٧٦، وسيشار إليه فيما بعد العارف غزة؛ مناع، عادل، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨ م، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، ص ٩-١٠، وسيشار إليه فيما بعد مناع، تاريخ.

الصفدي، فخر الدين المعني، ص ١٢٩-١٣٠، ١٣٩.

(١٢٣) قباطية: من قرى ناحية الجبل الشمالي التابعة للواء نابلس كانت تضم في سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م ٤٢ خانة وفي نهاية القرن السادس عشر تضم ١٠٧ خانات. دفتر ناحية مرج ابن عامر وتوتبعها ولواحقها التي كانت في تصرف الأمير طره باي سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، دراسة وتحقيق محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩، ص ٨٩. وسيشار إليه فيما بعد دفتر ناحية مرج ابن عامر.

Hutteroth, Wolf-Dieter & Abdul Fatah, Kamal, Historical, P.127

(١٢٤) المزرعة: مصطلح أطلق على أراضي القرى الخالية أو الأراضي التي ليست تابعة لقرية معينة ويقوم فلاحو قرى مجاورة بزراعة أراضيها. خليل إينالجبك، دونالد كواترت (محرران) التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ترجمة عبداللطيف الحارس، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ٨١٠.

(١٢٥) وادي الفارعة من أودية نابلس تجري فيه المياه من العيون في قرية طلوزة. الدباغ، بلادنا، ج ٢، قسم ٢، ص ٤٤.

(١٢٦) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ١٢٩-١٣١؛ الشدياق، طنوس (ت ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) أخبار الأعيان في جبل لبنان، نشره أفرام بطرس البستاني، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٢٧٠-٢٧٣. وسيشار إليه فيما بعد الشدياق، أخبار.

(١١٢) المعظم: تقع جنوب شرق مدينة تبوك شمال السعودية وانشئت بهدف حماية الحجاج، فيلي، هاري سانت جون، أرض مدين، مكتبة العبيكان، ص ١٩٦، ٢١٤، وسيشار اليه فيما بعد فيلي، أرض، مؤاب.

(١١٣) سليمان باشا والي الشام: تولى ولاية الشام في أواسط ربيع الثاني ١٠٢٩هـ/ أواخر آذار ١٦٢٠م، ثم تولى منصب الصدارة العظمى. الغزي، لطف السمر، ج ٢، ص ٤٧٠-٤٧٢؛ المقار، الباشات، ص ٣٠.

(١١٤) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ٩٥، ٩٦، مناع، حكم آل فروخ، ص ١٤٥.

(١١٥) مناع، حكم آل فروخ، ص ١٤٥.

(١١٦) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ٢٧.

(١١٧) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ١٠٣، ١٠٤ و ص ١١١-١١٨، البوريني، تراجم، ج ١، ص ١٨٦، ١٨٧، البخيت، الأسرة الحارثية، ص ٨٣-٨٥.

(١١٨) نفس المصدر السابق.

(١١٩) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ١١٧-١١٨، أوبنهايم، البدو، ج ٢، ص ٤١٩.

(١٢٠) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ١٣١.

(١٢١) الكتخدا: مصطلح يطلق على من يعمل نائباً أو قائماً بالأعمال، مثل الأمراء وأمرء الأولوية. صابان، المعجم الموسوعي، ص ١٨٨-١٨٩.

(١٢٢) الشيخ عاصي: من شيوخ نابلس في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، كان متحالفاً مع الأمير أحمد بن طراباي زوج أخته.

- (١٢٧) الصفدي، **فخر الدين المعني**، ص ١٤٠ - ١٤٢، الشدياق، **تراجم**، ج ١، ص ٢٧٣.
- (١٢٨) بلوكباشي: المسؤول عن فوج من السباهية. الأنسي، محمد علي، **الدراري اللامعات في منتخبات اللغات**، بيروت، ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، ص ١١٧. وسيشار إليه فيما بعد الأنسي، الدراري؛ **اليعقوب**، ناحية، ج ١، ص ٢٢٠.
- (١٢٩) نهر العوجا: من أنهار فلسطين، يصب في البحر المتوسط على مسافة ١٠ كم شمال يافا. سعيد، حسن إبراهيم، يافا من الغزو النابليوني إلى حملة إبراهيم باشا (١٧٩٩-١٨٣١م) بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ١٧٥. وسيشار إليه فيما بعد، **سعيد يافا**.
- (١٣٠) الصفدي، **فخر الدين المعني**، ص ١٣٩ - ١٤٢؛ الشدياق، **أخبار**، ج ١، ص ٢٧٣.
- وادي عارة: من الأودية التي تقع شمال فلسطين ويصل إلى مرج بن عامر. عثمانة، **فلسطين**، ص ٤٣٧.
- (١٣١) السكبان: فرقة من الجيش الأنكشاري أنشأت في عهد السلطان بايزيد الأول الملقب بالصاعقة (٧٩١-٨٠٤هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٢م). أبو زيدون، وديع، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ٤٣-٥٠، وسيشار إليه فيما بعد، أبو زيدون، **تاريخ**؛ صابان، **المعجم الموسوعي**، ص ١٣٤.
- (١٣٢) الصفدي، **فخر الدين المعني**، ص ١٣٩ - ١٤٢، و ص ١٤٩-١٥٠.
- (١٣٣) الصفدي، **فخر الدين المعني**، ص ١٩٦.
- (١٣٤) الشدياق، **أخبار الأعيان**، ج ١، ص ٢٨٠.
- (١٣٥) الصدر الأعظم حسين باشا: تولى منصب الصدارة العظمى مرتين: الأولى في ١٢ شعبان ١٠٣١هـ- ٣ شوال ١٠٣٢هـ/ ٢٣ حزيران ١٦٢٢م - ٨ آب ١٦٢٢م، والثانية في ٢٣ ربيع الثاني ١٠٣٢هـ- ٣ ذي القعدة ١٠٣٢هـ/ ٢٥ شباط ١٦٢٣م - ٣٠ آب ١٦٢٣م. المحي، **خلاصة الأثر**، ج ٢، ص ١٢٤-١٢٥.
- (١٣٦) الصفدي، **فخر الدين المعني**، ص ١٣٠.
- (١٣٧) فارا: ذكرت في دفتر مفصل لواء عجلون بأنها مزرعة، وكانت في نهاية القرن السادس عشر تضم ٣٣ خانة. دفتر مفصل لواء عجلون رقم ١٨٥، دراسة وتحقيق محمد عدنان البخيت ونوفان الحمود، عمان، منشورات اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، ط ١، ٢٠١١م، ص ٢٢٦، ٢٣٦. وسيشار إليه فيما بعد دفتر مفصل لواء عجلون Hutteroth, Historical, P.163.
- (١٣٨) حلاوة: كانت في نهاية القرن السادس عشر الميلادي تضم ٥ خانات فقط. دفتر مفصل لواء عجلون، ص ٣٣-٣٤، ٤٩، ٧٣، ٩٨، Hutteroth, Historical, P.162.
- (١٣٩) الخربة: كانت في نهاية القرن السادس عشر تضم ٣٥ خانة. دفتر مفصل لواء عجلون، ص ٣٥، ٦١، ٦٦، ٧٤، ٨٣، ١٧٨، ١٩٢، Hutteroth, Historical, P.163.
- (١٤٠) الصفدي، **فخر الدين المعني**، ص ١٣٧، الشدياق، **تراجم**، ج ١، ص ٢٧٢، وأبنهايم، **البدو**، ص ٢٧٢.
- (١٤١) مناع، **حكم آل فروخ**، ص ١٤٨ و ص ١٧٧.

(١٤٢) البلقاء: قرية من أعمال الشام، قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة. الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٩.

(١٤٣) اللجون: بلدة في سهل مرج ابن عامر، أصبحت مركز لواء اللجون في أوائل العصر العثماني، وكانت في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي تضم ٤١ خانة Hutteroth, Historical, P.159. دفتر ناحية مرج ابن عامر، ص ٥٥.

(١٤٤) قاقون: مركز ناحية قاقون التابع للواء نابلس. كانت تضم في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ٢٣ خانة Hutteroth, Historical, P.138.

(١٤٥) الشهابي، ص ٨٨٥-٨٩٢.

(١٤٦) الصفدي، فخر الدين المعني، ص ٢٤٥-٢٤٦؛ أوبنهايم، البدو، ج ٢، ص ٨٤-٩٠، ١٥٥-١٥٦.

فاعلية برنامج إرشادي معرفي سلوكي للأمهات في خفض أعراض سلوك العناد عند أطفالهن التوحدين في محافظة الزرقاء

د. فيصل خليف ناصر الشرعة*

تاريخ قبول البحث: ٢٤/١٠/٢٠١٨م

تاريخ وصول البحث: ١٥/٧/٢٠١٨م

ملخص

استهدفت الدراسة الحالية التعرف على فاعلية برنامج إرشادي معرفي سلوكي، مقدم للأمهات الأطفال التوحدين الذين يعانون من سلوك العناد الملتحقين في مراكز التربية الخاصة التابعة لمحافظة الزرقاء، وتكونت العينة من (40) أمّاً لديها طفل توحدي يعاني من سلوك العناد، وتم توزيعهن بالتساوي إلى مجموعة تجريبية (ن=٢٠) أمّاً، ومجموعة ضابطة (ن=٢٠) أمّاً، ولتحقيق أهداف الدراسة، بنيت أداتان، هما: مقياس العناد، وتكون بصورته النهائية من (36) فقرة، وبرنامج إرشادي معرفي سلوكي، تألف من (13) جلسة إرشادية، تم تنفيذها على مدى خمسة (5) أسابيع تقريباً، وأظهرت النتائج فاعلية البرنامج الإرشادي المعرفي السلوكي للأمهات في خفض مستوى سلوك العناد عند أطفالهن التوحدين.

وفي ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة، يوصي الباحث باستخدام البرنامج الإرشادي المعرفي السلوكي-المعدّ بالدراسة الحالية- لدى الأطفال التوحدين، وإجراء المزيد من الدراسات التجريبية المبنية عليه، وعلى عينات مشابهة.

الكلمات المفتاحية: برنامج إرشادي معرفي سلوكي، سلوك العناد، أمهات أطفال التوحد.

Effectiveness of a Cognitive Behavioral Counseling Program for Mothers in Reducing Symptoms of Stubbornness in Their Autistic Children in Zarqa Governorate

Abstract

The present study aimed at identifying the effectiveness of a cognitive behavioral counseling program. This program is introduced for mothers who have autistic children with stubborn behavior and enrolled in the special education centers in Zarqa Governorate. The sample consisted of forty mothers. For the purpose of the study, two tools have

* أستاذ مساعد، قسم العلوم الأساسية، كلية الزرقاء الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية.

been developed: the measure of obstinacy which consists of (36) paragraphs, and a behavioral cognitive counselling program that consists of (13) counselling sessions. This has been implemented for five weeks. The results have shown the effectiveness of the program for the mothers to reduce the level of stubbornness of their autistic children. In light of the results achieved by the study, the researcher recommends the use of the cognitive behavioral counselling program for the autistic children with stubborn behavior. The researcher also recommends further studies be conducted.

Keywords: cognitive behavioral counseling program, stubborn behavior, mothers of autistic children.

المقدمة:

تؤكد الاتجاهات الحديثة في العلوم السلوكية إن شخصية الطفل نتاج لعوامل التنشئة الأسرية والاجتماعية وعوامل وراثية، ويعد فهم هذه العوامل والإحاطة بها، ومحاولة التحكم فيها، وتوجيهها الوجهة السليمة أمراً ضرورياً لمساعدة الطفل على النمو السليم.

ويعد موضوع التوحد من المواضيع الحديثة التي اهتم بها المتخصصون، وهي ظاهرة معقدة الجوانب تحتاج إلى جهد كبير من القائمين على تنشئة الأطفال التوحدين ورعايتهم^(١)، والاهتمام بهذه الفئة من الأطفال يعد بمثابة مبدأ إنساني حضاري يؤكد على أهمية حقوقهم، وحقوق أسرهم،

ونظراً لقدراتهم المحدودة التي تحد من استفادتهم من الأنشطة التي يمارسها غيرهم من الأطفال العاديين^(٢).

إنهم يحتاجون إلى نوع خاص من الرعاية تساعدهم على استثمار تلك القدرات إلى أقصى درجة ممكنة، ولذلك يجب أن يبدأ هذا الاهتمام والرعاية من جانب أسرة هذا الطفل، وفي هذا الإطار يلعب الإرشاد دوراً هاماً في تقبل الوالدين لذلك الوضع دون ضجر باذلين أقصى ما في وسعهم لتحقيق الرعاية للطفل التوحدي، إن لهما دوراً بارزاً في مجال تدريب الأطفال التوحدين أو تأهيلهم أو تنمية مهاراتهم^(٣).

ونظراً للتركيز على أهمية الوالدين ودورهما في تنمية مهارات الأطفال

يمرون في إحدى مراحل النمو لفترة وجيزة بسلوك العناد، ومن الممكن أن يبقى هذا السلوك ثابتاً لدى بعض الأطفال بل ويستمر مع بعض الأطفال إلى المراحل العمرية اللاحقة، فالطفل عادة ما يعاند أمه لأنه يريد أن يلفت انتباهها لتحقيق رغبة معينة مثل أن تشتري له لعبة ما، أو يصر على أن يرتدي أحد الأثواب عناداً بوالدته.

ويرى كل من هودزيك وديركز والثوف وكومبلاند وبوماسا^(٨) أن العناد من المشكلات الانفعالية التي تبدو بشكل واضح لدى الأطفال التوحدين، فالطفل التوحدي لا يستجيب لأي رجاء أو امر أو تكليف، ويعدّ هذا التصرف إحدى المشكلات الانفعالية التي يعاني منها الأطفال التوحديون، فهم بالرغم من حصيلتهم اللغوية، إلا أنهم يصرون على عدم التجاوب لما يصدر لهم من أوامر أو أسئلة يضاف إلى ذلك ان الطفل التوحدي لا يتجاوب مع أحاسيس الآخرين ومشاعرهم، وغالباً ما تصدر منه أصوات تعبر عن فشل محاولات تعلم الطفل التوحدي الإيجابية والطاعة.

ويذكر القمش عدداً من العناصر السلبية التي يديها الطفل التوحدي في هذا المجال ومنها: يلعب بين الأطفال وليس

التوحيدين، فقد ظهرت الحاجة إلى إرشادهم وتدريبهم للقيام بهذا الدور، ولعل أخطر ما يعاني منه الطفل التوحدي هو أن تتسم معظم أساليبه السلوكية بالعنف، وإلحاق الضرر بالذات والآخرين، والتصرفات المزعجة، وعدم قدرته على إقامة علاقات اجتماعية مقبولة مع أقرانه؛ مما يجعله أكثر عرضة لتجنب المواقف التي تكون لها تأثير في التفاعل الإيجابي من قبل الأقران والوالدين^(٤).

ويواجه أولياء أمور الأطفال التوحدين - أثناء تفاعلهم مع أطفالهم - العديد من المشكلات أثناء تفاعلهم مع أطفالهم العديد من المشكلات السلوكية والانفعالية^(٥)، التي تبرز خلال مراحل نمو الأطفال المختلفة؛ ومن هذه المشكلات سلوك العناد Oppositional Defiant Disorder، حيث يعد الآباء سلوك العناد من أهم المشاكل السلوكية وأخطرها في مرحلتي الطفولة والمراهقة، ويجد الآباء صعوبات في التعامل معه نتيجة لنقص معرفتهم بأساليب فعالة لمعالجته^(٦).

ويشير (ني ملفيل)^(٧) إلى أن الكثير من الأمهات تشكو من أن أطفالهن لا يستمعون إلى أوامرهن، ولا يطيعونهن. فجميع الأطفال

معهم، يقاوم تعلم أي مهارة جديدة، يبدو أنه يفهم إشارات الآخرين وكلامهم ولكنه لا يرغب في الاستجابة، يرفض الدخول في أي علاقة مع الأم أو بديلتها، ويعبر عن توجه الطفل إلى مخالفة الوالدين، وتأكيد مواقف له لا تتوافق مع مواقفهم ورغباتهم وأوامرهم ونواهيهم، إنه تأكيد للذات يحمل إلى حد ما طابعاً عدوانياً تجاه الوالدين^(٩).

ومن هنا تبلورت الحاجة إلى الإرشاد حيث يرى كفاي^(١٠) أن الأسرة تعدّ من وجهة النظر السلوكية البيئة الطبيعية لتعلم السلوك، وأن الأسرة تمثل بحكم العلاقات والترابط اليومي بين أفرادها شبكة متداخلة من المواقف والمشاعر والأساليب السلوكية والموجهة من فرد لآخر داخل الأسرة ويضيف كفاي أن الإرشاد أيّاً كان نوعه ما دام ينصب على مشكلة أسرية فهو يعد إرشاداً أسرياً سواء كان الذي يحضر جلسة الإرشاد عضو واحد من أعضاء الأسرة أم الوالدان أو أحدهما فقط^(١١).

وبما أن الطفل التوحيدي في حاجة إلى الحب والرعاية بالإضافة إلى التقدير والإحساس بالنجاح والتشجيع والمشاركة الاجتماعية اعتبرت الأم أول متدخل في تربيته وتنشئته ومن أهم الأشخاص في بيئته

الاجتماعية، والأكثر احتكاكاً به، وتؤدي علاقتها به واتجاهاتها نحوه تأثيراً واضحاً في تشكيل شخصيته. وقد أكدت دراسة بخش أن الأم هي الأكثر تأثيراً بإعاقة هذا الطفل، والأكثر تعرضاً للضغوط النفسية الناتجة عن تعاملها معه، وهو الأمر الذي يحتم ضرورة إرشادها؛ حيث إن عدم وعي الأم بطبيعة التوحد أو بالأساليب المناسبة للتعامل مع ذلك الطفل يؤدي إلى إحباط تلك الجهود للارتقاء بسلوكه، كما أن مشاركتها للطفل التوحيدي لا تؤدي فقط في تحسين سلوكه، بل تخفف أيضاً من تأثير الإعاقة عليها وعلى أسرته، ومن ثم على المجتمع ككل^(١٢).

ويؤكد كل من ميكسي، ورينك^(١٣) أن العلاقة بين سلوك العناد لدى الأطفال والظروف الأسرية الصعبة أمر هام في معظم طرق العلاج الشائعة لاضطراب السلوك العنادي، والتي تتضمن العمل مع الآباء بنفس قدر الأبناء، مع التركيز على تعليم الآباء التغيير الفوري والمستمر للسلوك الإيجابي والتجاهل للسلوك غير المرغوب.

كما يشير كفاي إلى أن برامج وخدمات التربية الخاصة تعتمد في نجاحها على مجموعة من العوامل وأهمها المشاركة الأسرية في الأنشطة والبرامج ذات العلاقة بأبنائهم سواء

اكان ذلك داخل المركز أم خارجه، وهم بحاجة إلى معلومات كافية حول إعاقة ابنهم وكيفية التعامل معه داخل الأسرة ومعرفة ما يجب أن يتوقعه، بالإضافة إلى المساعدات والخدمات التي يمكن أن يوفرها المجتمع المحلي^(١٤).

وبناء على ما سبق فإن البحث يتناول فاعلية برنامج إرشادي معرفي سلوكي لخفض أعراض سلوك العناد عند الأطفال الذين يعانون من التوحد الملتحقين في مراكز التربية الخاصة، وبناء على ذلك نجد أنه لا يمكن تقديم خدمة كاملة للطفل التوحيدي ما لم يتضمن الأمر توجيه أسرته وإرشادها وخاصة الأم، حيث إن توعيتها وإرشادها وتدريبها على ذلك يمنحها الفرصة للتعبير عن مشاعرها؛ مما يخفف من تأثير ضغوط الإعاقة عليها، وهو الأمر الذي تعود فائدته على الطفل نفسه، حيث تتحسن أساليب معاملتها، ومن ثم يتحسن سلوكه.

مشكلة الدراسة:

تعد رعاية الأطفال التوحيدين نوعاً من التحدي والتوتر البالغ للذين يؤثران على الحياة الأسرية. وتتطلب تلبية احتياجات ومطالب الرعاية العالية لهؤلاء الأطفال الكثير من الوقت، والجهد، والصبر من قبل الآباء

والأمهات، ونظراً لانتشار سلوك العناد عند الأطفال التوحيدين، وتعددت الإجراءات المستخدمة لعلاج السلوكيات غير التكيفية بما فيها سلوك العناد ليتلاءم الطفل مع نفسه ومع المحيطين به، إلا أن تمحور اهتمام الأخصائيين في السابق كان منصباً حول الطفل التوحيدي كونه العنصر الأهم في قضية الإعاقة دون الالتفات إلى بقية أفراد الأسرة، مما أدى إلى إدراك أهمية دراسة أسر ذوي الاحتياجات الخاصة عموماً والأم بشكل خاص، كونها وحدة متكاملة تتأثر جراء وجود طفل معاق في كيانها للبحث عن التأثيرات النفسية والاجتماعية، وتقديم سبل الرعاية والإرشاد للأسرة بهدف مواجهة الإعاقة وآثارها، وتخفيف الضغط النفسي والاجتماعي عليهم.

وعليه فإن مشكلة الدراسة تبرز من خلال التركيز على فاعلية برنامج إرشادي معرفي سلوكي لخفض أعراض سلوك العناد عند الأطفال التوحيدين من التوحد الملتحقين في مراكز التربية الخاصة التابعة لمحافظة الزرقاء، وبالرغم من خطورة هذه الظاهرة على جميع أفراد الأسرة، وما تتركه من آثار سلبية كالاكتئاب، والتوتر، والقلق؛ لم تكن محط أنظار الباحثين، ولم تحظ باهتمام كافٍ،

هدف الدراسة:

ينبثق هدف الدراسة الحالية في كونها تأتي امتداداً لبعض الدراسات السابقة والبحوث التي تدعّم أطفال التوحدين وأسره من منظور الأمهات، ويمكن تلخيص هدف الدراسة الحالية على الصعيد التطبيقي في التحقق وفحص أثر برنامج للإرشاد المعرفي السلوكي للأمهات الأطفال المصابين بالتوحد المُصمّم والمستخدم لغايات الدراسة الحالية، ودوره في تحسين الأداء النفسي والمعرفي لدى هؤلاء الأمهات، بالإضافة لتوفير أدوات قياس ومادة علمية للبرامج العلاجية للمرشدين العاملين في العيادات ومراكز رعاية المرأة والأسرة لتطوير البرامج الخاصة بأمهات أطفال التوحدين.

وعلى الصعيد النظري فيما ستضيفه من معلومات جديدة إلى ميدان التربية الخاصة، وقد يكون لها أثر فاعل في توضيح كفاءة بعض استراتيجيات العلاج المعرفي السلوكي في البرامج التدخلية الخاصة بمقدمي الرعاية للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة وخاصة الأمهات، واللواتي لم يحظين بالاهتمام المناسب من خلال البحوث التي تمت دراستها في نفس المجال. وتعتبر هذه الدراسة من الدراسات القليلة التي أجريت لفحص أثر

وبحدود علم الباحث لا توجد هناك أية دراسة عربية تناولت موضوع سلوك العناد عند الأطفال التوحدين، وإجراء البرامج العلاجية لهم ولأسرتهم بشكل عام وأمهم على وجه الخصوص.

وتبدو مشكلة الدراسة بالإجابة عن التساؤل الرئيس الآتي:

"ما مدى فاعلية برنامج إرشادي معرفي سلوكي للأمهات في خفض أعراض سلوك العناد عند أطفالهن التوحدين الملتحقين في مراكز التربية الخاصة التابعة لمحافظة الزرقاء؟" وعلى وجه التحديد، فإن هذه الدراسة هدفت إلى اختبار الفرضيات الآتية:

الفرضية الأولى: لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية، ومتوسط درجات أفراد المجموعة الضابطة على مقياس الدراسة: سلوك العناد في الاختبار البعدي.

الفرضية الأخرى: لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية على مقياس الدراسة: سلوك العناد في الاختبار البعدي، وبين متوسط درجاتهن في الاختبار التبعي على نفس هذا المقياس.

برنامج يستند لمنظور العلاج المعرفي السلوكي مع هذه الفئة السكانية وذلك في البيئة الأردنية، ما يكسب الدراسة جدة وأصالة تضيف الكثير للميدان الخاص بالتدخلات الإرشادية للأمهات والأسر ممن لديها طفل مصاب باضطرابات نمائية كالنوح.

أهمية الدراسة:

تبرز أهمية الدراسة من خلال ما يلي:
أولاً: على مستوى الدراسات والبحوث العربية والأردنية، يوجد ندرة في الدراسات التي تركز على فاعلية برنامج إرشادي معرفي سلوكي لخفض أعراض سلوك العناد عند الأطفال الذين يعانون من النوح، ولم يرصد الباحث أي دراسة متعلقة بهذا الموضوع في البيئة العربية والمحلية.

ثانياً: يعد التعرف على مشكلة سلوك العناد خطوة ضرورية لوضع البرامج، والخطط اللازمة لأسر الأطفال التوحدين لمعالجة هذا النوع من المشاكل النفسية والسلوكية لدى أطفالهم.

ثالثاً: حاولت الدراسة التوصل إلى بعض المعلومات المتعلقة بالأساليب التي يمكن استخدامها في علاج مشكلة العناد من قبل آباء وأمهات الأطفال المعوقين بشكل عام، والتوحدين بشكل خاص.

رابعاً: تتمثل أهمية الدراسة بتزويد أمهات الأطفال التوحدين بالاستراتيجيات المناسبة للتصدي للمشكلات السلوكية، والنفسية، والانفعالية، والاجتماعية من خلال البرنامج الإرشادي.

حدود الدراسة:

* الحد المكاني: يقتصر الحد المكاني في هذه الدراسة على مراكز الرعاية والتأهيل التي يلتحق فيها أطفال النوح، والذين يعانون من سلوك العناد في محافظة الزرقاء.

* الحد الزمني: طبق البرنامج خلال العام 2019.

* الحد البشري: أمهات الأطفال المشخصين بالنوح والذين يعانون من سلوك العناد من خلال المقاييس المستخدمة في مراكز التشخيص المبكر في الأردن، وفق قوائم تقدير السلوك للطفل التوحدي، والتحق أبناءهم في مراكز رعاية وتأهيل أطفال النوح في محافظة الزرقاء.

محددات الدراسة:

- تتحدد نتائج هذه الدراسة بالمقياس المستخدم والخصائص السيكمترية لهذا المقياس. كذلك البرنامج المعرفي السلوكي المستخدم والذي تم تطبيقه في هذه الدراسة.
- تتحدد النتائج بأفراد الدراسة الذين تم

المفحوصون على مقياس العناد المعد لهذه الغاية.

أمهات الأطفال الأردنيين المصابين

بالتوحد (Mothers of Jordanian Children

with Autism): وهن مجموعة من الأمهات

المراجعات لمراكز رعاية التوحد في مدينة الزرقاء، الأردن، اللواتي لجأن لطلب المساعدة المتخصصة لهن ولأطفالهن المصابين بالتوحد.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

أولاً: الإطار النظري:

يمرّ الطفل التوحدي عبر رحلته التطورية بخبرات ومواقف تؤثر على نضجه بجوانبه المختلفة: جسمية، وعقلية، واجتماعية، وانفعالية، وآثار هذه الخبرات خاصة المؤلمة منها سرعان ما تؤثر في نموه الجسمي، أو المعرفي، أو الاجتماعي^(١٦)، وتظهر آثارها على سلوكه وتصرفاته، في حين أن الخبرات المؤلمة المرتبطة بالجانب الانفعالي الوجداني قلما تظهر آثارها بشكل مباشر، فقد يستتر تأثيرها المباشر إلى أن تستحوذ على سلوك الطفل بأنماط وأشكال سلوكية مضطربة^(١٧).

وتشير العديد من الدراسات كدراسة^(١٨)،^(١٩)،^(٢٠)،^(٢١)، إلى أن المشكلات النفسية هي تلك المشكلات التي يعانيها

اختيارهم من أمهات أطفال التوحد، والذين المتواجدين في مراكز التربية الخاصة التابعة لمحافظة الزرقاء، وتبين أنهم يعانون من سلوك العناد.

مصطلحات الدراسة:

برنامج الإرشاد المعرفي السلوكي

(Group Counseling): وهو البرنامج الإرشادي الذي قام الباحث بإعداده والمستخدم في الدراسة الحالية، ويتضمن مجموعة من الأنشطة، والتدريبات، والفنيات، والمهارات، ويتألف من ثلاثة عشر (13) جلسة إرشادية مستنداً إلى منهج العلاج المعرفي السلوكي، والذي طبق في هذه الدراسة التجريبية فقط على أفراد عينة الدراسة التجريبية (20=ن) أمماً، 2019/ 2018، بينما بقيت المجموعة الضابطة (20=ن) بدون أي تدخل إرشادي.

سلوك العناد (Behavior Of

Stubbornness): يعرف ملحم^(١٥) سلوك العناد بأنه: اضطراب سلوكي شائع يحدث لفترة وجيزة من عمر الطفل، وربما يأخذ نمطاً متواصلاً وصفه ثابتة في سلوكه، ويصنف ضمن النزعات العدوانية عند الأطفال، ويعد محصلة لتصادم رغبات وطموحات الطفل ورغباته ونواهي الكبار وأوامرهم، ويعرف إجرائياً بأنه: الدرجة التي حصل عليها

أبنائهم، والإهمال في التربية، والتدليل الزائد للطفل^(٢٥).

وقد توصلت دراسة زتل^(٢٦) أن الطفل الذي يعاني من اضطراب السلوك العنادي في المنزل تبدو عليه العديد من السلوكيات غير المقبولة، كأن يفتقر إلى المهارات الاجتماعية ويجادل مع الكبار، ويزعجهم بشكل متعمد، ولا يتحمل مسئولية أخطائه، ولا يسيطر على غضبه، أما في المدرسة فإنه شارد الذهن، وأداؤه الأكاديمي منخفض.

وقد يتطور العناد فيتحول إلى شكل عدائي، كأن يوجه الطفل التوحدي سلوكه العدوانية تجاه أشقائه في البيت، أو التصرف عكس المطلوب منه، والصياح والبكاء، أو أن يقوم بحركات عشوائية انفعالية، وقد يصمت لفترة طويلة على سبيل الاحتجاج، وقد يبادر إلى تعمد إيذاء نفسه كان يضرب رأسه بالحائط، أو يعض أصابعه^(٢٧). وقد تظهر لدى الأطفال التوحدين السلوكيات الدالة على العناد من خلال الغضب، مثل إلقاء بعض الأشياء بعيداً، أو قذف ما يكون بأيديهم^(٢٨).

أما فيما يتعلق بالإرشاد المعرفي السلوكي فإنه يستند إلى حقيقة أن الأفكار والعواطف والانفعالات، وأوجه السلوك

الوالدان في سياسة تنشئتهم لأطفالهم التوحدين كالغضب، والعناد، والانطواء، والخوف، والقلق النفسي، والاكتئاب، وغيرها من المشكلات السلوكية والنفسية، وهذه المشكلات موجودة بشكل واضح لدى الأطفال الذين يعانون من التوحد.

يعد اضطراب سلوك العناد لدى الأطفال التوحدين (Behavior Of Stubbornness) ظاهرة مزعجة تعانيها كثير من الأسر في الوقت الحاضر، وتنعكس بشدة بمرور الوقت على تصرفات الطفل في سنوات عمره الأولى^(٢٢)، وتظهر هذه المشكلة في صور متعددة منها؛ الإصرار على عدم تناول نوع معين من الطعام، أو إضرابه عن الطعام لفترة معينة في سبيل لفت الأنظار إليه، أو التمادي في سلوك خاطئ^(٢٣).

ويرى أوليفر وتشارلز والسون^(٢٤) أن العناد اضطراب يعد من أكثر السلوك انتشاراً وتعدد أسبابه، وقد تعود إلى ضعف أنماط الاتصالات الأسرية والتفاعل الأسري، أو إلى مدى توافق الشخص مع بيئته المحيطة، ويشير أبو هدروس إلى أن اضطراب سلوك العناد يكون أكثر شيوعاً في الأسر التي تتسم بالتربية الضاغطة، وبالعرف في أساليب التنشئة، وعدم قدرة الوالدين على توجيه

عنصر سيؤدي إلى تغييرات في المكونات الأخرى. ويمكن للأفكار أن تؤدي إلى تحسن في العواطف والسلوكيات^(٣١).

ويركز على أن الاضطرابات العاطفية تحدث لكونها متجذرة في التفكير المتحيز بشكل سلبي؛ لذلك يمكن للأشخاص الذين يعانون من اضطرابات عاطفية تحسين صحتهم العقلية من خلال تغيير أنماط التفكير، هذه التي يفترض أن يتم تعلمها. ويعد العلاج المعرفي السلوكي من أشهر العلاجات النفسية المستخدمة مع المجموعات الإرشادية التي يمكنها أن تفيد في علاج القلق، والتوتر، والاكتئاب، والخجل، والعناد؛ إذ يهدف إلى تعديل الأفكار الخاطئة عند المريض حول نفسه، وحول الآخرين، وحول المستقبل، ويعمل على مساعدة المرضى على تشكيل أفكار واستجابات مفيدة وصحيحة، ومن ثم سلوكيات مفيدة من خلال العلاقة العلاجية الناجحة، وفي إطار التدريب على مهارة حل المشكلات^(٣٢).

ويركز المعالج المعرفي في بداية العلاج على إقامة علاقة تعاونية، ويعرف المريض على النموذج المعرفي. وتستخدم جداول الأعمال، والتغذية الراجعة، والتثقيف النفسي لبناء الجلسات، ويتم التركيز على

ترتبط بطريقة تبادلية، وأن تغيير أحد هذه العناصر يؤدي إلى تغييرات في عناصر أخرى، وهذه العلاقات التبادلية بين الأفكار والانفعالات وأوجه السلوك تعمل بمثابة أساس جوهري لكل العلاجات السلوكية^(٣٩). وعلى عكس العلاجات المعرفية البحثية فإن التدخلات المعرفية السلوكية بطبيعتها (مثل التدخلات المستخدمة مع الأطفال الذين لديهم مشاكل سلوكية أو انفعالية) تدمج الأساليب الفنية، أو التكنيكيات القائمة على المبادئ السلوكية عندما يكون ذلك ملائماً، فعلى سبيل المثال فإن التدخلات المعرفية السلوكية للأطفال الصغار الذين لديهم مشكلات سلوكية وانفعالية تقوم في أغلب الأحيان بتعليم الوالدين والمعلمين كيفية استخدام المبادئ السلوكية لتعزيز، والإطفاء، والتشكيل من أجل سلوك الأطفال^(٣٠).

ويعد العلاج المعرفي السلوكي (Cognitive Behavior Therapy (CBT نوعاً من التدخلات العلاجية النفسية التي تقوم على أدلة العمل العلاجي الفعال في تحسين العديد من المشاكل النفسية. ووفقاً لهذا النهج، فإن الأفكار، والعواطف، والسلوكيات، والوظائف الفسيولوجية هي جزء من نظام متكامل، وأن أي تغيير في أي

شكيلين من الاختلال الوظيفي: التفكير المشوه معرفياً، والعجز عن التعلم، وضعف الأداء الوظيفي للذاكرة^(٣٣).

ثانياً: الدراسات السابقة.

أجرت مارشانت^(٣٤) دراسة هدفت إلى الكشف عن التأثير الناجم عن تدريب الوالدين على اكتساب مهارات التنشئة الوالدية، وتطبيقها في خفض سلوك العناد، وتم تدريب الأسر على اكتساب المهارات الوالدية الإيجابية وتطبيقها بحث يتم الطلب من الطفل بشكل ملائم، وتقديم المكافأة الفعالة، واستخدام أساليب المراقبة الذاتية، إضافة إلى مراقبة الطفل، وأشارت النتائج إلى أن استخدام الأسر لهذه المهارات قد زاد من نسبة سلوك الطاعة لدى أطفالهم.

وقام جادو، وارنولد، ومولين^(٣٥) و بدراسة هدفت إلى معرفة فعالية برنامج تعليمي تدريبي للوالدين في خفض اضطراب العناد المتحدي لدى الأطفال المشتركين في برنامج الرعاية الاجتماعية، وكانت عينة الدراسة من (50) من آباء الأطفال ذوي اضطراب العناد المتحدي، وتوصلت النتائج إلى فعالية تدريب الآباء في خفض حدة اضطراب العناد المتحدي، وزيادة التزام الأطفال في تنفيذ تعليمات الآباء.

وفي دراسة بيروتي، وهمدي^(٣٦) وهدفت إلى استقصاء فاعلية تدريب الأمهات على التعزيز التفاضلي، وإعادة التصور في خفض سلوك عدم الطاعة لدى أطفالهن وتحسين الكفاءة الذاتية المدركة لديهن. تألفت عينة الدراسة من (51) أمماً، و(51) طفلاً، كما تم توزيع الأمهات عشوائياً إلى ثلاث مجموعات، تجريبيتين وأخرى ضابطة، وعدد أفراد كل مجموعة (17) أمماً وأطفالهن. وخضعت المجموعة التجريبية الأولى للتدريب على برنامج قائم على التعزيز التفاضلي، والمجموعة التجريبية الثانية للتدريب على برنامج إعادة التصور، أما المجموعة الثالثة الضابطة، فلم تتعرض لأي تدريب. واستُخدم أداتان لقياس سلوك عدم الطاعة بشكل عام وبشكل محدد، أظهرت النتائج انخفاض سلوك عدم الطاعة (العناد) لدى أطفال أمهات المجموعتين التجريبيتين مقارنة بالمجموعة الضابطة. وتحسن مستوى الكفاءة الذاتية المدركة لدى الأمهات في المجموعتين التجريبيتين مقارنة بالمجموعة الضابطة، واستمرار أثر البرنامج بعد التطبيق بشهر.

وفي دراسة محمد^(٣٧) وهدفت إلى معرفة فعالية برنامج إرشادي قائم على الفن لخفض اضطراب العناد المتحدي لدى الأطفال ذوي

صعوبات التعلم، وتمثلت عينة الدراسة من (12) طفلاً برياض الأطفال ممن تتراوح أعمارهم (6-9) سنوات، تم تقسيمهم على مجموعتين ضابطة وتجريبية، واستخدم الباحث مقياس اضطراب العناد المتحدي لدى الأطفال ذوي صعوبات التعلم، وأظهرت النتائج إلى وجود فروق ذات دلالة على المقياس لدى أطفال ذوي صعوبات التعلم لصالح المجموعة التجريبية، كما وأظهرت وجود فروق ذات دلالة على القياسين القبلي والبعدي لصالح القياس البعدي، وجود فروق ذات دلالة في القياسين البعدي والتبعي (بعد مرور ستة أشهر من انتهاء البرنامج) لدى الأطفال ذوي صعوبات التعلم لصالح القياس التبعي.

وفي دراسة شامخ، وحسن^(٣٨) وهدفت إلى التعرف على أثر العلاج المعرفي السلوكي في خفض اضطراب العناد الشارد، فكانت عينة الدراسة (30) تلميذة من تلميذات المرحلة الابتدائية، يعانين من اضطراب العناد الشارد، وتم توزيعهن إلى مجموعتين تجريبية وضابطة، واستخدمت الباحثة مقياس العناد الشارد الذي أعدته بناء على نظرية ارون بيك وميكنبوم، وأظهرت النتائج وجود فروقات ذات دلالة إحصائية بين المتوسط لدرجات

المجموعة التجريبية ومتوسط درجات المجموعة الضابطة في الاختبار البعدي لصالح المجموعة التجريبية، وهذا يدل أن البرنامج العلاجي كان له أثر كبير وواضح على أفراد المجموعة التجريبية.

وفي الدراسة التي أجراها كل من جيانوتا، وريد^(٣٩) سعت للتحقق من فعالية استراتيجية تدريب الآباء على الإدارة في خفض اضطراب العناد المتحدي لدى أطفالهم، وتكونت عينة الدراسة من (94) أباً لأطفال ذوي الاضطراب العناد المتحدي، واستمر البرنامج ثماني جلسات، وتكونت أداة الدراسة من قائمة سلوك الطفل وقائمة الضغوط الوالدية، وأظهرت نتائج الدراسة فعالية استراتيجية تدريب الآباء على المشاركة في إدارة خفض اضطراب العناد المتحدي.

وتناولت دراسة ديهقهان وبارماس واليريزا^(٤٠) أثر برنامج تدريبي قائم على الآباء والأمهات المرتكز على الذات للحد من السلوكيات العدوانية والعنادية للأطفال، وهدفت الدراسة إلى معرفة تأثير التربية التي تركز على الذات في الحد من السلوكيات العدوانية، والعنادية، وبلغت العينة (60=ن) طفل، قسموا إلى مجموعتين حيث تمثلت المجموعة الضابطة من (30) طفلاً، والمجموعة

التجريبية من (30) طفلاً، فكانت النتائج تدل على تحسن أطفال المجموعة التجريبية، حيث تم خفض السلوكيات العدوانية والعنادية مقارنة بالمجموعة الضابطة، مما يدل على فاعلية البرنامج القائم.

وفي دراسة كل من ماتسو وبورميستر وبيرنال^(٤١) والتي هدفت إلى معرفة فاعلية التفاعل بين الوالدين والطفل في مدرسة بورتوريكو للأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة الذين يعانون من اضطراب العناد المتحدي، والذين يعانون من اضطراب النشاط الزائد، وتكونت عينة الدراسة من الأطفال أعمارهم (9-12) سنة، وأشارت نتائج الدراسة إلى انخفاض اضطراب العناد المتحدي، بالإضافة إلى خفض اضطراب النشاط لدى العينة، وخفض المشكلات السلوكية الأخرى، وزادت الممارسات الوالدية الإيجابية نحو أبنائهم.

وهدف دراسة القرعان، والعتيلي^(٤٢) إلى التعرف على أثر برنامج إرشادي جمعي في خفض سلوك العناد لدى طالبات مرحلة المراهقة المبكرة في مدرسة حي الثانوية في لواء المزار الجنوبي، في الفصل الدراسي الثاني من العام (2012)، وتمثلت العينة من (15) طالبة من الطالبات في مرحلة المراهقة المبكرة في الصفوف السابع/ الدراسي (2011)

والثامن والتاسع والعاشر، ولتحقيق أهداف الدراسة استخدم الباحث مقياس سلوك العناد، وبرنامج إرشادي قائم على العلاج المعرفي السلوكي. أظهرت نتائج الدراسة إمكانية البرنامج في خفض سلوك العناد لدى الطالبات المراهقات أفراد عينة الدراسة، وكذلك خفض سلوك العناد لدى الطالبات يعزى لتغير الصف ولصالح الصنفين السابع والثامن على التاسع والعاشر.

وفي دراسة حسين، وسلمان^(٤٣) وهدفت إلى التحقق التجريبي من فاعلية برنامج معرفي سلوكي في زيادة الوعي المعرفي لآباء التلاميذ ذوي اضطراب العناد المتحدي، وأثره في خفض الاضطراب لأبنائهم، وتكونت العينة من (21) أبا موزعين على مجموعتين ضابطة (10=ن)، وتجريبية (11=ن)، وتكونت العينة أيضاً من التلاميذ ذوي الاضطراب المتحدي (11=ن) تلميذاً من المرحلة المتوسطة، وتم استخدام مقياس الوعي المعرفي، ومقياس اضطراب العناد المتحدي، والبرنامج المعرفي السلوكي، وأظهرت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية في القياس البعدي لصالح المجموعة التجريبية في المجالات الفرعية للمقياس والدرجة الكلية، وأظهرت خفض اضطراب العناد لدى أبناء

المجموعة التجريبية في القياس البعدي، وإلى عدم وجود فرق ذي دلالة إحصائية في القياس التتبعي لدى التلاميذ.

وفي دراسة كل من عيسى، وعلي^(٤٤) وهدفت إلى معرفة فاعلية برنامج تدريبي باللعب في تخفيف اضطراب العناد لدى مجموعتين من التلاميذ المعوقين سمعياً والتلاميذ المعاقين فكرية قابلي للتعليم، وتكونت عينة الدراسة من (23) طالباً، منهم (12) طالباً من الصم، و(11) طالباً من المعوقين فكرياً، وتراوحت أعمارهم ما بين (13-15) سنة، وتم إعداد برنامج التدريب باللعب، ومقياس اضطراب العناد المتحدي، وبطاقة ملاحظة السلوك، وأشارت النتائج إلى وجود فروق ذات دلالة في القياس البعدي وفي الدرجة الكلية ومجالات المقياس الفرعية، ولم توجد فروقاً في القياس التتبعي لمجموعة التلاميذ الصم والمعوقين فكرياً، مما يشير إلى استمرار فعالية البرنامج، ولم توجد فروقاً في مقدار تحسن تلاميذ كل مجموعة من المجموعتين.

لقد أظهرت الدراسات والأبحاث التي أجريت حول البرامج المتعلقة بالسلوك العنادي بشكل عام نتائج متباينة، وإلقاء الضوء على تأثيرات المشاركة في برامج

الإرشاد المستندة للعلاج المعرفي السلوكي في خفض السلوك العنادي لدى عينات من أطفال أو آباء أو أمهات الأطفال العاديين، وبالرغم من هذا الاهتمام البحثي، إلا أنه يُلاحظ أن نماذج مماثلة من هذه الدراسات أو اهتمام مكافئ لم يدخل ضمن حيز اهتمام الباحثين في الدراسات الموثقة في البيئات العربية والغربية، وبصورة خاصة الأردن فلا توجد في حدود علم الباحث أية دراسة تناولت فئة الأطفال التوحدين، بالرغم من أن هنالك دراستين تناولت بعض فئات التربية الخاصة كدراسة عيسى وعلي^(٤٥)، والتي استهدفت المعاقين سمعياً، والمعاقين عقلياً القابلين للتدريب، ودراسة محمد^(٤٦)، والتي استهدفت الأطفال ذوي صعوبات التعلم، وبالتالي، فقد أتت الدراسة الحالية لمحاولة سد هذه الثغرة البحثية بفحص تأثير برنامج إرشادي معرفي سلوكي لخفض أعراض سلوك العناد، موجه لعينة من الأمهات اللواتي لديهن طفل أو أكثر مصاب بالتوحد في مراكز التربية الخاصة التابعة لمحافظة الزرقاء في الأردن.

الطريقة والإجراءات:

أفراد الدراسة:

أداتا الدراسة:

أولاً: مقياس العناد:

استخدمت الدراسة الحالية مقياس العناد لتحقيق أهداف الدراسة، حيث تم تطويره من قبل الباحث كإجراء قبلي وبعدي، وذلك بعد الاطلاع على عدد من المقاييس التي استخدمت في العديد من الدراسات السابقة (كدراسة جادو، وارنولد، ومولين^(٤٧)، ودراسة محمد^(٤٨)، ودراسة عيسى، وعلي^(٤٩)، ودراسة جيانوتا، وريدل^(٥٠)، ودراسة شامخ، وحسن^(٥١)، ودراسة حسين، وسلمان^(٥٢)، وتكون المقياس من (45) فقرة في صورته الأولية، وبعد الأخذ برأي المحكمين فقد تم حذف بعض الفقرات كفقرة "تعتمد مضايقة الآخرين (يضرهم، أو يدفعهم، أو يعرفهم ... إلخ"، وفقرة "ينفس عن غضبه من خلال الإساءة للآخرين"، وتعديل بعض الفقرات غير المناسبة، وإعادة صياغة بعض الفقرات لغوياً ليصبح المقياس يتكون من (36) فقرة، واستخدم سلم ليكرت الرباعي لقياس الاستجابة عليها كالتالي: (1) أبداً، (2) نادراً، (3) غالباً، (4) دائماً، حيث يتم جمع درجات المستجيب على جميع الفقرات للحصول على علامة كلية لسلوك العناد دون وجود مجالات فرعية.

تمّ التوصل إلى أفراد الدراسة الحالية من خلال تطبيق مقياس العناد (من تطوير الباحث) على عينة استطلاعية قوامها (75) أمماً؛ ممن لديهم طفل توحدي يعاني من سلوك العناد، حيث تم اختيارهن من مجتمع الدراسة الأصلي، وقد تم اختيار (40) أمماً -بطريقة قصدية- ممن حققن درجات مرتفعة على مقياس العناد، وتم توزيع هذه الأمهات بالتساوي على مجموعتين: مجموعة تجريبية تألفت من (20) أمماً، والتي شاركت في البرنامج الإرشادي المعرفي السلوكي، ومجموعة ضابطة تألفت من (20) أمماً، لم يخضعن للبرنامج، والجدول رقم (1) يوضح توزيع أفراد عينة الدراسة حسب نوع المجموعة، والمقياس في الاختبارات القبلي والبعدي.

الجدول (1): توزيع أفراد عينة الدراسة حسب نوع المجموعة والمقياس في الاختبارات القبلي والبعدي

نوع المجموعة	نوع المقياس		
	الاختبار القبلي	الاختبار البعدي	الاختبار التتبعي
المجموعة التجريبية	20	20	20
المجموعة الضابطة	20	20	-
المجموع	40	40	20

صدق الأداة:

تم إيجاد الصدق الظاهري لمقياس العناد وذلك بعد عرضه على (10) من المحكمين الخبراء والمتخصصين في مجال التربية الخاصة والإرشاد النفسي، والمقياس والتقييم، وقد أوصى المحكمون بأن المقياس مناسب لأغراض الدراسة، وكانت نسبة الاتفاق بين المحكمين (77%).

ثبات الأداة:

تم حساب ثبات مقياس العناد بتطبيقه على عينة استطلاعية مكونة من ثلاثين (30) أمّاً والمستمدة من مجتمع الدراسة الأصلي (ليسوا من أفراد المجموعتين التجريبية والضابطة)، وبعد مضي أسبوعين على التطبيق الأول تم إعادة تطبيق المقياس على العينة نفسها، وحساب معامل الارتباط بين مرتتي التطبيق، وكذلك تم حساب معامل الثبات بطريقة (الاتساق الداخلي) اعتماداً على معادلة كرونباخ- ألفا على نفس العينة، والجدول التالي بين نتائج الثبات:

جدول رقم (2):

معاملات الثبات لمقياس العناد بالطريقتين الإعادة والاتساق الداخلي (كرونباخ ألفا)

مقياس العناد	الثبات بالإعادة	الثبات بطريقة الاتساق الداخلي (كرونباخ ألفا)
	0.79	0.80

يتضح من الجدول رقم (2) إن قيمة معامل الثبات المحسوبة بالطريقتين كانت جيدة وتفي بأغراض الدراسة، حيث بلغ معامل الثبات المحسوب بطريقة الإعادة (0.79). أما بطريقة الاتساق الداخلي (كرونباخ ألفا) فقد بلغ الثبات (0.80).

ثانياً: برنامج الإرشاد المعرفي السلوكي:

تألف برنامج الإرشاد المعرفي السلوكي من ثلاثة عشرة (13) جلسة إرشادية، تم تنفيذها على مدى خمسة (5) أسابيع تقريباً، بمعدل ثلاث جلسات أسبوعياً، وتراوح زمن الجلسة من (60) دقيقة حسب مضمون كل جلسة، وفيما يلي الجدول رقم (2) يبين وصف موجز لمضمون جلسات البرنامج:

صدق البرنامج:

لقد تم التحقق من الصدق المنطقي للبرنامج المستخدم في الدراسة الحالية من

الجدول رقم (3) مضمون جلسات البرنامج		
رقم الجلسة	مضمون الجلسة	عدد الجلسات
الأولى	التعارف وبناء العلاقة الإرشادية	1
الثانية	الخصائص والحاجات النمائية للطفل التوحدي	1
الثالثة	المشكلات السلوكية والانفعالية (مشكلة سلوك العناد)	1
الرابعة	الضغوط الحياتية وطرق التحكم فيها	1
الخامسة	اختبار الأفكار وتغييرها	1
السادسة	الأفكار اللاعقلانية ومشكلات الطفل السلوكية	1
السابعة	التفاعلات الأسرية (لعب الأدوار)	1
الثامنة	حل المشكلات الأسرية	1
التاسعة	أساليب التربية الوالدية الخاطئة	1
العاشرة	المشاركة الوالدية الفعالة	1
الحادية عشرة	أساليب زيادة السلوكيات المرغوب فيها	1
الثانية عشرة	أساليب الحد من السلوكيات غير المرغوب فيها	1
الثالثة عشرة	إنهاء البرنامج	1
	المجموع	13

خلال عرضه على مجموعة من المحكمين المختصين من حملة الدكتوراه في التربية الخاصة، والإرشاد النفسي، والبالغ عددهم (10) عشرة محكمين من أساتذة الجامعات الأردنية الحكومية والخاصة، لتحديد مدى مناسبه للأهداف التي أعد من أجلها، وقد ارتأت لجنة المحكمين أن البرنامج مناسب مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة لإعادة صياغة بعض العبارات، وعلى ضوءه تم تطبيق البرنامج بعد إجراء التعديلات المطلوبة.

تصميم الدراسة:

تعدُّ الدراسة الحالية دراسة شبه تجريبية، تهدف إلى التعرف على فاعلية الإرشاد المعرفي السلوكي في التقليل من مستويات سلوك العناد لدى الأطفال التوحدين في المجموعة التجريبية مقارنة بالمجموعة الضابطة. وتم فحص أثر المتغير المستقل وهو (برنامج الإرشاد المعرفي

السلوكي) على المتغير التابع وهو سلوك العناد وحسب التصميم التالي:

المجموعة التجريبية: O x O

المجموعة الضابطة: O O

حيث إن: O تعني القياس أو الاختبار، x تعني التدريب أو المعالجة.

متغيرات الدراسة:

المتغير المستقل وهو: البرنامج الإرشادي.
المتغير التابع وهو: متغير سلوك العناد لدى أطفال التوحد.

إجراءات الدراسة:

تم إجراء زيارات ميدانية لعدة مراكز تربية خاصة في محافظة الزرقاء، وإجراء مقابلات مع المختص بالتوحد في تلك المراكز، والترتيب من خلاله مع أمهات أطفال التوحد. وتم تطبيق أداة الدراسة على (75) أمماً، بحيث تم اختيار عينة الدراسة من اللواتي حصلن على أعلى درجة في التطبيق لهذا المقياس، وقد كان عددهن (40) أمماً. وعليه تم توزيع أفراد الدراسة عشوائياً إلى مجموعتين (تجريبية (20=ن) أمماً خضعن للبرنامج الإرشادي، وضابطة (20=ن) أمماً لم يتعرضن للبرنامج الإرشادي). وبعدها تمت مناقشة أهداف البرنامج، وجلساته، ومدة التطبيق مع المجموعة التجريبية. وقام الباحث بتطبيق

جلسات البرنامج الإرشادي، وطبق البرنامج على مدار شهر ونصف بواقع ثلاث جلسات أسبوعياً. وبعد الانتهاء من فترة تطبيق البرنامج، تم إجراء التطبيق البعدي لمقياس الدراسة على المجموعتين، وبعد مرور شهر على انتهاء البرنامج تم إجراء التطبيق التبعي للبرنامج على المجموعة التجريبية. وفي النهاية أدخلت البيانات إلى جهاز الحاسوب ومعالجتها بواسطة رزمة البرامج الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS)، وإجراء التحليلات الإحصائية اللازمة.

المعالجة الإحصائية للبيانات:

لتحقيق أهداف الدراسة والتحقق من فرضياتها، تم استخراج المتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية للمجموعتين التجريبية والضابطة على القياسين القبلي والبعدي لسلوك العناد والمتابعة، كما تم استخدام تحليل التباين المشترك للحكم على دلالة الفروق بين المجموعتين التجريبية والضابطة في القياس البعدي، هذا بالإضافة لقياس حجم التأثير المعروف باسم مربع إيتا (h^2) لمعرفة فاعلية البرنامج الإرشادي المستخدم على المتغيرات التابعة، واختبار (t) للحكم على دلالة الفروق بين القياس البعدي والمتابعة وذلك للمجموعة التجريبية.

نتائج الدراسة:

درجات أفراد المجموعة الضابطة على مقياس سلوك العناد تعزى لمتغير البرنامج الإرشادي (المجموعة التجريبية تلقت البرنامج الإرشادي، الضابطة لم تتلق برنامجاً إرشادياً).
لاختبار صحة الفرضية، تم استخراج المتوسطات الحسابية القبليّة والبعديّة والانحرافات المعيارية والخطأ المعياري والمتوسط المعدل لتقديرات أفراد المجموعتين التجريبية والضابطة على مقياس سلوك العناد، والجدول (4) يبين ذلك:

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن فاعلية برنامج إرشادي لخفض أعراض سلوك العناد عند الأطفال التوحدين الملتهقين في مراكز التربية الخاصة التابعة لمحافظة الزرقاء، وفيما يلي النتائج التي تم التوصل إليها في هذه الدراسة.

أولاً: النتائج المتعلقة بالفرضية الأولى:

لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية، ومتوسط

جدول رقم (4) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية القبليّة والبعديّة لأداء أفراد عينة الدراسة في المجموعتين التجريبية والضابطة على مقياس خفض سلوك العناد ككل

المجموعة	طريقة المعالجة	القياس القبلي		القياس البعدي		المتوسط الحسابي	الخطأ المعياري
		المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري		
الضابطة	-	4.12	0.61	4.08	0.80	4.03	0.29
التجريبية	البرنامج الإرشادي	4.03	1.61	2.21	0.95	2.20	0.31

يتضح من الجدول رقم (4) وجود فروق ظاهرية بين المتوسطات لدرجات المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة على مقياس خفض سلوك العناد في القياسين القبلي والبعدي، حيث بلغ المتوسط الحسابي البعدي لدرجات المجموعة التجريبية (4.03)، وبلغ المتوسط الحسابي البعدي لمجموعة الضابطة (4.12) بفارق (0.09)، كما يظهر

من الجدول رقم (2) أن المتوسط الحسابي القبلي لدرجات أفراد المجموعة التجريبية على مقياس سلوك العناد ككل بلغ (2.21)، وبلغ المتوسط الحسابي القبلي للمجموعة الضابطة (4.08) بفارق (1.87)، ولمعرفة الدلالة الإحصائية لهذه الفروق تم استخدام أسلوب تحليل التباين المصاحب (ANCOVA) على المتوسط الحسابي البعدي لدرجات أفراد عينة

الدراسة على مقياس خفض سلوك العناد مشتركاً، وبين الجدول (5) نتائج هذا ككل، باعتبار درجات الطلبة القبليّة متغيّراً التحليل.

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	قيمة الإحصائي (F)	الدالة الإحصائية	Eta square
القياس القبليّ (مصاحب)	2.70	1	2.70	1.56	0.22	0.04
البرنامج الإرشادي	32.95	1	32.95	19.04	0.00	0.34
الخطأ	64.02	37	1.73			
المجموع	488.39	40				
المجموع مصحح	99.68	39				

تعزى لمتغير البرنامج الإرشادي، وعند مراجعة المتوسط الحسابي المعدل يتبين أن الفروق لصالح المجموعة التجريبية، إذ إن المتوسط الحسابي المعدل للمجموعة التجريبية كان أعلى منها للمجموعة الضابطة، حيث بلغ المتوسط الحسابي للمجموعة التجريبية (2.21)، بينما بلغ المتوسط الحسابي للمجموعة الضابطة (4.08) ولإيجاد حجم الأثر للبرنامج الإرشادي، تم حساب مربع إيتا (Eta square)، وبلغ (0.34)، أي أن حوالي (34%) من التباين في أداء أفراد عينة الدراسة على مقياس خفض سلوك العناد ككل يعود إلى طريقة المعالجة، أما الباقي (66%)، فيعود لعوامل غير مفسرة.

الفرضية الثانية: لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$)

يتضح من الجدول رقم (5) وجود فروق ظاهرية بين المتوسطات لدرجات المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة على مقياس خفض سلوك العناد في القياسين القبلي والبعدي، وكذلك يبين جدول رقم (4) أن قيمة (F) لمتغير البرنامج الإرشادي (المجموعة التجريبية تلقت البرنامج الإرشادي، المجموعة الضابطة لم تتلق أي معالجة) بلغت (19.04) وهي دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$)؛ وبالتالي نرفض الفرضية الصفرية ونقبل الفرضية البديلة التي تنص على وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية، ومتوسط درجات أفراد المجموعة الضابطة على مقياس سلوك العناد

بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية على مقياس سلوك العناد في الاختبار البعدي، وبين متوسط درجاتهن في الاختبار التبعي على هذا المقياس نفسه. للتحقق من صحة هذه الفرضية، تم تطبيق مقياس سلوك العناد على أفراد المجموعة التجريبية بعد شهر من الانتهاء من تطبيق البرنامج، وتم حساب الأوساط الحسابية والانحرافات المعيارية لأداء المجموعة التجريبية، وتم استخدام اختبار (ت) للعينات المترابطة (Samples T-Test Paired)، وذلك كما في الجدول (٦) الذي يبين نتائج المقارنة:

الجدول (6) نتائج اختبار (ت) للعينات المترابطة (Paired-Sample T Test) لفحص الفروق بين متوسطي أداء أفراد المجموعة التجريبية البعدي والمتابعة على مقياس سلوك العناد				
القياس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة الإحصائي (T)	الدلالة الإحصائية
البعدي	2.21	0.95	0.21	0.83
المتابعة	2.24	0.95		

فاعلية البرنامج الإرشادي في خفض أعراض سلوك العناد عند الأطفال التوحدين الملتحقين في مراكز التربية الخاصة التابعة لمحافظة الزرقاء.

مناقشة النتائج:

نتائج الفرضية الأولى:

فيما يتعلق بالفرضية الأولى والتي نصها: "لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية، ومتوسط درجات أفراد المجموعة الضابطة على سلوك العناد في الاختبار البعدي". فأشارت النتائج

يبين الجدول (6) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسطات لدرجات المجموعة التجريبية في التطبيقين البعدي والمتابعة لمقياس سلوك العناد ككل، حيث بلغت قيمة ت (0.21) وهي قيمة غير دالة إحصائية، بالتالي نقبل الفرضية الصفرية التي نصها لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية على مقياس سلوك العناد في الاختبار البعدي، وبين متوسط درجاتهن في الاختبار التبعي على نفس هذا المقياس، وهذا يدل على استمرارية

إلى وجود فروق ظاهرية بين المتوسطات لدرجات المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة على مقياس خفض سلوك العناد في القياسين القبلي والبعدي، إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية في الاختبار البعدي بين المجموعتين التجريبية والضابطة على مقياس سلوك العناد لصالح المجموعة التجريبية. وتشير هذه النتائج إلى أن البرنامج الإرشادي المصمم لغايات الدراسة الحالية قد أثبت تأثيره وفعالته في خفض سلوك العناد لدى أفراد المجموعة التجريبية، وعند مراجعة المتوسط الحسابي المعدل يتبين أن الفروق لصالح المجموعة التجريبية، إذ إن المتوسط الحسابي المعدل للمجموعة التجريبية كان أعلى منها للمجموعة الضابطة، كما أن حجم الأثر للبرنامج الإرشادي بعد حساب مربع إيتا (Eta square) أشار إلى أن البرنامج الإرشادي المصمم لهذه الغاية قد أثبت تأثيره وفعالته بشكل كبير وواضح في مساعدة الأمهات في المجموعة التجريبية لخفض سلوك العناد لدى أطفالهن التوحدين، وتتفق هذه النتيجة وبوجه عام مع ما توصلت إليه بعض الدراسات في تحسين سلوك العناد لدى الأطفال ومنها دراسة عيسى، وعلي، ودراسة حسين، وسلمان، ودراسة القرعان،

والعتيلي، ودراسة ماتسو، وبورميستر، ويرنال، ودراسة ديهقهان، وبارماس، واليريزا، ودراسة جيانوتا وريدل، ودراسة شامخ، وحسن، ودراسة بيروتي، وحمدي، ودراسة محمد، ودراسة جادو، وارنولد، ومولينا، ودراسة مارشانت.

ويمكن تفسير هذه النتيجة بأن البرنامج ساعد في تزويد الأمهات من خلال مواضيع الجلسات التي قدمت، وتمت مناقشتها معهن بصورة جماعية بالعديد من المهارات والمعلومات الشاملة والبناءة، والأساليب المتعددة التي مكنتهن وجعلتهن قادرات على استخدام أساليب إيجابية في السيطرة على المواقف التي يظهر خلالها سلوك العناد، كما أن البرنامج قد أدى إلى حدوث الكثير من التغييرات خاصة في مواقفهن ومعتقداتهن المتعلقة بسلوك العناد، من خلال تعزيزه لمهارات المواجهة والإدارة العاطفية، وقد تعود هذه النتيجة للتدريبات التي استخدمت في إعادة البناء المعرفي، وفحص التشويهاات المعرفية بعمق من خلال زيادة الحصيلة المعرفية التي ساعدتهم على فهم مشكلة سلوك العناد، وكيفية التعامل معه، واستبدال جميع الأفكار المغلوطة والسلبية ودحضها وتبديلها بأفكار

إيجابية يكون قد سهل حدوث التغيير العاطفي داخل الجلسة وخارجها.

مناقشة الفرضية الثانية:

فيما يتعلق بالفرضية الثانية والتي

نصها: "لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية على مقياس سلوك العناد في الاختبار البعدي، وبين متوسط درجاتهن في الاختبار التبعي على نفس هذا المقياس". وأشارت النتائج إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات لدرجات المجموعة التجريبية في التطبيقين البعدي والمتابعة لمقياس سلوك العناد ككل، وبالتالي نقبل الفرضية الصفرية التي نصها لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha=0.05$) بين متوسط درجات أفراد المجموعة التجريبية على مقياس سلوك العناد في الاختبار البعدي، وبين متوسط درجاتهن في الاختبار التبعي على نفس هذا المقياس، وتشير هذه النتيجة إلى أن البرنامج قد برهن على تأثيره في احتفاظ أفراد عينة الدراسة بالمكاسب العلاجية التي أحرزتها في الاختبار البعدي، وذلك في فترة الاختبار التبعي. ويمكن تفسير هذه النتيجة أن البرنامج الإرشادي

المعرفي السلوكي حتى بعد التوقف مكن الأمهات من القدرة على مواجهة المشكلات السلوكية والانفعالية التي يصدرها أطفالهن التوحديون والتي قد تحدث لاحقاً، وذلك من خلال مهارات التشكيل وضبط السلوك واختبار الأفكار وتغييرها، وزيادة التفاعلات الأسرية (لعب الأدوار)، والقدرة على حل المشكلات الأسرية، وتعلم أساليب التربية الوالدية الخاطئة وزيادة السلوكيات المرغوب فيها، والحد من السلوكيات غير المرغوب فيها، وحل مشاكل سلوك العناد، وكذلك يمكن عزو هذه النتيجة إلى تكامل التكنيكات والفنيات المختلفة لتعديل السلوك لخفض سلوك العناد، وكذلك تشير هذه النتيجة إلى استمرار احتفاظ المجموعة التجريبية بالمكاسب العلاجية التي أنجزوها في القياس البعدي على مقياس العناد حتى بعد انتهاء البرنامج بشهر، وأيضاً إلى التحسن الإيجابي نسبياً في القياس التبعي بدرجة أفضل من القياس البعدي على مقياس العناد. وتتفق هذه النتيجة بشكل عام مع نتائج بعض الدراسات التي برهنت على كفاءة برامج الإرشاد الجمعي في تحسين أعراض سلوك العناد لدى أبناء أمهات أطفال التوحد واحتفاظ المشاركين بالنتائج العلاجية في اختبارات المتابعة كدراسة عيسى وعلي،

الهوامش:

- (1) Matson, J., & Shoemaker, M. Intellectual disability and its relationship to autism spectrum disorders. Research in **developmental Disabilities**, 2012, 30, 1107-1114.
- (2) Rhodes, S., Park, J., & David, R. Comprehensive investigation of memory impairment in attention deficit hyperactivity disorder and oppositional defiant disorder. **Journal of Child Psychology & Psychiatry**, 2015, 2, 128-137.
- (3) كفافي، علاء الدين. الإرشاد الأسري المنظور النفسي الاتصالي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999.
- (4) Gadow, K, Arnold, L, & Molina, B. Risperidone Added to Parent Training and Stimulant Medication: Effects on Attention Deficit/Hyperactivity Disorder, Oppositional Defiant Disorder, Conduct Disorder, and Peer Aggression. **Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry**, 2016, 53(9), 919-948.
- (5) Da Paz, N., & Wallander, J. Interventions that target improvements in mental health for parents of children with autism spectrum disorders: A narrative review. **Clinical Psychology Review**, 2017, 51, 1-14.
- (6) Ilias, K., Cornish, K., Kummar, A., Park, M., and Golden, K. Parenting stress and resilience in parents of

ودراسة حسين، ودراسة جيانوتا وريدل، ودراسة شامخ، وحسن، ودراسة بيروتي وحمدي.

التوصيات:

- إجراء المزيد من الدراسات التي تعنى بقياس العناد عند أطفال التوحيدين.
- إجراء دراسات تهدف إلى بيان تأثير برامج قائمة على الإرشاد المعرفي السلوكي في تحسين متغيرات أخرى مثل: الاكتئاب، والتوتر، وانخفاض تقدير الذات لدى أطفال التوحد.
- إجراء المزيد من الدراسات التجريبية المبينة على البرامج الإرشادية المعرفية السلوكية في خفض العناد لدى فئات أخرى من الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة.
- لضمان استمرارية فعالية البرامج العلاجية بعد فترة العلاج لا بد من تدريب الآباء والأمهات على كيفية إدارة ومواجهة مشكلاتهم الشخصية، أو مشكلات طفلهم السلوكية والانفعالية.
- البحث عن العوامل التي تزيد من مستوى سلوك العناد لدى فئات أخرى من ذوي الاحتياجات الخاصة ووضع الحلول المناسبة لها.

المنظور النفسي الاتصالي، 1999، مرجع سابق.

(١٥) ملحم، سامي. مشكلات طفل الروضة التشخيص والعلاج، عمان: دار الفكر، 2002.

(16) Kwan, M. **Parental Stress in parents of Children with Physical Disability in Hong Kong, Dissertation of Psychology**, The Chinese university of Hong Kong, 2012.

(17) Johnston, C., Hessel, D., Blasey, C., Eliez, S., Erba, H., Dyer-Friedman, J., Glaser, B., & Reiss, A. Factors Associated with Parenting Stress in Mothers of Children with Fragile X Syndrome. *Developmental and behavioral Pediatrics*, 2003, vol 24, No 4, pp 267-275.

(18) Johnston, C., Hessel, D., Blasey, C., Eliez, S., Erba, H., 2003, Previous reference. □

(19) Gupta, A., & Singhal, N. Psychosocial support for families of children with autism. *Asia Pacific Disability Rehabilitation Journal*, 2005, 16 (2), 62-83.

(20) Kersh, J., Hedvat, T., Hauser-cram, P., & warfield, M. The contribution of marital quality to the well-being of parents of children with developmental disabilities, *Journal of Intellectual Disability Research*, 2006, 50, pp. 883-893.

(21) Allik, H., Larsson, J, & Smedje, H, Health-related quality of life in

children with autism spectrum disorder (ASD) in Southeast Asia: A systematic review. *Frontiers in Psychology*, 2018, 9, 280 - 293.

(7) Ney, P. G., Mulvihill D. L. **Child Psychiatric Treatment: A practical guide**, London: Butter worthies, 2009.

(8) Hudziak, J. J., Derks, E. M., Althoff, R. R., Copeland, W., & Boomsma, D. I. The genetic and environmental contributions to oppositional defiant behavior: A multi-informant twin study. *Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry*, 2005, 44, 907-914.

(٩) القمش، مصطفى. اضطرابات التوحد-

الأسباب، التشخيص والعلاج، دراسات عملية، ط2، دار المسيرة، عمان، 2015.

(١٠) كفافي، علاء الدين، 1999، مرجع سابق.

(١١) كفافي، علاء الدين، 1999، مرجع سابق.

(١٢) بخش، أميرة طه. فاعلية برنامج لتنمية المهارات الاجتماعية في خفض مستوى السلوك العدواني لدى الأطفال المتخلفين عقلياً القابلين للتعليم، مجلة العلوم التربوية، جامعة القاهرة، ع11، ج1، 1998، 144-94.

(13) Mckinney, C. & Renk, K. Similar presentations of disparate etiologies. A new perspective on oppositional defiant disorder, *Child and Family Behavior Therapy*, 2007, 28 (1), 37.

(١٤) كفافي، علاء الدين. الإرشاد الأسري

(27) Skogan, A., Zeiner, P., & Aase, H. Inhibition and working memory in young preschool children with symptoms of ADHD and / or oppositional - defiant disorder. **Child Neuropsychology, Electronic Publication**, 2016, [Online] available: <http://www.psypress.com/journals/details/0929-7049>.

(٢٨) هولين، باتريشيا. (مترجم) محمد علي كامل، من هم ذوي الأوتيزم وكيف نعدهم للنضج؟ القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1998.

(29) Gresham, F. M., & Lochman, J. E. **Methodological issues in research using cognitive - behavioral interventions**. In M. J. Mayer; R. Van Acker; J. E. Lochman & F. M. Gresham (Eds.), *Cognitive behavioral interventions for emotional and behavioral disorders: School-based practice* (pp. 58-81). New York: The Guilford Press, 2008.

(30) Lochman, J. E., & Pardini, D. A. **Cognitive behavioral therapies**. In M. Rutter; D. Bishop; D. Pine; S. Scott; J. Stevenson; E. Taylor & A. Thapar (Eds.), *Rutter's child and adolescent psychiatry* (5th ed., pp. 1026-1045). London: Blackwell Publishing, 2008.

(31) David, D., Cristea, I., & Hofmann, S. Why Cognitive Behavioral Therapy Is the Current Gold Standard of Psychotherapy.

parents of school-age children with Asperger syndrome or high-functioning autism, **Health and Quality of Life Outcomes**, 2006.

(22) Rowe, R., Costello, E. J., Angold, A., Copeland, W. E., & Maughan, B. Developmental pathways in oppositional defiant disorder and conduct disorder. **Journal of Abnormal Psychology**, 2010, 119, 726–738.

(23) Burke, J. D. An affective dimension within oppositional defiant disorder symptoms among boys: personality and psychopathology outcomes into early adulthood, **Journal of Child Psychology and Psychiatry, and Allied Disciplines**, 2012, 53, 1176–1183.

(24) Oliver L., Charles B., Alison E. Beyond Symptom Counts for Diagnosing Oppositional Defiant Disorder and Conduct Disorder, **Journal of Abnormal Child Psychology**, 2015, Vol 43, Issue 7, 1379–1387.

(٢٥) أبو هديروس، ياسرة. تقنين مقياس التمرد النفسي لدى المراهقين على البيئة الفلسطينية. **مجلة العلوم النفسية والتربوية، بجامعة البحرين**، 11(3)، 2010، 75-106.

(26) Zutell, S. **Classroom strategies for use with students with oppositional defiant disorder**, M.D., The College of William and Mary, Williamsburg, 2005.

- (٣٧) محمد، حسن حمدي. فاعلية برنامج قائم على العلاج بالفن في خفض اضطراب العناد المتحدي لدى الأطفال ذوي صعوبات التعلم، *مجلة التربية الخاصة*، م 10، ع 1، 2012، 257-330.
- (٣٨) شامخ، بسمة كريم، وحسن، هدية جاسم. أثر العلاج المعرفي السلوكي في خفض اضطراب العناد الشارد لدى طالبات المرحلة الابتدائية، *مجلة الأستاذ*، ع 204، م 1، 2013. 583-626.
- (39) Giannotta, F, & Rydell, A. The Prospective Links Between Hyperactive / Impulsive, Inattentive, and Oppositional-Defiant Behaviors in Childhood and Antisocial Behavior in Adolescence: The Moderating Influence of Gender and the Parent-Child Relationship Quality. **Child Psychiatry and Human Development**, 47,(٦), 2016, 857-870.
- (40) Dehghan, Souzan, Barmas, Hamed, & Alireza, Kiamanesh. Effect of self-focused parenting on aggressive and stubborn behaviors in six-year-old children in Yazd. **European Journal of Experimental Biology**, 3(2), 2013, 306-309.
- (41) Matos, M., Bauermeister, J., & Bernal, G. Parent-Child Interaction Therapy for Puerto Rican Preschool Children with ADHD and Behavior Problems: A Pilot Efficacy Study. **Frontiers in Psychiatry**, 2018, Vol. 9, Article 4. <https://doi.org/10.3389/fpsyt.2018.00004>.
- (32) Curwen, B., Palmer, S., and Ruddell, P. **Brief Cognitive Behavioral Therapy**. London, UK: Sage Books, 2000.
- (٣٣) بيك، آرون، وسكوت، جان، ووليامز، مارك. (مترجم) حسن مصطفى عبدالمعطي. *العلاج المعرفي والممارسة الإكلينيكية*، ط 1، القاهرة، جمهورية مصر العربية: مكتبة زهراء الشرق، 2000.
- (34) Marchant, M. **The Effects of Parents' Acquisition and Implementation of Parenting Skills**, (Dissertation). Utah State University, USA. 2001.
- (35) Gadow, K. D., De Vincent, C. J., & Drabick, D. A. G. Oppositional defiant disorder as a clinical phenotype in children with autism spectrum disorder. **Journal of Autism and Developmental Disorders**, 38, 2008, 1302-1310.
- (٣٦) بيروتي، عائدة، وحمدي، نزيه. فاعلية تدريب الأمهات على التعزيز التفاضلي وإعادة التصور في خفض سلوك عدم الطاعة لدى أطفالهن وتحسين الكفاءة الذاتية المدركة لدى الأمهات، *المجلة الأردنية في العلوم التربوية*، م 8، ع 4، 2012، 283-302.

- (٤٩) عيسى، أحمد نبوي، وعلي، أحمد فتحي، 2017، مرجع سابق.
- (50) Giannotta, F, & Rydell, A. 2016, Previous reference.
- (٥١) شامخ، بسمة كريم، وحسن، هديّة جاسم، 2013، مرجع سابق.
- (٥٢) حسين، ربيع شعبان حسن، سلمان، رائد محمود، 2017، مرجع سابق.
- Family Process, 48(2), 2015, 232-252.
- (٤٢) جهاد، القرعان، والعتيلى، خولة. فاعلية برنامج إرشادي جمعي يستند إلى العلاج المعرفي السلوكي في خفض سلوك العناد لدى طالبات مرحلة المراهقة المبكرة، مجلة دراسات العلوم التربوية، م43، ع5، 2016، 2105-2117.
- (٤٣) حسين، ربيع شعبان حسن، سلمان، رائد محمود. برنامج تدريبي قائم على المدخل المعرفي السلوكي في تنمية الوعي المعرفي لآباء التلاميذ ذوي اضطراب العناد المتحدي وأثره على خفض الاضطراب لأبنائهم، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، ع 173 الجزء الأول، 2017، 48-60.
- (٤٤) عيسى، أحمد نبوي، وعلي، أحمد فتحي. فاعلية برنامج تدريب باللعب في تخفيف اضطراب العناد المتحدي للتلاميذ الصم والمعوّقين فكرياً القابلين للتعلم، مجلة المعهد العالمي للدراسات والبحوث العلمية، م3، ع3، 2017، 1-23.
- (٤٥) عيسى، أحمد نبوي، وعلي، أحمد فتحي، 2017، مرجع سابق.
- (٤٦) محمد، حسن حمدي، 2012، مرجع سابق.
- (47) Gadow, K, Arnold, L, & Molina, B, 2016, Previous reference.
- (٤٨) محمد، حسن حمدي، 2012، مرجع سابق.

الحياة الفكرية في المدينة المنورة من خلال الرحلة العياشية لأبي سالم العياشي

١٠٧١-١٠٧٢هـ/١٦٦١-١٦٦٣م

د. بنان محمد صلاح الدين *

تاريخ قبول البحث: ١٧/٢/٢٠١٩م

تاريخ وصول البحث: ٥/١٢/٢٠١٨م

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الحياة الفكرية في المدينة المنورة خلال الفترة ما بين ١٦٦١ - ١٦٦٣ م وذلك بالاعتماد بشكل رئيس على رحلة قام بها الرحالة المغربي أبو سالم العياشي للحجاز خلال تلك الفترة لأداء فريضة الحج وشد خلالها الرحال إلى المدينة المنورة لزيارة الحرم النبوي الشريف والأماكن الدينية الأخرى فيها. وتعد هذه الرحلة من أهم الرحلات المغربية لبلاد الحجاز خلال العهد العثماني لما اشتملت عليه من معلومات قيمة وغنية عن مختلف الجوانب لا سيما الجانب الفكري. وتأتي أهميتها في هذا المجال أن كاتبها اعتمد في استقاء معلوماته من خلال مشاهداته العينية والمعاينة باعتبارها من المصادر الهامة لجمع المعلومات، بالإضافة إلى اعتماده على جملة من المصادر المكتوبة سواء كانت تاريخية أم دينية أم جغرافية.

وقسمت الدراسة إلى خمسة محاور، تناول المحور الأول العلماء المجاورين في الحرم النبوي باعتباره من أبرز مراكز العلم في العالم الاسلامي بعد الحرم المكي بفضل وجود العديد من العلماء المقيمين والمجاورين فيه. أما المحور الثاني فتناول المجالس العلمية والمحاورات والمناقشات والمناظرات الفقهية التي كان يحضرها العياشي وما كان يدور فيها من نقاش حول موضوعات مختلفة، بالإضافة إلى تنوع حلقات العلم من سماع للأحاديث الشريفة والتفسير والفقه والقراءات وغيرها من العلوم الأخرى. واشتمل المحور الثالث على الحديث عن الإجازات العلمية التي حصل عليها العياشي من كبار العلماء في الحرم النبوي. بينما تضمن المحور الرابع الحديث عن المكتبات وخزائن الكتب الموجودة داخل الحرم النبوي. وتناول المحور الخامس والأخير الفنون والأغراض الشعرية حيث اتضح أن العلاقة بين الرحلة والأدب علاقة وثيقة لا سيما أن الرحلة تشكل مصدراً هاماً من النصوص الأدبية شعراً أم نثراً.

* أستاذ مساعد، كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة القدس.

The intellectual features of Al Madina Al Monawara through Al Ayyashia Travel during the period 1661-1663 A.D.

Abstract

This study aims to shed light on the intellectual life in Al Madina Al Monawara during the period 1661-1663 A.D, depending mainly on travel by Abu Salem Ayyashi to Hijaz during that period to perform Hajj and visit the Prophet's Mosque and other religious places. it is considered the most important visit because the author relied on collecting the information on his observations, as well as on a number of written sources, whether historical, religious or geographical.

The study is divided into five parts; the first part is about the scientists who live near The Prophet's Mosque and the second part is about the scientific discussions , discussions and jurisprudential opinions that were attended by Al Ayyashi and the discussion that took place on various subjects in addition to the diversity of the scientific community from hearing the Hadith, interpretation, jurisprudence, reading and other sciences. The third and fourth parts discuss the Libraries and scientific licenses that Al Ayyashi had obtained. The fifth part dealt with arts and poetry, where it became clear that the relationship between travel and literature is close since travel forms an important source of literary texts of poetry and Prose.

المقدمة:

تخظى المدينة المنورة بمكانة هامة ومرموقة عند المسلمين، فهي مدينة رسول الله ﷺ ودار هجرته وأصحابه الغر الميامين رضوان الله عليهم أجمعين، وطيبة الطيبة، مهبط الوحي، ومنتزل جبريل ﷺ على

الرسول ﷺ. وفيها وضع الرسول ﷺ أسس الدولة الإسلامية، وعلى أرضها بنى المسجد النبوي الشريف الذي كرمه الله سبحانه وتعالى فجعله من المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال. وفيه قال الرسول

ﷺ "صلاة مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام" (١).

كما تضم المدينة المنورة الكثير من المعالم الدينية الإسلامية كمقبرة شهداء أحد ومقبرة البقيع، بالإضافة إلى عدد المساجد كمسجد قباء الذي خطه الرسول ﷺ ومسجد القبلتين ومسجد الميقات ومسجد الراية ومسجد العنبرية وغيرها من المساجد الأخرى التي أنشأت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من الصحابة رضوان الله عليهم.

وبالرغم من أن المدينة المنورة ليست جزءاً من مناسك الحج، غير أنه ما من حاج يتخلف عن زيارتها لما لها من مكانة دينية في نفوس المسلمين. ولا يخفى ما للحج من فوائد عظيمة فبالإضافة إلى أهميته الدينية باعتباره أحد أركان الإسلام الخمسة، غير أنه على الصعيد الثقافي والعلمي يشكل ملتقى الحجاج باختلاف مشاربهم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم ومجال تبادل المعارف وامتزاج الثقافات المختلفة فيجمع بذلك بعض الحجاج سيما العلماء ومنهم والفقهاء بين أداء الفريضة والتحصيل العلمي، فقد أبدى هؤلاء اهتماماً بالغاً بالاستفادة من المكانة العلمية للحرمين الشريفين والعودة إلى بلادهم

بجمولة من الزاد العلمي والمعرفي، لا سيما أن البعض منهم كان يطيل مقامه في الحرم النبوي الشريف والمواظبة على حضور حلقات العلم ومجالس العلماء والفقهاء والمقيمين أو المجاورين للإفادة من علمهم وتلقي العلم والرواية عنهم والحصول على الاجازات العلمية من هؤلاء العلماء، فاستفادوا وأفادوا، واستجازوا وأجازوا وتلقوا وأخذوا. ودونوا لقاءاتهم ومشاهداتهم ومشاعرهم طوال فترة وجودهم وإقامتهم مما جعل من التراث الذي تركوه أو ما يعرف بأدب الرحلات منبعاً غنياً ومصدراً علمياً قيماً استقى ولا يزال يستقي منه الكتاب والأدباء والشعراء مادتهم العلمية.

وتعد رحلة العياشي موضوع الدراسة من أكثر الرحلات شهرة وأكثرها فائدة لما اشتملت عليه من معلومات قيمة تناولت أنواعاً مختلفة من العلوم والمعارف، فجاءت حافلة بمعطيات علمية وأدبية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وعمرانية وغيرها من مختلف الجوانب التي استقى مادتها من منابعها ومصادرها الأصلية وبشكل خاص المشاهدة والمعاينة التي تُعد من أهم مصادر المعلومات التي اعتمد عليها وإن كان قد

اعتمد على عدد من المصادر المكتوبة تاريخية كانت أم دينية.

سيرة أبي سالم العياشي:

هو أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي، وينسب إلى قبيلة آيت عياش وهي قبيلة بربرية تقسم على حدود الصحراء في جنوبي شرق المغرب، غير أنه يقال بأن العياشي عربي الأصل ينتمي في نسبه إلى الأدارسة. ولد في شعبان عام ١٠٣٧هـ/ آب ١٦٢٨م في قرية تازروفت الواقعة شمال المغرب في الأطلس الكبير على ضفة أحد روافد نهر زيز في الأطلس الكبير^(٢).

نشأ العياشي في حجر والده فقراً عليه القرآن الكريم ولقنه الذكر، وقضى أكثر من عمره في الزاوية العياشية التي تُنسب لوالده والذي أسسها عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م بإذن من شيخه محمد أبي بكر الدلائي وتعرف بزاوية سيدي حمزة، ونتيجة لازدياد الواردون وإقبالهم على هذه الزاوية وضيق مسجده قام أبو سالم بتوسيعه وتجديد بناءه عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م، ثم أخذ يشغل بتدريس العلم وتربية المريدين^(٣).

ويبدو أن مكانته العلمية وكثرة أتباعه ومريديه سببت له المتاعب من السلطة

الحاكمة التي أخذت تتوجس خيفة منه ومن أهل زاويته، فأجلى عن بلده مرتين، كانت المرة الأولى أيام الحكم السعودي عندما رفض توليه منصب القضاء في مراكش بعد أن عرضه عليه السلطان محمد الشيخ السعودي، فأجبر على الإقامة بفاس لمدة عام، وكان ذلك عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م^(٤)، وقد سنحت له الفرصة خلال هذه الفترة بالقراءة على أشهر أساتذة عصره في المغرب في مختلف العلوم من حديث ومنطق وكلام وتفسير وفقه وغير ذلك من علوم اللسان واللغة^(٥). أما المرة الثانية فكانت خلال عهد الدولة العلوية حيث نفاه السلطان الرشيد العلوي مع أسرته إلى فاس عام ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م، واستمر هناك لمدة أربع سنوات حيث عاد إلى بلده بعد أن سمح له السلطان إسماعيل بالعودة عام ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م^(٦).

واتصف العياشي بحب الحديث وسعيه لطلب علو الإسناد حتى قال عنه حفيده "كان كلفاً بالرواية مستريحاً إليها من أثقال الدراية علماً منه أن علو الإسناد مرغّب فيه عند جميع النقاد"^(٧). واشتهر بتعظيم الصوفية وكعادة بعض علماء عصره في المغرب أو في

غيرها آنذاك، فالتف حوله المريدون وطلاب العلم بأعداد كبيرة^(٨).

وبالرغم من أنه مالكي المذهب، إلا أنه لم يكن متممًا لمذهبه، وكان يدعو إلى نبذ التعصب المذهبي، فيقول: "ما من علوم الشريعة إلا وقد أُلّف فيه أرباب المذاهب كلهم، والمشتغل بذلك الفن لا يقتصر على كتب أهل مذهبه فيه، فكم من مالكي انتفع بكتب الشافعية في التفسير والحديث والتصوف، وبالعكس فلو كان المشتغل بقراءة هذه الكتب لا يعتقد تعظيم أصحابها ولا هدايته لقل انتفاعه بها أو عدم رأساً^(٩).

اشتهر العياشي بكثرة رحلاته داخل المغرب وخارجه، وقد أكسبته هذه الرحلات فوائد وتجارب مكنته من ربط سلسلة الأسانيد بالمشرق فزادت في سعة مداركه وعرفته بطبائع المجتمعات ومستوياتها المادية والفكرية، ووقف بنفسه على جغرافية مختلف الأقاليم لبعض البلدان العربية واطلع على ما كان يعانيه الناس من ظلم الحكام والولاة ونهب الأعراب^(١٠). وقد أدى العياشي خلال رحلاته فريضة الحج ثلاث مرات كانت الأولى عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م، والثانية عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م، أما الحجة الثالثة فكانت عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م وعن هذه الحجة

ألّف رحلته موضوع الدراسة وقصد أن تكون إلى جانبها الموضوعي ديوان علم وبذلك طالت حتى استوعبت مجلدين، وتُعرف هذه الرحلة بالرحلة الكبرى وحملت عنوان ماء الموائد^(١١) وتُعد هذه الرحلة من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشاراً نظراً لما فيها من مادة متنوعة ومعلومات قيمة وغزيرة.

ترك العياشي كثير من المؤلفات التي لا تزال مخطوطة في مواضيع شتى من المعرفة في العقيدة والحديث والتراجم والتصوف والنحو وعلم الكلام والمدائح النبوية^(١٢). وفي ضحى يوم الجمعة ١٨ ذي القعدة ١٠٩٠هـ/٢٠ كانون أول ١٦٧٩م توفي العياشي متأثراً بمرض الطاعون عن عمر يناهز نحو ثلاث وخمسين سنة^(١٣).

خط سير الرحلة ذهاباً وإياباً:

يذكر العياشي أنه عزم عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م القيام برحلة ثالثة للحجاز لأداء فريضة الحج والمجاورة في الحرمين المكي والنبوي، إلا أنه لم يتمكن من ذلك لظروف سياسية مر بها المغرب، وذكر ذلك بقوله "دبت في مغربنا عقارب الفتن، وهاجت بين الخاصة والعامة مضمرات الإحن، فانقطعت السبل أو كادت، وهاجت الأرض بأهلها ومادات^(١٤)". وبعد أن

استقرت ظروف البلاد السياسية قرر في العام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م التوجه للحج بعد أن أشتد العزم مني كما كان قبل ذلك وأعظم، وخيل لي أن أمر التوجه في سلك التوفيق قد انتظم^(١٥).

غادر العياشي بلدته صباح يوم الخميس الموافق ١ ربيع الأول ١٠٧٢هـ/ ٤ تشرين أول ١٦٦١م حيث لحق بالركب المغربي في ١١ ربيع الثاني ١٠٧٢هـ/ ٣ كانون أول ١٦٦١م الذي كان أميره آنذاك صديقاً للعياشي حيث كان بينهما من الألفة والمودة في فترة سابقة خلال أدائهم الحج سابقاً^(١٦). ووصف العياشي كافة المواقع والمشاهد التي مر عنها في طريقه عبر طرابلس فالأسكندرية ثم القاهرة حتى وصل الركب إلى مكة المكرمة عشية يوم السبت الخامس من ذي الحجة ١٠٧٢هـ/ ٢١ تموز ١٦٦٢م^(١٧) وبذلك تكون مدة الرحلة قد استغرقت معه تسعة أشهر وخمسة أيام أو ٢٧٥ يوماً. ويذكر العياشي أن الركب المصري دخل قبلهم في اليوم الرابع بينما دخل بعض من الركب الشامي في اليوم السادس وبعضهم الآخر في اليوم السابع، أما ركب العراق فقد دخل في اليوم الثامن. وذكر أيضاً أن الركب

الشامي كان قد تعرض في طريقه لأعمال سلب ونهب من قبل القبائل البدوية التي كانت تقيم على الطريق فكانوا قد لفقوا من الحرامية شدة في الطريق حتى كادوا أن يتعوقوا، ودفعوا للأعراب مالا كثيراً بعد ما انتهب من ركبهم كثير وقتل أناس^(١٨).

استمر العياشي والركب المغربي في مكة حتى يوم الأحد ٢٠ ذي الحجة ١٠٧٢هـ/ ٥ آب ١٦٦٢ حيث شدوا الرحال باتجاه المدينة المنورة، وكان الركب المغربي أول الأركاب الواردة من الآفاق خروجاً من مكة، فلا يخرج قبلهم إلا بعض قفول أهل المدينة المشرفة^(١٩)، وفي ليلة الخميس الثاني من محرم ١٠٧٣هـ/ ١٦ آب ١٦٦٢م، دخلوا المدينة المنورة، وبذلك تكون الطريق من مكة إلى المدينة قد استغرقت معهم اثني عشر يوماً.

استمر الركب المغربي مقيماً في المدينة لمدة ثلاثة أيام وأربع ليالي، إذ غادرها صبيحة يوم الأحد، بينما بقي العياشي مقيماً في المدينة حتى ضحى ١٧ شعبان ١٠٧٣هـ/ ٢٦ آذار ١٦٦٣م حيث غادرها متجهاً إلى مكة المكرمة، وبذلك يكون قد أقام في المدينة سبعة أشهر ونصف. ويذكر بأنهم استأجروا جملتين بمبلغ ١٣ قرشاً^(٢٠)

كما منحهم الآغا^(٢١) سليم شيخ الأغوات بالمدينة محملاً يعرف بالشقدف^(٢٢). وقد وصل العياشي ورفاقه إلى مكة المكرمة ليلة الأحد التاسع والعشرين من شعبان أي بعد اثني عشر يوماً من المسير^(٢٣).

أقام العياشي في مكة حتى ليلة الثلاثاء الثامن عشر من ذي الحجة ١٠٧٣هـ/ ٢٣ تموز ١٦٦٣م أي مائة وتسع أيام، حيث غادرها عائداً إلى المدينة المنورة وكان برفقته ثلاثة من فقهاء الحنفية بالمدينة وشيخ الحرم النبوي^(٢٤). ويصف سوء معاملة المكارية معهم إذ كلما أبرموا معهم اتفاقاً نقضوه محاولين ابتزازهم بدفع المزيد من المال فقال: "وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وأساء الأكرياء معنا في الركوب والنزول والحملات... واستطال علينا المكارون... وقالوا إن أمتعتكم ثقيلة، فإما أن تزيدوا في الكراء، وإما أن نطرح لكم أمتعتكم هنا حتى يقدم عليكم الركب، وزدنا لهم في الكراء. والحاصل أن ما إكترينا به من مكة إلى المدينة أزيد مما إكترى الناس به من مكة إلى مصر، واغتفرنا ذلك كله رغبة في إقامة أيام بالمدينة قبل الركب، فكمل الله مرغوبنا"^(٢٥).

العلماء والمجاورون الذين التقاهم العياشي في المدينة المنورة:

امتاز القرن الحادي عشر للهجرة بوجهه الثقافي والعلمي بظهور حركة فكرية وثقافية نشطة، وقد شكلت المجاورة بالحرم النبوي في المدينة المنورة من الفقهاء والعلماء والأدباء والمتصوفة ممن شدوا الرحال إلى البقاع المقدسة خلال القرن الحادي عشر للهجرة وما سبقه وتلاه من القرون أيضاً ظاهرة متميزة أغنت الحركة الفكرية والأدبية في المدينة، وأسهمت في اختلاط الأجناس البشرية وتمازج الثقافات والمذاهب وتبادل الرسائل والاجازات والكتب والمؤلفات، كما أسهمت أيضاً في عملية التأليف والتدوين لا سيما أنها كانت تأخذ في كثير من الأحيان طابع المساجلات والمطارحات والمناقضات والمعارضات والردود والتعقيبات والشروح والتوضيحات، مما أسهم في بعث الحياة الفكرية والثقافية في المدينة^(٢٦).

وكانت المدينة المنورة مركزاً ثقافياً عالمياً يلتقي فيه العلماء من مذاهب واختصاصات مختلفة، فاشتملت خزائن الحرم النبوي على مختلف الكتب التي كانت تهدى أو تحبس على الحجرة النبوية، فما من عالم صنف كتاباً في المشرق أو في المغرب أو الهند أو السند أو غيرها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلا وكان

يصرف نسخة من كتابه إلى المدينة المنورة تبركاً ورجاء الإقبال على كتابه^(٢٧).

وشكلت المدينة المنورة نقطة استقطاب والتقاء للعلماء المسلمين من كافة أرجاء العالم الإسلامي لا سيما أن الحرم النبوي كان يُعد من أبرز المراكز العلمية لنشر العلوم الإسلامية^(٢٨) فكان في المدينة علماء من مختلف الجنسيات الإسلامية كالمصري والهندي والكردى والفارسي واليميني والجزائري والمغربي والتونسي. وتفيض كتب التراجم بأسماء العديد من هؤلاء العلماء والمجاورين ممن كانت لهم مشاركات علمية وأسهموا في نشر علومهم ومعارفهم وتركوا بصمات واضحة في التواصل العلمي والثقافي بين مختلف أقطار العالم الإسلامي.

لقد بين العياشي هدفه ومقصده من تأليف رحلته إذ ارتأى بأن تكون ديوان علم وأدب، فقال "وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معاً فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، لا سيما وإن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التكوين فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره، والله المسؤول أن

يلهمنا رشدنا ويخلص لوجهه فيما نأتي ونذر قصدنا^(٢٩).

وخصص العياشي في رحلته فصلاً خاصاً في ذكر المشايخ الأعلام والأصحاب الكرام الذين التقاهم وأخذ عنهم ما تيسر من العلم وانتفع بفوائدهم أو أخذوا عنه أو صاحبهم في الله^(٣٠)، وحرص على ترجمة العديد من هؤلاء العلماء. وبلغ عدد العلماء والمجاورين ممن التقاهم واجتمع بهم ستة وخمسين ما بين عالم ومجاور. وقد أسهب في ترجمته لبعضهم بينما أشار إلى بعضهم الآخر بشكل موجز أو اقتصر على ذكر الاسم فقط. وتنوعت وظائف بعض هؤلاء العلماء فمنهم المؤقت بالحرم النبوي أو المدرس فيه للمذاهب الأربعة أو رئيس الخطباء أو الإمام أو القاضي.

كان الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالرحمن الديبع اليميني الزبيدي أول من إلتقاه العياشي بالمدينة وقرأ عليه وأخذ عنه^(٣١). ووصفه بأنه "بقية السلف الصالح وقدوة كل غادٍ في اكتساب الحمد ورائح، أستاذ المقرئين وإمام المحدثين"^(٣٢).

ويذكر العياشي بأنه كان يمتاز بحسن تلاوته للقرآن وعذوبة صوته مما يجعل الناس ينهالون عليه لسماع تلاوته، فقال

عنه: "ما سمعت أذني في أقطار الأرض كلها، على كثرة ما سمعت، أحسن من تلاوة للقرآن وأطيب منه نغمة به وأجود منه ترتيلاً له، يعطي الحروف حقها في خارجها من غير إفراط ولا تفريط في تؤده وسكون ووقار بقراءة مسترسلة متناسبة لا يرجع فيها ترجيع أهل الألحان ولا يمد في غير محل المد ولا يتركه في محله، محافظاً على مراتبه من توسط وإشباع وقصر، مجيداً للنطق بالإعالة وتسهيل الهمز وتليينه، مراعيّاً لصفات الحروف من تفخيم وترقيق وتغليط وتشديد، وغنة وإظهار وإخفاء"^(٣٣).

وذكر أيضاً أنه لم يختم عليه أحد القرآن ممن ابتدأوا عليه القراءة إلا هو، فقد استمر على ملازمته، كما أن أبا الحسن أبدى اهتماماً زائداً بالعياشي، فعندما بدأ القراءة عليه بداية كان يقرأ وقتاً واحداً بعد صلاة الفجر ثم زاده وقتاً إضافياً بين صلاة الظهرين^(٣٤).

والتقى العياشي أيضاً مع الملا إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري^(٣٥) وهو من أتباع الطريقة الخلوتية^(٣٦) ووصفه بأنه العلامة الدراك الفهامة محقق العلوم على اختلاف أنواعها، ومقيد شواردها في بطئها وإسراعها، ومداوي أدوار القلوب مع تباين طباعها، ومؤهل اضلال المعارف بعد

إقواء رباعها، حامل لواء الشريعة والحقيقة، وغائص بحار الأنظار الدقيقة... فقيه الصوفية وصوفي الفقهاء وعالم الصلحاء وصالح العلماء وارث علوم الختم^(٣٧).

ويذكر العياشي بأن الكوراني لم يترك علماً من العلوم إلا وأخذ منه نصيباً في بلاده إلا علمي الحديث والتصوف، فأما علم الحديث فقال الكوراني "ما كنت أظن أنه بقي على وجه الأرض أحد يقول حدثنا وأخبرنا حتى وصلت إلى بلاد العرب بالشام ومصر والحجاز". أما التصوف فقال: "ما كنت أظهر أن ليس أحد يتداوله بالقراءة والتصنيف والمنازلة بالفصل إلا في بطون الدفاتر أو ما عند المنقطعين في رؤوس الجبال"^(٣٨).

ومن شدة ذكائه قيل عنه: "بلغ من قوة حافظه الملا إبراهيم أنه لو لمح مسألة في أية كتاب وغاب عنه سبع سنين ثم سئل عنها لقال هي في كتاب كذا في صفحة كذا في سطر كذا"^(٣٩). ومدحه العياشي بقصيدة من خمس وعشرين بيتاً من البحر الطويل على قافية الهاء، جاء فيها:

أشافي قلبي بعدما كنت جارحه

يجبك مني كل عضو وجارحه

عليك ثنائي ما حييت فلإني



بسانحه من كل خير وسارحة
وبين يدي نجواي قدمت مدحتي
لتكرمني والمرء يكرم مادحه
أمولاي إبراهيم يا من بفضلته
طيور العُلا في دوحة المجد صادحة
ببابك عبد طالب الزيارة
لكيما ينال دعوة منك ناجحة^(٤٠)

ومن شيوخ التصوف الذين التقاهم
العياشي الشيخ بدر الدين الهندي^(٤١).
وكان قد قدم إلى المدينة المنورة عام
١٠٦٨هـ / ١٦٥٧م لنشر العلم وبثه، وامتاز
بأنه كان آية في الذكاء والفهم ووعاء من
أوعية العلم، له في كل الفنون تحقيق، وفي
فهم المشكلات تمكين وتدقيق. ووصفه
العياشي بأنه لم ير أكثر منه تأدباً في ترداده
بالحرم النبوي، ووصل الأمر في تواضعه إلى
حد قيامه بمساعدة الخدام في تكنيس المسجد
النبوي بيده^(٤٢).

كما أنه لم يكن يجلس في محل تدريسه
بالحرم الشريف إلا ويستقبل الحجرة
الشريفة بوجهه، وإن جلس أحد بينه وبينها
بحيث يحول بينه وبين رؤيتها أقامه وحوله
عن يمينه أو يساره فتكون حلقة تدريسه من
ناحية الحجرة منفردة، وفي ذلك دلالة على

تأدب الجالسين لأنهم بذلك يستدبرون
الحجرة الشريفة^(٤٣).

وكان مما لاحظته عليه العياشي اهتمامه
بالدراية أكثر من الرواية، غير أنه لم يكن
ينكر فضل علم رواية الحديث وفائدته وإن
قل اعتناء أهل العصر به كما هو الحال عند
علماء العجم فليس لهم به إلمام لا لهم عليه
تعويل، متقدمهم ومتأخرهم، إلا
القليل^(٤٤). كما لاحظ عليه العياشي أيضاً
ضعفه في اللغة العربية وبخاصة علم
النحو^(٤٥).

ومن العلماء الآخرين الذين التقاهم
العياشي الشيخ شهاب الدين أحمد بن التاج
رئيس المؤقتين بالحرم النبوي^(٤٦) وذكر
العياشي بأنه تمهر في علم الحساب
والتوقيت والتنجيم^(٤٧). والتقى أيضاً مع
الشيخ حسن البري من صعيد مصر^(٤٨)
وهو مدرس المالكية بالحرم النبوي وتنسب
إليه طائفة من طلبة العلم في الحجاز فيقال
مثلاً فلان البري، وقد أسند إليه تدريس
المالكية بالنظر لخلو المدينة ممن يفهم المذهب
المالكي، فقدمه أتباع المذهب المالكي
لتدريسهم ولم يكن في مدرسي المالكية هناك
من ينافسه مع أنه كما ذكر العياشي ضعيف
التحصيل في الفقه. ويروي العياشي بأن

البري أبدى قلقه من اتساع حلقة العياشي العلمية "فخشي أن أعزله من منصبه أو أن أحول بينه وبين مطلبه فتحاشى الجلوس عندي والتردد إلي حتى استيقن الخبر من عند بعض أصحابنا أن ليس قصدنا دوام الاستيطان وإنما هي مجاورة عام حتى أمن مما كان يتوهمه من قبلي" (٤٩).

والتقى أيضاً مع الشيخ إبراهيم خير الدين الرملي (٥٠) ووصفه بأنه: "فصيح اللسان والبنان... المحدود السنن في العلوم على حداثة السن، الراوية ذو الأسانيد العالية" (٥١) وتولى خلال وجوده في المدينة العديد من المناصب كالإمامة والخطابة والتدريس (٥٢).

وهناك الكثير من العلماء ممن التقاهم العياشي لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً، أفادوا واستفاد الكثير منهم، إلا أنه ذكر أيضاً أنه لم يستفد من بعض العلماء شيئاً كاملاً نافع العجمي (٥٣) الذي نال شهرة واسعة عند علماء العجم وأرباب الدولة، وقد تولى الإقراء في الحرم النبوي باللغة التركية والفارسية، ولم يكن يحضر مجلسه سوى الأتراك أو ممن كان يعرف لغتهم ولذلك لم يحضر العياشي أي من مجالسه ولم يستفد منه شيئاً (٥٤).

لقد كان العلماء والفقهاء الحنفيون المحظوظون أكثر ليس في المدينة المنورة فقط بل وفي مختلف مناطق الدولة العثمانية بالنظر لأن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة، وكثيراً ما تحول بعض الفقهاء الواردين إلى المذهب الحنفي متخليين عن مذهبهم الأصلي رغبة في الحصول على الجاه ورغد العيش وتولي بعض المناصب الدينية من قضاء وفتوى وخطابة وإمامة وغيرها (٥٥). وقد أورد العياشي مثلاً على بعض الفقهاء ممن تحولوا عن مذاهبهم إلى المذهب الحنفي كالشيخ أحمد البري (٥٦) الذي كان على المذهب المالكي وقد تولى بعد تحوله إلى الحنفي وظيفة رئيس الخطباء بالحرم النبوي وكان يتولى الخطبة في المحافل الكبيرة علاوة على قيامه بالتدريس في حلقات العلم ومجالس فقه الحنفية (٥٧).

أما أهم العلوم التي كانت تدرس في الحرم النبوي الشريف أو حظيت باهتمام كبير من علماء المدينة كما أوردتها العياشي فكانت بالدرجة الرئيسة العلوم النقلية أو العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير والقراءات، وقد صنفها ابن جماعة على النحو الآتي: القرآن والقراءات فالحديث فالتفسير فأصول الدين فأصول اللغة فالفقه (٥٨). وعن أهمية هذه العلوم يقول



أخرى وجب التصدر للرد عليها بالاستناد إلى القرآن والسنة^(٦٤).

كما برز عدد من علماء المدينة في مجال علم التفسير والقراءات، وكان من بين الكتب التي سمعها العياشي على بعض العلماء كتاب التيسير في القراءات السبع، والتبصرة في مذاهب القراءات السبع لأبي عبدالله محمد طالب المقرئ^(٦٥).

وبالإضافة إلى العلوم السابقة برز عدد من علماء المدينة في مجال العلوم العقلية كالحساب والهندسة والطب والتشريع والتنجيم والمنطق، وكان من أبرز العلماء الذين أبدعوا في بعض العلوم الشيخ محمد سليمان الروداني^(٦٦) الذي حقق علم التنجيم بجميع أنواعه مع ما يتوقف عليه من علوم كالحساب وغيره^(٦٧). كما أتقن العلوم الغربية كالرمل والأوقاف والحروف والسيما والكيما التي امتاز بجذاقته فيها^(٦٨). ووصفه العياشي بقوله: "وبالجملة فهو أعجوبة الدهر في الذكاء وضعة اليد فلا يكاد يتعاضى عليه شيء من الصناعات المدرسة التي لم يبق إلا أخبارها فضلاً عن الموجودة^(٦٩) فكانت له يد صناع يحسن غالب الحرف المهمة، لاسيما الدقيقة العمل الرائقة الصنع، كالطرز العجيب، والصياغة

الماوردي إذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وحب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها والعناية بأولها، وأفضلها علم الدين لأن الناس بمعرفته يرشدون ويجهله يضلون^(٥٩).

ويستدل من رحلة العياشي أن علم الحديث كان من أكثر العلوم الشرعية أهمية بدليل التقائه بكثير من علمائه ما يدل على علو شأن هذا العلم بين العلوم واحتلاله مركز الصدارة وكان من بين أمهات كتب الحديث التي أوردها العياشي وأطلع عليها خلال فترة وجوده بالمدينة صحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي^(٦٠) وسنن ابن ماجه^(٦١) وسنن أبي داود^(٦٢) بالإضافة إلى تلقين كتب المبتدأ، والتهجد، والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والأحكام الكبرى لمحمد عبد الحق بن عبدالرحمن الأزدي الإشبيلي^(٦٣).

أما علم الفقه فقد استهوى أيضاً علماء ذلك العصر وحرصوا على اتقانه وإجادته لا سيما أن ذلك العصر حفل بالمستجدات التي لم يعرفها أهل القرون الأولى من الفترة الإسلامية كانتشار القهوة والدخان، وهذه أمور كان على العلماء أن يفتوا في أمرها، بالإضافة إلى مسائل فقهية



المتقنة، وتسفير الكتب والخرازة^(٧٠)، وكان من بين الصناعات التي احترفها صناعة الاسطرلابات وغيرها من الآلات التوقيتية كالأرباع والدوائر والأنصاف والماكنات (الساعة)، ويقول العياشي "ومن أعظم ما رأيته من صناعته أنه يجبر قوارير الزجاج المتصدعة إلى أن لا يكاد صدعها يبين". وكان من أهم ما اخترعه الآلة الجامعة النافعة في علمي التوقيت والهيئة^(٧١)، واهتم الشيخ أحمد عبد القادر المالكي^(٧٢) أحد الخطباء بالحرم النبوي بأعمال الفلاحة والزراعة وتثمين المكاسب بالقيام على ضياعه ورباعه حتى أنه كان يغيب عن المسجد أياماً عديد ويكاد لا يرى فيه إلا أيام الجمع^(٧٣).

كل حرف من حروف المعجم ثماني وعشرون صفحة، وفي كل صفحة جدول من ثماني وعشرين في مثلها فيصبح عدد الأسطر في الصفحة الواحدة ثمانية وعشرين سطراً، وفي كل سطر ثمانية وعشرون مربعاً صغيراً وفي كل مربع أربعة أحرف من حروف المعجم، ولا يتكرر أي من الحروف في أي من المربعات^(٧٤). ويذكر العياشي بأن هذا العلم يعد من علوم الكشف التي يجب كتمانها، وقد استعصى على كثير من الناس ممن لهم "عقول ذكية وأفهام سنية"^(٧٥).

المجالس العلمية:

نقل العياشي في رحلته أخبار ووصف الكثير من المجالس العلمية والمناظرات الفقهية التي كان يحضرها أو يشارك فيها، وذكر بعض ما كان يجري فيها من مناقشات ومحاورات مع بعض العلماء حول موضوعات ومسائل مختلفة لا سيما أن هؤلاء العلماء والطلبة كان ينتمون لمذاهب مختلفة. وغالباً ما كانت هذه المجالس تُعقد بالحرم النبوي وليس بالمدارس، إذ لم يورد العياشي ذكراً في رحلته لأي مدرسة في المدينة.

كما اشتهر الروداني أيضاً بما عرف بأسرار الحروف وهو عبارة عن جداول وأوراق وأسرار الأسماء والترقي^(٧٤). كما اشتهر به الشيخ أحمد بن التاج رئيس المؤقتين بالحرم وكان يمتلك كتاب الجفر الكبير^(٧٥) الذي قلما كان يتوفر عند غيره، وقد اطلع عليه العياشي حيث وصفه بأنه عبارة عن سفر كبير يتكون من أربعين كراساً مرتب على حروف المعجم، ويتكون من حروف مقطعة في مربعات صغيرة يحتوي كل مربع على أربعة حروف، وفي

وينقل العياشي في رحلته الكثير من المناقشات التي كانت تجري بينه وبين المدرسين والطلبة في حلقات التدريس والمجالس العلمية، فقد حضر ذات مرة مجلساً للشيخ محمد بن رسول الشهرزوري^(٧٨) بالمسجد النبوي وقد اطلع العياشي على رسالة كتبها في الانتصار للمذهب الشافعي في الجهر بالبسملة أول سورة الفاتحة واعتبرها آية منها، وذكر للعياشي بأن السبب في تأليف هذه الرسالة أن بعض الطلبة الحنفية قالوا له بأنه لا يوجد مستند للشافعي قطعي في ذلك، ويذكر العياشي بعد أن تأمل الرسالة أنه تصرف بذلك تصرفاً حسناً وذكر الأدلة من السنة الواردة في ذلك وبنى القطع بها على ما اشتهر عند متأخري المحدثين أن ما اشتمل عليه الصحيحان للبخاري ومسلم من الحديث يلحق بالتواتر لتلقي الأمة لهما بالقبول شرقاً وغرباً واشتهار أحاديثهما عند علماء النقل. غير أن العياشي انتقد الشيخ لأنه "تحامل على من نفى قراءتها ولم يثبتها ورد مذهبهم بأشياء لا تقاوم أدلة مذهبهم عن تحقيق النظر". ورد عليه العياشي بالقول إن كان القصد بها إثبات مستند لمذهبكم رداً على من زعم نفيه،

فهي وافية بذلك... وإن كان القصد ترجيح المذهب على غيره، وتوهين أدلة من سواه فلا تستقل بذلك، فقد ذكر علماء الحديث بعد ما حصلوا طرق الأحاديث الدالة على إثباتها والقراءة بها في الصلاة، وتعاضدها أنها بجمليتها لا تقاوم رواية أنس الواردة في الصحيحين وغيرهما، الدالة على عدم قراءتها بصحتها وشهرة روايتها، بحيث لا مطعن فيها ولا مغمز فما ظنك بها إذا انضم إليها غير ذلك من الأدلة التي استدل بها المخالفون^(٧٩).

كان العياشي مواظباً على حضور مجالس الشيخ بدر الدين الهندي ويصف كيف كان هذا الشيخ يبدي اهتمامه بالدارسين وحرصه على إيصال المعلومات لهم، فكان يطالب الحضور في أول الدرس إعادة الدرس السابق، وقد حضر لديه في إحدى الجلسات تدريس "مختصر السعد على تلخيص المفتاح"^(٨٠)، ويذكر العياشي بأنه لم ير منه أي أمر يعيبه سوى الاقتصار في علم النحو على مقدمات صغيرة، وكان كثيراً ما يجري على لسانه فتح الهمزة أن بعد كلمة حيث، غير أن العياشي كان ينجل أن ينبهه على ذلك، إلا أنه في إحدى المرات قال له بأن أكثر النحاة، رجحوا فيها الكسر

وعدوها من المواضع التي تكسر فيها إن، إلّا أن الشيخ أنكر ذلك وأيده الحاضرون لقصورهم وجهلهم بذلك كما ذكر العياشي، وكانوا يقولون: "إن ابن مالك لم يعدها في المواضع التي تكسر فيها إن ولكن دلاً على أنها مفتوحة" الأمر الذي دفع العياشي بالرد عليهم قائلاً "أليس في كلامه ما يدل على حصره مواضع الكسر، مع ذلك فلم يتناولها ضابط الفتح لأن حيث لازمة الإضافة إلى الجمل، فإذا كانت في أول جملة لزم كسرها" ومع ذلك فلم يأبه به الحضور فأعرض عنهم^(٨١).

وكثيراً ما كان العياشي يدخل في سجلات ونقاشات مع الطلبة الحنفية الذين كانوا يحضرون لهذا الشيخ، وكان الشيخ يقف إلى جانبهم في تلك المناقشات، ولم يكن يحضر من الطلبة المالكية أو الشافعية في هذه المجالس إلا القليل ممن لا يعد في العير ولا في النفير فيكون عليّ لا لي". ويذكر العياشي أنه أشير في إحدى الجلسات قضية التسمية في الوضوء، وذكر الشيخ بأن بعض الأئمة الحنفية أكدوا على وجوبها لمذهب مالك، غير أن العياشي أنكر ذلك، مما دفع الطلبة المالكية في المجلس للاحتجاج فذكروا بأنه "في المذهب المالكي قولاً بوجوبها" وعلق العياشي على الشيخ

بأنه لا علم له ولا دراية بأصول المذهب بل أراد أن يظهر نفسه في المساجلات والمناقشات وكأنه من أهل العلم، وأضاف العياشي قائلاً "أنه لا يعلم في المذهب ما يقيم به فرضه من فروعه، فأعرضت عنه لذلك علماً بأنه لا يفيد مراجعته لعدم من ينصفني منه"^(٨٢).

ومن المجالس العلمية التي كان يحضرها العياشي مجلس الشيخ أبو مهدي عيسى الثعالبي^(٨٣). ويذكر أنه عندما كان هذا الشيخ يمر بحديث فيه حجة للمذهب المالكي كان يشير للعياشي ومن معه بالقول هذه حجة لكم، وإذا مر بما يخالف المذهب فيقول هذه حجة عليكم، وكان من بين القضايا التي أثارت الخلاف بينهم في أحد المجالس الحديث النبوي "إنّا معاشر الأنبياء أمرنا بثلاث: بتعجيل الفطور وتأخير السحور وبوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة فأشار إلى الشيخ على العياشي وصحبه قائلاً: هذه حجة عليكم، إلّا أن العياشي رد عليه بالقول: لا حجة علينا في هذا، فإن ظاهر اللفظ الخصوص ولا عموم فيه، وإن هذا الحديث بخصوصه لا يكون حجة على مالك في كراهية القبض فلو لم يرد في القبض إلا هذا الحديث وحده لم يكن فيه حجة على منكر القبض بل لساغ

لقائل أن يقول بعدم جوازه لغير الأنبياء وأنه من الخصائص لظهور اللفظ في ذلك كقوله: نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ويضيف العياشي أنه كره مراجعة الشيخ في مثل هذه المجالس الحافلة الغاصة بأهلها^(٨٤).

ومن المناقشات التي دارت بين العياشي وشيخه محمد بن سليمان الورداني في بعض مجالس الشيخ مسألة نهى الشيخ عن لباس الصوف الذي يأتي من بلاد الروم منسوجاً وتتخذ منه الجوخات التي كان يلبسها غالب علماء مصر والشام والحجاز وغيرها، ويرى الشيخ بطلان الصلاة في هذا اللباس بحجة أنه علم من أهل تلك البلاد بأنهم كانوا ينتفونه عن الأغنام وهي حية، وبالتالي يكون في هذه الحالة نجساً لما فيه من رطوبة ورقة^(٨٥).

غير أن العياشي رد عليه بالقول أنه إذا كان متتوفاً فالمتنجس منه جزء قليل من أصله وهو أضعف ما فيه، وما سواه يطهر بالغسل فالصوف لا يصل إلى حالته التي هو عليها في اللباس إلا بعد القيام بالكثير من الأعمال من غسل ودق ونفش وغزل ونسيج، والجزء الضعيف لا يصبر على ملاقة هذه الأعمال ولا يبقى معها بل

يضمحل بالكلية^(٨٦). وأضاف أيضاً أنه في حال التسليم بأن الصوف متتوف فالغالب بأنهم يجزّونه بعد التنف، إذ لا غرض لهم في بقائها ويتعين لهم العرض في إزالتها بتجويد الصنعة وإتقانها... وإذا كان المباشرون لذلك مسلمين فالأصل فيها توخي النجاسات وإزالتها عن ملابسهم، لاسيما أنه لا غرض لهم فيها فيكون الأصل فيها الطهارة حيث يثبت عدم الجز أو يقوم مقامه وما أبعد إثباته^(٨٧).

وينقل العياشي في رحلته صورة لبعض المجالس العلمية التي تعكس مدى الضعف العلمي لبعض المدرسين وقلة كفاءتهم وخبرتهم ومعرفتهم العلمية، وكان من بين هؤلاء المدرسين الشيخ حسن البري الذي كان يجتمع لسماعه جماعة من العوام والطلبة، فقرأ في إحدى مجالسه حديثاً نبوياً قال فيه ﷺ: بأن الله يضحك إلى رجلين قتل أحدهما الآخر، قالوا: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: يُقتل أحدهما في سبيل الله ثم يتوب الله على القاتل. واستشهد هذا الشيخ بذلك الحديث على وحشي الحبشي قاتل عم الرسول حمزة بن عبدالمطلب، وقد أسلم وحشي فيما بعد فيكونان ممن يضحك الله إليهما. وقد سمع العياشي هذا

النقاش رغم أنه لم يكن من بين الحضور، وإنما كان قريباً من المجلس فاقشعر جلده وانكره قلبه لاسيما في هذا المسجد النبوي، فالرسول ﷺ ما كان ليرضى المساواة بين عمه وقاتله الذي أعرض عنه بوجهه يوم جاءه معلناً إسلامه، ولم تعرض له صحبة للنبي بعد ذلك ولا لقاء آخر يرضى فيه عنه بل لم يقترب منه ﷺ إلى أن مات، ويعلق العياشي قائلاً: "والعجب كل العجب من هذا المدرس كيف سوّلت له نفسه هذه التسوية، كيف قدر لسانه على النطق بذلك في مثل هذه الحاضرة تأدباً معه ﷺ. ويفصل العياشي أن هذا الحديث ينطبق على رجلين استشهدا معاً، واختتم رأيه بحسن البري قائلاً "والحاصل له على ذلك والله أعلم قلة مبالاته في علم الحديث والسير، ولم يجد ما يمثل به لذلك لعدم معرفته بأخبار أصحابه وأحوال من استشهد منهم وتسمية قاتليهم، ومن أسلم منهم بعد ذلك واستشهد. وليته ترك التمثيل وسلم من هذه الورطة التي لا تطابق الممثل، ولا تليق بالمقام ولو طابقت^(٨٨).

لقد حقق العياشي الكثير من الفوائد العلمية من مختلف المجالس العلمية التي كان يحضرها ويستمتع لشيخوخها، بل أقر بأن بعضهم نبّهه على أمور لم يكن يعلم بها من

قبل لا سيما شيخه أبو الحسن الدبيع اليميني الزبيدي بل لم يتردد هذا الشيخ في الاقتناع ببعض ما كان ينبّهه عليه العياشي، من ذلك عندما قرأه الشيخ في اللقاء الأول الذي جمعه في مجلسه مع العياشي الآية القرآنية "وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون"^(٨٩) وكان الشيخ قد قرأها بالتسهيل بين قائلًا لا نعرف فيه محض الهاء^(٩٠) غير أن العياشي ذكر له بأن بعض شيوخه بفاس بالمغرب قد نقل عن بعض الأئمة المقرئين جواز إبداهما هاء محضة، وبعد أن أطلعه العياشي على ذلك سرّ بذلك على هذا النص، كما سرّ أيضاً بذلك شيخه إبراهيم الكوراني الذي كان كما يذكر العياشي "غلبت العجمة على لسانه فيعسر عليه النطق بالهمز المسهل بل كان لا يطيقه، مما جعل الشيخ إبراهيم بقول "الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة ولم يكلفنا فوق طاقتنا، فنحن نقنع بموافقة قول إمام من الأئمة"^(٩١).

وكان مما نبّهه الشيخ أبو الحسن على العياشي خلال القراءة وكان العياشي يغفل عن ذلك كثيراً تحذير القارئ من قراءة كلمة "غشاة" في الآية القرآنية "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاة" ولهم عذاب عظيم"^(٩٢) وذلك بالهاء

على نية الوقف، ثم يصل، ولا بد من وقف بين، يعلم به القارئ فصل بين ما وقف عليه وما ابتدأ به، وإلا صار كمن قرأ بالهاء في الوصل، وهو لحن. كما نبهه أيضاً تفخيم الخاء في كلمة "يخادعون" وما أشبهه الواردة في الآية القرآنية "يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون"^(٩٣). فكان مما قاله الشيخ: وتتبعها الألف في التفخيم لأن الخاء حرف استعلاء، وكذلك أيضاً تفخيم القاف في نحو قال وقام، وكذلك المحافظة على إظهار اللام في نحو: قلنا وجعلنا^(٩٤). واستشهد برأيه على ما أورده ابن الجزري في مقدمته "الجزرية" والذي أكد فيها على ضرورة الحرص على الإظهار في كلمة "جعلنا" لأن اللام إن لم تظهر أسرع لها الفتح، وكان لا يسامح القارئ عليه في ترك الغنة في محلها من نون وميم، وقد أنشد ابن الجزري في حروف الإخفاء بقوله: يجمعها أوائل هذا البيت.

صف ذا ثناء جودُ شخصٍ قد سَمَا كرمًا

ضع ظالماً زِدْ ثَقَى دُمَ طالبا فترى^(٩٥)

الإجازات العلمية:

الإجازة لغة: مصدر فعل أجاز، وتتضمن عدة معان لغوية، فيقال أجاز له أي سَوَّغَ له ذلك، وأجاز رأيَه وجَوَّزَه أي أنفذه^(٩٦). وقيل بأن الإجازة بمعنى الجوز وهو وسط الشيء، والجوزاء الشاة يبيضّ وسطها، وقيل الجوزاء نجم يقال إنه يعترض في جوز السماء أي في وسطها^(٩٧). وقيل أيضاً أن فعل أجاز مشتق من الجواز وهو الماء الذي يسقاه المالك من الماشية والحرث ونحوه، وقد استجرت فلاناً فأجازني إذ سقاك ماء لأرضك أو لماشيتك^(٩٨).

أما اصطلاحاً فهي إذن وتسويغ يترتب عليه أن الشيخ يأذن لطالب الإجازة أن يروي عنه ما حدده له بالإجازة سواء كان ذلك من مؤلفاته أو من مروياته^(٩٩).

لقد بدأ هذا المصطلح يعرف طريقه إلى الظهور عند علماء الحديث عندما يجيز أحد الرواة لآخر أن يروي الحديث، ثم انتقل هذا المصطلح فيما بعد إلى مختلف فروع العلوم، وغدت الإجازة بالنسبة للمعلمين أحد الشروط الواجب توفرها فيمن يرغب بالتدريس في الحلقات والمجالس العلمية التي كانت تعقد بالمساجد^(١٠٠).

وتتميز الإجازات بأسلوبها البديع المبني على العبارات المختارة مع تواضع

الشيخ المجيز والثناء على المجاز، فهي وثيقة تعترف بكفاية المجاز وتمنحه الثقة بالنفس للوصول إلى مرحلة التحصيل والإقرار^(١٠١).

وتحقق الإجازة العديد من الفوائد العلمية منها بث العلم ونشر المعرفة والمحافظة على الإسناد وخاصة إذا تعلق بالحديث الشريف إذ هو الوسيلة للوصول إلى المتن، كما تسهم في تبادل الروايات بين علماء المسلمين^(١٠٢). ويمنح الشيخ الإجازة لطالبها بطريقتين الإجازة بالمشافهة والإجازة التحريرية، والطريقة الأولى أقدم عهداً من الثانية. وتتمثل الإجازة التحريرية من خلال كتابة الشيخ إجازته على الكتاب الذي درسه على أحد التلاميذ أو أباح له روايته دون أن يدرسه عليه، وعادة ما تكون الإجازة التي تكتب على ظهور الكتب مقتضبة إذ لا تحتوي أحياناً طرق الرواية ولا أسماء الشيوخ الذين تلقى الشيخ المجيز معلوماته عنهم. وقد تكون أيضاً مستقلة عن الكتاب أو الكتب التي درسها الشيخ أو أباح روايتها، فتكون في هذه الحالة مفصلة فضلاً عن كونها مشتملة على طرق الرواية التي تلقى عنها الشيخ المجيز معلوماته التي أجاز روايتها لتلميذه^(١٠٣).

حرص العياشي خلال لقاءاته مع مختلف العلماء والفقهاء والقضاة الذين التقاهم في مختلف المجالس العلمية وقرأ عليهم مؤلفاتهم أو مؤلفات غيرهم أن يحصل منهم على إجازات، وكانت معظم تلك الإجازات إجازات عامة، وبلغت الإجازات التي حصل عليها تسع عشرة إجازة، وكان من بين هذه الإجازات إجازة كتب له صاحبها أن يروي عنه^(١٠٤) وإجازة ثانية كتب له أن يروي عنه جميع مؤلفاته^(١٠٥) بينما كان هناك إجازة ثالثة بالمناولة وقد منحه إياها الشيخ محمد أبي الوليد بن أحمد بن محمد شبل بعد أن قرأ عليه العياشي الكثير من مؤلفاته فأجازه مناولة من مؤلفاته كتاب "نائب المجتهد" وكتاب "المقصد والأحكام الشرعية"^(١٠٦).

ويُعد الشيخ أبو الحسن الزبيدي أول من قرأ عليه العياشي وأخذ عنه^(١٠٧) وكان مما قرأه عليه العياشي المقدمة الجزرية في تجويد القرآن لمدة سبعة عشر يوماً، وكان يقرأ ذلك في مجلسين الأول برباط السلطان والثاني عند المحراب النبوي^(١٠٨).

وقد أجاز للعياشي قراءة المقدمة الجزرية وسائر مروياته إضافة إلى أسانيد ابن كثير^(١٠٩). وكان مما كتبه في هذه الإجازة: "وقد استخرت الله تعالى وأجزت

له ذلك وجميع مروياتي في علم القراءات بمضمون الشاطبية^(١١٠) والتيسير^(١١١) وجميع ما يجوز روايته من كتب الحديث وغيرها لعلمي بأهليته..."^(١١٢).

ومن جهة ثانية فقد أجاز العياشي بعض من اجتمع به من العلماء، وجاءت إجازته لهم بناءً على طلبهم وضلوع العياشي في بعض الأمور العلمية. ففي اللقاء الأول للعياشي مع الشيخ إبراهيم الكوراني الذي كانت له رغبة بالحديث "من أعظم الرغبات بعدما كان فيه أولاً من الزاهدين"، فلما علم بأن لدى العياشي معرفة برواية الحديث المسلسل بالأولية بشرطه، طلب من العياشي سماعه قبل أن يستمع شيئاً من الحديث، والحديث المسلسل بالأولية هو ما أخرجه البخاري في الكنى والأدب المفرد وأخرجه غيره أيضاً، فعن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبدالله بن عمر بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. وقد روى هذا الحديث سفيان بن عيينه رضي الله عنه عن عمر بن دينار قال سفيان: وهو أول حديث سمعته من عمرو، ثم لم يزل الأئمة من لدن سفيان يرويه بعضهم

عن بعض بصفة الأولية إلى أن وصل إلى العياشي بصفته، وقد رواه العياشي عن عدد من مشايخه بشرطه، كما أن أسانيده مذكورة في إجازات هؤلاء الشيوخ، وبعد سماع الشيخ إبراهيم الحديث من العياشي واتصلت روايته له بشرطه طلب منه أن يميزه به وبجميع مروياته، وبعد أن أعطاه العياشي برنامج رواياته طلب منه أن يقتطف "منه ما أراد من الأسانيد وأسماء المشايخ والمسموعات في أي فن لأن استيفاء جميعها يطول علي وأنت في غنى عن بعضها لوجوده عندك". وعليه فقد اختار الكوراني ما احتاج إليه فكتب له العياشي إجازة نثراً وشعراً، فمما قاله شعراً:

أجزتك لكن مثلكم من يميزني

ولم يستفد مني ولكن يفيدني

بما قد سمعت من شيوخ قراء

من الشيخ أو مني وهم يسمعونني

وكل الذي أروي مما أجازني

وناولني من الرواية يعتني

وكل الذي في جميعنا من مؤلف

بأي فنون العلم أو من مدون

بإسناده إن شئت فاكتب جميعها

وإن شئت بعضاً فاقتطف منه واجتن^(١١٣)

وكان من بين الشيوخ الذين أجازهم العياشي الشيخ حسن البري مدرس المالكية بالحرم النبوي^(١١٤)، وقد أسندت إليه هذه الوظيفة لخلو المدينة ممن يحسن المذهب المالكي فقدمه من كان بها من المالكية للتدريس لهم، ووصفه العياشي بأنه "ضعيف التحصيل في الفقه الذي هو أشهر علومه التي يتحلها"، وذكر العياشي أن هذا الشيخ عندما رأى إقبال الطلبة على الحلقات العلمية له واتساعها، أبدى غيرته اتجاه ذلك "فخشي أن أعتزله من منصبه، أو أحول بينه وبين مطلبه فتحامى الجلوس عندي والتردد إلي حتى استيقن الخبر من عند بعض أصحابنا أن ليس قصدنا دوام الاستيطان وإنما مجاورة عام ثم الرجوع إلى الوطن حتى آمن مما كان يتوهمه من قبلي"^(١١٥).

المكتبات وإعارة الكتب:

لعبت المدينة المنورة من خلال المسجد النبوي دوراً هاماً ومميزاً في مجال الحركة العلمية والثقافية بما احتوته مكتباتها من كنوز المخطوطات ونفائسها والتي توسعت وتطورت من خلال الإيقاف وتبرعات السلاطين والملوك والعلماء والأثرياء في شتى بقاع العالم الإسلامي^(١١٦). فقد أبدى الكثير من هؤلاء على وقف كتبه بعد وفاته على أهل العلم أو على ورثته أو

على طلاب العلم الذين يدرسون في المسجد النبوي أو الحرم المكي حيث وجدوا في ذلك وسيلة من وسائل الخير والتقرب إلى الله من منطلق الرغبة في اتساع العلم والتغلب على مصاعب الحصول على الكتب من أنحاء العالم الإسلامي^(١١٧). ويُعد وقف دور الكتب أو خزائن الكتب المستقلة أقدم أنواع وقف الكتب والمكتبات عند المسلمين، ومن الطبيعي أن يكون أوائل المساهمين في هذا النوع من الوقف هم الخلفاء والسلاطين والحكام والوزراء والأثرياء نظراً لتوفر الإمكانيات المادية لديهم، ووجود الحافز نحو المشاركة في عمل الخير عن طريق استغلال جزء من ثرواتهم للصالح العام رغبة في الحصول على الأجر والثواب^(١١٨).

كان المسجد النبوي من أعظم المراكز العلمية والثقافية في المدينة، حافلاً بالنشاط العلمي، وتُعد مكتبته مركزاً من مراكز العلم في المدينة ومن أقدم المكتبات فيها. وكانت حصيلة ما وقفه الحكام والعلماء عبر مراحل تاريخية مختلفة. فكان فيه خزائن كبيرة اشتملت على العديد من الكتب العلمية والمصاحف القديمة، فقد ذكر أنه كان فيه عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م خزانة كبيرتان احتوتا على كتب ومصاحف

موقوفة، ثم أخذ عدد هذه الخزائن بالازدياد حسب الواقفين، واشتهر منها الخزانة الشريفة التي اشتملت على أفضل الكتب ومفاخرها، فما من طالب مقتبس إلا وهو يستفيد من جواهر زواجرها^(١١٩). وذكر العياشي بعض هذه الخزائن، منها خزانة صبغة الله الحسيني الواقعة في الجهة الشمالية من المسجد^(١٢٠)، والخزانة التي أوقفها محمد إسماعيل المناوي من المغرب حيث بعث بكتبه إليها، وقد تولى الإشراف عليها الشيخ محمد الفزاري^(١٢١) الذي وصفه أنه كان أوحده زمانه نسكاً وعبادة وملازمة للحرمة الشريف^(١٢٢).

ومن خزائن الكتب الموقوفة أيضاً كانت خزانة كتب وقف السلطان المملوكي قايتباي^(١٢٣) الواقعة بجوار الحرم، وكان يتولى الإشراف على تنظيف هذا المكان الشيخ شهاب الدين أحمد بن التاج الذي كان يباشر الخدمة بنفسه من كنس وفرش وتنظيف وتهئية مرافقه، وعندما حاول العياشي مساعدته في ذلك رفض ذلك مما جعل العياشي يقول فيه عدد من الأبيات الشعرية، فقال:

بطيبة قد خيمت بعد تشقق
وزرت شفيح الخلق في كل وقف

وصححت عزمي في الجوار بأرضه
وكان نزولي عند أفضل منصف
أخي وخليلي بل إمامي وسيدي
وجامع كل الفضل دون تخلف
فلما نزلنا أحسن النزل واللقاء
وقام مقام الخادم المتلطف
وليس بعيب خدمة المرء ضيفه
ولكنها زيادة في التشرف^(١٢٤)

وبالإضافة إلى خزائن الكتب في المسجد النبوي وجواره، كان هناك أيضاً مكتبات خاصة لبعض العلماء والفقهاء، من ذلك أن الشيخ إبراهيم الكوراني الذي كان يسكن خارج المدينة وفي منزله عليّة له فيها كتبه التي يطالع فيها^(١٢٥).

ويرتبط بالمكتبات في المسجد النبوي إعارة الكتب الموقوفة على شروط الواقف، وكان متفاوتاً بين واقف وآخر، فبعضهم منع الإعارة الخارجية أو إخراج الكتاب من المكتبة أو الخزنة لا عن طريق الاستئساخ ولا عن طريق الإعارة، بينما أجاز بعضهم إعارة كتبه تعميماً للفائدة العلمية دون قيد أو شرط أو بشروط محددة. أما فيما يتعلق بالقراءة فقد أجازت أغلب النصوص الوقفية ذلك دون شروط، ونصت على

حق الطلبة أو الدارسين القراءة والمطالعة والمراجعة والمقابلة^(١٢٦).

وكان أصحاب الكتب ونظار الخزانات الوقفية بالمسجد النبوي يحددون فترة زمنية لاسترجاع الكتب المعارة، فيذكر العياشي بأنه كان "حق عادتهم إذا كان اليوم السابع عشر من ذي القعدة ويسمونه الكنيس... ادخلت المصاحف التي في المسجد والسبحات إلى الروضة ورد كل من استعار كتاباً إلى صاحبه أو إلى ناظر الخزانة التي أخذها منها"^(١٢٧).

وحرص العياشي طوال فترة وجوده في الحرم النبوي والمجالس العلمية والتقائه مع العلماء والفقهاء الاطلاع على الكتب النفيسة التي لم يسبق له وأن اطلع عليها في بلاده، واستعارة بعضها، فعندما التقى بالشيخ فواز الشامي الدمشقي الذي وصفه أنه جمع "من كتب الفن كثيراً لا سيما مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن عربي"، استعار منه كتاب عنقاء مغرب ومعرفة ختم الأولياء وشمس المغرب لابن عربي، وذكر بشأن هذا الكتاب قائلاً "ما رأيته قبل ولا بعد إلا عنده"^(١٢٨).

وكان في بعض الأحيان يلجأ إلى طلب استعارة الكتب من العلماء معبراً عن ذلك بعدد من الأبيات الشعرية، فعندما التقى

الشيخ شهاب الدين أحمد بن التاج رئيس المؤقتين بالحرم النبوي طلب منه أن يعيره بعضاً من الكتب الموجودة في خزائنه، فمما قاله:

شهاب الدين مولانا ابن تاجه
فنعم التاج أنجب في نتاجه
فكم من معضل قد حار فيه
أساة الكلم زال لدى علاجه
وكم من فهمه هابت سلوكاً
به العلماء خيم في بجاجه
له ذهن توقد من ذكاء

فكل العلم يقبس من سراجيه
غدا فرداً فسد مسد جمع
لمن قد أمه في نيل حاجة
عليك به إذا رمت علماً
ودع عنك المعاند في لجاجه
فنور علومه في ليل جهل
يضيئ لمن توغل في دلاجيه
قد احتجنا لكتب منك تأتي

ومثلك أنت يؤثر في احتياجه^(١٢٩)

وقبل لقائه بالشيخ أحمد البري رئيس الخطباء بالمسجد النبوي طلب منه أن يستعير طبقات السبكي الكبرى، معبراً عن ذلك بثمانية أبيات من الشعر أرسلها له،



فقد كان العياشي "متلبساً ببقية مرض" لا
يمكنه من الخروج، فقال:
أسيدنا البري أحمد خير من
له المجد والبر العميم بلا شك
أومل منكم أن تعيروا بفضلكم
لنا طبقات العالم الماهر السبكي
ولولا الذي عاق من مرض لما
تأخر عن تقييل كفكم فك
فعجل بما أملت منك سيدي
فذلك للمعروف كالعرف للمسك
وأزكى صلاة الله ثم سلامه
على أحمد الهادي المتره عن إفك^(١٣٠)

أبا سالم سلمت من عارض الضنك
وعشت ثعافى سالم الجسم والمسك
لقد جاءني نظم توهمت أنه
هو الدر إلا أنه الفائق السلك
تروم به ما ألف السيد الذي
تأليفه شاعت لدى العرب والترك
فها نبذة منها على حاجتي لها
وما غيرها عندي ولا دخلت ملكي
فعذراً وعذراً حيث قصرت حين لم
أزرك وكان اللوم مستلزم الترك
ودم سالماً من كل سوء ممتعاً
بقرب مقام دونه شامخ الملك^(١٣١)

وعند تسلم البري هذه القصيدة-
أرسل له السفر الثالث من الكتاب وذكر له
بأنه لا يوجد لديه سواه من الأسفار
الأخرى، وكتب معه ثمانية أبيات من
الشعر بعدد الأبيات التي كتبها العياشي
معتذراً له لأنه لا يمتلك من ذلك سوى
سفر واحد كما عبر فيها عن شديد اعتذاره
وتقصيره في عدم زيارته ودعا له بالشفاء
والمعافاة من مرضه، وقد أرسل له مجلداً
واحداً من الطبقات ولم يكن بجوزته غيره،
إذ لم يستطع رد طلب العياشي في ذلك رغم
حاجته الماسة لذلك المجلد، قال:

ويذكر العياشي بعد إطلاعه على هذا
السفر وقراءته، حقق من ذلك الكثير من
الفوائد والمعلومات التي كان يجهلها لا
سيما المتعلقة بتراجم عدد من الأشخاص
فلنذكر ما انتقيته من الفوائد من السفر
الثالث المستعار من طبقات السبكي، كثيراً
للفائدة، وهي مع طولها مستحسنة، قل أن
توجد في غيره لغزابة هذا الكتاب بمغربنا،
فلم تقع عيني عليه، ولا سمعت أذني به
عند أحد في قطرنا^(١٣٢). وقد أورد العياشي
قائمة طويلة ممن ترجم لهم السبكي في هذا
السفر، وبلغ عددهم خمسة وخمسين شخصاً

شعرية فريدة في كثير من الموضوعات التي نظم فيها قصائد، ومن هذه الفنون:

الوصف: يُعد شعر الوصف من أشمل الأغراض الشعرية التي عرفت في الأدب العربي بل عماد الألوان والفنون الشعرية. كما أنه من أهم الموضوعات الشعرية التقليدية التي تناولها الشعراء منذ العصر الجاهلي.

وعرّف بعضهم شعر الوصف عند الأدباء أنه "تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال، وتحليل الشاعر الإنسانية تحليلاً يصل بك إلى الأعماق، إلى غير هاتيك العناصر التي قد يحتاج وصفها إلى ذوق فني، وتتطلب الإحاطة بنواحيها والسمو إلى آفاقها وجداناً شاعراً، وإحساساً مرفهاً، وذوقاً سليماً"^(١٣٥).

فعندما وصل العياشي إلى مشارف المدينة المنورة وبدأت معالم المدينة بالظهور أنشد قصيدة رائية من سبعة وعشرين بيتاً من البحر الكامل وصف فيها القباب التي شاهدها والجبل المعروف بجبل مفرح الذي وصفه بالياقوتة حيث أخذ الناس يتسارعون للصعود عليه ولم يتخلف عن

ما بين إمام وفقه وخطيب وقاضٍ وقاضي قضاة وراوي حديث ومتصوف وأديب ووزير ومدرس ومؤرخ وحافظ وزاهد من مختلف بقاع العالم الإسلامي^(١٣٣).

الفنون الشعرية والمديح النبوي:

ترتبط الرحلة بعلاقة وثيقة بالأدب، إذ تُشكل مصدراً هاماً من النصوص الأدبية شعراً كانت أم نثراً بالنظر لانفرادها برواية الكثير من النصوص، قد جاءت الكثير من الرحلات تطفح بالعديد من القصائد الشعرية والرسائل النثرية مما لها ارتباط بظروف الرحلة، الأمر الذي جعل الرحلات ذات أهمية أدبية خاصة، فأكثر الرحالة لم تعرف لهم أشعار وقصائد إلا من خلال ما دونوه في رحلاتهم، ما يجعل منها بمثابة دواوين لأصحابها^(١٣٤).

وقد اشتملت معظم الرحلات على قصائد شعرية مختلفة المضامين والموضوعات المتنوعة والمتفاوتة في القيمة الفنية، وقد تكون هذه القصائد إما من إبداع الرحالة نفسه أو من إبداع غيره. وللعياشي بدوره كثير من القصائد في رحلته تناول فيها موضوعات شتى من وصف لبعض الأماكن التي زارها أو مدح ومديح نبوي وتوسل وثناء وشوق وغير ذلك من مختلف فنون الشعر فامتاز بطريقة



الصعود سوى من ليس له قدرة على ذلك
فقال:
حافتيه والإقامة فيه يوماً أو يومين، ومما قاله
العياشي في وصفه:

وبدت معالم طيبة لك فاستمع
أوصافها من صادق لك مخبر
هذا مفرح كاسمه وكأنه
ياقوتة رشت بذائب عنبر
وإمامه البیداء يسطع نورها
لبصائر الزوار هل من مبصر
وعلى يمينك قد بدا غير يرى
بالقرب كالثور العقير الأعفر
يا حبذا أحد نراه يحبنا
ونجبه جبل جميل المنظر
فكأنني هو حلة من عسجد
صبغت جوانبها بمسك أذفر^(١٣٦)
وبعد أن استقر العياشي في المدينة أخذ
بزيارة مختلف الأماكن بالمدينة من مشاهد
ومساجد وآبار وعيون وأودية، وكان من
بين الأودية التي زارها وأنشد شعراً في
وصفها وادي أو سيل العقيق غربي
المدينة^(١٣٧)، ويُعد هذا السيل عند أهل
المدينة من أجمل المتنزهات، وقد أنشد في
وصفه الشعراء القدامى أشعاراً كثيرة
واعتاد أهل المدينة نصب خيامهم على

جرى العقيق ودمعي كالعقيق جرى
فلا تسل سائلي عما هناك جرى
الوجد أوري زناداً في الحشا فصلى
به الفؤاد فسأل الدمع مبتدراً
أذكريني جريه جري السوابق في
بين الكئائب في الميدان معتجراً
وظله والنسيم في جوانبه
أكرمني فسرى الأحزان حين سرى
أذكرني زمناً عند الذين بهم
أفاخر الشهب في وسط الدجا سحرا
قومي وأهلي ومن ألبست بينهم
شرخ الشباب نظيفاً طيباً عطراً^(١٣٨)
ويصف العياشي شعوره لدى اقتراب
القافلة من المدينة المنورة والوصول إلى
مشارفها بعد رحلة شاقة وعسيرة في قصيدة
من خمسة عشر بيتاً ومن البحر الطويل:
خليلي ما للعيس في سيرها تعدو
ومن قبل أعيت من يسوق ومن يحدو
أظن لها علماً يقيناً بأنها
لقبر رسول الله قد أصبحت تغدو

لذلك لم تجزع لحر أصابها
كما جزعت بالأمس إذ مسها الجهد
فلا تعجبوا من علمها باقترابها
وليس لها بالدار من قبل ذا عهد
ففضل رسول الله في الكون ظاهر
أقرت به العجماء والجبر الصدد
وأنوار أرض حلها قد تلالأت
أحست بها الأبصار والعظم والجلد
دنت فدنت أعلامها فبدا لنا
من الشوق في الأحشاء ما لم يكن يبدو
عليها من الرحمن أزكى تحية
تدوم دواماً ما لآخره حد
تكاد من الأشواق أرواحنا لها
تطير ولم تجزع وأنى لها كد
لولولولا الذي قد عاقها من جسومنا
لطارت ولكن الجسوم لها قيد
وكنا نظن القرب يذهب بعض ما
بها فإذا بالقرب زاد لها الوجد
ولم لا وإن الوصل محكم ذكرها
غدا ناسخاً ما كان يقرؤه البعد
أتاح لنا الرحمن فيها إقامة
بخير إلى أن يحوي الجسد اللحد
يجاه حبيب الله أفضل من به
توسل من لم يغنه الجد والجد

عليه صلاة الله ما دام وصله
يزيد له شوقي إذا ذكرت بخد^(١٣٩)

تصور هذه القصيدة شعور الحجاج
المسلمين لدى وصولهم إلى مشارف المدينة
المنورة واقترابهم من الحرم النبوي، وتعتبر
من عيون الحجازيات في أدب الرحلة سواء
من حيث الصورة الشعرية أو المعجم
اللغوي أو الارتباط المحكم بين الأبيات.
فكلمة العيس الواردة في البيت الأول هي
الإبل البيضاء التي خالط بياضها شقرة أو
سواد خفيف وقد تطلق على كرام
الإبل^(١٤٠).

ويلاحظ أن القسم الأول من القصيدة
يتضمن الأبيات الأربعة الأول وهو وصف
الرحالة وهم في طريقهم إلى المدينة المنورة،
ويتضح من الفكرة أسلوب الاستفهام الذي
يعتبره نواة لها "خليلي ما للعيس في سيرها
تعدو؟"^(١٤١). فيصور العياشي حالة الإبل
عندما اقتربت من مشارف المدينة وأخذت
تسير بسرعة وكأنها تعلم باقترابها من الحرم
النبوي، فلم تعد تسير ببطء كما كانت
بسبب شدة الحر والتعب الذي أصابها
حيث كانت قد أنهكت الحداة والسائقين،
وعندما شعرت بقربها من مقام حضرة

الرسول ﷺ تغيرت حالتها، ولم تعد بحاجة إلى إلحاح في المشي نتيجة لعلمها الفطري كما يقول العياشي بقربها من المكان، فنسيت ما أصابها من حر وتعب. وفي البيت الرابع يجيب العياشي على تساؤله لأصحابه في البيت الأول إذ يخاطبهم بعدم التعجب والاستغراب من سرعة الإبل رغم أنها لا تعرف الطريق مسبقاً بل جاءت هذه السرعة من شدة الشوق للوصول لقبر الرسول ﷺ.

أما القسم الثاني من القصيدة فيعكس فيه العياشي حالة الفرح والسرور الذي عم القافلة بالاقتراب من المكان فإذا "عمرت القلوب بالمسرات ذهلت الأجسام عما تلاقي من المضرات، وإذا تنغمت بروح القرب الأرواح، لم تبال بما حصل من المشقة الأشباح... لقد انتعشت الجسوم بعدما ذبلت، وطلعت شمس الأفراح بعدما أفلت، وانبسطت أنوارها من القلوب إلى الوجوه فأشرقت، وسرى إجلالها وإكبارها من الأفتدة إلى الرؤوس" (١٤٢).

ويلاحظ اندماج صورة الناقة في صورة أعم وأشمل لتشمل سائر العجماوات ومظاهر الكون والعمران والأنوار التي بدأت تتلأأ كلما دنو من قبر

الرسول ﷺ حتى كادت أرواحهم تطير من شدة الفرح والسرور بوصولهم إلى هذا المكان المقدس، لولا أن أعاقها أجسامهم التي تقيدها، وقد عبر العياشي عن ذلك نثراً بقوله "ونحن سائرون وبأجنحة الشوق طائرون" (١٤٣).

الممدح: يُعد شعر المديح أحد أبرز الأغراض الشعرية في وهو إحصان الثناء على المرء بماله من الصفات الحسنة والأعمال المجيدة (١٤٤). وقد يكون مدح ذات أو مدح الآخر على اختلاف موقعه. وقد نظم العياشي في هذا النوع من الشعر الكثير من القصائد التي قالها مادحاً عدد من العلماء الذين التقاهم في المدينة المنورة أو في غيرها من المناطق الأخرى التي زارها أو مر منها خلال رحلته سواء في مرحلة الذهاب أو الإياب.

وكان من بين العلماء الذين امتدحهم العياشي الشيخ أحمد بن محمد بن عبد القادر المالكي أحد الخطباء بالحرم النبوي ومتولي خطبة الفتوى على مذهب مالك بالمدينة (١٤٥). وقد قال فيه قصيدة من خمسة عشر بيتاً على قافية الياء من البحر الطويل، وقد جاء أول حرف لكل بيت لحروف

"مولاي أحمد الخطيب" بشكل متسلسل، ومما جاء فيها:

مناي وإن عز المنى قرب سيدي
وحتفي على تيسيره عنده بعدي
ولا عذر لي إن لم أتة كلفا به
بتيهي ووجدي في محبته رشدي

له همة تسمو على همة السها
ووجه كبدر حل في منزل السعدي
أظن وإن شطت بي الدار بنهم
تعظم وزري لست أحرم من قصدي
يود فؤادي قرية ليت شعري ما
يكافي به قلبي على ذلك الود
أيعطى عبيد الله حسن جواركم
بطيبة فاز بالمنى جار أحمد
حماء أتيث مثقلاً بجرائمي
ووزري ما أخفيه منه وما أبدي
مددت يدي أرجوه فامتلت بما
تساقط حول الباب من كثرة الأيدي
دواء ذنوبي في لقاءه وإنما
مناي وإن عز المنى قرب سيدي^(١٤٦)

يتضح من خلال الأبيات التسعة السابقة أن الحرف الأول من كل بيت من الأبيات الخمسة يشكل كلمة مولاي بينما

تشكل الحروف الأولى من الأبيات الأربعة الأخيرة كلمة أحمد.

وامتدح الشيخ شهاب الدين أحمد بن التاج رئيس المؤقتين بالحرم النبوي والذي وصفه بأنه يمتاز بعقل ذكي وإدراك حلي وتمهر في عدد من العلوم النقلية منها أو العقلية، فمما قال فيه:

شهاب الدين مولانا ابن تاجه
فنعم التاج أنجب في نتاجه
فكم من معضل قد حار فيه
أساة الكلم زال لدى علاجه
وكم من فهمه هابت سلوكاً
به العلماء خيم في بجاجه
وكم علم وحلم في حياة
ولين القول ركب في مزاجه
له ذهن توقد من ذكاء
فكل العلم يقبس من سراجه
غدا فرداً فسد مسد جمع
لمن قد أمه في نيل حاجة
عليك به إذا رُمت علماً
ودع عنك المعاند في لجاجه^(١٤٧)

وفي قصيدة أخرى مدح فيها الشيخ الملا إبراهيم الكوراني عبر فيها عن شدة شوقه للقاءه والرغبة في الاجتماع به والقراءة عليه لما يتمتع به من علم ومعرفة



بكثير من العلوم، فقال فيه مادحاً خمسة وعشرين بيتاً من الشعر على قافية الهاء من البحر الطويل. ويُعد من أكثر الأشخاص الذين امتدحهم العياشي ممن حازوا على هذا العدد من الأبيات الشعرية، ومما قاله: فما زلت من أقصى البلاد أسوقها إلى المصطفى خير الورى وهي فارحة ومن بعده للشيخ كيما يذلها فتسكن فهي بالرياسة طافحه فلما وجدت الشيخ لله رائحاً بروح وريحان وأعبق رائحه سألت ذوي العرفان عن باب فضله ومن صار بعد الشيخ للناس فاتحة فقالوا فقالوا أبو اسحق خاتمة النهى وفاتحة الإحسام أكرم بفاتحه فيممت هذا الباب أرجو افتتاحه فها أنذا أدعو وأقرأ فاتحه أمولاي إبراهيم يامن بفضله طيور العلا في دوحه المجد صادحه ببابك عبد طالب لزيارة لكيما ينال دعوة منك ناجحه أحبك لا عن رؤية سبقت له ولكن لأخبار أتت عنك صالحة^(١٤٨)

وخلال لقائه مفتي الحنفية الذي كان من أتباع الطريقة النقشبندية^(١٤٩) حصلت بينهما مودة وألفة وأخوة في الله، فكتب له أبياتاً منها: أشهد الله وأملاك السما وجميع الرسل طراً وكفى أنني أحببت في الله أخي وخليلي وحببي مصطفى جمع الدين إلى الدنيا معاً وحولي من كل خير طرفاً أسأل الله وفاء بالذي قد عقدنا، فهو يجزي من وفا^(١٥٠) أما المديح النبوي فهو شعر ديني ينصب على مدح خير البرية محمد ﷺ وذلك من خلال تركيزه على سيرة النبي وفضائله النيرة وتعداد صفاته ومعجزاته المادية والمعنوية وكل ما يتعلق بحياته. وقد عرّف زكي مبارك المدائح النبوية بأنها فن من فنون الشعر أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص^(١٥١). وقد ازداد هذا النظم الشعري بشكل ملحوظ في القرن السادس الهجري وما بعده لاسيما خلال القرن السابع الهجري مع

البوصيري الذي اقترن اسمه بفن المدائح النبوية^(١٥٢).

وخلال العهد العثماني أخذ هذا اللون الشعري يتداخل مع قصائد التصوف، وقد حافظ الشعراء المتصوفة على البناء التقليدي لقصيدة المديح النبوي إذ حرصوا على توفير المدحة النبوية كلها من وقوف على الأطلال وتشبيب، ثم ذكر لمعجزات الرسول ﷺ ثم ذكر صفاته الخلقية والخلقية، ثم التوسل به إلى الله، ثم الصلاة والسلام عليه^(١٥٣).

لقد أورد العياشي شعراً كثيراً في مدح الرسول ﷺ فمما قاله أمام الوجه الشريف خلال وجوده في الحرم النبوي قصيدة من اثنين وعشرين بيتاً على قافية اللام والبحر الطويل:

لوجه رسول الله وجهت آمالي
وتوجيهها من خير صالح أعمالي
إذا لم أوجهها إليه من الذي
يرق لأحزاني سواه وأوجالي
ومن يكشف الكرب الذي أشتكي ومن
يغيث إذا أدعو وينقذ أوجالي
إلى أن يقول:

واخفض صوتي في النداء ببابه
وخفضت لقدري عند ذاك أعال

عليه صلاة الله ثم سلامه
كذاك على الأزواج والصحب والآل^(١٥٤)

وفي قصيدة ثانية على قافية الكاف والبحر الخفيف قال:

يا رسول الإله مالك عندي
حاجة وحوائجي الدهر عندك
أنت عني في غنى وعن الخلق
جميعاً وجئت أطلب رفدك
يا نبي الإله أنت جواد
كيف لا تبلغ الأماني وفدك
فعليك من الإله صلاة
وسلام بحسبي من السوء عبدك^(١٥٥)

كما أورد بعض قصائد المديح النبوي لغيره من الشعراء أو الفقهاء، كالقصيدة التي قالها الفقيه الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الخليلي^(١٥٦) أحد خطباء الحرم النبوي حيث نظم قصيدة في مدح النبي ﷺ عارض بها دالية مشهورة لغيره في وزنها ورويها، وقد اشتملت على خمسة وخمسين بيتاً، ومما قاله فيها:

محمد سيد الكونين والثقلين
والفريقين من قار ومن باد
خير الخلائق محمود الطرائق
معروف السوابق مرجوا لانجاد



حامي الذمار مغيث الجار إن وجلت
قلوب وقادة من فادح أو غاد
هادي الأنام شفيح في الزحام إذا
ضاق الخناق بأرواح وأجساد
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي
يا ملجأ العاكف المضطر والباد
إلى أن يقول في نهايتها:
صلى عليك إله العرش ما مدحت
بلا بل الروح في أفنان مباد
وآلك الغر والصحب الكرام ومن
يقفوههم حال إصدار وإيراد
مع السلام الذي مسك الختام به
يزهو بزهر الربا إن فاح في النادي^(١٥٧)
وكتب له خطيب الحرم النبوي أحمد
المالكي قصيدتين بالمديح النبوي تبركاً
بالرسول ﷺ وتيمناً بذكر بعض أوصافه
العلية. إحداهما كانت على قافية اللام من
البحر البسيط وتألفت من ستة وعشرين
بيتاً، أما القصيدة الثانية فكانت على قافية
الميم من البحر البسيط أيضاً وتألفت من
خمسة عشر بيتاً، ومما قاله في القصيدة الأولى
متحدثاً فيها عن البراق الذي امتطاه ﷺ في
ليلة الإسراء والمعراج ومعجزاته والشواهد
التي تؤكد أنه خاتم الأنبياء والرسل الواردة
في الكتب السماوية في التوراة والإنجيل

والزبور. ثم يختمها بالصلاة والسلام على
الرسول وعلى آله وصحبه الكرام:
بشارك يا عين هذا منتهى الأمل
وذا الجواد الذي بالمكرمات ملي
هذا الرسول الذي ما خاب سائله
فاستمطري من ندا إحسانه وسلي
هذا الذي قد رقى فوق البراق إلى
أدنى من ألقاب فضلاً غير منتحل
هذا الذي قد يراه الله جل ثنائه
نعمه للورى ينجي من الخطل
محمد أحمد الحمود أفضل من
هدى سواء طريق واضح السبل
محمد أحمد الماحي بيعته
ريب الطغاة بغاة الزيف والزلل
محمد سيد الكونين أكرم من
مش على الأرض من جاف ومتعل
فكم له معجزات ليس ينكرها
إلا الجحود بزور الأفك والجدل
وكم شواهد صدق للنبي أنت
كالشمس ما إن يراها غير ذي مقل
توراة موسى وأنجيل مريم قد جاء
بتصديق وحي في الزبور تلي
بأنه خاتم الرسل الكرام وخير
الخلق طرا من الآتين والأول

عليك أذكى صلاة الله يصحبها

أذكى سلام لدى الإشراف والطفل^(١٥٨)

يطوف بها من مسّه الجهل والفقر
وعافاك في أهل وجسم وكل من
يلوذ بكم من شر ما يجلب الدهر^(١٥٩)

وبمناسبة وفاة ولدي الشيخ حسن
البري، أبدى العياشي ألماً لوفاتهما فكتب له
رسالة تعزیه اشتملت على اثني عشر بيتاً
دعاه فيها للصبر والإيمان بقضاء الله وقدره
فقال:

فطب بقضاء الله نفساً فكل ما
قضاه العبد مؤمن غاية الخير
ولست بمحمد الله ممن تروعه

وإن عظمت أوجالها صدمة الدهر
لأنك قدري ما يكون جزاء من
يقابل حكم الله إن جاء بالصبر
أعزيك لا أني أسليك بل لما
جرى سنة في الدين مشتهى الذكر^(١٦٠)

٢- العتاب واللوم: يذكر العياشي أن
الشيخ أحمد عبدالقادر المالكي أحد خطباء
الحرم كان يغيب أياماً عن الحرم للاعتناء
بأرضه والقيام بأعمال الفلاحة، وذات مرة
لم يعد يتواصل مع العياشي ولم يعد مواظباً
على الحضور إلى الحرم النبوي إلا أيام
الجمعة متذرعاً بكثرة أشغاله وتفقد حياته،
فعاتبه العياشي ببيت من الشعر يعذره غيابه
عن الحرم بسبب كثرة أعماله في أرضيه،

شعر الإخوانيات: وهو أحد
الأغراض الشعرية الذي يتناول فيه الشاعر
العلاقات الاجتماعية مع أصدقائه ومعارفه
في المناسبات الاجتماعية المختلفة. وتركز
الإخوانيات على قضايا التقريض والعتاب
واللوم والاعتذار ومناسبات الأفراح
والأحزان والمراسلات والمعارضات
والمساجلات الشعرية.

١- التعازي والتهاني: اشتملت بعض
قصائد العياشي على تقديم التهاني لبعض
أصدقائه في بعض المناسبات والأعياد
الدينية، ففي مناسبة عيد الفطر، بعث لأحد
أصدقائه بالمدينة قصيدة هنأه فيها بهذه
المناسبة، أشاد فيها بعلمه داعياً له بطول
العمر والصحة والعافية ومما قاله:

ومن أشرقت شرقاً وغرباً علومه
فكان له في نشرها الصيت والأجر
ومن أن يقس أهل العلوم به غدوا
كنجم السهى في جبينه وهو البدر
هنيئاً لك العيد السعيد ومثلكم
تهنى به الأعياد والعام والشهر
وأبقاك ربي كعبة بعباده



غير أنه وجه إليه اللوم موضحاً أن هذه الأعمال ليست من اختصاصه ولا تليق به فهو عالم ينبغي أن يتفرغ للعلم والتدريس: إنني لا عذره لكثرة شغله وألومه إذ ليست من أشغاله^(١٦١)

٣-التقريظ: وهو تقليد قديم أخذ به العلماء والأدباء للثناء على الكتاب وذلك بأن يطلب شخص أو شاعر من شاعر أو شخص آخر كتابة وصف أو مدح لكتاب أو غيره بهدف الإشادة له، وإشاعته بين الناس، وربما يشبه اليوم التقديم لبعض المؤلفات من قبل أشخاص ذو شهرة^(١٦٢). وبالرغم من كثرة القصائد الواردة في رحلة العياشي إلا أن هذا النوع من الشعر كان قليلاً، ومن ذلك تقريظ العياشي كتاباً للشيخ عمر بن عبدالقادر المشرفي^(١٦٣) بعنوان: "الدر والعقيان في طبائع الإنسان" وتحدث المؤلف في كتابه هذا عن نشأة الإنسان والمراحل التي مر بها، ونقل فيه الكثير من أقوال الأطباء والحكماء والأدباء وما يشاكل ذلك من الآيات والأحاديث. ومما كتبه له العياشي على هذا الكتاب تقريظاً على قافية النون من البحر الكامل قوله:

حب الورى للدر والعقيان

طبع بدا في نشأة الإنسان
عمر بن عبدالقادر الأسمى الذي
خضعت لرفعته علا الأقران
لله ما أسنى فضائله وما
أزكى مواصله على الأخوان
خاض البحار زواخراً فأجاد في
إخراجه الدر العظيم الشأن
فأفاد في هذا الكتاب وجمعه
ما لم يفد أحد من الأعيان
وأجاد في ترتيبه وسياقه
فعدا رياضاً ناغم الأغصان
من شك في ذا فليطالع بعضه
تغنيه رؤيته عن البرهان
كم فيه من حكم يلذ سماعها
ويجار فيها ثاقب الأذهان
حسي فلا أستطع حصر صفاته
ولو استعنت بسائر الأوزان
لا زال جامعهم إمام يقتدى
بعلومه في سائر الأزمان^(١٦٤)

٤-شعر المطارحة: وهو أن يرسل شخص قصيدة لشخص آخر شعراً يسأله فيها حول قضية معينة، ويحييه المرسل إليه على سؤاله بقصيدة على الوزن نفسه

والقافية نفسها، ويظهر ذلك في القصيدة التي أرسلها الشيخ رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي الحنفي المعروف بابن الحنبلي^(١٦٥) للشيخ علي بن محمد بن عراق^(١٦٦) مستفسراً منه حول القهوة فقال:

وبرقص وبصفق الراحين
وطلبت الحكم فيها بعد ما
قد رأيتم رأي عين
وجوابي أنها حل ولا
يقتضي ما قلتكم تحريم عين^(١٦٧)

أيها السامي لكلتا الذروتين
بجوار المصطفى والمروتين
والعلي القدر علماً وكذا
عملاً فوق علو النيرين
من له في الزهد باع ويد
وهو في بذل النداء رحب اليدين
أفتني في قهوة قد ظلمت
حيثما شيب تعاطيها بشين

٥- المراسلات: كتب العياشي لبعض أصدقائه في فاس بقصيدة ثانية تألفت من مائة وخمسة وثمانين بيتاً جدد فيها العهد بهم، مذكراً لهم ما سلف له من رحلهم وقربهم وجلساتهم وهم يتمازحون، واستطرد فيها ذكر مشايخه في فاس مظهراً لمنتهم ومعروفهم عليه، وقد سماها بـ "نقطة المصدور إلى الإخوان والصدور" قال فيها:

فأجابه الإمام ابن عراق بقصيدة على نفس القافية والوزن تكونت من أربعة عشر بيتاً، بين فيها أن شرب القهوة ليس محرماً، فمما قاله:

أحببتنا أَل الصفاء والمبرة
بفاس بقيتم دائماً في مسرة
يخيل لي وقتاً قطعناه معكم
أخذناه من طرف الزمان بجلسة
وداد وحب صادق وأخوة
ممكنة في الله مع طول عشرة
ونوب أصحابي عن أخيكم وقبلوا
أكف شيوخني وانطقوا بالتحية^(١٦٨)

جاءني منكم نظام قد حكى
في نصوص اللفظ مسبوك اللجين
قلت فيه إن ذي القهوة قد
خلطوها بتلة وبمين
ويعطون حرام وغنى

الخاتمة:



واجازات وأشعار ومجالس علمية ومناقشات وأسماء علماء وفقهاء وأدباء وعناوين كتب يجعل منها موسوعة علمية جامعة ومصدراً مهماً لا غنى للدارسين عنها لمن يتصدى للبحث في تاريخ الحركة العلمية والثقافية في المدينة المنورة خلال العهد العثماني.

الهوامش:

- (١) رواه البخاري ومسلم.
- (٢) عبد الحميد بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢، ج ١، ص ٨٣٢. محمد محزون، المدينة المنورة في رحلة العياشي، الكويت: دار الأرقم للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م، ص ٤٧.
- (٣) محزون، المدينة المنورة، ص ٤٨. محمد ماكمان، الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة الموافق للقرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد، الرباط: مطبعة الأمنية، ٢٠١٤، ص ١٩٨.
- (٤) محزون، المدينة المنورة، ص ٤٨.
- (٥) المرجع نفسه، ص ٥٢.

يبدو واضحاً من خلال هذه الدراسة أن المدينة المنورة كانت مركزاً ثقافياً وعلمياً مهماً في بلاد الحجاز بل كانت من أبرز المراكز العلمية في العالم الإسلامي بالنظر لمكانتها الدينية وبفضل كثرة العلماء المقيمين والوافدين إليها، فقد ضمت عدداً كبيراً من العلماء من مختلف أنحاء العلماء الإسلامي ممن كان لهم الأثر الأكبر في النشاط العلمي والحركة الفكرية في المدينة. وقد أنتج هؤلاء العلماء مصنفات في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية وغيرها من العلوم الأخرى نغلي كانت أم عقلية. كما يلاحظ أيضاً أن بعضاً منهم تولى إلى جانب التدريس بالحرم النبوي الشريف وظائف دينية أخرى كالإمامة والخطابة والقضاء والإفتاء.

واتضح أيضاً أن المسجد النبوي كان يعج بالحلقات والمجالس العلمية التي لم تكن مقتصرة على العلوم الشرعية من حديث وفقه وتفسير وقرآات، بل اشتملت أيضاً على علوم أخرى مما جعل من المسجد النبوي بمثابة جامعة مفتوحة لكل العلوم.

ولا شك أن رحلة العياشي بما تضمنته من معلومات قيمة وغزيرة عن الحركة الفكرية في المدينة المنورة من نصوص

- (٦) محزون، المدينة المنورة، ص ٤٨. ماكمان،
الرحلات المغربية، ص ١٩٩.
- (٧) عواطف محمد يوسف نواب، كتب
الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من
مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي
عشر والثاني عشر الهجريين - دراسة
تحليلية نقدية، الرياض: دار الملك
عبد العزيز، ٢٠٠٨، ص ٤٦.
- (٨) المرجع نفسه، ص ٤٨.
- (٩) أبو سالم عبدالله بن محمد العياشي، الرحلة
العياشية، ج ٢، تحقيق سعيد الفاضلي
وسليمان القرشي، أبو ظبي: دار
السويدي للنشر والتوزيع، ج ١،
ص ٤٩٩.
- (١٠) ماكمان، الرحلات المغربية، ص ١٩٩.
- (١١) المرجع نفسه، ص ٢٠٠. الكتاني، فهرس
الفهارس، ج ١، ص ٨٣٣.
- (١٢) للاطلاع على عناوين هذه الكتب انظر:
محزون، المدينة المنورة، ص ٥٧-٦٠.
- (١٣) الكتاني، فهرس الفهارس، ج ١،
ص ٨٣٣. نواب، كتب الرحلات،
ص ٦٠.
- (١٤) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٥٤.
- (١٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٤.
- (١٦) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٥٧.
- (١٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٥.
- (١٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٥. ويذكر
العياشي أن السبب في ذلك يعود لما كان
- للقبائل البدوية التي تقيم على طريق قافلة
الحج الشامي أتاوة سنوية يدفعها أمير
القافلة لهم مقابل حماية الحجاج غير أنه
في تلك السنة عزل الأمير وعين أمير
جديد لا يعرف حال الطريق وأعرابها،
فلما جاءته شيوخ العرب أرباب الدرك
لأخذ ما كان لهم من عادة من عند
السلطنة منعهم من ذلك وأغلط لهم في
القول... فراجعوه في ذلك وناشدوه
فصمم على الامتناع، فلما أيسوا منه
شنوا الغارة على الركب فنهبوا من
الركب شيئاً كثيراً وأخذوا مئتين من إبل
الركب وأموالاً لا تُحصى وقتلوا أقواماً.
المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٧، ص ٣٨٦-
٣٨٧.
- (١٩) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٣٦١.
- (٢٠) القرش: نقد فضي عثماني ويساوي ٤٠
بارة أو قطعة مصرية، وكان من أكثر
الوحدات النقدية تداولاً. عارف العارف،
المفصل في تاريخ القدس، القدس: مطبعة
المعارف، ١٩٦٠، ص ٣٣٧. سيد محمد
السيد محمود، النقود العثمانية تاريخها -
تطورها - مشكلاتها، القاهرة: مكتبة
الآداب، ٢٠٠٣، ص ١٠٤. خليل
الساحلي، النقود العثمانية في البلاد
العربية، حولى كلية الآداب، الجامعة
الأردنية، م ٢، أيار ١٩٧١، ص ١٠٨.

- (٢١) الآغا: وهي محرفة من كلمة آقا المغولية وقيل الفارسية المستخدمة صفة للعلماء، وتعني السيد، وقد استعملها الأتراك لدلالات كثيرة، منها أنها كانت تطلق على الضباط الأميين مثل الإنكشارية الذين لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة والكتابة. ومنها أيضاً صاحب المنصب الكبير. وفي الفترة الأخيرة من العهد العثماني أصبح لقب الآغا يطلق على الإنسان الكريم صاحب المكانة العالية، وصاحب الفضيلة، كما كان يدل في ذلك الوقت ذاته على التكبر والتفاخر. سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٥م، ص ١٦. محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ١١٧-١١٨، كانون الثاني - حزيران، ٢٠١٢، ص ٦١.
- (٢٢) ويذكر العياشي أن الشقذف هو عبارة عن محمل كبير ذو شقتين توضع كل واحدة على ظهر البعير ويقرن بينهما بجبال وثيقة على ظهره، ولا بد للراكب فيه من معادل له في الجهة الأخرى مقارباً له في الرزانة، ثم يوصل بين الشقتين من أعلى بجبال يظلل عليها الغطاء يقي الحر والبرد. ويذكر أيضاً بأن هذا المركب يُعدّ من أشهر المراكب وأنها، سيما لمن له فرش وثيرة ووسيدة يتكئ عليها من الجانبين، فإنه لا يكاد يحس بأن الإبل تسير به، فقد رأينا من اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول وقد لا يستيقظ. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١٣٦.
- (٢٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٠.
- (٢٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٥.
- (٢٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٦.
- (٢٦) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٢٧. خالد محسن الجابري، الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، مكة: دار الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٥، ص ١٤٦.
- (٢٧) أمحزون، المدينة المنورة، ص ٣٩. ماكامان، الرحلات المغربية، ص ٢٨٦.
- (٢٨) عبدالرحمن المديرس، المدينة المنورة في العصر المملوكي، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠١م، ص ٢٤٥.
- (٢٩) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٣٦٥.
- (٣٠) حول هؤلاء العلماء انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٢-٦٣٥، ج ٢، ص ١١-١٢٨.
- (٣١) وهو فقيه ومحدث، ومن قدماء مشايخ العياشي، اجتمع به لأول مرة في مكة عام

الخلوتي علاوة على اشتهاها بتربية المريدن على طريقة الخلوة. وكان من أبرز مشايخها من آل الخلوتي عمر الخلوتي المتوفي سنة ١٢٩٧هـ/١٣٩٧م وهو من لاهج بجيلان. انظر: مصطفى بن كمال الدين الصديقي، الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية، تحقيق عبدالرحمن مغربي وعبدالرؤوف خريوش، جامعة القدس المفتوحة: عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، ٢٠١٥، ص ٧٧. عفيف بن محمد الدين، أضواء على طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة، باقة الغربية: مركز الدراسات الإسلامية والمخطوطات بأكاديمية القاسمي، ٢٠١٠، ص ١٥.

(٣٧) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٧٨-٤٧٩.

(٣٨) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٨٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ج ١، الصفحة ذاتها.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨٨.

(٤١) حافظ مشارك، انتسب إلى الطريقة

النقشبندية، انتقل من بلاده الهند قدم إلى

المدينة المنورة سنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م

وأخذ يعمل خلال فترة وجوده على نشر

العلم، وكان خلال وجوده في الهند قد

قرأ على الملا عبدالحكيم الهندي أحد

علماء الهند وأعيانها. الرحلة العياشية،

ج ١، ص ٦٢٩.

(٤٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٢٩.

١٠٦٤هـ/١٦٥٣م وأخذ عنه ما تيسر

وأجازه. الحبي، محمد، خلاصة الأثر في

أعيان القرن الحادي عشر، ج ٤، بيروت:

دار صادر، د.ت. ج ٣، ص ١٩٢. الرحلة

العياشية، ج ١، ص ٤٧١.

(٣٢) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٧٢.

(٣٣) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٧٢.

(٣٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٥.

(٣٥) أحد العلماء ممن تعلموا سائر العلوم

العقلية فكانت له فيها الملكة التامة، قصد

الحجاز وأقام بالمدينة المنورة، حيث لقي

فيها الإمام صفي الدين القشاشي فانتفع

به وتلمذ له وتزوج ابنته. ووقعت بينه

وبين علماء فارس مراسلة في مسألة

الغرائق والكسب. توفي في المدينة عام

١٠٠٢هـ/١٥٩٤م. الكتاني، فهرس

الفهارس، ج ١، ص ٤٩٢-٤٩٤. محمد

بن الحاج بن محمد بن عبدالله الأفراتي،

صفوة من انتشر في أخبار صلحاء القرن

الحادي عشر، تحقيق عبدالمجيد خيالي،

الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي

المغربي، ٢٠٠٤م، ص ٣٥٠-٣٥١.

(٣٦) الطريقة الخلوتية: كان يطلق عليها في

الأصل الدينورية نسبة إلى مشاد

الدينوري، ثم سميت فيما بعد

بالسهروردية نسبة إلى الشيخ شهاب

الدين عمر السهروردي، ثم أصبحت

تعرف بالخلوتية نسبة إلى رجالها من آل



- (٤٣) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٦٣٤.
- (٤٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٣٣.
- (٤٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٣١.
- (٤٦) من علماء الحديث، أخذ العلم عن أبيه وعمن أدركه من مشايخ الحرمين، امتاز بسعة علمه ومعرفته بكثير من العلوم فنال بذلك وجاهة عند الأمراء وأرباب المناصب. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١١.
- (٤٧) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١١.
- (٤٨) وأصله من صعيد مصر، وإليه تنسب طائفة من طلبة العلم ممن التقى معهم العياشي في الحجاز ومصر، استقر في المدينة المنورة وأخذ يعمل على تدريس أتباع المذهب المالكي ووصفه العياشي بأنه جهوري الصوت وطلق اللسان مع أخلاق حسنة وسلاسة طبع وحسن تودد إلى الناس. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٦١.
- (٤٩) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٦٢.
- (٥٠) فقيه ومفسر، ولد بمدينة الرملة بفلسطين ودرس بالأزهر، تولى إمامة الحنفية والإفتاء في مصر وأصبح من علمائها ومدرسيها، قدم إلى المدينة سنة ١٠٢٧ هـ / ١٦١٨ م وله نظم كثير ونثر غزير كما ذكر العياشي. توفي في المدينة المنورة سنة ١٠٥٦ هـ / ١٦٤٦ م. المحيي، خلاصة الأثر،
- ج ٢، ص ١٣٤. الرحلة العياشية، ج ١، ص ٦٢٢.
- (٥١) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٦٢٢.
- (٥٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣.
- (٥٣) الشيخ نافع العجمي: من علماء القرن الحادي عشر، تولى الإقراء في الحرم النبوي باللسان التركي والفارسي، سكن المدينة المنورة لفترة زمنية، وهو شيخ كبير أصابه مرض برجليه فأصبح يمشي على عكازتين، وذكر العياشي بأن العارفون بلسانه كانوا يمدحونه ويشيدون بعلمه وجودة ملكته. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٧٧-٧٨.
- (٥٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٧.
- (٥٥) ماكامان، الرحلات المغربية، ص ٣٧٧.
- (٥٦) فقيه حنفي، ولد سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م، واشتهر بتدريس فقه الحنفية بالمدينة المنورة، وكان بالأصل مالكي المذهب ثم تحول إلى الحنفية، وله عدة أولاد ساروا على دربه في انتحال الطلب وكان من بينهم اثنان واظبا على حضور مجلس والدهما ومجلس الشيخ بدر الدين الهندي، وذكر العياشي بأنه كان له بلاغة منطق، ووصل عند الحنفية إلى مستوى رفيع ومنزلة عالية. توفي سنة ١١٣٠ هـ / ١٧١٧ م. المحيي، خلاصة الأثر،

- ج ١، ص ٢٣٠. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٧٨.
- (٥٧) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٧٨.
- (٥٨) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تحقيق محمد بن مهدي العجمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ٢٠١٢، ج ١، ص ١٢٨.
- (٥٩) عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، عمان: مكتبة الأقصى، ١٩٨٠، ص ١١٦.
- (٦٠) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٥٠٧.
- (٦١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٤.
- (٦٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧.
- (٦٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠٦.
- (٦٤) نواب، كتب الرحلات، ص ٥٠٢. وبشأن الفتاوى والإجابات على الأسئلة المتعلقة بتحريم أو تحليل القهوة والدخان انظر: الرحلة العياشية، ج ١، ص ٢٣٨-٢٤٠.
- (٦٥) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٥٠٦.
- (٦٦) وهو أبو عبد الله محمد بن سليمان الروداني، ولد سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م بتارودانت ببلاد المغرب ونشأ فيها، ثم ارتحل إلى سجلماسة ومراكش ففاس ثم عاد إلى بلده، ثم ارتحل إلى مراكش ومنها إلى الجزائر ثم إلى المدينة المنورة، حيث أقام فيها منعزلاً عن الناس لا يخرج إلا ليلاً، عمل بالكثير من المهن كالصياغة
- وتفسير الكتب والخرازة وتجبير الزجاج كما ابتدع آلة في علمي التوقيت والهيئة. توفي في دمشق سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م. أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية ١٧٠٩- ١٧١٠م، تحقيق عبد الحفيظ ملوكي، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٤٢١-٤٣٧. الحبي، خلاصة الأثر، ج ٤، ص ٢٠٤. الأفراني، صفوة من انشور، ص ٣٣١-٣٣٣. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٤٣-٥٣.
- (٦٧) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٥٧.
- (٦٨) نواب، كتب الرحلات، ص ٥٣٨.
- (٦٩) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٥٧.
- (٧٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢.
- (٧١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣.
- (٧٢) أحمد بن محمد عبد القادر المالكي: واصله من المغرب، وتولى خطة الفتوى على المذهب المالكي في المدينة، وله أخ عمل أيضاً خطيباً بالحرم النبوي. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٦٤.
- (٧٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤.
- (٧٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٧.
- (٧٥) الجفر هو عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كل ما كان وما يكون كلياً وجزئياً. نواب، كتب الرحلات، ص ٤٩٦.
- (٧٦) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١١.

- (٧٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧.
- (٧٨) وهو من تلاميذ الملا إبراهيم الكوراني وصفي الدين القشاشي، وقد درّس بالحرم النبوي فقه الشافعية. وذكر العياشي بأنه امتاز بمعرفة الكثير من العلوم. وقد كتب رسالة اطلع عليها العياشي تضمنت الانتصار للمذهب الشافعي في الجهر بالبسملة أول سورة الفاتحة وأنها آية منها. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٧٧.
- (٧٩) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٧٧.
- (٨٠) ويعرف أيضاً بالشرح المختصر على تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني.
- (٨١) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٦٣١.
- (٨٢) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٦٣٠.
- (٨٣) فقيه ومحدث من الجزائر، ولد سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م، عُرف بالثعالبي نسبة لموطنه ثعالبية في الجزائر كما عُرف الجعفري نسبة إلى جعفر بن أبي طالب. له فهرسة سماها كنز الرواة ورتبها على أسماء شيوخه حيث يبدأ بالتعريف بشيخه وذكر مؤلفاته وأسماء شيوخه ثم يذكر كل كتاب قرأه عليه. أخذ عن شيوخ الحرمين كالقشاشي والزين الطبري والزمزي والبابلي وغيرهم. توفي سنة ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م. المحيي، خلاصة الأثر، ج ٣، ص ٢٤٣. الأفراني، صفوة من
- انتشر، ص ٢٨٣-٢٨٥. الكتاني، فهرس الفهارس، ج ١، ص ٨٠٦-٨٠٨. الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٤٦.
- (٨٤) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٤٦.
- (٨٥) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٤٦.
- (٨٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧.
- (٨٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨.
- (٨٨) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١٣٠.
- (٨٩) إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذروهم لا يؤمنون. سورة البقرة، الآية (٦).
- (٩٠) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٧٢.
- (٩١) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٧٣.
- (٩٢) سورة البقرة، الآية ٧.
- (٩٣) سورة البقرة، الآية ٩.
- (٩٤) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٧٣.
- (٩٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٤.
- (٩٦) ابن منظور، لسان العرب، ٩ أجزاء، القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٣، ج ١، ص ٨٦.
- (٩٧) ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٨٩.
- أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، مجمل اللغة، تحقيق زهير عبدالمحسن سلطان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ، ج ١، ص ٢٠٢.
- (٩٨) ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٨٨.

- (٩٩) عبدالله فياض، **الإجازات العلمية عند المسلمين**، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٦٧، ص ٢٩.
- (١٠٠) مفتاح يونس الرياصي، **المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول ١٣٢-٥٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٦م**، القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر، ٢٠١٠، ص ١٤٩.
- (١٠١) الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص ٢٤.
- (١٠٢) الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص ٢٤.
- ماكمان، **الرحلات المغربية**، ص ٢٩٢.
- (١٠٣) فياض، **الإجازات العلمية**، ص ٢١، ٢٤، ٢٧.
- (١٠٤) **الرحلة العياشية**، ج ١، ص ٥٠٨.
- (١٠٥) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٥٠٦.
- (١٠٦) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٥٠٧.
- (١٠٧) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٤٧٢.
- (١٠٨) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٤٧٥.
- (١٠٩) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٤٧٥.
- (١١٠) وهي **حز الأمانى ووجه التهاني وهي قصيدة في القراءات للقاسم الشاطبي الأندلسي المتوفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م**.
- (١١١) **تيسير الأصول إلى جامع الأصول لعبدالرحمن بن الدبيع**.
- (١١٢) **الرحلة العياشية**، ج ١، ص ٢٠.
- (١١٣) **الرحلة العياشية**، ج ١، ص ٤٩١-٤٩٢.
- (١١٤) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٦١.
- (١١٥) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٦٢.
- (١١٦) سحر عبدالرحمن الصديقي، **أثر الوقف الإسلامي في الحياة العلمية بالمدينة المنورة**، المدينة المنورة: مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ٢٠٠٣، ص ١٩٤. ماكمان، **الرحلات المغربية**، ص ٢٨٦.
- (١١٧) يحيى محمود ساعاتي، **الوقف وبنية المكتبة العربية: استيطان للموروث الثقافي**، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٩٩، ص ٣٢.
- (١١٨) **المرجع نفسه**، ص ٣٤.
- (١١٩) **المرجع نفسه**، ص ٦٩.
- (١٢٠) **الرحلة العياشية**، ج ٢، ص ١٣.
- (١٢١) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٦٣.
- (١٢٢) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٤٣٩.
- (١٢٣) وهو أبو النصر قايتباي الحمودي السلطان الحادي والأربعون من السلاطين المماليك، تولى الحكم عام ٨٧٢هـ/١٤٦٨م-٩٠١هـ/١٤٩٦م. ويُعد من أعظم سلاطين دولة المماليك البرجية. مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مجلدان، تحقيق عدنان نباتة، عمان: مكتبة دنديس، ١٩٩٠، ج ٢، ص ٢٨٢.
- (١٢٤) **الرحلة العياشية**، ج ٢، ص ٥٢.
- (١٢٥) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٤٧٨-٤٧٩. ص ٤٨٧.

- (١٢٦) ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ١٥٧.
- (١٢٧) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٣٦. كذلك انظر: عبدالغني النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد أحمد عبدالمجيد الهريدي، القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٤٣٠.
- (١٢٨) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١٢٧.
- (١٢٩) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٢٨.
- (١٣٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٨.
- (١٣١) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٧٩.
- (١٣٢) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٧٩.
- (١٣٣) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٨٠-١٢٦.
- (١٣٤) نواب، كتب الرحلات، ص ١٨-١٩.
- (١٣٥) عبدالعظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د.ت، ج ١، ص ٤٢.
- (١٣٦) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٢٧٠.
- (١٣٧) وادي العقيق: ويقع على مسافة ثلاثة أميال غربي المدينة ويأتي سيله من أماكن بعيدة. الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤١٧.
- (١٣٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٩.
- (١٣٩) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٣٦٨.
- (١٤٠) ابن منظور، لسان العرب، م ٦، ص ٥٤٤. ماكامان، الرحلات المغربية، ص ٢٨٩.
- (١٤١) ماكامان، الرحلات المغربية، ص ٢٨٩.
- (١٤٢) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٣٦٧.
- (١٤٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٨. ماكامان، الرحلات المغربية، ص ٢٩١.
- (١٤٤) أحمد أبو قحافة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، بيروت: منشورات الشرق الجديدة، ١٩٦٢، ص ٢٩.
- (١٤٥) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٦٤.
- (١٤٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦.
- (١٤٧) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٢٧.
- (١٤٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨٧-٤٨٨.
- (١٤٩) الطريقة النقشبندية: وتنتسب هذه الطريقة إلى محمد بهاء الدين شاه نقشبند البخاري ٧١٧-٧٩١هـ/١٣١٧-١٣٨٩م، وتمتاز بطريقة خاصة في الذكر، وقد عارضت فكرة وحدة الوجود بفكرة وحدة الشهود، أي أن الوحدة ليست حقيقية وإنما تبدو كذلك. العسلي، معاهد العلم، ص ٣١٣.
- (١٥٠) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١٥٥.
- (١٥١) زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، صيدا: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٣٥، ص ١٧.

- (١٥٢) عباس الجراري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، الدار البيضاء في مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٢، ص ١٤١. مشهور الحبازي، الحياة الفكرية في بيت المقدس من خلال رحلة الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية للشيخ عبدالغني النابلسي المتوفي سنة ١١٤٣هـ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلد ٢٩، عدد ١١٤، ٢٠١١، ص ٩٢.
- (١٥٣) الحبازي، الحياة الفكرية، ص ٩٢.
- (١٥٤) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٤٦٨.
- (١٥٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٩.
- (١٥٦) واصله من بلد الخليل بفلسطين، استوطن بالمدينة المنورة آخر أمره وتولى بها عدة وظائف من إمامة وخطابة وتدريس، وكان معظم تدريسه بالحرم النبوي في صحيح البخاري وكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، توفي سنة ١٠٨٦هـ / ١٦٧٥م انظر: الحبي، خلاصة الأثر، ج ٤، ص ٤٩٣. الرحلة العياشية، ج ١، ص ٦٢٠-٦٢١.
- (١٥٧) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٦٢٦.
- (١٥٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٥-٦٧.
- (١٥٩) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٢٤١.
- (١٦٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٢.
- (١٦١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤.
- (١٦٢) الحبازي، الحياة الفكرية، ص ٩٠.
- (١٦٣) عالم وفقه من مدينة غزة التقى به العياشي في غزة ووصفه بأنه المشارك في فنون العلم، المتخلق بأخلاق ذوي الفهم والحلم... وله في البحث قوة إنصاف وقرأ عليه العياشي بعض صحيح البخاري وأجازه وله في الرواية سند قوي وكان من بين شيوخه الشيخ الصالح التمرتاشي والشيخ غرس الدين الخليلي والشيخ شهاب الدين الخفاجي المصري. الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٤٦٣.
- (١٦٤) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ٤٦٤.
- (١٦٥) محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي الملقب برضي الدين ابن الحنبلي، مؤرخ من علماء حلب تولد وتوفي فيها ٩٠٨-٩٧١هـ / ١٥٠٢-١٥٦٣م، له أكثر من خمسين مصنفاً. خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ٨ مجلدات، م ٥، ص ٣٠٢.
- (١٦٦) علي بن محمد بن علي بن عبدالرحمن ابن عراق الكنانى ٩٠٧-١٠٠٢هـ / ١٥٠٢-١٥٥٦م، فقيه متصوف ولد في دمشق ورحل إلى الحجاز، حيث تولى الإمامة بالمدينة المنورة وتوفي فيها، ومن مؤلفاته "تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة" وقد أهداه للسلطان سليمان القانوني. وله رسالة صغيرة في تاريخ الطوائف بعنوان "نشر اللطائف في

قطر الطائف. الزركلي، الأعلام، م ٥،
ص ١٢.

(١٦٧) الرحلة العياشية، ج ١، ص ٢٤٠.

(١٦٨) الرحلة العياشية، ج ٢، ص ١٤٩.



فاعلية صورة أردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة على البيئة الأردنية للفئة العمرية (٤-٦,٥) سنوات*

أ.د. فاروق فاروق الروسان** د. غدير عبدالحليم المصطفى***

تاريخ وصول البحث: ١٥/١٠/٢٠١٨ م تاريخ قبول البحث: ٣/١/٢٠١٩ م

ملخص

هدفت هذه الدراسة التوصل إلى دلالات فاعلية الصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة على البيئة الأردنية للفئة العمرية (٤-٦,٥) سنوات. طبقت الصورة الأردنية المعربة من المقياس على عينة مؤلفة من (٣٥٠) مفحوصاً موزعة حسب متغيري الفئة العمرية والحالة العقلية وعولجت البيانات الناتجة عن تطبيق المقياس للوصول إلى دلالات عن صدق المقياس، تمثلت صدق المحتوى، بعرض المقياس على (١٢) محكماً وبنسبة اتفاق ٨٠٪ والصدق التلازمي إذ تم حساب معاملات الارتباط بين الأداء على المقياس ومقياس بينية للذكاء الصورة الأردنية، حيث بلغ معامل الارتباط ($r = 0,688$)، وتم التوصل إلى دلالات صدق البناء للمقياس بإجراء التحليل العاملي، وتبين أن هناك عاملان يفسران (٤٩,٥٠٧) من التباين الكلي هما: (العامل اللفظي، العامل الأدائي)، كما توفرت دلالات عن ثبات المقياس باستخدام طريقة التجزئة النصفية ($r = 0,874$) للمقياس الكلي و(٠,٨٠٢) للمقياس اللفظي، و(٠,٧٣٩) للمقياس الأدائي، وبطريقة الاتساق الداخلي كرونباخ ألفا ($r = 0,875$) للمقياس الكلي و(٠,٨٠٤) للمقياس اللفظي و(٠,٧٦٥) للمقياس الأدائي. وللتوصل إلى معايير أولية للمقياس تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للدرجات الخام للمقاييس الفرعية والدرجة الكلية وتم تحويل الدرجات الخام إلى درجة معيارية، ثم تحويل الدرجات على المقاييس الفرعية إلى درجة موزونة متوسطها (١٠) وانحرافها (٣)، كما تم تحويل الدرجات الموزونة للدرجة الكلية إلى درجة ذكاء انحرافية متوسطها (١٠٠) وانحرافها (١٥).

الكلمات الدالة: مرحلة ما قبل المدرسة، الذكاء، مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة

*يرجى الرجوع إلى رسالة غدير عبدالحليم مصطفى (٢٠١٣)، لمزيد من المعلومات، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، وشملت التعديلات فقرات في مقياس المعلومات، ومقياس المفردات، وظهرت الصورة النهائية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة، على شكل حقيبة للمقياس تضمنت الصورة النهائية من المقياس وأدوات تطبيق المقياس اللفظية والأدائية.

**أستاذ دكتور، قسم التربية الخاصة، كلية العلوم التربوية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

***أستاذ مساعد، قسم التربية الخاصة، جامعة جدة.

The Efficiency of A Jordanian Version of The Wechsler Preschool And Primary Scale of Intelligence (WPPSI),

Abstract

The main Purpose of this study was to verify A Jordanian Version of the Wechsler preschool and Primary Scale of Intelligence (WPPSI) in terms of scale validity, reliability and preliminary Jordanian norms. To achieve the purpose the Jordanian Version of the (WPPSI), the scale consisted of (10) of sub scales distributed on two dimensions, Verbal and Performance sub scales. a sample of (350) subjects distributed according to age category and mental case.

The Content of the validity was achieved by presenting the scale to (12) judges, with percentage agreement of 80%. The concurrent validity was achieved by calculating the correlation coefficients between the performance on (WPPSI) and the Jordanian Version of (Binet Test), (alkilani), with correlation coefficient of (0.688). Constructed validity by using the factor analysis approach for the study subjects (N=330), the main factors interpreting the ratio of (49.407) of the total variance.

The discriminative validity was achieved between groups of scale study (ONE WAY ANOVA). The Toky Test for the post comparisons found differences referred to the existence of the statistical indication ($\alpha = 0.05$) between every two age categories. Mental case (Normal – Intellectual disability) ($\alpha = 0.05$).

Reliability was achieved the by Split – Half procedure (N = 330, $r = 0.80 - 0.73$), and the correlation coefficient of the total degree was (0.874), the Sub scales there ranged from (0.802 – 0.739) for the Verbal Scale and Performance scale sequentially, while in the internal consistency approach by using the method of Cronbach Alpha, where the correlation coefficients value of the total degree was (0.875), and for the sub scales (0.804 – 0.765) for the Verbal and Performance Scale sequentially.

Preliminary norms of the Jordanian version of (WPPSI) was achieved by calculation means and standard deviation for the raw scores of the study subjects: (N=330) for the sub scales and total score, then transferring the raw score for each sub scale to Standardized score (A – score) then transferring the Z score to scaled score multiply the Z score by (3) SD and addition to (10) Mean, then transfer the scaled score to deviation ratio intelligence score by multiplying the scaled score by (15) SD and (100) Mean.

Keywords: Preschool children, Wechsler preschool and primary scale of intelligence, WPPSI, Intelligence.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

حظي موضوع الذكاء وقياسه منذ بداية القرن العشرين بالاهتمام بشكل عام وحتى الوقت الحاضر، حيث تتضمن عملية قياس الذكاء تحويل المعطيات المختلفة للنمو العقلي والذكاء إلى أرقام وكميات ومعرفة مدى تناسب تلك الأرقام مع العمر الزمني للأفراد، نظراً لما لموضوع الذكاء من أهمية كبيرة في معرفة مقدار النمو العقلي لدى الأفراد وإيجاد الوسائل الكفيلة لتنميته.

وقد ظهرت نظريات تفسير الذكاء، منها نظرية العاملين (Two Factors Theory) من قبل سبيرمان (Spearman, 1904)، ونظرية القدرات (Thurston, 1938) ونظرية جليفورد (Guilford Theory, 1956)، ونظرية بياجيه (Piaget Theory, 1951) ونظرية ستيرنبرغ (Sternberg Theory) ونظرية الذكاءات المتعددة، لجاردنر (Gardner, 1985).

كما ظهرت العديد من تعريفات الذكاء، من قبل الفرد بينيه، ووكسلر، وجاردنر وغيرهم... كما ظهرت العديد من اختيارات الذكاء من مثل مقياس ستانفورد بينيه، واختبار وكسلر للذكاء، ومقياس جودانف هارس للرسم، ومقاييس مكارثي

للقدرات العقلية للأطفال، ومقاييس الذكاء المصورة^(١) (الروسان، ٢٠١٦).

وفي الأردن نشطت حركة تطوير وتقنين الاختبارات منذ منتصف السبعينات من القرن الماضي في مجال مقاييس القدرة العقلية ومجال السلوك التكيفي ومجال مقاييس التحصيل الأكاديمي وخاصة بعد تأسيس مركز القياس والاختبارات ومركز التربية الخاصة وبرنامج البحث التربوي والخدمات التربوية والنفسية في كلية التربية بالجامعة الأردنية، ونتيجة لتعاون الباحثين والدارسين في قسم علم النفس التربوي والتربية الخاصة في الجامعة الأردنية، إذ بدأ تطوير المقاييس الفردية وتقنينها في الأردن عام (١٩٧٥م) حينما بدأ العمل على مشروع تطوير الصورة الأردنية من مقياس ستانفورد بينيه في مركز القياس والاختبارات واستمر العمل في هذا المشروع مدة تقارب الخمس سنوات حيث انتهى العمل في ذلك المشروع وظهرت الصورة الأردنية من المقياس في عام (١٩٨١م) وتم إعداد حقيبة المقياس ودليل الصورة الأردنية حيث هدف ذلك المشروع إلى تطوير صورة أردنية من مقياس ستانفورد بينيه تتوفر فيه دلالات صدق وثبات ومعايير مقبولة تبرر استخدامها في

قياس وتشخيص القدرة العقلية وقد تحقق ذلك الهدف بعد إجراء دراسات شملت مراحل تطوير المقياس ومن ثم تقنيته في البيئة الأردنية.^(٢) (الروسان، ٢٠١٦). كما قام الكيلاني^(٣) (١٩٧٩) باستخدام دلالات الصدق والثبات لصورة معربة ومعدلة للبيئة الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الكبار في عينة أردنية، وقام الصمادي (١٩٧٩)^(٤) باشتقاق معايير للأداء العقلي لعينة من الأردنيين للصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الكبار، كما قامت بريك (١٩٧٩) باشتقاق معايير للأداء العقلي لعينة من الأردنيين تتراوح أعمارهم بين (١٦-٢٤) سنة على مقياس وكسلر لذكاء الكبار، وقام إلياس^(٥) (١٩٧٩) باستخراج الفروق في الأداء على مقياس وكسلر لذكاء الكبار في صورة معدلة للبيئة الأردنية وقام القريوتي^(٦) (١٩٨١) باستخراج صورة معربة ومعدلة من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال، وتشابه المقاييس الثلاثة في البنية العامة حيث تتضمن كل منها مجموعة من الاختبارات الفرعية تشتق منها درجة لفظية ومجموعة أخرى تشتق منها درجة أدائية وتضم الدرجتان معاً في درجة كلية^(*). ولم يتم

تطوير صورة أردنية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة سنة ٢٠١٣م ولذا ظهرت هذه الدراسة. وظهرت في بعض الدول العربية دراسات تناولت مقياس وكسلر لذكاء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة فقد أجرى كامل^(٧) (١٩٩١) دراسة هدفت إلى تطوير صورة أولية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة. وتقنين المقياس في صورته العربية تقنياً مبدئياً (١٩٩١-١٩٩٣)، لتوفير بيانات حول صدقه وثباته على عينات من الأطفال المصريين (ن=٤٨٠)، حيث بلغ معامل الثبات (٠,٨٨-٠,٨٩)، للمقياس اللفظي والأدائي على التوالي، وللمقياس ككل (٠,٩١، $r =$)، أما صدق المحكم فكان معامل الارتباط بين مقياس وكسلر ومقياس بينيه (٠,٧٤، $r =$). كما أجرى كل من هادي، ومراد^(٨) دراسة هدفت إلى تقنين مقياس وكسلر لذكاء أطفال ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية بما يتناسب مع البيئة الكويتية. أجريت دراسة التقنين على (ن = ١٥٧٤) طفلاً وطفلة، وقد تراوحت معاملات الثبات بين (٠,٧٥ - ٠,٩٧) للاختبارات

الفرعية ولم تظن أية فروق دالة بين الجنسين، بينما وجدت فروق نمائية بين الفئات العمرية المختلفة. إذ استعمل الباحثين التحليل العاملي وتحليل التباين الأحادي، واختبار (ت).

وفي الدول الأجنبية ظهرت دراسات تناولت مقياس وكسلر لذكاء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة حيث أجرى كيفن (Kevin, 1990) دراسة هدفت إلى إيجاد التحليل العاملي على مقياس (WPPSI) على عينة من أطفال الولايات المتحدة الأمريكية حيث اتبع الباحث طريقة التحليل العاملي، وأظهرت النتائج وجود عاملان رئيسيان للمقياس الكلي، وهما: العامل اللفظي والعامل الأدائي. وأجرى كل من جارد وجيلمور^(٩) (Garred & Gilmore, 2009) دراسة هدفت إلى مقارنة بين اختبار وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة النسخة الاسترالية الثالثة، واختبار بينيه النسخة الخامسة. إذ طبقت هذه الدراسة على (٣٢) طفلاً، تراوحت أعمارهم بين (٨، ٤ - ٩، ٥ سنوات)، حيث أظهرت النتائج أن هناك ارتباطاً بين اختبار وكسلر وستانفورد بينيه النسخة الخامسة، حيث بلغ معامل ارتباط بيرسون ($r = ٠,٧٩$).

كما هدفت دراسة كل من ليو ولين^(١٠) (Liu & Lynn, 2011) إلى دراسة البنية العاملية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة باختلاف الجنس والثقافة على عينة من أطفال الصين، مقارنة مع أطفال اليابان، الولايات المتحدة الأمريكية، حيث طبقت الدراسة على (١٦٥٦ = طفل في الصين، حيث اتبع الباحثان طريقة التحليل العاملي لبنية المقياس حيث أظهرت النتائج أن هناك عاملاً رئيسياً للمقياس هما الجانب اللفظي والجانب الأدائي، ولم تظهر النتائج أي فروق بين الجنسين.

تتميز هذه الدراسة بأنها سعت إلى التحقق من فاعلية صورة أردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة تتمتع بخصائص سيكومترية تمثل في دلالات الصدق والثبات، واشتقاق معايير أولية للمقياس للعاديين والمعوقين عقلياً حيث لم تتناول الدراسات السابقة هذه الفئات.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

ظهرت مشكلة الدراسة الحالية نتيجة للحاجة الماسة إلى صورة أردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة تتوفر فيها دلالات صدق وثبات، ومعايير أولية



ومن هنا، جاءت الدراسة الحالية لتقصي فاعلية صورة أردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة وبشكل أكثر تحديداً، فإن الدراسة سعت للإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

ما هي الخصائص السيكمترية للصورة الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة (WPPSI)؟

وانبثقت عن السؤال الرئيسي الأسئلة الفرعية الآتية:

١- ما دلالات صدق الصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة للفئة العمرية من (٤-٥, ٦) سنوات؟

٢- ما دلالات ثبات الصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة للفئة العمرية من (٤-٥, ٦) سنوات؟

٣- هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية ($\alpha = 0,05$) في الأداء على الاختبارات الفرعية للصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة تعزى لمتغير الحالة العقلية (عاديين

- معاقين عقلياً) للفئة العمرية من (٤-٥, ٦) سنوات؟

٤- هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية ($\alpha = 0,05$) في الأداء على الاختبارات الفرعية للصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة تعزى لمتغير الفئة العمرية من (٤-٥, ٦) سنوات؟

٥- ما هي المعايير الأولية للصورة الأردنية من مقياس وكسلر لمرحلة ما قبل المدرسة؟

أهداف الدراسة:

تتمثل أهداف هذه الدراسة الحالية في التوصل إلى خصائص سيكمترية للصورة الأردنية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة، حيث لا توجد صورة أردنية لمقياس ذكاء تغطي مرحلة ما قبل المدرسة تتوفر فيها دلالات صدق وثبات معايير تبرر استخدامها في قياس ذكاء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة.

أهمية الدراسة:

تتمثل الأهمية النظرية للدراسة في: -إثارة الاهتمام بمقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة في صورته الأصلية

لدى الأخصائيين في علم النفس التربوي والتربية الخاصة.

-إثارة الاهتمام بمقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة في صورته الأردنية لدى العاملين في قياس الذكاء، وخاصة للعاملين في ميدان التربية الخاصة. كما تتمثل الأهمية العملية للدراسة في:

-إعداد صورة أردنية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة تتوفر فيها دلالات صدق وثبات ومعايير تبرر استخدامها في قياس وتشخيص القدرة العقلية للأطفال في الأردن. -استخدام الصورة الأردنية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة في اتخاذ القرار المناسب لإحالة الأطفال حسب قدرتهم العقلية إلى المكان المناسب.

حدود الدراسة:

تتمثل حدود الدراسة العمرية على الأطفال من عمر ٤-٥، ٦ سنة، والمكانية في تطبيق المقياس في مرحلة رياض الأطفال في ثلاث مناطق أردنية هي الشمال والوسط والجنوب، وفي العقد الأول والثاني من العام ٢٠١٢/٢٠١٣.

محددات الدراسة:

تتمثل محددات الدراسة في مدى توفر دلالات صدق وثبات أداة الدراسة، وطريقة اختيار عينة الدراسة.

المصطلحات الإجرائية:

مرحلة ما قبل المدرسة، وتشمل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم الزمنية من ٤ - ٦ سنوات.

مقياس وكسلر في صورته الأردنية: وهو المقياس الذي تتوفر فيه دلالات صدق وثبات ومعايير تبرر استخدامه في قياس ذكاء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة.

(4th Ed, William et al. 2003)

مقياس وكسلر في صورته الأصلية: وهو المقياس الذي تم إعداداه من قبل وكسلر (١٩٨٩) وتتوفر فيه دلالات صدق وثبات ومعايير تبرر استخدامه في قياس ذكاء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة، وظهرت المراجعة الرابعة للمقياس من قبل (William et al, 2003). والذي

يتكون من القسم اللفظي وفيه (٦) اختبارات، والقسم الأدائي وفيه (٥) اختبارات، للفئة العمرية ٤-٥، ٦ سنة^(١١) (الروسان، ٢٠١٦).

الطريقة والإجراءات:

استخدمت المنهج الوصفي التحليلي في هذه الدراسة، وتكون مجتمع الدراسة من

٩٠٣ من رياض الأطفال في أقاليم المملكة وتكونت عينة الدراسة من مدارس رياض الأطفال والمدارس الابتدائية المنتشرة في المملكة الأردنية الهاشمية (شمال، وسط، جنوب) حيث تم اختيار العينة بالطريقة العشوائية الطبقية، من خلال اختيار مراكز رياض الأطفال والمدارس الابتدائية بالطريقة العشوائية الطبقية في كل منطقة، تضمنت (٣) مراكز لرياض الأطفال والمدارس الابتدائية بمعدل (١٠٢) طفلاً وطفلة من الشمال، و(٢) مراكز لرياض

الأطفال والمدارس الابتدائية بمعدل (٧٢) طفلاً وطفلة من الجنوب و(٦) مراكز لرياض الأطفال والمدارس الابتدائية بمعدل (١٥٦) طفلاً وطفلة من الوسط نظراً للأعداد الكبيرة في الوسط (٤) مراكز للإعاقة العقلية البسيطة بواقع (٥) طلاب من كل مركز. ويوضح الجدول (١) توزيع العينة حسب المنطقة والحالة العقلية والجنس.

جدول (١): توزيع العينة حسب متغيرات الدراسة

المجموع	أنثى			ذكر			الجنس	الإقليم / الحالة العقلية	
	٦	٥	٤	٦	٥	٤	العمر		
١٠٢	١٧	١٧	١٧	١٧	١٧	١٧		عاديون	شمال
١٥٦	٢٦	٢٦	٢٦	٢٦	٢٦	٢٦		عاديون	وسط
٧٢	١٤	١٢	١٠	١٤	١٢	١٠		عاديون	جنوب
٢٠	٣	٤	٤	٣	٣	٣		معاقين عقلياً	
٣٥٠	٦٠	٥٩	٥٧	٦٠	٥٨	٥٦		المجموع	

أداة الدراسة: مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة بصورته الأردنية: تم إعداد الصورة الأولية الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال ضمن مجموعة من الخطوات وبعد حصول الباحثة على إذن خطي من مؤسسة بيرسون بترجمة وتقنين المقياس للبيئة الأردنية (Pearson INC, 2013)) هي:

تم إعداد الصورة الأولية الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال ضمن

١- إعداد الصورة الأولية الأردنية من المقياس بعد ترجمتها من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية.

٢- تم عرض الصورة الأولية من المقياس على مختصين في اللغة العربية والانجليزية والقياس والتقويم للتأكد من دقة ترجمة المقياس ومن ثم تعديل فقرات المقياس وتعليماته حسب ملاحظات المختصين.

٣- تعديل بعض فقرات المقياس وتعليمات تطبيق الاختبارات الفرعية في المقياس بناءً على الملاحظات الناتجة عن تطبيق المقياس على العينة التجريبية (ن = ٣٠).

٤- قبل التطبيق الرئيسي للمقياس، قامت الباحثة بتدريب مجموعة من الفاحصين على كيفية تطبيق المقياس على المفحوصين.

المعالجة الإحصائية(*):

عولجت البيانات الناتجة عن تطبيق المقياس إحصائياً، باستخدام النسب المئوية ومعاملات الارتباط والتحليل العاملي وتحليل التباين والدرجات المعيارية الموزونة.

النتائج ومناقشتها:

النتائج المتعلقة بالسؤال الأول: ما دلالات صدق الصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة للفئة العمرية من (٤-٥, ٦) سنوات؟

١- صدق المحتوى (Content validity):

تم التوصل إلى دلالات عن صدق المحتوى لمقياس الدراسة من خلال إجراءات التي تم إتباعها في إعداد الصورة النهائية للمقياس، للتأكد من مدى مناسبة الفقرات من حيث الصياغة اللغوية وذلك بإتباع الخطوات التالية:

- أعدت الباحثة الصورة الأولية من المقياس بعد التأكد من ترجمة المقياس من اللغة الإنجليزية إلى العربية وبالعكس.

- عرضت الباحثة المقياس على مجموعة من المحكمين (ن=١٢) من ذوي الاختصاص في القياس والتقويم، والتربية الخاصة.

تم تعديل فقرات المقياس حسب ملاحظات المحكمين واثم الإبقاء على الفقرات التي بلغت نسبة عليها ٨٠٪ وإخراج المقياس بصورته النهائية.

٢- الصدق التلازمي (Concurrent Validity):

تم التوصل إلى دلالات الصديق التلازمي للمقياس بصورته النهائية وذلك من خلال إيجاد معامل الارتباط بين الأداء على مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة ومقياس بينيه للذكاء الصورة الأردنية النسخة الثالثة. حيث تم تطبيق المقياسين على عينة مكونة من (ن = ٣٣) مفحوصاً، ويوضح الجدول (٢) ذلك:

جدول (٢): معامل الارتباط بين الصورة الأردنية من مقياس (WPPSI) ومقياس بينيه للذكاء (ن=٣٣)

المقياس	معامل الارتباط
وكسلر - بينيه	٠,٦٨٨

وتعكس النتائج الواردة في الجدول أعلاه دلالة الصديق التلازمي للمقياس.

٣- صدق البناء

:(Construct Validity)

تم التحقق من صدق البناء من خلال الطرق الإحصائية التالية:

- التحليل العاملي:

أجرى التحليل العاملي (Factor Analysis) للتأكد من صدق البناء للمقياس، وذلك من خلال تحليل العوامل الأساسية للمقياس، ويوضح الجدول (٣)

قيم الجذر الكامن ونسبة المفسر (ن = ٣٥٠).

جدول (٣): قيم الجذر الكامن (Eigen Value) ونسبة التباين المفسر

نسبة التباين المفسر والجذر الكامن	العام	الجذر الكامن	نسبة التباين	النسبة التراكمية
اللفظي	٣,٦٧٦	٣٦,٧٦٢	٣٦,٧٦٢	٣٦,٧٦٢
الأدائي	١,٢٧٤	١٢,٧٤٤	١٢,٧٤٤	٤٩,٥٠٧

ويتبين من الجدول (٣) أن هناك عاملان رئيسيان مسئولان عن تفسير التباين حيث فسر العاملان ما نسبته (٤٩,٥٠٧) من التباين الكلي وهما العامل اللفظي والعامل الأدائي.

ويوضح الجدول (٤) نتائج التحليل العاملي ودرجة التشبع للمقياس على العامل اللفظي والأدائي.

جدول (٤): نتائج التحليل العاملي ودرجة التشبعات للمقياس على المعامل اللفظي والأدائي

المقياس	التشيع على العامل الأول	التشيع على العامل الثاني
المعلومات	٠,٨٠٨	٠,١١٢
بيت الحيوان	٠,٢٧٣	٠,٤٧١
المفردات	٠,٨١١	٠,١١٩
تكميل الصور	٠,٣٢٢	٠,٥٦٤
الحساب	٠,٩٧٠	٠,٢٤٠
المتاهات	٠,٠٦٢	٠,٦٨٩
الرسوم الهندسية	٠,١٧٤	٠,٤٨٩
المتشابهات	٠,٥٧٣	٠,١١٩
تصميم المكعبات	٠,٠٦٣	٠,٦٣٤
الفهم والاستيعاب	٠,٨٢٨	٠,١٧٦

السابقة دلالات عن صدق بناء الصورة الأردنية من المقياس.

النتائج المتعلقة بالسؤال الثاني: ما دلالات ثبات الصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة للفئة العمرية من (٤-٦) سنوات؟

تم التوصل إلى دلالات عن ثبات المقياس محسوباً بالطرق الآتية:

١- طريقة كرونباخ ألفا:

ثم التوصل إلى دلالات عن ثبات المقياس محسوباً بطريقة كرونباخ ألفا، ويمثل الجدول (٥) ذلك.

يتبين من الجدول (٤) أن هناك خمس مقاييس متشعبة بشكل جيد على العامل الأول وهم: المعلومات (٠,٨٠٨)، المفردات (٠,٨١١)، الحساب (٠,٧٩٠)، المتشابهات (٠,٥٧٣)، الفهم والاستيعاب (٠,٨٢٨) ويمثل الجانب اللفظي في المقياس، أما المقاييس الخمسة الأخرى فكان تشعبها على العامل الثاني كالتالي: بيت الحيوان (٠,٤٧١)، تكميل الصور (٠,٥٦٤)، المتاهات (٠,٦٨٩)، الرسوم الهندسية (٠,٤٨٩)، تصميم المكعبات (٠,٦٣٤) وتمثل معاملات الارتباط

جدول (٥): معاملات الثبات للمقاييس الفرعية والدرجة الكلية باستخدام طريقة كرونباخ ألفا ($n = 350$)

المقاييس	معامل ثبات كرونباخ ألفا
المقاييس اللفظية	٠,٨٠٤
المقاييس الأدائية	٠,٧٦٥
الكلية	٠,٨٧٥

٢- طريقة التجزئة النصفية:

كما تم التوصل إلى دلالات عن ثبات المقياس باستخدام التجزئة النصفية لجميع أفراد العينة ($n = 350$). وذلك باستخدام معادلة سبيرمان براون، ويوضح الجدول رقم (٦) ذلك.

جدول (٦): معاملات الثبات بطريقة التجزئة النصفية

المقاييس	معامل الثبات بطريقة التجزئة النصفية
المقاييس اللفظية	٠,٨٠٢
المقاييس الأدائية	٠,٧٣٩
الدرجة الكلية	٠,٨٧٤

يتضح من الجدول (٦) أن معاملات الثبات للمقاييس اللفظية بلغت (٠,٨٠٢)، والمقاييس الأدائية (٠,٧٣٩)، والدرجة الكلية (٠,٨٧٤). ويتضح من

ذلك أن المقياس يتمتع بدلالات ثبات ذات دلالة إحصائية.

النتائج المتعلقة بالسؤال الثالث: هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية ($\alpha = 0,05$) في الأداء على الاختبارات الفرعية للصورة الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة تعزى لتغير الحالة العقلية (عاديّين-معاقين عقلياً) للفئة العمرية من (٤-٦,٥) سنوات؟

وللإجابة عن هذا السؤال تم استخدام تحليل اختبار (ت) لفحص الفروق بين المجموعتين، ويوضح الجدول (٧) متوسطات أداء عينة الدراسة على المقياس. جدول (٧): نتائج المتوسطات والانحرافات المعيارية للحالة العقلية على المقياس

الحالة العقلية	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
عاديّين	٢٠	١٨,٢	٢,٤٦
معاقين عقلياً	٢٠	٧,٥٥	١,٦٦

ولفحص الفروق بين المتوسطات الحسابية حسب متغير الحالة العقلية تم اختيار "t" ويوضح الجدول (٩) ذلك.

جدول (٨): نتائج تحليل اختبار (ت) لفحص الفروق بين الحالة العقلية (عاديين - معاقين عقلياً*)

اختبار ليفين لفحص التجانس				
ف	الدلالة	قيمة (ت)	درجات الحرية	الدلالة الإحصائية
٢,٢٢	٠,١٤٤	١٥,٩٩٥	٣٨	*٠,٠٠٠

* دالة إحصائية عند مستوى دلالة $\alpha = ٠,٠٥$

أظهرت النتائج أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ($\alpha = ٠,٠٥$) بين المجموعتين تبعاً للحالة العقلية لصالح الأطفال العاديين.

النتائج المتعلقة بالسؤال الرابع: هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية ($\alpha = ٠,٠٥$) في الأداء على الاختبارات الفرعية للصورة

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة ف	الدلالة الإحصائية
العمر	٢٧٥٠,٩٥٥	٢	١٣٧٥,٤٧٧	١٦٢,٣٤٠	*٠,٠٠٠
الخطأ	٢٧٧٠,٦١٤	٣٢٧	٨,٤٧٣		
المجموع الكلي	١٢٨٣٠٠,٤٩٠	٣٢٩			

* دالة إحصائية عند مستوى دلالة $\alpha = ٠,٠٥$

ويتضح من الجدول (٩) وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة ($\alpha > ٠,٠٥$) بين الفئات العمرية، ولمعرفة الصالح الفئة العمرية، تم استخدام اختبار شيفيه للفروق البعدية. ويوضح الجدول (١٠) ذلك.

الأردنية لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال ما قبل المدرسة تعزى لمتغير الفئة العمرية من ٤-٦ سنة؟

وللإجابة على هذا السؤال تم استخدام تحليل التباين الأحادي (One Way ANOVA) لمعرفة الفروق في الأداء لمقياس وكسلر لفحص الفروق في الفئات العمرية الثلاثة (٤، ٥، ٦).

ويوضح الجدول (٩) نتائج تحليل التباين الأحادي للأداء على المقياس تبعاً لمتغير العمر.

جدول (٩): نتائج تحليل التباين الأحادي لمعرفة الفروق في الأداء تبعاً لمتغير العمر:

جدول (١٠): نتائج تحليل المقارنات البعدية بطريقة شيفيه

المقارنة بين الأعمار	المتوسطات	الفرق بين المتوسطين	الدلالة
٤ - ٥	١٥,٨٧٨	٢,٩٨٥	٠,٠٠٠
٤ - ٦	١٨,٨٦٤	٧,١٨١	٠,٠٠٠
٥ - ٦	٢٣,٠٥٩	٤,١٩٥٩	٠,٠٠٠

أظهرت النتائج المبينة في الجدول (١٠) أن هناك فروقاً ذات دلالة إحصائية بين جميع فئات الأعمال حيث تبين أن هناك تمايزاً بين الأعمار الثلاث لصالح العمر الأكبر حيث كانت الفروق بين الفئة العمرية (٤-٥) لصالح الفئة (٥) سنوات، وبين الفئتين (٤-٦) لصالح الفئة (٦) سنوات، وبين الفئتين (٥-٦) وكانت لصالح الفئة (٦).

أظهرت نتائج هذه الدراسة أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية تبعاً لمتغير العمر وكانت لصالح العمر الأعلى، كما اتفقت نتائج هذه الدراسة ونتيجة (هادي، مراد، ٢٠٠٢)^(١٢) حيث أظهرت نتائج الدراسة على وجود تمايز بين الأعمال لصالح العمر الأعلى.

وأشارت النتائج أيضاً إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية تبعاً لمتغير

الجنس (ذكور، إناث) والأقاليم (شمال، وسط، جنوب) على الصورة الأردنية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة، حيث لم تكن قيمة (ت ذات دلالة إحصائية، وتحليل التباين الأحادي).

النتائج المتعلقة بالسؤال الخامس: ما هي المعايير الأولية للصورة الأردنية من مقياس وكسلر لمرحلة ما قبل المدرسة؟

من أجل الوصول إلى معايير أولية للمقياس في صورته الأردنية اتبعت الإجراءات التالية:

تم تطبيق المقياس على جميع أفراد العينة (ن = ٣٥٠)، الموزعة على الفئات العمرية الثلاثة (٤ سنوات، ٥ سنوات، ٦ سنوات)، والحالة العقلية (عاديين، معاقين عقلياً)، والجنس (ذكر، أنثى) حيث:

١- حسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للدرجات الخام لجميع أفراد العينة على المتغيرات المخلفة.

٢- حولت الدرجات الخام إلى درجات معيارية توزيعها طبيعي (توزيع ز).

٣- حولت درجات كل مقياس فرعي إلى درجة موزونة متوسطها (١٠)، وانحرافها المعياري (٣).

- ٤- حولت الدرجة الكلية إلى نسبة ذكاء انحرافية متوسطها (١٠٠)، وانحرافها المعياري (١٥).
- ٥- أعدت جداول الدرجات الخام المقابلة لكل درجة موزونة لكل فئة عمرية. ويوضح الجدول (١١) المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية تبعاً لتغير الفئة العمرية (ن=٣٥٠)

	المعلومات	المفردات	الحساب	المتشابهات	الفهم
٤ سنوات	المتوسط الحسابي	١٥,٣٩٦٢	٢٤,٧٣٥٨	١٠,٧٩٢٥	١٧,٠٤٧٢
	الانحراف المعياري	٢,٨٨٤٠٤	٨,٠٨٤٤٤	٣,١١٥٩١	٤,٣٥٢٠٨
٥ سنوات	المتوسط الحسابي	١٦,٧٢٧٣	٢٩,٦١٨٢	١٣,٧٩٠٩	١٩,٢٦٣٦
	الانحراف المعياري	٣,١٥٣٣٠	٧,٢٠٢١٧	٣,٠٢٦١٧	٤,٥٣٠٥٨
٦ سنوات	المتوسط الحسابي	١٩,٠٤٣٩	٣٤,٨٠٧٠	١٧,٦٠٥٣	٢٤,٠٧٠٢
	الانحراف المعياري	٣,٠٥٨١١	٧,١٧٦٥١	٢,٥٧٤٩٦	٤,٧٥٩١٩
المجموع الكلي	المتوسط الحسابي	١٧,٠٥٥٨	٢٩,٧٢٠٣٣	١٤,٠٦٢٩	٢٠,١٢٧
	الانحراف المعياري	٣,٠٣١٨١	٧,٤٨٧٧٠٧	٢,٩٠٥٦٨	٤,٥٤٧٢٨ ٣

كما حسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية للجانب الأدائي للمقياس حسب تغير الفئة العمرية ويوضح الجدول (١٢) ذلك.

جدول (١٢): المتوسطات الحسابية المقياس.
والانحرافات المعيارية للجانب الأدائي على

العمر	بيت الحيوان	تكميل الصور	المتاهات	الرسوم الهندسية	تصميم المكعبات
٤ سنوات	٢٧,٩٥٢٨	١٤,٦٧٩٢	١١,٦١٣٢	١٢,٠٥٦٦	٩,٥٠٠
	٨,٠٨٥٧	٣,١٩٠٩	٣,٥٨١٨٩	٣,٣٦٨٨٥	٣,٤٤٢٧
٥ سنوات	٣٣,٦٧٢٧	١٦,٠٠٩١	١٦,٢٥٤٥	١٦,٥٨١٨	١١,٣٠٩١
	١١,٠٧٥٣	٣,٢٢١١	٤,٤٩١٤٥	٣,٧٣٧٦٩	٤,٢٤٢٠
٦ سنوات	٤١,١٥٧٩	١٩,١١٤	١٩,٨٠٧٠	٢١,١٤٠٤	١٥,١٨٤٢
	١٠,٦٥٧٦	٣,٦٠١٢	٤,١٢٦٠٦	٤,٧٦٥٠٦	٣,٥٥٦٢
المجموع الكلي	٣٤,٢٦١١	١٦,٦٠٠٧٧	١٥,٨٩١٥	١٦,٥٩٢٩٣	١١,٩٩٧٧
	٩,٩٣٩٥٥	٣,٣٣٧٧٩	٤,٠٦٦٤٥	٣,٩٥٧٢	٣,٧٤٧٠٣

ويوضح الجدول (١٣) كيفية حساب نسبة الذكاء على المقياس.

جدول (١٣): كيفية حساب درجة المفحوص لطفل (٤) سنوات الأدائية واللفظية والكلية:

المقاييس اللفظية	الدرجة الخام	الدرجة الموزونة	نسبة الذكاء
المعلومات	٨	١٠	
المفردات	٢٠	١٥	
الحساب	١٢	١٧	
المتشابهات	١٦	١٨	

الفهم	٢٦	١٧	
مجموع الدرجات على المقياس اللفظي	٨٢	٧٧	١٣٣
المقاييس الأدائية	الدرجة الخام	الدرجة الموزونة	نسبة الذكاء
بيت الحيوان	٥٤	١٥	
تكميل الصور	١٦	١٦	
المتاهات	١٣	١٣	
الرسوم الهندسية	١٢	١٤	
تصميم المكعبات	١٥	١٦	
مجموع الدرجات الأدائية	١١٠	٧٤	١٢٧
القسم اللفظي والأدائي معا	١٩٢	١٥١	١١٩

وتوضح النتائج المذكورة في الجداول ذات الأرقام ١١، ١٢، ١٣، تطبيقية التدخل إلى معايير أولية للأداء على الصورة الأردنية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة.

مناقشة النتائج:

هدفت هذه الدراسة للتعرف إلى الخصائص السيكمترية لصورة أردنية من قياس وكسلر لمرحلة ما قبل المدرسة من حيث دلالات الصدق والثبات والمعايير الأولية وأظهرت نتائج الدراسة توفر دلالات عن صدق المحتوى، بنسبة الاتفاق ٨٠٪ والصدق التلازمي بين الأداء على المقياس، والأداء على الصورة الأردنية من مقياس بينيه (ر = ٠,٦٨، ن = ٣٣)،

ودلالات عن صدق البناء تمثلت في التحليل العاملي للمقياس ووجود عاملين يفسران التباين على المقياس (٧٧,٤٩)، وتشبعات كل مقياس فرعي بالعاملين اللفظي والأدائي كما تكررت عن دلالات صدق البناء تمثلت في قدرة الصورة الأردنية من المقياس على التمييز بين المستويات العمرية والعقلية، وتتفق هذه النتائج مع نتائج هذه الدراسة مع عينة التقنين الأصلية التي قام بها ديفيد وكسلر حيث كان معامل الارتباط بين مقياس وكسلر وبينيه (٧٥٠,٠).

واتفقت نتائج هذه الدراسة مع دراسة كل من (Lynn, Liu, 2011)^(١٣) حيث أظهرت النتائج في الدول الثلاثة أن هناك

عاملان رئيسيا للمقياس هما الجانب اللفظي والجانب الأدائي. كما اتفقت نتائج هذه الدراسة مع نتائج دراسة كل من^(١٤) (Garned & Gelmore, 2009) والتي أشارت إلى أن هناك ارتباط بين مقياس وكسلر لذكاء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة واختبار بينيه النسخة الخامسة وكان معامل الارتباط بين المقياسين ($r = 0.79$). وكذلك اتفقت نتائج هذه الدراسة مع دراسة^(١٥) (كامل، ١٩٩٠) حيث بينت الدراسة إلى وجود تشبعات للمقاييس الفرعية (٦) على المقياس اللفظي حيث كانت نسبة التباين المفسر (٦، ٤٢٪)، و(٥) مقاييس فرعية على الجانب الأدائي ونسبة التباين المفسر (٣، ١١٪) ومجموع التباين المفسر من العاملين (٩، ٥٣٪).

كما توفرت دلالات عن ثبات المقياس محسوبا بطريقة كرونباخ ألفا ($r = 0.87$ ، $n = 350$) وبطريقة التجزئة النصفية ($r = 0.87$) وتتفق هذه النتائج مع نتائج هذه الدراسة مع الدراسة الأصلية للمقياس التي قام ديفيد وكسلر حيث تراوحت معاملات الثبات على العينة الأصلية (بطريقة التجزئة النصفية بين (٨١، ٠ - ٨٧، ٠) ودراسة^(١٦) (هادي، مراد، ٢٠٠٢)

حيث بلغت معاملات الثبات على عينة التقنين بين (٧٠، ٠ - ٩٠، ٠)، كما توفرت دلالات عن كفاءة التدخل إلى معايير أولية للأداء على الصورة الأردنية للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة متوسطها ١٠٠ وانحرافها المعياري ١٥، وتتفق طريقة التوصل إلى معايير أولية في مقدرة المدرسة على دراسة وكسلر (١٩٦٧) ودراسة كامل (١٩٩٥) ودراسة هادي ومراد (٢٠٠٢).

توصيات الدراسة:

وعلى ذلك توصي الدراسة بإجراء دراسات ذات علاقة بفئات التربية الخاصة الأخرى كحالات صعوبات التعلم، والموهبة، والتوحد، والاضطرابات الانفعالية من حيث قدرة المقياس على التمييز بين هذه الفئات على المقياس مقارنة بالأطفال العاديين.

أولاً: المراجع العربية

- ١ - المصطفى، غدير (٢٠١٣)، فاعلية صورة أردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة على البيئة الأردنية للفئة العمرية من ٤ - ٦ سنة،

- رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان، الأردن.
- ٢- الروسان، فاروق (٢٠١٦)،
أساليب القياس والتشخيص في التربية الخاصة، ط (٥)، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٣- بريك، وسام درويش (١٩٧٩)،
اشتقاق معايير للأداء العقلي لعينة من الأردنيين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٢٤ سنة على مقياس وكسلر لذكاء الكبار، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- ٤- الصمادي، جميل (١٩٧٩)،
اشتقاق معايير للأداء العقلي لعينة من الأردنيين تتراوح أعمارهم بين (٢٥ و ٦٤) سنة على مقياس وكسلر لذكاء الكبار، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- ٥- القريوتي، يوسف (١٩٨٠)،
تطوير صورة معربة ومعدلة للبيئة الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال، رسالة
- ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- ٦- الكيلاني، عبدالله (١٩٧٩)،
دلالات الصدق والثبات لصورة معربة ومعدلة للبيئة الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الكبار في عينة أردنية، دراسات، الجامعة الأردنية، ١ (٦)، ٤٥-٦٤.
- ٧- إلياس، تيسير فؤاد (١٩٧٩)،
الفروق في الأداء على مقياس وكسلر لذكاء الكبار في صورة معدلة للبيئة الأردنية التي تميز فئات تشخيصية عن العاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية: عمان، الأردن. كامل، مصطفى (١٩٨٩). دليل مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. هادي، فوزية عباس، وميراد، صلاح أحمد (٢٠٠٢)، تقنين مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ٤ (١٥٥)، ٢٠٥-٢٧٠.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- بين (٢٥ و٦٤) سنة على مقياس وكسلر لذكاء الكبار، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- (٥) إلياس، تيسير فؤاد (١٩٧٩)، الفروق في الأداء على مقياس وكسلر لذكاء الكبار في صورة معدلة للبيئة الأردنية التي تميز فئات تشخيصية عن العاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية: عمان، الأردن.
- (٦) القريوتي، يوسف (١٩٨٠)، تطوير صورة معربة ومعدلة للبيئة الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الأطفال، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- (*) يرجى الرجوع إلى الروسان، فاروق (٢٠١٦)، أساليب القياس والتشخيص في التربية الخاصة، دار الفكر، عمان، لمزيد من التفصيلات حول تلك الدراسات الأردنية.
- (٧) كامل، مصطفى (١٩٨٩). دليل مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- (٨) هادي، فوزية عباس، وميراد، صلاح أحمد (٢٠٠٢)، تقنين مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ٤ (١٥٥)، ٢٠٥-٢٧٠.
- (9) Garred M, Gilmore LA, (2009). To WPPSI or to Binet that is the question: A comparison of the WPPSI-III and with typically-developing preschoolers, Australian Journal of Guidance and counseling, p 104-115. □
- (10) Liu. J. & Lynn R. (2011). Factor Structure and sex differences on the Wechsler Preschool and Primary Scale of
- 1-Wechsler, D. (1989). **Wechsler Preschool and Primary Scale of Intelligence – Revised**, San Antoni, TX: Psychological Corporation.
- Liu. J. & Lynn R. (2011). Factor Structure and sex differences on the Wechsler Preschool and Primary Scale of Intelligence in China, Japan and United States. NCNI. **Journal Personality and Individual Differences** 1222-1226.
- 2-Garred M, Gilmore LA, (2009). To WPPSI or to Binet that is the question: A comparison of the WPPSI-III and with typically-developing preschoolers, **Australian Journal of Guidance and counseling**, p 104-115.

الهوامش:

- (١) الروسان، فاروق (٢٠١٦)، أساليب القياس والتشخيص في التربية الخاصة، ط (٥)، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- (٢) الروسان، فاروق (٢٠١٦)، أساليب القياس والتشخيص في التربية الخاصة، ط (٥)، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- (٣) الكيلاني، عبدالله (١٩٧٩)، دلالات الصدق والثبات لصورة معربة ومعدلة للبيئة الأردنية من مقياس وكسلر لذكاء الكبار في عينة أردنية، دراسات، الجامعة الأردنية، ١ (٦)، ٤٥-٦٤.
- (٤) الصمادي، جميل (١٩٧٩)، اشتقاق معايير للأداء العقلي لعينة من الأردنيين تتراوح أعمارهم

(١٥) كامل، مصطفى (١٩٨٩). دليل مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
(١٦) هادي، فوزية عباس، ومراد، صلاح أحمد (٢٠٠٢)، تقنين مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ٤ (١٥٥)، ٢٧٠-٢٠٥.

Intelligence in China, Japan and United States. NCNI. **Journal Personality and Individual Differences** 1222-1226. □

(١١) الروسان، فاروق (٢٠١٦)، أساليب القياس والتشخيص في التربية الخاصة، ط(٥)، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(*) يرجى الرجوع إلى رسالة غدير عبدالحليم مصطفى (٢٠١٣)، لمزيد من المعلومات، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، وشملت التعديلات فقرات في مقياس المعلومات، ومقياس المفردات، وظهرت الصورة النهائية من مقياس وكسلر للذكاء لمرحلة ما قبل المدرسة، على شكل حقيقة للمقياس تضمنت الصورة النهائية من المقياس وأدوات تطبيق المقياس اللفظية والأدائية.

(١٢) هادي، فوزية عباس، ومراد، صلاح أحمد (٢٠٠٢)، تقنين مقياس وكسلر لذكاء الأطفال لمرحلة ما قبل المدرسة والمرحلة الابتدائية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ٤ (١٥٥)، ٢٧٠-٢٠٥.

(13)Liu. J. & Lynn R. (2011). Factor Structure and sex differences on the Wechsler Preschool and Primary Scale of Intelligence in China, Japan and United States. NCNI. **Journal Personality and Individual Differences** 1222-1226.

(14)Garred M, Gilmore LA, (2009). To WPPSI or to Binet that is the question: A comparison of the WPPSI-III and with typically-developing preschoolers, **Australian Journal of Guidance and counseling**, p 104-115.

اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة في الأردن

د. إحسان غديفان السريع*

تاريخ قبول البحث: ٢٠١٩/١/٦م

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/١٠/٢٥م

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة، وتكونت عينة الدراسة من (٢٧٥) طالبة وطالبة يدرسون في تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت للعام الدراسي ٢٠١٧/٢٠١٨م، ولتحقيق هدف الدراسة قام الباحث بتطبيق أداة الدراسة المتمثلة باستبانة تم التحقق من دلالات صدقها وثباتها. وأظهرت نتائج الدراسة أن اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة في الأردن كانت ايجابية، كما أظهرت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة تعزى لمتغير السنة الدراسية لصالح طلبة التربية الخاصة في مستوى السنة الرابعة. وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى (٠,٠٥) في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة تعزى لمتغير الجنس.

الكلمات المفتاحية: الاتجاهات، الدمج الأكاديمي، طلبة التربية الخاصة، الطلبة ذوي الإعاقة

*أستاذ مشارك، جامعة آل البيت.

Abstract

The aim of this study was to investigate the attitudes of special education students at Al-Bayt University toward the inclusiveness of students with disabilities. The study sample consisted of (275) students studying special education in Al-Bayt University for the academic year 2017/2018. A questionnaire with verified validity and reliability was developed. The results of the study showed that the attitudes of special education students at Al-Bayt University towards the academic inclusiveness of students with disabilities in Jordan were positive. The results also showed statistically significant differences in the attitudes of special education students at Al-Bayt University towards the academic inclusiveness of students with disabilities for special education students at the level of the fourth year. The study also showed the absence of statistically significant differences at the level of (0.05) in the attitudes of special education students at Al-Bayt University towards the academic inclusiveness of students with disabilities due to the gender variable.

Keywords: Attitudes, Academic inclusiveness, Special education students, Students with disabilities.

المقدمة:

وقدرات الأشخاص ذوي الإعاقة لا تزال
من أهم الحواجز والمعوقات في أغلب
المجتمعات تلك، وهذه الاتجاهات السلبية

خلفية الدراسة وأهميتها:

إن الاتجاهات السلبية نحو حقوق

ليست وليدة اللحظة أو وجدت فجأة في مجتمع معين بل هي امتداد للكثير من العوامل الاجتماعية والكثير من الأشكال إبتداء من القتل أو الإهمال مروراً بالعزل والسجن وصول إلى توفير أفضل الخدمات اللازمة للأشخاص ذوي الإعاقة وأسرهم، كما تتحكم الاتجاهات في سلوك البشر وتعد الموجه الأساسي لسلوك الناس الاجتماعي، وبوجود اختلاف في الثقافة والفكر وتنوع المعرفة نجد اختلاف في الاتجاهات عند البشر باختلاف الثقافة والمرحلة العمرية والمرحلة الدراسية وغيرها الكثير من العوامل التي يتفاعل معها الأفراد في المجتمع وتولد لديهم اتجاهات متنوعة.

الاتجاهات:

إن الأفراد في مجتمعاتهم ينشئون ويمتلكون العديد من الاتجاهات لكن هذه الاتجاهات هي من أهم الأجزاء في حياة الأفراد؛ لما تلعبه من دور هام في توجيه السلوك للعديد من الأمور في حياة الناس كما تعكس صورة واضحة عن سلوك تلك المواقف، كما أنها من أبرز نتائج عملية التنشئة، وقد تلقى موضوع الاتجاهات وسيبقى يتلقى الكثير من الاهتمام في البحث والدراسة لما تعكسه هذه الدراسات فن فوائد ومؤشرات اجتماعية ساعدت في بناء المعرفة^(٢).

هناك العديد من التعريفات للاتجاه ولم يتم الاتفاق على تعريف واحدة للاتجاه، فمن العلماء من عرف الاتجاه بأنه حالة

إن دراسة الاتجاهات ليس بالموضوع الجديد بل هو من أقدم الأمور التي تم دراستها من زمن بعيد، لا سيما أن الاتجاهات متعلمة وليست موروثة يتعلمها ويكتسبها الأفراد خلال تنشئتهم الاجتماعية، فالأشخاص ذوي الإعاقة لا يزال يمارس عليهم اتجاهات سلبية تحول دون حصولهم على حقوقهم ومن ذلك حقهم في الدمج، فيرى كثير من أفراد المجتمع وقليل من المختصين عدم ضرورة وجود أي شكل من أشكال الدمج

مجلّة ألهشك للعلوم الإنسانية والاجتماعية

موضوع معين دون حرج وبالعادة يتفق هذا الاتجاه مع المعايير الاجتماعية، أما الاتجاه اللاشعوري فهو ما يحتفظ به الفرد في نفسه ولا يظهره للآخرين في المجتمع لأنه لا يتفق مع المعايير الاجتماعية، وهناك الاتجاهات الخاصة والعامة، ويعكس الاتجاه الخاص الجانب الخاص والشخصي تجاه موضوع محدد، أما الاتجاه العام يكون له صفة الشمول والعموم ويشارك فيه أكثر أفراد المجتمع، وهناك الاتجاه السلبي والايجابي، حيث يعكس الاتجاه السلبي تلك الاتجاهات التي تقوم على المعارضة وعدم التوافق معه، ويعكس الاتجاه الايجابي تلك الاتجاهات التي تتوافق وتؤيد الفرد وتوجهاته^(٤).

من المعروف أن الاتجاه نمط سلوكي مكتسب يكتسبه الإنسان عن طريق تفاعله مع الآخرين في البيئة الخارجية، وبناء على التفاعل في هذه المواقف يكون الفرد الاتجاه، وعليه فهناك العديد من الطرق لتكوين الاتجاهات، هناك اتجاهات تأتي عن طريق إشباع الدوافع الأولية كممارسة الهوايات الخاصة بكل فرد فإنها تشبع الدوافع لدى من يمارسها، وهناك اتجاهات تتكون من خلال الخبرات الانفعالية المتعددة المرتبطة بالشعور بالرضا من

استعداد مكتسبة تنتظم فيها أفكار الفرد ومشاعره وتقوم بتوجيه استجاباته سلبي أو إيجابا، ومنهم من عرف الاتجاه على أنه حالة استعداد عصبي نفسي تنتظم من خلاله خبرة الفرد وتكون ذات تأثير توجيهي أو ديناميكي على استجابة الفرد للمواقف التي تستثيرها هذه الاستجابة^(٣).

وعليه يتضح بعد استعراض العديد من تعريفات الاتجاه بأنه لا بد من أن يشتمل الاتجاه على ثلاثة مكونات أساسية هي: المكون المعرفي الذي يشتمل على الأفكار والمعلومات والتصورات لدى الفرد تجاه موضوع محدد، والمكون الوجداني الذي يشتمل على المشاعر والانفعالات والأحاسيس نحو موضوع محدد، والمكون السلوكي الذي يشتمل على استعداد الفرد للقيام بأفعال واستجابات محددة تتوافق مع اتجاهاته.

وتنقسم الاتجاهات إلى اتجاهات فردية واتجاهات جماعية، حيث إن استجابة الفرد لموقف معين تختلف عن استجابات الآخرين، وهناك موقف واتجاه يشترك فيه عدد كبير من الأفراد، وهناك اتجاهات لاشعورية وشعورية، ويعكس الاتجاه الشعوري ما يظهر الشخص للآخرين نحو

الآخرين كالتفوق الدراسي أو الرياضي أو الفني الذي يستجر إعجاب الآخرين للفرد، وهناك اتجاهات تتكون من خلال عامل التنشئة الاجتماعية الذي يساهم فيه أكثر من جهة كالبيت والمدرسة والجامعة والرفاق^(٥).

الدمج للطلبة ذوي الإعاقة:

يعتبر دمج الطلبة ذوي الإعاقة أحد أبرز الحقوق المدنية التي يتوجب على الدول أن توفرها للطلبة ذوي الإعاقة بشكل مناسب وبجودة عالية، ويتعرض الأطفال ذوو الإعاقة لنوعين من الانتقال هما: الانتقال الأفقي والذي يقصد به الانتقال من نشاط إلى نشاط أو من مهمة إلى مهمة أخرى أو من مكان نشاط إلى مكان آخر لنشاط آخر، ولكن هذا الانتقال يكون بشكل قصير ومؤقت، وهناك أيضا الانتقال العمودي وبالعادة يكون من برنامج إلى برنامج آخر كأن ينتقل الطالب ذو الإعاقة من برنامج المنزل إلى برنامج في المركز أو من برنامج الروضة إلى المدرسة، فكلما النوعين بحاجة إلى الدعم والتعاون بين الأسرة والجهات ذات العلاقة، وضرورة وجود أشخاص مختصين وتخطيط مناسب^(٦).

التعليم الدامج: هو عملية تعني القيام بتلبية الاحتياجات التعليمية والنفسية والاجتماعية المتنوعة لجميع الطلبة، والاستجابة لها، من خلال تغيير المضامين التربوية والأساليب والبنى والاستراتيجيات التعليمية، وإجراء التعديلات اللازمة والتي يتطلبها تنوع تلك الاحتياجات، على أن تقع مسؤوليات ذلك على عاتق النظام التعليمي العام، والتعليم الدامج منظومة من العمليات التي تسعى إلى إيجاد الحلول الملائمة لتلبية احتياجات جميع المتعلمين ضمن إطار النظام التعليمي الموحد، كما إن التعليم الدامج يعتبر نهج يسعى إلى تحويل النظام التعليمي إلى نظام قادر على الاستجابة إلى تنوع احتياجات المتعلمين^(٧).

وهناك العديد من الايجابيات التي يحققها الدمج للطلبة ذوي الإعاقة، فكما هو معلوم أن عملية الدمج الحقيقة توفر على الدولة وعلى الأسرة النفقات، كما أنها تنعكس بشكل ايجابي على الصحة النفسية للطلبة ذوي الإعاقة ويزيد من فرصة التعلم لديهم، ويقلل من الفوارق الاجتماعية والنفسية بين الطلبة ذوي الإعاقة والطلبة العاديين، كما تساعد عملية الدمج في التقليل من الوصمة الاجتماعية

تحديد احتياجات الطلبة ذوي الإعاقة، واستراتيجيات تعليم الطلبة ذوي الإعاقة الذهنية، كما أن معلمي التربية الخاصة والمعلمين النظاميين بحاجة إلى معرفة استراتيجيات تقييم تعليم الطلبة، واستراتيجيات الاستجابة إلى أنماط السلوك غير الملائمة واستراتيجيات تحليل وإدارة البيئة التعليمية كمتطلبات أساسية لتنفيذ برامج الدمج الفعالة^(١٠).

ولقد أجريت العديد من الدراسات ذات العلاقة بالدراسة الحالية ومنها:

أجرى الصرايرة والشعلان^(١١) دراسة هدفت إلى التعرف على اتجاهات الطلبة في جامعة مؤتة نحو الطلبة ذوي الإعاقة في الأردن، حيث تكونت عينة الدراسة من طلبة السنة الأولى والسنة الرابعة في كل تخصصات الجامعة، وأظهرت نتائج الدراسة وجود اتجاهات سلبية نحو تعليم الطلبة ذوي الإعاقة ووجود فروق ذات دلالة في الاتجاهات تعزى للمستوى الدراسي لصالح الطلبة من السنة الأخيرة، ووجود فروق ذات دلالة في الاتجاهات تعزى للتخصص لصالح تخصص التربية الخاصة.

للشخص ذوي الإعاقة وأسرته في المجتمع، والأهم من ذلك كله أن من عملية الدمج من حق الطلبة ذوي الإعاقة ولا بد من تقديمها لهم بشكل مناسب، ويتمثل المبدأ الأساسي للتعليم الدامج في أنه يجب أن تتاح لجميع الأطفال الفرصة للتعلم معاً، ويعني هذا أن المدارس النظامية يجب أن تكون مجهزة لكي تلي احتياجات الطلاب، بمن فيهم من كانوا عادة مستبعدين من إمكانية دخول المدارس ومن المشاركة والفرص المتساوية في المدرسة^(٨).

والتعليم الدامج يركز على مواطن القوة الفردية التي يجلبها الأطفال إلى المدرسة بدلاً من التركيز على نواقصهم المتصورة، وينظر بصفة خاصة إلى ما إذا كانت تتاح للأطفال الفرصة للاشتراك في الحياة العادية للمجتمع المحلي أو المدرسة، أو ما إذا كانت هناك حواجز مادية أو اجتماعية في البيئة^(٩).

ويتطلب التطبيق الفعال لبرامج الدمج أن يكون كلا من المعلمين النظاميين ومعلمي التربية الخاصة على معرفة بخصائص الأطفال ذوي الإعاقة، وبإعداد وتنفيذ البرنامج التربوي الفردي، وقوانين التربية الخاصة ذات الصلة، واستراتيجيات

وأجرى جنستون ودكسون^(١٢) دراسة هدفت إلى التعرف على تأثير برنامج تدريبي لتنمية اتجاهات الطلبة في تخصص التمريض في السنة الثانية في أمريكا، حيث تكونت عينة الدراسة من (٣٧٩) طالباً، وأظهرت نتائج الدراسة إلى أن اتجاهات الطلبة قد تغيرت نحو الطلبة ذوي الإعاقة، ووجود فروق ذات دلالة بين اتجاهات طلبة التمريض تعزى للجنس لصالح الإناث.

أجرى البطاينة والجراح^(١٣) دراسة هدفت إلى التعرف على اتجاهات طلبة جامعة اليرموك نحو الطلبة ذوي الحاجات الخاصة في الأردن، حيث تكونت عينة الدراسة من (٣٤٠) طالباً وطالبة من درجة البكالوريوس، وأظهرت النتائج إلى أن اتجاهات طلبة جامعة اليرموك نحو ذوي الحاجات الخاصة كانت ايجابية، ووجود فروق ذات دلالة إحصائية تعزى لمتغير الجنس لصالح الإناث، والتخصص لصالح التخصصات الأدبية، والمستوى الدراسي لصالح الطلبة من مستوى السنة الرابعة.

وأجرى الرحال^(١٤) دراسة هدفت إلى التعرف على اتجاهات طلبة كليات جامعة البعث نحو ذوي الحاجات الخاصة في ضوء بعض المتغيرات في سوريا، حيث تكونت

عينة الدراسة من (٢٠٤) طلاب من طلبة السنة الرابعة، وأظهرت النتائج عدم وجود اختلاف في اتجاهات الطلبة نحو ذوي الحاجات الخاصة بفئاتهم المتعددة باختلاف التخصص، إلا في اتجاهات الطلبة نحو الطلبة ذوي الإعاقة الذهنية.

وأجرى شري وآخرون^(١٥) دراسة هدفت إلى التعرف على تأثير مجموعة من التخصصات الأكاديمية على اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الطلاب ذوي الإعاقة، حيث تكونت عينة الدراسة من (٢٩٤٣) طالباً من (٤٤) كلية في الولايات المتحدة الأمريكية، كانت نسبة الذكور منهم (٦٠٪) والإناث (٤٠٪)، وأظهرت نتائج الدراسة وجود اتجاهات ايجابية نحو الأشخاص ذوي الإعاقة، وأظهرت النتائج وجود اتجاهات ايجابية نحو الطلبة ذوي الإعاقة لصالح الإناث على الذكور.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

أظهرت العديد من الدراسات مثل دراسة الرحال (٢٠٠٥) وجود اتجاهات سلبية تجاه الأشخاص ذوي الإعاقة من قبل أفراد المجتمع، الأمر الذي يعيق عملية دمجهم، ولأن الجامعة من الجهات التي تعمل على رفد المجتمع والميدان بأخصائيين

أهداف الدراسة:

تسعى الدراسة الحالية إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- التعرف على اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة.

- التعرف إلى الفروق في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة التي تعزى لمتغير السنة الدراسية.

- التعرف إلى الفروق في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة التي تعزى لمتغير الجنس.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في التعرف على اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للأشخاص ذوي الإعاقة، كما تتجلى أهمية هذه الدراسة في أنها تتيح المجال أمام الباحثين والمختصين معرفة اتجاهات طلبة تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للأشخاص ذوي الإعاقة ومحاولة تعديل الاتجاه السلبي من

في التربية الخاصة يتخرجون ولديهم المعرفة في كيفية تقديم الخدمات للأشخاص ذوي الإعاقة، ومن خلال قيام الباحث باصطحاب العديد من طلبة التربية الخاصة أثناء دراستهم الجامعية في زيارات علمية لمؤسسات الأشخاص ذوي الإعاقة وملاحظة اختلاف اتجاهات الطلبة نحو الدمج الأكاديمي جاءت فكرة هذه الدراسة التي تسعى إلى الإجابة على تساؤلات الدراسة الآتية:

- ما هي اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة؟

- هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى $(\alpha=0.05)$ في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة تعزى لمتغير السنة الدراسية؟

- هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى $(\alpha=0.05)$ في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة تعزى لمتغير الجنس؟



خلال ما يلاحظه أو يدرسه طلبة التربية الخاصة واطلاعهم على قدرات الطلبة ذوي الإعاقة، كما أن النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة من شأنها أن تفسح المجال البحثي بشكل أوسع أمام الباحثين والدارسين في هذا المجال.

حدود الدراسة:

اشتملت الدراسة على الحدود الآتية:

-الحدود البشرية: اقتصرت الدراسة على طلبة تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت للأعوام الجامعية الواقعة بين (٢٠١٤ - ٢٠١٨).

-الحدود المكانية: أجريت الدراسة في جامعة آل البيت.

-الحدود الموضوعية: أجريت الدراسة لتحديد اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة.

مصطلحات الدراسة الإجرائية:

-الاتجاهات: هي الدرجة التي يحصل عليها المفحوص على مقياس الاتجاهات نحو الدمج الأكاديمي المعد في هذه الدراسة.

-الدمج الأكاديمي: وجود الأشخاص ذوي الإعاقة في المدارس النظامية بشكل علمي وصحيح بعد تهيئتهم لذلك، تمهيدا لاندماجهم مع اقرانهم وتلقيهم التعليم في المدرسة بما يحقق خروجهم من مؤسسات التربية الخاصة إلى المدارس النظامية بشكل فاعل يلي رغبتهم وحاجاتهم.

-طلبة التربية الخاصة: هم جميع الطلبة الذين يدرسون تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت من السنة الأولى حتى السنة الرابعة.

-الطلبة ذوي الإعاقة: هم الطلبة الذين تم تشخيصهم بأن لديهم إعاقة ذهنية أو اضطراب طيف التوحد أو صعوبات التعلم، ويتلقون التعليم والتدريب في المراكز أو المدارس المخصصة لذلك.

الطريقة و الإجراءات:

يتناول هذا الجزء وصف مجتمع الدراسة وعييتها، والأدوات المستخدمة التي سيتم استخراج دلالات الصدق والثبات لها، وتحديد متغيرات الدراسة وإجراءاتها والمعالجة الإحصائية التي تم استخدامها للإجابة عن أسئلة الدراسة.

منهجية الدراسة:

أداة الدراسة:

تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي للتعرف على اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة.

مجتمع الدراسة وعينتها:

تكون مجتمع الدراسة من جميع طلبة التربية الخاصة من مستوى السنة الأولى ولغاية السنة الرابعة في جامعة آل البيت في الأردن للعام الدراسي ٢٠١٧/٢٠١٨، والبالغ عددهم (٦١١) طالباً، وتكونت عينة الدراسة من (٢٧٥) طالب وطالبة يدرسون في تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت. ويوضح الجدول (١) توزيع أفراد عينة الدراسة.

جدول (١) أفراد عينة الدراسة حسب

متغير الجنس والسنة الدراسية

المتغير	فئات المتغير	العدد	النسبة المئوية
الجنس	ذكور	٩٠	٣٣٪
	إناث	١٨٥	٦٧٪
السنة الدراسية	السنة الأولى	٣٥	١٣٪
	السنة الثانية	٦٠	٢٢٪
	السنة الثالثة	٩١	٣٣٪
	السنة الرابعة	٨٩	٣٢٪
المجموع		٢٧٥	١٠٠٪

استخدام الباحث أداة للدراسة هي: مقياس اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة، والمعد من قبل الباحث بعد الرجوع إلى الأدب النظري والدراسات التي تناولت الاتجاهات نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة، حيث تم استخراج دلالات الصدق والثبات للأداة، حيث يتكون المقياس من (١٣) فقرة صيغت جميعها بطريقة إيجابية، ويكون خمس بدائل لكل فقرة وهي: (موافق بشدة، موافق، غير متأكد، غير موافق بشدة، غير موافق).

صدق الأداة:

تم التحقق من صدق أداة الدراسة، وذلك من خلال عرضها على (١٠) أساتذة جامعيين من المختصين في مجال التربية الخاصة والقياس والتقويم؛ للتأكد من سلامة الصياغة اللغوية، ودرجة ملاءمتها لأغراض الدراسة، حيث تم إجراء التعديلات التي اتفق عليها (٨٠٪) فأكثر من المحكمين، حيث بلغت نسبة الاتفاق بين المحكمين (٩٠٪).

ثبات الأداة:

تم التأكد من ثبات أداة الدراسة، وذلك من خلال استخدام طريقة الاختبار وإعادة الاختبار (Test-re-test) حيث طبقت الأداة على (١٦) طالباً من خارج عدد عينة الدراسة- وتم إعادة تطبيق الأداة بعد مرور (١٤) يوماً، وتم حساب معامل الثبات باستخدام معامل ارتباط بيرسون البالغ حيث بلغت الدرجة الكلية (٨٨, ٠) ويعتبر هذا مناسباً لأغراض الدراسة.

تم تصنيف اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة إلى ثلاثة مستويات (منخفضة، متوسطة، مرتفعة) حسب متوسطات اجابات العينة لكل فقرة على النحو التالي:

- مستوى منخفض، أقل من (٩٩, ٢) ويعبر عن الاتجاه السلبي.

- مستوى متوسط، (٣) درجات ويعبر عن الاتجاه المحايد.

- مستوى مرتفع، (٠١, ٣) فما فوق ويعبر عن الاتجاه الايجابي.

إجراءات الدراسة:

لتحقيق هدف الدراسة تم إجراء الخطوات الآتية:

١- الرجوع إلى أدبيات الموضوع وإعداد الأداة وتحكيمها.

٢- تم التقدم للحصول على الموافقة من كلية العلوم التربوية لتطبيق الأداة على طلبة تخصص التربية الخاصة.

٣- تم التواصل مع الطلبة وتحديد موعد متفق عليه للإلتقاء.

٤- تم تزويد الطلبة الذين وقع عليهم الاختيار بأداة الدراسة لتعبئتها من وجهة نظرهم وجمع البيانات اللازمة لتحقيق أهداف الدراسة.

٥- تحليل نتائج الأداة للإجابة عن أسئلة الدراسة.

التحليل الإحصائي:

قام الباحث بتحليل البيانات بعد جمعها، حيث تم إخضاع هذه البيانات الكمية إلى التحليل باستخدام البرنامج الإحصائي (SPSS)، وقد تم استخراج المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية، وتم استخدام معامل ارتباط بيرسون،

واختبار (T)، وتحليل التباين وللإجابة عن هذا السؤال تم استخراج المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية، الأحادي (ANOVA).
عرض النتائج ومناقشتها: والجدول (٢) يوضح ذلك.

النتائج المتعلقة بالسؤال الأول: ما اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة؟
جدول (٢): المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لفقرات الدراسة

الرقم	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الانطباق
١	أرى ضرورة تعليم الطلبة ذوي الإعاقة في المدارس النظامية مع أقرانهم من الطلبة.	٣,٤٠	١,٢٥	مرتفعة
٢	أرى أن يتنظم الطلبة ذوي الإعاقة في التعليم العام مع بداية المرحلة الأساسية	٣,٠٦	٢,١١	مرتفعة
٣	دمج الطلبة ذوي الإعاقة لا بد أن يوفر بنفس الفرصة المتاحة للطلبة من غير ذوي الإعاقة	٣,٦٠	١,١٤	مرتفعة
٤	برنامج الدمج يقدم للطلبة ذوي الإعاقة أفضل الحلول لمواجهة مشكلاتهم الأكاديمية	٣,٤٥	١,٢٠	مرتفعة
٥	أرى دمج الطلبة ذوي الإعاقة في اليوم الدراسي بشكل كامل وليس جزء من اليوم	٣,٥٩	١,٠٥	مرتفعة
٦	أرى دمج الطلبة ذوي الإعاقة البسيطة والمتوسطة والشديدة	٣,٦٠	١,٠٤	مرتفعة
٧	أرى أن الدمج يكسب الطلبة ذوي الإعاقة سلوكيات إيجابية	٣,٦١	٢,٣٥	مرتفعة
٨	وضع الطلبة ذوي الإعاقة في الصفوف النظامية يؤثر بشكل إيجابي على النظام التربوي للطلبة بشكل عام	٣,٠٢	١,٦٩	مرتفعة
٩	الطلبة ذوي الإعاقة لهم الحق في تلقي التعليم في الصفوف النظامية	٣,٩٨	٢,١٨	مرتفعة
١٠	الطلبة ذوي الإعاقة يطورون مهارات أكاديمية بشكل أفضل عند دمجهم في الصفوف النظامية	٣,٢٢	٢,٤٢	مرتفعة

١١	يفضل تعليم الطلبة ذوي الإعاقة في المدرسة النظامية بعد تهيئته بشكل مناسب لعملية الدمج	٣, ٤٧	١, ٤٢	مرتفعة
١٢	الطلبة ذوي الإعاقة يستطيعون إقامة علاقة إيجابية مع أقرانهم في المدارس النظامية	١, ٠٩	١, ٥١	منخفضة
١٣	يزيد الدمج من شعور الطلبة ذوي الإعاقة بأنهم قادرين على التعلم	٣, ٥٥	٢, ١١	مرتفعة
المجموع		٣, ٢٨	٠, ٩٨	مرتفعة

التي يقوم بها قسم العلوم النفسية والتربية الخاصة والمتعلقة بالأشخاص ذوي الإعاقة، كما أن تعاون مؤسسات المجتمع المدني التي تعنى بالأشخاص ذوي الإعاقة مع الجامعة من خلال اتفاقيات يتم من خلالها تنفيذ لقاءات توعوية لطلبة الجامعة، كل ذلك أسهم في وجود اتجاهات إيجابية لدى طلبة التربية الخاصة، ونتائج هذه الدراسة تتفق مع نتائج دراسة البطاينة والجراح (٢٠٠٥م) التي أظهرت أن اتجاهات طلبة جامعة اليرموك نحو ذوي الحاجات الخاصة كانت إيجابية ونتائج دراسة الرحال (٢٠٠٥م) التي أظهرت وجود اتجاهات إيجابية نحو الأشخاص ذوي الإعاقة، وتختلف نتائج هذه الدراسة مع نتائج دراسة الصرايرة والشعلان (٢٠١١م) التي أظهرت وجود اتجاهات سلبية نحو تعليم الطلبة ذوي الإعاقة في المدارس النظامية.

يتبين من الجدول (٢) أن المتوسطات الحسابية للفقرات تراوحت بين (-3.98- 1.09) حيث كان أعلى متوسط للفقرة (الطلبة ذوي الإعاقة لهم الحق في تلقي التعليم في الصفوف النظامية) وكان أقل متوسط للفقرة (الطلبة ذوي الإعاقة يستطيعون إقامة علاقة إيجابية مع أقرانهم في المدارس النظامية) وبلغت الدرجة الكلية متوسط (٣, ٢٨) ويعني ذلك أن اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة في الأردن كانت إيجابية، ويعود ذلك إلى العديد من العوامل ومن أهمها تلك الزيارات الميدانية التي يقوم بها قسم العلوم النفسية والتربية الخاصة للطلبة في تخصص التربية الخاصة الأمر الذي أوجد لدى الطلبة فرصة للتواصل والإطلاع على قدرات الطلبة ذوي الإعاقة، إضافة إلى الندوات والمسيرات التوعوية والأنشطة

حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات
المعيارية تبعاً لمتغير السنة الدراسية.
والجدول (٣) يوضح ذلك.

جدول (٣): المتوسطات الحسابية
والانحرافات المعيارية لتقديرات عينة
الدراسة لاتجاهات طلبة التربية الخاصة في
جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي
الإعاقة يعزى لمتغير السنة الدراسية.
(ن=٢٧٥)

النتائج المتعلقة بالسؤال الثاني: هل
هناك فروق ذات دلالة إحصائية في
اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل
البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة يعزى
لمتغير السنة الدراسية؟

لمعرفة إذا كان هناك فروق ذات دلالة
إحصائية في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في
جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي
الإعاقة يعزى لمتغير السنة الدراسية فقد تم

رقم الفقرة	السنة الأولى (ن=٣٥)		السنة الثانية (ن=٦٠)		السنة الثالثة (ن=٩١)		السنة الرابعة (ن=٨٩)	
	المتوسط الحسابي	الانحراف المعيار	المتوسط الحسابي	الانحراف المعيار	المتوسط الحسابي	الانحراف المعيار	المتوسط الحسابي	الانحراف المعيار
١	٢,٣١	٠,٩٥	٣,٦٠	١,٠٥	٤,٢٧	٠,٨٨	٢,٩٦	١,١٥
٢	٣,٨٩	٠,٧٥	٣,٧١	٠,٩٩	٢,٨٩	١,١٥	٢,٠٩	٠,٨٦
٣	٢,١٥	٠,٨٠	٢,٢٠	١,١٠	٣,٥٥	١,١٥	٤,١٣	٠,٨٩
٤	٢,٢٩	٠,٧٥	٣,١٢	١,١٤	٣,٩٠	٠,٩٣	٣,٩٩	٠,٩٠
٥	١,٩٦	٠,٨٣	٢,٥١	١,١١	٣,٣٨	١,٠٢	٣,٦١	٠,٨٨
٦	١,٩٤	٠,٨١	٢,٣٤	١,٠١	٣,٠٨	٠,٩٤	٣,٤٨	٠,٧١
٧	٢,١١	٠,٨٨	٢,٤١	١,١٨	٢,٩٢	١,٠٢	٣,٣٨	٠,٨٧
٨	١,٩٦	٠,٨٢	٢,٣٣	٠,٨٤	٢,٨٨	١,٠٣	٣,٢٣	١,٠٦
٩	٢,٠٥	٠,٥٥	٢,٠٥	٠,٧٥	٢,٣٩	٠,٩٨	٢,٩٠	١,١٦
١٠	٢,٠١	٠,٨٤	٢,٤٠	٠,٩٩	٣,٠٩	١,٠٤	٣,٥٨	١,١٤
١١	١,٩٤	٠,٦٨	٢,٠٦	٠,٦٥	٣,٣٣	٠,٨٨	٣,١٠	١,٢٩
١٢	٢,٣٩	٠,٨٢	٣,٢٢	١,١٣	٣,٩٣	٠,٨٩	٤,٣٨	٠,٧١
١٣	٢,٠٢	٠,٨٣	٣,١٨	١,١٢	٣,٨٨	٠,٨٧	٣,٩٨	٠,٧٠
المجموع	٢,٢٣	٠,٥٧	٢,٧٠	٠,٨١	٣,٣٤	٠,٦٧	٣,٤٤	٠,٦٨

السنة الدراسية	المتوسط الحسابي	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
السنة الأولى	٢,٢٣	-			
السنة الثانية	٢,٧٠	*	-		
السنة الثالثة	٣,٣٤	*	*	-	
السنة الرابعة	٣,٤٤	*	*	*	-

* ذات دلالة إحصائية عند مستوى
(٠,٠٥)

يبين الجدول (٥) فروق ذات دلالة

تبعاً لمتغير السنة الدراسية، حيث كانت
الفروق بين طلبة السنة الأولى وطلبة السنة
الثانية لصالح طلبة السنة الثانية، ووجود
فروق بين طلبة السنة الأولى وطلبة السنة
الثالثة لصالح طلبة السنة الثالثة، ووجود
فروق بين طلبة السنة الأولى وطلبة السنة
الرابعة لصالح طلبة السنة الرابعة.

ووجود فروق بين طلبة السنة الثانية
وطلبة السنة الثالثة لصالح طلبة السنة
الثالثة، ووجود فروق بين طلبة السنة الثانية
وطلبة السنة الرابعة لصالح طلبة السنة
الرابعة، ووجود فروق بين طلبة السنة
الثالثة وطلبة السنة الرابعة لصالح طلبة
السنة الرابعة. وكما يبين الجدول (٥) أنه
يوجد فروق ذات دلالة إحصائية في
اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل

يتضح من الجدول (٣) وجود فروق
في اتجاهات طلبة التربية الخاصة تبعاً لمتغير
السنة الدراسية وللتعرف على دلالة الفروق
تم استخدام تحليل التباين الأحادي كما هو
مبين في الجدول (٤)

جدول (٤): تحليل التباين الأحادي
لدلالة الفروق في المقياس تبعاً لمتغير السنة
الدراسية (ن = ٢٧٥)

مصدر التباين	درجات الحرية	مجموع المربعات	متوسط المربعات	قيمة (F)	مستوى الدلالة
بين المجموعات	٣	٩٢,٠٥	٣٠,٦٩	٦٦,٢	٠,٠٠
	٢٧١	١١٨,٥٥	٠,٤٦	٩	٠١
	٢٧٤	٢١١,٥٣			

يتبين من الجدول (٤) أن قيمة (F)
المحسوبة للمقياس بلغت (٦٦,٢٩)
بمستوى دلالة (٠,٠٠٠١) مما يعني وجود
فروق ذات دلالة إحصائية تعزى لمتغير
السنة الدراسية، ولمعرفة اتجاه هذه الفروق
تم استخدام اختبار نيومان كولز، والجدول
(٥) يوضح ذلك.

جدول (٥): نتائج المقارنات البعدية
(نيومان كولز) بين المتوسطات الحسابية تبعاً
لإجابات عينة الدراسة على المقياس تبعاً
للسنة الدراسية.

النتائج المتعلقة بالسؤال الثالث: هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية في اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة يعزى لمتغير الجنس؟

ولمعرفة اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو دمج الطلبة ذوي الإعاقة تبعا لمتغير الجنس فقد تم حساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لأفراد عينة الدراسة، ويبين الجدول (٦) ذلك.

الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	العدد	الجنس
٠,٨٩	٢,٨٨	٩٠	ذكر
٠,٩١	٢,٧٤	١٨٥	انثى

يتبين من الجدول (٦) وجود فروق في المتوسطات حيث بلغ المتوسط الحسابي للذكور (٢,٨٨) وبلغ المتوسط الحسابي للإناث (٢,٧٤) ولمعرفة دلالة الفروق تم استخدام اختبار (T) كما هو مبين في الجدول (٧).

جدول (٧): نتائج اختبار (T) لمعرفة أثر متغير الجنس

البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة تعزى لمتغير السنة الدراسية لصالح طلبة التربية الخاصة في مستوى السنة الرابعة. ويعزو الباحث ذلك أن طلبة تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت كلما ارتفع مستواهم الدراسي كلما كانوا أكثر وعياً ومعرفة ونضجاً، وأكثر إدراكاً لأهمية دمج الطلبة ذوي الإعاقة وأهمية تدريب وتأهيل الطلبة ذوي الإعاقة للدمج الأكاديمي، وأن الطلبة في مستوى السنة الأولى والثانية هم أقل معرفة واطلاعاً على واقع وقدرات الطلبة ذوي الإعاقة، كما أن الطلبة من مستوى السنة الثالثة والرابع حصلوا على فرص أكثر للزيارات الميدانية للطلبة ذوي الإعاقة وبالتالي هم بنوا معرفة أكبر وأنضج ودرسوا مساقات أكثر في تخصصهم ممن هم في مستوى السنة الأولى والثانية، وهذا يتفق مع نتائج دراسة الصرايرة والشعلان (٢٠١١م) التي أظهرت وجود فروق ذات دلالة في الاتجاهات تعزى للمستوى الدراسي لصالح الطلبة من السنة الأخيرة، ونتائج دراسة البطاينة والجراح (٢٠٠٥) التي أظهرت وجود فروق المستوى الدراسي لصالح الطلبة من مستوى السنة الرابعة، ولا يوجد نتائج دراسات تختلف مع نتائج الدراسة الحالية.

الذكور، ولا يوجد دراسة تتفق نتائجها مع نتائج هذه الدراسة تبعا لمتغير الجنس.

التوصيات:

في ضوء نتائج هذه الدراسة يوصي الباحث بما يلي:

-زيادة عدد الزيارات الميدانية لطلبة تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت، بحيث يكون زيارة واحدة على الأقل لمساقات التخصص.

-إجراء المزيد من الدراسات على الاتجاهات وتناول متغيرات أخرى كالتخصص ونوع الإعاقة.

-توجيه وزارة التربية والتعليم المدارس إلى زيارة مؤسسات الطلبة ذوي الإعاقة وتوعية طلبة المدارس في البرامج التدريبية والتعليمية للطلبة ذوي الإعاقة وتعزيز اتجاهاتهم الايجابية نحوهم .

-إجراء دراسات مستقبلية تتناول موضوع الاتجاهات مع متغيرات أخرى مثل نوع الإعاقة، والمحافظة.

الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الفرق بين المتوسطين	قيمة T	مستوى الدلالة
ذكر	٢,٨٨	٠,٨٩	٠,٠٧	٠,٦٤	٠,٥٢
انثى	٢,٧٤	٠,٩١			

يتبين من الجدول (٧) أن قيمة (T) لمقياس اتجاهات طلبة تخصص التربية الخاصة في جامعة آل البيت نحو الدمج الأكاديمي للطلبة ذوي الإعاقة والتي بلغت (٠,٦٤) والتي تشير إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى (٠,٠٥) في المقياس يعزى لمتغير الجنس، وتختلف نتائج هذه الدراسة مع نتائج دراسة جنستون ودكسون (Johnston & Dixon, 2006) التي أظهرت وجود فروق ذات دلالة بين اتجاهات طلبة التمريض يعزى لمتغير الجنس لصالح الإناث، وتختلف عن نتائج دراسة البطاينة والجراح (٢٠٠٥) التي أظهرت بوجود فروق ذات دلالة إحصائية تعزى لمتغير الجنس لصالح الإناث، وتختلف مع نتائج دراسة شري وآخرون (Sherry & el.al, 1999) التي أظهرت النتائج وجود اتجاهات ايجابية نحو الطلبة ذوي الإعاقة لصالح الإناث على

الهوامش:

- the Autism Spectrum. **Journal of Contemporary Psychotherapy**, 41(1)2011, 19 – 29. □
- (9) Harakchiyska, T. (2010) Training Teachers of Languages to Meet the Needs of Inclusive Classrooms. ISSN 1648-2824 KALBU STUDIJS. 2010. 18 NR. STUDIES ABOUT LANGUAGES. 2010. NO. 18.
- (10) Harry, B. (2002). Trends and issues in serving culturally diverse families of children with disabilities. *The Journal of Special Education*, 36(3), 2002 131–138.
- (١١) الصرايرة، رائد والشعلان، معن، اتجاهات طلبة جامعة مؤتة نحو المعاقين، مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (٢٦)، العدد (١) ٢٠١١، ص ٨٩ – ١١٥.
- (12) Johnston, C. & Dixon, R, **Nursing Student's Attitudes toward People with Disabilities: Can They Be Changed.** Faculty of Nursing University of Sydney 2006. □
- (١٣) البطاينة، أسامة والجراح، عبدالناصر، اتجاهات طلبة جامعة اليرموك نحو ذوي الحاجات الخاصة وعلاقتها ببعض المتغيرات. أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (٢١)، العدد (٣)، ٢٠٠٥، ص ٤٥٩ – ١٧٩.
- (١٤) الرحال، درغام، اتجاهات طالبات بعض كليات جامعة البعث نحو ذوي الحاجات الخاصة، مجلة جامعة البعث، مجلد (٢٧) العدد (٧)، ٢٠٠٥، ص ٣١٢ – ٢٣٦.
- (١) الظاهر، قحطان، (٢٠٠٨). المدخل إلى التربية الخاصة. دار وائل، الأردن.
- (٢) عمايرة، أحمد، اتجاهات الطلبة في تخصص التربية الرياضية نحو الدمج للتلاميذ المعاقين في دروس التربية الرياضية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠٠٣ م.
- (٣) السرطاوي، زيدان، اتجاهات طلاب المرحلة التعليمية المتوسطة نحو ذوي الحاجات الخاصة وعلاقتها ببعض المتغيرات، رسالة التربية وعلم النفس، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٣.
- (4) Thompson, T. & Emrich, K. & Moore, G, **The Effect Of Curriculum On The Attitudes Of Nursing Students Towards Disability.** Rehabilitation Nurse. Vol.28,N (1)2003, 28.
- (٥) الخزاعلة، أحمد وطشطوش، رامي، اتجاهات طلبة التربية الخاصة في جامعة القصيم نحو تخصصهم الأكاديمي وعلاقته ببعض المتغيرات، مجلة رسالة الخليج، العدد (١٢٢) ٢٠١١، ص ١٠٢ – ١٣٦.
- (6) Crosland, Kimberly and Dunlap Glen, **Effective Strategies for the Inclusion of Children With Autism in General Education Classrooms, Behavior Modification**, 36 (3):2012 251-269. □
- (7) Mittler, P, **Working towards inclusive education, social contexts.** David Fulton Publishers: London.2000. □
- (8) Ferraioli, S. & Harris, S, **Effective Educational Inclusion of Students on**

- (15) Sherry. L. & Folson, M. & Ruth, J. & nearing, W, Effects of Academic Major Gender and Hands-On Experience on Attitudes of Preservice Professionals, **Adapted Physical Activity Quarterly. Vol (8), N0 (16) 1999. PP.(388 – 401)**

سقوط المدن في الشعر الأندلسي قصيدة رثاء الأندلس للشاعر المجهول أنموذجاً تحليلياً

د. رعدة علي الزبون*

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/٩/٥ م

تاريخ قبول البحث: ٢٠١٨/١٠/٢ م

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة أثر سقوط المدن الأندلسية مادياً ومعنوياً كما صوّرها أحد الشعراء الأندلسيين مجهول الهوية، في قصيدته الطويلة التي نظمها في رثاء الأندلس، وذلك بالوقوف عند هذه القصيدة ودراستها من جانبيين، أولهما يتصل بالمضامين والمخاور التي صوّر الشاعر من خلالها مأساة سقوط المدن وما ترتب عليها من آثار مادية ومعنوية ذاق مراراتها أهلها ومن وقعت عليهم هذه المصيبة العظيمة. وأمّا ثانيهما فيتصل بالبناء الأسلوبي بمستوياته: الصوتية والمعجمية والبلاغية، وبيان دور الأسلوب في التعبير عن فكرة القصيدة وبؤرتها المركزية المتمثلة في تصوير مأساة سقوط المدن وما ترتب عليها. وقد تبين بعد دراسة هذه القصيدة من جانبها المضموني والأسلوبي أنّ الشاعر صوّر فيها صدى مأساة سقوط مجموعة من المدن، بدأها بتصوير سقوط رندة وما حلّ بها من دمار وهدم، ثم انتقل بعدها لتصوير ما حلّ بالمدن الأخرى نحو: مالقة وما حولها، والمرية، وغرناطة، وإلى جانب هذا المحور الرئيس في القصيدة ظهر محوران آخران هما: اللوم والتفريع؛ وذلك في محاولة من الشاعر لاستنهاض الهمم واستثارتها للتهوؤ، والآخر تمثّل في اللجوء إلى الله ودعائه بأن ينصرهم على الكافرين. وأمّا فيما يتصل بالبناء الأسلوبي للقصيدة فقد أظهرت دراسة مستويات اللغة: صوتياً ومعجمياً وبلاغياً دور اللغة والأسلوب في تصوير مأساة السقوط وبكائها، وبيان أثرها المادي والمعنوي في المكان وأهله، حيث تضافرت هذه المستويات مجتمعة سواء من ناحية الصوت أو الإيقاع أو المفردات أو التراكيب أو الصور الفنية للتعبير عن البؤرة النصّية (مأساة سقوط المدن وبكائها) التي تركزت حولها هذه القصيدة.

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

Fall of Cities in the Andalusian Poetry: A Lamentation Poem of Andalusia by an Anonymous Poet as an Analytical Study

Abstract

This study aims at investigating the impact of the fall of the Andalusian cities substantially and morally, as portrayed by an anonymous poet in his long poem lamenting the loss of Andalusia. This poem was examined using two aspects, where the first aspect concerns the content and themes through which the poet portrayed the fall tragedy of the cities followed by the worst substantial and moral effects experienced by their people and those who suffered from such a great disaster. The second aspect is related to the structure of the stylistic levels: phonetic, syntactic, and rhetorical, showing the role of style in expressing the topic of the poem and its core of the depiction of the fall tragedy of the cities and the consequences. Having discussed the poem's contextual and stylistic aspects, it was found out that the poet echoed the fall tragedy of a group of cities, starting by picturing the fall of Randa and how it was destroyed and damaged. Then he continued depicting what happened in other cities like Malaga, Maria, and Granada. To this end, there appear two other aspects in the poem: blaming and censuring, where the poet attempted to arouse the morale, while the other aspect was concerned with the poet's resorting to Allah and supplicating Him to support them to defeat the unbelievers. Regarding the stylistic structure of the poem, the study of linguistic levels showed the physical and moral impact of the poem on the place and its people, where these levels combined in terms of sound, rhythm, vocabulary, structures or artistic imaging to express the focal text of this lamentation poem of the tragic fall of the Andalusian cities.

المقدمة:

الأدب الأندلسي، التي استوقفت الشعراء

الأندلسيين، فعبّروا عنها بمرارة وأسى،

يشكّل موضوع رثاء المدن وبكائها

بعد السقوط إحدى الظواهر البارزة في

أنه كسابقه وقف عندها بصورة عامّة أيضا، وأما كتاب دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة^(٣) فتحدّث عن هذه القصيدة بصورة منفردة غير أنه تناول جوانب تتصلّ بتاريخ المراثية، ومخطوطها، وأفكارها العامّة، ومؤلفها المجهول وعصره، في محاولة لتحديد العصر الذي نُظمت فيه، وهوية مؤلّفها، فحاول الدّارس أن يحدد عصر الشّاعر من دراسة الأحداث التاريخيّة التي وردت في القصيدة، وعرض أيضا لمدينته التي عاش فيها أيضا من خلال القصيدة نفسها، وأما من هو الشّاعر تحديدا فلم يستطع كشف اللثام عنه. كانت هذه أبرز الدّراسات التي تناولت هذه القصيدة، ولعدم وجود دراسة مستقلّة لمضامين هذه القصيدة وبنائها الأسلوبية فقد جاءت فكرة هذه الدّراسة؛ نظرا لقيمتها الأدبيّة والتاريخيّة، فارتأت الوقوف عندها واتّخاذها نموذجا لدراسة بكاء المدن الأندلسيّة بعد سقوطها، ودور الشّعر في التعبير عن هذه المأساة، ودوره أيضا في استنهاض الهمم.

بين يدي القصيدة:

كانت هذه القصيدة إحدى المراثي الضّائعة^(٤) التي لا يعرفها أحد حتّى تمكّن عمّد صوالح من نشرها لأوّل مرّة في المجلّة

ونظموا فيها المقطوعات والقصائد الكثيرة التي تجاوزت شهرة بعضها الزّمان والمكان الأندلسيين، فما ننفك نردد نونية أبي البقاء الرّندي كلما تحسّرنا على ملك زال ومدن سقطت سواء في القديم أو الحديث.

ومن بين القصائد التي نظمت في هذا السّياق قصيدة فريدة نظمها شاعر مجهول في رثاء مجموعة من المدن الأندلسيّة التي شهد ذلك الشّاعر - كما تبيّن من سياق هذه القصيدة - سقوطها وذاق مرارته، وعبر عن حال هذه المدن وكيف تبدّلت بها وبأهلها بعد السّقوط.

ومع أنّ موضوع رثاء المدن في الأدب الأندلسي حظي بعناية كثير من الباحثين إلاّ أنّه لا توجد دراسة مستقلّة عرضت لهذه القصيدة من النّاحية المضمونيّة والأسلوبيّة؛ حيث كان يرد الحديث عنها في سياق موضوع رثاء المدن بصورة عامّة مع غيرها من القصائد التي نظمت في هذا السّياق، نحو ما جاء في كتاب الأدب العربي في الأندلس^(١)، الذي أشار إليها ضمن موضوع الاستغاثّة، مستشهدا بصورة عامّة ببعض أجزائها فقط، وكذلك ورد الحديث عنها في كتاب الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه^(٢) في باب الشّعر يرثي الأندلس ويبيكيها، غير

ورجّح هيكل أن الشاعر قال هذه القصيدة بعد سقوط رندة مباشرة، وكانت وقفا عليها في البداية^(١١)، ولكن الهزائم توالى، وسقطت مدن أخرى وسقطت المرية نفسها، مسقط رأسه، ومنازل أبائه على حدّ تعبيره سقطت بعد رندة بأربع سنين وخمسة شهور ويبدو أنّ الشاعر فارقها إلى العاصمة غرناطة.. قالها في غرناطة بعد أن استقر فيها لاجئاً ولكن غرناطة ما لبثت أن لحقت ببقية المدن التي حولها، وبين سقوطها كلّها وسقوط المرية عامان فحسب، فعاد إلى قصيدته عن رندة يريد أن يكملها^(١٢) فبكى بقية المدن التي سقطت بعدها ورثاها في هذه القصيدة.

ولهذه القصيدة ما يميّزها عن غيرها من القصائد التي نظمت في هذا الموضوع؛ فهي تجمع بين رثاء الأندلس والاستغاثة بالمسلمين في شتى أقطار الأرض للعمل على استعادة الأندلس من أيدي مغتصبيها الذين غلبوا عليها، وكأنّ ذلك حلما ما يزال يرواد أهلها رغم ضياعها من أيديهم...، قد استوعبت معظم الاتجاهات والمعاني التي طرقها شعراء الأندلس في رثاء المدن والاستغاثة معا، هذا بالإضافة إلى نصاعة العبارة، ورصانة الأسلوب، وحرارة العاطفة، وروح الإيمان

الأفريقيّة ١٩١٤م^(٥). وجاء عبد الرحمن الحجى بعده ونشرها في مجلّة الرسالة في عددها ١٣١، السّنة الرّابعة، عام ١٩٣٦، وأشار الحجى إلى مكانة هذه القصيدة الأدبية، بقوله: "قصيدة بليغة من الأدب الأندلسي الرائع تصف أحسن وصف المأساة الأندلسيّة لم نعثر على قائلها"^(٦)، وذكر الحجى أنّه عرض هذه القصيدة على المؤرّخ المغربي السيّد محمّد بن علي الدكالي فذكر له "أنّ صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية، ولعلّه أبو جعفر بن خاتمة"^(٧)، ويستبعد هيكل أن يكون ابن خاتمة المذكور قائلها لأنّ هذا كان شاعرا مشهورا، ووصلنا ديوان شعره بخطّ يده، وعرض له عدّة من المؤرّخين في عصره، ولا تتفق روح القصيدة مع مزاجه، وقبل هذا كلّه فإنّ الرّجل توفي عام ٧٧٠هـ أي قبل سقوط المرية^(٨)، وحاول هيكل وغيره من الدّراسين معرفة صاحب هذه القصيدة غير أنّهم لم يهتدوا إليه^(٩).

وأما عصر الشّاعر ومدينته فيظهر من القصيدة ذاتها أنّه من المرية "ولكنه قالها قبل سقوطها بأعوام، قالها حين سقطت رندة وأثّاره أن يستولي النّصارى على هذا المعقل الحصين من معقل الإسلام"^(١٠)،

افتتح الشاعر قصيدته هذه بتصوير
حالة الدّھول وعدم تصديق ما حلّ برنّدة
من سقوط ودمار بدّل حال المدينة وأهلها
وقلب حياتهم فيها رأساً على عقب، حيث
استهلّها بالاستفهام الاستنكاري، الدّالّ
على هول الحدث من النّاحية النّفسيّة
والمادّيّة، حيث قال^(١٤):

أحقّاً خبا من جوّ رنّدة نورّها
وقد كُسفتُ من بعد الشّمس بدورّها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت
منازها ذات العلا وقصورّها

وقد كرّر الشاعر استفهامه الاستنكاري
(أحقّاً) في موضعين آخرين ليعرض من
خلاله علاوة على الدّھول وعدم التّصديق
صورة الهدم والخراب الذي حلّ برنّدة،
فيقول^(١٥):

أحقّاً خليلي أن رنّدة أقفرت
وأزعجَ عنها أهلها وعشيرها
وهدّت مبانيها وثلّت عروشها
ودارت على قطب التّفريق دورها
ووظّفه (الاستفهام الاستنكاري) ليصوّر
من خلاله مأساة النّاس وما حلّ بهم من قتل
وتشريد^(١٦):

القوي المتغلغل في نسيجها. وأهميتها ليست
في قيمتها الأدبية فحسب، بل هي أيضاً فيما
تضمّنته من الإشارات التاريخية لحوادث
المأساة الأندلسية، والتعبير عنها شعرياً في
صورة باكية مبكية^(١٣).

ولعلّ تميّز هذه القصيدة يكمن في
مضامينها التي تناوّلها الشّاعر وعبر عنها،
وفي بنائها الأسلوبي ودوره في تأكيد المعاني
والحالة النّفسيّة والشّعورية التي رسمها
الشّاعر للمدينة بعد دمارها وزوال محاسنها،
وانعكاس أثر ذلك الدّمار على النّاس
نفسياً ومادياً، ولكي نستجلي أهميّة هذه
القصيدة جاءت هذه الدّراسة، فعرضت لها
من جانبين: مضموني وأسلوب.

شكّل سقوط المدن الأندلسية بدءاً من
رنّدة وانتهاء بغرناطة المرتكز التّصوي الذي
بنى عليه الشّاعر مضامين هذه القصيدة،
التي يمكننا إجمالها في محاور رئيسة ثلاث
هي:

أولاً: تصوير صدى مأساة السّقوط وما ترتّب
عليه من ألم نفسي وهدم ودمار.
ثانياً: اللوم والتّقريع واستنهاض الهمم.
ثالثاً: الدّعاء إلى الله.

أولاً: تصوير صدى مأساة السّقوط وما ترتّب
عليه من ألم نفسي وهدم ودمار.

أحقًا أخلائي القضاء أبادكم
ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسّر لا يفادي وفرقة
لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها
لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم
سوى حرق سحم تلظى سعيها
وفي وقوف الشاعر على ما حلّ بمالقة
يصور لنا حالها بعد السقوط، فيقول^(١٧):
فمالقة الحسناء تكلّى أسيفة
قد استفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
ويعن الشاعر في التعبير عن صدى هذا
الدمار والشتات وما أحدثه فيهم من حزن
عميق وأسى واضح فيقول^(١٨):
ولوعة تُكلّ ليس يذهب روعها
ولا تنقضي أشجانها وزفيرها
ونفس على هذا المصاب حزينة
يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
وقلب صديق ماج فيه بلاؤه
سويداؤه سوداء جم ثبورها
ويقف الشاعر عند صورة الهدم التي
حلّت بمالقة وبلش، وكيف خيم عليهما
الأسف والتكل وأقفرتهما منها المغاني، ففي
مالقة يقول^(١٩):
فمالقة الحسناء تكلّى أسيفة
قد استفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغريّة الجنن التي
تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وفي هدم بلش ودمارها يقول^(٢٠):
وبلش قُطت رجلها يمينها
ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها
فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر
فقد خفّ ناديمها وجفّ نضيرها
وليعمّق الشاعر الإحساس بالأسى
والألم على ما حلّ بالمدينة بعد السقوط نجده
يقابل بين حالها من قبل ومن بعد، وما ترتّب
عليه من أسى غير خاف، فيقول^(٢١):
وسكرها قد بدّل اليوم علقماً
لها رجّة نار الهيام تثيرها
وعرّج على الإقليم فابك ربوعها
بسحب يضاهي المعصرات خيرها
وودّع بها وفد التّعيم فإنها
لها أدمع فئِن الدّموع يمرها

وفي غرناطة وما ألم بها يقول^(٢٢):

ألا ولتقف ركبُ الأسى بمعالم
قد ارتجّ باديها وضجّ حضورها
بدارِ العلا حيث الصفاتُ كأنها
من الخلدِ والمأوى غدت تستطيرها
محلُّ قرارِ الملكِ غرناطةُ التي
هي الحضرةُ العليا زهتها زهورها
فما في العراقين العتيقين مثلها
ولا في بلادِ الله طراً نظيرها
ترى الأسى أعلامها وهي خشعٌ
ومنبرها مستعبرٌ وسريرها

ولا يملك الشاعر إزاء هذه المشاعر
المؤلمة للهدم والدمار الذي حلّ بالمدن التي
وصفها إلا أن يفقد قدرته على التحمل معبرا
عنها بالبكاء والعيول، بكاء على ما حلّ برندة
من أهوال دمرتها وحرقت قلوب أهلها لما
حلّ بها وبهم، فيقول مصورا هذا^(٢٣):

سأبكي وما يجدي على الفائتِ البكى
بعبرة حزنٍ ليس يرقا عبرها
شأيبُ دمعٍ بالدماءِ مشوبةٌ
يساجلُ قطر الغادياتِ درورها
عويلًا يوافي المشرقين بريحه
وئكلاً بأقمار قد أطفئ نورها

لقد عبّرت القصيدة عن مشاعر الحزن
والألم الكبير الذي أصاب المدن التي وصف
الشاعر المجهول سقوطها-وخاصة رندة
ومالقة- لما حلّ بها بعد السقوط من دمار
وشتات وتحول كامل لم يترك شيئا إلا أتى
عليه، وقد وقف الشاعر عند صور هذا
التحول فبكاه بكاء مريرا، صور من خلاله ما
حلّ بأهل المدينة من تحول وتبدل طال-كما
أسلفنا- جوانبها كافة ووقف عند أثر هذا
التحول المادي والمعنوي، فبكى مثلا: التحول
الدّيني، وتبدل حال الرجال وزوال قوتهم،
وصور حال الضّعفاء من: نساء جميلات،
وأمهات، وكبار في السن، وما ألم بهم من ذلّ
وهوان بعد سقوط المدن وتحولها إلى الأعداء
الكفار الطغاة.

أما صورة التحول الدّيني فقد وقف
شعراء رثاء المدن عموما عند هذا الجانب
وصوّروه بدقّة؛ لما له من آثار سلبية على
حياة الناس من جوانبها كافة؛ فعندما تكون
مصيبة الناس في دينهم لن يقف الأمر-
على عظمه- عند الدّين فحسب وإنما
سيمتدّ أثره إلى نفوسهم وأعراضهم وأمنهم
واستقرارهم، كيف لا وقد تحكّم فيهم من
لا يرحمهم، وقد انقلب الحقّ إلى باطل،
وهذا ما وقفت عنده هذه القصيدة وعبّرت

وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وأسفا من صوامع أوحشت
وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم من لسان كان فيها مرثل
وحفل بختم الذكر تمضي شهرها
ويعظم مصاب الناس في دينهم؛ لا
لأنه سيطر الكفار على بلادهم فحسب؛
وإنما لأن الدين قد تبدل؛ وأخذ الصغار
يتحولون عن دينهم على أيدي الطغاة،
حتى غدا الإسلام غريبا، فعن الألم الذي ألم
بالناس يتحدث الشاعر قائلا^(٢٧):
وكم من صغير بدّل الدّهر دينه
وهل يتبع الشّيطان إلا صغيرها
...ويا غربة الإسلام بينَ خلاها
ويا عشرة^(٢٨) أتى يقال عثورها
ويبدو عمق الأسى والحزن بسبب
التحول الديني الذي ألم برنّدة بعد سقوطها في
سياق تصوير الشاعر لملاحم الحزن والفجعة
التي خيّم عليها لما حلّ بها من تبدل في
أحوالها كافّة، ألبسها ثوب الحداد، وأذاب
رواسيها الشّاخنة وغيّض بحورها، ويتجلّى
هذا في قوله^(٢٩):

عن مرارته في غير موضع منها، ففي رثاء
الشاعر لرنّدة أشار إلى أثر التحوّل الديني
وكيف تفرّق شمل المؤمنين، فقال^(٢٤):
وفرّق شمل المؤمنين لهيها
وقطّع من أرحامهم زمهريرها
تسلّمها حزب الصّليب وقادها
وكانت شروداً لا يُقاد نفورها
ويصور الشاعر التحوّل الذي أصاب
الإسلام وكيف باد بها وحلّ مكانه الكفر
بآلاته ومظاهره فيقول^(٢٥):
فباد بها الإسلام حتى تقطعت
مناسبتها واستأصل الحقّ زورها
وأصبحت الصّلبان قد عبدت بها
تماثيلها دون الإله وصورها
لقرع التّواقيس اعتلى بمنارها
كرائه أصوات يروع صريرها
ولم يكن أمر هذا التحوّل هيئا، ولم تكن
عندهم قدرة على احتماله؛ إذ نجد الشاعر
يعبر بأسى ومرارة وحسرة على تبدل حال
المساجد وخلوها من معالم الإسلام التي كانت
تعمرها، حتى أنطقت من هولها الجمادات،
ويتجلّى هذا في قوله^(٢٦):
فوا حسرتا كم من مساجد حوّلت

التفسي والمادّي لهذا التحوّل، الذي أبكى
البشر وأنطق الجمادات من هوله وصعوبة
تحملّه، ولم ينته تعبير الشاعر في هذه القصيدة
فيما يخصّ البعد الديني عند تصوير مأساة
التحول الديني ووصف عمق الإحساس
بمأساتها فحسب، وإنّما اتخذ من تصوير هذا
الواقع المؤلم وسيلة من وسائل استنفار الهمم
وشحذها للتصدي والمقاومة، كما ظهر هذا
البعد أيضا في جانب اللوم والتقريع، وسنشير
إلى هذا في معرض دراسة هذه المحاور.

وأما صور التحوّل الأخرى التي أبكت
الشاعر وآلته بعد سقوط المدينة فتمثّلت
بتبدّل حال المدينة وأهلها وسلبهم كل ما
كانوا ينعمون به من قوّة ومنعة واستقرار
وأمن، حيث حوّل السقوط عزّهم إلى ذلّ
وهوان، وقوتهم إلى ضعف، وحرّيتهم إلى
أسر، ممّا جعل هذا التبدّل - علاوة التبدّل
الديني الذي كان صعبا غير متقبّل - ألما على
ألم وحسرة على حسرة عبّر عنها الشاعر
وصورها، فنجدّه يرسم لنا صورة رجالها
الشجعان قبل السقوط وكيف صاروا بعد
سقوط المدينة، وكأننا به يتأسّى على حال
عزيز ذلّ وهان، فيقول^(٣١):

وكم من فتى ثبت الجنان مهذب
يودّ المنايا وهو كان يديرها

وقد لبست ثوب الحداد ومزّقت
ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدي الأسى وجمادها
يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلو أنّ ذا إلف من اليبين هالك
لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقة الدّين الذي جاءها به
بشير الأنام المصطفى ونذيرها

ويظهر تركيز الشاعر على تصوير أثر
السقوط في الدّين وتبدّل أحوال المسلمين،
بعد سقوط المرية، ويشير إلى أنّها كانت
حربا هدفها الدين واستئصال وجوده غاية
من غاياتها المدمّرة لكل شيء، فيقول^(٣٢):

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا
جيوش كموج البحر هبّت دبورها
علامات أخذ ما لنا قبل بها
جنايات أخذ قد جناها مثيرها

لقد تجلّى تركيز الشاعر في هذه القصيدة
على التحوّل الديني بصورة واضحة؛ حيث
وصف عمق الإحساس بمأساتها في وقوفه
على سقوط رندة في مطلعها، وفي حديثه عن
المرية وما ألم بها بعد السقوط، فصور الأثر

وكيف كُشف عنها سترها وتحولت بها
الحال ذليلة أسيرة باكية مستغيثة، مقابلا
أيضا في هذا السياق بين حالها قبل أن تقع
أسيرة وبين ما كانت عليه من جمال وعزة
قبل أن تقع بأيدي الكفار، فيقول^(٣٤):
وكم طفلة حسناء فيها مصونة
إذا سمرت يُسي العقول سفورها
ثميل كغصن البان مالت به الصبا
وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة
وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لطمت وأحرّ قلبي خدودها
وقد أسبلت وادمع عيني شعورها
وإن تستغث بالله والدين لا تُعث
وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وقد حيل ما بين الشفيق^(٣٥) وبينها
وأسلمها أبأؤها وعشيرها
يا له من مشهد قاس حينما يعجز
الرجال عن إغاثة نسائهم، ويرون بأم أعينهم
سيطرة الكفار عليهن وهم لا حول لهم ولا
قوة!!!
وفي تصويره لما حلّ بغرناطة يقف عند
حالة الهلع التي أصابت نساءها هول ما حلّ
بهم فيقول^(٣٦):

يصول على الأبطال صولة ضيغم
فيرهبه شبل الشرى وهصورها
له في سبيل الله خير نقيبة
تزان له عين الجنان وحورها
له في جناب الكفر أجدى نكاية
وشعواء غارات يثاب مغيرها
يراع لها دين الصليب وحزبه
ويجزى^(٣٢) بها غنصاها ورُميرها
وكم أنفس كانت لديه أسيرة
فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
تحكم فيه الشرك وهو موحد
كما قضى جبارها ونذيرها
وعلاوة على صورة الأقوياء الذين
تبدلت قوتهم وتحولت، يعرض الشاعر صورا
أخرى من صور الضعف والهوان التي طالت
من هم ضعفاء بطيعتهم لا يقوون على
القتال ومواجهة الطغاة وأذاهم، كالفتيات
والأمهات وكبار السن من الرجال والنساء،
فكلهم ضعيف يحتمي بغيره، ولا يقوى على
التصدي والمواجهة ولا يملك إلا التسليم.
فمن الصور المؤلمة التي استوقفت
الشاعر من هذه الفئة (الضعفاء) وكثيرا من
رثاء المدن بعد السقوط^(٣٣)، صورة يطير لها
العقل والقلب ولا يمكن تقبلها ألبتة،
أولهما: صورة المرأة الحرة بأيدي الطغاة

وقد دُعِرت تلك البنيات حولها

فهنّ بواكي الأعين الرّمَد مُورُها

وثاني هذه الصّور الموجعة للضعفاء
صورة كبار السنّ الذين هم ضعفاء من غير
حرب وسقوط لمدهم، فكيف بهم إذا ما
انقلبت الحال بهم، وسيطر الأعداء عليهم
وتفرّق شملهم وأضحوا بلا سند ولا معين،
أذلاء ضاع وقارهم، وجوعى وعطشى يندى
الجبين لحاهم؟! وهذا ما ألمّ الشّاعر وعبر عنه
بتصوير مآلهم بعد سقوط المدينة، فقال^(٣٧):

وكم من عجوزٍ يحرم الماءَ ظمؤُها

على الدّلّ يطوي لبئُها ومسيرُها

وشيوخٍ على الإسلامِ شابتْ شيوُبُه

يمزّق من بعد الوقارِ قنيرُها

وكم فيهم من مهجّة ذات ضجّة

تودّ لو انظمت عليها قبورُها

لها روعة من وقعة البينِ دائم

أساها وعين لا يكفّ هديرُها

ومن الصّور المؤلمة التي وصف الشّاعر

فيها تبدّل حال الضّعفاء من الناس وما ألمّ

بهم من ألم وأسى إزاء تفرّق شملهم صورة

فراق الأم عن ولدها، وأيّ مشهد أصعب

على النّفس من أن تسلب الأم ولدها ويحال

بينهما، وهذا ما عرضه الشّاعر حين قال^(٣٨):

وكم من صغيرٍ حيز من حجرٍ أمّه

فأكبادها حرّاء لفحّ هجيرُها

لقد صوّر الشّاعر المجهول في محور

قصيدته الأوّل مأساة سقوط عدد من المدن

الأندلسية ووقوعها بأيدي الأعداء وهي كما

أسلفنا: رندة، وعليها كان جلّ تركيزه؛ إذ

شغلت الحيز الأكبر من هذه القصيدة، حيث

بلغت الأبيات التي خصّها بها نحو ٦٤ بيتاً،

أفرغ فيها طاقته النفسيّة في التعبير عن الألم

والأسى، وعرض في هذا الجانب لأثر

سقوطها من الناحية الماديّة والمعنويّة بصورة

مفصّلة وبإحساس واضح بالألم والذهشة

وعدم تصديق ما حلّ بها، ولعلّ مرّة هذا أنّه

كان فيها وقت سقوطها، وشاهد ما حلّ بها

من دمار، ولربّما كان هذا لأن رندة كانت

أولى المدن التي وصفها سقوطاً، لذا كان

حضورها الأبرز في القصيدة، قياساً بالمدن

الأخرى التي ذكرها: مالقة وما حولها،

وغرناطة وما حولها، والمرية، حيث جاء

تعبيره عن سقوطها وأثره في تبدّل حالها

وأهلها مختصراً في بعض جوانبه، كما جاءت

عاطفة الحزن والأسى والإحساس الواضح

بالألم في وصفه لرندة أكثر وضوحاً منها في

تصويره لما حلّ بالمدن الأخرى، ولكنّه مع

هذا استطاع أن يقدّم لنا صورة واضحة لمأساة

سقوط المدن الأندلسية، ومرارة تبدل الحال التي عانته الناحية المادية التي تمثلت بالهدم والانهيار، وتبدل أحوال الناس، وقد تمثل هذا التحول بأمور عدة منها: التحول الديني وسيطرة الكفر عليهم، وتحول القوة إلى ضعف، وتبدل حال الضعفاء من الرجال والنساء والأمهات، وما حلّ بهم من شتات وذل وهوان. كما استطاع أيضا تصوير ما حلّ بالمدن وأهلها بعد السقوط من الناحية المعنوية؛ إذ صور أثر هذه المأساة من الناحية النفسية وكيف خيم الحزن والأسى على كل شيء فيها سواء من البشر أو الجمادات التي أنطقها هول السقوط وما جرّه من ويلات لا طاقة لهم بها.

ثانياً: اللوم والتقريع واستنهاض الهمم.

يشكل اللوم والتقريع محورا من المحاور التي وقف عندها غير شاعر ممن رثوا المدن بعد سقوطها^(٣٩)، ولعلّ هذا أمر طبيعي جدّا ومتوقع، فسقوط المدن وسيطرة الأعداء عليها أمر ليس من السهولة بمكان تقبله، ولا بدّ من النظر في أسبابه والوقوف عليها، وبالتالي لوم من أودى بها إلى هذا، وهذا ما فعله الشاعر في هذه القصيدة، حيث شرع بعد تصوير مأساة سقوط المدينة وما حلّ بها من دمار وتبدل في الحال،

أحزن وأبكى، شرع باللوم والتقريع ووضع يده على أسباب السقوط، محمّلا أهلها جميعا مسؤولية السقوط، وموجّها الخطاب لهم جميعا وهو منهم بضمير الجماعة المتصل (النا)، فلا نجد بهذا يبرئ أحدا ممّا حلّ بمدينتهم، وأول أسباب الضياع التي ذكرها مقرأ ولائما هو التقصير في حق الله، وتضييع الأمانة، حتّى كان ما حلّ بمدنهم من سقوط عقابا على هذا التهاون في جنب الله، وفي هذا يقول^(٤٠):

أضعنا حقوق الربّ حتّى أضاعنا
وقضت^(٤١) عرى الإسلام إلا يسيرها
وملئنا لم نعرف الدهر عرفها
من التكرّر فانظر كيف كان نكيرها
ويشير صراحة أن ما نالهم كان بما كسبت أيديهم، فيقول^(٤٢):

بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا
كذا السيرة السوأي لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا
وبؤنا^(٤٣) بأحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا
وعاثت بنا أسدّ العدا وغورها
ويشير إلى تقصيرهم الواضح تجاه بلدانهم حتّى كانت فينا^(٤٤) أخذت منهم

بلا قتال ولا مقاومة، وكأنه يسخر من
تهاونهم وضعفهم، فيقول^(٤٥):

نعم سَلَبُونَا أوطاننا ونفوسنا

وأموالنا فينا أبيحت وفورها

علوها بلا مهر^(٤٦) وما غَمَزَتْ لهم

قناةً ولا غارت^(٤٧) عليهم ذكورها

وقد عوت الإفرنجُ من كلِّ شاهقٍ

علينا فوقت للصليب ندورها

وقد كثرت ذؤابئها وكلابها

وقد كسرت عقباؤها ونسورها

وبعد أن شخّص الشاعر أسباب

السقوط ولام أهلها وقرعهم على تقصيرهم،

فبيّن أن تقصيرهم وتهاونهم الديني كان من

أظهر أسباب الهزيمة والسقوط أخذ يستنهض

هممهم ويحفزهم ليهبوا لاسترجاع ما ضاع

منهم، فنجد هنا يجعل من أسباب السقوط

وما ترتّب عليه من تحوّل في الجانب الديني

وسيلة لاستنهاض الهمم، فكأنه يقول داوها

بالي كانت هي الداء، فنجده يستنهض

مشاعرهم الدينية ويستفزّها، ليتحرّكوا نصرّة

للدين الذي قصّروا في حقه وتهاونوا في

حمايته، فيقول^(٤٨):

معاشرَ أهلِ الدِّينِ هَبُوا لصعقةٍ

وصاعقةٍ وارى^(٤٩) الجسومَ ظهورها

أصابت منارَ الدِّينِ فانهدّ ركنه

وزعزعَ من أكنافه مستطيرها

لقد مضى الشاعر في توظيف البعد

الديني في سياق استنهاض الهمم واستنفار

الناس لمقاومة الأعداء على نهج غيره من

شعراء رثاء المدن؛ ليشيروا همم المسلمين،

ويزيدهم ذلك حقدا على عدوهم، ويدفعهم

إلى الجهاد لإعادة المدينة^(٥٠)، ونجد الشاعر

في هذا السياق أيضا (استنهاض الهمم) يتبع

نهجا آخر سار عليه الشعراء في باب استنهاض

الهمم؛ إذصوّر الشعراء التدمير والتخريب

الذي ألحقه الأعداء بالحواضر الإسلامية في

الأندلس، وغالبا ما كان ذلك في مواقف

الاستنجد والرثاء، لعلهم يشيرون بذلك

الهمم، ويحرّكون العزائم، ويلهبون المشاعر^(٥١)،

وها هو ذا الشاعر المجهول يصوّر فظاعة

أفعال الأعداء بالناس وما أذاقوهم من

مرارة، فيقول^(٥٢):

أدارت على غريبة الدار أكوساً

فضاعا بسكر الدهر تقضي خمورها

ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن

وعضّ بأكباد الثقة عقورها

وبعد هذه المعاني من تقييع ولوم

على التقصير في الدود عن المدن وحمايتها،

واستنهاض الهمم بتحريك العاطفة الدينية

عادي، وإنما لا بدّ من أن يكون بمواصفات
خاصّة، فهو قويّ شجاع كالأسد يصول ولا
يهاب، صادق مؤمن جهاده لله، يروم به
رضاه، وهذا ما صوّره الشاعر بقوله^(٥٥):

ألا واستعدّوا للجهاد عزائماً
يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق
يدع الأعداء سبقتها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنّها إلى
الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عرائساً
على الله في ذاك التّعيم مهورها
ويرسم الشّاعر لهذا الفارس المأمول بعد
أن استنهض همّته صورة في ميدان القتال
تبرز قوته وسيطرته على ساحة الوغى^(٥٦)،
فيقول:

وضرب كأنّ الهام تحت ظلالها
حثة نور الورد ذرّ ذرورها
وطعن يرى الخطي في مهبّ العدا
كأقلام ذات الخط خطّ سطورها
ويواصل الشّاعر تدرّجه المنطقي في
استنهاض الهمم، فيصوّر لنا النتيجة، ففي
حال استنهضت الهمم وهبت لنصرة الحق
واستعادة البلاد وردّها لحياض الإسلام،

يجأ الشّاعر مستغيثاً ومستنفراً لهمم العرب
والعجم، قائلاً^(٥٣):

أنادي لها عجم الرجال وعربها
نداء سراة القفر إذ ضلّ غيرها
وأستنفر الأدنى فالأدنى فريضة
على زمر الإسلام جلّت أجورها
على كلّ محتاج لفضل دفاعها
فليس يؤدّي الفرض إلا نفيرها
ولا يخبو النفس الدّيني في استنهاض
الهمم واستشارتها؛ إذ يلحّ الشّاعر على هذا
الجانب بصورة لافتة، ويجعل الرجوع إلى
الله - تعالى - هو الطّريق للخلاص كما
جعل الحياء عنه من قبل سببا من أسباب
الضياع، فيقول^(٥٤):

ألا وارجعوا يا آل دين محمد
إلى الله يغفر ما اجترحتم غفورها
أنبيوا وتوبوا واصبروا وتصدّقوا
وردوا ظلمات يبيد نفيرها
ومن كلّ ما يردي النفوس تطهروا
فليس يزكي النفس إلا طهورها
ونجد الشّاعر قد تدرّج في استنهاضه
للهمم ليصل إلى تحديد مواصفات القائد الذي
توكل إليه مهمة التهوض والتّصدّي للأعداء،
فالمهمّة ليست بسيطة ولا يقوم بها شخص

فستكون النتيجة التصر والظفر ونيل رضى
الله بوقوفه معكم وعونكم^(٥٧):

يمين هدى إن تتقوا الله تُنصروا
وتُحفظوا بآمال يشوق غريزها
فلا يخذل الرب المهيم أمة
تدين بدين الحق وهو نصيرها
ويشير الشاعر إلى نتيجة عدم الاكتراث
بما حلّ، وبقاء الهمم خائرة، مبيّنا العاقبة
الوخيمة لهذا، فالدّل والهوان واستباحة
الأعراض وفرقة الشمل ضريبة هذا^(٥٨):

وإن أنتم لم تفعلوا فترقبوا
بوادٍ سُخطٍ ليس يرجى فتورها
وأيام ذلّ واهتضام وفرقة
يطاول أناء الزمان قصيرها
وأهدوا لدين الشرك كلّ خريدة
خبثها على طول الليالي خدورها
وكلّ نفوسٍ من نفوسٍ كريمة
وأعلاق أموالٍ خطيرٍ خطيرها
لقد حاول الشاعر في استنهاضه للهمم
أن يوظف كلّ ما بوسعه أن يؤثّر فيهم؛
ويستنفر همهم ويستفزّها، فبدأ باللوم
والتقريع على تقصيرهم وتهاونهم في جنب
الله؛ الذي كان من أسباب سقوط المدن

وزوالها، فبيّن في هذا السياق أسباب السقوط
والهزيمة، ثم أخذ يستنهض الهمم ويدعوهم
صراحة للتصدي للأعداء ومواجهتهم،
راسما لهم ملامح القائد المؤهل للقيام بهذه
المهمة الصعبة، مشيرا بعدها إلى العاقبة، فهم
إن نصروا الله انتصروا، إن ضعفوا وقصروا،
ذلّوا وهان أمرهم، وأصبحوا نهبا مستباحا،
وهذا أمر لا عيش بعده ولا سرور.

الدعاء إلى الله:

عبّر الشاعر في خاتمة هذه القصيدة عن
حالة الضعف التي يعيشها الناس إزاء تبدّل
الحال وكيف قلب حلّ حياتهم مرارة وأسى،
ضاقوا بها ذرعا^(٥٩)، فقال مصورا هذا:
وحقّ العظيم الشأن لا عيش
بعدها بلايا يمرّ الطيّبات مروّرها
فلعلّه لم يجد أمامه إزاء هذا الألم والأسى
ملجأ وملاذ غير الله - تعالى - يلوذ به ويمدّ
أكفّ الضراعة إليه؛ فكأنه وجد أن استغاثته
بغير الله لا جدوى منها، وأنها كالأستغاثات
الكثيرة التي تقدّمتها لن تلقى من ملوك
المسلمين سميعا أو مجيبا، ولهذا عدل عنها إلى
الاستغاثة بالله^(٦٠) فرفع يده إليه - جلّ وعلا -
مصورا حالة الخوف والدّعر التي يعيشونها،
طالباً منه إقالتهم منها^(٦١):
فنرفعُ شكواها لعالم سرّها

العدا وأولُ رسلِ الله فضلاً أخيرُها	فليس لها في الخبر إلا خيرُها
محمّد المختارُ من آلِ هاشمٍ	نمداً أكفّ الدّلّ في باب عزّه
سراج السّمواتِ العلى ومنيرُها	بأفئدة خوف الفراق يطيرُها
وبعد الاستعانة بالله - جلّ وعلا -	فإن لم يُقل ربّ العبادِ عثارنا
يقدم الشاعر حاجته، راجياً منه - تعالى -	فهذا العدو الضّخم حتماً يبيرُها
ومتأملاً أن ينجيهم ويدرك دماءهم برحمة	ويتوسّل الشاعر باستغاثته بالله ولجوئه
منه وعفو ولفظ يجبر كسرهم ويقيهم من	إليه بتصوير ما حلّ بهم بعد السّقوط وما حلّ
عثارهم ^(٦٤) :	بالمسلمين من أسى وتبدّل في حالهم بعد
دعوناك أملناك جئناك خشعاً	سيطرة الكفّار عليهم، فيقول ^(٦٢) :
بأنفس استولى عليها قصورها	إله الورى ندعوك يا خير مُرتجى
بجاه ^(٦٥) العظيم الجاه أدرك ذمّاءنا	لكالحة هزّ الصليب سرورها
برحمى يحلّي المؤمنين شذورها	وشقّت جيوب المؤمنين وأسخت
وعفو وتأييد ونصر مؤزّر	عيونهم والكفر ظلّ قريرها
وعزة سلطان يروق طيرها	وليس لها يا كاشف الكرب ملجأ
ولطف وتسديد وجبر لما مضى	إذا لم يكن منك التلاقي ظهيرها
يُدالّ به من كلّ عاد كسيرها	أغث دعوات المستغيثين أنّهم
ولا يترك الأعداء وشأنهم وإنما يستغيث	ببابك موقوفو الحشاشات بورها
الله - تعالى - ويدعو عليهم بالرزايا والدمار	ويتوسّل الشاعر بالرسول - عليه الصّلاة
والشتات ^(٦٦) :	والسلام - في دعائه، علّه يكون شفيها لهم
وأرسل على هذا العدو رزية	عند الله - تعالى - ليستجيب به دعاءهم
يروح ويغدو بالبوار مبيرها	وضراعتهم ^(٦٣) :
يشتّ شمل الكفر تشتت نعمة	وليس لهم إلا الرسول وسيلة
وينظم شمل المؤمنين حصيرها	شفيح الورى يوم التنادي بشيرها
	إمام الهدى بحر التدى قامع

البنية الدلالية والإيقاعية في النص؛ وهذا ما
نجد في هذه القصيدة؛ فالدارس لهذا النص
الشعري ينجذب لإيقاعيته الخزينة التي
ظهرت منذ مطلع القصيدة؛ ففي الافتتاحية
نجد الشاعر مجهول الهوية يصدر نصه
الشعري بتصوير حالة الدهول وعدم
تصديق ما حلّ برندة من سقوط ودمار بدل
حال المدينة وأهلها وقلب حياتهم فيها رأساً
على عقب، حيث استهلها بالاستفهام
الاستنكاري، الدال على هول الحدث من
الناحية النفسية والمادية، حيث قال^(٦٨):

أحقاً خبا من جو رندة نورها وقد
كُست من بعد الشمس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت
منازها ذات العلا وقصورها

وقد كرّر الشاعر استفهامه الاستنكاري
(أحقاً) في موضعين آخرين ليعرض من
خلاله علاوة على الدهول وعدم التصديق
صورة الهدم والخراب الذي حلّ برندة،
فيقول^(٦٩):

أحقاً خليلي أن رندة أقفرت
وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلّت عروشها
ودارت على قطب التفريق دورها

ويختتم الشاعر قصيدته ودعائه بالصلاة
على النبي - عليه السلام - تبرّكا وطمعاً في
استجابة دعائه، فيقول^(٦٧):
وصل على خير البرية أحمد
وأكرم من قد أنجبت ظهورها
وأصحابه الشهب الهداة وآله
صلاة مع الأناء يزكو عبرها
البناء الأسلوبى:

يكشف الأسلوب عن مقدرة الشاعر
على استغلال مكنونات اللغة ضمن آليات
وقواعد يسمح بها البناء اللغوي؛ ليكشف
من خلال هذه العلاقات عن جماليات
المكنون الشعري، ويمكننا الوقوف عند
جماليات الأسلوب الشعري في هذه
القصيدة من حيث إبراز العناصر الجمالية
في المستويات الآتية:

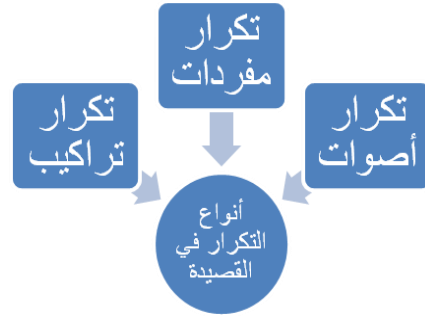
أولاً: المستوى الصوتي:

يشكل المستوى الصوتي مدخلاً
لجذب المتلقي للنص لما يُحدثه من إيقاع
داخلي يبعث الحياة في النص، والإيقاع
خاصية جوهرية في الشعر، ولعل التكرار
من الملامح الإيقاعية التي تجسدت صوتياً في
بنية هذه القصيدة. والتكرار مصطلح
بلاغى شغل النقاد والدارسين القدماء
والحديثين؛ فهو من أكثر التقنيات تأثيراً في

استغلال خصائص الأصوات لخدمة الغرض
التعبيري الذي يسعون إلى تحقيقه؛ إذ إن اللغة
الشعرية تصبح أكثر ثراء وتمييزاً وظهوراً جرّاء
قوة الصلة بين الجانبين الصوتي والدلالي^(٧١).
ولعل الأصوات الصّغرية توحى بمعاني
السقوط لما فيها من بوح احتكاكي تمتدّ فيه
الأصوات لتعبّر عمّا يحول في النفس من ألم
يعبر عن صدى هذا الدمار والشّتات وما
أحدثه فيهم من حزن عميق وأسى واضح
فيقول^(٧٢):

ولوعة تُكلّ ليس يذهب روعها
ولا تنقضي أشجانها وزفيرها
ونفسٌ على هذا المصاب حزينّة
يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
وقلبٌ صديقٌ ماج فيه بلاؤه
سويداؤه سوداء جمٌّ ثبورها
وقد تمثّل صوتا السين والصاد في النصّ
بقيمة تكرارية واحدة، فتكررا أربع مرات
لتصبح دلالة اللوعة أكثر وضوحاً، ويصبح
القلب الصديق بحاجة للتّصبر، ولن نجد هذا
التّصبر إلا في البوح والبكائيات؛ فاختيار
الصّوت جزء من تشكيل المفردة التي تحمل
دلالة تخدم النصّ؛ فهو حين أراد التّعبير عن
الفراق والبعد؛ أمامه حيّز كبير من الحقول
الدلالية إلا أنه أثر اختيار مفردات فيها

وقد نجد أن بواعث التكرار في صيغة
الاستفهام تعكس مدى الصدمة النفسية
التي يعيشها الشاعر، وكأنه لا يصدّق هذا
الواقع المفروض في أرض تشهد الهدم
والانهيار والسقوط؛ ولعل الذي يتتبع
التكرار يجده متمثلاً في هذا النصّ الشعري
بثلاث صور؛ يمكننا أن نجملها في المخطط
الآتي:



تكرار الأصوات:

ينتظم الحرف في المفردة فيصبح الصّوت
جزءاً من بناء الكلمة ويحقق دلالتها الإيقاعية
والنفسية؛ والشاعر المبدع هو الذي يستثمر
القيم الجمالية والدلالية للحرف؛ "عن طريق
صياغة الكلمات مستغلاً الخواص الحسية
لأصواتها وجرسها، وهو في هذا لا يقوم
بعمل سهل، وإنما يقدم شيئاً من روحه،
وإحساسه ومشاعره، ولا تتوفر هذه القدرة إلا
للشاعر الأصيل الذي وهب الخيال، والحس
والذوق^(٧٣)، فارتباط الصوت بتحقيق الدلالة
أتاح للشعراء فرصة إظهار شعريتهم في

لحرف الهاء رويًا لقصيدته يعد اختيارًا مميزًا، ولم يكتف هذا الصوت في الحضور في القافية، بل نجده يحضر في مواضع عدة من البيت الشعري، ولعل الشاعر استغل مساحة البيت والقصيدة لجعل الصوت جزءًا من بناء الكلمة التي تعبّر عن الدلالة؛ ذلك أنّ الهاء صوت رخو مهموس، عند النطق به يظل المزمار منبسطة دون أن يتحرك الوتران الصوتيان، ولكن اندفاع الهواء يحدث نوعًا من الخفيف يسمع في أقصى الحلق أو داخل المزمار^(٧٥). ولعل تناثر حرف الهاء في حشو الأبيات سواء أكان جزءًا من الكلمات أم ضمائر متصلة تعود على غائب؛ له بعده الإيقاعي والتفسي، ولا شك أن حضور الهاء بصفاتها ضميرًا هو الأكثر تمثلاً في جسد القصيدة، وفيما يلي جدول تفصيلي يكشف عن كثافة الحضور الصوتي للهاء؛ بكلّ تجلياته سواء أكان جزءاً من بنية الكلمة أم هاء ضمير.

أصوات متناغمة في بنيتها الإيقاعية والدلالية؛ ممّا جعل للمعنى وقعا على الأذن والفكر معاً؛ ومثال ذلك قوله^(٧٣):

لَعَمْرُ الهدي ما بالحشا لفراقكم
سوى حُرْق سَحْم تلظى سعيها
وقوله^(٧٤):

وأصبحت الصّلبان قد عبّدت
بها تماثيلها دون الإله صورها

صوت السين	صوت الصاد	صوت الحاء في البيت الأول
• سوى	• أصبحت	• حشى
• سحم	• صلبان	• حرق
• سعي	• صور	• سحم

وكان البكائية متناغمة في عدد إيقاعاتها وتكرار الأصوات فيها، والدّارس لهذا النص لا بدّ أن يتوقف عند المساحة الصوتية المتجسّدة في "صوت الهاء" هذا الصوت الذي تكرر في جميع أبيات القصيدة، فتارة نجده صوتاً قائماً بذاته يجسّد البنية الدلالية لمعنى الكلمة، وأخرى نجده ضميراً يعود على مذكور سابق، إضافة إلى كثافة الحضور الصوتي في القافية، فاختيار الشاعر

رقم البيت	الضمير 'هاء' يعود على المؤنث الغائب	الهاء صوت يشكّل جزءاً من بناء الكلمة	الضمير/هم: ضمير للجمع الغائب	الهاء ضمير يعود على المذكر الغائب
١	نورها، بدورها			
٢	أرجاؤها، منازلها، قصورها			

٣	أهلها، عنها، عشيرها	أهلها	
٤	عروشها، دورها	هذت	
٥	مطارها، صورها		
٦	حصونها، أنظارها، نظيرها	هوت	
٧	نظمها، نثيرها		
٨	لهيها، زمهريرها	لهيها	أرحامهم
٩	تسلمها، قادها، نفورها		
١٠	أديانها، نفوسها، دثورها	ذهبت	
١١	بها، مناسبتها، زورها		
١٢	بها، (تمثيلها، صورها)	الإله	
١٣	بمنارها، (صيرها)/	كرائه	
١٤	(نميرها)		عهدكم
١٥	(دهورها)		
١٦	(سفيرها)		
١٧	(سعيرها)	الهدى	
١٨	(روعها، أشجانها، زفيرها)الفقد	يذهب	
١٩	(صبورها)الماساة	هذا	
٢٠	(ثبورها)		فيه، بلاؤه، سويداؤه
٢١	(عبورها)		
٢٢	(دورها)		
٢٣	(نورها)		بريحه
٢٤	شطورها		
٢٥	يزورها		
٢٦	فمرابها، لمنبرها، آياتها، سورها		
٢٧	فيها، شهورها		
٢٨	(يديرها)	مهذب، هو	
٢٩	(هصورها)	فيرهه	
٣٠	(لها، حورها)		له
٣١	(مغيرها)		له
٣٢	(بها، غصائلها، رميرها)		حزبه
٣٣	(أسيرها،)	الله، هو	لديه
٣٤	جبارها، نذيرها	هو	فيه

٣٥	فيها، سفورها		
٣٦	زاتها، ديباجها، حريرها	به	
٣٧	منها، ستورها	رهينة، هتكت	
٣٨	خدودها، شعورها		
٣٩	يجيرها	بالله	
٤٠	بينها، أسلمها، آباؤها، عشيرها		
٤١	ظمؤها، لبثها، مسيرها		
٤٢	قتيرها	شيوه	
٤٣	عليها، قبورها	، مهجة	فيهم
٤٤	لها، أساها، هديرها		
٤٥	فأكبادها، هجيرها	أمه	
٤٦	صغيرها	الدهر، هل	دينه
٤٧	كفورها	هذه	له
٤٨	لها، شرورها		عواقبه
٤٩	بعدها، رآها، بصيرها		
٥٠	خلالها، عثورها		
٥١	حورها		
٥٢	كثيرها	الأهل	دونه، فيه
٥٣	موتها، نشورها		
٥٤	لأرجائها، صدورها	هل	
٥٥	معالمها، عقيرها	هل	
٥٦	لديها، فقيرها		
٥٧	لها، لديها، محوها، دثورها		
٥٨	منازلها، بطاحها، مدائننها، ثغورها		
٥٩	تهائمها، نخودها، أحجارها، صخورها		
٦٠	حبورها	يزهو	
٦١	فأحيائها، جمادها، ضميرها		
٦٢	رواسيها، مجورها	هالك	
٦٣	جاءها، نذيرها	به	
٦٤	حجورها		
٦٥	نواصيها، يمينها، سرورها		
٦٦	تقيها، سورها		

٦٧	رجلها، يمينها، قطورها		
٦٨	حجرها، مغناها، حجورها		
٦٩	ناديها، نصيرها	بالله	
٧٠	سكرها، لها، تثيرها	الهيام	
٧١	ربوعها، خيرها	يضاهي	
٧٢	بها، فإنها، لها، يميها		
٧٣	باديها، حضورها		
٧٤	كأنها، تستطيرها		
٧٥	زهتها، زهورها	هي	
٧٦	مثلها، نظيرها		
٧٧	أعلامها، منبرها، سريرها	هي	
٧٨	مأمومها، إمامها، زائرها/ مزورها	ساهي	
٧٩	لها، فؤادها، لها/ تبورها		
٨٠	فأنفسها، طورها	الله	
٨١	حولها، مورها	فهن	
٨٢	فيقاعها، ثغورها		
٨٣	حدادها، بها، عورها،		
٨٤	دهاها، شعورها	دهاها	
٨٥	بلواها، وبالها، فخورها		
٨٦	إنها، عذارها		
٨٧	بحورها		
٨٨	ودعوها، استودعوها، أمورها	إليه	
٨٩	خيرها		
٩٠	عليها، تجددها، آصالها، بكورها		
٩١	أمانتها، رقابها، نورها		
٩٢	يسيرها		
٩٣	عرفها، نكيرها	الدهر	
٩٤	يسيرها		
٩٥	حضورها		
٩٦	نمورها		
٩٧	وفورها		

٩٨	علوها، ذكورها	مهر،	لهم، عليهم
٩٩	نذورها	شاهق	
١٠٠	ذؤبانها، كلابها، عقبانها، نسورها		
١٠١	دبورها	هبت	
١٠٢	بها، جناها، مثيرها		
١٠٣	أصولها، أصولها		
١٠٤	ظهورها	أهل، هبوا	
١٠٥	مستطيرها	فانهد	ركنه، أكنافه
١٠٦	خورها	الدهر، الدهر	
١٠٧	أفاعيها، عقورها		
١٠٨	لها، عربها، عيرها		
١٠٩	أجورها		
١١٠	دفاعها، نفيرها		
١١١	غفورها	الله	
١١٢	نقيرها		
١١٣	طهورها	تطهروا	
١١٤	مستنيرها	للجهاد	
١١٥	سبقها، زئيرها		
١١٦	بأنها، مصيرها	الله	
١١٧	مهورها	الله	
١١٨	ظلالها، ذرورها	الهام	
١١٩	سطورها	مهج	
١٢٠	غريرها	هدى،	
١٢١	نصيرها	المهيمن، هو	
١٢٢	فتورها		
١٢٣	قصيرها	اهتضام	
١٢٤	خبثها، خدورها	أهدوا	
١٢٥	خطيرها		
١٢٦	بعدها، مرورها		
١٢٧	شكواها، سرها، لها، خيرها		
١٢٨	يطيرها		عزه
١٢٩	يبيرها	فهذا،	

١٣٠	سرورها	اله، هز ٦١	
١٣١	قريها	عيونهم	
١٣٢	لها، ظهيرها		
١٣٣	بورها	أنهم	
١٣٤	بشيرها	لهم	
١٣٥	أخيرها	الهدى، الله	
١٣٦	منيرها	هاشم	
١٣٧	عليها قصورها		
١٣٨	شدورها	بجاه/ الجاه	
١٣٩	طيرها		
١٤٠	كسبرها	به	
١٤١	ميرها	هذا	
١٤٢	حصيرها ١		
١٤٣	ظهورها	أنجته	
١٤٤	عبرها	الشهب، الهداة، آله	تكررت ما يقارب ٨
	تكررت ما يقارب (٢٧٢)	تكررت ما يقارب ٧٠	تكررت ما يقارب ٢٤

في نفوسنا^(٧٦)، ومن خلال الجدول السابق أيضا يمكننا ملاحظة ما يلي؛ ضمير "ها" المؤنث الغائب؛ تكرر مرة واحدة في ٦٥ بيتاً؛ وتكرر الضمير نفسه مرتين في البيت الواحد في (٤٠) موضعاً، ونلاحظ أيضاً أنها "ها" تكررت في البيت الواحد (٣) مرات في (٢٧) موضعاً؛ ومثال ذلك:

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت

منازها ذات العلا وقصورها

أحقاً خليلي أن رنדה أقفرت

وأزعج عنها أهلها وعشيرها

وهدت مبانيها وثلت عروشها

وهكذا فإننا من خلال هذه الدراسة الإحصائية لا نجد بيتاً يخلو من الهاء التي يطلقها من حنجرته ليعبر باحتكاكاته عن حالة الضعف التي يعيشها الشاعر، ونذكر هنا أن ابن جني أشار إلى خاصية الضعف في الهاء، والضعف هنا ضعف في صفة الحرف لأنه من الأصوات الرخوية، فمعنى الضعف متحقق صفة ومعنى في صوت الهاء، إذ إن "استيحاء معاني الحروف من أصواتها، إنما يتم عن طريق الاستبطان وذلك بانعكاس شعورنا على المشاعر والأحاسيس التي تثيرها أصوات الحروف

المفردات يعمّق الأثر الدلالي في ذهن المتلقّي؛ ويكشف عن الأبعاد النفسية التي اعتملت في خواطر الشاعر الذي عايش سقوط رندة؛ لذا نجده يكرر "رندة" بلفظها الصريح في ثلاثة مواضع، وفي مواضع نجده يكرّرها عن طريق صيغة ضمير الغائب العائد على المكان نفسه، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، ومن النماذج على ذلك قوله:

أحقّاً خبا من جو رندة نورها
وقد كُشِفَتْ بعد الشَّموسِ بدورها
أحقّاً خليلي أن رندة أقفرت
وأزعج عنها أهلها وعشيرها
هوت رندة الغراء ثم حصونها
وأنظارها شنعاء عزّ نظيرها

ولأنّ الشاعر عايش سقوط المدن بنفسه ورآه بأمّ عينه فإنّه لا يملك إلا البكاء؛ وقد كرّر هذه المفردة في أربعة مواضع؛ وفي عدة صيغ فمرة نجدة يستخدم الفعل "سأبكي"، وأخرى يستخدم الاسم "البكاء" وثالثة يستخدم المفردة في صيغة الجمع "بواكي"، ورابعة يستخدمها في صيغة فعل الأمر "ليدعو نفسه إلى البكاء في قوله "أبك" ولأنّ البكاء لا يكتمل إلا بالدموع نجد أنّ كلمة الدموع أيضاً تكرّرت في أربعة مواضع.. ولم يصمت الشاعر بل أعلن أن بكاءه كان

ودارت على قطب التفرّق دورها
وتتسع دائرة الحضور الصوّتي لضمير الغائب المؤنث "ها" فنجدّه يتكرّر في البيت الواحد أربع مرات؛ وقد تحقّق هذا التكرار في "١١" موضعاً؛ ومن ذلك:

فمحراّبها يشكو لمنبرها الجوى
وأيّاتها تشكو الفراق وسورها
يراع لها دين الصليب وحزبه
ويخزي بها غنصالها ورميرها
وقد حيل بين الشّفيق وبينها
وأسلمها أبأؤها وعشيرها
ومأمومها ساهي الحجا وإمامها
وزائرها في مآتم ومزورها
وهكذا نجد أنّ صوت الهاء عبّر عن انفعالات الشاعر، ولا شك أنّ التّكثيف الصّوتي يعكس أبعاداً حسّية ودلالية، فلكل "عنصر صوتي في العربية قيمة في إعطاء الكلمة صيغتها الوزنية، وبالتالي إعطاء الشكل العربي صيغته الإيقاعية" (٧٧).

تكرار المفردات:

يتشكّل النصّ الشعري من أصوات تتألف لتشكّل مفردات؛ وتنظم هذه الكلمات وفق قواعد بنائية لتحقيق جملاً وتراكيب ذات دلالة وأبعاد؛ ولعلّ تكرار

التي طوّعها الشاعر ليعبر عن كثرة التغيرات
التي حدثت في الأمكنة فنجد "كم" الخبرية
تكررت في أحد عشر موضعاً؛ ومن نماذج
التدبة قول الشاعر:

فوا حسرتا كم من مساجد حولت
وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت
وقد كان معتاد الأذان يزورها
وأما الأمثلة على كم الخبرية وتكرارها
فنورد منها قوله:

وكم من فتى ثبت الجنان مهذب
يوذ المنايا وهو كان يديرها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة
إذا سمرت يُسي العقول سفورها
وكم أنفس كانت لديه أسيرة
فأضحى لعمر الله وهو أسيرها

ومن التراكيب التي حضرت بكثافة في
هذه القصيدة؛ تركيب جملة "قد+ الفعل
الماضي" التي تفيد التأكيد والتحقيق لتغير
الحال التي وصلت إليها المدن بعد السقوط؛
فقد تكرر هذا التركيب في "٢٨" موضعاً؛
ومن ذلك قول الشاعر:

وقد كنَّ عقداً زَيْن القطرَ نظمها
فقد فتح الآن البلاد نثرها

بسبب تحوّل الصورة الدينية للمكان، لذا
نجد لفظة المؤمنين تكررت خمس مرّات،
وكلمة الإسلام في ستة مواضع تكررت هي
الأخرى، وفي المقابل الصّلبان والصّليب
أيضاً تكررت ست مرّات؛ أمّا كلمة الدّين
فقد تكررت سبع مرّات، ولا شك أن
تكرار هذه المفردات عمّق البعد الإيقاعي
إضافة إلى الأبعاد الدلالية التي تتمحور
حول الألم على ضياع المدينة وسقوطها،
وعلى التحوّل الديني فيه، إذ حلّ الكفر
حلّ الإيمان وهذه مصيبة كانت عندهم
عظيمة.

ج - تكرار التراكيب:

تعدّ البنية التركيبية ملمحاً دالاً على
أسلوب الشاعر، إذ إن "كل تركيب أسلوبى
يتضمّن أبعاداً دلالية تخصّه، وأن أيّ تغيير في
بنية التركيب... يكون بهدف ويتقصده
المنشئ عن وعي وإدراك، ولا يمكن أن تظهر
خاصية أسلوبية في التركيب دون قصد،
فمهما كان التغيير طفيفاً في التركيب فإنه
يأتي استجابة لسنق، ويتطلبه السياق" (٧٨).

ويستطيع الدّارس أن يلحظ تكرار
عدّة تراكيب في القصيدة؛ ومن ذلك تركيب
التداء الذي يفيد التدبة الذي تكرر مرّتين،
ويتضافر نداء التدبة مع تكرار كم الخبرية

وقد ذهب أدباؤها ونفوسها

وقد دُثِرَتْ تحت السّماء دثورها

وقد كثرت ذُوبانها وكلاؤها

وقد كسرت عقباؤها ونسورها

ثانياً: المستوى الدلالي والمعجمي:

حين يتأمل الدارس المفردات التي تتألف منها القصيدة؛ يدرك أن الشاعر انتقاها لخدم جوهر الدلالة الذي يسعى لتحقيقه؛ إذ إن المفردة ترتبط في النص الشعري مع المفردات الأخرى في علاقات تجاورية على المستويين؛ الأفقي والعمودي، فيصبح اختيار المفردة مرتبطاً في ضوء إدراك الشاعر لطبيعتها؛ فلكل موضوع حقل دلالي يرتبط به؛ ولهذا فإننا في المستوى الدلالي نسعى إلى: "جمع كل الكلمات التي تخص حقلاً معيناً والكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام"^(٧٩) مفردة أخرى.

ولا شك أن اختيار مفردة بعينها يحدث أثراً لا يتركه غيرها، فيتحقق المعنى بأبعاد بلاغية؛ ويتحقق التأثير في متلقي نصّه، ولعلّ تأمل المفردات وما تستدعيه من تجاور مع مفردات أخرى ذات علاقة يستدعيها السياق والدلالة يكشف لنا هذا الجانب في القصيدة بوضوح.

والمستوى الدلالي غنيّ بالحقول المعجمية والعلاقات الاقترانية ولكثنا في هذه الدراسة سنقف عند نموذجين بارزين في القصيدة؛ الأول يتمثل في حقل التضاد الذي يتمثل بـ "الطباق" والنموذج الثاني سيتم فيه الإشارة إلى أبرز الحقول الدلالية التي وظفها الشاعر في نصّه الشعري.

أ- الطباق:

يشكل الطباق نموذجاً يوضح العلاقات التضادية بين الحقول المعجمية، وقد وظّف الشاعر في هذه القصيدة الطباق؛ ليرسم صورة واضحة لضياع المكان، حيث أخذ يقارن فيها بين ما كان عليه حال المسلمين قبل السقوط، وما آل إليه، وبهذه المقارنة بين الحقول المعجمية والدلالية يصبح التأثير أبلغ في المتلقي.

والطباق تقنية أسلوبية موجودة عند القدماء والمحدثين، وهي من أبرز المسائل التي درست في البلاغة منذ القدم في مبحث المحسنات البديعية، ومبكراً وقف حازم القرطاجني في منهاج البلغاء عندها قائلاً: "فإذا أردت أن تقارن بين المعاني وتجعل بعضها بإزاء بعض وتناظر بينها، فانظر مأخذاً يمكنك معه أن يكون المعنى الواحد وتوقعه في حيزين، فيكون له في كليهما

فائدة، فتناظر بين موقع المعنى في هذا الحيز وموقعه في الحيز الآخر، فيكون من اقتران التماثل، أو مأخذاً فيه اقتران المعنى بما يناسبه، فيكون هذا من اقتران المناسبة، أو مأخذاً يصلح فيه اقتران المعنى بمضاده؛ فيكون هذا مطابقة أو مقابلة^(٨٠).

والدّارس لهذه القصيدة يجد الكلمات المتطابقة التي تحمل دلالات متعاكسة تتناثر في معظم أبيات القصيدة، وفي معظمها يأتي الطّباق في البيت الواحد، ويمكن ملاحظة ذلك مما يجعل الطباق اختياراً واعياً من الشاعر، إذ يحمله الصور المتعاكسة والمتخالفة والمتضادة، فيما يؤكد ما يريد إيصاله من رسم الصّور المتقابلة المتناقضة، وما يحدثه ذلك من تأثير في إيضاح التبدّل في المكان، فالمطابقة تجعلنا نقرأ التّغيّرات التي جاءت مع سقوط المدن وتوسع في صورة المقارنة بين صورتين، الماضي الذي كان يعبق بالقوة والحياة، والحاضر الذي ييوح بالألم والمعاناة، إذ تنقلنا هذه المقارنة إلى الموازنة بين المعاني، إذ جعل الشاعر المعاني بعضها بإزاء بعض وناظر بينها، إذ طابق بين الغدو والرواح ليدلّ على الشجاعة التي يحتاجها ليستردّ أرضه، فيقول:

أرسل على هذا العدو رزية

يروح ويغدو بالبوار مبرها

ويرتقي الشاعر في حقول المقارنة ليصل إلى المقابلة التي تعكس الحال التي وصلت إليها المدينة بعد أن شتّت الكفار شمل المؤمنين الذي كان منظوماً، فقد قال:

يشتت شمل الكفر تشتت نعمة

وينظم شمل المؤمنين حصيرها

وشقّت جيوب المؤمنين وأسخت

عيونهم والكفر ظل قريها

وما خير عيش يعذب الموت دونه

ويغبط قل الأهل فيه كثيرها

ولم يكتف الشاعر ببناء طباق الإيجاب، وإنما لجأ إلى طباق السّلب الذي يتمثل بالكلمة ونقيضها المسبوق بأحد أحرف التّفي لتتسع دائرة التعبير عن ضيق حال المسلمين بعد سقوط المدينة، يقول:

تسلّمها حزب الصّليب وقادها

وكانت شرودا لا يقاد لهيها

ب- الحقول الدلالية:

يشكّل الحقل المعجمي الذي يختاره الشّاعر للتّعبير عن المعنى الذي يسعى لإيصاله للمتلقّي دلالة على أسلوبية الشّاعر، ولا شك أن هذه المفردة التي يختارها الشّاعر ضمن مجموعة من المفردات داخل الحقل المعجمي تحدث أثراً في سياقية

النّص الشعري؛ فالحقل المعجمي هو: "مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها"^(٨١) فالدارس لهذه القصيدة يتّجه في تحليله نحو حقل معجمي متناغم مع دلالات تدور في فلك السقوط والهدم؛ ومن هنا فإنّه على صعيد المعجم اللوني تطالعنا مفردات الظلام؛ فنقرأ في القصيدة ضمن هذا الحقل الكلمات الآتية: (خبا من جو رندة نورها، أظلمت أرجاؤها، كسفت بعد الشمس بدورها، أظلمت أرجاؤها، أقمار أطفئ نورها، تبدد نورها، عميت عين). ولأنّ مفردات المعجم الشعري ترتبط في النصّ الشعري مع مفردات أخرى حتى تتحقق الدلالة، فإنّه لا بدّ من فهم كل كلمة ضمن مجموعة الكلمات المتصلة بها؛ وقد أشار المختار عمر إلى ذلك بقوله: "لكي تفهم معنى كلمة يجب أن تفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليًا"^(٨٢)، ومن هنا فإنّنا حين نطالع المفردات التي اختارها الشاعر للتعبير عن معنى السقوط نجدّها تنتظم في حقل دلالي يتناغم مع مأساة سقوط المدن وأثرها في نفسيّة الشاعر وما أحدثته فيها من ألم وأسى؛ حيث صوّرت هذه المفردات حالة الدمار بعد سقوط المدن؛

فكانت في مجملها منتقاة للتعبير عن الهدم والسقوط والزوال والدمار الذي أصاب المدينة بعد السقوط، ومن هذه المفردات التي عبّرت عن هذه الصّورة (الهدم): "رندة أفقرت، هذّت مبانيها، ثلت عروشها، هوت رندة، ذهب أديانها، دثرت دثورها، فباد بها الإسلام، أستأصل الحق، القضاء أبادكم، حقّ لديها محوها ودثورها، جزّت نواصيها، انهذّ ركنه، قطت رجلها بان قطورها، أفقر مغناها، خفّ ناديمها وجفّ نضيرها، وبت لها اليمنى وحمّ تبورها، وشقت جيوب المؤمنين، أحرق الشكل المصابين، أزيل عذارها، وزعزع من أكنافه مستطيرها).

فالشاعر راعى في سياقه الشعري الدلالات التي تتقارب في أبعاد السقوط بما يتناغم مع حالته النفسية والشعورية؛ فطوّع نصّه لإيصال أفكاره بكثافة معجمية تتناسب مع مناسبة النصّ الشعري ومعانيه.

المستوى البلاغي:

يشكّل المستوى البلاغي جانباً هاماً في وصف الحالة الشعورية والحسيّة والتصويرية التي يعيشها الشاعر وينظمها في أبياته؛ ويتمثّل هذا المستوى بالصّورة؛ إذ تعدّ الصّورة الشعرية من أهم العناصر التي يوظّفها الشاعر في التعبير عن معانيه

ومضامينه الشعرية، ووصف حالته النفسية وانفعالاته التي يعيشها، فالشعر في أساسه صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير^(٨٣)، والصورة الفنية تجسيم للأفكار والخواطر النفسية والمشاهد الطبيعية حسية كانت أم خيالية على أساس التآزر الجزئي، والتكامل في بنائها والتناسق في تشكيلها والوحدة في ترابطها والإيحاء في تعبيرها^(٨٤)، وتشكل الصورة وسيلة الانفعال الرئيسة^(٨٥) فهي: الوسيط الأساس الذي يستكشف به الشاعر تجربته ويتفهمها كي يمنحها المعنى والنظام... فالشاعر الأصيل يتوسل بالصورة ليعبّر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها أو يجدها بدون الصورة^(٨٦).

وقد ظهر دور الصورة في هذه القصيدة واضحا في التعبير عن المعاني التي صورها الشاعر المجهول؛ حيث أفرغ فيها شحناته العاطفية المملوءة بالحزن والألم والأسى على ما حلّ بالمدن بعد سقوطها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أنه اتخذها وسيلة لرسم صورة الدمار والهدم التي أصابت المدن وشوّهتها وغيّرت معالمها التي كانت عليها.

ومن أكثر الأمور التي اعتمد عليها الشاعر في تشكيل الصورة الفنية في هذه

القصيدة تشخيص الجمادات وأنسيتها، ويُقصد به إسباغ الحياة الإنسانية على ما لا حياة له كالأشياء الجامدة والكائنات المادية غير الحية^(٨٧) وهو أيضاً وهب الحياة للأشياء، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية، هذه الحياة ترتقي فتصبح حياة إنسانية، ولها خلجات آدمية وذات عواطف إنسانية، فالشاعر يحول الأشياء من حوله عن طبائعها، وأوصافها المألوفة ويصبّ فيها حالته الشعورية ومشاعره وأحاسيسه^(٨٨).

لقد اتخذ الشاعر من التشخيص وسيلة أساسية في التعبير عن مأساة السقوط وأثرها النفسي والمادي في نفسية الشاعر وكلّ من عاين هذه المأساة من حوله، ففي التعبير عن الجانب المادي المساوي لما حلّ بالمدن شخّص الشاعر المدن وأنسيتها، فرسم صورة التشويه التي حلّت بها جاعلا منها إنسانا تشوّت ملامحه بالبتر والقطع، الأمر الذي جعل صورته بشعة شنعاء، ومن ذلك قوله في رثاء وقد هوت حصونها^(٨٩):

هوت رثاء الغراء ثم حصونها

وأنظارها شنعاء عزّ نظيرها

وقوله في مألقة وبلّش مصورا الحالة

المساوية فيهما حيث جزّت صور مألقة

ويضفي الشاعر على الجمادات ملامح
إنسانية أخرى فلا ينطقها فحسب بل يلبسها
ثوب الحداد، ويمزق عنها ملابس الحسن
والحبور فيقول^(٩٢):

تهائمها مفجوعة ونجودها
وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت

ملابس حسن كان يزهو حبورها
ويوظف الشاعر في القصيدة علاوة
على التشخيص نمطا آخر من الصّور الفنية
يتمثل في الاتكاء على الصّور المألوفة، التي
درج الشعراء على توظيفها في معانيهم،
كتصوير البطل والشّجاع بالأسد والليث
والعقاب والصّقر وغيرها من الحيوانات
المعروفة بشراستها وقوتها^(٩٣)، وتصوير
المرأة الحسنة بالشمس في ضيائها والورود
في جمال ألوانها وعبرها والغصون في
تمايلها وتثنيها.. وغيرها من الصّور المنتزعة
من الطبيعة المألوفة. ومن نماذج الصّور
المألوفة في هذه القصيدة تشبيه الشاعر
الأبطال في المدن التي سقطت كيف كانوا
يصولون في المعارك كالأسود في قوتها، وقد
جاء هذا التصوير في سياق تعبيره عن تبدل
حال أهل المدن، عارضا لحالهم كيف كان
من قبل وكيف تحوّل بعد سقوطها^(٩٤):

بالإنسان الذي جزّت ناصيته وشلّت يمينه،
وكذلك كانت بلّش إذ قطّت رجلها^(٩٥):

فمالقة الحسناء تكلّى أسيفة
قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلّت يمينها
وبدلّ بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغريّة الجنن التي

تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلّش قطّت رجلها بيمينها
ومن سريان الداء بان قطورها
وشخص الشاعر المدن والجمادات
الأخرى في معرض تعبيره عن حالة الأسي
والهلع التي ألّت بها بعد السّقوط، فأسقط
ما حلّ بالبشر من أسي وألم عليها معبرا عن
هذا بلسانها، فهذا هو ذا المحراب ينطق
ويشتكي لمنبرها، وكذلك فعلت الآيات
والسّور حينما فارقتها الإسلام واستبدّ بها
الكفر^(٩٦):

فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
وآياتها تشكو الفراق وسورها
وها هي ذي أيضا الأحياء والجمادات
ينطقها الأسي فتعبّر عما حلّ بها
فأحياؤها تبدي الأسي وجهادها
يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها

متضافرة مع صورة السقوط والهدم وما ترتب عليها من جوانب نفسية ومادية.

الخاتمة:

وبعد؛ فقد تناولت الدراسة قصيدة لشاعر مجهول، نُظمت في رثاء مجموعة من المدن الأندلسية، صوّر فيها الشاعر مأساة سقوطها وما ترتب على ذلك من آثار مادية ومعنوية، فابتدأ بتصوير رندة وما حلّ بها وبأهلها بعد سقوطها، وقد كان لرندة التصيب الأكبر في هذه القصيدة، إذ عبّر الشاعر عما حلّ بها فيما يقارب ٦٣ بيتاً، بدا تأثره فيها واضحاً. ثم انتقل الشاعر بعد حديثه عن رندة وسقوطها إلى المدن الأخرى التي سقطت بعدها وهي: مالقة وما حولها، والمرية، وغرناطة، فبكاها الشاعر وتألّم لما حلّ بها وبأهلها جرّاء سقوطها، وتبدّل الحال فيها، ولعلّ مساحة التعبير عن مأساة سقوط هذه المدن كانت أقل من رندة؛ لأنها جاءت بعدها في السقوط، أي بعد الصدمة الأولى التي تكون في غالب الأحيان هي الأقوى والأشدّ أثراً في النفس، ولعله أيضاً استوفى في حديثه عن رندة رسم صورة الهدم والدمار والأثر النفسي الذي أصاب المدينة والناس فيها، مع أنّه عرض لهذا في

وكم من فتى ثبت الجنان مهذب
يوّد المنايا وهو كأنّ يديرها

يصول على الأبطال صولة ضيغم

فيرهبه شبل الشرى وهصورها

ويستحضر صورة الأسد أيضاً في سياق استنهاض الهمم والحث على الجهاد، مبيّناً أن القائد المأمول التصّر على يديه لا بدّ أن يكون كالأسد، فيقول^(٩٥):

ألا واستعدّوا للجهاد عزائما

يلوح على ليل الوغى مستنيرها

بأسد على جرد من الخيل سبق

يدعّ الأعادي سبقها زئيرها

ومن الصّور المألوفة الأخرى تشبيه الحسنة في تمايلها حين تمشي بغصن البان عندما تميل به الصّبا، وقد صوّر هذا في معرض تحسره على حالها كيف تبدّلت^(٩٦):

وكم طفلة حسنة فيها مصونة

إذا سفرت يسبي العقول سفورها

تميل كغصن البان مالت به الصّبا

وقد زانها ديباجها وحريرها

وهكذا نجد أن البناء الأسلوبي في هذه

القصيدة خدم الفكرة التي سعى الشاعر إلى تحقيقها، حيث جاءت المستويات اللغوية:

بأبعادها الصّوتية والتركيبيّة والبلاغيّة

حديثه عن تلك المدن أيضا، ولكن بصورة موجزة.

وقد شكّل سقوط المدينة وما حلّ بها من هدم ودمار المرتكز النصي لهذه القصيدة ومحورها الرئيس، الذي دارت حوله الأفكار والمضامين الأخرى التي عبّر عنها الشاعر، إذ صوّر فيها مأساة السقوط بأبعادها كافة - كما أسلفنا-، وقد كان التحول الديني من أبرز صور آثار مأساة سقوط المدن ومن أبرز صور التحول التي عانوا منها علاوة على المآسي الأخرى التي تمثلت بتفرّق شملهم وزوال التّعيم عنهم.

وبيّنت الدّراسة أنّ مأساة سقوط المدن كانت عظيمة في نفوس الناس، إذ عزّ عليهم تقبّلها، فصوّر الشاعر ذلك بالحديث عن أسباب السقوط، وأخذ في هذا الجانب بتوجيه اللوم والعتاب والتّقريع لأهل هذه المدن وتحميلهم مسؤولية سقوطها، وذلك في محاولة منه لاستنهاض هممهم وحثّهم على التصدي للأعداء واسترجاع مدنهم من أيديهم، ويرتبط هذا المحور بالمحور الأخير من محاور هذه القصيدة ومضامينها، الذي تمثّل باللجوء إلى الله - جلّ ثناؤه - والاستعانة به؛ ليقيلهم من عثرتهم ويمنّ عليهم بالنصر المؤزّر.

ووقفت هذه الدّراسة على البناء الأسلوبي لهذه القصيدة فتناولت الظواهر الأبرز حضورا ضمن المستويات: الصّوتيّ، والدّلاليّ، والبلاغيّ، فكشفت في هذا السّياق الدّور الكبير الذي يؤدّيه الأسلوب في التعبير عن أفكار الشاعر ومعانيه التي تعكس انفعالاته، حيث تبدّى هذا من تكرار الأصوات والألفاظ والتراكيب، التي عبّرت بصورة واضحة عن صدى مأساة السقوط في نفس الشاعر، وذلك بتركيزه على توظيف كل ما يؤكّد فكرة الهدم والزوال وما ترتّب عليها من الحزن والألم، وقد تجلّى هذا أيضا من دراسة الصّورة والحقول الدّلالية، التي كانت تدور حول بؤرة النصّ المركزيّة وهي سقوط المدن وما ترتّب عليه من آثار ماديّة ومعنويّة "وأخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين".

الهوامش:

- (١) عتيق، عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، بيروت الأندلس، دار النّهضة العربيّة، ١٩٧٦م، ص ٤٢٢.
- (٢) الشّكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٥٥٤.

- (٣) مكّي، الطاهر أحمد، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، ط ٣، ١٩٨٧ م.
- (٤) يُنظر في هيكل، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص ٣٢٥.
- (٥) المصدر نفسه، وينظر في مجلة الرسالة، مجلة الرسالة، القاهرة، ع ١٣١، السنة الرابعة، ١٩٣٦ م، ص ٢٢.
- (٦) مجلة الرسالة، ص ٢٢.
- (٧) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٨) هيكل، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص ٣٢٧.
- (٩) هيكل، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص ٣٣٢.
- (١٠) المرجع نفسه ص ٣٣٣.
- (١١) المرجع نفسه، ص ٣٣٤.
- (١٢) المرجع نفسه، ص ٣٣٤.
- (١٣) عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٦ م، ط ٢، ص ٤٢٢. كتب عنها من ٤٢٢-٤٢٦. تحت عنوان شعر الاستغاثة تناولها مع مجموعة من القصائد التي نظمت في هذا السياق منها قصيدة ابن الأبار القضاعي التي نظمها في بلنسية أدرك بجيالك، ص ٤١٦.
- (١٤) الشاعر المجهول، مجلة الرسالة، القاهرة، ع ١٣١، السنة الرابعة، ١٩٣٦ م، ص ٢٢.
- (١٥) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (١٦) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (١٧) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (١٨) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (١٩) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٢٣) مجل الرسالة، ص ٢٢.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٢٧) مجلة الرسالة، ص ٢٢.
- (٢٨) وردت في نص القصيدة (عشرة) والأقرب للمعنى والصواب ما أثبتناه من نص القصيدة الذي نشره الطاهر أحمد مكّي في كتابه دراسات في الشعر الأندلسي، ص ٣٣٩.
- (٢٩) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٣١) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٣٢) وردت في كتاب دراسات (ويجزي)، ومعنى غنصاها اسم اسباني تسمّى به عدد من ملوكهم وقوادهم ينظر: ص ٣٣٩.
- (٣٣) نحو أبي البقاء الرندي في قصيدته المشهورة ومطلعها: لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغربطيب العيش إنسان.
- (٣٤) مجلة الرسالة، ص ٢٣.

- (٣٥) وردت في كتاب دراسات (الشقيق) ولعلها الأقرب للمعنى.
- (٣٦) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٣٩) ينظر على سبيل المثال في: الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥١٦.
- (٤٠) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٤١) (وفضت) في نسخة القصيدة الواردة في كتاب دراسات أندلسية، ينظر: ص ٣٤١.
- (٤٢) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٤٣) جاءت (يؤنا) في نسخة القصيدة الواردة في الرسالة ولعلها ما أوردناه من نسختها الواردة في كتاب دراسات أندلسية، ص ٣٤١.
- (٤٤) الفيء لغة: ما حصل من أموال من غير حرب ولا جهاد، ينظر، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد المجلد الأول، ط ٣، ١٩٩٤، مادة فياً.
- (٤٥) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٤٦) (مهار) في نسخة القصيدة الواردة في كتاب دراسات أندلسية، ص.
- (٤٧) في نسخة القصيدة الواردة الرسالة (غارات) ولعل الصواب ما ورد في نسختها
- الواردة في كتاب دراسات أندلسية وهي ما أثبتناه منها.
- (٤٨) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٤٩) في نسخة مجلة الرسالة (وأرى). أثبتنا هنا ما ورد في نسخة القصيدة الواردة في كتاب دراسات أندلسية، ص ٣٤١.
- (٥٠) أبو لبدة، رانيا أحمد إبراهيم، شعر الحروب والفتن في الأندلس (عصر بني الأحمر)، رسالة ماجستير، إشراف وائل أبو صالح، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٧م، ص ٦٩.
- (٥١) الرقب، شفيق، شعر الجهاد في عصر الموحدون، مكتبة الأقصى، الأردن، ١٩٨٤م، ص ١٤٤، مهدي ١٦١.
- (٥٢) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٥٣) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٥٤) مجلة الرسالة، ص ٢٣.
- (٥٥) مجلة الرسالة، ص ٢٤.
- (٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٤.
- (٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٤.
- (٥٨) مجلة الرسالة، ص ٢٤.
- (٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٤.
- (٦٠) عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م، ط ٢، ص ٢٤٥.
- (٦١) مجلة الرسالة، ص ٢٤.
- (٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٤.
- (٦٣) مجلة الرسالة، ص ٢٤.

- (٦٤) مجلة الرسالة، ص ٢٤.
- (٦٥) في نسخة الرسالة (نجاه) ولعلّ ما أثبتناه من نسخة القصيدة الواردة في كتاب دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ينظر: ص ٣٤٣.
- (٦٦) مجلة الرسالة، ص ٢٤.
- (٦٧) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٦٨) مجلة الرسالة، ص ٢٢.
- (٦٩) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٧٠) نافع، عبدالفتاح صالح، عضوية الموسيقى في النص الشعري، ط ١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥، ص ١٨.
- (٧١) تودروف، ترفيتاننقد النقد، ترجمة: سامي السويديان، ط ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ص ٢٨.
- (٧٢) مجلة الرسالة، ص ٢٢.
- (٧٣) مجلة الرسالة، ص ٢٢.
- (٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٢.
- (٧٥) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ط ٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٨٨.
- (٧٦) عباس، حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ص ٣٨.
- (٧٧) أبو ديب، كمال في البنية أيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٣١٥.
- (٧٨) نور الدين السّد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، الجزء الأول، دار هومة، الجزائر، ١٩٩٧، ص ١٧٢.
- (٧٩) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، علم الكتب، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٨، ص ٨٠.
- (٨٠) القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ١٩٨١، شرح وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ١٤، ١٥.
- (٨١) علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ط ٤، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٧٩.
- (٨٢) علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ط ٤، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٧٩-٨٠.
- (٨٣) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل بيروت، ١٩٩٦م، ج ٣، ص ١٣٢.
- (٨٤) القط، عبد القادر، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص ٤٣٥. عن الغزالي، خالد حسن، عن بحث بعنوان أنماط الصورة والدلالة النفسية في الشعر العربي الحديث، مجلة جامعة دمشق، العدد الأول والثاني، المجلد ٢٧، ص ٣٦٨.
- (٨٥) ينظر في: يافي، نعيم، مقدمة لدراسة الصورة الفنية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٢م، ص ٧.

(٨٦) عصفور، جابر، الصّورة الفنّية، ط٣،
١٩٩٢، المركز الثقافي العربي، بيروت،
ص٣٨٣.

(٨٧) جبور عبد التّور، المعجم الأدبي، ردار العلم
للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص٦٧.

(٨٨) السّبيعي، حصّة سمحي محمّد، أسلوب
التّشخيص في شعر نازك الملائكة، جامعة
أم القرى، المملكة العربية السّعودية،
١٤٣٤هـ، ص٩.

(٨٩) مجلّة الرّسالة، ص٢٢.

(٩٠) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٩١) المصدر نفسه، ص٢٢.

(٩٢) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٩٣) ينظر على سبيل المثال في: المراحلي، قابل
رشيد نافع، صورة البطل في شعر أبي تمام،
جامعة أم القرى، السّعودية، ١٤٣٥هـ،
ص١٦٦-١٧١.

(٩٤) مجلّة الرّسالة، ص٢٢.

(٩٥) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٩٦) المصدر نفسه، ص٢٢.

معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق أهداف البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في
الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم

د. خالد محمد أبو لوم * د. يحيى سليم سليمان عيسى **

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٨/١١/٥ م تاريخ قبول البحث: ٢٠١٩/٣/١٣ م

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة مدى ملائمة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم، وقد تكونت عينة مجتمع الدراسة من (٥٣) طالباً وطالبة ممن هم على مقاعد الدراسة في تخصص الفنون المسرحية، حيث اتبع الباحثان في دراستهما المنهج الوصفي التحليلي، نظراً لملائمة لطبيعة وأهداف الدراسة، وقد أسفرت الدراسة عن عدد من النتائج كان من أهمها: ضرورة إعادة النظر في المواد والمقررات الدراسية لاسيما فيما يتعلق بالتطبيقات المختبرية التي يبرز دورها في تعزيز قدرات الطالب في التمثيل والإخراج، وضرورة توافرها في مستواها مع البرامج الدولية في الإعداد المسرحي، كما بينت نتائج الدراسة أن هناك تطبيقاً لكل معيار من معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلمي الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية فيما عدا مجال المرافق والتجهيزات الفنية مما يؤثر عدم وجود كفاية لتطبيق هذا المعيار، وفي ضوء النتائج أوصت الدراسة جميع القائمين على العملية التعليمية بعدد من التوصيات كان منها: ضرورة إعادة النظر في برنامج إعداد معلم الفنون المسرحية بما يتناسب ومعايير ضمان الجودة العربية والعالمية، والتخطيط لتلك البرامج كماً ونوعاً على أسس علمية، وتوفير المناهج الدراسية المتقدمة، والمستلزمات والتجهيزات الفنية اللازمة، ومواكبة المستجدات التقنية والتكنولوجية التعليمية بما يخدم حقول الدراسات المسرحية المتنوعة وفقاً لمعايير نظام الجودة.

الكلمات الدالة: المعيار، ضمان الجودة، البرنامج الأكاديمي، الإعداد، معلم الفنون المسرحية.

* أستاذ مشارك، كلية العلوم التربوية، الجامعة الأردنية.

** أستاذ مشارك، كلية الفنون والتصميم، الجامعة الأردنية.

Quality Assurance Standards and Their Role in Achieving the Academic Program Goals for the Preparation of the Theater Arts Teacher at the University of Jordan from the Students' Own Perspective

Abstract

The aim of this study is to inspect the adequacy of quality assurance standards and their role in achieving the academic program for the preparation of the teacher of theatrical arts at the University of Jordan from the students' attitudes. The study sample consisted of (53) students who are studying in the field of theatrical arts. The researcher used the descriptive analytical method, due to its suitability to the nature and objectives of the study. The study had a number of findings, the most important of which was the necessity of reviewing the materials and courses, especially in relation to the laboratory applications the role of which is obvious in enhancing the student's abilities in acting and directing. The study showed that there is an application of each of the quality assurance standards in the program of preparing the teachers of theatrical arts at the University of Jordan except for the field of facilities and technical equipment, which indicates the lack of adequacy to apply this standard, and in view of the results, the study issued a number of recommendations for the educational process, including: The need to review the program of preparation of the teacher of theatrical arts in accordance with the standards of ensuring Arab and international quality assurance standards, and planning these programs on a quantitative and qualitative basis, providing the academic program, supplies and technical equipment needed, and keeping up with the technical and technological developments in educational theater to serve the diverse fields of studies according to the quality standards system.

Keywords: standard, quality assurance, academic program, preparation, teacher of theatrical arts.

المقدمة:

التي تواجه العالم، بات من الضروري
انتهاج الأسلوب العلمي الواعي، وترسيخ
أسس الإبداع وذلك لمواجهة تلك

في ظل التسارع المعرفي، والتحديات

احتلت الجودة الشاملة مكانة الصدارة في تفكير الاقتصاديين والتربويين على حد سواء، وذلك لتحسين نوعيات العمل والتعليم بكافة مستوياته وطرائقه.

لقد أصبحت الجودة الشاملة إحدى القضايا التي تهتم القيادة الإدارية في أي مؤسسة تسعى لرفع أدائها، حيث استمدت طاقة حركتها من المعلومات ومن توظيف مواهب العاملين واستثمار قدراتهم الفكرية على نحو إبداعي لتحقيق التحسن المستمر للمؤسسة.^(٢)

وشكل الاهتمام بضبط الجودة في المؤسسات التعليمية معياراً حقيقياً للوقوف على جودة التعليم ومستواه فيها، وتوجيه العملية التعليمية توجيهاً صحيحاً يؤسس لمخرجات من شأنها أن تحقق التنمية للمجتمع، وبذلك فقد تضمنت الجهود الشاملة وضع معايير قياسية لإعداد المعلمين، ورؤى مستقبلية لتطوير نظام إعدادهم في ضوء المستويات المعيارية المتقدمة، وبالتالي: إثارة الرغبة ودمج جميع الأفراد قيادة وعاملين، وتوجيههم نحو أداء العمل بشكل صحيح ومثالي عبر استثمار القدرات والمواهب الكامنة لديهم، وتعد إدارة الجودة الشاملة طريقة جديدة مختلفة في

التحديات، من هنا تطلب الأمر الاستثمار المنهجي للطاقات الإنسانية الفاعلة وبما يحقق التقدم والتطور في مؤسسات المجتمع، التي تطلب أن تعتمد معايير الجودة الشاملة حتى تستطيع مجازة تطورات العصر.

ونتيجة لهذه الظروف لم يعد النظام التعليمي يعمل بمعزل عن النظم المجتمعية الأخرى، حيث أصبح لزاماً عليه أن يطور أهدافه وعملياته ومخرجاته حتى تتلاءم مع هذه المتغيرات المتسارعة، ويصبح نظاماً تعليمياً ذا جودة عالية شاملة.^(١)

وقد حظيت جودة التعليم الجامعي باهتمام كبير في معظم دول العالم إلى الحد الذي جعل المفكرين يطلقون على هذا العصر عصر الجودة، بوصفها إحدى الركائز الأساسية لنموذج الإدارة الناجحة، ونظراً لانتشار مفهوم إدارة الجودة الشاملة، فقد بدأت كثير من المؤسسات بالعمل على تطبيق هذا المفهوم لتطوير أدائها وخدماتها المجتمعية، وأصبح تحديد وبناء المرتكزات الأساسية للجودة يحتل أهمية كبيرة في إطار التطبيق العملي لها في مختلف مؤسسات التعليم العالي، إذ إن هذه المرتكزات تشير إلى الحقائق الأساسية التي ينبغي أن يعتمد عليها في مجال ضمان الجودة،^(٢) وقد

- السمات المميزة الواجب توافرها في الطلبة المعلمين الذين تم اختيارهم لمهنة التعليم.

- طبيعة المحاضرون الذين يتولون عملية إعداد المعلمين.

- المعلومات الضرورية لمعلمي المستقبل.

- التأثيرات التي يتركها البرنامج في المعلمين الجدد على الطلبة.

وقد توصلت الدراسة إلى عدة مقترحات ذكرت كدليل للجودة يمكن تطبيقها في برامج إعداد المعلمين، منها:

- تطوير مستوى الوعي في إعداد المعلمين.

- أن يكون المحاضرين من ذوي الخبرات والفعالية.

- التركيز على الجانب المعرفي المقترن بالتجريب.

- الاهتمام بتدريب المعلمين الجدد في المدارس تحت إشراف معلمي صفوف فاعلين.

وقد أشارت إحدى التقارير التي تناولت معايير جودة وفعالية برامج الإعداد المهني للمعلمين إلى أن هناك دليلاً مرشداً

التفكير، "حيث اعتبرت المنظمات والمؤسسات أن جودة المنتج أو الخدمة هو ما يجب أن يميزهم عن غيرهم، واعتبرتها من الطرق الفعالة لإنجاز الأعمال".^(٤)

وفي ظل التقدم في العملية التربوية شهد النظام التربوي الأردني تطوراً هائلاً تمثل في تزايد أعداد المؤسسات التعليمية وإعدادات الملتحقين بها، وتنوعت البرامج والتخصصات المطروحة فيها، وتطورت تقنياتها وأنماطها التعليمية، وقد تطلب ذلك تحسين نوعية التعليم وجودته وإمكانات الطالب من خلال تطوير معايير الجودة الشاملة، وبما يتوافق مع التسارع المعرفي والتكنولوجي.

وللوقوف على مفهوم ضمان الجودة في برامج إعداد المعلم، فقد أجريت عدداً من الدراسات والأبحاث حول ذلك، ومن أهمها دراسة أجراها مارتين Martin, 1991^(٥) عن أبعاد الجودة في برامج إعداد المعلمين الذين تم اختيارهم، أوضحت الدراسة أنه لكي تتصف برامج إعداد المعلمين بالجودة، يجب أن يتوافر فيها المعايير الآتية:

إيجابي لخبرة المعلم في فعاليته وجودة أدائه، كما أن لنوع الشهادة تأثيراً بسيطاً في تحصيل التلاميذ، إذ إن المقررات الدراسية المهنية التي حصل عليها المعلم في أثناء فترة إعدادة تؤثر تأثيراً إيجابياً كبيراً وهذا ينطبق أيضاً على مجموع درجاته في الاختبارات التي تقيم مستوى المعلم.

وفي دراسة أجراها كل من (Hanushek and Rivkin, 2010)^(٧) فقد تضمنت هذه الدراسة قياس جودة أداء المعلم من خلال ابتكار الباحثين لآلية جديدة في القياس تعرف باسم القيمة المضافة بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل سنوات الخدمة والشهادة الحاصل عليها المعلم وتقارير تقييم المعلم وفي ضوء هذه الآلية يمكن أن تقاس جودة المعلم من خلال قياس مستوى إنجاز طلابه في المادة الدراسية للعام الحالي والعام السابق وحساب مدى تأثير المعلم على الطلبة. أجريت هذه الدراسة من خلال قيام الباحثين بتحليل دراسات سابقة اهتمت بقياس جودة المعلم وذلك من خلال قياس مستوى إنجاز الطلاب وبعدها يتم الربط بين مخرجات تعلم الطلاب والخصائص

يعرض لـ 33 معياراً يجب أن تتوافر في برامج الإعداد المهني للمعلمين في ولاية كاليفورنيا؛ لإصدار شهادات اعتماد لهذه البرامج، وقد تم جمع هذه المعايير في خمس مجموعات رئيسية هي: (الموارد البشرية، والخدمات الطلابية، والمنهج، وخبرات المجال، وأداء وكفاءة المرشح للمستوى أو البرنامج).

وفي دراسة أجراها (Rice, 2003)^(٨) هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على تأثير مجموعة من العوامل في جودة أداء المعلم وتحصيل التلاميذ وهذه العوامل هي:

أ- خبرة المعلم.

ب - برامج إعداد المعلم.

ج - درجة برامج إعداد المعلم.

د - نوع شهادة المعلم.

هـ - المقررات الدراسية التي حصل عليها المعلم في الإعداد للمهنة.

و- مجموع درجات المعلم في الاختبارات الخاصة به.

وقد قام الباحث بتحليل العديد من الدراسات التجريبية التي تهتم بجودة المعلم وكان من نتائج هذه الدراسة وجود تأثير

إدارة الجودة الشاملة بين الأفراد تبعاً
لمتغيري؛ المؤهل العلمي، والخبرة.

يتضح من خلال هذه الدراسة مدى
اهتمام الدول التي أجريت فيها هذه
الدراسات بتوفير معايير لضمان جودة
برامج إعداد المعلم؛ لما تحظى به هذه المعايير
من أهمية في كونها أدوات رئيسية لتقويم
جودة هذه البرامج، وذلك في تحديد نقاط
القوة والضعف فيها، إضافة إلى أنها تمثل
الشروط الأساسية لمنح الاعتماد لهذه
البرامج.

وفي دراسة (الباز، ٢٠١١) (٩) هدفت
هذه الدراسة إلى التعرف على مدى فعالية
برنامج إعداد معلم العلوم الفيزيائية
(شعبي الفيزياء والكيمياء) في تنمية
مهارات التدريس لدى الطلاب المعلمين في
ضوء المعايير القومية ومعايير جودة إعداد
المعلم. تم استخدام المنهج الوصفي
التحليلي في دراسة واقع برنامج إعداد
معلم العلوم الفيزيائية في كليات التربية،
وتحليل محتواه في ضوء قائمة معايير جودة
البرنامج المعدة في هذه الدراسة لقياس
مستوى جودة أداء الطلاب المطبقين
لمهارات التدريس وتحصيلهم للجوانب
العلمية والتربوية المرتبطة بمهارات التدريس

المميزة للمعلم لمعرفة مدى مساهمته في
عملية التعلم.

وفي الدراسة التي أجراها (الشليبي،
٢٠١٠) (٨) والتي هدفت إلى استقصاء أثر
إدارة الجودة في برامج التنمية المهنية
للمعلمين من وجهة نظرهم في بعدي
التخطيط والممارسة، والبعد الكلي، وتحديد
ما إذا كان هذا الأثر مختلفاً تبعاً لمتغيرات
الجنس، والمؤهل العلمي، والخبرة.

تكونت عينة الدراسة من (٦٠) معلماً
و(٤٨) معلمة من فرق التطوير المدرسية،
طبقت عليهم أداة لقياس أثر تطبيق إدارة
الجودة الشاملة في برامج التنمية المهنية
للمعلمين، بعد التحقق من صدقها وثباتها.
حسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات
المعيارية لإجابات المعلمين على بنود
الاستبانة وكانت مرتفعة، أي إن هناك أثراً
واضحاً لإدارة الجودة الشاملة في برامج
التنمية المهنية في بعدي التخطيط والتنفيذ
وفي البعد الكلي. كما تم استخدام (T-test)
الذي أظهر فروقاً ذات دلالة إحصائية لأثر
إدارة الجودة الشاملة تبعاً للجنس في كل
من البعدين والبعد الكلي لصالح الإناث،
وباستخدام تحليل التباين الأحادي لم تظهر
فروق ذات دلالة إحصائية في أثر تطبيق

العملية، والخامس: جودة إدارة القسم والكلية، واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، حيث بلغت عينة الدراسة (٦٠) عضواً من أعضاء التدريس في جامعة الأقصى تم اختيارهم بالطريقة العشوائية.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها: أن معايير الجودة الشاملة في برنامج إعداد معلم اللغة العربية متوافرة بدرجة كبيرة بنسبة مئوية (٨٠، ٦١)، ولا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في مدى توافر معايير الجودة الشاملة في برنامج إعداد معلم اللغة العربية تعزى لمتغير التفرغ، والمؤهل العلمي، وسنوات الخبرة.

وفي دراسة أجراها (حمادنة، ٢٠١٤) (١١) هدفت هذه الدراسة إلى تقدير درجة توفر معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلم التربية الابتدائية في جامعة اليرموك من وجهة نظر الطلبة المتوقع تخرجهم، إضافة إلى معرفة أثر المعدل التراكمي في معرفة هذه الدرجة وقد اتبعت الدراسة المنهج الوصفي المسحي، واستخدمت الدراسة الاستبانة أداة لتحقيق أهدافها، وتكونت هذه الاستبانة من (٥٩) فقرة، توزعت على ستة مجالات هي: أهداف البرنامج، والمنهاج، وطرق

وإعداد تصور مقترح لبرنامج إعداد معلم العلوم الفيزيائية في ضوء أوجه القصور التي أشارت إليها نتائج البحث بالنسبة لجودة البرنامج وجودة أداء الطلاب المعلمين.

وقد أشارت النتائج انه لا يتوفر في برنامج إعداد معلم العلوم الفيزيائي ما نسبته ٨٠٪ فأكثر من القائمة المعدة لمعايير جودة البرنامج سواء في النتيجة الكلية أم في نتيجة المقررات الأكاديمية والتربوية والثقافة كل على حدة.

وفي الدراسة التي أجراها (دحلان، ٢٠١٣م) (١٠) فقد هدفت الدراسة إلى معرفة درجة توافر معايير الجودة الشاملة في برنامج إعداد معلم اللغة العربية في كلية التربية في جامعة الأقصى، والكشف عن أثر متغيرات الدراسة في آراء أعضاء هيئة التدريس في جامعة الأقصى في درجة توافر معايير الجودة في برنامج إعداد معلم اللغة العربية، ولتحقيق أهداف الدراسة تم بناء استبانة مكونة من (٩٠) فقرة بصياغتها النهائية، حيث وزعت على خمس محاور: الأول: جودة أهداف برنامج إعداد معلم اللغة العربية، والثاني: جودة الإعداد التخصصي، والثالث: جودة الإعداد التربوي، والرابع: جودة التربية

جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن من وجهة نظر الطلبة المتوقع تخرجهم، إضافة إلى معرفة أثر المعدل التراكمي في معرفة هذه الدرجة. وقد اتبعت الدراسة المنهج الوصفي المسحي، واستخدمت الدراسة الاستبانة أداة لتحقيق أهدافها، وتكونت هذه الاستبانة من (٥٩) فقرة، توزعت على ستة مجالات هي: أهداف البرنامج، والمنهاج، وطرق التدريس، وتقويم الطلبة، والمرافق والتجهيزات، والتربية العملية، وقد طبقت الاستبانة على جميع أفراد مجتمع الدراسة، الذي تألف من جميع الطلبة المتوقع تخرجهم في قسم التربية الخاصة في كلية التربية في جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن وعددهم (١١٠) طالبة، استجاب منهم (٧٠) طالبة.

وأظهرت نتائج الدراسة وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha = 0,05$) بين متوسطات أفراد عينة الدراسة حول تقديرهم لدرجة توفر معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلم التربية الخاصة في جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن تعزى لمتغير المعدل التراكمي، وجاءت لصالح (جيد جداً فأعلى). وقد أوصت الدراسة بما يلي:

التدريس، وتقويم الطلبة، والمرافق والتجهيزات، والتربية العملية، وقد طبقت الاستبانة على جميع أفراد مجتمع الدراسة، والذي تألف من جميع الطلبة المتوقع تخرجهم في قسم التربية الابتدائية في كلية التربية في جامعة اليرموك وعددهم (١٠٥) طالباً أو طالبة، استجاب منهم (٧٩) طالباً وطالبة. وقد أظهرت نتائج الدراسة أن درجة توفر معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلم التربية الابتدائية في جامعة اليرموك جاءت متوسطة. وقد أوصت الدراسة بما يلي:

- ضرورة إعادة النظر في برنامج إعداد معلم التربية الابتدائية في جامعة اليرموك بما يتناسب ومعايير ضمان الجودة المحلية والعالمية.

- توظيف معايير ضمان الجودة في مكونات وعناصر برنامج إعداد معلم التربية الابتدائية كأسلوب إداري حديث، يسهم في تطويرها.

وفي الدراسة التي أجرتها (قعدان، ٢٠١٥م)^(١٢) فقد هدفت هذه الدراسة إلى تقدير درجة توفر معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلم التربية الخاصة في

في كلية التربية بجامعة الطائف (١٥٥) عضواً من مجتمع الدراسة البالغ (١٧٥) عضواً.

وبعد إجراء المعالجات الإحصائية المناسبة توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، من أبرزها: إن درجة تطبيق معايير المجلس الوطني الأمريكي لاعتماد مؤسسات إعداد المعلمين (NCATE) في كلية التربية بجامعة الطائف من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس جاءت متوسطة، وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية تعزى للنوع الاجتماعي، والرتبة الأكاديمية، والخبرة لجميع المجالات باستثناء مجال التنمية المهنية لأعضاء هيئة التدريس، إذ جاءت الفروق لصالح الذكور.

وفي دراسة أجرتها (العاني وزملاؤها، ٢٠١٨) (١٤) هدفت الدراسة إلى الكشف عن درجة تحقق معايير الاعتماد الدولية (CAEP) في برامج إعداد المعلم بكلية التربية في جامعة السلطان قابوس من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس، ولتحقيق هدف الدراسة تم استخدام المنهج الوصفي الممزوج في إعداد استبانة مكونة من ٦٧ مؤشراً، اشتملت عليه معايير كيب الخمسة، وهي: المحتوى المعرفي، والشراكات،

- ضرورة إعادة النظر في برنامج إعداد معلم التربية الخاصة في جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن بما يتناسب ومعايير ضمان الجودة المحلية والعالمية.

- توظيف معايير ضمان الجودة في مكونات وعناصر برنامج إعداد معلم التربية الخاصة كأسلوب إداري حديث، يسهم في تطويرها.

وفي الدراسة التي أجرتها (أبو العلا، ٢٠١٦م) (١٣) فقد هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على درجة تطبيق معايير المجلس الوطني الأمريكي لاعتماد تطبيق معايير المجلس الوطني الأمريكي لاعتماد مؤسسات إعداد المعلمين (NCATE) في كلية التربية بجامعة الطائف، ولتحقيق الهدف طبقت استبانة مكونة من (٤٨) فقرة في كلية التربية بجامعة الطائف، ولتحقيق الهدف طبقت استبانة مكونة من فقرة (٤٨) فقرة طورتها الباحثة باستخدام وصف معايير (NCATE) الستة التالية: (البرامج المقدمة، والتقويم والتقييم، والخبرات الميدانية، والتنوع، والتنمية المهنية لأعضاء هيئة التدريس، والإدارة والموارد). وبعد التأكد من صدق الاستبانة وثباتها تم تطبيقها على عينة من أعضاء هيئة التدريس

التلاميذ بالمدرسة. وكذلك بالنسبة إلى معيار الاستقطاب والاختيار للمرشحين، إذ لم يحقق المستوى المطلوب بالكلية في ضوء المؤشرات الواردة في هذا المعيار.

ومن خلال استعراض الدراسات السابقة يتضح أن الباحثان قد تناولوا في دراستهما (١٠) دراسات، وقد أجريت هذه الدراسات خلال الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٩١م إلى عام ٢٠١٨م، ويلاحظ ما يلي:

- أنها تتشابه في أهدافها ونتائجها، وكذلك تتشابه في المنهج والأدوات المستخدمة، فمن حيث الأهداف يلاحظ أن معظمها يشترك في التركيز على توافر معايير الجودة في برامج إعداد المعلم كما في الدراسة التي أجراها مارتين (Martin, 1991)، ودراسة (الباز، ٢٠١١)، ودراسة (دحلان، ٢٠١٣م) ودراسة (حمادة، ٢٠١٤م)، ودراسة (قعدان، ٢٠١٥م)، ودراسة (أبو العلا، ٢٠١٦م)، ودراسة (العاني وزملاؤها، ٢٠١٨). وهدفت دراسات أخرى إلى التعرف على تأثير مجموعة من العوامل في جودة أداء المعلم وتحصيل التلاميذ كما في دراسة (Rice, 2003)، وتضمنت دراسات أخرى قياس جودة أداء المعلم من

والممارسات الميدانية، وجودة المرشح، وتأثير البرنامج، وضمان جودة الكلية والتحسين المستمر، كما تم إعداد بطاقة مقابلة لجمع البيانات. تم جمع البيانات من عينة مكونة من (٣٥) عضو هيئة تدريس، وعينة مقابلة مكونة من ستة أعضاء من القائمين وعينة مقابلة مكونة من ستة أعضاء من القائمين على إدارة عملية الاعتماد في الكلية. أظهرت نتائج الدراسة أن درجة تحقق معايير كيب (CAEP) في برامج إعداد المعلم بكلية التربية جاءت عالية، كما أظهرت نتائج الدراسة عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجة تحقق المعايير التي تعزى إلى النوع، والرتبة الأكاديمية. كما أظهرت النتائج أن أعلى درجة تحقق لمؤشرات المعايير الخمسة لكيب كانت لصالح معيار الشراكات والممارسات الميدانية. أما بالنسبة إلى معيار المحتوى المعرفي والتربوي، فقد أظهرت النتائج أنه لا تزال هناك فجوة في بعض المؤشرات ضمن هذا المعيار، والمتعلقة في بعض المهارات التي لا يزال المرشحون يفتقدونها، وتتمثل في مهارات حل المشكلات، ومهارة التفكير الناقد، ومهارات الاتصال، ومهارات تصميم أدوات لتقييم أداء

- من حيث نتائج الدراسات: فقد خلصت معظم الدراسات إلى توفر مجالات الجودة في برامج إعداد المعلم بدرجات متفاوتة.

- من حيث موقع الدراسة الحالية من الدراسات السابقة: فهي تتفق مع الدراسات السابقة في مجال الاهتمام، وهو معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد المعلم، إلا أن الدراسة الحالية تهتم بمعايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم، وقد ساهمت الدراسات السابقة في مساعدة الباحثين في إعداد فقرات الاستبانة، والمنهج الذي ينبغي اتباعه لإجراء الدراسة، والتعرف على نوعية الأهداف التي ترمي إليها الدراسات السابقة ومدى علاقتها بمعالجة مشكلة البحث، والتعرف على العينات التي اعتمدتها تلك الدراسات، وعلى الوسائل الإحصائية المتبعة لتحليل البيانات، ومن ثم تحليل النتائج التي توصل إليها الباحثان وتفسيرها.

خلال ابتكار الباحثين لآلية جديدة في القياس تعرف باسم القيمة المضافة بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل سنوات الخدمة والشهادة الحاصل عليها المعلم وتقارير تقييم المعلم وكان من بينها الدراسة التي أجراها كل من

(Rivkin&Hanushek&,2010)، وفي دراسة أخرى هدفت إلى استقصاء أثر إدارة الجودة في برامج التنمية المهنية للمعلمين من وجهة نظرهم في بعدي التخطيط والممارسة، والبعد الكلي، كما في الدراسة التي أجراها (الشلي، ٢٠١٠).

- من حيث المنهج المتبع: فقد اتبعت بعض الدراسات المنهج الوصفي التحليلي مثل دراسة (الباز، ٢٠١١م)، كما اتبعت دراسات أخرى المنهج الوصفي المسحي، مثل دراسة (حمادة، ٢٠١٤م)، ودراسة (قعدان، ٢٠١٥م)، ودراسة (العاني وزملاؤها، ٢٠١٨).

- من حيث أداة الدراسة: فقد كانت الاستبانة هي أداة الدراسة الرئيسية المستخدمة في الدراسات السابقة مع الاختلاف في مجالاتها من دراسة إلى أخرى.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

تتمثل مشكلة الدراسة في محاولتها معرفة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم، وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ما مدى ملائمة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم؟

٢- هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha \geq 0.05$) بين متوسط آراء الطلبة في قسم الفنون المسرحية في كلية الفنون والتصميم في الجامعة الأردنية حول تقديرهم لدرجة ملائمة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم تعزى لمتغير (المعدل التراكمي، المستوى الدراسي، الجنس، والتخصص)؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة لتحقيق ما يلي:

١- معرفة مدى ملائمة معايير ضمان

الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم، وذلك من خلال مجالات الاستبانة: (أهداف برنامج البكالوريوس، المنهاج الدراسي، طرق وأساليب التدريس، التقييم، المرافق والتجهيزات المسرحية، والمنهاج العملي).

٢- معرفة الفروق الإحصائية بين متوسطات آراء أفراد عينة الدراسة.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في كونها تتناول موضوعاً لم يتم تناوله سابقاً، حيث تناقش مدى ملائمة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم، والدور الذي يقوم به معلم الفنون المسرحية للمساعدة في عملية التعليم التربوية، ويمكن لهذه الدراسة أن تساعد على معرفة ماهية الأداء الحالي لطلبة قسم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية، وتحديد الأداء المرغوب به في ضوء الدور الذي يقوم به نظام الجودة

الطالب على تحقيق النواتج مسبقاً، وهي أساس للتقويم المؤسسي والبرامجي".^(١٦)

وتماشياً مع أهداف بحثهما فقد صاغ الباحثان لبرنامج إعداد معلم الفنون المسرحية التعريف الإجرائي التالي:

هو برنامج أكاديمي تطرحه كلية الفنون والتصميم في الجامعة الأردنية في تخصص الفنون المسرحية، بهدف إكساب الطلبة المعلمين المعارف والمهارات التعليمية التي تمكنهم من ممارسة مهنتهم بنجاح.

٣- الجودة (Quality): الجودة في اللغة العربية من جيد "والجيد نقيض الرديء، وجاد الشيء جودة، أي صار جيداً، وأجاد أي أتى بالجيد من القول والفعل".^(١٧)

أما اصطلاحاً فهي: "مجملة الخصائص والمميزات المتعلقة بالنتائج أو الخدمات التي تؤثر في قدرتها على تلبية الحاجات الظاهرة والكامنة".^(١٨)

٤- ضمان الجودة (Quality Assurance):

هي: "تلك العملية الخاصة بالتحقق من أن المعايير الأكاديمية والمؤسسية المتوافقة مع رسالة المؤسسة التعليمية قد تم تحديدها

في رسم الاستراتيجيات الإدارية والفنية الملائمة لرفع كفاية معلم الفنون المسرحية، وذلك للتمكن من التأثير بشكل مباشر في مجالات الحياة المختلفة لا سيما تأثيره في القطاعات والمؤسسات التي تقوم بإعداد الموارد البشرية ومنها المؤسسات التربوية.

- تحديد المصطلحات:

١- المعيار (Standard): هو تلك المواصفات والشروط التي ينبغي توافرها في نظام التعليم، والتي تتمثل في جودة الإدارة، والبرامج التعليمية من حيث الأهداف وطرائق التدريس، ونظام التقويم والامتحانات، ثم جودة المعلمين، والأبنية والتجهيزات المادية، التي تؤدي إلى مخرجات تتصف بالجودة وتعمل على تلبية احتياجات المستفيدين".^(١٩)

٢- برنامج إعداد المعلم (Teacher Preparation Program): هو "عقد اجتماعي جديد حول متطلبات التعليم الجامعي وتأكيد للتوقعات المتفق عليها اجتماعياً، وهي تلعب دوراً مهماً في وضع مستويات معيارية متوقعة ومرغوبة ومتفق عليها للأداء بكل جوانبه وإظهار قدرة

- الحدود الموضوعية: جاءت الدراسة لمعرفة مدى ملائمة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم، ولرصد مدى كفاية معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلم الفنون المسرحية.

الإطار النظري:

أولاً: مفهوم ضمان الجودة وعلاقته بالتعليم:

يعد مفهوم ضمان الجودة من المفاهيم التي تطورت تطوراً ملحوظاً، فقد تحولت دلالة المفهوم من عملية التفتيش على المنتجات ومراقبة العمليات واكتشاف الأخطاء ومن ثم تصحيحها إلى مفهوم جديد يستند إلى منع وقوع الأخطاء وتجنب إنتاج مخرجات لا تحقق رغبات المستفيدين، ويشير مفهوم ضمان الجودة إلى أنه "مجموعة البرامج والإجراءات اللازمة للتأكد من أن عمليات الإنتاج وبرامجه ونظمه ستؤدي بالضرورة إلى تقديم خدمات أو منتجات تتطابق على مواصفات الجودة المحلية أو العالمية".^(٢١)

وتعريفها وتحقيقها على النحو الذي يتوافق مع المعايير المناظرة لها سواء على المستوى القومي أو العالمي".^(١٩)

ويقصد بها أيضاً: "نظام يحقق مستويات مرغوبة في المنتج عن طريق فحص عينات من المنتج، وتعرفه معاجم أخرى بأنه الإشراف على العمليات الإنتاجية لتحقيق إنتاج سلعة بأقل تكلفة بالجودة المطلوبة طبقاً للمعايير الموضوعية لنوعية الإنتاج".^(٢٠)

محددات الدراسة: سوف تتحدد نتائج هذه الدراسة بـ:

- ١- عينة الدراسة: تم اختيار عينة قصدية من طلاب قسم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية.
- ٢- خصائص أدوات الدراسة السكومترية.
- ٣- الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ٢٠١٧/٢٠١٨.

حدود الدراسة:

- الحدود المكانية: قسم الفنون المسرحية، الجامعة الأردنية.

- الحدود الزمانية: تم تطبيق هذه الدراسة في الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ٢٠١٧/٢٠١٨ م.

ونتيجة لارتفاع تكلفة التعليم وازدياد معدلات التضخم العالمية، وسوء نوعية بعض المخرجات التعليمية، وضعف ارتباطها بسوق العمل، فقد أولت المؤسسات التربوية والنظم التعليمية قضية ضبط الجودة أهمية كبيرة وذلك لزيادة معدلات التنمية وقدرة المجتمع على تحقيق طموحاته وأهدافه، ولكي تكون عملية تحقيق ضمان الجودة في مؤسسات التعليم العالي عملية سليمة قابلة للتطبيق العملي، فإنها تحتاج إلى عدد من المتطلبات الأساسية، والتي تجعل منها ليست مجرد مفاهيم نظرية بعيدة عن الواقع، وإنما يمكن ترجمتها في مؤسسات التعليم العالي للوصول إلى رضا المستفيد الداخلي والخارجي للمؤسسة.

وحتى تتحقق الجودة الشاملة للتعليم ينبغي أن يكون في إطار فلسفة تتضمن المبادئ التالية^(٢٣):

- ١ - قيادة الإدارة التربوية لضبط جودة التقييم من أجل تقديم خدمات متميزة.
- ٢ - مسؤولية كل فرد من أفراد المؤسسة التعليمية عن تحقيق الجودة الشاملة للتعليم فيما يخصه.
- ٣ - استناد الأداء الوظيفي إلى منع حدوث

وفي ضوء ذلك أصبحت عمليات ضبط الجودة وسيلة للتأكد من أن الإدارة والإنتاج والتطوير تتم وفقاً للخطط المعتمدة، وأن الإدارة تقود عملية ضبط الجودة، وأن المؤسسة وكل فرد من أفرادها مسئول عن تحقيق الجودة والتطوير المستمر، وأن فلسفة الأداء تستند إلى منع الأخطاء وتحري الدقة لكسب ثقة المستفيدين، وأن معايير ضبط الجودة متحققة في أدوات الإنتاج وبرامجه وخاماته.^(٢٢)

إن مفهوم ضمان الجودة يشمل جميع السياسات والأنشطة المنهجية التي تنفذ ضمن نظام الجودة، وتتضمن تحديد المتطلبات الكافية الخاصة بالمدخلات والمخرجات، وبما يحقق الأنشطة والعمليات المخطط لها بطرق منهجية، يتم تنفيذها في إطار منظومة اجرائية يمكن أن تبرهن على توفير الثقة بأن المنتج أو الخدمة ستفي بمتطلبات الجودة، من حيث اعتماد وتصنيف أصحاب المؤسسات التعليمية والاقتصادية، واختيار الاجراءات الكفيلة بتحقيق معايير الأداء والسلامة والموثوقية، وتقييم العمليات واتخاذ ما يلزم من الإجراءات التصحيحية.

- الأخطاء.
- ٤ - اعتماد مواصفات قياسية لجودة الأداء والتحقق من إنجازها.
- ٥ - اكتساب ثقة المستفيدين من الخدمة التعليمية بتحسين جودتها.
- ٦ - الاهتمام بتدريب الهيئة التدريسية والإدارية.
- ٧ - يتبنى نظام متابعة لتنفيذ إجراءات التطوير والتجديد التربوي.
- ٨ - تعزيز الانتماء إلى المؤسسات التعليمية والولاء إلى مهنة التعليم.
- وينبغي أن يكون ضبط جودة التعليم وسيلة للتأكد من أن العملية التعليمية والإدارية، وتدريب المتسبين للمؤسسات التعليمية، تتم جميعاً وفق الخطط المعتمدة والمواصفات القياسية لجودة التعليم، وذلك حتى يتم ترجمة مفاهيم الجودة في مؤسسات التعليم العالي للوصول إلى رضا المستفيد الداخلي والخارجي للمؤسسة، في حين توفر عملية التقويم المرجوة كإحدى العمليات الأساسية في إجراءات إدارة الجودة الشاملة تغذية راجعة لكل من الموظف والمؤسسة عن الأداء الذي يقوم به وتعرفه على نقاط قوته ومجالات التحسين، وينبغي ربط أنظمة المكافآت والحوافز مع
- الأداء حيث تصبح أنظمة الموظف والمؤسسة معاً".^(٢٤)
- إن عملية ضبط جودة في التعليم يمكن أن تحقق عدداً من الأهداف والفوائد لعل أبرزها ما يلي^(٢٥):
- ١ - مراجعة المنتج التعليمي المباشر وهو الطالب من حيث العوائد المباشرة وغير المباشرة طويلة المدى وقصيرة المدى ذات التأثيرات الفردية والاجتماعية التي تعبر عن مجموعة التغيرات السلوكية والشخصية لدى الطالب مثل القيم والولاء والانتماء والدافعية والانجاز وتحقيق الذات.
- ٢ - مراجعة المنتج التعليمي غير المباشر مثل: التغيرات الثقافية والاقتصادية والتقنية والاجتماعية والسياسية التي يحدثها التعليم في المجتمع من خلال تنشئة أفراده ويؤثر بها في مستوى تقدمه ومدى تحضره.
- ٣ - اكتشاف حلقات الهدر وأنواعه المختلفة من هدر مالي وهدر بشري وهدر زمني، وتقدير معدلاتها وتأثيرها على كفاءة التعليم الداخلية والخارجية.
- ٤ - تطوير التعليم من خلال تقييم النظام التعليمي وتشخيص أوجه القصور في المدخلات والعمليات والمخرجات، حتى

التدريسي المطلوب للمواد والمقررات الجامعية، والتأهيل العلمي والثقافي اللازم، وأن يتميز بالسلوك الجيد، والخبرات العملية المطلوبة، وأن يتميز بتطوير الذات والأداء الأكاديمي والمهني المتميز، والمساهمة في خدمة المجتمع.

٣- جودة البرامج التعليمية وطرق التدريس، وأصالتها من حيث المحتوى والطريقة وشموليتها.

٤- الإمكانيات المادية، وتشمل جميع المباني والموارد المالية، إذ إن عدم توافرها يشكل عائقاً في تطبيق البرامج وإدارة الجودة.

٥- جودة الإدارة العليا والتشريعات القانونية، وتشمل جميع المستويات بالإدارة العليا، وهي تتعلق باتجاه وسياسية الجامعة والكلية ومدى التزام القيادة الجامعية بإدارة الجودة الشاملة، أما بالنسبة للتشريعات القانونية فيجب أن تكفل تسيير العمل بالكفاية والفاعلية التي تتطلبها إدارة الجودة الشاملة، وأن تكون محددة ومواكبة للتغيرات والتطورات في البيئة المحيطة، وأن تتسم بالمرونة والوضوح.

يتحول التقويم إلى تطوير حقيقي وضبط فعلي لجودة الخدمة التعليمية.

وتمر عملية الحصول على ضمان الجودة في المؤسسات التعليمية وبرامجها الأكاديمية بنفس التي يمر بها الاعتماد الأكاديمي، بوصفها وجهان لعملة واحدة، ومن خلال متابعة ما يتعلق بالفكر الإداري والتربوي يتضح أن المجالات الجوهرية التي يركز عليها أي نموذج لتطبيق الجودة الشاملة في التعليم تكمن في التأكيد على اهتمامات الطلاب وأولياء أمورهم، وتحديد الهيكل التنظيمي للمؤسسة التعليمية، وطبيعة فلسفة القيادة التربوية التي تتولى إدارة المؤسسة التعليمية، ومن هنا فلا بد من فهم محاور الجودة الشاملة وإدراكها قبل البدء بعملية التطبيق وهي كما يلي^(٢٦):

١- جودة الطالب: فالطالب هو أحد المحاور الأساسية في العملية التعليمية، حيث يتم اختياره وفق معايير علمية وعملية تناسب أهداف المؤسسة، ليكون قادراً على الفهم والتفاعل مع أعضاء الهيئة التدريسية.

٢- جودة عضو الهيئة التدريسية، ويرتبط ذلك بكفايته لتحقيق الحد

الجودة الشاملة في التعليم وإعداد المعلمين، ينبغي التوقف عند الاستراتيجية التي يسعى القسم إلى تحقيقها من خلال رسالته ورؤيته أهدافه التي انطلق القسم لتحقيقها، وهي^(٢٧):

أولاً: رسالة القسم: يسعى القسم ضمن رسالته إلى ترسيخ الثقافة المسرحية في الوسط الجامعي تمهيداً لنشرها في المجتمع برؤية فنية منفتحة توفق بين موروث الحضارة العربية الإسلامية والثقافة الفنية العالمية بتنوعاتها. وكذلك يسعى لرفد الوسط الفني المسرحي بكوادر متخصصة على مستوى عال من الحرفية للمساهمة في تأسيس واستمرار حركة مسرحية أردنية، بالإضافة إلى المساهمة في تطور باقي الفنون الدرامية مثل التلفزيون والسينما، وكذلك إنشاء مسارح مؤهلة في كلية الفنون والتصميم تكون مصدر إشعاع ثقافي في عمان والمملكة الأردنية الهاشمية بشكل عام، وإضافة تخصصات جديدة في الفنون المسرحية، والتوسع نحو باقي الفنون الدرامية مثل السينما والتلفزيون.

ثانياً: رؤية القسم: حيث تمكن من رفع مستوى الثقافة والمعرفة والجمال والفن في المجتمع المحلي، بوصف الفنون المسرحية

٦- جودة تقييم الأداء، إذ يتطلب التعليم الجامعي أن يتم رفع كفايته وتحسين أدائه باستمرار، وهذا يستدعي وجود معايير لتقييم كل العناصر بحيث تكون واضحة ومحددة ويسهل استخدامها والقياس عليها، وهذا يوجب تدريب العاملين في إدارة الجودة الشاملة عليها، وأن تعاد هيكله الوظائف والأنشطة وفق هذه المعايير ومستويات الأداء.

ثانياً: إعداد معلم الفنون المسرحية:

يسهم فن المسرح إلى جانب الترفيه عن النفس، في عمليات التثقيف والتوعية وحل الكثير من المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها أبناء المجتمع، حيث يزيد نسبة الوعي لديهم حول الأمور التي تمس نمط حياتهم، وفي ضوء ذلك كان إنشاء قسم الفنون المسرحية في كلية الفنون والتصميم في الجامعة الأردنية، حيث جاء تأسيس القسم انطلاقاً من رؤية وتطلعات تراعي التطور والانفتاح المعرفي على الساحتين العالمية والعربية، ليشكل القسم بذلك إلى جانب الأقسام الأخرى أحد المكونات الثقافية والمعرفية والجمالية والفنية فيها، وحتى يتسنى لنا وضع الأهداف الحقيقية لإعداد معلم الفنون المسرحية بما يتوافق مع أهداف

وللنهوض بتلك المسؤوليات ينبغي إعداد معلم الفنون المسرحية بما يتوافق مع أهداف إعداد هذا المعلم الذي ينبغي له أن ينمو مهنيًا باستمرار ولا يحدد نفسه بمجموعة من المعارف والمهارات، متجاهلاً التقدم المعرفي الهائل الذي يمتاز به العصر الحالي، والذي يتطلب منه مستويات متجددة من المعلومات والمهارات والاتجاهات الحديثة في طرائق التعليم وتقنياته، ولكي يصبح إعداد المعلم سليماً فلا بد من أن يكون التوازن واضحاً بين المجالات النظرية والعملية في الإعداد التربوي،^(٢٨) ونتيجة لعدم وجود فلسفة واضحة لإعداد المعلم العربي ترشده وتوجه خطواته، وتحدد وتبلور أهداف إعداداته في المؤسسات التي تقوم بعملية الإعداد، فإن المعلم العربي قد بات يعاني من عدم وضوح في الرؤية بالنسبة للأهداف الحالية الموضوعية كأساس لإعداداته.

لذلك يجب أن تنبثق عملية إعداد المعلم من تحديد دوره الوظيفي في المجتمع الذي يعمل فيه، ويجب أن تتحرك وتنشط ضمن إطار واضح، تكون أسسها على النحو التالي^(٢٩):

ساحة للثقافة والإبداع ضمن تطلعات تراعي التطور والانفتاح المعرفي المستمر على العالم.

ثالثاً: أهداف القسم: حيث يهدف القسم إلى رفع المستوى الثقافي للخريجين من خلال:

١- تشجيع الطلبة للدخول في تجارب فنية تنمي الوعي الذاتي والجمعي من خلال المشاركات في الفعاليات الثقافية والفنية المحلية والعربية والعالمية.

٢- عقد ورش مسرحية متخصصة يقوم عليها خبراء في مختلف الاختصاصات الدقيقة.

٣- استضافة الكوادر والخبرات المسرحية لفتح اختصاصات مسرحية دقيقة تغطي معظم جوانب الفن المسرحي.

ومن خلال هذه الاستراتيجية، كان لا بد لقسم الفنون المسرحية من إيجاد علاقة وثيقة بينه وبين أبناء المجتمع المحلي، انطلاقاً من دوره في إثراء الثقافة، ورفع الوعي الفني في المجتمع، وترسيخ الانتماء الوطني ومحاربة عوامل التفرقة والضعف التي من شأنها أن تؤثر على الوحدة الوطنية.

٧- أن تؤكد على أن يعرف الطالب، ويفهم ويدرك قيمته وقدرته كإنسان جدير بالاحترام.

وحول مكونات برنامج إعداد معلم الفنون المسرحية، فيعد المعلم أحد أهم عناصر العملية التعليمية، وعليه تقع الأعباء الكبرى في ممارسة الجودة في مهنة التدريس من أجل نجاح العملية التعليمية وتحقيق أهدافها، وقد حددت الدراسات والبحوث التي تناولت التنمية المهنية للمعلم الجامعي أهم المجالات المستقبلية التي يجب أن يشملها التطوير المهني لعضو هيئة التدريس في الجامعات، وهي كما يلي (٣٠):

١- التطوير التدريسي: ويتضمن الارتقاء بمهارات الأداء التدريسي للمعلم الجامعي وتدريبه على طرق التدريس الحديثة والتي تعتمد على الحوار والمناقشة والتعلم الذاتي والقدرة على التفكير والابتكار وحل المشكلات، وكذلك تطويره تقنيا من خلال التعامل مع التكنولوجيا وتنمية القدرة على الاستفادة منها في التدريس والبحث العلمي.

٢- التطوير المنهجي: ويشير إلى عمليات تمكين أعضاء هيئة التدريس لتنمية قدرتهم على تصميم المناهج وتنفيذها

١- أن يكون إعداد المعلم عملية متصلة، حيث تصبح هذه العملية مستمرة مدى الحياة المهنية، إذ تتضمن التدريب قبل وأثناء الخدمة، والتعليم المستمر.

٢- إن إعداد المعلم يجب أن يكون مهماً لإمداد الطلبة بما يحتاجون إليه من المعرفة والثقافة، وذلك لتطوير العملية التعليمية، وتحسين أحوال الطلبة العامة والخاصة.

٣- أن تكون الأهداف متكاملة فيما بينها، ومتكاملة مع الأهداف العامة للتربية في المجتمع.

٤- أن تكون شاملة لجميع جوانب الإعداد، ومحقة للتوازن النسبي بين هذه الجوانب.

٥- أن تؤكد على ضرورة تحقيق أهداف التربية في الطلبة، مما ينتقل فيما بعد إلى تلاميذهم في مستقبل حياتهم العملية.

٦- أن تؤكد على دور التبادل الثقافي والعلمي والمعرفي بين مؤسسة الإعداد ومثيلاتها داخل الدولة وبين الدول العربية والأجنبية، بما يساعد على الاستفادة من الاتجاهات الحديثة المناسبة.

وما يجب مراعاته عند إعداد أدوات
التقويم.

وهذه العمليات التعليمية ينبغي أن
تقود التربويين نحو تطوير برامج إعداد
معلمي الفنون المسرحية في ضوء معايير
الجودة الشاملة، حيث تكون معايير محددة
تبين سمات وخصائص ذلك المعلم الذي
نريده، انطلاقاً من أهمية الدور الذي يقوم
به لاسيما دوره في تشكيل الثقافة والهوية
الوطنية لأبناء الأمة، وهناك عدد من
المصادر التي يمكن من خلالها تحديد
الاحتياجات التدريبية للمعلمين وأعضاء
هيئة التدريس، منها:

- ١- اللقاءات والاجتماعات مع أعضاء
الهيئات التدريسية.
- ٢- لوائح تقويم أعضاء الهيئات
التدريسية، بحيث يمكن الحصول من خلالها
على بيانات ذات أهمية وتأثير في التطوير.
- ٣- طرح العديد من الأسئلة على الفئة
المستهدفة.
- ٤- مشاركة الهيئة التدريسية في
التخطيط والتطبيق لبرامج التطوير.
- ٥- استخدام الاستبيانات.
- ٦- الاستفادة من التغذية الراجعة من
الميدان^(٣١).

وتقويمها في ضوء الأهداف المنشودة من
التعليم العالي وفي ضوء حاجة الطلاب
ومتطلبات المجتمع المتغيرة.

٣- التطوير البحثي: تدريب أعضاء
هيئة التدريس للتمكن من أصول البحث
العلمي ومهاراته.

٤- التطوير الإداري والمهني: تقع
مسؤولية تخطيط، وتنفيذ هذا النوع من
الأساليب على الجامعة أو الكلية أو القسم
الذي ينتمي إليه عضو هيئة التدريس، وهو
يتضمن تعريف المدرس الجامعي بكيفية
توجيه الطلبة وإرشادهم، بالإضافة إلى
مجالات إدارية ومهنية أخرى تسهم في
تحقيق التنمية والتطوير المهني كالمؤتمرات،
الورش التعليمية، والتعليم عن بعد الذي
يساعد المدرس في الحصول على المعرفة
والعلم والتدريب الذي يحتاجه، مما يسهم
في نقل المعرفة للمتعلمين وتنمية مهاراتهم
في مختلف التخصصات عن طريق وسائل
وأساليب تختلف عن الأساليب المستخدمة
في نظم التعليم العادية.

٥- التقويم: تعريف عضو هيئة
التدريس بمفاهيم القياس والتقويم
والاختبارات التحريرية والعملية والشفهية

ثالثاً: تنظيم وتنفيذ المقررات: ويجب أن يكون ذلك بجدية، وأن تكون برامج التدريس مترابطة وواضحة للمعلمين، وأن يتم تنظيم المقرر بحسب درجة أهمية الموضوعات، ومن ثم العمل على تقييمه عن طريق التغذية الراجعة من المعلمين.

وعلى الرغم من اختلاف درجة التركيز في عمليات التطوير باختلاف السياق المجتمعي من دولة لأخرى، فإن الاهتمام بتطوير برامج إعداد المعلم وضمان جودة الإعداد قد بات يشكل اتجاهاً من أهم الاتجاهات العالمية المعاصرة، والتي أخذت اهتماماً متزايداً من قبل الباحثين التربويين، حيث انصب التأکید على ضرورة الاهتمام بالبناء المعرفي للمعلم بما يحقق له القيام بالدور المطلوب منه في العملية التعليمية، وتأكيد فاعليته عن طريق إكسابه المهارات والخبرات اللازمة له في مسيرته التربوية.

- منهجية الدراسة وإجراءاتها:

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، نظراً لملائمته لطبيعتها وأهدافها، وهذا المنهج قائم على عملية المسح للكشف عن معايير ضمان الجودة ودورها

ولكي يتحقق التطوير المهني للمعلم، يجب أن تستند عملية التطوير المهني على خطة استراتيجية مرنة، وقد ذهب دونالدسون (Jim Donaldson , 2000) إلى أن هناك عدة معايير لجودة تصميم برامج إعداد وتدريب المعلمين وهي^(٣٢):

أولاً: أهداف المنهج أو البرنامج: فينبغي أن تكون أهداف المنهج وموضوعاته واضحة ومعلومة للمعلمين، وأن تكون أهداف التخصص وموضوعاته مرتبطة برسالة الدولة، وباحتياجات الطلاب والمعلمين والمجتمع، وكذلك أن يكون المنهج مناسباً ومتوازناً في التخصص المحدد ليكسب المعلمين مهارات شخصية، وأن يواكب ما يستجد من تغيرات سريعة في العلم.

ثانياً: تصميم المنهج أو البرنامج

ومراجعته: فيجب أن يلي المقرر احتياجات الغالبية العظمى من المعلمين، وأن يساعد على التعلم الذاتي من خلال المصادر المتاحة للمعرفة، وأن تتم مراجعة المنهج على فترات غير متباعدة وذلك لتقييم مدى ملائمته لاحتياجات المعلمين والمجتمع والطلاب.

في تحقيق أهداف البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم.

الدراسة والبالغ عددهم (٥٣) في الفنون المسرحية، وكما هم موزعون في الجدول رقم (١)، والذي يبين توزيع مجتمع الدراسة حسب الجنس والمستوى الدراسي والمعدل التراكمي وحقل التخصص في الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ٢٠١٧/٢٠١٨ م.

- مجتمع الدراسة وعيبتها:

تكون مجتمع الدراسة من طلبة قسم الفنون المسرحية في كلية الفنون والتصميم في الجامعة الأردنية، ممن كانوا على مقاعد

جدول (١) توزيع عينة الدراسة حسب الخصائص الشخصية

المتغير	التكرار	نسبة
الجنس		
أ- ذكر	٢٥	٤٧,٢ %
ب- أنثى	٢٨	٥٢,٨ %
المستوى الدراسي		
أ- السنة الثانية	١٩	٣٥,٨ %
ب- السنة الثالثة	١٢	٢٢,٦ %
ج- السنة الرابعة	٢٢	٤١,٥ %
المعدل التراكمي		
أ. أكثر من ٤ / ٣	١١	٢٠,٨ %
ب. أقل من ٤ / ٣	٣٦	٦٧,٩ %
ج. أقل من ٤ / ٢	٦	١١,٣ %
حقل التخصص		
أ- تمثيل مسرحي	٣٢	٦٠,٤ %
ب- إخراج مسرحي	٢١	٣٩,٦ %

الإناث (٥٢,٨ %) كما أن ٤١,٥ % من العينة من طلبة السنة الرابعة، كما نلاحظ

ومن الملاحظ على الجدول السابق أن النسبة الأكبر من عينة الدراسة هي من

- صدق أداة الدراسة:

تم التحقق من الصدق الظاهري لمحتوى الأداة (الاستبانة) من خلال عرضها على (٨) محكمين من ذوي الخبرة والكفاءة في مجال الفنون المسرحية، من أعضاء الهيئة التدريسية في بعض الجامعات الأردنية، وقد تألفت الأداة من قسمين: القسم الأول، وتضمن بيانات عامة عن الطلبة هي: (الجنس، والمستوى الدراسي، المعدل التراكمي، وحقل التخصص). أما القسم الثاني، فقد اشتمل على الفقرات المتعلقة بمعايير جودة البرنامج الأكاديمي في إعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم وعددها (٥٠) فقرة موزعة على ستة مجالات وهي:

أهداف البرنامج وقد احتوت على (٨) فقرات، والمنهاج وقد احتوى على (٩) فقرات، وفقرات وطرق التدريس وقد احتوت على (٧) فقرات، والتقويم وقد احتوى على (٧) فقرات، والمرافق والتجهيزات الفنية وقد احتوت على (٦) فقرات، والجانب التطبيقي الميداني وقد احتوى على (١٣) فقرة.

وأبدى أعضاء اللجنة آرائهم بالأداة

وفقاً للمحاور الآتية:

أن ٩٦,٧٪ من العينة يقل معدلهم التراكمي عن ٣/٤ كما نلاحظ أن ٤٠,٦٪ من العينة متخصصون في التمثيل المسرحي، و٣٩,٦٪ منها متخصصون في الإخراج المسرحي.

- اختبار الثبات للأداة:

تم استخدام اختبار (ألفا كرونباخ) لقياس مدى ثبات أداة القياس حيث بلغت قيمة α للمقياس ككل ($\alpha = 0,925$)، وهي نسبة ممتازة كونها أعلى من النسبة المقبولة ٠,٦٠.

- أداة الدراسة: تم تطوير أداة الدراسة اعتماداً على الأدب النظري والدراسات السابقة التي جاءت على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالدراسة الحالية، بالإضافة إلى خبرة الباحثين الأكاديمية والتربوية، ومعرفتهما بواقع الفنون المسرحية في الأردن والمعوقات التي تواجهه لاسيما تحقيق أهداف البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في ضوء المتغيرات المعاصرة، لهذا تم تطوير الأداة لتكون الإجابة مستندة إلى التدريج الثلاثي (موافق، محايد، غير موافق).

- درجة وضوح الفقرات.
- درجة ملائمة الفقرات لأبعاد الدراسة.
- سلامة الصياغة اللغوية.
- التعديلات والمقترحات من قبل أعضاء اللجنة لتطوير الأداة.
- وبعد أن تم استعادة الأداة من المحكمين تم التعامل بإيجابية مع ملاحظاتهم ومقترحاتهم بإعادة صياغة لبعض الفقرات، وحذف بعضها ممن تم التوصية بحذفها، وكانت الأداة بصورتها الأولية قد تكونت من (٥٥) فقرة، وقد استقر عدد فقرات الاستبانة بعد التحكيم على (٥٠) فقرة بعد حذف (٥) فقرات، حيث تم الاعتماد على ٨٥٪ من آراء المحكمين.
- مقياس الأداة:
- تم تدريج مستوى الاجابة عن كل فقرة مستندة إلى التدريج الثلاثي بالنسبة للفقرات مجتمعة، حيث تم اعطاء درجة حكم مرتفعة (٣)، ومتوسطة (٢)، وضعيفة (١).
- وبهذا تكون أعلى درجة يمكن الحصول عليها في الاختبار $٦٠ (٣ \times ٢٠)$ وأقلها $٢٠ (١ \times ٢٠)$ ، وتم اعتماد معيارا للحكم على استجابات أفراد الدراسة هو (١-٦٦) واتخذت درجة حكم ضعيفة، و(١٦٧، ١-٣٣) واتخذت درجة حكم متوسطة، و(٣٤، ٢-٣) واتخذت درجة حكم مرتفعة، وقد تم التوصل إلى هذا المعيار من خلال قسمة مدى العلامات (٣ - ١) على ٣.
- ولتوضيح ذلك تكون العلامة الافتراضية الكبرى (٣)، والعلامة الافتراضية الصغرى (١).
- متغيرات الدراسة:
- اشتملت الدراسة على المتغيرات التالية:
- أ- المتغيرات المستقلة: استهدفت هذه الدراسة طلبة الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية، وشملت المتغيرات المستقلة الخاصة بالطلبة، وهي:
- الجنس، وله فئتان: (ذكر، وأنثى).
- المستوى الدراسي، وله ثلاثة مستويات: (سنة ثانية، سنة ثالثة، سنة رابعة).
- المعدل التراكمي، وله ثلاث فئات: (أكثر من $٤/٣$ ، أقل من $٤/٣$ ، أقل من $٤/٢$).
- التخصص، وله فئتان: (إخراج مسرحي، تمثيل مسرحي).
- ب - المتغيرات التابعة: معايير ضمان الجودة.

- اجراءات الدراسة:

تمثلت أداة الدراسة بالاستبانة التي تم توزيعها على (٥٣) طالبا وطالبة هم طلبة قسم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية، وتمت عملية توزيع نسخ الاستبانة واسترجاعها من قبل الباحثين بصورة شخصية، حيث تم التأكد من قيام مجتمع الدراسة من باستكمال الاجابة عن مفردات المقياس كافة، وتم استرجاع ما نسبته (١٠٠٪) وتم بعد ذلك استخدام برنامج التحليل الاحصائي للعلوم الاجتماعية (SPSS) لإجراء التحليلات الاحصائية المناسبة للإجابة عن أسئلة الدراسة.

نتائج الدراسة ومناقشتها:

السؤال الأول: ما مدى ملائمة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم؟

لقد تم استخراج المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لوصف إجابات العينة نحو المجالات أدناه:
جدول (٢): المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لوصف إجابات العينة نحو المجالات.

المجال	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة T	SIG T
أهداف برنامج البكالوريوس	٢,٤٢	٠,٤٦	٧,٤٥	٠,٠٠
المنهاج الدراسي	٢,٣٧	٠,٤٤	٦,١١	٠,٠٠
طرق وأساليب التدريس	٢,٤٣	٠,٤٧	٦,٦٧	٠,٠٠
التقييم	٢,٤٣	٠,٤٠	٧,٨٨	٠,٠٠
المرافق والتجهيزات المسرحية	١,٨٦	٠,٦١	-١,٦٧	٠,٠٠
التطبيقات المخبرية	٢,٤٤	٠,٣٩	٨,٢٤	٠,١٠
المجالات مجتمعة	٢,٣٥	٠,٣٥	٧,٤١	٠,٠٠

معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلمي الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية

بعد استعراض المتوسطات أعلاه، وجدنا أن هناك تطبيق لكل معيار من

السؤال الثاني: هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة ($\alpha \geq$) ٠,٠٥ بين متوسط آراء الطلبة في قسم الفنون المسرحية في كلية الفنون والتصميم في الجامعة الأردنية حول تقديرهم لدرجة ملائمة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم تعزى لمتغير (المعدل التراكمي، والمستوى الدراسي، والجنس، والتخصص)؟

١.١- المعدل التراكمي:

جدول (٣) متوسط آراء الطلبة تبعاً لمتغير المعدل التراكمي

فيما عدا مجال المرافق والتجهيزات المسرحية ذي المتوسط الحسابي (١,٨٦) الأقل من متوسط أداة القياس (٢)، ومن أجل اختبار مدى وجود دلالة إحصائية بين المتوسط الحسابي ومتوسط أداة القياس (٢) فقد تم استخدام اختبار One sample t-test حيث تبين أن قيمة T المحسوبة لمجال المرافق والتجهيزات المسرحية (١,٦٧-) ليست ذات دلالة إحصائية عند مستوى α ٠,٠٥ مما لا يوجد كفاية لتطبيق هذا المعيار، بينما قيمة T المحسوبة بالنسبة لباقي المجالات ذات دلالة إحصائية عند مستوى α ٠,٠٥ مما يدل على وجود كفاية في هذا المعيار (ما عدا معيار المرافق والتجهيزات المسرحية) في برنامج إعداد معلمي الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية.

الدلالة	F	متوسط المربعات	درجة الحرية	مجموع المربعات	
.951	.051	.009	2	.018	بين المجموعات
		.179	50	8.930	في المجموعات
			52	8.948	المجموع
.791	.235	.047	2	.094	بين المجموعات
		.199	50	9.975	في المجموعات
			52	10.068	المجموع
.675	.397	.089	2	.178	بين المجموعات

التدريس	في المجموعات	11.210	50	.224		
	المجموع	11.388	52			
التقييم	بين المجموعات	1.130	2	.565	3.904	.027
	في المجموعات	7.236	50	.145		
	المجموع	8.366	52			
المرافق والتجهيزات المسرحية	بين المجموعات	1.234	2	.617	1.732	.187
	في المجموعات	17.807	50	.356		
	المجموع	19.041	52			
التطبيقات المخبرية	بين المجموعات	.093	2	.046	.303	.740
	في المجموعات	7.656	50	.153		
	المجموع	7.749	52			
المجموع	بين المجموعات	.002	2	.001	.010	.990
	في المجموعات	6.219	50	.124		
	المجموع	6.221	52			

وباستخدام اختبار LSD للمقارنات البعدية فقد تبين أن هناك فروقات بين الفئة (أكثر من ٤/٣) وبين الفئتين (أقل من ٤/٣) وأقل من (٤/٢) وتميل الفروقات لصالح (أكثر من ٤/٣) وفقاً للجدول التالي:

لقد تم استخدام اختبار One Way ANOVA حيث تبين أن قيمة F المحسوبة بالنسبة لمجال التقييم فقط ذات دلالة إحصائية عند مستوى ($\alpha = 0,05$) مما يدل على وجود فروقات في الآراء حول هذا المجال تبعاً لمتغير المعدل بينما قيمة F المحسوبة لباقي المجالات ليست ذات دلالة إحصائية عند مستوى ($\alpha = 0,05$) وبما يعكس عدم وجود فروقات فيها تبعاً لمتغير المعدل.

جدول (٤): اختبار LSD للمقارنات البعدية				
المجال	أكثر من ٤ / ٣	أقل من ٤ / ٣	أقل من ٤ / ٢	المتوسط الحسابي
أكثر من ٤ / ٣		٠,٣٤*	٠,٤٣*	٢,٧١
أقل من ٤ / ٣	٠,٣٤*			٢,٣٧
أقل من ٤ / ٢	٠,٤٣*			٢,٢٩

٢- المستوى الدراسي:

جدول (٥) متوسط آراء الطلبة تبعاً لمتغير المستوى الدراسي						
	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	F	الدلالة.	
أهداف برنامج البكالوريوس	907.	2	.453	2.819	.069	بين المجموعات
	8.041	50	.161			في المجموعات
	8.948	52				المجموع
المنهاج الدراسي	1.152	2	.576	3.231	.048	بين المجموعات
	8.916	50	.178			في المجموعات
	10.068	52				المجموع
طرق وأساليب التدريس	1.157	2	.579	2.827	.069	بين المجموعات
	10.231	50	.205			في المجموعات
	11.388	52				المجموع
التقييم	.401	2	.200	1.257	.293	بين المجموعات
	7.965	50	.159			في المجموعات
	8.366	52				المجموع
المرافق والتجهيزات	2.131	2	1.066	3.151	.051	بين المجموعات
	16.910	50	.338			في المجموعات

المسرحية	المجموع	19.041	52			
التطبيقات المختبرية	بين المجموعات	1.432	2	.716	5.669	.006
	في المجموعات	6.316	50	.126		
	المجموع	7.749	52			
المجموع	بين المجموعات	1.001	2	.501	4.795	.012
	في المجموعات	5.220	50	.104		
	المجموع	6.221	52			

وسنة رابعة وتميل لصالح السنة الرابعة
وهذا ما يوضحه الجدول التالي:

لقد تم استخدام اختبار One Way ANOVA حيث تبين أن قيمة (F) المحسوبة بالنسبة لمجال المنهاج الدراسي ومجال التطبيقات المختبرية والمجالات مجتمعة ذات دلالة إحصائية عند مستوى (٠,٠٥) بينما لا يوجد دلالة إحصائية بالنسبة لباقي المجالات عند مستوى (٠,٠٥) مما يدل على وجود فروق في مجالي المنهاج والجانب التطبيقي الميداني والمجالات مجتمعة تبعاً للمستوى الدراسي.

وباستخدام اختبار LSD للمقارنات البعدية فقد تبين وجود فروقات بين سنة ثانية وسنة رابعة وتميل الفروقات لصالح سنة رابعة وذلك بالنسبة لمجال المنهاج الدراسي والمجالات مجتمعة أما بالنسبة لمجال التطبيقات المختبرية فقد تبين وجود فروقات بين سنة ثانية وكل من سنة ثالثة

جدول (٦) اختبار LSD للمقارنات البعدية:					
المتوسط الحسابي	٤	٣	٢	السنة	المجال
٢,٢١٦٤	٠,٣٢٤٠٣*			٢	المنهاج الدراسي
٢,٢٩٦٣				٣	
٢,٥٤٠٤			٠,٣٢٤٠٣*	٤	
٢,٢٢٢٧	٠,٣٦٨٢٤*	-* ٠,٢٧٠٩٢		٢	التطبيقات المختبرية
٢,٤٩٣٦			٠,٢٧٠٩٢*	٣	
٢,٥٩٠٩			٠,٣٦٨٢٤*	٤	
٢,٥٩٠٩	٠,٣٠٩٣٨*			٢	المجالات مجتمعة
٢,١٩٧٩				٣	
٢,٥٠٧٣			٠,٣٠٩٣٨*	٤	

٣- الجنس:

جدول (٧) متوسط آراء الطلبة تبعاً لمتغير الجنس:						
الدلالة	T المحسوبة	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	العينة	الجنس	
٠,٠٨	١,٧٨٥	.36493	2.5300	25	ذكر	أهداف برنامج
		.43993	2.3304	28	أنثى	البكالوريوس
٠,٢٦	١,١٤١	.32628	2.4400	25	ذكر	المنهاج
		.51907	2.3056	28	أنثى	الدراسي
٠,١٨١	١,٣٥٥	.39314	2.5200	25	ذكر	طرق وأساليب
		.51936	2.3469	28	أنثى	التدريس
٠,٢٤١	١,١٨٦	.34037	2.5029	25	ذكر	التقييم
		.44559	2.3724	28	أنثى	
٠,٢٢٨	١,٢٢٢	.49065	1.9667	25	ذكر	المرافق

		.68694	1.7679	28	أنثى	والتجهيزات المسرحية
٠,٦٢٦	٠,٤٩١	.39441	2.4646	25	ذكر	التطبيقات
		.38388	2.4121	28	أنثى	المختبرية
٠,١٥٤	١,٤٤٥	.30610	2.4240	25	ذكر	المجموع
		.37156	2.2879	28	أنثى	

آراء الطلبة في قسم الفنون المسرحية حول تقديرهم لدرجة ملائمة برنامج البكالوريوس في إعداد معلم الفنون المسرحية تعزى لمتغير الجنس.

٤- التخصص:

لقد تم استخدام اختبار T-test for independent sample حيث تبين أن قيمة T المحسوبة بالنسبة لكل مجال وللمجالات مجتمعة ليست ذات دلالة إحصائية عند مستوى (٠,٠٥) مما يدل على أنه ليست هناك فروق بين متوسط

جدول (٨): متوسط آراء الطلبة تبعاً لمتغير التخصص						
الدلالة	T المحسوبة	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	العينة	التخصص	
٠,٠٢٢	-٢,٣٥	.42826	2.3203	32	تمثيل مسرحي	أهداف برنامج البكالوريوس
		.34536	2.5833	21	إخراج مسرحي	
٠,٠٠٤	-٢,٩٩	.42367	2.2326	32	تمثيل مسرحي	المنهاج الدراسي
		.38749	2.5767	21	إخراج مسرحي	
٠,٢٣٤	-١,٢١	.47163	2.3661	32	تمثيل مسرحي	طرق وأساليب التدريس
		.45699	2.5238	21	إخراج مسرحي	
٠,٠٥٤	-٠,٦٢	.41864	2.4063	32	تمثيل مسرحي	التقييم
		.37886	2.4762	21	إخراج مسرحي	
٠,٠٠١	-٣,٥٤	.44349	1.6458	32	تمثيل مسرحي	المرافق والتجهيزات المسرحية
		.67759	2.1905	21	إخراج مسرحي	

٠,٠٠١	-٣,٤٣	38334	2.3029	32	تمثيل مسرحي	التطبيقات المختبرية
		29526	2.6410	21	إخراج مسرحي	
٠,٠٠٢	-٣,٢٤	31157	2.2375	32	تمثيل مسرحي	المجموع
		32798	2.5267	21	إخراج مسرحي	

هذا الجانب يعد من أهم الجوانب التي تمنح الخبرة العملية للطلبة، وهي تعزز قدراتهم في الجوانب التطبيقية وتؤهلهم وظيفياً للتدريس النظري والعملي للمناهج المقررة للطلبة، لذلك ينبغي التأكيد على زيادة المقررات الدراسية العملية لأن نتيجة الدراسة قد أظهرت فروقات تميل لطلبة السنة الرابعة والذين هم أكثر خبرة من الطلبة الآخرين، مما يؤكد تبرير الرأي الوارد حول ما يخص هذا المجال.

٢- التأكيد على زيادة الاهتمام بالمرافق والتجهيزات المسرحية اللازمة التي تخدم العملية التعليمية من مختبرات مسرحية وقاعات تدريس لاسيما القاعات العملية، فقد أظهرت الدراسة عدم وجود كفاية في هذا المعيار حالياً، ويعود ذلك لقلة التجهيزات الخاصة بالمرافق بسبب شح الموارد وقلة المخصصات المالية، ويرى الباحثان أن هناك توجهات حثيثة لتجهيز تلك المرافق بالتجهيزات المسرحية من وسائل تعليمية وتكنولوجية، وأنظمة

لقد تم استخدام اختبار T- test for independent حيث تبين أن قيمة T المحسوبة ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٥ بالنسبة لمجالات لـ (أهداف برنامج البكالوريوس، والمنهاج الدراسي، والمرافق والتجهيزات المسرحية، والتطبيقات المختبرية، والمجالات مجتمعة) مما يدل على وجود فروقات فيها تبعاً للتخصص، وتميل الفروقات لصالح حملة تخصص الإخراج المسرحي كون المتوسطات الحسابية لهم أكبر من المتوسطات الحسابية لحملة تخصص التمثيل المسرحي.

نتائج الدراسة ومناقشتها:

أسفرت الدراسة عن عدد من النتائج أهمها:

١- ضرورة إعادة النظر بالمواد والمقررات الدراسية لاسيما فيما يتعلق بالتطبيقات المختبرية التي يبرز دورها في تعزيز قدرات الطالب في التمثيل والإخراج، وضرورة توافيقها في مستواها مع البرامج الدولية في الإعداد وذلك لأن

٢- توظيف معايير ضمان الجودة في مكونات وعناصر برنامج إعداد معلم الفنون المسرحية كأسلوب إداري من شأنه أن يساهم في تطويرها.

٣- أن يتم التوجه نحو تطوير مخرجات أقسام الفنون المسرحية في الجامعات والكليات الأردنية من خلال لجان وفرق عمل تأخذ بعين الاعتبار احتياجات وزارة التربية والتعليم والمؤسسات الثقافية الأخرى، وبما يتوافق مع معايير الجودة الشاملة في إعداد معلم الفنون المسرحية.

٤- توفير المناهج الدراسية المتقدمة، والمستلزمات والتجهيزات الفنية اللازمة، ومواكبة المستجدات التقنية والتكنولوجية التعليمية بما يُخدم حقول الدراسات المسرحية المتنوعة وفقاً لمعايير نظام الجودة.

٥- تدريب ومتابعة معلم الفنون المسرحية أثناء العمل، وتهيئة الأماكن له للمشاركة الثقافية والفنية في الورش والملتقيات والمهرجانات المحلية والعربية، مما يمكنه من مواكبة آخر المستجدات والتطورات في حقل اختصاصه.

صوت وإضاءة، وتهيئة القاعات للتدريب من خلال بناء أماكن للتدريب المسرحي وتغطيتها بما يضمن السلامة للطلبة أثناء التدريب.

٣- وقد تبين في مجال التقويم أن الفروقات كانت للطلبة الذين معدلاتهم مرتفعة، فقد لامسوا الواقع نظراً لخبراتهم التراكمية خلال فترة دراستهم، وأصبحوا قادرين على نقد التقويم وطريقته بما يحقق مصالحهم، وبما يقيس جوانب العملية التعليمية.

٤- دلت نتائج الدراسة في المجالات مجتمعة على وجود فروقات لصالح حملة تخصص الإخراج المسرحي لكونهم الأكثر معرفة بالأسس التربوية التي قاستها الدراسة الحالية، وهم من سيقومون بمهنة التدريس في المستقبل.

التوصيات:

أسفرت الدراسة عن عدد من التوصيات أهمها:

١- ضرورة إعادة النظر في برنامج إعداد معلم الفنون المسرحية بما يتناسب ومعايير ضمان الجودة العربية والعالمية، والتخطيط لتلك البرامج كما ونوعاً على أسس علمية.

استبانة

عزيمي الطالب/ الطالبة.....

يقوم الباحثان بإعداد بحث بعنوان: "معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم". وهذه الاستبانة وضعت لمعرفة معايير ضمان الجودة ودورها في تحقيق البرنامج الأكاديمي لإعداد معلم الفنون المسرحية في الجامعة الأردنية من وجهة نظر الطلبة أنفسهم، ولتحقيق هدف الدراسة يعرض الباحثان هذه الاستبانة المكونة من (٥٠) فقرة مقسمة على ستة مجالات تتناول موضوع معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلم الفنون المسرحية. أرجو التكرم بوضع إشارة (X) أمام كل فقرة وتحت درجة الحكم التي تراها مناسبة راجياً توخي الدقة والأمانة العلمية. علماً أن الاستبانة مصممة لأغراض البحث العلمي. وستعامل البيانات الواردة فيها بمتى السرية والموضوعية.

شاكراً لكم حسن تعاونكم،،،

الباحثان: د. خالد أبو لوم ود. يحيى عيسى

المعلومات الشخصية (البيانات الأساسية):

- ١- الجنس: ☐ ذكر ☐ أنثى
- ٢- المستوى الدراسي: ☐ سنة ثانية ☐ سنة ثالثة ☐ سنة رابعة
- ٣- المعدل التراكمي: ☐ أكثر من ٤/٣ ☐ اقل من ٤/٣ ☐ اقل من ٤/٢
- ٤- حقل التخصص: ☐ تمثيل مسرحي ☐ اخراج مسرحي

الرقم	المجال الأول: فقرات الاستبانة	موافق	محايد	غير موافق
	أهداف برنامج البكالوريوس			
١	تؤدي أهداف البرنامج إلى تعزيز القيم الثقافية المجتمعية في المجتمع الأردني.			
٢	تنمي أهداف البرنامج مهارات التفكير الإبداعي لدى الطلبة.			
٣	تعكس أهداف البرنامج التطورات المعاصرة في الحقل المسرحي.			

٤	تعمل أهداف البرنامج على اكتمال شخصية الطالب من جميع النواحي.		
٥	تواكب أهداف البرنامج التطورات العلمية المعاصرة في المجالات التربوية.		
٦	تتفق أهداف البرنامج مع النتائج المتوقعة في مجال التخصص لدى الخريجين.		
٧	تتفق أهداف البرنامج الاحتياجات الخاصة بسوق العمل.		
٨	وجود أهداف واضحة ومعلنة للبرنامج.		
المجال الثاني: المنهاج الدراسي			
١	تزود الطلبة بالمعارف والمهارات والكفايات من خلال المواد النظرية والعملية.		
٢	تكسب المواد الطلبة مهارات الاتصال والعمل الجماعي تبادل الخبرات.		
٣	تركز خطط المواد على الجانب العملي أكثر من الجانب النظري.		
٤	تليي المواد الدراسية متطلبات السوق المحلي والعالمي.		
٥	يراعي محتوى المنهاج الفروق الفردية بين الطلبة وخبرات التعلم السابقة.		
٦	يزود الطلبة بأفاق معرفية ومهارات متميزة من خلال التدريبات وورش العمل.		
٧	يوكب محتوى المنهاج المعرفة المعاصرة في المجال التربوي.		
٨	تعكس المواد النظرية والعملية كافة المجالات المعرفية للتخصص.		
٩	يراعي محتوى المنهاج التوازن بين الجانب النظري والجانب التطبيقي.		
المجال الثالث: طرق وأساليب التدريس			
١	تناسب طرق التدريس جميع الطلبة (فردية، جماعية).		

٢	مناسبة طرق التدريس لعدد من الطلاب.		
٣	تنمي طرق التدريس جميع المهارات المطلوبة من تواصل وحوار ومناقشة وتفكير ناقد وحل المشكلات...الخ		
٤	تراعي طرق التدريس الفروق الفردية بين الطلبة.		
٥	تراعي طرق التدريس الخبرات التراكمية السابقة لدى الطلبة.		
٦	تستخدم طرق تدريس متجددة تتناسب مع التطورات العلمية الحديثة.		
٧	توظف الوسائل التكنولوجية الحديثة في التدريس.		
المجال الرابع: التقييم.			
١	هناك آلية واضحة لتقييم مشاريع الطلبة.		
٢	يمكن للطلبة مراجعة نتائج امتحاناتهم.		
٣	هناك لجان داخلية وخارجية متخصصة لتقييم أداء الطلبة .		
٤	يؤخذ بملاحظات الطلبة حول آلية التقييم بعد تقييمهم ليؤخذ بها مستقبلا.		
٥	أساليب التقويم شاملة لجميع جوانب العملية التعليمية.		
٦	تقيس أساليب التقويم المهارات العقلية والتكنيكية (تحليل، وتركيب، وتقويم).		
٧	تراعي أساليب التقويم الفروق الفردية بين الطلبة.		
المجال الخامس: المرافق والتجهيزات المسرحية.			
١	ملائمة قاعات التدريس للأغراض الدراسية.		
٢	كفاية قاعات التدريس لإعداد الطلبة.		
٣	توافر الكتب والدوريات والمراجع ذات العلاقة بالبرنامج		

			المسرحي.	
٤			توفر أنظمة الصوت والاضاءة بما يتناسب مع طبيعة البرنامج لتحقيق أهدافه.	
٥			وجود مختبرات مسرحية كافية لتحقيق الأهداف.	
٦			وجود قاعات تدريب كافية ومجهزه لتحقيق الأهداف.	
			المجال السادس: التطبيقات المختبرية.	
١			وجود مرشد خاص لبرنامج التطبيقات المختبرية في القسم.	
٢			هناك متابعة واضحة لبرنامج التطبيقات المختبرية من قبل القسم.	
٣			يتم تقييم الطلبة المراد تأهيلهم كمعلمين بعد الانتهاء من التطبيقات المختبرية.	
٤			يؤخذ برأي الأكاديميين والخبراء وأصحاب العمل بالطالب بعد التخرج.	
٥			أهداف التطبيقات المختبرية لتأهيل الطلبة كمعلمين واضحة ومحدده.	
٦			يتم التنسيق الكامل بين القسم والمؤسسات التي يلتحق بها الطالب.	
٧			تنمي التطبيقات المختبرية مهارات الطالب وقدرته على التدريس.	
٨			ترتبط التطبيقات المختبرية بالمسابقات الدراسية الأكاديمية.	
٩			تنمي التطبيقات المختبرية مهارات الطالب المراد تأهيله كمعلم للتدريس.	
١٠			تساعد التطبيقات المختبرية الطالب المعلم على الفهم التام لمواقع عملية التدريس في المدارس والمواقف التعليمية.	
١١			يمارس الطالب المعلم العملية التدريسية كاملة داخل الغرفة الصفية أو المختبر.	

١٢	تمكن التطبيقات المختبرية الطالب المعلم من تطبيق نظريات التعلم والتعليم.		
١٣	تعد الفترة المحددة للتطبيقات المختبرية كافية.		

الهوامش:

(v)Hanushek, Eric A .&Rivkin, Steven

G. (2010): "Using Value- Added Measures of Teacher Quality", National Center for the Analysis of Longitudinal Data in Education Research (CALDER) , Paper Presented at the Annual.

(٨) الشليبي، إلهام علي أحمد، أثر إدارة الجودة الشاملة في برامج التنمية المهنية للمعلمين - تجربة وكالة الغوث الدولية، الاردن، عمان، ٢٠١٠م.

(٩) الباز، مروة محمد، فعالية برنامج إعداد معلم العلوم الفيزيائية في تنمية مهارات التدريس لدى الطلاب المعلمين في ضوء المعايير القومية ومعايير جودة إعداد المعلم. أطروحة دكتوراه. كلية التربية - جامعة بور سعيد، جمهورية مصر العربية، ٢٠١١م.

(١٠) دحلان، عمر علي، درجة توافر معايير الجودة الشاملة في برنامج اعداد معلم اللغة العربية في كلية التربية بجامعة الأقصى، مجلة جامعة الأقصى، المجلد ١٧، العدد ٢، يونيو ٢٠١٣م، ص ٣٥-٦٦.

(١١) حمادنه، همام سمير، درجة توفر معايير ضمان الجودة في برنامج إعداد معلم التربية الابتدائية في جامعة اليرموك من وجهة الطلبة المتوقع تخرجهم، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر الثالث والذي جاء تحت عنوان: تكامل مخرجات

(١) انظر. العجمي، محمد حسنين، الاعتماد وضمان الجودة الشاملة لمدارس التعليم الثانوي العام، دار الجامعة الجديدة، الاسكندرية، ٢٠٠٧م، ص١٣١.

(٢) الترتوري، محمد عوض وجويحان، اغادير عرفات، ادارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم العالي والمكتبات والمعلومات، دار المسيرة ، عمان، ٢٠٠٩م، ص٣٩.

(٣)Rhodes, L. A. (1992) . On the Road to Qualty , Educational i - Leadership,1992, p.12

(٤) الصليبي، محمود عيد المسلم، الجودة الشاملة وأنماط القيادة التربوية، وفقاً لنظرية هيرسي وبلانشارد وعلاقتها بالرضا الوظيفي لمعلميهم وأدائهم، عمان، دار الحامد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م.

(٥)Heberman, Martin, The Dimensions of Excellence in Programs of Teacher Education Paper Presented at the Annual Conference Padre Island, Texas,1991.

(٦)Rice , Jennifer , Teacher Quality : Understanding the Effectiveness of Teacher Attributes , Available in the web at : www.Eric.ed.gov/ED480858,

200

للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق،
١٩٩٩م، ص ١٣.

(١٩) جامعة عين شمس، جمهورية مصر العربية،
مركز ضمان الجودة والاعتماد، منشور على الموقع
الالكتروني:

<http://qaac.shams.edu.eg/article.php?action=show&id=94#.VS9djiGqpBc>

(٢٠) طعيمة، رشدي احمد، وآخرون، الجودة
الشاملة في التعليم، ط ٢، دار المسيرة، الأردن،
عمان، ٢٠٠٨م، ص ٢٢.

(21) Glassop, L. The road to quality,
Sydney, Prentice hall, Australia,
ltd, 1995, p. 114

(٢٢) انظر. عبد الجواد، عصام الدين نوفل، ضبط
الجودة الكلية وتطبيقاتها في مجال التربية، مجلة
التربية، مركز البحوث التربوية والمناهج بوزارة
التربية الكويتية، السنة ٩، العدد ٣٠، ١٩٩٩م،
ص ٢٢-٢٣.

(٢٣) انظر. عبد الجواد، عصام الدين نوفل، ضبط
الجودة: المفهوم، المنهج، الآليات والتطبيقات
التربوية، مجلة التربية، قطاع البحوث التربوية
والمناهج بوزارة التربية بدولة الكويت، السنة ١٠،
العدد ٣٣، ٢٠٠٠م، ص ٧٥-٨٠.

(24) Deming Prize, available at: 22,
<http://www.juse.or.jp/e/deming/>, Last
visited October, 2015.

(٢٥) انظر. حسان، حسان محمد، ضبط جودة
التعليم: مفهومه، أهميته، وعلاقته بالمدخلات
والمخرجات والنظرة النقدية في: ندوة ضبط جودة
التعليم العام في دولة الكويت بين الواقع
والطموح، الكويت: مركز البحوث التربوية
والمناهج وزارة التربية، ١٩٩٤م، ص ١٠-١٣.

التعليم مع سوق العمل في القطاع العام والخاص،
جامعة البلقاء التطبيقية، عمان، للفترة من ٢٨
ابريل - ١ مايو ٢٠١٤م.

(١٢) قعدان، هنادي، درجة توفر معايير الجودة في
برنامج اعداد معلم التربية الخاصة في جامعة الأميرة
نورة بنت عبدالرحمن، المجلة الدولية التربوية
المتخصصة، المجلد ٤، العدد ٥، أيار ٢٠١٥م.

(١٣) أبو العلا، ليلي محمد، درجة تطبيق معايير
المجلس الوطني الأمريكي لاعتماد مؤسسات إعداد
المعلمين (NCATE) في كلية التربية بجامعة الطائف،
المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مجلد ١٢، عدد ١،
عمان، ٢٠١٦م، ص ١٠١-١١٥.

(١٤) العاني، وجيهة، وآخرون، درجة تحقق معايير
الاعتماد الدولية (CAEP) في برامج إعداد المعلم
بكلية التربية بجامعة السلطان قابوس، المجلة الأردنية
في العلوم التربوية، مجلد ١٤، عدد ٣، عمان،
٢٠١٨م، ص ٢٨٣ - ٣٠٠.

(١٥) علي، نادية حسن السيد (٢٠٠٢)، تصور
مقترح لتطوير نظام التعليم بالملكة العربية
السعودية في ضوء معايير الجودة الشاملة، مجلة
مستقبل التربية العربية، العدد السابع والعشرون،
المركز العربي للتعليم والتنمية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

(16) Foriskq, Restructuring Around
Standards. A-Tery, John, Practitioner's
Guide to Design and Implementation.
California, 1998, p3 .

(١٧) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب،
دار الرسالة، بيروت، د. ت، ص ٧٢.

(١٨) دوهيرتي، جيفري، تطوير نظم الجودة في
التربية، ترجمة. عدنان الأحمد وآخرون، المنظمة
العربية للتربية والثقافة والعلوم، المركز العربي

(٣٢) انظر. زايد، علاء إبراهيم، برنامج تدريبي مقترح لتحسين الأداء التدريسي لمعلمي التاريخ في المرحلة الثانوية العامة في ضوء معايير الجودة الشاملة، المؤتمر العالمي السنوي الحادي عشر والذي جاء تحت عنوان: الجودة في اعداد المعلم في الوطن العربي، كلية التربية، جامعة حلوان، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢٦) انظر. زيدان، مراد صالح مراد، مؤشرات الجودة في التعليم المصري. كلية التربية، الفيوم، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٧م.

(٢٧) انظر. قسم الفنون المسرحية، كلية الفنون والتصميم، الجامعة الأردنية، منشور على الموقع الالكتروني، ٢٠٠٨م.

(٢٨) الحرا حشة، محمد عبود، إعداد المعلم في ضوء التحديات العالمية المعاصرة، إعداد المعلم في كليات التربية وجهود الجمعيات العلمية في عمليات التطوير، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر إعداد المعلم في كليات التربية، وجهود الجمعيات العلمية في عمليات التطوير، والمنعقد في كلية التربية، جامعة حلوان، في الفترة الممتدة من ٢٨ - ٢٩ مارس ٢٠١٠م.

(٢٩) شوقي، محمود أحمد وسعيد، محمد مالك محمد، تربية المعلم للقرن الحادي والعشرين، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٥م، ص ٩ - ١٠

(٣٠) انظر: مذكور، أحمد علي، التعليم العالي في الوطن العربي - الطريق إلى المستقبل، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- وانظر. علي، بدر، تنمية وتطوير كفايات وفعاليات أعضاء هيئة التدريس بمؤسسات التعليم العالي - ندوة تنمية أعضاء هيئة التدريس في مؤسسات التعليم العالي (التحديات والتطوير)، جامعة الملك سعود، كلية التربية، الرياض في الفترة ١٤ - ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٤م.

(٣١) شاهين، علي محمد، إدارة الجودة الشاملة وأنظمتها في نجاح المنظمة والمنتج، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس، العدد الأول، ٢٠٠٤م.

المعادل الموضوعي في عينية أبي ذؤيب الهذلي

د. علي محمود الطوالة* د. أحمد هلال بني عيسى**

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٩/٨/١٥ تاريخ قبول البحث: ٢٠١٩/١٠/٦م

ملخص

تحاول هذه الدراسة أن تتلمس تجليات نظرية المعادل الموضوعي في مراثية أبي ذؤيب الهذلي العينية، وقد لاحظ الباحث أنها تتمثل فيها خير تمثيل من خلال المشاهد الشعرية؛ (أي الصور الفنية) التي جلى فيها قضيته الأساسية المتمثلة في حتمية الموت؛ إذ استحضر هذا المعنى في مشاهدته الشعرية الثلاث حمار الوحش والصائد، وثور الوحش والكلاب الضارية والصائد، فضلاً عن صراع الفارسين، فكانت نهاية كل واحد منهم الموت رغم الصراع على البقاء، وهو عين ما لاحظته الباحث في المشهد الاستهلاكي للقصيد الذي يرثي فيه أبناءه فنقل الهم من الخاص إلى العام.

كلمات مفتاحية: المعادل الموضوعي، أبو ذؤيب الهذلي، حمار الوحش، الثور الوحشي، صراع الفارسين.

The Objective Correlative in the Abi Thuayb al-Huthali's Ayn(ع)-rhymed Poem Abstract

This study attempts to examine the manifestations of the objective correlative theory in Abi Tuayb's ع-rhymed elegy. The researchers noticed that theses manifestations were best represented through the poetic scenes (poetic images) in which the poet revealed his fundamental issue of the inevit-

*أستاذ مساعد، جامعة البلقاء التطبيقية، كلية عجلون الجامعية.

**أستاذ مساعد، جامعة البلقاء التطبيقية، كلية عجلون الجامعية.

ability of death. He evoked this sense in his three poetic scenes: the zebra and the hunter, the wild bull the stray dogs and the hunter, in addition to the strife of the two knights. The end of each of them was death despite the struggle to survive. This is exactly what the researchers noted in the opening scene of the poem in which the poet laments his children, Therefore, hence transferring the concern from the private to the public.

Keywords: substantive equivalence, Abu Thuayb al-Huthali, The Zebra, The Wild Bull, the Strife of the Two Knights.

المقدمة:

تمهيد: المعادل الموضوعي مصطلحاً نقدياً

يعد المعادل الموضوعي (objective correlative) واحداً من أهم المصطلحات النقدية التي تدعو إلى الارتقاء بالعمل الأدبي والنهوض به من مستوى الذاتية إلى مستوى الموضوعية، ومن تخصيص التجربة إلى تعميمها، ومن المحسوس إلى المجرد، وكأنه في ذلك يثور على الرومانتيكية التي تتغنى بالذات والذاتية، وما يمور في أعماقها من مشاعر وأحاسيس من خلال دعوته لأن تكون التجربة الشعرية غير ذاتية بل عامة، و لئلا تكون التجربة الشعرية عملاً

مكشوفاً واضحاً يتوقع فيه الشاعر عند نقطة معينة، بل يتمتع بقدر من الغموض الفني من خلال الرمز الذي يعادل ذلك الإحساس.

فالعامل الفني يُتناول على أنه " كلمة غامضة ينبغي أن تلين عريكتها من خلال شرح هو الأقل من نوع شبه علمي موضوعي ^(١)، على أن لا نفهم بأن العمل الفني يخرج عن إطار التعبير العاطفي أو الشعور، بل إنه يوحد بين هذه العاطفة والفكر والموضوع المتجسد في عناصر الوجود الخارجي ^(٢). فالعاطفة وفق ذلك تتسامى لتصبح موضوعاً مبثوثاً في صورة شعرية، أو مشهد، أو مجموعة من الرموز

الشعرية داخل النص الأدبي بحيث يبدو النص في ظاهره مفككاً، لكنك إذا ما تفهمته وفتشت فيه، بدا لك أنه ينطوي على وحدة ونسيج يؤلفه الفكر المتحد بالعاطفة؛ ذلك أن الفن "تصور ورؤية وانتقاء"^(٣) لكن هذا الانتقاء يقوم على التناسب بين الرؤية والتصور، إذ يجلي الكاتب تصوره في موجودات ومواقف خارجية يجمعها ويوحدها الفن (العمل الأدبي).

ولأجل هذا ومثله طلع علينا إليوت بمصطلحه الذي اختُلف في ترجمته في الأوساط النقدية والأدبية، ولكن تبقى الترجمة الأكثر رواجاً وانتشاراً في أوساط النقاد ما أُطلق عليه بـ "المعادل الموضوعي"^(٤). وقد ترجم معناه إلى العربية وفق التالي: "إن السبيل الوحيد للتعبير عن العاطفة بشكل فني هو بإيجاد معادل موضوعي لها، أو بعبارة أخرى، (بإيجاد) مجموعة موضوعات أو مواقف أو سلسلة أحداث ستكون صيغة تلك العاطفة الخاصة (التي يراد التعبير عنها)، حتى إذا اكتملت الحقائق الخارجية التي لا بد أن تنتهي إلى خبرة حسية فإن العاطفة تستثار في الحال"^(٥).

وهذا يوحي بأن العاطفة مستقرة في نفس الشاعر لكنّها متوارية ومختبئة وراء سحر الكلمات، بل وراء هذه الموضوعات والصور الشعرية والرموز الفنية التي اهتدى إليها الشاعر من العالم الخارجي بدافع التناسب بين الذات والمواقف والأحداث الخارجية في هذا الكون. وبهذا فإن هذا المصطلح "يضع علامة التساوي بين إحساس جاهز متشيع يبدأ به الكاتب، وبين وسائل تعبير تؤثر في الجهاز العصبي للإنسان"^(٦). وبهذا تغدو عاطفة الشاعر بارزة ظاهرة من خلال التأثير بين التجربة الذاتية والحسية، أو إقامة علاقة بين ما يحسّ به الشاعر والعالم من حوله. وكل ذلك يعكسه الأسلوب الذي يصاغ به هذا الرمز الفني أو القدرة المجسدة المكافئة للشعور التي يبتها الأديب في إنتاجه الأدبي^(٧). وهذا ما يحقق تفاعل المتلقي مع العمل الفني، إذ تبدو عواطف الشاعر وأفكاره واضحة له من خلال قدرته على الربط بين الفكرة ومعادها أو العاطفة ومكافئها.

وهذا جوهر البلاغة عند إليوت وغاية ما يصبو إليه من فكرة المعادل. ويؤكد ذلك رشاد رشدي بقوله: "فالبلاغة تتمثل - كما يقول إليوت - في أن يخلق الكاتب شيئاً يجسم الإحساس، ويعادله معادلة

كاملة... حتى إذا اكتمل خلق هذا الشيء... استطاع أن يثير في القارئ الإحساس الذي يهدف إلى إثارتته^(٨). وبهذا فإن مصطلح المعادل الموضوعي قد نظر إلى الأديب والنص والمتلقي، إذ نظر إلى الأديب باعتباره يشكل فكرة أو عاطفة يصوغها من خلال النص الذي يجسد المعادل الموضوعي للفكر أو العاطفة، فتكون مهمة هذا العمل إيصال الفكرة أو العاطفة للقارئ بطريقة غير مباشرة. وبهذا يكون التلقي أكثر تفاعلاً وارتباطاً مع روح النص وجوهره.

أبو ذؤيب الهذليّ وعينيّته في ميزان النقد:

يعتبر أبو ذؤيب الهذلي واحداً من الشعراء الأفاضل الذين ذاع صيتهم واشتهروا بين النقاد حتى علا ذكره ففضّل على غيره، وقد ظهرت أمارات هذا التميز في ما ورد عند النقاد من ثناء على شعره عامة وقصيدته العينية خاصة؛ فهذا ابن سلام يجعله في الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية إلى جانب النابغة الجعدي، والشماع بن ضرار، وليبد بن ربيعة^(٩). وجعله بعضهم أشعر هذيل بلا مدافعة^(١٠). ولعل هذه الأحكام لم تأت إلا انعكاساً

لواقع شعره وشاعريته، فقد تميز في فن الرثاء على وجه الخصوص ففضل به على غيره.

أما عينيّته فقد فضلت على كل شعره الرثائي؛ فرأى بعضهم أنها سبب شهرته وتقدمه على شعر قومه^(١١)، وجعل الخليفة المنصور حفظها مظهراً للأدب و حسن العزاء^(١٢). ولعل المظهر الأبرز الذي يشير إلى تميزها وأنها عين شعره عناية النقاد بها ودراستها، فمنهم من خصها بمحدث في جزء من كتابه، ومنهم من شرحها، ومنهم من خصّها ببحث مستقل فالتمس مظهراً من مظاهرها المشرقة البراقة.

ويجدر الذكر أن هناك دراسات عديدة قد تحدثت عن مظهر الوحدة فيها، ولكن لم تتناول واحدة منها قضية المعادل الموضوعي، رغم أنها العنصر الأبرز فيها؛ لذا جاء هذا الموضوع مقصد الدراسة وهدفها الأسمى، لاسيما أن هذه القصيدة متعددة اللوحات والمشاهد. ولربما نظر إليها الكثيرون على أنها نسيج وحدة ظاهرة في الموضوع الأساسي والمشاهد التالية له، ولهم الحق في ذلك فهذا مما لا ينكر فيها.

فلعل من الدراسات التي تناولت هذا المظهر دراسة الدكتور سمر الديوب

(جدلية الفناء والخلود في عينية أبي ذؤيب الهذلي). فلعل الناظر في هذه الدراسة يجدها تتشابه في بعض مظاهرها مع الدراسة الحالية خاصة عند الحديث عن فكرة المشاهد الشعرية الثلاثة إضافة إلى المقدمة فهذا مما لا وهن فيه لا سيما أن الدراسات التي تناولت هذه القصيدة تحدثت عن عبثية الحياة وحقيقة الموت الخالدة، لكن لم تكن هذه الدراسات قد أفردت هذه القصيدة بحديث مطوّل، بل بإشارات سريعة لا تعنى بجمالياتها الفكرية والنفسية. فجاءت دراسة الدكتور سمر لتلقي الضوء على العلاقة الجدلية بين الفناء والخلود وتبين أن الموت هو الحقيقة الثابتة الخالدة وهي في هذا الملمح تتقاطع مع الدراسة الحالية لكنها تختلف في الطريقة والإجراءات وهدف البحث فقد اتخذت الدكتور سمر من العناصر الأسلوبية والسميائية ملمحاً دالاً على نفسية أبي ذؤيب خاصة وقضيتها الأساسية عامة من خلال عنايتها بالاستفهام والتكرار والتشخيص والقسم والجميل الاسمية والفعلية وأزمنة الأفعال والضمائر إذ تصف نفسية أبي ذؤيب بأنها "قلق مضطربة، وقد رسم خطابه هذا القلق والاضطراب؛ فقد تنوع هذا الخطاب بين

جمل فعلية بأزمنة مختلفة وجمل اسمية^(١٣) وتقول أيضاً معالجة مقدمة القصيدة "ونرى أن فاتحة القصيدة تحيل على ضمير المخاطب الذي أراد به الذات الشاعرة، ثم نجد أن ثمانية أفعال تعود إلى ضمير المتكلم، وخمسة تعود إلى ضمير المخاطب. وسبعة وعشرون فعلاً تعود إلى ضمير الغائب. يعني هذا أن المطلع النفسي يميل إلى وظيفة إخباري^(١٤) ونلمح من ذلك أن عناية الدكتور سمر قد تركزت على ما يخدم قضيتها خاصة فعرضت للمشاهد الثلاثة في إطار هذه الفكرة باعتبار الشاعر قد عمّم فكرته على العناصر الخارجية معتمداً فكرة النموذج بهدف الإقناع^(١٥).

أما الدراسة الحالية التي هي خاصتنا فقد اتخذت منحى مختلفاً في الغاية وإن تشابهت أحياناً في بعض أفكارها العامة، فأخذت تتلمس شعاب نظرية المعادل الموضوعي وتحليلاتها في هذه القصيدة، خاصة وأنها تتخذ من الرمز الفني وسيلة لتوسيع دائرة الرؤية والفن وربما تطهير النفس مما علق بها من ألم. فمما لا شك فيه أن هذه العناصر الحيوانية والإنسانية لم تأت عبثاً في هذا النص ولم تأت أيضاً لتقديم وظيفة إقناعية فقط لا سيما وأن هذا الموضوع عام في الكون، بل إن هذه المشاهد هي مشاهد

حملة بالرموز التي تنطق بحال الشاعر وواقعه النفسي والفكري والفسولوجي والأسري أيضا ولهذا جاءت هذه الدراسة.

إنّ هذه القصيدة تعتبر من أفضل قصائد الرثاء، وربما يعود تميزها لاختلافها عن قصائد الرثاء عامة التي ألفناها في تراثنا الشعري، وذلك أننا ألفنا الشعراء فيها يستخدمون الأسلوب المباشر في إظهار الألم والحسرة والبكاء والفجعية، بينما نجد أبا ذؤيب يلجأ إلى الأسلوب الرمزي حتى وإن بدا الأمر واضحا في المشهد الأول إلا أنه في المشاهد التالية قد أظهر الرمزية لا التصريح^(١٦). وهو في ذلك يلجأ إلى نقل التجربة الخاصة إلى أن تصبح عامة من خلال الصورة الفنية المتمثلة في المشاهد التالية الخادمة للموضوع الرئيس، حيث يجلي فيها عمق التجربة. ومن هنا صح للباحث أن يتحدث عن المعادل الموضوعي في هذه القصيدة. إذ إن "قدرة الشاعر على التعبير عن الحقيقة العامة من خلال تجربته الخاصة المركزة. بحيث يستجمع كل الخصائص المميزة للتجربة الشخصية ويستخدمها في خلق رمز عام"^(١٧).

وبالنظر إلى بنائية عينية أبي ذؤيب نجده يستوحي فيها أربعة مشاهد؛ الأول ينتمي

إلى إطار التجربة الخاصة في موت أبنائه وفكرة الموت عامة، والثاني يجعله للحمارة الوحشي وأتته، والثالث للثور الوحشي والكلاب الضارية، والرابع لصراع الفارسين. وبهذا يتضح أن الشاعر قد لجأ إلى الصورة ليبر عمّا يريد، وهو بهذا يلامس شعاب نظرية المعادل الموضوعي التي هي: "تصوير للفكر والشعور بتقرير الأحداث في العمل الإنساني، أو الأشياء في العمل الخارجي"^(١٨). ومن هنا فقد وصفت هذه القصيدة بالوحدة سواء على إطار الوحدة النفسية الشعورية أو على إطار الوحدة الموضوعية على اعتبار أن هذه المشاهد الثلاث تجسد حقيقة الموت، وهذا واضح وبادٍ في القصيدة لا مرأى فيه ولا شك، إذ لجأ الشاعر من خلال الصورة إلى تعميم التجربة، فبدت في المشهد الأول الافتتاحي -إن صحت تسميته- تجربة ذاتية نفسية داخلية، لكنه حينما اتكأ إلى الصورة عمّمها ونقلها من حيزها الذاتي إلى الحيز الكوني الوجودي الحيواني والإنساني معاً، ومن حيز الشعور إلى حيز الملموس والمحسوس، فبدت تجربة واضحة عياناً، ولعل ما دفعه إلى ذلك تداعيات الإحساس بالتقارب النفسي والعقلي بين تجربته وتجربة

هذه الحيوانات والفارسين أيضاً من نواحٍ متعددة ستكشف عنها الدراسة.

المشهد الأول: مقدمة القصيدة بين الخاص والعام: (١٩)

أَمِنْ المَنُونِ وَرِيَّهَا تَتَوَجَّعُ
والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ: مَا لِحِسْمِكَ شَاحِباً
مُنْذُ ابْتَدَلْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ
أَمْ مَا لِحِسْمِكَ لَا يُلَاقِي مَضْجَعاً
إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ
فَأَجَبْتُهَا: أَمَا لِحِسْمِي أَنَّهُ
أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ البَلَادِ فَوَدَّعُوا
أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً
بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لَا تُقْلَعُ
سَبَقُوا هَوِيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمْ
فَتَحَرَّمُوا، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعٌ (٢٠)
فَعَبَّرْتُ بَعْدَهُمْ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ
وَأَخَالُ أَنِّي لِأَحِقُّ مُسْتَتَبِعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بَأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ
فَإِذَا المَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
وَإِذَا المَنِيَّةُ أَتَشَبَّتْ أَظْفَارَهَا
أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تُنْفَعُ
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ حِدَاقَهَا
سَلِمَتْ بِشَوْكِ فَهِيَ عَوْرٌ تَدْمَعُ

حتى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ
بَصَفَا المَشْرِقِ كُلِّ يَوْمٍ تُقْرَعُ (٢١)
وَتَجْلُدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيَهُمْ
أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا
وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَنْفَعُ
[وَلَيْنَ بِهِمْ فَجَعَ الزَّمَانُ وَرِيَّهُ
إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفْجَعُ]
[كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَمِثِ القُوَى
كَانُوا بِعَيْشٍ قَبْلَنَا فَتَصَدَّعُوا]
إن مقدمة هذه القصيدة لا تبدو مقدمة بالمفهوم التقليدي للقصيدة، بل هي مقدمة يتحدث فيها عن موضوعه الأساسي الذي جعله ينظم هذه القصيدة من أجله، وجاء بصيغة جواب عن استفهام السائلة أميمة التي اتخذت بعداً أسطورياً عند بعض الدارسين (٢٢)، فجعلها مدخلاً للحديث عن موضوعه الأساسي وهو فقدان أبنائه. ولك أن تتصور الحالة النفسية التي عانى منها من خلال كلماته وأبياته؛ إذ أورثوه غصة كدّرت عليه صفو عيشه، فلم تجد معه كل محاولات الحذر وديمومة الحياة لهم. فإذا ما أقبل الموت فلا رادّ له؛ ومن هنا فإنه يؤمن حق الإيمان بحقيقة الموت ووحدة

المصير مهما حاول الإنسان أن يتقي بطشه، ومهما صارخ في هذه الحياة فإن الذي لا محاله واقع هو الموت. ولعل هذا هو الأمر الأبرز في هذه المقدمة، فالزمان غالب لا محالة، والقدر ماضٍ، وصراع الإنسان مع هذه الحياة عبثي نهايته معروفة محسومة.

إن أبا ذؤيب يعرف هذه الحقيقة ويعيها جيداً لكنه كان يحرص دائماً أن يقي أبناءه الشرور التي تدني أجلهم، و لكن أيادي المنية أطول، و قوتها أكبر لا تخضع لإرادة أي إنسان، بل هي أمر إلهي لا رادّ له.

أمام هذا الإحساس الأبوي بالحزن وعمق الفجيعة -حتى إنه لم يستطع كتمان حزنه وإبقاءه في إطار الذاتية- فجدّه قد عمّم التجربة وأخرجها من بوتقة الخاص إلى العام "فالتأثير الفني الذي تتركه القصيدة في متلقيها - قارئها أو سامعها- لا يتحقق إلا بعد ترجمة الإحساس (أو العاطفة أو الانفعال أو الشعور إلى موضوع"^(٢٣). ولهذا لجأ إلى الصورة الفنية المتكاملة التي تجسد المعادل لفكر الشاعر وإحساسه، وهنا تكمن البلاغة. وعلى هذا تغدو المشاهد التالية خادمة لهذا المعنى وهذا الإحساس ومجسدة لهما، فضلاً عن تجسيدها للموقف الفكري للشاعر المتمثل في عبثية الصراع ووحدة

المصير لكل ما على الأرض من حيوان أو إنسان. فضلاً عن تجسيدها لألم الذات الشاعرة وموقفها من معاناتها الشخصية. وقد انتقى معادلاً لذلك حيوانات اعتدنا أن نراها في صورة نمطية في الشعر الجاهلي، وهي حمار الوحش وأتته، فضلاً عن الثور الوحشي والكلاب الضارية. وقد استثمرهما الشاعر ليكونا ميداناً رحباً مثقلاً بالرموز التي توحى بما في الذات من ألم وبما في القصيدة من فكر.

المستوى الكلي الشمولي للمعادل الموضوعي:

استهل الشاعر قصيدته بمقدمة هي الموضوع ذاته الذي بنيت عليه ولأجله القصيدة، فاستغرقت خمسة عشر بيتاً من مجموع أبيات القصيدة البالغة خمسة وستين بيتاً؛ أي ما يقارب ربع القصيدة. وقد استغلها الشاعر لبطس قضيته الرئيسة وهي الإيمان بحقيقة الموت وشموليّتها، وعبثية الصراع معها، فهي حقيقة خالدة في الوجود كله يعرف الشاعر حقيقة أمرها ويعرفها القاصي والداني، لكن الإنسان لا يشغل نفسه بالتفكير فيها والحديث عنها إلا لحظة وقوعها، وهذا ما حصل لأبي ذؤيب؛ فقد فُجع بأبنائه في مصيبة يغدو الرأس فيها

كالذنب، لا رادَ لها ولا مدافع عنها، وأي شيء يغير ذلك يبدو عبثاً لا طائل منه، وهذا ما يزيد حزن الشاعر، إذ لا جهد لعاطفة الأبوة ولا جدوى منها ولا أثر لها، لذلك يقرر الحقيقة الأبوية التي تحرص على وجود الأبناء وسلامتهم وإطالة وجودهم بالرعاية والاهتمام، لكن أيًا من ذلك لم يكن نافعا أمام وطأة الموت وسطوته " فالإنسان في وجه الموت مسحوق عاجز عن اكتساب البقاء لنفسه فيزيائياً، وعاجز عن اكتساب الديمومة والاستمرارية عن طريق التوالد ^(٢٤). هذه هي الحقيقة وهذا هو الواقع الذي قرره أبو ذؤيب أيضا في قصيدته. وإني لأعجب ممن ينظر إلى أن استسلام الشاعر في هذا المشهد ليس استسلام المسلم الذي يرى الموت حقا لكل نفس ^(٢٥). فأقول بأن أبا ذؤيب الهذلي قد اتجه في رثائه اتجاها عقليا يقوم على أخذ العبرة والعظة ممن قضوا قبلنا إذ يقول:

كم من جميع الشمل ملثم الهوى
كانوا بعيش قبلنا فتصدعوا
فهو إذن يقرر هذه الحقيقة ويعضدها بالشاهد والمثال من خلال النماذج المتعددة من عوالم الحيوان والإنسان التي تمثل فيها الفناء فكان مصيرها.

فلما كانت قضية الشاعر التي في هذا المشهد خاصة قد تمثلت في الشكوى والحزن، وكان الموت والصراع على البقاء أساسها، فقد تحولت إلى تجربة عامة تصلح على كل ما في الوجود من إنسان أو حيوان أو طير أو حجر أو شجر أو أي كائن في هذا الكون؛ لذا عمد إلى بثها وتعميمها وإخراجها من إطار الخاص إلى العام، ومن إطار الفردي الذاتي إلى الكوني باستحضار نماذج ثلاث هي حمار الوحش وأتانه، والثور الوحشي والكلاب الضارية، فضلاً عن صراع الفارسين.

مشهد الحمار الوحشي وأتانه ^(٢٦):

والدَّهْرُ لَا يَنْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ

جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعٍ ^(٢٧)

صَحْبُ الشَّوَارِبِ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ

عَبْدٌ لِّأَبِي رَبِيعَةَ مُسَبِّحٍ ^(٢٨)

أَكَلَ الْجَمِيمَ وَطَاوَعْتُهُ سَمَحَجٌ

مِثْلُ الْقَنَاةِ وَأَزْعَلْتَهُ الْأَمْرُغُ ^(٢٩)

بَقَرَارٍ قِيَعَانٍ سَقَاها وَأَبْلٌ

وَاهٍ، فَأَتَجَمَّ بَرْهَةً لَا يَقْلَعُ ^(٣٠)

فَلَبِثْنَا حِيناً يَغْتَلِجُنْ بَرَوْضِهِ

فَيَجِدُ حِيناً فِي الْعِلَاجِ وَيَشْمَعُ ^(٣١)

حَتَّى إِذَا جَزَرَتْ مِيَاهُ رُزُونِهِ

وَبَأْيٍ حِينَ مَلَاوَةٍ تَنْقَطِعُ ^(٣٢)

- ذَكَرَ الْوُرُودَ بِهَا وَشَاقَى أَمْرَهُ
شَوْمٌ وَأَقْبَلَ حَيْنُهُ يَتَّبَعُ
فَأَفْتَنَهُنَّ مِنَ السَّوَاءِ وَمَاؤُهُ
بُئْرٌ، وَعَائِدُهُ طَرِيقٌ مَهْيَعٌ^(٣٣)
فَكَأَنَّهَا بِالْجَزْعِ بَيْنَ بُيَاعٍ
وَأُولَاتِ ذِي الْعَرْجَاءِ نَهَبٌ مُجْمَعٌ^(٣٤)
وَكَأَنَّهِنَّ رِبَابَةٌ وَكَأَنَّهُ
يَسْرُ يُفِيضُ عَلَى الْقِدَاحِ وَيَصْدَعُ^(٣٥)
وَكَأَنَّمَا هُوَ مِدْوَسٌ مُتَقَلِّبٌ
فِي الْكَفِّ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَضْلَعُ^(٣٦)
فَوَرَدَنَ وَالْعَيُوقُ مَقْعَدُ رَابِئِ الْ-
ضُرْبَاءِ فَوْقَ النُّظْمِ لَا يَتَلَعُ^(٣٧)
فَشَرَعْنَ فِي حَجَرَاتِ عَذَبٍ بَارِدٍ
حَصْبِ الْبَطَاحِ تَغِيبُ فِيهِ الْأَكْرَعُ^(٣٨)
فَشَرِبْنَ ثُمَّ سَمِعْنَ حِسًّا دُونَهُ
شَرَفَ الْحِجَابِ وَرَيْبَ قَرْعٍ يُقْرِعُ^(٣٩)
وَمِيمَةً مِنْ قَانِصٍ مُتَلَبِّبٍ
فِي كَفِّهِ جَشٌّ أَجَشُّ وَأَقْطَعُ^(٤٠)
فَنَكِرَتْهُ وَنَفَرْنَ وَامْتَرَسَتْ بِهِ
سَطْعَاءَ هَادِيَةٍ وَهَادٍ جُرْشَعٍ^(٤١)
فَرَمَى فَأَنْفَذَ مِنْ نَجُودٍ عَائِطٍ
سَهْمًا، فَخَرَّ وَرِيشُهُ مُتَصَمِّعٌ^(٤٢)
فَبَدَا لَهُ أَقْرَابُ هَذَا رَائِعًا
- عَجَلًا، فَعَيَّتَ فِي الْكِانَةِ يُرْجِعُ^(٤٣)
فَرَمَى فَأَلْحَقَ صَاعِدِيًّا مِطْحَرًا
بِالْكَشْحِ فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَعُ^(٤٤)
فَأَبْدَهْنَ حُتُوفَهُنَّ فَهَارِبٌ
بِدَمَائِهِ أَوْ بَارِكٌ مُتَجَعِّعٌ^(٤٥)
يَعْتَرْنَ فِي حَدِّ الطُّبَاتِ كَأَنَّمَا
كُسِيتَ بُرُودٌ بَنِي تَزِيدَ الْأَذْرُعُ
- من الجدير بالذكر أن الشاعر استهل
هذا المشهد بقوله: (والدهر لا يبقى على
حدثائه)، حتى جعل هذه العبارة لازمة
لفظية ومعنوية وموسيقية على وجه
الحقيقة، ليقرر من خلالها أن الدهر لا يبقى
على حدثائه أحد من هذه الأصناف
المذكورة "فكأننا أمام رثاء كوني شامل فهو
لا يرثي أبناءه وحده، ولا الوجود الإنساني
وحده، بل يرثي المخلوقات جميعاً"^(٤٦). ومع
تقريره لهذه الحقائق إلا أن الباحث سيدرس
هذه المشاهد في ضوء نظرية المعادل
الموضوعي.
- فبدا الحمار وأتته في لحظات مليئة
بالسعادة واللعب والحيوية والنشاط،
يتمتعون معاً (فلبن حيناً يعتلجن بروضه)،
ولكن لما قل الماء واضمحلت أماكنه بدأت
رحلة المعاناة التي يبدو قائدها في مبتدائها
ومنتهاها الحمار الوحشي؛ فهو المسيطر

على الموقف كاملاً والمهيمن على أجزائه، (فاقتنهن من السواء). حتى في إطار التشبيه بدا سيد الموقف (وكأنهن ربابة وكأنه بشر)، (وكأنما هو مدوس). فالحمار حامي الحمى وهو من يمارس البطولة وسلطة الحاكم؛ يبحث عن مكان آمن وافر الماء مخصب ممرع في رحلة شاقة تخطى فيها كل المخاطر، لكن من مأمنه يؤتى الحذر، فقد وصل إلى عين الماء ليلاً حيث الصائد المتربص به وبهين، ليلقى كل منها حتفه. فالبحت عن الماء ومصادره حيث تأمل الحياة قد أوردتها الموت والهلاك.

إنّ الحمار في هذه الميثية رمزي لا حقيقي؛ قد استوحاه الشاعر ليمرر من خلاله أفكاره وإحساساته. فهو تعبير عن حالة الشاعر النفسية من جهة، وموقفه من الحياة من جهة ثانية^(٤٧).

فإذا كان الحمار قائماً على راحة أتنه وحيويتها، ومهتما بشؤونها من حيث المأكّل والمشرب والطمأنينة، فإن الشاعر يتوارى وراء الصورة ليظهر هو الراعي لشؤون بيته وأولاده ويسهر على راحتهم وطمأنيتهم فيضمن لهم حياة كريمة بصرف النظر عن المصاعب والمتاعب والمخاطر التي يواجهها، حتى إذا ما أوصلهم إلى المرحلة التي يكونون فيها شباباً آمنين مستقرين يفرحون

ويمرحون، نجد أيادي المنية تحتطفهم وتنهي سعادتهم في مشهد مأساوي لا تنفع فيه قوة الأب وخوفه عليهم ورعايته لشؤونهم. وهكذا كان الحمار الوحشي إذ لم يستطع أن يؤمن نفسه من الموت ومن سهام ذلك الصائد، ولم ينفع الأتن أيضاً الامتراس به، فقد أصابه ما أصابها، ولم يستطع أحد منهم أن يؤمن نفسه من بطش الموت، وهذا ما ابتدأ به المشهد من خلال اللازمة التي سبق ذكرها. وهكذا هي حياة الإنسان بدايتها حياة ونهايتها موت.

ومما ينطوي وراء هذا المشهد، الحالة النفسية للشاعر؛ فالأب دائم التفكير في شؤون أسرته سعداء كانوا أم تعساء، يبحث لهم دائماً عما يوفر لهم حياة آمنة مستقرة، لكن عنصر الاستقرار لم يكن حاضراً في هذا المشهد، بل نجد أن الرحلة من أجل الراحة مستمرة، ينعم فيها الإنسان قليلاً ثم يزول ذلك النعيم ليحاول أن يبحث عن أسباب نعيم أخرى قد يحصلها وقد لا يحصلها، وقد يكون حتفه في النعيم الذي يسعى إليه. وهكذا فقد أعلن أبو ذؤيب ذلك في قوله: (ولقد حرصت بأن أدافع عنهم) وهذا واجبه الأبوي السلطوي؛ إذ يدافع عنهم ضد الجوع والعطش والخوف،

مما يجعله في حالة اضطراب نفسي وصراع دائم مع الحياة، حتى إذا أمّنهم انتزعتهم المنية من يديه (فإذا المنية أقبلت لا تدفع). لقد فاقت مصيبة الشاعر مصيبة الحمار الوحشي، فإذا كان الحمار قد مات ولقي حفه مع أتنه، فإنّ الشاعر قد بقي حيّا يصارع آلام موتهم وبعدهم.

وهكذا فقد توحد الدور القيادي البطولي للحمار الوحشي وأبي ذؤيب؛ إذ مثل كل واحد منهما دور الراعي الذي يحمي رعيته، فضمن لهم بعض أسباب الحياة، لكنه لم يضمن لهم الحياة، لذلك بدا كل واحد منهما شديد الانفعال في هذه المسؤولية التي تقع على كاهله. ولأن نتيجة كل ذلك الفناء لا البقاء، والموت لا الحياة. ولأنّ الموت أقوى من أي وجود- لم يستطع كل واحد منهما أن يحافظ على هذا الدور الذي أوكل إليه حتى لو بقي حيّا.

أما الأتن التي تتبع ذلك القائد فما هي إلا أبناء أبي ذؤيب الذين قضوا نحبتهم وتجرعوا ألم الموت

فأبدهنَ حتوفهنَ فهاربٌ
بذمائه أو باركٌ متجعّجٌ

لقد أرادت تلك الأتن أن تستقي ماء الحياة لكنها تجرعت مرارة الموت وسهام الصائد الذي قضى عليها. وهكذا أبناء أبي ذؤيب.

فبدا مجسداً ذاته وأبناءه في كل مشهد من مشاهد هذه القصيدة، بل في كل بيت وفكرة في المشهد الواحد. فالمشهد ينطوي على صراع من أجل البقاء؛ فما الحمار وبحته عن مساقط الغيث ومواطن الكلاء، وارتحاله صيفاً وشتاءً إلا هذا الإنسان الذي يصارع من أجل الحياة والبقاء، ونتيجة الاثنين واحدة هي الزوال والفناء: فهو يضربها لنفسه مثلاً على حتم الموت، وتصعد الجمع، وتمزق شمل الأصحاب والخلان^(٤٨).

مشهد الثور الوحشي^(٤٩):

والدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَانِهِ
شَبَّ أَفْرَتُهُ الْكِلَابُ مَرُوعٌ^(٥٠)
شَعَفَ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ فَوَادَهُ
فَإِذَا رَأَى الصَّبْحَ الْمُصَدَّقَ يَفْزَعُ
وَيُعَوِّدُ بِالْأَرْطَى إِذَا مَا شَفَهُ
فَطَرَّ وَرَاحَتُهُ بَلِيلٌ رَغَزَعٌ^(٥١)
يَرْمِي بِعَيْنَيْهِ الْغُيُوبَ وَطَرَفَهُ
مُغْضٍ يُصَدِّقُ طَرَفَهُ مَا يَسْمَعُ^(٥٢)
فَعَدَا يَشْرُقُ مَثْنُهُ فَبَدَا لَهُ

أولى سَوَابِقِهَا قَرِيباً تُوزَعُ^(٥٣)
 فاهْتاجَ مَنْ فَزَعُ وَسَدُ فُرُوجِهِ
 غُبْرُ ضَوَارٍ وَأَفْيَانٍ وَأَجْدَعُ^(٥٤)
 يَنْهَشُنَّهُ وَيَذُبُّهُنَّ وَيَحْتَمِي
 عِبْلُ الشَّوَى بِالطَّرِيقَيْنِ مُوَلِّعُ^(٥٥)
 فَتَحَا لَهَا بِمُذَلِّقَيْنِ كَأَنَّمَا
 بِهِمَا مِنَ النَّضْجِ الْمُجَدِّحِ أَيْدَعُ^(٥٦)
 فَكَأَنَّ سَفُودَيْنِ لَمَّا يُقْتَرَا
 عَجَلًا لَهُ بِشِوَاءِ شَرْبٍ يُنْزَعُ
 فَصَرَعَتْهُ تَحْتَ الْغُبَارِ وَجَنَّبَهُ
 مُتَشَرَّبٌ، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
 حَتَّى إِذَا ارْتَدَّتْ وَأَقْصَدَ عُصْبَةٌ
 مِنْهَا، وَقَامَ شَرِيدُهَا يَتَضَوُّعُ
 فَبَدَا لَهُ رَبُّ الْكِلَابِ بِكَفِّهِ
 بَيْضُ رِهَابٍ رِيَشُهُنَّ مُقَزَّعُ
 فَرَمَى لِيُنْقِذَ فَرَّهَا فَهَوَى لَهُ
 سَهْمٌ، فَأَنْفَذَ طَرْتِيهِ الْمُنْزَعُ
 بِالْخَبْتِ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ^(٥٧)
 بِالْخَبْتِ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ^(٥٨)
 إِنَّ مشهد الثور الوحشي هو تعميق ثان
 لرؤية أبي ذؤيب في قصيدته؛ استهلها
 باللازمة التي سبق ذكرها (والدهر لا يبقى
 على حدثانه) مقررًا النهاية قبل البداية،
 فهي قدرٌ محتوم. إذ يبدو الثور الوحشي

وحيداً مفرداً، يواجه الطبيعة بعناصرها
 ومخاطرها من برد شديد، ومطر، وكلاب
 ضارية، وسهام صائد منتظرة، مما يضعفه،
 فلا أنيس له ولا رفيق حتى لو امتلك قوة،
 فإن كثرة الخصم تغلب الوحدة؛ لذا يحاول
 أن يحتمي بكل ما يقرب منه الحياة، فيلوذ
 بشجرة الأرضى لعلها تخفف عنه برد الشتاء
 القارص، والمخاطر التي تترصد به. فزمنه
 يعجّ بالأخطار ليلاً ونهاراً. فمنذ بداية
 المشهد إلى نهايته لم نجد لحظة تظهر فيها
 السكينة والطمأنينة عنده، بل يظهر الفزع
 والخوف، فعينه تترقب ذلك الخطر الذي
 يداهمه وهو الكلاب، فيعدّ نفسه لحرب
 طاحنة يحاول فيها أن يكون المنتصر، ولكن
 هيهات، لقد حاول الثور كثيراً أن يبقى
 على قيد الحياة فيشنّ غارة على الكلاب
 بقرنيه الحاذين ويوقع فيها جراحاً، لكن
 كثرتها تحول دون النصر (فصرعته تحت
 الغبار وجنبه متربّ)، ويحاول ثانية أن
 يستعيد قوته، فينهض مثقلاً بالحقد وحب
 البقاء فيوقع بها. وهنا يظهر الشاعر عنصر
 المفاجأة بالصائد الذي يترصد خلف
 الأستار:

فرمى لينقذ فرّها فهوى له
 سهمٌ، فأنفذ طرّتيه المنزع

فكبا كما يكبو فتقيق تارز

بالخبث إلا أنه هو أبرعُ

فالتقنية الفنية التي سار عليها أبو ذؤيب في قصيدته هي إدخال العنصر الإنساني في كل واحدة من هذه اللوحات، ليكون تدخله في إطار الفناء، فيكون فاعلاً فيه مهلكاً لهذه الأحياء (الحيوانات) التي عرفت شهرتها في إطار القصائد الجاهلية. ولكن السؤال الذي يبقى في القصيدة هل يستطيع الإنسان الذي أفنى الحمار وأتته والثور الوحشي أن يمتلك وجوده وحياته؟

تقوم هذه القصيدة منذ بدايتها على فلسفة الفناء، فلا أحد على وجه هذه الأرض يمتلك حياته؛ لا الحيوان المسالم الذي لا يملك قوة يدافع فيها عن ذاته غير الهزيمة، ولا الحيوان القوي الذي يملك من القوة ما يمكنه من الدفاع عن نفسه، فالكل ضعيف مستسلم وهذه هي الحقيقة التي سطرها أبو ذؤيب.

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها

ألفيت كلّ تميمٍ لا تنفعُ

فأسباب الحذر لا تجدي، وكذلك أسباب القوة، وضحية ذلك الموجود قويا كان أم ضعيفاً.

فأبو ذؤيب يقيم تضاداً معنوياً بين المشهدين الثاني والثالث من القصيدة؛ فحمار الوحش ليس لديه ما يدفع به أسباب الفناء إلا البحث عن المأكل والمشرب وهذا ما دفعه إلى الارتحال، وحينما وصل إلى مقصده وجد في هذا المظهر الحيوي موتاً وفناءً. أما الثور الوحشي فقد بدا أكثر قوة إذ يملك من أسباب القوة ما يدافع به عن نفسه. ولكن أبا ذؤيب يتدخل في الصنع الفني لجعل الثور وحيداً والكلاب جماعة وهذا مظهر ثانٍ للتضاد، ثم يدخل عنصر الصائد لينهي المعركة ويقضي على وجوده. كل ذلك بما يخدم غرضه الفني وفكرته الجوهرية التي عاد لها بهذا الفناء الذي أصاب الحمار والثور. فهذه القصص تعكس رؤية الشاعر للموت والحياة، فهي عبارة عن استقواء أشياء لها قيمة من الوسط الذي يعيش فيه الشاعر من أجل تأكيد حتمية المصير... ومن هنا فقد جاء الحديث عن مصير الحيوان في الشعر العربي القديم ليبرر رؤية إنسانية كان الشاعر يشعر بها، ألا وهي شمولية الموت لكل الأحياء^(٥٩). فالسعادة التي ظهرت في المشهد الثاني اختفت في

المشهد الثالث ليحل محلها الخوف وعدم الطمأنينة.

وكذلك فإن الصراع في المشهد الثاني لا يبدو صراعاً بالمفهوم الحقيقي للصراع، بل هو رحلة بحث عن ملجأ يقى الباحث عشرات الزمن. وفي المشهد الثالث بدا الصراع متراكماً من أوله إلى آخره؛ ومعنى ذلك أن هذا المشهد قد مثلت نقطة مركزية بين الثاني والرابع، فهو واسطة العقد؛ حيث المعاناة والتعب والخوف.

وما ينظر إليه في إطار التضاد أن حمار الوحش ظهر بصورة جماعية لا فردية وهذا يكسبه طمأنينة أكثر. أما الثور فقد بدا وحيداً مما يتسبب في ضعفه. ولعل هذا المظهر هو الذي بدا فيه أبو ذؤيب نفسه، فهو وحيد يعاني ما أصابه بأبنائه من قدر محتوم يحاول أن يتقوى ليقف في وجه مصيئته، لكن وقع المصيبة أقوى؛ فلمحنا عنده أنة الحزن واضحة في خطاب أميمة العاذلة.

صراع الفارسين^(٦٠):

والدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ

مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الْحَدِيدَ مُقْنَعٌ

حَمِيَتْ عَلَيْهِ الدَّرْعُ، حَتَّى وَجْهُهُ

مَنْ حَرَّهَا يَوْمَ الْكَرْيَةِ اسْفَعُ

تَعْدُو بِهِ خَوْصَاءُ يَفْصِمُ جَرِيَهَا

حَلَقَ الرَّحَالَةَ فَهِيَ رَخْوٌ تَمَزَعُ^(٦١)

قَصَرَ الصَّبُوحُ لَهَا فَشَرَجَ لَحْمَهَا

بِالنِّيِّ فَهِيَ تَثْوُخُ فِيهَا الْإِصْبَعُ^(٦٢)

مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِيٍّ

كَالْقُرْطِ صَاوٍ غُبْرَهُ لَا يُرْضِعُ^(٦٣)

تَأْبَى بِدِرَّتِهَا إِذَا مَا اسْتَغْضَبَتْ

إِلَّا الْحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ^(٦٤)

بَيْنَا تَعْتَقِيهِ الْكُمَاةَ وَرَوْغِهِ

يَوْمًا أُتِيحَ لَهُ جَرِيٌّ سَلَفُ

يَعْدُو بِهِ نَهْشُ الْمَشَاشِ كَأَنَّهُ

صَدَعٌ سَلِيمٌ رَجْعَةٌ لَا يَظْلَعُ^(٦٥)

فَتَنَادِيَا وَتَوَافَقَتْ خَيْلَاهُمَا

وَكِلَاهُمَا بَطَلُ اللَّقَاءِ مُحَدَّعٌ

مَتَحَامِيْنِ الْمَجْدِ، كُلُّ وَائِقٍ

بِلَائِهِ، وَالْيَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا

دَاوُودُ أَوْ صَنَعُ السَّوَايِغِ تُبْعُ

وَكِلَاهُمَا فِي كَفِّهِ يَزْنِيَّةٌ

فِيهَا سِنَانٌ كَالْمَنَارَةِ أَصْلَعُ

وَكِلَاهُمَا مَتَوَشَّحٌ ذَا رَوْتَقٍ

عَضْبًا إِذَا مَسَّ الضَّرْبِيَّةَ يَقْطَعُ

فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا يَتَوَافِذُ

كَتَوَافِذِ الْعُبْطِ الَّتِي لَا تُرْقِعُ^(٦٦)

وكلاهما قد عاش عيشة ماجدٍ
وجنى العلاء، لو أن شيئاً ينفعُ

يقوم جوهر القصيدة كله على الصراع، لكن هذا الصراع كان يتخذ من الحيوان والإنسان والطبيعة مظاهر له. ففي المشاهد السابقة لاحظ الباحث صراعاً بين الحمار وأتته من جهة، والطبيعة بقسوتها من جهة أخرى، والإنسان الصائد الذي أنهى ذلك الوجود من جهة ثالثة، ثم لمح الباحث في المشهد الثالث صراعاً بين الثور الوحشي والطبيعة والإنسان من جهة ثانية، فرأى الإنسان الصائد أيضاً يهيم بإنهاء صورة ذلك الصراع الذي كان في لحظة معينة لصالح الثور الوحشي، فتغلب الإنسان في المشهدين السابقين على إرادة الحيوان في حب البقاء والحياة والوجود، فبدا بطلاً يهاب جانبه. ونجد أبا ذؤيب يفاجئنا في المشهد الختامي للقصيدة بصورة الإنسان في صراعه مع الإنسان، ولكن بصورة غريبة تظهر التكافؤ بين الجانبين في القوة والعدة والغاية؛ فتحصن كل واحد منهما بما يجلب له الحياة ويدفع عنه الفناء في مشهد قتالي جعل ذلك اليوم (أشنع). فاستهلّ المشهد بما استهلّ به المشاهد السابقة:

والدهر لا يبقى على حدثانه

مستشعرٌ حلقَ الحديدِ مُقنَّعُ

مقررًا وحدة المصير لكل هذه المظاهر الحيوية في الوجود. فالإنسان مهما اتخذ من أسباب القوة والمنعة والحصانة والحذر فإن ذلك لا يجدي نفعاً مع حقيقة الكون القائمة على الفناء. فالإنسان الذي ظهر في المشاهد السابقة مغنيا للحمار والثور بدا فانياً في هذا المشهد؛ لم يستطع على الرغم من قوة بأسه وشكيمته أن يمنح الحياة لنفسه، بل ظهر عاجزاً مستكيناً ضعيفاً للقدر رغم مظاهر القوة، وبهذا تساوى مع غيره إلا أنه افترق عنها بأنه اكتسب مجداً وقيمة رغم الخسارة الفادحة في البقاء.

ومما يجدر النظر إليه في هذا المشهد، أن أبا ذؤيب استحضّر صراعاً إنسانياً بين فارسين، وجعل الاثنين يعانيان من الفناء، فلم يجعل الغلبة فيه لأحد منهما على الآخر بل تساوياً في المجد، وتساوياً في الفناء. وكأنه بذلك يستعيد صورة الصائد الذي نزع من الحمار والثور حياتهما لتُنزع منه الحياة في هذا المشهد.

وبهذا فإن النص "يوازن تماماً بين الإنسان والحيوان؛ شريحة للإنسان تتلوها شريحتان للحيوان، ثم شريحة أخرى للإنسان"^(٦٧). فالقصيدة إذن قائمة على

والتعادل والتكافؤ في أربعة مشاهد؛ استغلّ الأول لبسط قضيته الإنسانية في الفقد والموت؛ فهي قضية خاصة في ظاهرها، لكن أبا ذؤيب أدرك كنهها وحقيقتها، فوجدها قضية عامة، لذلك عمّمها على هذه المظاهر الوجودية الحيوانية والإنسانية معاً، وأتبعها بالحديث عن المظاهر الحيوانية لتعميم الرؤيا وتعزية الذات. وجعل المتلقي في حالة حضور ذهني باحثاً عن رابط لذلك. ثم عاد في المشهد الختامي إلى القضية الإنسانية المحورية؛ بأن الإنسان مخلوق ضعيف عاجز أمام الموت.

فالفكرة التي جعلها قضيته في المشهد الأول وهي يقينه الموت ووحدته المصير عاد لها بهذه الصور التي اكتسبت جمالاً فكرياً متوافقاً مع الحقيقة الدينية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَّهَا فَإِنَّ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. لكنها في القصيدة اكتسبت ثوب التجربة الحقيقية والصورة الفنية الممتدة الممتعة في العرض والطرح بتوسيع رؤية الإنسان، وتفعيل دور العقل الغافل عن هذه الحقيقة. وثمة قضية نقلت من الإطار الخاص إلى العام وهي قضية الضعف الإنساني، فحتى وإن أبدى أبو ذؤيب قوة أمام المصائب التي

تعرّضه، فإنّ ذلك لم يكن إلا ضرباً من العبث الذي يظهر ضده للشامتين. فهي منازل لا تخلو من المراوغة والمخاتلة والرغبة في الشماتة من الدهر الذي لم يستطع أن ينال منه^(٦٨). فقد مثل أبو ذؤيب هذه الفكرة من خلال الضعف الذي مثلته العناصر الحيوانية أمام الطبيعة والإنسان. وهي القوة أيضاً التي ظهرت عند الفارسين في صراعهما، لكنهما صرعا أمام القدر والموت فضعفا واستكانا. وهكذا فإن الإنسان ضعيف مهما تعالى على هذه الحقيقة وأظهر شجاعة وقوة. وبهذا يغدو القوي والضعيف وجهين لعملة واحدة هي الضعف الإنساني أمام القدر الإلهي، بل الضعف الكوني أمام الوجود والقدر الإلهي.

الخاتمة:

بعد محاولة الباحث دراسة نظرية المعادل الموضوعي في عينية أبي ذؤيب الهذلي تبين ما يلي:

- ١- أن القضية المركزية التي نظمت القصيدة من أولها إلى آخرها هي الصراع على البقاء مع عمومية الفناء.
- ٢- أن الشاعر قد مثل هذا الصراع من خلال المشاهد الشعرية؛ فاستحضر لذلك صوراً من عوالم الحيوان في

- صراعه مع الطبيعة والإنسان، والإنسان في صراعه مع الإنسان.
- ٣- أن الشاعر قد قصد إلى تعميم التجربة على العوالم الإنسانية والحيوانية ليجعل قضيته مع فقد أبنائه خاصة ومع الموت عامة ليست قضية خاصة بل عامة تُطال كل موجود على هذه الأرض، وهو عين المعادل الموضوعي.
- ٤- أن الخيز الإنساني في القصيدة قد رافق أجزاءها لكنه استقل بمشهدين الأول والرابع وشغل الحيوان المشهدين الثاني والثالث وبهذا تعادل الحيوان مع الإنسان في الفناء وتساوياً. وهو مظهر مهم للمعادل الموضوعي أيضاً.
- ٥- أن أبا ذؤيب قد جسد صراعه مع الحياة بصراع هذه الحيوانات مع الطبيعة على البقاء والارتحال من أجل تحقيقه دون معرفة المصير الذي ستؤول إليه.

الهوامش:

- (١) أونج. ج. والتر، جدل المعادل السعوي والمعادل الموضوعي في النقد الأدبي، ترجمة: حسن البنا عز الدين، مجلة فصول، مجلد ١٠، عدد ٢/١، ١٩٩١/١٤١٢هـ، ص ٢٣٥.

- (٢) انظر: أبو مراد، فتحي، وحتاملة، حنان، دراسة تحليلية في مفضلية المثقب العبدى النونية في ضوء نظرية المكافئ الموضوعي، مجلة جامعة النجاح للأبحاث والعلوم الإنسانية، مجلد ٢٨، عدد ١٢، ٢٠١٤/١٤٣٥هـ، ص ٢٧٨٠.
- (٣) المحادين، عبد الحميد، المصاييح الزرق: المعادل الموضوعي لحياة وفكر حنا مينه، مجلة أفكار، د.م، عدد ٤٥، ١٩٧٩/١٤٠٠هـ، ص ٥٣.
- (٤) انظر: غزوان، عناد، المعادل الموضوعي مصطلحا نقدياً، مجلة أقلام، مجلد ١٩، عدد ٩، ١٩٨٤/١٤٠٥هـ، ص ٣٥-٣٧. وانظر أيضاً: دواس، أحسن، المعادل الموضوعي في النقد الأنجلو أمريكي الجديد: دراسة في المصطلح والمفهوم والمرجعيات، مجلة الأثر، عدد ٢٦، ٢٠١٦/١٤٣٧هـ، ص ٥٧.
- (٥) غزوان، عناد، المعادل الموضوعي مصطلحا نقدياً، ص ٣٩.
- (٦) فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحددين، تونس، ١٩٨٦/١٤٠٧هـ، ص ١٤٥.
- (٧) انظر: أبو مراد، فتحي، المعادل الموضوعي بين النظرية والتطبيق: قصيدة الأرض لمحمود درويش نموذجاً، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، د.م، عدد ٣٣، ٢٠٠٧/١٤٢٨هـ، ص ٣٦٤.
- (٨) رشدي، رشاد (١٤٠٤هـ-١٩٨٣م). ما هو الأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١/١٣٩٢هـ، ص ٦.

- (٩) الشملان، نورة، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨٠ / ١٤٠١ هـ، ص ١٤٧.
- انظر: منصور، محمد مصطفى، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤ / ١٤٢٥ هـ، ص ٤٠.
- (١٠) البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٦٨٢ هـ - ١٦٨٢ م)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، ج١، ص ٤٢٣.
- (١١) الأصفهاني، أبو الفرج (٣٥٦ هـ - ٩٧٦ م). الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢، ج٦، ص ١٨٧.
- (١٢) منصور، محمد مصطفى، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤ / ١٤٢٥ هـ، ص ٤٥.
- (١٣) الديوب، سمر، جدلية الفناء والخلود في عينية أبي ذؤيب الهذلي، مجلة جامعة دمشق، مجلد ٢٧، عدد ٣+٤، ٢٠١١، ص ٩٦.
- (١٤) المرجع السابق، ص ٩٦.
- (١٥) انظر المرجع السابق ص ١١.
- (١٦) الشملان، نورة، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، ص ٦٥.
- (١٧) عزام، محمد، المنهج الموضوعي في النقد الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩ / ١٤٢٠ هـ، ص ٢٨. نقلا عن: Eliot. T. S. : Selected prose. London. 1963. P23
- (١٨) مائيسن، ف، أ، ت.س. إليوت الشاعر الناقد، ترجمة: إحسان عباس، بيروت، ط١، ١٩٦٥ / ١٣٨٦ هـ، ص ١٣٢.
- (١٩) الضبي، المفضل (١٧٨ هـ - ٧٨٠ م). المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاعر وعبد السلام هارون، ط٦، دار المعارف، مصر، ص ٤٢١-٤٢٢.
- (٢٠) هوي: هوي، بلغة هذيل. أعنقوا: أسرعوا. تُخرموا: ماتوا واحدا تلو الآخر.
- (٢١) المروة: واحدة المرو، وهي حجارة بيض يقدح منها النار. المشرق: المصلّى
- (٢٢) انظر: الهدروسي، سالم مرعي، الطقسية الأسطورية في عينية أبي ذؤيب الهذلي: مشهد مصرع الجون نموذجاً، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد ٢٢، عدد ٢، ٢٠٠٤ / ١٤٢٥ هـ، ص ٢٧٩.
- (٢٣) رشدي، رشاد (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م)، مقالات في النقد الأدبي، دار الجيل، القاهرة، ١٩٦٢ / ١٣٨٣ هـ، ص ٦٨.
- (٢٤) أبو ديب، كمال، الرؤى المقتنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦ / ١٤٠٧ هـ، ص ٢٢٠.
- (٢٥) الشملان، نورة، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، ص ٥٦.
- (٢٦) الضبي، المفضل (١٧٨ هـ - ٧٨٠ م). المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاعر وعبد السلام هارون، ط٦، دار المعارف، مصر، ص ٤٢٢-٤٢٥.

- (٢٧) جون السّراة: عني حمارا، والجون: الأسود إلى حمرة. لسّراة: أعلى الظهر. الجدائد: الأتن اللواتي خفّت ألبانهن.
- (٢٨) الصّخب: الكثير النهيق. الشوارب: مجاري الماء في الحلق. المسبح: الذي وقعت السباع على غنمه.
- (٢٩) الجميم: النبت الذي يكثر فيصير كأنه جمّة. السّمحج: الطويلة على وجه الأرض. أزعلته: نشطته.
- (٣٠) الواهي: المنكير. أنجم: أقام وثبت.
- (٣١) يعتلجن: يعض بعضهن بعضاً. يشمع: يلعب ويمزح.
- (٣٢) الرّزون: أماكن في الجبل يكون فيها الماء. الملاوة: الزمن والدهر.
- (٣٣) افتتهنّ: فرقهنّ يطردهنّ فنونا من الطّرد. السّواء: رأس الحرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود. بشر: كثير. المهيح: البين الواضح.
- (٣٤) الجزع: منقطع الوادي. العرجاء: أكمة أو هضبة.
- (٣٥) الرّبابة: رقعة تجمع فيها قذاح اليسر، والمراد هنا القذاح. يفيض: يدفع.
- (٣٦) المدوس: مسن الصّيقل يجلو به السيف. أضلع: أغلظ.
- (٣٧) العيوق: كوكب يطلع بجمال الثريا. الضرباء: قوم يضربون بالقذاح. النظم: نظم الجوزاء. لا يتتلع: لا يتقدم ولا يرتفع.
- (٣٨) الحجرات: النواحي. البطاح: بطون الأودية. الأكرع: يعني أكرع الحمير.
- (٣٩) الحجاب: الحرّة.
- (٤٠) المتلبّب: المتحرّم بثوبه. الجشء: القضيبي الخفيف من النبع تصنع منه القوس.
- (٤١) السطعاء: الطويلة العنق. الهادية: المتقدمة. الجرّشع: الغليظ المنتفخ الجنين.
- (٤٢) النجود: الأتان العيلة المشرقة. العائط: التي اعطاطت رحمها فبقيت أوعاما لا تحمل. منصمّع: منضم من الدم.
- (٤٣) رائغاً: عادلاً. عيث: مدّ يده إلى كنانته ليأخذ سهماً.
- (٤٤) الصّاعدي: المرفف. المطحر (بكسر الميم): السهم البعيد الذهاب.
- (٤٥) الذماء: بقيّة النفس.
- (٤٦) رومية، أحمد وهب، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ٢٩١.
- (٤٧) الطعان، سليمان، دور الحيوان في التعبير عن التجربة الجاهلية: حمار الوحش نموذجاً، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد ٨٤، عدد ٢، ٢٠٠٩ م، ١٤٣٠ هـ، ص ٤٨٣.
- (٤٨) النويهي، محمد (١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م)، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠/ ١٣٩١ هـ، ج ٢، ص ٧١٣.
- (٤٩) الضبّي، الفضل المفضليات، ص ٤٢٥ - ٤٢٧.
- (٥٠) الشبب: المسن من الثيران.
- (٥١) البليل: الريح الباردة.

- (٥٢) المغضي : الذي له بين كل نظرتين إغضاء فهو أقوى لبصره.
- (٥٣) يشرق منته: يظهره للشمس.
- (٥٤) وافيان: سالما الأذنين. الأجذع: مقطوع الأذن.
- (٥٥) عبل الشوى: غليظ القوائم. الطرتان: الخطتان في الجنين.
- (٥٦) المذلقان: الحادان , اراد القرنين .النسخ: الرش بما ثخن مثل الدم. المجدح: أراد تحريك قرنيه في أجوافها.
- (٥٧) الفنيق: فحل الإبل. تارز: اليابس. الخبت: المطمئن من الأرض ليس به رمل.
- (٥٨) الفنيق: فحل الإبل. تارز: اليابس. الخبت: المطمئن من الأرض ليس به رمل.
- (٥٩) ربابعة، موسى، نماذج من رثاء الحيوان في الشعر العباسي، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، مجلد ٧، عدد ٢، ١٩٨٩/ ١١٤١٠هـ، ص ١١٥.
- (٦٠) الضيّ، الفضل، المفضليات، ص ٤٢٧- ٤٢٩.
- (٦١) الخوصاء: الغائرة العينين، أراد فرسه. يفصم: يكسر من شدته. رخو: سهلة مسترسلة.
- (٦٢) شرج: خلط. الثّي: الشحم.
- (٦٣) الأنساء: عرق في الورك والفخذ. القانى: أراد الضرع الذي كان أبيض فاحمراً. الصاوي: اليابس. الغبر: بقية اللين.
- (٦٤) يتبضع: يرشح جلدها بالعرق.
- (٦٥) نهش المشاش: خفيف القوائم. الصّدع: من الحمر وسط ليس بالعظيم ولا الصغير. رجعه: عطفه بيديه.
- (٦٦) العبط: جمع عبط، وأصل العبط شق الجلد الصحيح ونحر البعير من غير علة.
- (٦٧) أبو ديب، كمال، الرؤى المقنعة، ص ٢١٧.
- (٦٨) رومية، أحمد وهب، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص ٢٧٧.

المثلُ العربي (دراسة لغوية تحليلية)

أ.د. عبدالرزاق عبدالرحمن السعدي*

استكتب بتاريخ ٢١/٥/٢٠٢٠م**

ملخص

المثلُ العربي يُشكلُ لوناً من ألوان النثر العربي، والمثلُ يحكي واقعةً معينة جرت في زمن معين، دالاً على مفهوم معين، ثم يضربُ المثلُ في مناسباتٍ مماثلةٍ للحدث الذي قيل فيه المثل؛ ليؤدي المفهوم نفسه، وقد مرَّ المثلُ بحقبٍ زمنيةٍ متعددة، فهناك مثلٌ جاهليٌّ قبل الإسلام، وهناك مثلٌ إسلاميٌّ قيل في عصور إسلامية متوالية، مما يجعلُ المثلَ متطوراً في الدلالة والمفهوم، والمثلُ العربي يأخذُ حكم النثر العربي في الاعتداد به لقيام قاعدة لغوية عليه، وفي الاستشهاد به على حكم لغوي قائم، حالة حال النثر العربي الذي يعتدُّ به، بناء على زمنه الذي قيل فيه، فمنه ما تقوم عليه قاعدة لغوية، ومنه ما يصحح الاستشهاد به لحكم لغوي، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة تأخذُ طابعاً خاصاً معجزاً، تختلف عن الأمثلة العربية البشرية، وهي جديرة بالاهتمام والدراسة، وهذا ما يكشف عنه هذا البحث، بصورة موجزة يقتضيها المقام.

الكلمات المفتاحية: أمثال عربية، أمثال قرآنية، استشهاد لغوي، قصة واقعية، تحليل نحوي

Abstract

The Arabic proverb forms a sort of Arabic prose, and it tells aspecific event that took place at a specific time, indicating aspecific meaning. Then the proverb used in a similar occasion to

* أستاذ دكتور، جامعة العلوم الإسلامية العالمية/ وفي أكاديمية بلغار الإسلامية - جمهورية تنزانيا - روسيا الاتحادية.

** تم استكتاب الأستاذ الدكتور عبدالرزاق السعدي بتوصية من هيئة تحرير المجلات العلمية في اجتماعها رقم (١/٢٠٢٠) بتاريخ (٢١/٤/٢٠٢٠م).

the event in which the proverb was said, so that the proverb performs the same meaning. The Arabic proverb has been said in many eras; such as pre-Islamic, Islamic and modern.

This makes Arabic proverb developed in indication and meaning. The Arabic proverb takes the same considerations of Arabic prose when establishing a linguistic base and when protesting for an existing linguistic rule, based on the time when it was said. The holy Quran has many proverbs which take a special and miraculous pattern and differs from human-made proverbs. Thus, the Quranic proverbs deserve further attention and investigations. And this is what the research reveals briefly.

Keywords: Arabic proverbs, Quranic proverbs, linguistic protesting, real story, grammar analysis

المقدمة:

إن اللغة العربية تستمد قواعدها من الكلام العربي الفصيح نشره وشعره، وفي مقدمة ذلك آيات القرآن الكريم المعجز، والصحيح من أحاديث النبي محمد ﷺ فإنه أفصح العرب على الإطلاق، وإن كلام العرب الذي يحتج به لقيام القاعدة الصرفية أو النحوية أو البلاغية ليس

مفتوحاً على كل زمان ومكان، بل هو محدّد متكلّمًا وزماناً ومكاناً؛ لأنّ العربية تختلف عن سائر لغات الأرض، فهي لغة حيّة ولغة قوم من بني آدم أعزها الله تعالى بأن جعلها لغة القرآن الكريم، فأصبحت لغة دين ثابتة ثبات القرآن والإسلام، فلا تزول ولا تبدل، بل تبقى فتية محفوظة لا يعتريها وهن ولا تلحقها شيخوخة، لذلك أصبحت العربية لغة المسلمين عامة، فهي

ليست مقصورةً على العرب فحسب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالمسلم غير العربي يضمُّ اللغة العربية إلى لغته الأولى الأمّ، فينطق بالعربية من أول لحظة يدخل فيها الإسلام حين يتلو الشهادتين، ثم يتواصل مع هذه اللغة في أغلب عباداته من صلاة وحجٍّ وذكرٍ وقراءة قرآنٍ وغيرها، وقد انتشر الإسلام في ربوع الأرض لأنه دينٌ للناس كافةً، وأصبح المسلمون من غير العرب أخوةً في الإسلام للمسلمين العرب، فاختلطوا وتعاملوا وتساكنوا وتصاهروا وتعايشوا، عندئذٍ بدأ اللحن يظهر على ألسنة بعض العرب مما دعا عالم البصرة أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) الذي سمع اللحن من ألسنة أبناء العربية إلى أن يسارعَ فزعاً إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه يشكو له انحراف ألسنة بعض أبناء العرب، فوضع سيدنا عليّ الخطوط الأولى لقواعد اللغة العربية التي تضبط اللغة وتحافظ عليها من الضياع، وكان مُستندٌ تلك القواعد كلام العرب الفصيح الذي لم يدخله لحنٌ ولا فساد، فكان القرآن الكريم المصدر الأول الذي صيغت عليه قواعد اللغة العربية، ثم كلام

العرب نثراً وشعراً، ومعلوم أن كلام العرب المنشور شاملٌ لخطبهم وحواراتهم وأمثالهم وحكمهم وغيرها.

فالأمثال العربية وكذا الحكم العربية مَورِدٌ من موارد قيام قواعد اللغة العربية، بشرط أن يكون الكلام مما يحتجُّ به، متكلماً وزماناً ومكاناً، وهذا هو موضوع بحثنا هنا إن شاء الله تعالى.

المُحتجُّ بكلامهم زماناً ومكاناً لقواعد اللغة العربية:

أجمع علماء اللغة العربية على أن الكلام الوارد في القرآن الكريم أفصحُ كلام عربيٍّ؛ لأنه كلام الله المعجز، ولم يخالف في ذلك أحدٌ، ويليه كلام النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم حيثُ تُحقَّق أنه كلامه، لأنه ﷺ أفصحُ العرب، وماعدا المحقِّق من الأحاديث النبوية المروية عنه ﷺ فاللعمراء في الاحتجاج به مذاهب، فهناك مُحْتَجٌّ بالحديث النبوي بحجة أنه كلام رسول الله أفصح العرب، ورواته أناسٌ يدخلون في عصر الاحتجاج ومكانه، وهناك من لم يحتجَّ بالحديث النبوي لجواز نقل الحديث بالمعنى، أو احتمال لحن الراوي الذي هو ليس من أهل الفصاحة،

والاحتجاجُ بالحديث النبوي الشريف لقواعد اللغة قضيةٌ خاض فيها العلماء قديما وحديثا مما لا يتسع الحال لذكرها هنا.

وأما القبائلُ العربية التي يُحتج بكلامها فهم من ذرية نبي الله اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، قال يونس بن حبيب: (أَوَّلُ من تكلم بالعربية، وَنَسِيلُ سَانَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا)^(١) وذريةُ إسماعيل عليه السلام هي القبائلُ التي قطنت قلبَ الجزيرة العربية، ولم تجاورَ أقواما من غير العرب، وكانت قريشٌ أجودَ العرب لغةً وانتقاداً للأفصح، ومن تلك القبائل العربية قيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعضُ الطائيين، ولم يحتجوا بكلامٍ حضريٍّ من هذه القبائل، وكذلك لم يحتجوا بالقبائل التي جاورت أهلَ الحاضرة، مثل قبائل لخم وجذام لمجاورتهم الأقباط في مصر، ومثل تغلب والنمر بن قاسط لمجاورتهم النبط، ومثل عبد القيس وأهل اليمامة وأزدِ عُمَانَ لمخالطتهم الفرس والهنود، ومثل سكان الطوائف والحجاز وثقيف لمخالطتهم الهند والحبيشة^(٢).

وأما زمن الاحتجاج لقواعد اللغة العربية فقد اضطربت فيه الأقوال وتعددت فيه الآراء، ولا يتسع المقام لذكرها هنا،

وحسبنا أن نوجز خلاصة ما ذهب إليه جمهور العلماء فيما يأتي:

فعصرُ الاحتجاج كما يؤكد الأستاذ سعيد الأفغاني - رحمه الله - وهو من أبرز العلماء اللغويين المحدثين على صرامة النحويين في تحديد زمن الاحتجاج بدافع الحرص على سلامة اللغة وصفاء العربية، حيث يقول: (جعلوا منتصف المئة الثانية للهجرة حداً للذين يصح الاستشهاد بشعره ممن الحضرين، فلإبراهيم بُنْهُرْمَةٌ (٨٠- ١٧٦هـ) آخرُ من يصح الاستشهاد بشعرهم، وبشارُ ابن برد (٩٦- ١٦٨هـ).

أولُ الشعراء المحدثين الذين لا يحتجب شعرهم على متن اللغة وقواعدها، وعلى هذا يؤتى بشعر المتأخرين من فحول الشعراء في كتب اللغة للاستئناس والتمثيل، لا للاحتجاج، أما الساكنون في البادية فقد امتد الاستشهاد بكلام العرب المنقطعين فيها حتى منتصفِ المئة الرابعة للهجرة.

تعريف المثل لغةً واصطلاحاً:

١ - المثل في اللغة:

كلمة (المثل) تدل على التسوية بين الأشياء، يقال: هذا مثْلُ هذا، أو مثْلُهُ كما يقال: هذا شِبْهُ هذا أو شَبَّهَهُ بمعنى واحد، ويجمع على أمثال، قال ابن بري: (الفرق بين المماثلة والمساواة، أنَّ المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقيين؛ لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقيين، تقول: نحوهُ كنحوه، وفقههُ كفقهِه ولونه كلونه وطعمه كطعمه)^(٣)، والمثْلُ الشيء الذي يُضْرَبُ لشيءٍ مثلاً فيُجْعَلُ مثله، وفي الصحاح: هو ما يُضْرَبُ به من الأمثال.

٢ - المثل في الاصطلاح:

هو نصٌّ عربيٌّ نثريٌّ قصيرٌ أطلق على مناسبة معينة، ثم ضُربَ فيما بعد على مناسبة أخرى بجامع التشابه في بعض الجوانب بين المناسبتين من دون تغيير في صيغة النص.

ومن هنا فإنه لا بد أن تجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكتابة، فهو نهاية البلاغة، مثاله

قولهم: (الصيفَ ضيَعَتِ اللين) - بكسر تاء ضيَعَتِ - يطلق على كل من يُضَيِّعُ الأمر في وقته، ثم يريد استدراكه ويطلبه في غير أوانه، وتبقى التاء مكسورة ولو كان المخاطب رجلاً، وأصل هذا المثل أن عمرو بن عُدَسٍ تزوج بنت عمه بعد ما أَسَنَ، وكان أكثر قومه مالاً، فتركه فطلقها، فتزوجها فتى ذو شباب، ومرت بها إبلٌ زوجها الأول فطلبت منه أن يسقيها من اللبن (الحليب) فقال: (الصيفَ ضيَعَتِ اللين) أي: طلبت اللبن في غير وقته^(٤).

المثل في القرآن الكريم:

جاء ذكر المثل في القرآن الكريم بصيغة المفرد، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وجاء بصيغة الجمع كقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

كما أن كلمة المثل جاءت تحمل أكثر من معنى في القرآن الكريم، منها:

أن (المثل هو الحديثُ نفسه)، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]،

جاء في التفسير: أنه قول: لا إله إلا الله، وتأويله: أن الله أمر بالتوحيد ونفى كل إلهٍ سواه وهي الأمثال^(٥).

[٥٩]، أي: آية وعلمة تدل على بُبُوته.

المثل العربي والمثل القرآني:

يتفق المثل العربي والمثل القرآني في الأهداف كون الأمثال تشكل جانباً هاماً في تحقيق المعاني في ذهن المتلقي، وفي تصوير المعقول بالمحسوس، وفي قوة الحجة والدليل في إثبات الحكم الذي يحمله المثل، وفي ترسيخ المفاهيم والعبر التي جاءت بها الأمثال؛ ليكون الإنسان على بصيرة من أمره في فعل الشيء أو تركه.

لكن الصياغة في المثل العربي تختلف عنها في المثل القرآني، وذلك واضح مما سبق في تعريف المثل العربي، بأنه نصٌ عربي نثري قصير، أطلق على مناسبة معينة ثم يُضربُ فيما بعد على حادثة تحمل شيئاً من المعاني التي حملتها المناسبة التي سبق المثل لها، أما المثل القرآني فإنه يسوق الحقائق التاريخية ويذكر ما وقع للأمم السابقة من الحسنات والنعيم وما وقع من السيئات والعقوبات لتكون عبرة وعظة لمن بعدهم، كما يسوق القرآن الكريم الأمثال التقديرية لتقريب معاني الثواب والعقاب وتشبيه المعاني بالمحسوسات لحث الناس على فعل الخيرات وترك المنكرات، لأن أمثلة القرآن الكريم ليست عبارة قصيرة

ومنها أن المثل بمعنى صفة الشيء والإخبار عنه، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥]، أي: صفة الجنة والإخبار عنها، قال عمر بن أبي خليفة: سمعتُ مقاتلاً صاحب التفسير يسأل أبا عمرو بن العلاء عن قول الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ ما مثُلها؟ فقال: ﴿فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ عَائِسٍ﴾ [محمد: ١٥]، قال: ما مثُلها؟ فسكت أبو عمرو، قال: فسألت يونسَ عنها فقال: مثُلها صفتها، وسبب سكوت أبي عمرو عنه أنه أجابه إجابة مقنعة فلم يفهمها، ومنه قوله تعالى في حق الصحابة: ﴿مَثُلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثُلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي: صفتهم.

ومنها أن المثل بمعنى العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]، أي: جعلنا السلف المتقدمين عبرة يتعظُّ بهم المتأخرون.

ومنها أن المثل بمعنى الآية والعلامة، ومنه قوله ﷻ في وصف عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٦]، أي: جعلناه

أطلقت على حدث معين لتساق لحدث مشابه فيما بعد، فأمثلة القرآن الكريم أوضح منطقاً، وأبلغ عظةً، وأشمل معنى، بها تأنس النفوس، وترتاح العقول، ويطيب العمل، وترتقي الأخلاق، ويحسن السلوك.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ [محمد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال جلال الدين السيوطي: (إن من أعظم علوم القرآن أمثلة)^(٦).

تاريخ المثل العربي:

إن المثل أسلوب لغوي تستعمله شعوب الأرض كافة، والعرب كغيرهم من الشعوب أولعوا بضرب المثل، لما يحمله من دليل في القول، وتعليل للتصرف والعمل، فتراهم يضربون الأمثال في أفراحهم وأتراحهم، وفي حياتهم الاجتماعية والعملية، فالمثل من موضوعات فخر العرب؛ لأنه دليل الفهم وإحكام فلسفة الحياة، وعصارة خبرة الدهور حتى قال شاعرهم:

ما أنت إلا مثل سائر
يعرفه الجاهل والخابر

وقد جرت مناظرة بين النعمان بن المنذر وكسرى أنشروان في شأن العرب، إذا بين النعمان لكسرى أن أي أمة تقرنها بالعرب فإن العرب تفضلها، فقال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: (بغزها ومنعتها، وحسن وجوها وبأسها، وسخائها وحكمة ألسنتها... إلى أن قال: وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم، ورونق كلامهم، وحسنه ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم بالأشياء، وضربهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس).

ولما نزل القرآن الكريم عربياً على العرب وافق طبيعتهم في حب الأمثال فغني بالأمثال وأمرهم بالاستماع إليه، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

مؤلفات الأمثال العربية:

وجاءت عناية العلماء العرب بالمثل عنايةً فائقةً، فقد رَووا الأمثال وجمعوها وفسروها وذكروا حوادثها وأسبابها، وألفوا فيها المؤلفات المختصرة والمطولة، فقد ألف المفضل الضبي الكوفي (ت ١٦٨هـ) تقريباً [كتاب الأمثال] وهو كتاب مطبوع معروف، وألف أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي (ت ٢٢٤هـ).

[كتاب الأمثال] وهو كتاب مطبوع، ثم جاء أبو عبدالله حمزة الأصفهاني البغدادي (ت ٣٦٠هـ) فجمع عدداً كبيراً من الأمثال العربية في كتاب نقل عنه المداني كثيراً، ووضع أبو هلال العسكري كتاب (توفي بعد ٣٩٥هـ) [جمهرة الأمثال] وهو كتاب مطبوع مشهور، ثم جاء أبو الفضل أحمد المداني النيسابوري (ت ٥١٣هـ) كتابه المشهور [مجمع الأمثال] ضم أكثر من ستة آلاف مثل، لذلك يعد المرجع الأول في الأمثال العربية.

وكان لأبي الحسن علي البصري الماوردي (ت ٤٥٠هـ) اهتمام واسع بالأمثال، وكذلك الشيخ إبراهيم الأحذب الأديب اللغوي المعروف المتأخر من بلاد الشام (ت ١٣٠٨هـ) كانت له اهتمامات في

الأمثال، حتى أنه نظم كتاب الميداني وسماه [فرائد اللال في نظم مجمع الأمثال].

ويلاحظ أن الذين ألفوا في الأمثال رتبوها على الحروف الهجائية العربية بحسب الحرف الأول من المثل، كما هو ترتيب بعض المعاجم اللغوية، ومنهم من جعل مؤلفه مكوناً من تسعة وعشرين باباً على عدد حروف الهجاء، ثم يذكرون لكل مثل قصته وأسباب إطلاقه، كما يلاحظ أن الأمثلة العربية في الجاهلية كانت شحيحة جداً.

مصادر الأمثال العربية:

تعددت مصادر الأمثال العربية، واختلفت أماكنها، فمن مصادرها البادية التي نسب إليها عدد من الأمثلة، ومن مصادر الأمثال عدد من الحضارات العربية مثل: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والحيرة، والبصرة والكوفة، وواسط، وحمص، ومن مصادر الأمثال ما أخذ من أصل نصراني يتصل بالإنجيل أو بسائر الكتب الدينية المسيحية، ومن مصادر الأمثال العربية ما تناقلته الأجيال جيلاً عن جيل، وربما كان من غير العرب فصاغه علماء العربية صياغة عربية.

موضوعات الأمثال العربية:

حملت الأمثال العربية كثيرا من المفاهيم التاريخية والفلسفية والأخلاقية والأدبية، حتى أصبحت ديوانا سجل كثيرا من مآثر العرب وأيامهم وحروبهم وتصرفاتهم ومنه الجيد ومنها الرديء والغث والسمين.

وقد حملت الأمثال العربية كثيرا من أحكام قواعد اللغة العربية، صرفها ونحوها وبلاغتها، مما حمل علماء اللغة العربية على إعطاء المثل العربي حقه من الاستدلال به وتقعيد القواعد عليه، وهكذا كانت عناية الشعراء بالأمثلة فقد ضمنوا أشعاره كثيرا من الأمثلة، وأدخلوها في أوزانهم وقوافيهم، وأما علماء البلاغة فقد كانت لهم عناية متميزة بالأمثال، فقد أقاموا عليها كثيرا من قواعد التشبيه والاستعارة والمجاز، والكناية، وقواعد الذكر والحذف والإيجاز، وقواعد المحسنات اللفظية والمعنوية.

وقد حملت الأمثال العربية كثيرا من الجوانب الأدبية الفنية إضافة إلى الجوانب البلاغية، فهناك أمثلة تحمل المديح والحماسة والهجاء والغزل والحكمة والرثاء والوصف والزهد وغيرها أفاد منها الأدباء والشعراء والكتاب.

نماذج من الأمثلة العربية وأثرها في

القواعد اللغوية والأدبية:

١- [أَحْمَقُ مِنْ هَبْنَقَةٍ]:

الأحمق: قليل العقل، والهبْنَقُ، ويقال: الهَبْنَقُ: صفة للأحمق، وهَبْنَقَةٌ: لقبٌ لذي الودَاعَاتِ واسمه: يَزِيدُ بْنُ تُرْوَانَ أحد بني قيس بن ثعلبة، وله قصص كثيرة من حُمَقِهِ، ومنها أنه وضع في عُنُقِهِ قِلَادَةً مِنْ وَدَعٍ وَعِظَامٍ وَخَرْفٍ، وكان ذا لحية طويلة، فسُئِلَ عن ذلك؟ فقال: لأعرف بها نفسي، ولئلا أضلَّ الطريق، فبات ذات ليلة، وسرقها منه أخوه وتقلدها، فلما أصبح ورأى القِلَادَةَ في عُنُقِ أَخِيهِ قال: يا أخي أنا أنت، فَمَنْ أَنَا؟! (٧).

وكلمة (أحمق) اسم تفضيل، على وزن (أعلم)، وقد وضع اللغويون شروطاً لبناء صيغة اسم التفضيل هي: أن يكون له فعل، وشدة (أقمن بكذا) أي: أحمق؛ لأنه من قَمِنَ، وأن يكون الفعل ثلاثياً وشدة (هذا الكلام أخصر من غيره) لأن الفعل اختُصِرَ-المبني للمجهول، وأن يكون الفعل تاماً، فلا يبنى من فعل ناقص مثل (كان)، وأن يكون معنى الفعل قابلاً للتفاوت، فلا يبنى من (مات)، وأن يكون الفعل متصرفاً فلا يبنى من عسى وليس، وأن لا يكون

الفعل غير منفي، فلا يبنى من فعل منفي أو لا يستعمل إلا منفيًا (ما عاج بالدواء) أي: ما انتفع، وأن لا يكون الفعل مبنيًا للمجهول، فلا يبنى من (ضرب)، وأن لا يدل الفعل على عيب أو لون ظاهر فلا يبنى من (عرج) ولا من (صفر)، وعبروا عن ذلك بقولهم: أن لا يكون اسم الفاعل من الفعل على وزن أفعل فعلاء، مثل: أحمر حمراء، وأسود سوداء، فيقال فيها: أشد حمراء، وأشد سوداء، أما إذا كان العيب باطنًا فيصاغ اسم التفضيل من من مصدر الفعل مثل: (حقيق) فيقال: (هو أحق منه)، وعلى هذا استشهد به النحويون بهذا المثل، ومثله (فلان أبله من فلان)، و(هو أرعن من فلان)^(٨).

٢ - [لو ذات سوارٍ لطمتني]:

السَّوَار: اسمٌ لحليّةٍ من الذهب مُستديرةٌ كالحلقة، تُلبَسُ في مِعْصَمِ اليَدِ أو في زندها، ويجمعُ على (أساور) وعلى (أسورة)، قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، وجمع الجمع (أساورّة)، وقرئ قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣]، والسَّوَارُ مأخوذٌ من السُّور، وهو ما يُحيطُ بشيءٍ من بناءٍ أو غيره^(٩).

واللطمُ: مصدرٌ فعله (لَطَمَ يَلْطِمُ) على وزن (ضَرَبَ يَضْرِبُ)، واسم الفعل منه (لاطِمٌ) واسم الفعول (ملطُومٌ)، واللطمُ هو الضربُ على الخدِّ بباطن الكفِّ المبسوطة، يقال: يَلْطِمُ المدرسُ الولدَ إذا أساء، أي: يضربه على خده بكفه، ولطمت المرأة وجهها أو صدرها بباطن كفها^(١٠).

وهذا المثل قاله حاتم الطائي، ورواه الأصمعي بلفظ [لو غير ذات سوارٍ لطمتني]^(١١)، وقصته - كما روته كتب الأمثال: أن حاتمًا الطائي مرَّ ببلادٍ عَزَّةٍ في بعض الأشهر الحُرْمِ، فناداه أسيرٌ لهم: يا أبا سَفَانَةَ! أكلني الإسار والقمل، فقال: ويحك! أسأت إذ تَوَهَّتَ باسمي في غير بلادٍ قومي، فسأومَ القومَ به، ثم قال: أطلقوه، واجعلوا يدي في القَدِّ مكانه، ففعلوا، فجاءته امرأة رثة أهية ببيعيرٍ ليفصده، فقام حاتمٌ إلى البعير فنحره، فلطمت المرأة وجهه وهو مأسورٌ، فقال - على رواية الأصمعي: [لو غير ذات سوارٍ لطمتني] يعني: أني لا أقتص من النساء فَعُرْفَ، ففدَى نفسه من الأسر فداءً عظيمًا.

وهذا المثل يقوله الكريم إذا ظلمه اللئيم، أنه لو ظلمني مَنْ هو دوني، وقيل: أراد: لو لطمتني حرّةً، فجعل السَّوَارَ علامةً

للحرية؛ لأنَّ العربَ قلَّما تُلبسُ الإماءُ السوار، فهو يقول: لو كانت اللاطمة حُرَّةً ذات غنى وهيئة لكأنت بليتي أخفَّ عليّ، وهذا كما قال الشاعر^(١٢):

فلو أنَّني بُلْتُ بهاشمي
خوَّلْتُه بنو عبْدِ المدانِ
لهانَ عليّ ما ألقى ولكنْ
تعلَّوا فانظروا، بمنِ ابتلاني

وقد ساق النحاة هذا المثلَ شاهداً على قضية نحوية، وهي أنَّ الأصل في (لو) أن تدخلَ على الفعل خاصة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقد تدخل على الأسماء في صور، الصورة الأولى - أن يليها اسم مرفوعٌ معمولٌ لعامل محذوف يفسره ما بعده، والصورة الثانية - أن يليها اسم منصوب كذلك بعامل محذوف، مثل: لو زيدا رأيته أكرمتُه، أو منصوب على أنه خبر لكان محذوفة، مثل: قوله عليه السلام: ((التمس ولو خاتماً من حديد))، والصورة الثالثة - أن يليها اسم هو في الظاهر مبتدأ وما بعده خبر، مثل: لو زيدٌ في الدار.

وهذا المثل الذي بين أيدينا شاهدٌ على الصورة الأولى؛ فإنَّ (لو) دخلت على اسم مرفوع وهو (ذات) مرفوعة بفعل

محذوف يفسره الموجود أي: لو لطمتي ذات سوارٍ لطمتي.

ومثله قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لو غيرك قالها يا أبا عبيدة)، قاله حين انتشر الطاعون في الشام سنة ١٧ للهجرة، فعزم عمر أن يعودَ منها إلى المدينة، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قَدَرِ الله؟ فأجابه عمر بذلك^(١٣).

٣ - [بَعْدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي]

قيل في أصل هذا المثل: إنَّ رجلاً من جدّيس تزوّج امرأة قصيرة، فقاسى منها الشدايد، وكان يُعبرُ عنها بالتصغير، فتزوَّج امرأة طويلة، فقاسى منها ضعف ما قاسى من الصغيرة، فطلقها، وقال: بعدَ اللَّتْيَا والَّتِي لا أتزوَّج أبداً، ثم جرى هذا المثلُ وأُطلقَ على الأمر الذي يكون بعد ما يكاد صاحبه يهلك، كأنه يقول: وصلتُ إليه بعدَ أن لقيتُ صغيرَ المكاره وكبيرها، وقيل: يُطلق على كلِّ داهية تُصيب الإنسان؛ لأنَّ (اللَّتْيَا والَّتِي) من أسماء الداهية، وقيل: إنَّ العربَ تُصغِّرُ الشيءَ العظيمَ مثل: الدَّهيم - اسم مصغر بمعنى الداهية أو الأحمق، واللَّهيم - اسم للداهية أو الحمى أو المنية لالتهاهما الخلق، وذلك منهم رمز، يقال: وقع فلانٌ في اللَّتْيَا والَّتِي. أي: وقع في

الداهية الكبيرة والصغيرة.

وكذلك (اللَّتْيَا) تصغير (الَّتِي)، وقال الشاعر:

وَكَفَيْتُ جَانِيَهَا

اللَّتْيَا وَالَّتِي

أي: كفيتهما الصغير والكبير من الأمور، فلم يحتاجوا إلى غيري.

ومثل هذا المثل قولهم: (بعد الهياط والمياط) قال الأصمعي معناه: بعد الإقبال والإدبار، وقال أبو بكر بن دريد: القوم في هَيْطٍ ومَيْطٍ، وهياطٌ ومياطٌ، إذا كانوا في تجاذبٍ و قتالٍ، و(المَيْطُ) الجورُ وفعله مَاطَ يَمِيطُ إذا جَارَ، أو تَبَاعَدَ، وقال القُتَيْبِيُّ: الهياطُ: الصَّيْحُ، والمياطُ: الدَّفْعُ^(١٤).

وقد جاء هذا المثلُ في كتب النحو العربي شاهداً على جواز حذف صلة الموصول قليلاً، وذلك إذا دلت عليها صلة أخرى، أو دلَّ عليها شيء آخر غير الصلة؛ لأن اللَّتْيَا والتي من أسماء الموصول المبهمة التي تحتاج إلى صلة تزيل إبهامها.

مثال دلالة الصلة الأخرى على المحذوفة قول الشاعر:

وَعِنْدَ الَّذِي وَاللَاتِ عُنْدَكَ إِحْنَةٌ

عَلَيْكَ فَلَا يَغُرُّكَ كَيْدُ الْعَوَائِدِ

أي: الذي عادك واللاتي عُنْدَكَ، لأنَّ (اللات) هنا لغةٌ في اللاتي، و(إحنة) مبتدأ مؤخرٌ، خبره (عند الذي...) ومعنى الإحنة الحقد.

ومثال دلالة غير الصلة قول عُبيد الأبرص يخاطبُ امرأ القيس:

نَحْنُ الْأَلْيَى فَاجْمَعْ جُمُوعَكَ ثُمَّ وَجَّهْهُمْ إِلَيْنَا

أي: نحنُ الأَلْيَى عُرْفُوا بالشجاعة.

ومن هذا قول العجاج:

بَعْدَ اللَّتْيَا وَاللَّتْيَا وَالَّتِي

إِذَا عَلَتْهَا أَنْفُسٌ تَرَدَّتْ

والمرادُ باللَّتْيَا والتي الدواهي الصغيرة والكبيرة، ف قيل: يُقَدَّرُ مع اللَّتْيَا فيهما نظيرُ الجملة الشرطية المذكورة، وقيل: اللَّتْيَا دَقَّتْ وَاللَّتْيَا دَقَّتْ؛ لأنَّ التصغير لا يقتضي ذلك، وصلة الثالثة (الَّتِي) الجملة الشرطية، وقيل: يُقَدَّرُ مع (اللَّتْيَا) فيهما عَظُمَتْ، لا دَقَّتْ، وإنه تصغيرٌ تعظيمٌ، كقول لبيد بن ربيعة^(١٥):

وَكُلُّ أَنْاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ

دُوَيْهِيَّةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ

٤- [تَسْمَعُ بِالْمُعِيدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ]

يروى هذا المثل بلفظ: (لَأَنْ تَسْمَعَ بِالْمُعِيدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)، ويروى: (أَنْ تَسْمَعَ بِالْمُعِيدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)، ورواه الأصمعي: (تَسْمَعُ بِالْمُعِيدِي لَا أَنْ تَرَاهُ) قال الميداني: (والمختار أَنْ تَسْمَعَ).

إنَّ هذا المثل يُضْرَبُ لِمَنْ خَبَرَهُ خَيْرٌ مِنْ مَرَّاهُ، وأولُ من قال ذلك النعمان بن المنذر، ذلك أنَّ رجلاً من بني تميم يقال له: ضمرة، كان يُغَيِّرُ عَلَى مَسَالِحٍ - جمع مسلحة وهي الثغور النعمان بن المنذر، حتى إذا نفدَ صَبْرُ النعمان كتب إليه: أَنْ ادخل في طاعتي، ولك مائة من الإبل، فقبلها وأتاه، فلما نظر إليه النعمان ازدراءً، وكان ضمرة ذميماً، فقال النعمان: [تسمع بالمُعِيدِي لَا أَنْ تَرَاهُ]، فقال ضمرة: مهلاً أيُّها الملك، إِنَّ الرِّجَالَ لَا يُكَالُونَ بِالصَّعَانِ، وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِهِ: قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، إِنَّ قَاتِلَ قَاتِلِ بَجَنَانٍ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بَيَانٍ.

قال النعمان: صدقتَ لله دُرُكُ، هل لَكَ عِلْمٌ بِالْأُمُورِ وَلَوْ جُفِيَ فِيهَا؟ قال ضمرة: واللهِ إِنِّي لَأُبْرِمُ مِنْهَا الْمَسْحُولَ، وَأَتَقْضِي مِنْهَا الْمَفْتُولَ، وَأُجِيلُهَا حَتَّى تُجُولَ، ثُمَّ أَنْظِرُ إِلَى مَا تَوُولُ، وَلَيْسَ لِلْأُمُورِ بِصَاحِبٍ مَنْ لَمْ

يَنْظُرُ فِي الْعَوَاقِبِ، قال النعمان: صدقتَ لله دُرُكُ، فأخبرني ما العجزُ الظاهرُ، والفقرُ الحاضرُ، والدَاءُ العِيَاءِ، والسَّوْءُ السَّوْءِ؟ قال ضمرة: أما العجزُ الظاهرُ فهو الشابُّ القليلُ الحيلة، اللَّزُومُ لِلْحَلِيلَةِ، الذي يحومُ حولها، ويسمعُ قولها، إِنْ غَضِبَتْ تَرْضَاهَا، وَإِنْ رَضِيَتْ تَفْدَاهَا، وأما الفقرُ الحاضرُ، فالمرءُ لَا تَشْبَعُ نَفْسُهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ ذَهَبٍ خِلْسُهُ، وأما الداءُ العِيَاءُ فجارُ السَّوْءِ، إِنْ كَانَ فَوْقَكَ فَهْرَكَ، وَإِنْ كَانَ دُونَكَ هَمْرَكَ، وَإِنْ أُعْطِيَتْهُ كَفْرَكَ، وَإِنْ مَنَعَتْهُ شَتَمَكَ، فَإِنْ كَانَ ذَاكَ جَارَكَ فَأَخْلُ لَهُ دَارَكَ، وَعَجِّلْ مِنْهُ فِرَارَكَ، وَإِلَّا فَاقِمْ بِذِلٍّ وَصَغَارٍ، وَكُنْ كَكَلْبٍ هَرَّارٍ، وأما السَّوْءُ السَّوْءِ فَالحليلةُ الصَّخَّابَةُ، الخفيفةُ الوَثَابَةُ، السَّليطَةُ السَّبابَةُ، التي تُعْجَبُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ، وتَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ غَضَبٍ، الظاهرُ عِيْهَا، المَخْخُوفُ غَيْبُهَا، فزَوْجُهَا لَا تَصْلُحُ لَهُ حَالٌ، وَلَا يَنْعَمُ لَهُ بَالٌ، إِنْ كَانَ غَنِيًّا لَمْ يَنْفَعِهِ غَنَاهُ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا أَبَدَتْ لَهُ قِلَاهُ، فَأَرَاخَ اللَّهُ مِنْهَا بَعْلُهَا، وَلَا مَتَعَ بِهَا أَهْلُهَا، فَأَعْجَبَ النُّعْمَانُ حُسْنَ كَلَامِهِ، وَحُضُورَ جَوَابِهِ، فَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ، وَاحْتَبَسَهُ قِبَلَهُ.

هذه قصة المثل التي ذكرها أبو هلال العسكري في كتابه جمهرة الأمثال، ولكن

لهذا المثل قصة أخرى طويلة ذكرها الميداني في كتابه مجمع الأمثال تختلف عما ذكره العسكري، وقد وجدت أن ما ذكره العسكري أنسب لورود المثل، وألصق بالمعنى الذي يضرب فيه المثل.

والمُعَيْدِي: تصغير مَعْدِي، والبدال يُخَفَّفُ وَيُثَقِّلُ هذا المثل، والأصلُ التثقيل، وقال بعضهم: هو منسوب إلى مُعَيْدٍ، وهو اسم قبيلة، وأنشد:

سَيَعْلَمُ مَا يُغْنِي مُعَيْدٌ وَمُعْرِضٌ
إِذَا مَا تَمِيمٌ غَرَّقَتْكَ بُحُورُهَا

وقد استشهد بهذا المثل كثير من النحويين.

فهو شاهد على أن الفعل المضارع (تسمع) وقع موقع المبتدأ وخبره (خير)، ذلك أن الفعل المضارع منصوب بـ(أن) المصدرية الناصبة المضمرة، فتسبب مع الفعل المضارع مصدراً، ليكون التقدير: (سَمَاعُكَ بِالْمُعَيْدِي خَيْرٌ من رؤيته).

وقيل: (تسمع) فعل مضارع مرفوع واقع موقع السماع فهو مبتدأ وإن لم يكن معه حرف سابق وهو (أن) المصدرية، كما أن الجملة بعد الظرف في تأويل المصدر كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾

[الكهف: ٤٧]، أي: تُسَيِّرُ الجبالِ يومَ ترى الأرضَ بارزة، ومثله قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، أي: انذارك لهم وعدم إنذارهم سواء.

واستشهد بهذا المثل لجواز رفع المضارع بعد إضمار (أن) المصدرية الناصبة، لكنه سماعي لا يقاسُ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوَنِّي أَعْبُدُ إِلَهُهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، رفع الفعل (أعبد) مع تقدير (أن) قبله، والأصل (أن أعبد) ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤]، فالفعل (يُريكم) مرفوع بضمّة مقدرة على الياء للثقل، والأصل: (أن يُريكم)، وهكذا (تسمع) في المثل مرفوع مع أن الأصل (أن تسمع).

وعلى هذا يكون في (تسمع) ثلاث روايات: بالنصب على إضمار (أن) وهذا شاذ؛ لحذف العامل وبقاء عمله من دون عوض، وبالرفع على حذف (أن) لأن عملها زال بحذفها فارتفع الفعل المضارع، وهذا هو القياس، أو الرفع مع تقدير (أن) وهذا شاذ؛ لأن تقديرها يقتضي نصب الفعل المضارع بها، وأما على رواية (لأن

تسمع) على النصب فلا إشكال فيه لذكر (أن) الناصبة^(١٦).

٥ - [مُكْرَهُ أَخَاكَ لَا بَطْلٌ]:

يروى هذا المثل بصيغة (مُكْرَهُ أَخُوكَ لَا بَطْلٌ)، وهو مثل يُضْرَبُ لِمَنْ يَعْمَلُ عملاً وهو غير راغب فيه بل هو مُجْبَرٌ على فعله، و(البطل) الشجاع.

والمثل من كلام أبي حنّس خال بهيس، الملقّب بـ (نَعَامَة)، ومعناه: إنّما أنا محمولٌ على القتال، ولستُ بشجاع، وقصته أنّ بهيس كان رجلاً من بني فزارة بن ذبيان بن بغض، وكان سابع سبعة من إخوة له، كانوا في إبلهم، فأغار عليهم ناسٌ من أشجع؛ لحرب بينهم، فقتلوا منه ستة، وبقي بهيس، وهو أصغر إخوته وكان يوصف بالحُمق، فأرادوا قتله أيضاً، ثم قالوا: وما تريدون من قتل هذا؟ يُحَسَّبُ عليكم برجل، ولا خير فيه، فتركوه، فقال: دعوني أتوصل معكم إلى الحي، فإنكم إن تركتموني وحدي أكلتني السباع، وقتلني العطش، ففعلوا، فأقبل معهم فلما كان الغد نزلوا ونحروا جزورا، في يوم شديد الحر، فقالوا: ظلّلوا لحمكم لا يفسد، فقال بهيس: [لكنّ بالأثلاث لحمًا لا يُضَلَّلُ]، فذهب قوله هذا مثلاً، لكنهم شكوا في قوله

هذا، وهموا أن يقتلوه، ثم تركوه، وأكلوا الشواء ثم غادروا، فأتى بهيس أمّه فأخبرها الخبر، قالت: ما جاءني بك من بين إخوتك؟ فقال لها بهيس: [لو خيّرت لاخترت] فذهبت مثلاً، ثم إنّ أمه عطفت عليه ورقت له، وبدأت تعطيه ثياب إخوته فلبسها، وهو يقول: [ياحبذا التراث لولا الدّلة] فأرسله مثلاً، ثم إنّ أخيراً أناساً من أشجع في غار يشربون فيه، فانطلق معه خاله (أبو حنّس) فقال بهيس له: هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها؟ ويروى: [هل لك في غنيمّة باردة؟] فذهب مثلاً، ثم انطلق بهيس بخاله حتى أقامه على فم الغار، ثم دفع أبا حنّس في الغار، فقال بهيس: ضرباً أبا حنّس، فقال بعضهم: إنّ أبا حنّس لبطل، فقال أبو حنّس: [مُكْرَهُ أَخُوكَ لَا بَطْلٌ] فذهب مثلاً.

قال المتلمس في ذلك:

وَمِنْ طَلَبِ الْأَوْتَارِ مَا حَزَّ أَنْفَهُ

قَصِيرٌ وَخَاضَ الْمَوْتَ بِالسَّيْفِ بِهِيسُ

نَعَامَةُ لَمَّا صَرَغَ الْقَوْمُ رَهْطُهُ

تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ

وفي هذا المثل شواهد صرفية ونحوية

على النحو الآتي:

أ - [مُكْرَهُ] اسمٌ مفعول على وزن

(مُكْرَمٌ)، من الفعل الرباعي: أكرم يُكرم إكراماً، والقاعدة: أن حرف المضارعة يحذف من الفعل المضارع، ويوضع مكانه ميمٌ مضمومة، ويفتح ما قبل الآخر، فإن كُسِرَ صار اسم فاعل (مُكْرِمٌ)، قال ابن مالك في ألفيته:

وزنة المضارع اسم فاعل

من غير ذي الثلاث كالمواصل
مع كسر مثلو الأخير مُطْلَقاً
وَضَمَّ ميم زائدٍ قَدْ سَبَقاً
وإن فتحت منه ما كان انكسر

صار اسم مفعول كمثل المنتظر

ب - [أخاك] من الأسماء الستة التي ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء، وأخاك هنا مرفوع؛ لأنه مبتدأ مؤخر على رأي من يشترط لعمل اسم المفعول اعتماده على مُخْبِر عنه، أي: (أخوك مُكْرَمٌ)، أو نائب عن الفاعل -على رأي من يشترط ذلك- لـ (مُكْرَمٌ) وهو اسم مفعول يعمل عمل فعله المبني للمجهول (يُكْرَمُ)، فحقه أن يقال: (مُكْرَمٌ أخوك)، وهو إحدى روايات المثل إذ جاءت على المشهور في إعراب الأسماء الستة، لكن الرواية الأخرى جاءت (أخاك) بالألف، وذلك على لغة من يستعمل أبا وأخا بالألف

مطلقات رفعاً ونصباً وجراً، كقول الشاعر:
إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا
قَدْ بَلَغَا الْمَجْدَ غَايَتَاهَا
ولم يقل: (وأبا أبيها) بالجر على الإضافة.

ج - [لا بَطْلٌ] (لا) حرف عطف يحمل معنى النفي، و(بَطْلٌ) صفة مشبهة باسم الفاعل مرفوعٌ لأنه معطوف على (مكروه)^(١٧).

٦ - [مَنْ عَزَّ بَرٌّ]

(عزٌّ) من العزَّ أي: الغلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] ، أي: غلبني في الخطاب، و(بَرٌّ) من البرَّ أي: السِّلْب، ومعنى هذا المثل مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، أي: إنَّ الغنيمة لمن غلب.

وأول من قال هذا المثل رجلٌ من طَيِّعٍ يُقالُ له: جابرُ بن رُلانَ أَحَدُ بني ثعل، وقيل: هو لَعْبِيدُ بن الأبرص.

وقصة هذا المثل أنَّ جابراً خرجَ ومعه صاحبان له، حتى إذا كانوا بظهر الحيرة، وكان للمنذر بن ماء السماء يومٌ يركبُ فيه فلا يلقى أحداً إلَّا قتله، فلقي في ذلك جابراً وصاحبيه، فأخذتهم الخيلُ بالسوية فأثني بهم المنذر، فقال: اقترعوا فايكم قرعَ خليتُ سبيله، وقتلتُ الباقيين، فاقترعوا فقرعهم

جابر بن رألان، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، وَقَتَلَ
صَاحِبِيهِ، فَلَمَّا صَاحِبِيهِ، فَلَمَّا رَأَاهُمَا يُقَادَانِ
لِيُقْتَلَ قَالَ: [مَنْ عَزَّ بَزًّا]، فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا
قَالَتِ الْخَنَسَاءُ:

وَأَفْنَى رَجَالِي فَبَادُوا مَعًا
فَأَصْبَحَ قَلْبِي بِهِمْ مُسْتَفْزَا
كَأَنَّمَا يَكُونُوا حِمَى يُتَّقَى
إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزًّا

استشهد النحويون بالبيت الثاني من
قول الخنساء: [إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزًّا] على أَنَّ
(إِذْ) ظرفُ زمانٍ لـ(بَزًّا)، وهو عامل
النصب في إِذْ، و(ذَاكَ) مبتدأ خبره محذوف،
تقديره: (كائنٌ)، و(مَنْ) اسمٌ موصول
بمعنى الذي مبتدأ، وجملة (بَزًّا) خبرها،
وجملة (عَزَّ) صلة الموصول وليست (مَنْ)
هنا شرطية؛ لأنَّ (بَزًّا) عاملٌ في إِذْ، وجملة
(من عز بز) خبر للناس، والعائد الرابط
محذوف تقديره: الناسُ مَنْ عَزَّ مِنْهُمْ بَزًّا،
مثل قولهم: (السَّمْنُ مَتَوَانٌ بِدِرْهِمٍ) أي:
متوان منه بدرهم.

ولا يجوز القول: بأنَّ (مَنْ) شرطية
لأنَّ ما كان في حيز الشرط لا يعمل فيما
قبله، فجملة (عز) في حيز الشرط وحيثُ
فلا يسمح لـ (بَزًّا) بالعمل في (إِذْ).
كما لا يجوز أن تكون (إِذْ) الأولى

ظرفاً لـ(بَزًّا)؛ لأنه جزءُ الجملة التي أضيفت
(إِذْ) الأولى إليها، ولا يعمل شيء من
المضاف إليه، وهو جملة (الناس) إِذْ ذَاكَ مَنْ
عز بز) في المضاف وهو (إِذْ) الأولى.

وكذلك لا يجوز أن تكون (إِذْ) الثانية
بدلاً من (إِذْ) الأولى؛ لأنها إنما تكتمل بما
أضيفت إليه، ولا يُتبع اسمٌ حتى يكمل.
ولا يجوز أن تكون (إِذْ) الثانية خبراً
عن الناس؛ لأنها زمان، و(الناس) اسم
عين، ولا يجوز أن يكون ظرف الزمان خبراً
عن الذات^(١٨).

٧- [مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ]:

هذا المثل يقال لمن يسمع خبراً
ويصدقه ويؤمن به، وينشره بين الناس،
وهو غير مثبت من صحة الخبر.

يقال في اللغة: خَلْتُ الشَّيْءَ إِخْلَالًا-
بكسر الهمزة وفتحها، إِذَا ظَنَنْتَهُ، ومعنى
هذا المثل: أَنَّ مَنْ يَسْمَعُ الشَّيْءَ رُبَّمَا ظَنَّ
صِحَّتَهُ، وقيل: معناه أَنَّ مَنْ يَسْمَعُ أَخْبَارَ
النَّاسِ وَمَعَايِبَهُمْ يَقَعُ فِي نَفْسِهِ الْمَكْرُوهُ
عَلَيْهِمْ، أي: إِنَّ مُجَابَبَةَ النَّاسِ أَسْلَمُ.

وقد قال البُحْتَرِيُّ شعراً ضمنه هذا
المثل:

سَمِعْتُ أَنَّ التَّصَابِي خَرَقَ
بَعْدَ خَمْسِينَ وَمَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ

استشهد بعض النحاة بهذا المثل لقضية نحوية وهي: أن النحويين قالوا بحذف المفعول اختصاراً واقتصاراً، ويعنون بالاختصار: الحذف لدليل، ويعنون بالاقتصار الحذف لغير دليل، ويمثلون له بقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠]، أي: أوقعوا هذين الفعلين، ومنه قول العرب فيما يتعدى إلى مفعولين هذا المثل: (من يسمع يخل) أي: من يسمع أخباراً يخلها صحيحةً، بمعنى تكن منه خيلةً.

وقد ذهب ابن هشام في كتابه المغني إلى تحقيق هذه المسألة، بما ملخصه ما يأتي:

١- أن يراد مجرد إيقاع الفعل من غير تعيين مَنْ أوقعه، أو مَنْ أوقع عليه، فهذا يُجاء بمصدر الفعل مُسنداً إلى فعل كَوْنٍ عام، -والأفعال العامة خمسة هي: حصل، وثبت، واستقر، وكان، وَوُجِدَ - فيقال: حصل حريقٌ، وثبت نهبٌ، وكان بردٌ، واستقرَّ دعاءٌ، وَوُجِدَ كرمٌ.

٢- أن يراد مجرد إيقاع الفاعل للفعل من غير تعيين مَنْ أوقع عليه، فهذا يُقتصر فيه على ذكر الفعل والفاعل، ولا يذكر المفعول ولا ينوي، لأن المنوي كالثابت، ولا يُسمى محذوفاً؛ لأن الفعل ينزل منزلة ما لا

مفعول له إذا قصد به إيقاع الفاعل للفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: ربي الذي يفعلُ الإحياء والإماتة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، أي: هل يستوي من يتصف بالعلم ومن يتنفي عنه العلم، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، أي: وأوقعوا الأكل والشرب، وذروا الإسراف، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، أي: إذا حصلت منك رؤية هنالك.

ومنه على الأصح عند ابن هشام قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصاص: ٢٣]، أي: حصل من موسى عليه السلام ورودٌ، فإنه رحم ابنتي شعيب حين رأهما على صفة الدياد وقومهما على صفة السقي، لا

لكون مَذُودَهما غَنَمًا وَمَسْقِيَهُم إِبِلًا،
وكذلك المقصود من قولهما: «لَا نَسْقِي»
[القصص: ٢٣]، السقي، لا المَسْقِي،
ومن لم يتأمل قَدَرَ: يَسْقُونَ إِبِلَهُمْ، وتَذْدَانِ
غَنَمَهُمَا، ولا نَسْقِي غَنَمًا.

٣ - أن يراد إسناد الفعل إلى فاعله
وتعليقه بمفعوله، فيذكران مع الفعل، كقوله
تعالى: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا
الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ» [آل عمران: ١٣٠]، وقوله
تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً
وَسَاءَ سَبِيلًا» [الإسراء: ٣٢]، وقولهم: ما
أحسنَ زيدًا.

وهذا النوع إذا لم يُذكر مفعوله قيل:
المفعول محذوف، كقوله تعالى: «مَا وَدَّعَكَ
رَبُّكَ وَمَا قَلَى» [الضحى: ٣]، أي: وما فلاك.
وقد يكون في اللفظ ما يستدعي
المفعول، فيحصل الجزم بوجوب تقديره،
كقوله تعالى: «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ
رَسُولًا» [الفرقان: ٤١]، أي: بعثه، وكقوله
تعالى: «وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ» [الحديد:
١٠]، أي: وعده الله.

ومنه قول الشاعر جرير^(١٩):

أَبَحْتَ حِمَى تَهَامَةَ بَعْدَ نَجْدٍ
وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ
أي: حميته.

٨ - [بالرفاء والبنين]

الرفاء: الالتحام والاتفاق والوئام
والخلف الصالح، مأخوذ من رَفَيْتُ الثوبَ
إذا لحمته ولأمته، ويجوز أن يكون من رَفُوته
إذا سَكَنَتْه، قال أبو خراش الهذلي:
رَفُونِي وَقَالُوا: يَا خُوَيْلِدُ لَا تُرْعِ

فَقُلْتُ وَأَثَرْتُ الوجوه: هُمُ هُمُ
والرفاء: - بتشديد الراء والفاء - هو
الذي صناعته رَفُو الثياب ونحوها، ويقال
للمرأة: رَفَاءَةٌ، وقد هَنَأَ بَعْضُهُمْ مُتَزَوِّجًا،
فقال: بالرفاء والثبات، والبنين لا البنات،
ويروى: بالثبات والثبات.

وقد استشهد النحاة بهذا المثل على
وجوب تعلق الظرف والجار والمجرور
بمحذوف، في ثمانية مواضع، منها ما جاء
في هذا المثل، من تعلق الجار والمجرور
بمحذوف، فإذ قيل للمُعَرِّسِ: بالرفاء
والبنين، فهو على تقدير: أَعْرَسْتَ بالرفاء
والبنين، ومثاله من الظرف قولهم لمن ذكرذ
أمرًا قد تقادم عهده: حَيْثُذِ الآنَ، وأصله:
كان ذلك حَيْثُذِ واسْمَعِ الآنَ. (٢٠)

٩- [خُذِ اللَّصَّ قَبْلَ يَأْخُذَكَ]:

هذا المثل ذكره الميداني في مجمع الأمثال على أنهم من أمثال المولدين، وفيه شاهد نحوي على أن حذف (أن) الناصبة مع بقاء عملها النصب في الفعل جائز باطراد في مواضع ذكرها النحويون، ويكون حذفها شاذاً في مواضع مثل قولهم: (مُرَّه يَحْفَرَهَا) ف (يَحْفَرَهَا) فعل مضارع منصوب وعلامة نصبه الفتحة وعاملُ النصب (أن) المصدرية المحذوفة، والتقدير: مره قبل أن يأخذها، وهو الأصل، وكقولهم: (لا بُدَّ مِنْ تَتَبُعَهَا) والتقدير: (لا بد من أن تَتَبُعَهَا). وهو الأصل.

ومن الحذف الشاذ لـ (أن) الناصبة، ما جاء في هذا المثل: (خذ اللص قبل يأخذك) بنصب الفعل المضارع (يأخذ) والناصب (أن) المصدرية المحذوفة، والتقدير: (قبل أن يأخذك) وهو الأصل، والميداني ذكر هذا المثل على هذا الأصل، ولم يذكر له قصة معينة، غير أن ابن هشام ذكره في كتابه المغني بحذف (أن). (٢١)

١٠- [قُضِيَتْ وَلَا أَبَا حَسَنِ لَهَا]

هذا المثل قاله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحق أبي الحسن، وهو سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذلك أن عمر إذا استغلق عليه أمر يقول هذا القول، فحين عُرِضَتْ

مسألة شرعية على عمر ليُجيب عليها ولا يستطيع الفصل فيها غير علي بما أوتي من حكمة بالغة وعلم غزير ورأي سديد وفقه واسع، وكان غير موجود ليعرضها عمر عليه، فقال هذا القول، أي: عُرِضَتْ قضية ولا يوجد أبو الحسن ليحلها، ثم ذهب هذا القول مثلاً للأمر العسير الذي لا يوجد له مَنْ يُسَّرُّه. ولم أجد هذا المثل في كتب الأمثال.

وقد ساق ابن هشام هذا المثل في كتابه المغني شاهداً على حذف المضاف وقيام المضاف إليه مقامه، والأصل: (قضية ولا مثل أبي حسن لها) فحذف المضاف (مثل) المنصوب بـ (لا) النافية للجنس، وقام المضاف إليه مقامه منصوباً فصار (ولا أبا حسن لها). وهذا بناء على من جوَّز نيابة المضاف إليه المعرفة عن المضاف

النكرة إذا كان بلفظ (مثل)، فجاز أن تخلفها المعرفة في التنكير، لأن اسم لا النافية للجنس لا بد أن يكون نكرة، ويقال في: (مررتُ برجلٍ زهيرٍ) بخفض (زهير) صفة للنكرة (رجل)، والأصل: (مررتُ برجلٍ مثل زهير). (٢٢)

١١- [وَقَعُوا فِي حَيْضٍ بَيْنَ]

الحَيْضُ: بفتح الحاء وكسرهما - مصدرٌ فعله حاض، ومعناه الفِرَارُ، والبَيْضُ: -

بفتح الباء وكسرهما - اسمٌ معناه الضيقُ
والشدَّةُ، يقال: وقع القوم في حيصٍ بيصٍ،
أي: في أزمةٍ وغمٍّ وشدَّةٍ وضيقٍ، وقيل:
وقعوا في اختلاطٍ من أمرٍ، ولا خرجَ لهم
ولا مَحِيصٌ منه، ويعسر التخلُّص منها،
ويقال: في وقعوا في حيصٍ بيصٍ -
بالتنوين - وأنشدوا لأمية بن أبي عائذٍ
الهذليُّ:

قَدْ كُنْتُ خَرَّاجاً وَلَوْجاً صَيْرَفاً

لَمْ تَلْتَحِصْنِي حَيْصَ بَيْصٍ لِحَاصٍ
استشهد به النحاة على أن مثل هذا
التركيب مبنيٌّ على الفتح بجزأيه؛ لأنه
مركب تركيب خمسة عشر، فإنَّ الأصل:
خمسة وعشر، ثم حذفت الواو قصداً لمزج
الاسمين وتركيبهما، فبني الأول لافتقاره إلى
الثاني، وبني الثاني لتضمنه الواو العاطفة.
وهكذا قولهم: حيص بيص أصلها: حيصَ
وبيصَ. (٢٣)

١٢ [بَعْتُهُ يَدًا بَيِّدًا]:

اتشهد به النحاة على أن الأصل في
الحال أن يكون مشتقاً، مثل: جاء الطالبُ
مُسرعاً، وقد يكون الحالُ جامداً إذا دلَّ
على نوع من التفاعل، فيؤول بالمشتق،
فقولهم: (بعته يدأً بَيِّدًا) أي: بعته مُتَنَاجِزِينَ،
ومثله قولهم: (كَلَّمْتُهُ فَمَا لِفَسْمٍ) أي: كلمته

مُتَشَافِهِينَ. (٢٤)

١٣ - [تَمْرَةٌ خَيْرٌ مِنْ جَرَادَةٍ]

جاء في الموطأ: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى عُمَرَ
بِالْخَطَابِ ۖ فَسَأَلَهُ عَنْ جَرَادَةٍ قَتَلَهَا وَهُوَ
مُحَرَّمٌ، فَقَالَ عُمَرُ لِكَعْبٍ: تَعَالَ حَتَّى
نُحْكَمَ، فَقَالَ كَعْبٌ: دَرَاهِمٌ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّكَ
لَتَجِدَ الدَّرَاهِمَ، لَتَمْرَةٍ خَيْرٌ مِنْ جَرَادَةٍ،
ورواه ابن أبي شيبة في مُصَنَّفِهِ بِلَفْظٍ: عَنْ
كَعْبٍ أَنَّهُ مَرَّتْ بِهِ جَرَادَةٌ فَضَرَبَهَا بِسُوطِهِ،
ثُمَّ أَخَذَهَا فَشَوَّاهَا، فَقَالَ لَهُ فِي ذَلِكَ: هَذَا
خَطَأٌ، وَأَنَا أَحْكَمُ عَلَى نَفْسِي فِي هَذَا
دَرَاهِمًا، فَأَتَى عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنَّكُمْ يَا
أَهْلَ حِمصٍ أَكْثَرُ شَيْءٍ دَرَاهِمًا، تَمْرَةٌ خَيْرٌ مِنْ
جَرَادَةٍ.

ومعنى ذلك أن الصيد محرمٌ على
المُحَرَّمِ بالحج، فإذا صاد المُحَرَّمُ جَرَادَةً
وجبت عليه الفدية، وهي تمرَّةٌ مقابل كل
جرادة صاها.

ومما هو مقرر في النحو العربي أنَّ
المبتدأ ينبغي أن يكون معرفة؛ لأن الحكم
عليه بالخبر يقوم على تصور المبتدأ، ولا
يجوز أن يكون المبتدأ نكرة إلا إذا كانت
هناك فائدة، والفائدة تكمن في أمور منها ما
يأتي:

١ - أن يتقدم الخبرُ على النكرة وهو ظرف

- أو جار ومجرور، مثل: في الدار رجلٌ،
وعندي كتابٌ.
- ٢ - أن يتقدم على النكرة استفهامٌ أو نفي،
مثل: هل طعامٌ عندكم، ما رجلٌ في
الدار.
- ٣ - أن تكون النكرة عامة، مثل: كُلُّ
يموتُ، ومنه هذا المثل القائل: (تمرّةٌ خيرٌ
من جرادةٍ)، فـ(تمرّةٌ) مبتدأ والتنوينُ فيه
تنوينٌ تنكير، و(خيرٌ) خبره، و(من
جرادةٍ) جار ومجرور متعلقان بـ
(خير)؛ لأنه اسم تفضيل.
- شرح ألفية بن مالك لابن عقيل:
٢١٧/١، مغني اللبيب لابن هشام: ٦١٢،
الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن
حجر العسقلاني: ٤٣/١.

الخاتمة في النتائج والتوصيات:

- من خلال هذه الدراسة في المثل
الأمثال العربية والأمثال القرآنية ظهرت
النتائج الآتية:
- ١ - المثل العربي لونٌ من ألوان النثر
العربي، ومنه المثل القرآني.
- ٢ - المثل العربي مرٌّ بمراحل زمنية متتالية.
- ٣ - من الأمثال العربية ما تصلح لقيام
قاعدة لغوية عليها.
- ٤ - من الأمثال العربية ما تصلح
للاستشهاد بها على حكم لغوي مقرر.

- ٥ - استشهد النحاة بعدد من الأمثال
العربية في كتبهم النحوية.
- وبناء على هذه النتائج نقدم التوصيات
الآتية:
- ١ - إدخال (الأمثال العربية) مادةً دراسيةً
في إحدى المراحل الدراسية الجامعية.
- ٢ - تقديم بحوث متخصصة معنية بالمثل
العربي وتحليلها نحويًا وبلاغيًا وأدبيًا.
- ٣ - دراسة الكتب المعنية بالأمثال العربية
وتحليلها.
- ٤ - دراسة الأمثال القرآنية دراسة لغوية
ليبين الإعجاز القرآني.
- ٥ - تحليل الأمثال التي اتخذها النحاة شواهد
في كتبهم النحوية.

الهوامش:

- (١) طبقات فحول الشعراء: ٩/١
- (٢) الاقتراح للسيوطي: ٥٦. ارتقاء السيادة في
أصول النحو للشاوي: ٧٩-٨٠.
- (٣) لسان العرب لابن منظور: مادة (مثل).
- (٤) جهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: رقم
(١١٠١): ٤٧٣/٢.
- (٥) لسان العرب لابن منظور: مادة (مثل)
- (٦) الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي: ٣٠/١، ط
الخلي.
- (٧) جهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ٣٠٩/١.
- مجمع الأمثال للميداني: ٣٨٦/١.



- (٨) شرح الكافية الشافية لابن مالك: ١١٢٤/٢.
- (٩) لسان العرب لابن منظور: مادة (سور).
- (١٠) لسان العرب لابن منظور: مادة (لطم).
- (١١) مجمع الأمثال للميداني: ١٣٤/٣.
- (١٢) جوهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١٦٠/٢. مجمع الأمثال للميداني: ٨١/٣.
- (١٣) صحيح البخاري: كتاب الطب: باب الطاعون. صحيح مسلم: كتاب السلام: باب الطاعون. مغني اللبيب لابن هشام: ٣٥٣.
- (١٤) جوهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١/١٨٣. مجمع الأمثال للميداني: ١٥٩/١.
- (١٥) مغني اللبيب لابن هشام: ٨١٦.
- (١٦) كتاب الأمثال للأصمعي: ٧٤. جوهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ٢١٥/١. مجمع الأمثال للميداني: ٢٢٧/١. مغني اللبيب لابن هشام: ٣٦٤، ٥٥٩، ٧٧٢، ٨٣٩. شرح شذور الذهب لابن هشام: ٥٤٣/٢.
- (١٧) جوهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١٩٨، ١٧٤/٢. مجمع الأمثال للميداني: ٢٦٩/١، ٣٤١/٣. مغني اللبيب لابن هشام: ٥١٢، ٢٨٦.
- (١٨) مغني اللبيب لابن هشام: ١١٨، ٤٤٠. ديوان الخنساء: ٤٧. مجمع الأمثال للميداني: ٣٢٣/٣. جوهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ٢٢٩/٢.
- (١٩) جوهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ٢١٢/٢. مجمع الأمثال للميداني: ٣١٠/٣.
- مغني اللبيب لابن هشام: ٧٩٧.
- (٢٠) مجمع الأمثال للميداني: ١/١٧٥، مغني اللبيب لابن هشام: ٥٨٢.
- (٢١) جمع الأمثال للميداني: ١/٤٦٢، مغني اللبيب لابن هشام: ٨٣٩.
- (٢٢) مغني اللبيب لابن هشام: ١٢٦.
- (٢٣) الأمثال لأبي هلال العسكري: ٢/٢٦٤، شرح الكافية الشافية لابن مالك: ١٦٩٩، شرح شذور الذهب لمحمد بن عبد المنعم الجوجري: ١/٢٣٨، لسان العرب لابن منظور: مادة (حيص) (بيص).
- (٢٤) شرح الكافية الشافية لابن مالك: ٧٣١.
- (٢٥) شرح ألفية بن مالك لابن عقيل: ١/٢١٧، مغني اللبيب لابن هشام: ٦١٢، الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر العسقلاني: ١/٤٣.



The World Islamic Sciences and
Education University (W.I.S.E)

Al-Mishkat

For Humanities & Social Studies

An International Research and Refereed Journal

Volume (7), Number (2), Muharam 1442, August 2020

The views and ideas expressed in the articles published in this journal are of their own authors and do not reflect the views of the editorial board or the World Islamic science and Education University or the policies of the Ministry of Higher Education and Scientific Research.

ISSN 2311-0538



All Correspondence Concerning this Journal should be addressed to:

Editor in Chief
Deanship of Academic Research
The World Islamic Sciences and Education University (W.I.S.E)
Amman- Jordan
P.O. Box: (1101), Post Code (11947)

Tel: 00962 6 5600230, Ext. 2012, Fax: 00962 6 5600237

Email: al_mishkat.journal@wise.edu.jo

Website: www.wise.edu.jo

Al- Mishkat

For Humanities & Social Studies

An International Research and Refereed Journal

Volume (7), Number (2), Muharam 1442, August 2020

Editor in Chief

Prof. khalouq Agha

Editorial Staff

Professor Abdul Malik Al-Sa'di	The World Islamic Science & Education University
Professor Mohammad Kh. Bani Salameh	The World Islamic Science & Education University
Professor Ghassan Salem Al-Taleb	The World Islamic Science & Education University
Professor Emad Yousef Al-Shaikh	The World Islamic Science & Education University
Professor Shaker Al-Khashali	The World Islamic Science & Education University
Professor Ahmad Hasan Al-Ayasrah	The World Islamic Science & Education University
Professor Mahmoud Mubarak Obeidat	The World Islamic Science & Education University
Professor Ali Khaled Qtaishat	The World Islamic Science & Education University
Professor Haroun Nouh Ma'abdeh	The World Islamic Science & Education University
Professor Mubarak Al-Tarawneh	The World Islamic Science & Education University
Professor Abdul Malik Al-Sa'di	The World Islamic Science & Education University

Advisory Editorial Board

Prof. Sameer al-Droubi	Mu'tah University
Prof. Mohmmmed Alsaudi	Jordan Academy of Arabic
Prof. Naser Al noaime	The World Islamic Science & Education University
Prof. Ali Alhamd	Yarmouk University
Prof. Yahya Ateyah Ababneh	Mu'tah University
Prof. Mohmmmed ALqudah	The University OF jordan
Prof. Mohmmmed Amayreh	Mu'tah University
Prof. Abd ALhakeem Jihazi	Yarmouk University
Prof. Ahmed ALkilany	The World Islamic Science & Education University
Prof. Abd Alraheem Aboswailem	The World Islamic Science & Education University
Prof. Ibraheem AL Zouabi	Al al-Bayt University
Prof. Saleh ALshorofat	Al al-Bayt University

English Language Editor
Dr. Ghalib Farihat



Arabic Language Editor
Prof. Nasser Al Naimi

